
ألكسي فاسيليف
الملك فيصل
شخصيته وعصره وإيمانه
دار الساقي

ألكسي فاسيليف

المَلِكُ فيصَل

شخصيّته وعَصره وإيمَانه

ترجمة
خيري الضامن



هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

© ألكسي فاسيليف، 2012، 2013

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، 2012

الطبعة الورقية الثانية، 2013

الطبعة الإلكترونية، 2013

ISBN-978-614-425-584-1

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: 5342/113.

الرمز البريدي: 6114 - 2033

هاتف: 866442 1 961، فاكس: 866443 1 961

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على

DarAlSaqi@



دار الساقي



Dar Al Saqi



إهداء

لذكرى صديقي الكاتب والمستشرق الراحل

إيغور تيموفييف

تقديم

ضوء بلا ظلال. الضوء الساطع يغمر كل الأنحاء. أينما يمّمت وجهك تواجهك شمس نحاسية ملتهبة تحرق الأرض وما فيها، رغم أن الصيف القائظ لا يزال على الأبواب. السماء الزرقاء، أو المائلة إلى الزرقة عادة، بدت كالحة، بهت لونها بفعل الحر الشديد، وتحولت إلى مرآة تعكس وهج الصحراء الأقرب إلى لون الرماد. أشعة الشمس تفقأ العيون كأدوات التعذيب. إلا أن العتمة تخيّم على حجرة من البيت الكبير لأحد أبرز علماء الرياض، هو الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف. وفي تلك الحجرة تصارع ابنته آلام المخاض... حتى جاء المولود الجديد ذكراً، أفرح الجميع. ما كان بوسع الناس في ذلك الزمان أن يعرفوا جنس الجنين قبل ولادته، كما هي الحال اليوم. ولم يكن هناك أطباء ولا ولّادات حتى في أشهر العوائل وأكثرها ثراءً. جدة الوليد غسلته بالماء الصافي الدافئ، بمنتهى الحرص والعناية. آنذاك لم تكن في الرياض كهرباء ولا برادات ولا مكيّفات، لكن الماء الصافي كان متوافراً في الآبار على أي حال.

والد الرضيع هو أمير نجد عبد العزيز الذي يسمّونه في نجد أساساً، وفي الغرب وروسيا، باسم العائلة المجرد: "ابن سعود". أهدى عبد العزيز يومها عباءة معتبرة للرجل الذي بشّره بميلاد ابنه. وكان ذلك في أبريل 1906 المصادف لشهر صفر 1324 هجرية.

المصنّفات لا تذكر تاريخ الميلاد المضبوط حتى في عوائل الوجهاء. والعادة أن يربط المدوّنون تواريخ الميلاد بأحداث مشهودة. ففي شهر صفر بالذات انتصر أمير نجد عبد العزيز على غريمه حاكم جبل شمر عبد العزيز بن متعب بن رشيد الذي لقي مصرعه في معركة روضة مهنا. عاد أمير نجد إلى العاصمة. وفي مناسبة العقيقة التي أقيمت في بيت الشيخ عبد الله بعد سبعة أيام من ميلاد الرضيع، سمّاه أبوه فيصل، تيمّناً باسم جدّه الأكبر.

ذات يوم، بعد حوالى 70عاماً، حين بات فيصل "أقوى حاكم عربي على مدار قرون" وتوّج ملكاً على بلاد اكتشف فيها ربع احتياطي نفط العالم، بلاد تحتضن الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، كان العاهل السعودي في استقبال وفد كويتي أمام كاميرات التلفزيون في مكتبه بالديوان الملكي. فتقدم منه فجأة ابن أخيه فيصل بن مساعد، فانحنى عليه الملك فيصل ليقبّله، إلا أن ذاك شهر مسدسه وأطلق على عمه ثلاث رصاصات أردته قتيلاً.

فما أكثر الأحداث التي جرت خلال تلك العقود السبعة... والده عبد العزيز بالسيف والجرأة وقوة العزيمة والإيمان، أسس دولة شملت معظم أراضي الجزيرة العربية. حربان عالميتان اندلعتا وأغرقتا المعمورة بالدماء... اندثرت إمبراطوريات كثيرة: الألمانية والنمساوية-المجرية والعثمانية والبريطانية والفرنسية... وسقطت الإمبراطورية الروسية وحلّ

محلها الاتحاد السوفياتي الشيوعي الذي بدا في عهد فيصل عملاقاً مارداً لا يقهر، يضاهي من حيث القدرات العسكرية الولايات المتحدة الأميركية التي هي أقوى دولة متطورة اقتصادياً في العالم... وظهرت إلى الوجود الطائرات والإذاعة والتلفزيون والسلاح النووي... وارتاد الإنسان الفضاء الكوني حتى حطّ على سطح القمر. من السذاجة بالطبع التفكير في تناول كل الأحداث المهمة التي أثّرت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في حياة فيصل ومصير بلاده.

إلا أن كاتب السطور رأى أن يتحدث عن شخصية فيصل الفذة ويعرض مسيرته وأعماله، انتصاراته وهزائمه، نجاحاته وإخفاقاته. أليست تلك مهمة فوق طاقة الكاتب المتواضعة؟ فهناك مئات المؤلفات وعشرات الآلاف من المقالات عن الملك فيصل1. ولا مفرّ، على ما يبدو، من تكرار بعض الوقائع الواردة فيها. ولكن ربما كانت نظرة الكاتب الروسي الذي كرّس السنوات الطوال من حياته لدراسة المملكة العربية السعودية والشرق الأوسط، وكذلك استعانته بالمعلومات من مصادرها الأولى ستساعد في إلقاء الضوء على جوانب غير معروفة من شخصية الملك فيصل ومكانته في التاريخ.

في شبابي اخترت تاريخ المملكة العربية السعودية موضوعاً لبحوثي العلمية، وذلك لأن ماركس وإنجلز ولينين لم يكتبوا شيئاً عن هذه البلاد. ولم تتخذ بشأنها قرارات، لا في مؤتمرات الحزب الشيوعي السوفياتي

ولا في جلسات المكتب السياسي للجنته المركزية. وعندما خضت في ذلك الموضوع وغيره، بدا كأن في الإمكان في العهد السوفياتي أيضاً طرح آراء غير مقيدة بالتوجهات الرسمية. ولكن فلنقل الحقيقة. كان كاتب السطور هو الآخر متأثراً في مؤلفاته بالموقف الماركسي من المجتمع والتاريخ، على الرغم من تجاهله بعض مسلّمات ذلك الموقف عندما تتعارض مع الوقائع.

أكثر ما كان يفتقر إليه الباحثون عندنا سابقاً هو الاهتمام بدور الشخصية الفذة، الفرد القوي الذي يستطيع تفكيك الحتمية التاريخية بقوة طبعه وعزيمته وفطنته وحسن طالعه وعمق إيمانه الديني. هذا ما يجعل سيرة فيصل تمثّل تحدياً للباحثين، والكتابة عنها أُمنية تراود الكثيرين منهم.

الإنسان يترك بصمات حياته في المدوّنات وفي ذكريات شهود العيان وفي الآثار المادية. أما السياسيون من وزن الملك فيصل، فقد تركوا كميات من الشهادات والإفادات والوثائق لا تكفي المجلدات لعرضها حتى بأكبر قدر من الاختصار. انتقاء الوقائع يعكس موقف الكاتب وجوانب قوته ونقاط ضعفه وسِعة اطلاعه أو جهله ومعتقداته، بل وأوهامه إن صح التعبير. ولذا فالقارئ حر في أن يشاطره آراءه أو يرفضها.

كتاب **الملك فيصل: شخصيته وعصره وإيمانه** يتحدث عن مكانة ودور الفرد، الإنسان، الزعيم في العملية التاريخية. ولذا يتطلب الأمر أحياناً عدم التقيد

بالأطر الزمنية لوقائع سيرة حياته. هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى، لا بد من تناول وقائع وأحداث تبدو كأنها خارج إطار تاريخ المملكة العربية السعودية، إلا أن فهم دوافع الملك فيصل ومنطقه وسلوكه متعذر من دونها.

سيرة الملك فيصل موضوع اهتمّ به صديقي إيغور تيموفييف المستعرب والمستشرق الرائع والكاتب الروسي الذي ترك لنا مؤلفات ودراسات عن ابن بطوطة والبيروني وغيرهما، وبات كتابه الأخير **كمال جنبلاط: الرجل والأسطورة** الذي صدر بالروسية والعربية والفرنسية ظاهرة فكرية مثيرة، حيث تصدّر قائمة أكثر المطبوعات مبيعاً في لبنان، وحمل للكاتب، بعد وفاته للأسف الشديد، وسام الأرز اللبناني مع شهرة فاقت الحدود. توفي إيغور تيموفييف في الثامنة والخمسين من العمر، في أوج نشاطه الفكري، عندما كان يعكف على تأليف سلسلة كتب السيرة العربية وصولاً إلى أبرز رجالات العالم العربي المحدثين.

لقد دفعني موضوع البحث نفسه، سيرة الملك فيصل، وواجب الصداقة مع المرحوم إيغور تيموفييف إلى مواصلة ما بدأه هذا الكاتب المعروف. فهو قد جمع مكتبة كبيرة من المؤلفات والوثائق في موضوع البحث، تفضّلت بها عليّ أرملته أولغا تيموفييفا. وكان قد هضم واستوعب المادة وهمّ بالشروع في تأليف الكتاب. وللأسف، فإن ما وقع بين يديّ ينحصر فقط في ملاحظاته القيمة على حواشي المراجع الروسية والعربية والانجليزية التي قرأها في الموضوع، اضافة

إلى خمس عشرة مقابلة حيّة أجراها شخصياً مع الذين عرفوا الملك فيصل وعملوا معه، وهي تغني الكتاب وتعمّقه كثيراً. أما المقابلات الإضافية التي أجريتها أنا، والمواد الأرشيفية التي تسنى لي أن أجمعها في المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة وبريطانيا، والكتب الجديدة التي صدرت خلال هذه الفترة، فقد وسّعت نوعاً ما قاعدة المعلومات التي جمعها إيغور تيموفيييف عن شخصية الملك فيصل وأعماله.

معاونو الملك فيصل يغادروننا، وتدهم الشيخوخة من بقي منهم على قيد الحياة. وقد ضعفت ذاكرتهم فصاروا أثناء الحوار ينسون شيئاً ويخطئون أحياناً في التفاصيل الصغيرة والكبيرة. إلا أن شهاداتهم تفوق التقدير، لأنهم ينقلون إحساسهم الشخصي بجوّ ذلك الزمان وعبقه. المقابلات معهم والاستشهاد بالوثائق العربية التي تعمّدنا عدم تنقيحها ساعدتنا في دخول عالم آخر، ومنظومة أخرى من القيم، وذهنية أخرى. وإذا استطاع القارئ في روسيا أو في الغرب أن يلمس، ولا أقول أن يتفهّم ويتقبّل، هذا العالم الآخر، هذا المجتمع الذي يختلف عن مجتمعنا الروسي والمجتمع الغربي، ويدرك استحالة نقل الكليشهات والمفاهيم الغربية وكذلك الروسية إلى تربة الجزيرة العربية الصحراوية المختلفة، ويعترف بحق سكانها المطلق في صيانة هويتهم، فإن مهمة الكتاب الصعبة تكون قد تحققت.

كنا أنا وإيغور تيموفييف من رأي واحد. إلا أن لكلّ منا أسلوبه وموقفه من الموضوع. وأتذكر أن إيغور أراد أن يتناول الشعر النبطي البدوي بصفته أحد المسارات في كتابة سيرة الملك فيصل؛ فالملك نفسه كان شاعراً ومتذوّقاً للشعر. إلا أن معرفتي باللغة العربية تكفيني لقراءة الجرائد وكتب التاريخ من دون أن ترقى إلى مستوى عربية تيموفييف الملمّ بالشعر النبطي. كان متخصصاً في اللغة العربية وآدابها. كان أديباً فناناً إلى جانب كونه باحثاً سياسياً. أما أنا، فلم أتجاوز مستوى المؤرخ والباحث السياسي.

من خصوصيّات هذا الكتاب قلة الهوامش المتعلقة بالمقابلات الشخصية والاستشهادات والمراجع والوثائق غير المعروفة. وهذا أمر لا يحتاج إليه جمهور القراء كثيراً، فيما يستطيع الاختصاصيون والمتعمّقون في الموضوع أن يعودوا إلى المراجع في آخر الكتاب أو أن يثقوا بالكاتب. فهو يتحمّل كامل المسؤولية عن تدقيق الوثائق والاستشهادات وعن الأحكام والاستنتاجات الواردة في الكتاب.

ولا يسع المؤلف إلا أن يعبّر عن شكره الجزيل لسموّ الأمير تركي الفيصل، والدكتورة الفاضلة دلال بنت مخلد الحربي من جامعة الرياض للبنات، على مراجعة الطبعة العربية وإغناء الكتاب بمعلومات إضافية قيّمة، كما يشكر المؤلف الإخوة والأخوات الذين ساعدوه في تيسير أمر تأليف الكتاب، في وقت ليس بطويل على أي حال. وفي مقدمهم الأستاذ سيرافيم تشوكانوف الذي

كان معاوناً علمياً للدكتور إيغور تيموفييف، ثم وافق على التعاون معي، حيث أعدّ قسماً كبيراً من ترجمة المصادر عن العربية والإنجليزية إلى اللغة الروسية، وعثر على وقائع مهمة ومطبوعات جديدة في بحر شبكة الإنترنت، وأعدّ الهوامش ودليل الأعلام والمواقع الجغرافية، وشارك في المكاتبات وغير ذلك من الجهود المضنية. وأشكر الأستاذ يفغيني روساكوف الذي راجع النص الروسي للكتاب بشعور كبير من المسؤولية، والأستاذ خيري الضامن الذي ترجمه إلى العربية، والسيدتين سفيتلانا بولونينا ولوبوف برونتوفا اللتين بذلتا جهداً كبيراً في قراءة خطّي غير الواضح، وفي تسجيل النص من إملائي.

وبالطبع ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور لولا المساعدة القيّمة من الأستاذ الدكتور يحيى محمود بن جنيد، الأمين العام لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، والمنتسبين إلى المركز في انتقاء الوثائق والصور الفوتوغرافية وفي تنظيم مقابلاتنا ولقاءاتنا في المملكة العربية السعودية.

ألكسي فاسيليف

ضاحية مامونتوفكا - موسكو

الفصل الأول

صبي نحيل يمتطي الحصان الجموح

فيصل هو الابن الثالث لأمير نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن. والدته طرفة ابنة كبير علماء الرياض الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، من أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي نشر في القرن الثامن عشر الميلادي الدعوة إلى التوحيد والإصلاح، مستعيناً بسيف الإمام محمد بن سعود مؤسّس العائلة السعودية المالكة وجدّ عبد العزيز الأكبر. فقد أسّس هو وأسلافه دولة بسطت نفوذها على شبه الجزيرة بأجمعها تقريباً وتحدّت الإمبراطورية العثمانية، لكنها سقطت تحت ضربات جيش محمد علي باشا المصري سنة 1818م. وقامت الدولة السعودية من جديد على جزء من أراضي الدولة السابقة بين أربعينيات القرن التاسع عشر وخمسينياته على يد الإمام تركي بن عبد الله، واستكمل الإمام فيصل، جد عبد العزيز، جهود والده. لكنها تفكّكت بسبب الخلافات بين أبنائه، واستغلت إمارة آل رشيد الوضع، فسادت مكان آل سعود. وبعد أن استولى عبد العزيز على الرياض سنة 1902، بدأ بإحياء الدولة السعودية واستعادة أمجاد أجداده. ولكنّ لهذا الحادث حديثاً آخر، ليس في هذا الفصل.

ذاع نبأ ميلاد الابن الثالث لأمير الرياض في وادي حنيفة الذي تقع عاصمة الإمارة على هضبته. كانت هناك مياه على عمق غير كبير نسبياً في قعر الوادي القديم الناشف المطوّق بالبوادي، فقامت في العارض سلسلة من الواحات على امتداد عشرات الكيلومترات. وكان في الإمكان نقل خبر الميلاد من طرف الوادي إلى طرفه الآخر بصيحات عالية بين الجيران. ولعل الفلاحين والبدو كانوا يتنادون صائحين:

- هل سمعت الخبر؟ ولد للأمير عبد العزيز ابن ثالث.
- ومن أمه؟
- طرفة بنت عبد الله آل الشيخ.
- وما اسمه؟
- فيصل.

ميلاد الصبي فرحة للجميع. فسارع أحد خدم بيت جدّه الشيخ عبد الله بنقل النبأ إلى الأمير عبد العزيز.

وفي اليوم السابع أقام الشيخ عبد الله وليمة لمناسبة ميلاد حفيده، وحضرها بالطبع صهره. وهناك سمّى الأب ابنه فيصل.

كتب منير العجلاني:

> كان شيوخ نجد المسنّون الذين أدركوا الإمام يقصّون على الفتى عبد العزيز، خلال مقامه في الكويت منفياً مع أبيه، أخبار جده فيصل ومغامراته وأساليبه في سياسة الرجال والدول، فأعجب به كثيراً بل افتتن به افتتاناً وأحب التشبّه به، وكان يعتزّ بانتسابه

إليه و"ينتخي" في الشدائد والمعارك بقوله:
أنا ابن فيصل!... وفي يوم حلو من أيام
الربيع كان يشيع فيه الأمل والبشر، قال عبد
العزيز وهو يتملّى ابنه الرضيع: سمّيته، على
بركة الله، باسم جدّه فيصل[1].

ذبحوا عقيقة الأسبوع الأول من حياة المولود مع خراف أخرى ليطعموا الضيوف ويوزّعوا اللحم على الفقراء، وبارك الشيخ عبد الله الرضيع، ثم أقام الجميع الصلاة، وحمل الخادم المولود إلى وجهاء البلد وعلية القوم ليلقوا عليه نظرة ويباركوه[2].

كانت عائلة آل سعود وعائلة آل الشيخ في مصاهرة قديمة. والدة الملك عبد العزيز هي سارة بنت أحمد السديري. إلا أن سعد شقيق عبد العزيز كان متزوجاً من أخت زوجته طرفة بنت الشيخ عبد الله آل الشيخ، وكان عنده منها أولاد. ثم إن شقيق عبد العزيز الآخر محمد متزوج أيضاً من إحدى بنات الشيخ عبد الله.

كان لجدّ فيصل، عبد الرحمن، أحد عشر ولداً من عدة زوجات، ظلوا على قيد الحياة متجاوزين ظاهرة وفيات الأطفال المنتشرة آنذاك؛ اثنان منهم، عبد العزيز وأخوه محمد، ولدتهما أمّان في الساعة نفسها من اليوم نفسه، كما يدّعي الباحث الإنجليزي دوغوري. إلا أن المصادر السعودية الرسمية لا تؤكد هذه الرواية، مشيرة إلى أن محمد أصغر من أخيه عبد العزيز بعض الشيء. أما الوليد فيصل، فسيكون له 33 أخاً أصغر منه يبقون على

قيد الحياة. وفي يوم ميلاده كان له أخَوَان غير شقيقين أكبر منه سنّاً، هما تركي وسعود.

لم تكن طرفة قوية البدن، إلا أن ابنتها البكر نورة توفيت في حوالى الثالثة والثلاثين، على الرغم من أن وفيات الأطفال كانت ظاهرة معتادة حتى بين الوجهاء، إلى درجة جعلت المدوّنين في الجزيرة يهملون ذكر الأطفال الذين يموتون قبل الثالثة أو الرابعة من العمر، وخصوصاً إذا كانوا من الإناث.

توفيت والدة فيصل بعد خمسة أو ستة شهور من ميلاده، فتولّت إحدى المرضعات أمره، فيما سهرت جدته عليه.

يقول الأمير تركي، نجل الملك فيصل: الصغير فيصل، بعد وفاة المرحومة والدته، ربّته هيا المقبل، جدته لأمه. وكانوا يسمّونها المقبلية، لأنها من آل مقبل. وهم عائلة معروفة ومحترمة من بلدة قريبة من الرياض...[3].

هناك رواية تقول إن المقبلية، بعد وفاة ابنتها، مضت إلى وادي حنيفة وابتهلت بحرارة إلى العلي القدير بالدعاء أن يهب اليتيم مستقبلاً كريماً. وممّا له دلالته أن فيصل الشاب قوبل بالتكريم في هذا المكان نفسه عندما عاد مظفراً من حملته العسكرية على عسير.

ترعرع الصبي في بيت جده لأمه. فللشيخ عبد اللطيف دار فسيحة تسمّى دخنة وتقع في حي يحمل الاسم نفسه. لم يبقَ في حي دخنة الآن من ذلك الزمان سوى المسجد الذي كان يؤمّه الشيخ عبد اللطيف. وحلت جدة فيصل المقبلية محل أمه، فظل متعلقاً بها

طوال حياته. وبعد وفاة جده أخذها معه إلى الحجاز عندما بات نائباً للملك هناك، وظل يرعاها حتى وفاتها.

أهم ما اغترفه فيصل في دار جده إيمانه العميق والصوم والصلاة وحسن السلوك وضبط النفس وعدم الانسياق وراء العواطف. فقد كانت كل تلك الخصال في طبيعة الحياة اليومية للشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، ولذا ترسّخت في نفس الصبي منذ نعومة أظفاره.

بدأ تعليمه واطلاعه على أصول الدين جدياً من سن السادسة، عندما دخل الكتّاب في التكية الجنوبية لمسجد جده. تحيط بالمبنى من الجهتين شرفتان يسمّونهما المصباح، لكون النور والنسيم يدخلان المبنى من خلالهما. وكان معلم الكتّاب هو الشيخ محمد بن مرحوم الملقب بـ"المصيبح"، نسبة إلى موقع الكتّاب الذي ينعتونه ب"كتّاب مصيبح".

الأطفال السعوديون الذين يبدأون تعليمهم اليوم على الحاسوب منذ السادسة من العمر، لا يتصورون بالطبع كيف كان يجري آنذاك تعليم أبناء الوجهاء من أسلافهم القدامى.

في بادئ الأمر لم تكن عند التلاميذ دفاتر أو سبّورات. المعلم كان يرسم الحروف بإصبعه على الرمل وفقاً لمدرسة الخط البغدادية المعتمدة في العالم الإسلامي منذ العصور الإسلامية الأولى. وكان الأطفال يكرّرون الدرس ويرسمون الحروف بأصابعهم على الرمل. وهنا أنبّه القراء غير المطلعين على الأبجدية العربية إلى أن معظم حروفها تكتب بأشكال مختلفة في

بداية الكلمة ووسطها وآخرها. وهذا يجعل التدريس صعباً بالطبع. وإلى ذلك، النصوص العربية تتطلب قراءة ما يسمى الحركات المضمرة، أي الأحرف الصوتية القصيرة التي لا تكتب في كلمات معظم النصوص.

كانوا يعلمون التلاميذ التهجّي ونظم الحروف في كلمات ووضع الحركات.

وبعد ذلك ظهرت سبورات خشب التين يكتب عليها المعلم بريشة مبرية من القصب بحبر هو عبارة عن صمغ الأشجار ممزوج بالسخام.

حفظ القرآن هو أساس التعليم. في البداية يحفظ الأطفال عن ظهر قلب سورة الفاتحة، وبعدها تأتي سور قصيرة أخرى من جزءي عمّ وتبارك. وكانت تدرس أصول الدين ومعلومات عن الخالق وعن الرسول والفرائض: كيفية إقامة الصلاة ومواقيتها، وما هي الزكاة وما هو حج البيت الحرام، وما إلى ذلك.

كان فيصل يدرس بجد واجتهاد. وهو يتمتع بذاكرة جيدة. فأخذ يجوّد القرآن قبل أن يتعلم القراءة.

عندما ختم فيصل القرآن أقاموا حفلاً حضره كل أهالي المدينة.

وقبل ذلك بيوم واحد نطق المعلّم بالخاتمة وردّ التلاميذ قائلين "آمين".

في اليوم التالي أغلق كتّاب مصيبح ودعيت الكتاتيب المجاورة إلى حضور الاحتفال.

أولاد عبد العزيز والصبية الآخرون من عوائل الوجهاء كانوا يتعلمون في شتى الكتاتيب. ولم تكن

هناك مدرسة أو كتّاب خصوصي لأبناء الأمراء، ولم يكن أحد ينقلهم بالسيارات. فكان اختيار موقع الكتّاب يأتي من قربه من مكان المسكن.

بعد أن ختم فيصل القرآن أجلسوه على ظهر الحصان ورافقه باقي أولاد العائلة المالكة وعامة الناس، وكان كثيرون منهم يحملون السيوف. والجميع في ثياب العيد، يرتلون الأناشيد. وتحرك الموكب. أبواب المنازل مشرّعة على مصاريعها والأهالي يرحّبون بالصبي في كل مكان. مرّ الموكب بالأسواق ووصل إلى قصر الأمير. فقبّل الأب وليده وأعطاه بعض المال وقال: يا ولدي ادعُ لي. فإن دعاء من يختم القرآن مستجاب. فرفع الصبي يديه إلى السماء داعياً الله بطول العمر لوالده وبالصحة والنجاح. وسلّم المال إلى معلمه في ما بعد. أنهى الكتّاب مع فيصل صبيان أو ثلاثة تلقوا هدايا مناسبة أيضاً.

بعد ذلك توجه موكب فيصل إلى شقيقة الأمير عبد العزيز نورة زوجة الأمير سعود بن عبد العزيز، حفيد الإمام سعود بن فيصل بن تركي، والملقب ب"سعود الكبير"، أحد أكبر شيوخ العائلة. وتناول الأطفال الطعام والحلوى عندها.

قبل أن يختم فيصل القرآن بسنوات، أقيم له حفل الختان الذي لا يقل عن ذلك أهمية في حياة الصبية المسلمين. في تلك الفترة كان ختان أولاد الرياض يجري ما بين الثالثة والسابعة من العمر، ويفضّل أن يتم

في السادسة أو السابعة. في الحال الحاضر يفضّل إجراء هذه العملية للصبي في سن الرضاعة.

يقول تركي الفيصل إن ختان الصبي تمّ في السابعة من العمر تقريباً، وقد دُعي لحضور الاحتفال كثير من الأطفال[4].

أجرى الختان حلاق اسمه محمود الموصلي الذي كان يخدم في الجيش العثماني، ثم انتقل إلى الرياض واستقرّ فيها. كان محمود هذا يمارس الطبابة الشعبية والختان والفصاد وقلع الأسنان، من دون تخدير طبعاً، وحلق رؤوس الرجال.

في يوم الختان غالباً ما تقام العرضة، أي رقصة السيف. تقرع الطبول ويطلق الرصاص في الهواء وتلمع السيوف. ويشارك الأمير نفسه في العرضة. وهي رقصة حماسية جداً. أما الختان فيعتبر دليلاً على الرجولة وانتماء الصبي إلى الجنس القوي من البشرية.

لم تكن عملية بتر غشاء الحشفة مؤلمة جداً. ولكن لا بد من صرف نظر الطفل عنها. فكانوا يقولون له مثلاً: انظر إلى ذلك العصفور. ثم إن العرضة والسيوف تهدف أيضاً إلى صرف أنظار الصبي عن الألم. كانوا يرشّون الجرح بالرماد لوقف النزف. وبعد سبعة أو ثمانية أيام يأخذ الجرح في الالتئام. ولم تكن تلك الحقبة تعرف المعقمات. فأحياناً تؤدي العملية إلى التهابات، وحتى إلى الوفاة. إلا أن كل شيء مرّ بسلام والحمد لله.

الختان يجري في الصباح قبل أن يشتد الحر. والعادة أن يكون في فصل الربيع، حيث يجمع الأمراء أحياناً

عدة أطفال في سن متقاربة، وبينهم أولاد الخدم، ويجري ختانهم جميعاً في اليوم نفسه.

... بختم القرآن انتهت دراسة فيصل في الكتّاب. إلا أنه في بيت جده كان يحضر المجالس الكثيرة، ويصغي إلى المناقشات الفقهية، ويستوعب أركان الدين وأصول الشريعة في التعابير والمفردات التي استخدمها في حينه الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب. وترسخ في ذهن الصبي أن التوحيد يعني الإيمان بأن الله وحده فاطر السموات والأرض. وهو سيد الكون يملي عليه قوانينه كما يشاء. وليس هناك بين خلق الله من هو قادر على الخلق مثله. والله وحده يهب الناس الخير ويبعد عنهم الشر. ولا شيء في الطبيعة وفي الوجود يستحق التمجيد والتعظيم والعبادة سوى الله الموجود.

إلا أن الكثيرين في العالم الإسلامي ابتعدوا عن مبادئ التوحيد الغنية عن البيان. فالناس أخذوا يضفون صفات الخالق على خلقه، وباتوا، على سبيل المثال، يترددون على أضرحة الأولياء يقدمون لهم الأضاحي والنذور راجينهم العون، واثقين بأن الأولياء قادرون على تحقيق أماني من يبتهل إليهم فيتشفّعون له. وبلغ الأمر بالبعض أن أطلقوا صفات الله على الشجر والحجر، وهو أمر يتعارض بالكامل مع التوحيد الحق.

وما دام لا يجوز الشرك بالله أو إضفاء صفاته على مخلوقاته، فإن الأضاحي يجب أن تقدم للخالق وحده. ويجب الدعاء إلى الله وحده. ولا يجوز طلب الشفاعة من أحد دون الله. فالملائكة والرسل والأنبياء والأولياء

والصالحون لا يمكن أن يشفعوا للمسلمين أمام الله للتكفير عن ذنوبهم. ولا يجوز النذر إلا لله. ولا يجوز التفريط في تبجيل الأولياء والصحابة وتشييد الأضرحة، وحتى المبالغة في رعاية قبورهم وتحويلها إلى أماكن عبادة. ومع الاعتراف برسالة النبي (ص) العظيمة، لا ينبغي أن ننسى أنه بشر من أبناء آدم اصطفاه الله ليحمل رسالته إلى الناس. ولا تجوز عبادة النبي محمد (ص) ولا الطلب منه أو الدعاء إليه. لا يجوز طلب الشفاعة منه. يمكن زيارة قبر النبي ولكن من دون دعاء أو طلب أو ابتهال منه وله. ولكن يجوز الدعاء له والصلاة عليه وطلب شفاعته عند الله.

كان فيصل يجد في أقوال جده أجوبة عن الأسئلة التي تخطر بباله عن حكم البلاد والتقيّد بأحكام الدين وعن الكيفية التي يحكم بها أبوه. كان جده يقول: العامة ينبغي أن تطيع الخاصة. وعذاب الجحيم لمن يتمرد على الأمراء. إلا أن الأمراء يجب أن يحكموا بالعدل ويسهروا على الرعية ويعتنوا بالخدم والعبيد والأجراء. ولا ننسَ أن دخول الجنة أسهل على الفقير من الغني.

تلك المسلّمات اتخذت الصيغة الشهيرة: "كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته". الإمام يسهر على الرعية، والرجال يعتنون بعوائلهم وماشيتهم، والنساء يدبرن شؤون المنزل ويقضين حاجات الزوج وأولاده وماشيته. والصبي يجب أن يحرص على مال الأب وماشيته، والخادم يحرس مال سيده وقطيعه[5].

واعتماداً على تعاليم الدين الإسلامي وأخلاقياته التي دعا إليها جده الشيخ محمد بن عبد الوهاب، علّم الشيخ عبد الله حفيده فيصل الطيبة والحيطة والوفاء بالوعد والتحمّل والصبر وتحاشي الكذب والغيبة والثرثرة والبخل والحسد.

أكد المؤرخ السعودي عبد الحميد الخطيب في مؤلفه **الإمام العادل** أن الأمير فيصل ترعرع في جو من الورع والتقوى، وأخذ عن جده الذي تربّى على يديه التواضع ورهافة الحس والنفور من الفخفخة ومن حب العظمة والتعالي والغرور، ولم يكن يطيق الإهانة ولا ضعف العزيمة[6]. كتب منير العجلاني:

> سألت جلالته يوماً عن الكتب التي كان يحب مطالعتها في أول الشباب فقال: بعد القرآن والحديث، كتب التاريخ والأدب[7].

نحن لا نحاول تزويق أو تسويد الوضع الذي ترعرع فيه فيصل. فالدين وآداب السلوك ومبادئ الأخلاق القائمة في نجد آنذاك من صلب المجتمع الذي عاش في أبعاد تاريخية تختلف ليس فقط عن أوروبا وأميركا، بل حتى عن جيرانه العرب في مصر والشام مثلاً. التوقيت في الرياض والقاهرة ولندن وموسكو متباين تأريخياً، والساعة تشير إلى أزمان تاريخية متباينة. وسنعود إلى هذه الفكرة مراراً ونحن نرافق مسيرة حياة الملك فيصل.

ذات مرة دعا عبد العزيز ابنه فيصل وأومأ إلى صبي أسود البشرة فنطيس بأنف عريض وعينين ذكيتين،

اسمه مرزوق، وقال سيكون هذا أخاً لك. هذه هي التسمية التي تطلق على العبيد الذين يتربّون ويترعرعون ويلعبون مع سيدهم ويكبرون فيغدون حراساً شخصيين له. في تلك الحقبة كان الكثيرون من الزنوج عندما يتوجهون إلى الحج يأخذون معهم أطفالهم ويبيعونهم في سوق الرقيق أو النخاسة ليوفروا تكاليف العودة. وكان في الكثير من العوائل الغنية في الحجاز ونجد عبيد ورقيق من الإناث والذكور. ولكن فيصل أعتق مرزوق بن ريحان وتعامل معه كأخ. على هذا النحو ارتبط فيصل إلى الأبد مع مرزوق بن ريحان. وهو الذي سيثير في ما بعد دهشة نزلاء فندق "ولدورف آستوريا" الراقي في نيويورك، حينما يرون فيصل يتناول طعام الغداء على مائدة واحدة مع خادمه الزنجي.

كان الأطفال في ذلك الزمان يتمتعون بحرية واسعة. حتى السادسة أو السابعة كان يسمح لهم باللعب حفاة حاسري الرؤوس من دون أي قيود. الصبيان في ثياب لا غير، والصبايا سافرات الوجوه إلى سن معينة. شعور الصبية طويلة تضفر من الخلف. وعندما يكبرون قليلاً يطلقون الحصى من الرجام ويصطادون الطيور ويقلدون الكبار في الصيد بالصقور، مستخدمين الشواهين المدربة على قنص الحبارى. ويتسلقون النخيل من دون خوف أو وجل، طالعين على جذوعها بأحزمة الصعود (القَروَد)، متشبثين بأقدامهم العارية على أصول السعف المقطوع.

بدنياً، كان فيصل أضعف من أترابه نسبياً، لكنه يتميز بالفطنة والبسالة. والصبية يجيدون العوم ويسبحون في الآبار العميقة، فيما يقفز فيصل إلى البئر حابساً أنفاسه من ارتفاع بضعة أمتار ويظل يطبطب في الماء حتى يُلقوا إليه بحبل يمسكه فيرفعونه إلى أعلى البئر.

كان من أقرب أتراب فيصل في اللعب أخوه فهد الذي توفي في وباء الإنفلونزة الإسبانية بعد الحرب العالمية الأولى، وعمه عبد الله بن عبد الرحمن الذي هو في سنّه تقريباً، والذي بات من أعز أنصاره مدى العمر. وكان فيصل يلعب أيضاً مع إخوته الأصغر سناً الذين يقيمون مع أمهاتهم في منازل مستقلة وليس في قصر الوالد. الابن الثاني لعبد العزيز، سعود، الذي ولد سنة 1902م هو الوحيد الذي عاش في القصر مع والدته المقيمة فيه دائماً، إلا أنهم زوّجوا سعود باكراً فانتقل مع الخدم إلى منزل مستقل.

أمضى فيصل منذ نعومة أظفاره أوقاتاً طويلة مع جده لأبيه الإمام عبد الرحمن، وكان متعلقاً به كثيراً. وقد احتفظ بحبه لجده سنوات طويلة إلى أن توفّاه الله. كان يرى كيف يعامل عبد العزيز، الذي يتمتع باحترام الجميع بل وحتى خوفهم منه، والده بكل احترام وتقدير. كان يقف دوماً بحضوره ولا يجلس إلا في موضع أوطأ منه، وينصت إلى نصائحه دوماً. وكان الإمام عبد الرحمن يحب حفيده حبّاً جماً، وذلك لأنه يتيم برأس كبير وبدن نحيل.

وما كان أشد فرحة الصبيان عندما يتوجهون مع والدهم في الحالات النادرة إلى بساتين النخيل في ضواحي الرياض. في الصباح الباكر يمضي موكب الخيّالة إلى بستان البديعة الرائع العائد للإمام عبد الرحمن أو إلى بساتين النخيل والحدائق العائدة لعائلة الأمير أو إلى ضياع أقربائه وأصدقائه. وفي أوقات مختلفة صيفاً ينضج الخوخ والأعناب والتين والرمان. وتتوافر الفرصة لتجاذب أطراف الحديث في أثناء تناول تلك الفواكه على مهل أو الانسياق إلى اللعب والتسلية. خرير الغدير يتهادى، والهدوء في كل مكان. الرجال يتربعون على البسط تحت سقائف من السعف أو في ظل شجرة العنّاب أو الإجاص البري، ويتناولون الفاكهة ويحتسون القهوة ويتجاذبون أطراف الحديث ويصلّون. أما الأطفال فيتراكضون ويتصايحون في البستان ويمارسون لعبهم المعتاد. وفي بعض الأحيان يناديهم الوالد ويرش عليهم من ماء الغدير براحتيه العريضتين فيتفرقون في صخب وضجيج.

بين النخيل كانوا يصطادون بالبنادق أو ينصبون الشراك للطيور. فهناك الحمام والفواخت والسمّان وغيرها. وكان الصبية أيضاً ينصبون المصائد للطيور، ثم يتباهون أمام الكبار بما يصطادون.

وأحياناً يتوجه الوالد مع العائلة إلى الصيد في الصحراء. هناك ينصبون الخيام جنب خمائل الأثل. الكبار يتصيّدون الغزلان والظباء أو يستخدمون الصقور

في صيد الحبارى، فيما يصطاد الأولاد الأرانب وصغار الطير.

في البستان، يأخذ عبد العزيز قسطاً من الراحة أثناء القيلولة. وبعد الغداء يعود الموكب إلى الرياض، فيما يتجمهر الأهالي عند البوابة ليلقوا نظرة على الأمير وحاشيته.

كان فيصل الصغير يرافق والده في البداية جالساً على ظهر الحصان أمام عبده، وفيما بعد بات يمتطي الحصان وحده. كان معجباً بأبيه العملاق القوي على صهوة الفرس الرائعة التي كانت في ما مضى لقائد عسكري من شمر أسره أحد جنود نجد وأهدى فرسه للأمير.

وفي سن مبكرة جداً أخذ الصبي يتقن ركوب الخيل حتى صار فارساً لا يشقّ له غبار.

قال عبد العزيز للرحالة المعروف والكاتب العربي من أدباء المهجر أمين الريحاني: نحن نتربى على التحمّل، وينبغي لنا أن نتحمّل كل الصعاب. هذه هي طبيعة أرضنا ونمط حياتنا ومصيرنا. ويجب أن نكون مستعدين دوماً لكل شيء. أنا أعلّم أولادي أن يمشوا حفاة ويستيقظوا قبل الفجر بساعتين ويأكلوا القليل ويركبوا الجياد من دون سرج. فقد لا يبقى لنا وقت لشد السروج. ويجب ركوبها والانطلاق رأساً. تلك هي نجد، تلك هي روح نجد، وتلك هي ظروف الحياة في نجد، وخصوصاً في جنوبها. نحن مثل بدونا. أهالي القصيم تجار ليسوا أقوياء وشجعاناً مثل أهل العارض

أو بدو الخرج. وفي الجنوب يعيش أشد البدو وأشرسهم، بنو مرة والدواسر[8].

كان فيصل، شأن باقي أبناء الأمير، يمشي حافي القدمين، ينهض قبل ساعتين من شروق الشمس ويتناول البسيط من الطعام ويمتطي الحصان من دون سرج.

ولعل فرس تركي، الابن البكر لعبد العزيز والأخ غير الشقيق لفيصل، أفضل فرس تعجب الجميع، فضلاً عن تركي نفسه الذي يعتز بها أيّما اعتزاز. وهو من أروع الفرسان.

ولد تركي سنة 1900م. كان في فتوّته متميزاً عن الآخرين بقامته الفارعة وقوة بدنه وجماله وبسالته اللامتناهية. وكان قد شارك في الحملات العسكرية في تلك السن المبكرة. عندما سمح تركي لأخيه بأن يمتطي ظهر الفرس من دون سرج ولا ركاب، انطلق بها فيصل خبباً، محتبس الأنفاس، في جولة حول الرياض على مرأى من الجميع.

يقول بندر الفيصل:

> كان الملك فيصل متعلقاً كثيراً بأخيه الكبير الأمير تركي الذي كان فذاً في الحقيقة. وكان يقول ليس بيننا أحد مثل تركي. أنا شخصياً لا أعرف تركي، ولكن الملك فيصل يتحدث بحرقة وألم عن شخصين هما الملك عبد العزيز وتركي[9].

لعل عبد العزيز، وهو ينظر إلى فيصل النحيل، كان يقارن عفوياً بينه وبين ابنيه الكبيرين تركي وسعود اللذين يشبهان أباهما كل الشبه، وكلاهما ببنية بدنية متينة. وهما ابنا زوجته وضحى بنت محمد بن حسين بن عريعر، من وجهاء قبيلة بني خالد.

آنذاك، في عام 1918م، كانت زوجة عبد العزيز المفضّلة هي الجوهرة بنت مساعد بن جلوي، المرأة الرائعة التي ولدت له ولدين هما محمد (1910م) وخالد (1912م).

...كان الصبية يجولون في شوارع المدينة وأسواقها.

في الرياض آنذاك بضعة آلاف من السكان يُضاف إليهم الوافدون من البدو وأصحاب القوافل. المدينة مطوّقة بسور مسنن حصين بنيّ اللون مائل إلى الاصفرار، كان عبد العزيز قد رمّمه وقوّاه في سنة 1902. المدينة تسمى الرياض، لكن الحدائق فيها قليلة جداً، خلافاً للآبار الحجرية العميقة المنتشرة أساساً في البطحة المتفرعة من وادي حنيفة بأراضيه الخصبة وبساتينه ونخيله.

الرياض نفسها تتوسط الصحراء الخالية. وليس حواليها سلاسل جبلية ولا كساء نباتي كثيف.

إليكم وصفاً لسوق الرياض تركه لنا المستشرق الإنجليزي سانت جون فيلبي (سنتحدث عنه خصوصاً في ما بعد):

السوق مكتظ ومزدحم بالباعة والمشترين.

هذا يبيع مبخرة بـ17 بيزة كآخر ثمن. وهذا

البدوي يقف جنب قطيع من الغنم، الناس يقتربون منها، يتفحصّونها، ثم يبتعدون. وعلى مقربة من هناك، جلست امرأتان تبيعان ثياباً في سلال... الكسالى والعاطلون يتسكعون في كل مكان. تقدمنا على امتداد جدار المسجد الكبير نحو البوابة الشمالية الغربية حيث كانت النسوة يغترفن الماء من آبار قرميدية ضيقة الأعناق، وهي كثيرة على الهضبة الصخرية التي تقوم عليها المدينة. وهناك تُروى الماشية. تقدمنا بصعوبة بين قطيع من الماعز كانت عائدة إلى البيت وفي آخرها راعيها الصغير على ظهر حمار[10].

المنازل في الرياض كانت من طبقة واحدة عادة. وبدلاً من النوافذ كوات مثلثة أو مستديرة للهواء. وفي الصيف القائظ ينام الناس على السطوح. مقرّ الأمير أو قصره الحصين هو المبنى الوحيد من ثلاث طبقات. المدينة مبنية من الحجر المحلي واللبن البني المائل إلى الاصفرار. والمساجد بنايات بسيطة بمنارات وطيئة. الأزقة الرملية الضيقة مليئة بالقاذورات والقمامة. براز المراحيض يتسرّب إلى خارج الجدران وهناك تجففه الشمس وتبدّده الريح. أثاث المنازل في الداخل من دون تزيينات، لكنهم كانوا يرسمون بالسكين على طلاء الجبس قبل أن يجف نقوشاً نباتية، كما يغطون عوارض السقوف برسوم هندسية حمراء وسوداء وزرقاء.

هواء الصحراء منعش، ما عدا أيام الصيف التي تهب فيها الريح الجنوبية أو تثور الزوابع الرملية. آنذاك يتعسر التنفس ويغطى النخيل وباقي النباتات بطبقة من الغبار الرمادي تبقى ملتصقة بها حتى أمطار الشتاء.

وكانت تحصل أحياناً سيول جارفة خطيرة بعد هطول أمطار غزيرة.

في منتصف الشتاء تحمل الريح الشمالية برداً شديداً تبلغ درجة الحرارة فيه أحياناً الصفر مئوية، وتتغطى الصخور والأعشاب في الليل بندى يتجمد. وليس في المنازل أي وسائل للتدفئة.

تلك هي أرض التقلبات القاسية الشديدة. ولا غرابة في أن نجد الدين هنا متعمّقاً في النفس أكثر ممّا في أي مكان آخر.

كل أراضي شبه جزيرة العرب، ما عدا جبال عسير واليمن وعمان، صحراء تمتد من الخليج العربي حتى البحر الأحمر. كان الحضر يقيمون بالقرب من مصادر المياه، وفي الواحات القليلة بين نجد والحجاز، وفي الحجاز نفسها. المسافات في تلك الحقبة شاسعة هائلة. والرسل على الجمال السريعة يوصلون الرسائل من الساحل حتى الرياض على مدار أسبوع كامل، في غياب البرق والهاتف والاتصال اللاسلكي في الجزيرة العربية. ولم تكن تلك المساحات الهائلة في بداية القرن العشرين، كما هي الحال في منتصف القرن الثامن عشر، قادرة على إطعام أكثر من مليوني أو ثلاثة ملايين نسمة في أكبر تقدير، ومعظمهم من البدو الرحل.

جولات البادية ولقاءات البدو والأحاديث حول الموقد في العراء، تحت قبة السماء السوداء المرصّعة بالنجوم الساطعة، ونجدة الصديق في وقت الضيق وجرعة الماء في قيظ الصحراء، كل ذلك بات من مقومات نفس فيصل وجزءاً من روحه ومن استيعابه لحقيقة الوطن.

صحارى الجزيرة متموّجة، تتكون من وديان صخرية وهضاب سوداء متفحمة. فجاج ضيقة ومعابر شديدة الانحدار، وكثبان تنتصب كأعمدة الدخان على ارتفاع عشرات الأمتار. السهول لافحة كأرض محروقة. والريح تتلاعب بالرمال في أعاصير صغيرة تتراقص ساخنة كالدوامات حول القوافل. في الهواء الحار المترجرج يلوح سراب النخيل على ضفاف الغدران. أليست تلك هي لعبة الجن؟ نعم، حتى الواحات المتباعدة، الناعسة في أحضان الرمال، تبدو كأنها سراب في سراب.

شبه الجزيرة العربية بلاد عظيمة من حيث المساحة، وعظيمة من حيث التاريخ. الواحات الخضراء تائهة ضائعة بين الصخور الملساء والرمال التي لا حدود لها ولا نهاية والفضاء الخالي اليباب. ما أشد لسع أشعة الشمس في الصحراء التي لا ظل فيها ولا ماء. كل شيء يبدو وهمياً، شفافاً، مهتزاً، مترجرجاً في غلالة السراب.

الحياة في الصحراء ظاهرة نادرة يصعب الحفاظ عليها أو حتى رؤية تجلياتها. وإذا صادفت مظهراً لها هناك فلا بد أن يبعث الفرحة والسلوى في نفسك... وفجأة ينبت عشب أخضر فاتح رقيق في موضع لم

يكن فيه شيء سوى الرمال والصخور، أو تنبجس غصون الطلح الشفافة. وبعدها، لا ترى شيئاً سوى الأرض الصحراوية اليباب. وفجأة يصادفك سرب من الطيور. من أين جاءت وإلى أين تطير؟ وأحياناً يقفز من بين شجيرات مغبرة أرنب خجول، أو ربما ترى آثار قوائم غزال. بضعة أحجار مسخمة تركها مسافرون بعد أن استخدموها أثافيّ لطهي الطعام في موقد أشعلوه في الطريق. وفي وسط الوادي الخالي تجد في بعض الأحيان بئراً يقتاد البدو إليها إبلهم وماشيتهم.

ولكن من هم هؤلاء البدو الذين يمثّلون سكان نجد الأصليين ويحضر جزء منهم على فترات؟ هل هم قبائل صديقة موالية لأمير نجد، أم هم من المتمردين الخارجين على القانون؟

البدوي، تحديداً، يسجّل آيات التكيّف للعيش في ظروف لا تطاق، في طبيعة تكاد تكون معادية له. فهو يرى النور وليداً في منزل يرثى له، تحت أشعة الشمس الحارقة أو في برد الشتاء الذي ينخر العظام. القابلة العجوز تغسل بدنه الطري بما يتيسر من ماء شحيح، وتباركه ليعيش ويتعايش مع الصحراء ورمالها في أخوّة ووئام. وإذا كتب للوليد أن يعيش، ولا يعيش أغلب الظن إلا واحد من كل ثلاثة مواليد، فإن حياته اللاحقة بمجملها تتحدى المصير العسير. منذ الطفولة عليه أن يتفوّق ويمسك بالعنان في الصراع الضاري من أجل البقاء، يشحذ إرادته وعزيمته، ويدرك ضآلة الإنسان وعظمته معاً في الصحراء. ولكن رغم الصعاب، كان

حتى أكثر البدو فقراً يعتبر نفسه أفضل الناس ولا يعترف بسيادة أحد عليه. وبالفعل فهو قد ذلل الفاقة والعوز، وصمد في وجه الطبيعة القاسية بعزيمته وقوة روحه وأخلاقياته. العالم الخارجي بالنسبة إليه لا أهمية له، ولا أهمية للإمبراطوريات التي تتنافس في ذلك العالم، ويقضي بعضها على بعض، وتحل الواحدة محل الأخرى. إلا أن أكبر عيب في رأي البدوي هو خيانة الصديق والتنكر للوفاء. فالإخلاص للفخذ والقبيلة عند البدوي لا حدود له. والبدوي قاسٍ شديد البأس في معاملة الأعداء. يعتبر أموال العدو الغريب وماشيته وممتلكاته غنيمة شرعية، إلا إذا حلّ هذا الغريب ضيفاً عليه. مشاعر البدوي تطفو على السطح بادية للعيان. طباعه قائمة على رغبته اللامتناهية في الحرية. فأيّ تعرض لكرامته، مهما كان طفيفاً، يستثيره ويخرجه عن طوره. إنه يحترم القوة، ويزدري كل مظاهر الضعف. إلا أن من مقدساته إيواء كل من يحتمي به. وهو يعتبر رفض طلب كهذا تنكراً للكرامة والضمير.

البدوي يقيم وزناً للصداقة الشخصية من دون أن ينسى النفع الذي يمكن أن يعود به عليه تعرّفه إلى هذا الشخص أو ذاك. لكن البدوي لا يطيق الأوامر والإيعازات. إنه أرستقراطي بطبيعته، ديمقراطي في علاقاته مع الآخرين. وهو واثق من نفسه معتدّ بها. يرغب في المال، لكنه على استعداد دائم للعطاء والسخاء. يتقاسم مع الضيف آخر جرعة ماء وآخر حفنة أرز. وعندما يستضيف غريباً لم يكن قد رآه سابقاً، ولن

يراه مرة أخرى أبداً، فإنه يعطيه ما هو نفسه في أمس الحاجة إليه.

قال المخبر والمستعرب البريطاني جيرالد دوغوري، والعهدة على القائل:

> إن البدو شديدو الانفعال، ضعيفو الإيمان، فقراء، أريحيون مضيافون، أشماء معتدّون بأنفسهم، لا يتورعون عن النهب والسلب أحياناً، وليسوا متدينين كما يليق بالمسلم الصالح، عموماً إنهم غير مؤتَمَنين.

فيما كتب الرحالة محمد أسد الذي جاب ربوع الجزيرة العربية:

> حياة البدوي من دون ريب مشحونة بالتناقضات. فالبدو يتميزون بالاستعداد للعنف وبالطيبة والسخاء اللامتناهي، يميلون إلى الغدر وفي الوقت ذاته إلى التفاني بأسمى درجاته. لم يكونوا طوال القرون يعرفون ما يسمّى "التقدم"، وعلى الرغم من ذلك ثقافتهم متقدمة ومتطورة وناضجة وقائمة على موقف حياتي ملتزم. تلك ثقافة تختلف بالمطلق عن كل الثقافات الأخرى. ينبغي التركيز على ذلك كله إذا أردنا أن نفهم "كيف" و"لماذا" تطور التاريخ الروحي والاجتماعي في الجزيرة العربية على هذا النحو بالذات وليس على نحو آخر[11].

... ما أشد برد الجزيرة في ليالي الشتاء. الريح تلسع الوجوه، والناس يتقاربون في ما بينهم طلباً للدفء. في النهار يتحاشون لفح الشمس بالمناديل والغترات يلفون بها الرؤوس. وفي الجو تحوم الجوارح على أمل أن يلقى أحد نحبه في الطريق الطويل. ومن الأدلة على نيّاتها الخبيثة تلك الهياكل العظمية للجمال والماشية التي يصادفها المرء أحياناً والرمال تكاد تغطيها وتمحو أثرها.

البدو ينصبون بيوت الشعر في المواقف أثناء الترحال، فترى على المساند والأعواد الخشبية قماشاً أسود من شعر الماعز وغيره.

في تلك الحقبة، لم تكن كل القبائل المترحلة خاضعة لأمير نجد. فلا يُنصح بإشعال المواقد ليلاً في الأماكن الغريبة. ويضطر رفاق الطريق إلى أن يقضوا الليل في وضعية بين النوم واليقظة وبنادقهم على الركبتين. أما إذا حصل لقاء ودّي مع قوافل أو أبناء قبائل صديقة، فإن الجميع يتحلقون حول المواقد. يتجاذبون أطراف الحديث عن أمور بسيطة من دنياهم البسيطة، عن الحياة والموت، عن المجاعة والبؤس، عن الأنفة والإباء، عن الحب والبغضاء، عن الرغائب والشهوات، عن الحروب والنخيل والبلاد النائية والتجارة وما إلى ذلك. كانوا يسقون الضيوف لبن الإبل برغوته الكثيفة، في بداية الربيع بخاصة، حيث تكتسي الصحراء بالخضرة لبعض الوقت بعد موسم الأمطار. وفي بعض الأحيان

تقام حول الموقد مباراة شعرية في النظم والارتجال. ويسميها البدو "المَرادَ".

وكما هي الحال قبل ألف عام، تتناهى من حول المواقد ألحان وأنغام رتيبة ممّا يرافق الترحال أو ينبثق عنه... تحت النجوم الكبيرة الوطيئة التي ترصّع قبة السماء اللامتناهية، يشعر المرء بلانهاية الصحراء وعظمة محيطها الذي لا يعرف الحدود.

ولكن الويل كل الويل للمسافر إن بقي في الصحراء وحيداً وسط الزوبعة الرملية ومن دون قربة ماء. الشمس المصبوبة من معدن أحمر تختفي وراء السحب، والرمال تغطيك إلى النصف في مواقف الترحال.

أحبّ فيصل الصحراء القاسية الرائعة، وظل يحبها مدى الحياة. وحتى عندما تولى مهمات الملك، كان ينتهز الفرصة للخروج إلى الصحراء مع الأقرباء والأصدقاء المخلصين، ولو مرة في الأسبوع، لتنشق هوائها المنعش اللاذع، وللدعاء والصلاة والتأمل في أسمى وأهم أمور الدنيا والآخرة.

في بعض الأحيان يقام في الصحراء سباق الهجن الذي تميّزت به الإبل "العمانية" السريعة. إنه لمنظر رائع حين يحلق هذا الحيوان الضخم بعنقه الممتد فوق الصحراء. فليس من قبيل الصدفة أن يقال عن تلك الإبل إنها تشرب الرياح.

المثل العربي السائر يقول ما معناه إن المرأة الشاطرة كناقة السباق. كل العرب يعتبرون الإبل من أعظم ما وهبه الله للإنسان. وتجد في أغاني البدو شيئاً من

قبيل: أحميك يا بعيري وأصونك كحدقة العين، فأنت أغلى وأعز علي من نفسي يا بعيري، ما أحلى رنين أجراسك يداعب سمعي يا بعيري. وحدائي في المساء يداعب سمعك!

ونرى البعير في خدمة البدوي حياً أو ميتاً. من وبره ينسجون العباءات والطرحات والبسط، ويفتلون الحبال ويصنعون مستلزمات الخيام، ويقتاتون على لبنه ولحمه، ويدبغون جلده ويحرقون عظامه كالحطب المجفف في الشمس. لكنّ هذا النوع من اللحم لا تمضغه إلا أسنان قوية كأسنان البدو. أما مخ الإبل فلا تأكله عندهم إلا النساء. فالاعتقاد السائد أن هذا الطبق اللذيذ يضعف عزيمة الرجل، ولذا فهو يستغني عنه مكرهاً.

ومعروف أن الإبل تقطع مسافات هائلة من دون جرعة ماء أو أنها تشرب الماء الآسن المالح بعض الشيء، فتروي عطش صاحبها وتسد رمقه بلبن رائع المذاق.

كانت الجزيرة العربية في عصر ما قبل البترول تقيس ثروة الإنسان بعدد الجمال، وليس الجياد، في قطيعه. فالجياد كانت ولا تزال أقل عدداً، ولذا فهي تعتبر من الكماليات.

تقول الرواية العربية إن الباري عندما أراد أن يخلق الحصان دعا ريح الجنوب وقال لها سأخلق منكِ كائناً جديداً. فنفخ الحياة في الريح وظهر الجواد إلى الوجود. إلا أنه اشتكى إلى خالقه من قصر رقبته وعدم وجود سنام على الظهر لتثبيت السرج، ومن صغر

أظلافه الحادة التي تنغرس في الرمال. وعندها خلق الله البعير. ارتعب الجواد وذُهل وكاد يُغمى عليه من هول ما رآه وما كان يريده لنفسه. وفي هذه المناسبة نتذكر الآية القرآنية: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت"[12].

كان البدو يبيعون الماشية والجلود والصوف والوبر والسمن في الواحات ليشتروا بثمنها التمر والأرز المستورد من الهند. النخلة تحبّ الطقس القائظ الجاف ووفرة المياه. ولذا قال البعض إن جذع النخلة في الجنة وسعفها في النار. النخيل الكثيفة بعذوقها الثقيلة الصفراء والحمراء مشهد لا ينسى. إلا أنها بالنسبة إلى سكان الواحات أو أهل النخل كما يسمّون أنفسهم تعتبر في المقام الأول إشارة على الثروة والجاه. وكانت لبعض العوائل البدوية الموسرة، وأحياناً لقبائل بكاملها، بساتين نخيل في الواحات يؤجّرها أصحابها للفلاحين. النخلة التي هي سيدة الأشجار باتت، مع الجمل الداجن ذي السنام الواحد، رمزاً للجزيرة العربية في عصر ما قبل البترول. وهذا ما جعل صورة النخلة تحتل مكانها في شعار الدولة السعودية.

ولكن لنعد إلى فيصل الصغير.

... ختم القرآن يغدو، عادة، خاتمة للدراسة والتحصيل العلمي بالنسبة إلى الكثيرين. إلا أن الراغبين في المزيد من الدراسة كانوا يواصلون التعمق في علوم الدين والفقه الإسلامي وصولاً إلى منزلة العلماء. أما البعض الآخر، وخاصة الأمراء الصغار، فكانوا يفضّلون

الفنون العسكرية كالفروسية والرماية والتمييز بين مختلف سلالات الخيل والإبل. وكان فيصل ميّالاً إلى المآثر العسكرية وراغباً في كسب رضا والده من هذه الناحية. كان واثقاً بأنه سيرافق والده عندما يكبر، ويكون إلى جنبه في الحملات وفي تصريف شؤون الدولة من أجل خدمة آل سعود ونصرة الدين. تلقّى التدريب العسكري بإشراف محارب قديم من أنصار عبد العزيز. وكانت السيوف التي يحملها الأمراء الصغار تلامس الأرض.

منذ أن كان فيصل في بيت الشيخ عبد الله، وهو في العاشرة أو الحادية عشرة من العمر، أخذ يحضر مجالس أبيه عندما يكون في الرياض.

في هذه المجالس أتقن آداب السلوك، وكان يطيل الاستماع والإنصات والتعلم والتذاكر. فما أكثر الأمور التي اطّلع عليها في تلك المجالس. العلاقات المتبادلة بين مختلف القبائل، موضوع الخلافات بينها وعائدية المراعي والآبار، التناسب بين التقاليد العرفية القبلية والشريعة الإسلامية، بين الثأر والغزو. كان الحاضرون يبحثون في أخبار مواليد الوجهاء ووفياتهم، ويناقشون أمور التجارة والأمطار والمحاصيل والجفاف، فيما تمر قوافل الحجاج بنجد في طريقها إلى الحرمين الشريفين في الحجاز، ومعها تأتي أخبار العالم الكبير البعيد. وكانت قوافل أخرى تأتي من إمارات الخليج حاملة السلع والبضائع من الهند وإيران ومن بلاد الرافدين. وكان عرب الجزيرة يقتادون قوافل الجمال

لبيعها في مصر والعراق. أما الجياد العربية الأصيلة الرائعة فتباع من خلال الكويت، يشتريها الترك والإنجليز للخيالة والفرسان.

مجالس الأمير تبحث سياسة الإمبراطوريتين الكبريين العثمانية والبريطانية. الأولى حكمت الحجاز اسمياً في منتصف القرن التاسع عشر. وكانت جبل شمر، التي هي خصم إمارة الرياض، تابعة لها. والثانية بسطت حمايتها على إمارات الخليج. وكان عرب الجزيرة يعلمون حق العلم أن الإنجليز يسيطرون على الهند وعلى مصر.

في عام 1911م حضر فيصل الصغير لقاءً بين والده وبين المندوب السياسي البريطاني في الكويت الكابتن وليم شكسبير. فما الذي كان في وسع الصبي أن يتذكره وهو في الخامسة من العمر؟ سقط مطر والتقطت صور. ولأول مرة رأى فيصل أجنبياً في ثياب لا تشبه ثياب سائر الناس. كان الأجنبي يتحدث العربية بلكنة غريبة. والأرجح أن الصبي لا يتذكر أكثر من ذلك. لقد ظلت محفوظة منذ ذلك اللقاء المشهود صور فوتوغرافية التقطها شكسبير، ومنها الصورة الممتازة لعساكر عبد العزيز براياتها المرفرفة. هذه الصورة المكبرة بعدة أمتار مربعة والمجودة برتوش ومعالجة فنية، تزيّن اليوم صالة الانتظار في قصر حاكم الرياض. ولعل فيصل يتذكر عندما بلغ التاسعة من العمر أن شكسبير هذا قتل في 25 يناير 1915م في معركة شارك فيها مع قوات أبيه ضد الشمريين بعد أن غدرت به العجمان. آنذاك

خسر عبد العزيز المعركة وكان حزيناً جداً لمقتل هذا الإنجليزي الذي اعتبره صديقاً عزيزاً.

...اختلطت في ذهن الصبي الديانة والحياة، الصلوات والأعياد، ونشأت منها وحدة الأفراح والأتراح، والمحنة والارتياح. شهر رمضان، وبعده الحج، هما، كما نعلم، الحدث الرئيس في حياة المسلمين كل عام. شهر الصيام يمثّل عيداً واختباراً لقوة الروح والإيمان. المسلمون ينكبّون فيه على قراءة القرآن أو يستمعون إلى تجويد المقرئين، ويقضون الوقت في التأمل والدعاء والصلاة. "فالصلاة خير من النوم"، علماً بأن صيام رمضان يختلف عن صيام النصارى عندنا وغيرهم من أبناء الديانات الأخرى، لكونه إمساكاً كلياً عن الطعام والشراب من الفجر حتى غروب الشمس.

بالنسبة إلى فيصل، منذ نعومة أظفاره حتى آخر عام في حياته عندما بات زعيماً محنكاً وقائداً رشيداً للبلاد، ظل صيام رمضان اختباراً للذهن وتنقيته من سوء الأفكار وعيداً للالتحام والوحدة مع الأمة الإسلامية.

شهر رمضان الذي كتب عنه جون فيلبي سنة 1918م في مذكراته الشهيرة[13] صادف منتصف فصل الصيف، حيث الأيام القائظة الجافة أطول والصوم يتطلب تحملاً وقوة في الروح. فيصل البالغ من العمر آنذاك اثني عشر عاماً، وقد زوّجه والده في حوالى هذه السن المبكرة، كان يعتبر نفسه رجلاً راشداً يصلّي ويصوم مع سائر أفراد العائلة.

ترك الإمام عبد الرحمن الطاعن في السن أمور الدنيا وكرس لتلاوة القرآن كل أوقاته، ما عدا مواقيت الصلاة والنوم والطعام. فقد حلّ شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن. والد فيصل يحب أيضاً تلاوة القرآن ثم يغلق دفتيه ويقبله باحترام وتبجيل ويعطيه إلى أحد أفراد الحاشية ليضعه في مكانه المعهود. وقد اعتاد أن يستقبل المراجعين مرتين في اليوم، بعد القيلولة وبعد صلاة الظهر، ويتلقى التقارير من أطراف الدولة ويملي مكاتباته.

منذ انبلاج الفجر الأول، بانفصال الخط الأبيض عن الخط الأسود، في الصيف عادة بعد سبع ساعات ونصف الساعة من غروب الشمس، يُشعل فانوس الفحم الكبير فوق الصارية المنصوبة على سطح القصر إيذاناً بموعد الصلاة، ويتهادى الأذان في الوقت ذاته فيستيقظ الجميع استعداداً ليوم جديد. ويقيمون الصلاة ويتناولون السحور قبل حلول الفجر الفعلي الذي ينبئ به الأذان من مختلف المنائر. ويحل موعد الصلاة الثانية التي يعقبها الصوم. ويستمر الإمساك عن الطعام والشراب خمس عشرة ساعة وثلاثين دقيقة في أصعب وقت من السنة، حيث الحر الشديد والجو الجاف المشبع بالغبار. النوم بالطبع وسيلة طبيعية يحتمي بها ضعاف النفوس. إلا أن عبد العزيز ما كان يسمح لنفسه إلا بفترات قصيرة متقطعة بعد صلاة الصبح وقبل الظهر وبعد صلاة الظهر، إضافة إلى ثلاث أو أربع ساعات من النوم ليلاً.

قبل ربع ساعة من مغيب الشمس على وجه التقريب، يصعد عبد العزيز مع العائلة والأقرباء إلى سطح القصر في انتظار أذان المغرب. كل رجل يمسك حبة تمر بين السبابة والإبهام ويكرر القول "أستغفر الله"، ثم يدسّ التمرة في فمه مع آخر كلمة للأذان ويشرب الماء. وفي الحال يحمل الخدم إلى السطح صينيات البطيخ الأحمر العسلي الفواح الذي اشتهرت به نجد. وبعد ذلك تقام صلاة المغرب يعقبها الفطور الوفير.

ثم يتفرّق الرجال إلى غرفهم ليلاطفوا أولادهم وزوجاتهم، وبعد ذلك يجتمعون مجدداً في مصلّى القصر لإقامة صلاة العشاء. ومن ثم يأتي دور قراءة القرآن، وبعد قليل تقام صلاة التراويح طلباً لنجاة الروح ممّا يحيط بها من أخطار.

في 7 يوليو 1918م المصادف لـ28 رمضان 1336هـ كان الجميع ينتظرون الهلال بفارغ الصبر. فهو هذه المرة يؤذن باختتام الصيام. قبيل مغيب الشمس، صعد الكثيرون من أهالي المدينة إلى سطوح منازلهم لعلهم يرون بأم العين الهلال من وراء قمة جبل طويق المسننة الواضحة المعالم في أشعة الشمس الغاربة. وكانت بينهم نساء كثيرات. يقال إن حدّة بصرهن أشد من بصر الرجال. وعندما خيّم الظلام لم يرَ أحد منهم الهلال في قبة السماء، ما يعني أن الصيام سيستمر يوماً آخر. إلا أن المدفع دوّى في حوالى الثانية بعد منتصف الليل والكثيرون نيام. ذلك لأن بدوياً من قبيلة مجاورة وصل إلى المدينة مسرعاً وأفاد بأن أبناء قبيلته شاهدوا

الهلال. بعثوه إلى كبير العلماء الشيخ عبد الله جد فيصل، فعقد في الحال مجلساً للعلماء أقرّ نهاية شهر الصيام وبدء عيد الفطر غداً. وعمّت فرحة تفوق الوصف.

في ذلك الصباح، في الخامسة والنصف، قبل شروق الشمس، اكتظت الشوارع بأبناء المدينة الفرحين بقدوم العيد. الغبار يتطاير مع وقع الأقدام، والماعز والأغنام تثغو في ضجيج. توجه رجال المدينة إلى ساحة البوابة الشمالية الشرقية للقصر حيث تقام صلاة العيد. بدأت الصلاة مع شروق الشمس واختتمت بكلمة قدمها عبد العزيز إلى الأمة. ثم مضى الجمهور إلى القصر حيث كانت تنتظر الضيوف سفرات الأرز ولحم الضأن. تقاطر الناس الواحد تلو الآخر صفاً لا ينتهي. ثم توجهوا إلى القاعة التي يتلقى فيها الأمير التهانئ والتبريكات. ووزعت هدايا العيد على خدم القصر.

في 5 أغسطس 1918م شنّ عبد العزيز حملة على حائل. ويقدّر فيلبي عساكره بما لا يزيد على خمسة آلاف رجل من الهجانة والخيالة. واصطحب الأمير في حملته هذه أنجاله سعود وفيصل وفهد. وكان أخوهم الأكبر تركي قائداً للمفرزة الأمامية. كذلك شارك سعود في القتال، فيما ظل الصغيران فيصل وفهد في مخيم المؤخرة.

أوكل أمر رعاية الأميرين الصغيرين فيصل وفهد إلى سعد اليماني أحد مرافقي عبد العزيز، الذي كان في

خدمته من سنة 1904م. وهو محارب باسل ورجل بشوش صريح.

كان اهتمام فيصل، أثناء الحملة، بلا حدود. لاحظ أن عساكر والده مسلحون ببنادق إنجليزية قصيرة السبطانة أو طويلة الماسورة. وكانوا أحياناً يقصون الماسورة لتغدو البنادق قصيرة وسهلة الاستعمال. إلا أنها تفقد دقة الرماية. وكانت من أكثر البنادق شهرة بندقية "اينفيلد" المزينة بتاج، فسميت "أم التاج". وهي تعتبر من أجود البنادق. وفي المرتبة الثانية تأتي "الموزر" التي تسمى "أم عشرة" أو "أم خمسة" تبعاً لعدد رصاصات المخزن.

في هذه الحملة عرف فيصل ما هي الحرب، عندما تعرضت قافلة الأحمال التي كان معها لهجوم مباغت ليس بعيداً عن ياطب. وقد انسحبت عساكر شمر بعد المعركة مخلّفة عشرة قتلى. كان إلى جانب فيصل في هذا الاشتباك مرشده العسكري ومرافقه سعد اليماني.

عندما وصل عبد العزيز ومسلحوه إلى المخيم، استقبل الصبية والدهم مسرورين وقبّلوه على وجنتيه وعلى طرف أنفه، ثم أخذوا مكانهم في الخيمة بما يليق بالحادث من هيبة ووقار. استفسر عبد العزيز عن صحتهم كأنهم ضيوف وَقورون وليسوا أبناءه الصغار. كان ذلك من مستلزمات التربية اللازمة لتعويد الأولاد آداب السلوك وحسن التصرف.

ترعرع فيصل مستوعباً أصول الدين والمعارف الدنيوية عن بلاده، متشبّعاً بحب صحاريها وأهاليها،

وبالإخلاص للعائلة واحترام تاريخها. إلا أن كل تلك المشاعر كانت متركّزة على والده الذي تعلو شخصيته فوق الجميع. كان يريد أن يخدم الوالد ويبقى إلى جانبه ويقوم معه بعمل واحد كي يستحق استحسانه ويكسب رضاه. وهنا ندخل باباً لا يمكننا من دونه أن نفهم حياة فيصل الشخصية ولا مصيره كزعيم سياسي ولا تاريخ بلاده. لا بد لنا من الحديث عن والده. ففي ظل هذه الشخصية العملاقة كان يتعيّن على فيصل أن يحيا ويعمل، وكان عليه أن يرث أعماله ويخلفه في الظروف الجديدة، على الرغم من انتظاره أحد عشر عاماً بعد وفاة والده وانسحاب أخيه الأكبر سعود من الساحة السياسية.

نقل منير العجلاني ما رواه بعض الكتاب عن لسان فيصل نفسه، قال:

> إن المغفور له والدي عبد العزيز هو مدرستي ومنارتي التي أستهدي بها. إنني أحفظ كنزاً من تجاربه المرشدة... إنه مدرستي الحقيقية. لقد دخلت الكتّاب وخرجت لأدخل مدرستي الحقيقية... إنها شخصية المغفور له والدي عبد العزيز الذي ترعرعت ونشأت في ظله وتمرست في الحياة بتدريبه، فكان هو المدرسة التي استقيت منها دروسي وخبرتي[14].

الأطفال السعوديون، بل وكل سكان المملكة العربية السعودية يعرفون حق المعرفة وبأدق التفاصيل حياة

عبد العزيز. وباقي العرب سمعوا وقرأوا عنه الكثير. إلا أننا نريد أن نذكّر القارئ الروسي والناطقين بلغات أخرى من جديد بشخصيته الفذة وبأهم الأحداث في حياته.

ما نُشر عنه يربو على خمسمئة مؤلَّف. كاتب السطور أيضاً تحدث عنه أكثر من مرة في مؤلفاته عن المملكة العربية السعودية والعالم العربي. وأعيد إلى الأذهان هنا مسميات بعض من أفضل ما كتبه عنه المؤلفون غير السعوديين. وأعني مؤلفات هارولد آرمسترونغ ودانيل فان دير ميولين وجون فيلبي وأمين الريحاني. ولعل أفضل ما في هذه القائمة كتاب آرمسترونغ المنشور عام 1936م بعنوان **ابن سعود حاكم الجزيرة**. فقد رسم المؤلف صورة أدبية فنية لعبد العزيز تكشف عن شخصيته بنحو أدق ممّا تفعله الدراسات والبحوث الأكاديمية الجافة، فضلاً عن المدائح السطحية. كتاب آرمسترونغ جاء بلغة بلاغية ناضجة ومشوّقة. ومن مزايا السرد في كتابه أنه يطابق الواقع بالكامل، ما عدا بعض الهنات والمواضع القليلة غير الدقيقة.

وهكذا نبدأ الحديث عن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، والد بطل كتابنا الملك فيصل.

الفصل الثاني

الوالــد

تمكّن جد عبد العزيز، الأمير فيصل بن تركي آل سعود الذي فرّ من الأسر المصري سنة 1843م، أن يستعيد الإمارة في نجد والأحساء في منتصف القرن التاسع عشر. وقد وافاه الأجل في ديسمبر 1865م. وما كاد أبناؤه يوارونه في التراب حتى نشب بينهم الصراع على السلطة. وانتهز هذه الفرصة حكام إمارة جبل شمر الواقعة في شمال نجد والموالية رمزياً للرياض بعد أن استجمعوا قواهم حتى ذلك الحين، فقلبوا لها ظهر المجن، وبسط أمير جبل شمر محمد بن رشيد سلطته على نجد كلها، وعيّن حاكماً له في الرياض سنة 1887م، فيما استولى العثمانيون على الأحساء. كانت جبل شمر تعترف بسيادة السلطان العثماني، لكن قوات السلطان لم تكن ترابط في الإمارة. وحاول عبد الرحمن الابن الأصغر للأمير الراحل فيصل أن يتخلص من سيطرة شمر سنة 1890م، إلا أنه مُني بالهزيمة.

استجار عبد الرحمن مع ولديه عبد العزيز ومحمد، اللذين كانا في العاشرة من العمر، وباقي الأقرباء بقبيلة بني مرة التي كانت تترحل على أطراف الربع الخالي. وتوجهت نساء العائلة إلى البحرين برفقة عبد العزيز.

الحياة عند بني مرة عسيرة كلها حرمان. فهؤلاء البدو كانوا، في تلك الحقبة البعيدة، على حافة الموت جوعاً. يقتاتون على التمر ولبن الإبل ونادراً ما يصطادون غزالاً أو أرنباً أو حبارى. كانوا يأكلون حتى ما تأباه النفس لو توافر لها ما يؤكل من طعام. وكان بعضهم لا يتقيّد بجميع فرائض الإسلام. إلا أنهم كانوا من الشجاعة بمكان. فهم محاربون مشهود لهم بالجرأة والبسالة.

منذ نعومة أظفاره، وفي سن الفتوة، استوعب عبد العزيز دروس البقاء على قيد الحياة والقتال في الصحراء. كان ينام في العراء ويشارك في الغزوات وفي الصيد، ويقتفي الأثر، فيعرف من ومتى اجتاز هذه المنطقة أو تلك. تعلّم العناية بالإبل وقطع المسافات البعيدة على ظهر الحصان أو البعير وليس معه سوى كيس صغير من التمر وقربة من اللبن الحامض.

آنذاك ظهرت لدى أبيه عبد الرحمن فرصة الاستفادة من السنن القديمة للصراع في الصحراء. إمارة جبل شمر الموالية للعثمانيين تقوّت كثيراً بعد السيطرة على نجد كلها. ولم يكن ذلك يرضي العثمانيين، فكانوا يريدون ثقلاً موازناً لابن رشيد ورجاله ولا يرخون لهم العنان، حتى يظلوا ضعفاء يحتاجون دوماً إلى مؤازرة من بني عثمان. وكان يفكر على هذا النحو أيضاً خصم شمر محمد الصباح شيخ الكويت الساعي إلى تفادي المصير الذي آلَ إليه آلُ سعود بعد أن فقدوا ممتلكاتهم تحت ضربات ابن رشيد. وفي سنة 1893م دعا الشيخ

محمد عائلة عبد الرحمن إلى الكويت، فيما اعتمد العثمانيون لحاكم نجد السابق راتباً محدوداً قدره 60 ليرة ذهباً في الشهر.

أقامت عائلة عبد الرحمن في منزل من طبقة واحدة بثلاث غرف وباحة داخلية. وما كانت تشعر بالارتياح رغم حسن الوفادة. كان عبد العزيز يجوب الأزقة الضيقة في مدينة الطين، الكويت، ويحتسي القهوة مع أصدقائه ويتردد على المرفأ والأسواق. وكان يستمع إلى أحاديث والده عن الماضي العظيم لعائلتهم العريقة. كان يصلي ويرفع الدعاء لبلوغ مستقبل عظيم. طاقاته الفوارة تندفع من الداخل، وتجتاحه رغبة عارمة في إنهاء مذلة المنفى، وتستولي عليه أحلام استعادة أمجاد الأجداد وإعادة الدولة السعودية التي قامت قبل ذلك بمئة وخمسين عاماً، متذكّراً ومسترشداً بتعاليم الدين التي تلقّاها في الرياض على يد الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ الذي تزوج عبد العزيز ابنته بعد فتح الرياض وأنجبت له فيصل.

في نهاية القرن التاسع عشر حاولت الدول الكبرى أن تستغل أراضي الكويت في مخططاتها ودسائسها. ففي ألمانيا اختمرت خطة الاختراق للخليج العربي الذي كانت بريطانيا تعتبره بحيرة من بحيراتها الداخلية. ونصت تلك الخطة على مدّ سكة حديد بغداد وصولاً إلى الكويت. كذلك كانت لدى روسيا القيصرية مخططات ضبابية مماثلة. أما في الكويت نفسها فقد حصل انقسام في العائلة الحاكمة. فبعد ما يمكن أن

يسمى، حسب المعايير الراهنة، الانقلاب الحكومي، تسلّم الشيخ مبارك الصباح السلطة في سنة 1896م. وفي سنة 1899م اضطر إلى أن يوافق سراً على الحماية البريطانية ليتجنّب نقمة العثمانيين ويحمي نفسه من بطشهم.

عاش مبارك فترة في بومباي، فأخذ يدخن وتعود "البذخ" بمفهوم الجزيرة العربية، إي إن لديه أرائك ملبسة بالديباج وعربة جاهزة رهن بنانه. وكان أحياناً يستضيف الفنانين من البصرة ليرفّه عن نفسه. الترفيه والموسيقى والتدخين واللوحات في المنزل، و"البذخ" في الثياب والأثاث والفخفخة التي ترافق موكب مبارك، كل ذلك كان غريباً على عبد الرحمن المتدين جداً. إلا أن نجله عبد العزيز كان في ألفة ومودة مع مبارك يسميه "والده الثاني". وكان شيخ الكويت يدعوه إلى حضور مجالسه العامة، فيطّلع الشاب على أفكار مبتكرة وعادات وأنماط تفكير مستحدثة ويتعرّف إلى شخصيات جديدة. ورأى هناك أجانب من التجار والرحالة الفرنسيين والإنجليز والروس والألمان. وكان يتابع ويراقب كيف كان مبارك، الأستاذ الماهر في الدبلوماسية والسياسة العربية، يتعامل معهم.

آل سعود بالنسبة إلى مبارك ليسوا مجرد ضيوف، بل هم حلفاء في الحرب. ففي عام 1900م زحف الكويتيون مع محاربي عبد الرحمن وحلفائه من البدو على إمارة جبل شمر التي كان يحكمها آنذاك عبد العزيز بن متعب بن رشيد. وسنسمّيه لاحقاً ابن متعب كي لا

تختلط الأسماء المتشابهة على القارئ. استولى عبد العزيز نجل عبد الرحمن مع سرية صغيرة على مدينة الرياض، لكنه لم يتمكن من دخول الحصن. أما قوات مبارك وحلفائه فقد هزمت أمام الشمريين في معركة الصريف في فبراير-مارس 1901م. واضطر عبد العزيز بن عبد الرحمن إلى العودة إلى الكويت للنجاة بنفسه وبسريته الصغيرة. وأطلقت سفينة حربية بريطانية النار على جيش ابن رشيد الذي حاصر مدينة الكويت وأرغمته على الانسحاب إلى أعماق الصحراء. وبدت العمليات الحربية ضد ابن رشيد أمراً ميؤوساً منه.

هكذا بدت للجميع، ما عدا عبد العزيز.

تمكّن من إقناع مبارك بمساعدته. فأعطاه الأخير 30 بعيراً بعضها مصاب بالجرب مع 30 بندقية وذخيرة و200 ريالٍ ذهباً.

في منتصف عام 1901م ترك عبد العزيز زوجتيه وابنه البكر تركي مع والده، وجمع نحو أربعين من أقربائه وأنصاره، بينهم أخوه محمد وابن عمه عبد الله بن جلوي، وتوجه في حملة على شمر وهو مستعد للموت أو النصر. انضم إليه عدة آلاف من البدو طمعاً في الغنائم، لكنهم سرعان ما تركوه حين تأكد لهم أن الانتصارات لم تتحقق. وكان البدو وحضر الواحات يخشون غضبة ابن متعب فلم يتجرأوا على التمرد. وربما كان ذلك هو سبب نجاح مغامرته، لأن سريته الصغيرة تمكنت من الزحف من دون أن تثير شبهة العدو.

بعد كل الإخفاقات، جمع عبد العزيز رجاله وقال لهم إنه مصمم على القتال حتى النهاية. فمن يرغب في الانصراف يمكنه أن يذهب، ومن يُرِدْ أن يجازف معه فليبقَ. وظلَ معه 30 من الأقرباء من آل سعود والأنصار المخلصين و10 من أهالي الرياض.

كانت كل الظروف، حسب الظاهر، في غير مصلحة عبد العزيز، إلا أنه عزم على المجازفة، فظهر في أطراف عاصمة آل سعود السابقة في 12 يناير 1902م.

بعد استراحة قصيرة في واحة صغيرة، ترك جماعة من رجاله مع الإبل والخيول وأوصاهم بالفرار إذا لم يعد إليهم صباح الغد. ومضى مع الباقين إلى أسوار المدينة المهدمة. تسللوا تحت جنح الظلام عبر السور في منطقة باب الشميسي وشقوا طريقهم إلى بيت ابن جويسر الذي فوجئ بمجيئهم قرب منزل الحاكم الشمري عجلان بن محمد. وكان هذا الأخير متزوجاً من إحدى نساء الرياض يتردد عليها نهاراً ويفضّل المبيت في حصن المصمك ليلاً مع الحامية التي يبلغ تعدادها 80 رجلاً تقريباً. أطعم ابن جويسر عبد العزيز ورجاله ثم مضوا إلى دار زوجة عجلان فلم يجدوه هناك، فاحتجزوا امرأته مع قريبة لها في إحدى الحجرات. وبعث عبد العزيز في طلب أخيه محمد وسريته الصغيرة التي تركها خارج الرياض. اجتمعوا كلهم في منزل زوجة عجلان التي قالت لهم إنه يمكن أن يأتي إليها بعد صلاة الصبح. فقرروا الانتظار. وبلغ التوتر

أقصاه بين شلة المحاربين بعد أن أدركوا تماماً مدى المجازفة التي أقدموا عليها.

حلّ صباح الخامس عشر من يناير 1902م، فظهر عجلان مع عدد قليل من الحرس في باب الحصن. ففتح عبد العزيز ورجاله النار وهجموا على حاكم الرياض. حاول الشمريون الفرار. وفي اللحظة الأخيرة تمكن عبد الله بن جلوي من أن يقتل الحاكم داخل حصن المصمك الذي ظل من المعالم الأثرية والسياحية الشهيرة في الرياض، حيث تقول الرواية إن حربة عبد العزيز مغروزة في بابه، وإن على السور آثار دم عجلان.

استفاد رجال عبد العزيز من عنصر المباغتة، فانتقموا من حامية الشمريين في الحصن، ثم أجهزوا على من كان منهم في المدينة. وجرى إطلاق سراح عشرين ممن اعتصموا في برج الحصن ثم استسلموا بعد تعهد بالسلامة والحفاظ على حياتهم. وبلغت خسائر الأمير الشاب قتيلين وثلاثة جرحى فقط. هذه الحملة الجريئة المستميتة، التي تكاد تكون انتحارية متهورة، خلقت لعبد العزيز هالة من النصر والتفوّق. وظهر المؤذن إلى أعلى مآذن مسجد تركي بن عبد الله جد عبد العزيز داعياً: "الحكم لله ثم لعبد العزيز". وكان الصبي فيصل قد سمع حديث هذه المأثرة عشرات وربما مئات المرات.

بايع أهل الرياض عبد العزيز وأقسموا يمين الولاء له. فشرع في الحال في تحصين أسوار العاصمة. وعندما بلغ نبأ سقوط الرياض أسماع ابن متعب خرج عن طوره

وأقسم على الثأر من أعدائه الألداء. آنذاك وصلت إلى عبد العزيز إمدادات من الكويت بسبعين محارب على رأسهم أخوه الآخر سعد. وتمكن الأمير الشاب قبل وصول عساكر شمر من أن يُحكم سيطرته على منطقة أوسع حول العاصمة.

استقبل عبد العزيز بحفاوة وتكريم والده الذي وصل من الكويت. وكان التفاهم على أتمّه بين الأب وابنه. وأوكل عبد الرحمن كل المهمات السياسية والعسكرية الرئيسة إلى ابنه، وظل في منزلة إمام المسلمين والمستشار الرئيس لعبد العزيز. وقد أبدى الابن آيات الاحترام والحب اللامتناهي لأبيه.

انتهز عبد العزيز فرصة الهدوء النسبي في مقاتلة شمر، فأخذ يسدد ضرباته إلى الاتجاهات الأخرى... في جنوب نجد ساعدت عبد العزيز قبيلة الدواسر التي تربط شيوخها صلة قربى به. كان ينتقل من واحة إلى واحة ومن قبيلة إلى أخرى، يستنهض الرجال للقتال ويناشد أعيان الواحات وشيوخ القبائل الانضمام إليه، فيدخل في نقاشات معهم ويقنعهم بالحجة والبرهان. لم يكن الوقت يكفيه للنوم، حتى إنه كان يستلقي على الأرض في الخيمة لينام ساعتين أو ثلاث ساعات. وأخيراً حقق النصر على جيش ابن رشيد الذي يفوقه عدداً في معركة الدلم. كان استرجاع الرياض مغامرة بكل معنى الكلمة. إلا أنها مغامرة ناجحة. فقد دُحرت هذه المرة قوات ابن رشيد في العراء. وأعقبت ذلك معارك أخرى.

تجلّت مواهب عبد العزيز قائداً عسكرياً قوياً يحسب الحساب سلفاً لعملياته وعمليات الأعداء. فعندما حاصر ابن رشيد الرياض في ربيع 1903م، كان عبد العزيز على مقربة من الكويت ولم يسارع إلى نجدة والده الذي كان يدافع عن العاصمة المحصنة، بل تقدم نحو القصيم شمالاً لقطع طرق تموين العدو. وما إن بلغ ذلك مسامع ابن رشيد حتى رفع الحصار عن العاصمة وانسحب على عجل لينجد قواته التي في الشمال. وفي عام 1904م بسط عبد العزيز سيطرته على نجد لحوالى مئة كيلومتر شمالي الرياض.

إلى جانب الحرب بين إمارتي وسط الجزيرة العربية، كان هناك تنافس شخصي بين زعيميهما عبد العزيز وابن متعب. حاكم جبل شمر كان شديد البأس يخشاه الجميع لاعتماده القوة في التعامل مع من لا يروقونه. إلا أنه كان محارباً مجرباً وفي منتهى الشجاعة.

أما عبد العزيز فهو يبدو عملاقاً على طرفي نقيض من منافسه الشمري. يسعى إلى كسب ودّ القبائل، ويعرف كيف يرضي طموحاتها واعتزازها بالنفس، وكيف يتفادى عيوبها. كان يتحلّى بخصال يعجب بها الأعراب كل الإعجاب، سخيّاً و"ديمقراطياً" إلى أبعد الحدود، يمطر جميع أنصاره بهداياه وهباته. كان رجلاً لا كالرجال، مزواجاً لا يُشقّ له غبار. وكان محارباً باسلاً إلى حدّ الاستماتة ونكران الذات. ورغم تربيته الإسلامية الصارمة، فهو يحب الفكاهة ويقهقه بملء الفم. وإلى ذلك، كان في ريعان الشباب متحمّساً للدين،

مفعماً بالحيوية والنشاط، فيما خصمه يسير نحو الشيخوخة. عبد العزيز يغزو ليس من أجل الهدم، بل من أجل البناء وإحلال النظام وتوفير الأمن. لم يمارس النهب والسلب، بل كان يوزع غنائم الحرب بالعدل على محاربيه. لكنه كان ملزماً بأن يضرب بيد من حديد.

تحدث هارولد آرمسترونغ عن وقوع عُبيد، أحد أقرباء ابن متعب، أسيراً بيد عبد العزيز. عندما جاؤوا بالأسير إليه سأله من دون أن يترجل: "أأنت عُبيد بن رشيد الذي قتل عمي محمد في الرياض؟". واستلّ من دون استعجال السيف الذي أهداه إليه والده. فهتف عُبيد مستغيثاً: "لا تقتلني يا أبا تركي" فأجاب ابن سعود: "وهل رأفت أنت بعمي؟". ويضيف أرمسترونغ أن عبد العزيز لم يُخلِ سبيل عبيد، بل أجهز عليه تحقيقاً للعدل والحق وثأراً للقتيل[1].

الأسطورة في التاريخ لا تقل أهمية عن الواقعة. فليس مهماً هل حصل هذا الحوار فعلاً بين أمير الرياض وأسيره أو لا. بعض المعلومات تقول إن محمد عم عبد العزيز لم يمت مقتولاً، بل توفي لمرض أصابه. ولكنّ المهم هو الثأر من أعداء عبد العزيز. وقد حانت ساعته، ويجب أن يعرف الجميع بذلك.

إلا أن نجاحات عبد العزيز السريعة ما كانت ضمن حسابات العثمانيين. إنهم يريدون ثقلاً على كفة الميزان الأخرى مقابل جبل شمر، لكنهم لا يريدون لإمارة نجد أن تكون قوية مستقلة. ولذا قرروا التدخل لتغيير المعادلة.

في يونيو 1904م توجه من البصرة إلى نجد فصيل عثماني من ألفي محارب على وجه التقريب مزودين بستة مدافع. وأصيب أمير الرياض بجراح ثخينة في إحدى المعارك. وتجلت في الهزيمة شدة عزيمته مثلما في الانتصارات. فتمكن من استجماع عساكره ورفدهم بأبناء البدو والحضر وتغيير سير القتال، حتى لحقت الهزيمة بابن متعب وبالفصيل العثماني. إلا أن عبد العزيز كان يتحلى بالحكمة، ونشوة النصر لم تسكره رغم فتوته. فهو يدرك أنه لا يستطيع أن يتحدى الإمبراطورية العثمانية. ومنذ ذلك الحين، بات يجيد الانتظار حتى يأتي وقت الفعل. وقرر الزعيم الشاب أن يوفر للأتراك فرصة الحفاظ على ماء الوجه مستعيناً بوالده وبشيخ الكويت مبارك. حرر عبد الرحمن رسالة إلى والي البصرة مؤكداً فيها أن سبب كل المشاكل هم شمر الذين حرضوا الأتراك على الصدام مع ابنه. وجرى التوصل إلى حل وسط بعث العثمانيون بموجبه حاميتين صغيرتين إلى مدينتي بريدة وعنيزة في القصيم، وصار اسم السلطان يذكر في موعظة الجمعة في المدينتين. وفي المقابل اعترف العثمانيون بعبد العزيز حاكماً لنجد.

العساكر العثمانية الجديدة التي أرسلت إلى نجد من بغداد والحجاز أرغمت النجديين على الاعتراف قولاً بسيادة السلطان العثماني. إلا أن الانتفاضة في اليمن جعلت العثمانيين يبعثون بجزء من عساكرهم المرابطة في نجد إلى هناك. وسرعان ما ذابت الحاميات

العثمانية بسبب الأمراض والهروب من الجيش، فاضطرت إلى الجلاء إلى الحجاز والعراق في سنة 1906م. وعاد إلى هناك أقل من ألف جندي من بين الـ4.5 آلاف الذين وصلوا نجد قبل عامين. وكانت تلك هزيمة محققة. يقول المؤرخ سعود بن هذلول إن القوات العثمانية كانت ممتنة لمغادرة القصيم، وإنها انسحبت من نجد إلى الأبد.

إلا أن معركة نشبت في 13 أبريل 1906م، قبل انسحاب العثمانيين، بين عساكر عبد العزيز وابن متعب.

مع انبلاج الفجر هاجم السعوديون مخيم ابن متعب بعد قصفه بالمدافع، فتحرك حاكم حائل واندفع مضطرباً في محاولة للسيطرة على عساكره. شقّ طريقه إلى راية ابن رشيد التي وقعت في أيدي محاربي عبد العزيز متصوراً أنهم من رجاله، فناداهم باللهجة الشمرية وفضح نفسه، فلقي مصرعه في الحال. وفرّ الشمريون مذعورين. قتل محاربو عبد العزيز ابن متعب وكانت تلك هي نهاية السياسي والقائد العسكري الذي دشّن مقتله فترة غياب الاستقرار في جبل شمر.

كان عبد العزيز رجل زمانه بكل معنى الكلمة، وبكل ما في ذلك الزمان من ظروف اجتماعية وتقاليد وعقلية ومفاهيم عن الشرف والكرامة والسماحة والقساوة. ولو كان قد خسر المعركة لكانت النتيجة على غير ما هي عليه.

في ذلك الشهر بالذات رزق أمير الرياض بابنه الثالث فيصل.

عندما يشنّ عبد العزيز حملاته لا يأخذ معه فراشاً أبداً. وفي فترة متأخرة فقط، أخذوا يحملون له مع المتاع سريراً حديدياً. وفي ما عدا ذلك كان ينام على بساط يفرش على الرمل. يضع السيف إلى جانبه عندما ينام. وأحياناً لا يضطجع، بل يغفو في وضعية الجلوس خوفاً من غدر الأعداء. يسند ذقنه بمرفقيه ويده على مقبض السيف المغروز في الرمال. كان متأهباً دوماً على الرغم من كثرة المرافقين الذين يحيطون به. حصانه ينتظر دوماً إلى جانب الخيمة، وهو مستعد لركوبه قفزاً والانطلاق به من دون سرج ولا عنان. نمط حياته هذا جعل بدنه عبارة عن كتلة من عضلات متوترة. كان يتناول الطعام والشراب كيفما اتفق وبلا انتظام، حتى أصيب في ما بعد بآلام المعدة.

طاقاته بدت كأنها لا تعرف الحدود. كان يعمل طول النهار ومعظم أوقات الليل. يجلس عند مدخل الخيمة ليتحدث إلى من يأتي إليه ويستمع إلى الشكاوى ويحل الخلافات. وكانت الإخباريات والأخبار تصل إليه بانتظام. وهو مطّلع أفضل اطّلاع على بلاده كلها وعلى تاريخ القبائل والواحات وعلى حياة البدو والهجر والحضر. وهو يجيد إقامة المخيمات والمعسكرات وتنظيم التموين وتوفير العلف. أوامره موزونة معقولة. وحتى في أحلك المواقف لم يكن يفوّت مواقيت الصلاة.

كان في الحملات الحربية، وخصوصاً أثناء المعارك، ينفعل وتتّقد عيناه شرراً. لكنه لا يفقد أعصابه أبداً أو قدرته على التفكير برجاحة وبرود. الجميع من حوله متعبون إلى حدّ الإرهاق، وهو نفسه مرهق تعب مثلهم. كان يجهد نفسه أقصى الإجهاد. لكنه بعد هزيمة ابن متعب اضطر إلى الانتظار خمسة عشر عاماً ليتمكن من ضم جبل شمر إلى الدولة السعودية.

لم تكن شوكة ابن رشيد قد كسرت بعد. ولم يتمكن عبد العزيز حتى ذلك الحين من الاستيلاء على حائل وقهر آل الرشيد في عقر دارهم. فظلوا يمثّلون مصدر خطر، لكنه ليس خطراً فتاكاً على أي حال. ذلك لأن انقساماً حصل في عائلة ابن رشيد أضعف بقدر كبير هذه الإمارة المعادية للسعوديين. ولم يظهر عند ابن رشيد زعيم يضاهي عبد العزيز، لا من قريب ولا من بعيد.

تلك كانت السنوات الأولى من نشاط عبد العزيز بعد العودة إلى نجد. وباتت أحداث تلك السنوات من الروايات التي تلهج بها الألسن. فكان الصبي فيصل يترعرع في جو تسوده طاعة الوالد والتغنّي بأمجاده والإعجاب بجرأته وبسالته ومناقبه.

كان عبد العزيز آنذاك في أوج النضوج البدني، كبيراً قوياً، فارع القامة، مفتول العضلات، ونحيفاً بعض الشيء. كان زعيماً معترفاً به وقائداً عسكرياً باسلاً تحيط به هالة النصر وتلازمه دوماً. فقد ألحق الهزيمة بالعثمانيين وحرر نجد من آل الرشيد وحقق النجاح

بفضل ذهنه الثاقب وجرأته وبلاغته ومهارته في القيادة. وإلى ذلك، كان يتمتع برجولة يحسد عليها. وقد تزوج الكثير من النساء، فذاع صيته في كل الأنحاء. لكننا لا نريد أن نستعجل في الحديث عن هذا الموضوع.

إلا أن القدرات المادية لإمارة نجد لم تكن آنذاك كافية للإمساك بزمام الإدارة والحكم. الجميع يعرفون أن البدو لن يبايعوا الحاكم الجديد إن هو منعهم من الغزوات من دون أن يوفر لهم بديلاً منها. وقد انضموا إلى عبد العزيز ليس ولاءً لعائلته، بل طمعاً في غنائم الحملات المظفرة، فيما حاكم نجد منعهم من غارات النهب والسلب وعاقب بلا هوادة كل من لا يخضع لأوامره. وكان البدو على استعداد للغدر به في أي لحظة من دون وازع من ضمير، فقد دأبوا دوماً على الخروج عن السيطرة والطاعة.

وجد عبد العزيز نفسه تحت مراقبة متواصلة ممن هم حوله، وخاصة العلماء الذين يعتبرون أنفسهم قيّمين أو قوّامين على أمور الدين. ولعل ذلك يمثّل نوعاً من التجاوز، بل وحتى الإهانة، إلا أن عبد العزيز لم يكن يبدي أي تذمر أو انفعال. كان بالطبع مسلماً صادقاً يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم رمضان. ولم يكن يتعاطى التدخين وغيره. ولا يرتدي فاخر الثياب. ومع ذلك لم يكن العلماء يمحضونه ثقتهم كاملة. كان مرحاً يقهقه ما طاب له، وكانوا يعتبرون ذلك من المآثم. يسمح لمقاتليه بأن ينشدوا الأناشيد أثناء المسيرات والحملات فيعتبر

العلماء ذلك خروجاً على المألوف. كان براغماتياً واقعياً في السياسة. فعندما علم بأن بعض أهالي عنيزة يدخنون لم يعاقبهم كما يرتئي العلماء.

صلة القربى مع آل الشيخ ساعدت عبد العزيز، إضافة إلى منزلة والده الإمام عبد الرحمن. فالعلماء يثقون بالإمام الذي يقضي معظم أوقاته في الصلاة وقراءة القرآن والتعمق في الإيمان. وهو حلقة الوصل بينهم وبين ابنه عندما تقتضي الضرورة.

إلاّ أن الضربة الجديدة جاءت من حيث لا يتوقعها عبد العزيز. فإن تعزز إمارة نجد ما كان يرضي الشيخ مبارك للأسباب نفسها التي ما كان يروق العثمانيين. ولذا بدرت من الحليف السابق لعبد العزيز وحاميه الذي يصفه في رسائله "بالوالد" إشارات لا تبعث على السرور.

أراضي قبيلة مطير القوية تقع بين الكويت ونجد. اتصل مبارك بشيخ مطير فيصل الدويش وأقنعه بالتحالف مع آل الرشيد.

وفي خريف 1907م قامت معركة الطرفية بين أمير نجد من جهة وشمر ومطير من الجهة الأخرى. إلا أن فرس عبد العزيز كبت به وكسر عظم كتفه الأيسر. لم تؤدِّ المعركة في اليوم الأول إلى فوز أي من الطرفين. ويمكننا أن نتصور آلام عبد العزيز وهو في خيمته من دون أن ترى جفونه النوم في تلك الليلة. آنذاك لم يكن يستخدم الأدوية المسكنة. لكنه في الصباح تحامل على الألم الفظيع وقاد جنوده في هجوم جديد. فلاذ

الشمريون بالفرار. وبعدها هاجم عبد العزيز مطير حتى حدود الكويت، فاستولى على خيامهم وماشيتهم. وتعقّبهم حتى جاؤوا ينشدون الصفح والسلام.

آنذاك، في عام 1907م، تسلم حزب "تركيا الفتاة" مقاليد الحكم في الأستانة. وحاولت السلطات الجديدة أن تعزز مواقعها في بلاد العرب، وخاصة في الحجاز والحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وفي سنة 1908 عُيّن حسين بن على شريفاً لمكة وحاكماً للحجاز. وهو من سلالة الرسول، وقد عاش مع عائلته أمداً طويلاً في الأستانة، والعثمانيون يعتبرونه موالياً لهم. كان قد تجاوز الخمسين من العمر، يعرف كيف يتصرف مع العثمانيين. إلا أنه يتميّز بالتعنّت والريبة وحب العظمة.

خلال عامين من حكمه، دلّل الشريف حسين على ولائه للباب العالي بشن حملة على عسير، فيما كانت العساكر العثمانية مشغولة بإخماد انتفاضة الإمام يحيى في اليمن. احتل الشريف حسين منطقة عسير من أجل الأسياد العثمانيين، وعاد إلى مكة عبر واحات بيشة ورنية وتربة الواقعة على الحدود مع نجد وبسط سيطرته عليها.

في نهاية صيف 1910م جمع الشريف حسين متطوعة بدوية اقتحم بها نجداً. وفي الطريق تمكن صدفة من أن يأسر سعد شقيق عبد العزيز.

كان عبد العزيز يتهيّأ لمقاتلة الحجازيين عندما عرف بالانتفاضة التي اندلعت وراء ظهره وتزعمها أبناء عمه

سعود، منافس والده الذي حكم الرياض في زمن ما. وقد اعتمدوا على قبيلة العجمان القوية التي تربطهم صلة قربى بوجهائها.

عبد العزيز لا يقوم بتصرفات هوجاء من دون تفكير. وما دامت الانتفاضة قد اندلعت في مؤخرته فلن يستطيع الانتصار على الشريف حسين الذي يبغضه. ولذا تجاوز الاعتزاز بالنفس ووقّع صلحاً عاجلاً معه، ودفع فدية عن أخيه سعد. كذلك وعد بدفع جزية قدرها 6 آلاف ريال سنوياً للسلطان العثماني، وكرر الاعتراف الرسمي بسيادة العثمانيين على نجد. وبعد ذلك جرى إطلاق سراح سعد، وعاد الحسين إلى مكة. إلا أن أمير الرياض ما كان ينوي تنفيذ شروط الاتفاق. فلم يدفع أي جزية للسلطان، فيما ظل الاعتراف بالسيادة العثمانية مجرد كلام.

بعد توقيع الصلح مع شريف مكة، توجه عبد العزيز إلى الحريق لإخماد التمرد هناك. وقُضي على المتمردين. إلا أن عبد العزيز عفا عن قريبه سعود بن عبد الله بن سعود زعيم التمرد، واحتفظ الأخير بولائه لعبد العزيز حتى آخر أيامه. أما باقي العرايف فقد فروا إلى الحجاز في حماية الشريف حسين.

انتشر هذا النبأ بين القبائل من واحة إلى واحة. فلا بد للجميع أن يعرفوا كيف ينتقم عبد العزيز ممن يخونه وكيف يعدل مع من يواليه.

كان عبد العزيز يؤدي الوظائف الأساسية للدولة على مرأى من الجميع. يجلس على مدرج قصره في الرياض

أمام حشد من الضيوف والحضر والبدو البسطاء. وفي الحملات والمخيمات الميدانية كان يجلس عند مدخل الخيمة أو جنب المسجد في البلدات التي ليس فيها قصور ولا حصون، يحيط به شيوخ البلد والحرس الشخصي من أفضل المحاربين والعبيد المخلصين. وكلهم مسلحون بالسيوف والمسدسات وبعضهم بالبنادق، وأحياناً يحمل العبيد العصي والهراوات. وهم الذين يتولون تنفيذ القصاص.

أمير الرياض يحل خلافات رعاياه على آبار المياه والمراعي وحدود القبائل وتوزيع الماء وعائدية الإبل، ويبت أموراً كتهمة السرقة ودعاوى الفدية والتعويض عن الجروح والإصابات أثناء العراك والشجار وما إلى ذلك. وكل مواطن يستطيع أن يراجعه شخصياً. فتراه تارة سخياً متساهلاً، وتارة صارماً سريع الانفعال إذا اعترض عليه أحد من دون حق ولا حجة. كان يمارس القضاء وفقاً للشريعة، لكنه يراعي الأصول القبلية التقليدية. وسلطته تنبسط على الحياة والموت. فليس هناك محامون أو حقوقيون، ولا أحد يعرف أو يريد أن يعرف بوجودهم. كان يستمع إلى إفادات الطرفين ثم يبتّ الدعوى. وإذا قرر أن السرقة ثبتت بالدليل القاطع تبتر يد السارق عبرة للآخرين.

وقد يصادف أن يطالبه أقرباء القتيل بمعاقبة القاتل. فبوسع عبد العزيز أن يأمر بقطع عنق القاتل، لكنه يتأمل ويفكر، ألا يؤدي ذلك إلى مسلسل من الثأر؟ تقاليد البلاد تسمح بدفع فدية للحيلولة دون تعمّق الثارات وسفك

الدماء بين القبائل والعشائر. وكان عبد العزيز في مثل هذه الحالات يحكم بالفدية، فيتقبّل الطرفان هذا الحكم.

الناس يتابعون ويرون أعمال الحاكم وقراراته وينشرونها في كل أرجاء البلاد. وكان عليه أن يبتّ الأمور ويتخذ القرار بسرعة، ويعدل بين الناس ويتحلى بالتشدد والصرامة عند الضرورة. وما كان بوسعه أن يختبئ وراء آلة الدولة التي لم تكن موجودة آنذاك، ولا أن يتظاهر بالحكمة. فهو حاكم وقائد عسكري وقاضٍ شرعي. ولو كان متردداً أو جاهلاً بأصول الشريعة وعادات المجتمع أو ظالماً جائراً لما احترمه أحد، ولامتنع الجميع عن دفع الزكاة في أول فرصة سانحة، ولرفضوا المشاركة في حملاته الحربية، وهذا هو الأهم. كان حاكماً مطلقاً، ولكن بإرادة الشعب الذي لم يعرف وما كان يريد أن يعرف أو يتصور نمطاً آخر للحكم.

في كل مدينة وواحة يعيّن عبد العزيز حاكماً أو عاملاً يولّيه أمر الحفاظ على الأمن واستيفاء الزكاة، ويكون مستعداً لتجنيد العساكر عند الطلب. كان يختار عامليه وحكامه عادة من أبناء وجهاء المنطقة من غير خصومه التقليديين. وإذا كان الوجهاء وأعيان البلد معادين له يبعث من الرياض أميراً أو حاكماً مع حرس قوي.

وهو ينتقي الحكام المحليين باهتمام كبير، بعد تقويم دقيق لخصالهم وطباعهم وقدراتهم. ويعرف كيف

يتعامل معهم، فإما يمدّ لهم يداً سخية وإما يعاملهم بقبضة من حديد.

عندما يزور بلدة أو واحة يلتقي بكل الوجهاء وليس بالحاكم وحده. فيصلي معهم ويحتسي القهوة ويبحث المشاكل المحلية ويستفسر عن أمورهم وأوضاعهم ويوزع الهدايا عليهم. ولم يكن يعرف الرأفة أو الرحمة في معاملة الحكام العاجزين والفاسدين.

كان بعض الحكام والمشايخ كثيراً ما يتنافسون في ما بينهم ويشي بعضهم ببعض. وهو يعرف خفاياهم، ومع من يتصادقون ويتصاهرون أو يتعادون، كما يعرف أسباب خلافاتهم وتنافسهم. ويستفيد من التناقضات في ما بينهم للمصلحة العامة.

في بداية العقد الثاني من القرن العشرين، خيّم الخطر على الإمارة. فعلى الرغم من الضعف الذي أصاب الإمبراطورية العثمانية، لم تتخلّ عن مستعمراتها في جزيرة العرب. واستمر مدّ سكة الحديد إلى المدينة المنورة. وموّل العثمانيون إمارة جبل شمر وقبائل مطير والعجمان المعادية لعبد العزيز. وسرت شائعات عن عساكر تجمعت في بغداد لغزو الجزيرة.

إلا أن حروب البلقان بدأت. وفي ليبيا، مُني العثمانيون بالهزيمة على أيدي الإيطاليين. كذلك هاجم البلغار إسطنبول. وفي هذه الظروف باتت السيطرة على جزء لا قيمة له من الصحراء أمراً ثانوياً بالنسبة إلى العثمانيين. فأخذوا ينقلون قواتهم حتى من الأحساء، وحتى من بلاد الرافدين، ليحشدوها في

أماكن الخطر الأكبر. آنذاك، وجد عبد العزيز فرصة للتقدم نحو الخليج والاستيلاء على الأحساء.

هذه المنطقة شغلت بال حكام الرياض دوماً، ليس فقط لأنهم يعتبرونها من أراضيهم. فإن واحات الأحساء الغنية والعائدات الجمركية يمكن أن تحسّن الوضع المالي للدولة. ثم إن إمارة الرياض في حاجة إلى منفذ إلى البحر. إلا أن حاكم نجد يعرف من تجربة إقامته في الكويت أن القوة الرئيسة في الخليج العربي هي بريطانيا، ولذا سعى من عام 1903م إلى علاقات ودّية معها.

في بداية 1912م حاول الباب العالي المشغول بالحرب في أوروبا أن يستعين بولاياته البعيدة في جزيرة العرب، أو يأمن وقوفها على الحياد. فبعث وفداً إلى عبد العزيز تناول أيضاً مسألة إرسال عساكر نجدية لإسناد الحامية العثمانية في الأحساء. وأدرك حاكم نجد أن الأحساء ستقع قريباً في يده ثمرة ناضجة.

سكان الأحساء المتضايقون من الابتزاز والنير العثماني يتطلعون إلى النجديين كمحررين. في عام 1903م كتب القنصل الروسي في البصرة أن المتصرف العثماني في سنجق الأحساء "أوصل سكان السنجق العرب باستبداده وتعاطيه الربا إلى حالة من الإرهاق التام".

وأبلغت القنصلية الروسية في البصرة موسكو أن سلطة العثمانيين في الأحساء شكلية.

وفي أوائل مايو، حشد ابن سعود نحو 8

آلاف من الأعراب المسلحين جيداً واقتحم الأحساء فجأة وهجم على الهفوف. ولم يكن احتلال المدينة صعباً عليه[2].

ومن جديد كان عبد العزيز حكيماً في عدم المضي بمعارضة العثمانيين حتى النهاية. فقد سمح لهم بإخلاء حامياتهم مع أسلحتها من الأحساء ووافق شكلياً على الاعتراف بسيادة السلطان العثماني.

تعززت مواقع حاكم نجد كثيراً بضم الأحساء. فقد حصل على ميناءين في منطقة الخليج وعلى عائدات الجمارك هناك. إلا أن عبد العزيز يدرك محدودية إمكاناته. ولقد حقق ما يكفيه من النجاح حتى الآن. وفي الجهة الغربية يقع الحجاز الذي يحكمه عدوه الشريف حسين المعتمد على العثمانيين آنذاك. ولا يزال عبد العزيز يسمّي شيخ الكويت مبارك "الوالد" وينشد نصحه، لكنه بات يعلم أن الشيخ الداهية يعمل ضده. ولم يهاجم عبد العزيز شمر لعلمه بقوتهم وقدرتهم على المقاومة واستعدادهم لضربه والقضاء عليه إذا ضعفت سيطرته على نجد.

إنه في حاجة إلى قوة ترصّ صفوف جميع رعاياه، قوة الروح والإيمان والمثل العليا التي توحّد بين البدو والحضر وتجمع شمل الناس. فبذل جهداً كبيراً في هذا الاتجاه. وكان عليه أن يتحلى بالصرامة والشدة ويعطي العبادة والصلاة حقهما.

لا أحد يعلم من الذي خطرت في باله لأول مرة فكرة بناء الهُجَر لإسكان البدو الذين باتوا يسمون أنفسهم

الإخوان بعد سكناها. ربما هو عبد العزيز نفسه، وربما أبوه، والأرجح صهره الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف. فالرأي السائد أن الزعامة الروحية لحركة الإخوان كانت بيد الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ وقاضي الأحساء الشيخ عيسى، وكذلك عبد الكريم المغربي الذي نزح إلى الجزيرة في أواخر القرن التاسع عشر واستقر في المنطقة التي نشأت فيها هجرة الأرطاوية في ما بعد. وإذا كان البدو ممنوعين في ظل عبد العزيز من غارات النهب والسلب، فلا بد من توفير مصادر للدخل ثابتة نوعاً ما لهم.

ومن تلك المصادر الزراعة الحضرية التي تغدو فيها "إخوانية" الولاء لله أهم من الولاء للقبيلة.

إضافة إلى التقّيد بأركان الإسلام الخمسة، تعيّن على الإخوان أن يوالوا إخوانهم ويخضعوا للأمير الإمام ويتعاضدوا في ما بينهم ويتخلوا عن التعامل مع الأوروبيين ومع سكان المستعمرات التي يحكمها الأوروبيون.

لا أحد يعرف على وجه التحديد تاريخ تأسيس الأرطاوية أول هجرة للإخوان، والأرجح أنها ظهرت في النصف الأول من عام 1913م.

بعض أبناء قبيلة مطير باعوا طوعاً في سوق الكويت بعض إبلهم ومعدات الخيام اللازمة للحياة البدوية، واستقروا في منطقة الأرطاوية وبنوا بيوتاً لهم بعد أن صمّموا نهائياً على ممارسة الزراعة والانصراف إلى العبادة والتوحيد.

وتحولت عُرى التعاضد القبلي والعشائري التقليدي إلى تعاضد الإخوان. فإذا سُلبت ممتلكات أحدهم أو نفقت ماشيته يتبرّع له الإخوان بما يعوّضه عمّا فقده.

شجّع عبد العزيز التحضّر وساعد الإخوان بالمال والبذور والأدوات الزراعية والمواد الإنشائية لبناء المساجد والمدارس والمنازل، وأرسل إليهم المعلمين من المطوعة. وإلى ذلك كان يزوّد المحاربين بالسلاح والذخيرة لحماية الدين والدولة والمجتمع.

دأب أمراء الهجر مع حاشياتهم على زيارة عبد العزيز ما لا يقل عن مرة في العام، فيتلقّون منه مساعدات مالية وهدايا ويحلّون ضيوفاً عليه. أسماء الأمراء مدوّنة في سجلات خاصة، ومقدار المساعدة يتوقف على خدماتهم وعدد أتباعهم. وكانت تدفع مكافآت سنويّة للإخوان المقاتلين الواردة أسماؤهم في سجلات ديوان حاكم نجد. كذلك تدفع معونات مالية حسب الطلب لشراء الأطعمة والماشية أو لتسديد دين أو للصرف على الزفاف أو بناء بيت وما إلى ذلك من احتياجات عامة الناس.

الشرط الرسمي للانضمام إلى الهجرة هو التخلي عن العادات القبلية ونمط الحياة البدوي. إلا أن هذا الشرط ما كان يطبّق عملياً، فكانت الهجر تنشأ عموماً على أساس قبلي. وباتت هجر الإخوان في الواقع مقارّ لشيوخ أكبر القبائل. وعلى سبيل المثال، أقام فيصل الدويش من مطير في الأرطاوية، وابن بجاد من عتيبة

في الغطغط، وابن نحيت من حرب في دخنة وابن جبريل وابن ثنيان من شمر في الجفر.

يتجلى تديّن الإخوان، وجهادهم في سبيل الله طبعاً، في خدمة أولياء الأمور على الأرض. وتحظى جهودهم الدينية والدنيوية بالثواب، كما كانت الحال سابقاً، من خلال غنائم الحرب، ولكن ليس بشكل غزوات قبلية لنهب بعضهم بعضاً في دروب القوافل، بل في الحرب على الكفار والمشركين. وقد اقترنت الضرورة الاقتصادية والاجتماعية لاستقرار البدو الرحّل وتحضرهم وانتقالهم إلى الزراعة مع الدعوة الدينية ومقتضيات الحروب. إلا أن هذه المهمات كانت متعارضة أحياناً، فتفكّكت بعض الهجر بسبب هذا التعارض.

كان الإخوان الجدد، عادة، أكثر تعصّباً من سائر المتدينين، فاعتبروا أنفسهم أعلى من باقي المسلمين، حتى باتوا يستهينون بهم ويتميزون عنهم بالمظهر الخارجي، فيصبغون لحاهم بالحناء ويرتدون ثياباً بيضاء قصيرة لا تكاد تغطي الساقين.

وقد تمادى الإخوان في الخدمة إلى درجة جعلت بعض الباحثين يتصورون أن عبد العزيز تمكن بمعونتهم في مطلع العشرينيات من أن يقهر أقوى القبائل البدوية ويقيم في البلاد نظاماً "غير مسبوق"، على حدّ تعبير جون فيلبي، أو كما سمّاه البدو "زمن كمّ الأفواه". فقد ألغيت امتيازات المشايخ، كالإعفاء من الزكاة واستيفاء

الخوّة من الجيران الأضعف. إلا أن بعضها ظل باقياً بأشكال أخرى محدودة النطاق.

كان الإخوان يطلقون توصيف "الكفار" على كل من لا ينضم إليهم من أهالي المدن والواحات والبدو الرحل. وكانوا يبالغون في التطرف والغلوّ والتعصب للدين.

أما عبد العزيز نفسه فما كان متعصباً يوماً. استفاد من حركة الإخوان لبلوغ أهدافه، متحاشياً التطرف الملازم لها.

الصبي فيصل عرف عن انتصارات أبيه الحربية ونجاحاته السياسية وهو يستمع إلى الأحاديث عن حملاته ومعاركه في المجالس، ويراقب كيف كان والده يخضع القبائل البدوية ويصلح ما بينها ويعاقبها أو يجزل لها العطاء بسخاء. إلا أن عبد العزيز لم يكشف عن دبلوماسيته بالكامل لرعاياه وللعلماء وحتى للمقرّبين من حاشيته. كان يفصح عنها بالمثقال، مدركاً أن ردّ فعلهم قد لا يستجيب دوماً لمقتضيات الحكمة السياسية.

الدروس والعبر التي استقاها عبد العزيز في الكويت، في بلاط شيخ الدبلوماسية العربية مبارك، لم تذهب سدى. فقد أدرك أن الاستقلال عن الباب العالي يمكن أن يتحقق من خلال التعاقب بين المواجهة الحربية، ليس مع العثمانيين أنفسهم، بل مع ولاتهم، وبين السبل السياسية كالاعتراف العلني بسيادة السلطان واستخدام ألقاب ورتب العثمانيين ورفع أعلام الإمبراطورية العثمانية. إلا أن تثبيت الانتصارات كان يتطلب تفاهماً

مع دولة كبرى أخرى هي الإمبراطورية البريطانية. في بادئ الأمر كان الإنجليز يتحاشون الاتصالات المباشرة مع عبد العزيز، ولا يرغبون في التدخل في شؤون أواسط الجزيرة. وبعد إخضاعه الأحساء لم يرغبوا في تحويل اتصالاتهم به إلى التزامات محددة.

كانت أوروبا في طريقها إلى الحرب العالمية الأولى. وقد سعت لندن إلى إخراج الإمبراطورية العثمانية من الائتلاف المعادي لبريطانيا. ولم تكن تنوي الدخول في خلاف مع إسطنبول على الإمارة العربية البعيدة البائسة التي لا أهمية لها بالنسبة إلى الإنجليز. ولذا تملّصوا من توقيع الاتفاقية الرسمية التي يطمح إليها عبد العزيز. ووفقاً لاتفاقية 1913م بين لندن وإسطنبول، تظل معظم أراضي إمارة عبد العزيز تحت سيادة الإمبراطورية العثمانية، لأنها تقع شمالي "الخط الأخضر" الممتد من محمية عدن إلى قطر والذي رسمت بموجبه الحدود بين المستعمرات البريطانية والعثمانية. لم يكن عبد العزيز على علم بهذا التواطؤ السري، إلا أنه عثر على حلّ عبقري عندما وقّع في مايو 1914م معاهدة مع العثمانيين اعترفت به والياً على نجد والأحساء، وصدر عن السلطان فرمان بهذا الشأن في 8 يوليو 1914م. كذلك ألقت المعاهدة على عبد العزيز التزامات شكلية بمساعدة العثمانيين عسكرياً في حال دخولهم حرباً مع بلدان ثالثة. ولم يعرف الإنجليز نبأ هذه الاتفاقية إلا بعد احتلال البصرة سنة 1914م ومراجعة الأرشيفات العثمانية هناك.

عندما بدأت العمليات الحربية ضد الإمبراطورية العثمانية باتت المهمة الأولى لبريطانيا هي إحكام السيطرة على مصر وقناة السويس والبحر الأحمر، وكذلك الاستيلاء على رأس جسر بين دجلة والفرات في جنوب العراق لحماية حقول النفط في إيران من الهجوم الألماني - العثماني المتوقع. وتحقق الأمر الأول بوجود القوات المسلحة البريطانية في مصر وسيطرتها على مشارف القناة من جهة سيناء، فيما تحقق الأمر الثاني بواسطة فيلق الحملات الموجود في بلاد الرافدين.

نزلت القوات البريطانية في البصرة وبدأت زحفها صوب بغداد، فيما أحكم العثمانيون قبضتهم على أراضي الحجاز حتى حدود اليمن. وكانت إمارة جبل شمر حليفة لهم. في هذه الظروف سعى الإنجليز إلى كسب ودّ عبد العزيز. في تلك الفترة جاءه أيضاً مبعوثون عثمانيون وألمان قبيل الحرب وبعد اندلاعها ليقنعوه بأن يلتزم جانب الباب العالي. وكانت له في الوقت ذاته علاقات طيبة مع المندوب السامي البريطاني في الكويت الكابتن شكسبير.

لقد أجرت الحرب تغييراً جذرياً على العلاقة بين المثلث السعودي العثماني البريطاني. وكانت هناك أسباب عديدة دفعت الإنجليز إلى رفع علاقاتهم مع عبد العزيز إلى المستوى الرسمي. ومنها مهمة حماية جناح الجيش البريطاني في بلاد الرافدين، وتقييد جزء من القوات العثمانية بعمليات قتالية نشيطة من

الحجازيين، وتحييد إمارة جبل شمر التي سلحها العثمانيون، وقطع سبل تموين الحاميات العثمانية في الحجاز. إلا أن مصالح الوطن كانت بالطبع في المقدمة بالنسبة إلى عبد العزيز، فيما كان الكابتن شكسبير الذي سبق أن أقام علاقات شخصية ودّية معه يتوخى مصالح بلاده تحديداً. واقتضى الأمر آنذاك أن يهاجم أمير الرياض أتباع العثمانيين من شمر.

استغرقت معركة جراب ضد شمر عدة أيام في أواخر يناير 1915م. وحسب بعض المعلومات، لم يقتل فيها سوى الكابتن شكسبير، فيما تفيد معلومات أخرى أن الطرفين خسرا مئة قتيل لكل منهما. وفي اللحظة الأخيرة قلبت العجمان ظهر المجن لعبد العزيز بعد أن قاتلت إلى جانبه في البداية، فمُني بالهزيمة. وقد دخل مقاتلو عبد العزيز المتأثرون كثيراً بميول الإخوان المعركة تحت نداءاتهم الحربية وصيحاتهم المدوية، فيما كان مقاتلو شمر الذين يمثّلون أساس عساكر حاكم حائل يقتحمون وسط هتافات وهلاهل نساء القبيلة. هذه الأمور ذات أهمية مميزة. فهي مشهد غير مألوف من مشاهد الحرب العالمية الأولى التي اندلعت في أوروبا باستخدام المدافع والغازات السامة والطائرات، ثم الدبابات. أما في الجزيرة العربية، فإن انتقاء الصيحات والنداءات الحربية بحد ذاته كشف عن اختلاف قاعدة الإمارتين، القاعدة القبلية بالنسبة إلى إمارة جبل شمر وقاعدة أعراب الجزيرة القائمة على التوحيد الإخواني بالنسبة إلى إمارة نجد.

كان لدى عبد العزيز قليل من المال وقليل من الرجال، فيما لا تحترم القبائل إلا الحاكم القوي الغني. وما إن تبدو عليه أدنى إمارات الضعف حتى يقلب له البدو ظهر المجن. وكانت الأموال العثمانية التي توزع على القبائل تفعل فعلها ضده. وقد أعلنت العجمان وشيخها ضيدان بن حثلين العصيان، إلا أن عبد العزيز لم تبدُ عليه بوادر الضعف إطلاقاً. كان يشع تفاؤلاً وثقة بالنفس. يضرب بالعصا على مرأى من الجميع كل من يحمل له أخبار السوء. إلا أنه يستمع بكل اهتمام، على انفراد، لكل الأخبار التي تصله، وذلك لكي يحسب حسابه بدقة. وقد أعلن أنه سيهاجم جبل شمر. كانت تلك خدعة، لكنها فعلت فعلها وعادت بثمار. فلا بد من الاتفاق مع الإنجليز.

لم يكن عبد العزيز يعرف نتيجة الحرب، لكنه يعرف هزائم القوات البريطانية في وادي الرافدين في السنة والنصف الأولى من تلك الحرب. ولذا لم يقم بأيّ حركة مباشرة ضد العثمانيين. فمن يستطيع أن يتكهن بالنتيجة النهائية؟ إذا ظل تحت الاحتلال العثماني فسيكون انتقام الأتراك منه فظيعاً.

كان حاكم نجد يدرك أن الإنجليز في ظل الحرب يحتاجون إليه أكثر من حاجته إليهم. ولذا استطاع أن يطالب بشروط أفضل لبلاده في المعاهدة المنشودة من وقت طويل. وأخيراً، في 26 ديسمبر 1915م، وقّع تلك المعاهدة في بلدة دارين مع المندوب السامي البريطاني في العراق بيرسي كوكس، وهو يعرفه منذ زمن. وتبين

دراسة الوثائق مدى اهتمام عبد العزيز ومهارته في معالجة كل بند من بنود المعاهدة وقدرته على الدفاع عن مواقفه، من دون أن يسمح بصياغات تطلق أيدي الإنجليز في الشأن السعودي.

ذيّل كوكس وعبد العزيز المعاهدة بتوقيعيهما. وبموجبها اعترفت الحكومة البريطانية بعبد العزيز وعائلته "حاكماً لنجد والأحساء والقطيف والجبيل والمدن والموانئ التابعة لها"، وكذلك قبائل هذه المناطق. وصدّق نائب الملك في الهند على المعاهدة في 18 يوليو 1916م. وحقق عبد العزيز هدفين قديمين طويلي الأمد، هما الاعتراف به حاكماً لنجد بالوراثة وواجب المساعدة البريطانية. وتنازل للإنجليز عن حق الاتصالات الدولية وتعهد بعدم منح الامتيازات في أراضيه لأحد ما عدا الإنجليز. آنذاك لم يكن كلا هذين البندين يتّسمان بأهمية بالنسبة إليه. وكانت المعاهدة أول وثيقة حقوقية للاعتراف بالمكانة الدولية الجديدة للدولة السعودية.

عشية توقيع المعاهدة، قدم الإنجليز هدية إلى أمير الرياض هي ألف بندقية و20 ألف جنيه إسترليني، وسمحوا له بشراء المعدات الحربية في البحرين.

في تلك الأثناء أدّت المفاوضات السرّية بين الإنجليز والشريف حسين إلى الانتفاضة العربية على العثمانيين التي اندلعت في 5 يونيو 1916م. كان الوزن الدولي للشريف حسين بوصفه من سلالة الرسول واتصالاته مع القوميين العرب وإمكان مشاغلة أربع فرق عثمانية

بالانتفاضة من معان حتى صنعاء، كل ذلك جعل الإنجليز يختارون الشريف حسين حليفاً رئيساً لهم في الجزيرة العربية. فوجد عبد العزيز نفسه مطوّقاً بالأعداء من ثلاث جهات: الشريف حسين المتحالف مع الإنجليز من الغرب، وإمارة جبل شمر الموالية للعثمانيين من الشمال، وقبيلة العجمان التي تمردت عليه من الشرق.

ولم ينسَ عبد العزيز خيانة العجمان في معركة جراب.

في صيف 1915م، قبل توقيع الاتفاقية مع الإنجليز، توجه عبد العزيز على رأس قوة غير كبيرة إلى الأحساء، وهناك انضم إليه المتطوعة. وباغت العجمان عند جبل كنزان في مايو - يونيو. إلا أن عساكر العجمان قاومت ببسالة وصمدت. وخسر النجديون نحو 300 شخص، بينهم شقيق عبد العزيز سعد، كما أصيب عبد العزيز نفسه بجراح.

وقعت الرصاصة في جراب الخراطيش على صدره، فأنقذه ذلك من الموت، إلا أن الجراب انفجر وكسر ضلوعه. هرب رجاله، وهرب هو معهم، كما يقتضيه التكتيك البدوي. لكنه لم يفقد معنوياته.

بعد هذا الإخفاق، اضطر عبد العزيز إلى اللجوء إلى قلعة حصن الكوت بمدينة الهفوف. وأخذت العجمان تنهب الواحات المجاورة، وحاصرت عبد العزيز ستة أشهر تقريباً، حتى سبتمبر - أكتوبر 1915م، وساعدها بعض الأمراء المحليين والعرايف. كذلك وصلتها النجدة

من حائل. فبعث والد عبد العزيز إلى الهفوف إمدادات بقيادة ابنه الثاني محمد.

ومن جهة أخرى، كان مبارك يريد أن يرى عبد العزيز ضعيفاً فقط، وليس مهزوماً على يد العجمان. فهو يخشى انتصاراتها. ولذا أرسل له نجدة مع ابنه سالم.

وحصلت معركة أخرى ضد العجمان شارك فيها عبد العزيز بقامته الفارعة التي تعلو على الجميع. إلا أن رصاصة أصابته في فخذه، فسقط عن ظهر الحصان. وانتهزت عساكر العجمان البلبلة والاضطراب في صف عبد العزيز ولاذت بالفرار. وعندها انضم إليها سالم بن مبارك في لحظة من لحظات القتال، وذلك لأنه تلقّى توجيهاً من والده بأن يلتزم جانب المغلوب.

اكتأب رجال عبد العزيز متصورين أن الأمير الجريح لن يستطيع أن يواصل القيادة، إلا أنه فاجأهم بإقامة مراسم زفاف له على فتاة من الواحة المجاورة تزوجها في تلك الليلة. وتنفّس المخيم الصعداء مبتهجاً بهذه المناسبة. وأعرب الرجال عن إعجابهم بقائدهم، واستعادوا معنوياتهم. ومن جديد نشبت اشتباكات ضد العجمان.

عاد سالم إلى الكويت بعد أن بلغه نبأ وفاة والده الشيخ مبارك في يناير 1916م. وانتقلت المشيخة إلى جابر بن مبارك صديق عبد العزيز.

قاتل عبد العزيز العجمان طوال عام 1916م. لقد طوى النسيان الأصول والقواعد القديمة التقليدية لخوض الحرب في الصحراء، فدمرت الآبار واقتلعت

النخيل. واشتدت الكراهية والبغضاء بين الطرفين إلى درجة جعلت النساء يشاركن في الحرب ويقضين على الجرحى من رجال العدو. إلا أن عبد العزيز يجيد التحرك أسرع من أعدائه. فكان أفضل زعيم وقائد عسكري يفوق الآخرين من حيث رجاحة العقل وبعد النظر. ظل يضرب العجمان من دون رحمة، إلى أن فرّ ضيدان بن حثلين من الأحساء إلى الكويت.

كان عبد العزيز على اتصال بالوالي العثماني وبقادة القوات العثمانية الموجودة في ضواحي المدينة المنورة، ويزوّد الأتراك بالإبل مقابل المال.

في 20 نوفمبر 1916م، عقد بيرسي كوكس في الكويت ما سمّي "الدربال أو المجلس الكبير" الذي حضره عبد العزيز وشيخ الكويت جابر وشيخ المحمرة خزعل.

آنذاك مثّل عبد العزيز مشهداً مسرحياً متعمداً حيث سلّم الإنجليز 700 جمل صادرها بنفسه وكانت مخصصة للعثمانيين.

بعد "المجلس الكبير" زار عبد العزيز البصرة فعرض أمامه الإنجليز أسلحتهم الحديثة ورأى الطائرات لأول مرة. ولم يُبدِ الأمير إعجابه بكلمات الإطراء والمديح، فهو قليل الكلام في مثل هذه المناسبات. إلا أن الآليات الحربية لا بد أن تكون قد حظيت بإعجابه.

ولكن الشيء الوحيد الذي لم يستطع عبد العزيز أن يفهمه هو كيف تمثل الجيش البريطاني امرأة من النساء هي جرترود بيل التي رافقته في جولته.

في نهاية عام 1917م استعاد عبد العزيز سيطرته على نجد والأحساء وتنفّس الصعداء.

في تلك الأثناء حوصر الجيش البريطاني الزاحف على بغداد قرب الكوت، ووقع في الأسر بكامله. إلا أن الإنجليز أرسلوا إمدادات وتعزيزات، فاستولى الجيش البريطاني الجديد على بغداد وتقدم نحو الموصل. ومن جهة مصر صدّ جيش بريطاني آخر هجوماً للقوات العثمانية على قناة السويس بقيادة الجنرال اللينبي وتقدم شمالاً إلى فلسطين.

أخذ الإنجليز يدفعون معونة إلى الشريف حسين قدرها 20 ألف جنيه ذهباً في الشهر، كما قدموا له الأسلحة والذخيرة. إلا أن دحر العثمانيين لم يكن بالأمر اليسير. فقد ظلوا طوال الحرب العالمية الأولى صامدين على طول الخط الممتد من معان عبر المدينة المنورة حتى اليمن، على الرغم من أن الانتفاضة العربية قيّدت فرقهم الأربع هناك طوال عامين.

وبات حياد عبد العزيز، حتى من دون عمليات قتالية نشيطة من جانبه، يصبّ في مصلحة الإنجليز. ففي كل الأحوال كان عبد العزيز يشاغل قسماً من قوات جبل شمر. إلا أن الإنجليز ظلوا يعوّلون على الشريف حسين، رغم إدراكهم أن مسؤولية تفاقم الخلافات بين نجد والحجاز تقع عليه. فهم اعترفوا به ملكاً للحجاز وليس للأقطار العربية، وسلّموه نسخة من المعاهدة البريطانية السعودية التي كان يتعيّن عليه أن يحترمها. لكنّ ذلك لم يمنعه من شراء ولاء القبائل المقيمة بين نجد

والحجاز بأموال الإنجليز. وهو أمر أثار أشد الاستياء لدى عبد العزيز.

كان الكابتن توماس إدوارد لورنس من بين الأشخاص الذين بعث بهم الإنجليز من القاهرة للاتصال بالشريف حسين. ولم يكن لورنس أكثر بروزاً بين سائر ضباط الاتصال والاستخبارات، إلا أنه يمتلك موهبة أدبية. وقد ألّف بعد الحرب كتاب **أعمدة الحكمة السبعة**، فكسب شهرة واسعة وبات بطلاً وطنياً لبريطانيا.

بفضل شخصية لورنس، بات الاهتمام بالثورة العربية على الأتراك كبيراً للغاية في المطبوعات الأوروبية والأميركية، سواء منها التاريخية أو الأدبية. وقد وصل لورنس إلى شريف مكة في أكتوبر 1916م والتقى ابنه عبد الله ثم ابنه الثاني فيصل. آنذاك انتزعت الفصائل البدوية المدن الصغيرة من أيدي العثمانيين على ساحل البحر الأحمر، ثم توجهت نحو شمال الحجاز لتحتل ميناء العقبة. وفي المعركة المهمة مع العثمانيين على مشارف العقبة حسم القضية زعيم بدوي باسل ومحنك، فيما فقد لورنس أعصابه وراح يطلق النار عشوائياً. فقتل بعيره برصاصة في الرأس وسقط عن ظهره فاقد الوعي. ثم اقتصرت عمليات العساكر العربية على مقاتلة العثمانيين شرق نهر الأردن وعلى تخريب في السكة الحديدية شارك فيه لورنس بنشاط. وقد ساعدت الانتفاضة العربية على نجاح الحلفاء وحقنت دماء الكثير من الجنود البريطانيين. إلا أن العرب

استشهدوا في الواقع، لا لشيء سوى أن يتقاسم المستعمرون بلادهم وديارهم في ما بعد. وكان لورنس عارفاً بحقيقة الأمر. كتب يقول:

> بما أنني لم أكن أحمق ولا أبله، فقد فهمت أننا بعد أن نكسب الحرب تبقى وعودنا للعرب مجرد حبر على ورق. ولو كنت أتوخى النزاهة لأعدت رجالي إلى عوائلهم ولما جازفت بحياتهم من أجل وعود كهذه. إلا أن حماسة العرب كانت وسيلتنا الرئيسة لنكسب الحرب في المشرق. ولذا عاهدتهم بأنّ بريطانيا ستتقيّد بوعودها نصاً وروحاً... ولكنني بالطبع كنت أشعر دوماً بالمرارة والخجل[3].

لم يكن لورنس يتمتع باحترام العرب. فكانوا يقولون عنه إنه اشترى الدم العربي بالذهب الإنجليزي، ثم كتب قصة هي الافتراء بعينه.

كتب المستعرب والدبلوماسي الهولندي دانيل فان دير ميولين يقول:

> لم يكن العرب يقدّرون لورنس المغرور. لقد كان ساذجاً. كان موهوباً جداً، لكنه لم يكن ناضجاً على الإطلاق. جزيرة العرب بالنسبة إليه ساحة مغامرات. والبدو، وحرب العصابات على ظهور الجمال في الصحراء، بالنسبة إليه مجرد نوع من أنواع الرياضة ووسيلة لتجريب القدرة على التحمل. كان

يتمتع بموهبة الفنان وبسالة الزعيم الحقيقي. لكنه لم يكن يمتلك الاقتناع الواعي لعقل ناضج رشيد. أراد أن ينفض غبار الجزيرة عن قدميه، إلا أن غبار الجزيرة علق والتصق به وبروحه إلى الأبد. حاول أن يتخلص منها لينساها وتنساه.

تنازل عن اسمه وتخلى عن أمجاده وضاع بين أفراد القوة الجوية البريطانية باسم مستعار. وأعاد إلى حكومته أوسمتها. كان يبحث عن النسيان في صخب المحركات وفي نشوة السرعة المذهلة، فانتهى به الأمر إلى الموت وهو ينهب الأرض على دراجته النارية. حاول عبثاً أن ينسى جزيرة العرب. لقد وقع ضحية لخيبة آماله[4].

في عام 1918م كانت رحى الحرب لا تزال تدور في أوروبا وفي الشرق الأوسط. وكان الإنجليز في حاجة إلى حلفاء مهما بلغ الثمن، لأن الحليفة روسيا خرجت من الحرب بعد ثورتين شهدتهما البلاد. وعلى الرغم من أن فيلق الحملات الأميركي دخل الجبهة في بداية ذلك العام لمصلحة الحلفاء، كانت أوضاع بريطانيا عصيبة قبل الهجوم المضاد الذي شنّه الفيلق المذكور في يوليو 1918م. ولذا رأى الإنجليز أن يشجعوا عبد العزيز على المزيد من النشاط، وبعثوا إليه وفداً من بغداد برئاسة جون فيلبي.

ولد جون فيلبي (واسمه الكامل هاري سانت جون بريجر فيلبي) في سيلان، المستعمرة البريطانية آنذاك، في عائلة صاحب مزرعة للشاي. درس في كمبريدج وخدم في البنجاب وكشمير وبعض مناطق الهند البريطانية. تربى على تقاليد الثقافة المميزة للإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وهو موظف طموح، وفي الوقت ذاته عالم متضلع في اللغات الآسيوية والأوروبية، حسن المعشر واسع الاتصالات. وإلى ذلك، يحمل توجهات وميولاً رافضة واضحة. وبمر الزمن بات شخصية بارزة في أوساط المستعربين، ممن اهتموا بالشرق الأوسط. وبعد وفاته اشتهر بأنه والد كيم فيلبي الذي ارتقى الذرى في الدوائر الأمنية السرّية البريطانية، وكان في الوقت ذاته عميلاً "مزدوجاً" بالغ الأهمية في الاستخبارات الخارجية السوفياتية في بريطانيا والولايات المتحدة قبيل الحرب العالمية الثانية وأثناءها وبعدها.

كانت مهمة فيلبي الأب في جزيرة العرب تتلخص في محاولات إقناع عبد العزيز بألا يهاجم خصمه شريف مكة حسين. وبدلاً من ذلك حبّذ فيلبي شن عمليات حربية ضد جبل شمر.

عندما تعرّف جون فيلبي إلى عبد العزيز، أعجب بشخصيته غاية الإعجاب، حتى ارتبط معه بعلاقة ودّ وصداقة وظل مخلصاً له مدى 35 عاماً.

ولما كان مندفعاً في ميول الرفض والاعتراض، فقد استنكر قطعاً سياسة بريطانيا الاستعمارية وأحال نفسه على التقاعد بعد الحرب العالمية الثانية، وفضّل العمل في شركة النفط الأميركية. وسنعود إلى هذا الموضوع في ما بعد.

كتب فان دير ميولين أن فيلبي لم يكن بالطبع ممثلاً مسرحياً، ولم يحاول أبداً أداء دور الممثل، إلا أنه أدرك إمكان تحقيق طموحاته في جزيرة العرب. فاختارها لنفسه وقرر أن يكرس لها حياته. كانت الجزيرة مؤهلة لإشباع اعتداده بنفسه، فيما كان عبد العزيز الشخص القادر على فتح الطريق أمامه إلى الأمجاد.

كان فيلبي يريد أن يعيش لا كالآخرين، بل وفقاً لأهوائه وأفكاره. ووفّرت له الجزيرة فرصة العيش بالنحو الذي يريد. ففي بطون الصحراء وجد شخصاً بلغ ذرى العظمة لأنه قرر أن يظل صادقاً مع نفسه، يقاتل على انفراد، ويتحدى المصير واثقاً برسالته، إلا أن العناية الإلهية تقوده وتوجهه في الوقت ذاته. من المستبعد أن يكون فيلبي متديناً تماماً، رغم أنه أشهر إسلامه في ما بعد واتخذ لنفسه اسم عبد الله فيلبي. كانت الطموحات تنتهبه وتلتهمه، وكان مستعداً للتضحية بكل شيء من أجل أن يرتبط اسمه ارتباطاً لا ينفصم بجزيرة العرب. فيلبي عقدة المتناقضات والمتضادات، الأمر الذي يجعل تقويم شخصيته من الأمور الصعبة. لم يكن لديه أصدقاء مخلصون، إلا أن أعداءه كثيرون. وقلّ من يفهم آنذاك أن هذا الإنسان

رجل فقد السبيل إلى الوئام مع ذاته واحترب مع نفسه. كان مخلصاً، موالياً للجزيرة، لكنه كان أوروبياً، بريطانياً إلى درجة تمنعه من التحول إلى أعرابي خالص.

كانت حياته على ارتباط مباشر وغير مباشر ببطل كتابنا الملك فيصل.

استقبل عبد العزيز الإنجليز في الرياض رغم تذمّر الإخوان والعلماء المستائين من ظهور "المشركين" و"الكفرة" في العاصمة. وكان الإنجليز يحرضونه على مهاجمة جبل شمر. إلا أن العثمانيين هناك لم يعودوا يمثّلون خطراً عليه، وتعاونه مع الإنجليز يعني تعاوناً مع عدوّه الشريف حسين. كان طوال الحرب العالمية الأولى يتحاشى المشاركة في العمليات، ويبيع الإبل والجياد للطرفين.

في عام 1917م كان عبد العزيز في عنفوان الرجولة. وأعود هنا إلى الصورة الأدبية التي رسمها له آرمسترونغ فأقول إن عبد العزيز عملاق بمحيا وسيم ورأس جميل يستقر على كتفين عريضتين.

كان يتصرف برزانة واتزان وهدوء، معتاداً طاعة الآخرين له واثقاً من حقه في طاعتهم. عيناه بنيتان تلمعان، وتفضحان مشاعره التي غالباً ما يحاول كبتها وإخفاءها. عينان نافذتان ذكيتان عندما يفكر في شيء أو يتطلع إلى أحد ليفهم ما يريد، وباسمتان رقيقتان عندما يكون راضياً عن أحد، وعندما يغضب تتقدان شرراً.

جبهة عريضة عالية وتقاسيم بدوية مميزة وأنف يجعله، من النظرة الجانبية، يبدو صقراً منتفضاً فوّاراً. شاربان قصيران ولحية أنيقة قصيرة. خطوته عريضة وبدنه ضخم وثقيل بعض الشيء على الجياد العربية الأصيلة، لكنه فارس رائع يشهد له بذلك الجميع.

يتطيّب بالعطور ولا يطيق القذارة أينما كانت. وكان معجباً خصوصاً بماء الورد وعطره، إلا أنه سريع الحساسية إزاء الروائح المقززة. فإذا جاءه شخص في يوم قائظ، وقد تناول البصل والثوم قبل ذلك، فإن الأمير لا يتحمل ذلك ويدعو الخدم ليطيّبوا جو الغرفة بالبخور بعد انصراف الضيف الثقيل[5].

تركت لنا المستعربة الإنجليزية جرترود بيل في كتابها **الحرب العربية** الصورة الأدبية الآتية لعبد العزيز:

> يداه نحيفتان بأصابع رقيقة. وتلك من سمات القبائل العربية الأصيلة. ورغم قامته الفارعة وكتفيه العريضتين يبدو متعباً، لكن ذلك ليس تعباً شخصياً، وليست له علاقة بالعمل. وإنما تلك سمة من سمات شعب عريق لم يتعامل كثيراً مع الشعوب الأخرى، شعب أنفق الكثير من طاقاته الحيوية ولم يغترف إلا القليل من الطاقات خارج حدود بلاده الوعرة. حركاته المتأنية، ابتسامته الرقيقة البطيئة، عيناه اللتان تتطلعان بتأمل من بين جفون ثقيلة، كل ذلك أضاف إلى كراماته جاذبية وروعة لا يعتبرهما المنظّرون

الغربيون من سمات الشخصية النشيطة. إلا أن الروايات تتحدث عن تحمله البدني الذي قلّ أن تجد مثله حتى في جزيرة العرب بظروفها الصعبة[6].

طعامه متواضع بسيط. في الصباح يتناول الرغيف مع اللبن الحامض، وفي الغداء وجبة من الأرز مع اللحم والخبز وحبات التمر. والشيء ذاته في العشاء. طوال النهار يحتسي القهوة والشاي، ولا شيء آخر، ما عدا الماء.

وعلى الرغم من برد الليالي الشديد في الجزيرة العربية لم تكن غرفته مُدفّأة ولم يكن يأخذ معه مِدفأة إلى الخيمة أبداً.

كان يعمل بسرعة كبيرة. ذاكرته على أروع ما يكون. يجيد التركيز على الموضوع، ويملي أحياناً رسالتين على كاتبين في وقت واحد، فيتوقف في منتصف الجملة أو العبارة ملتفتاً إلى هذا الكاتب ثم إلى ذاك، وفي بعض الأحيان ينصرف في منتصف الإملاء ليتحدث بإيجاز إلى الضيوف، ثم يعود ويواصل إملاء العبارة التي توقف في منتصفها.

كان الكرم وحسن الضيافة في طبيعة عبد العزيز، كما كانا جزءاً من السياسة الكبرى. كل يوم يتناول الطعام عنده ما لا يقل عن ألف شخص. قدور الأرزّ ولحم الضأن تغلي على الدوام. والخبز أكوام، وإلى جانبه أباريق اللبن الحامض. كان يوزع من خزائن ثيابه الألبسة على الضيوف وفقاً لمراتبهم. وهو في منتهى

السخاء. يقول: لا أنا ولا أحد من أجدادي يحتفظ بصندوق مليء بالنقود. فالمال المدّخر لا خير فيه. "والله ليس لي من المال شيء. ولا أملك غير السيف والمصحف"... في زمن السلم أعطي كل شيء، حتى هذه العباءة، لمن يحتاج إليها. لكنني في زمن الحرب أطلب من الناس أن يعطوني كل ما يملكون[7].

كان يتحلّى بضبط النفس وقوة الأعصاب. وعندما يشتد به الغضب تراه يرتعش حنقاً ولا يقر له قرار. إلا أن انفعالات الغضب سرعان ما تتبدد. وإذا أخطأ في سَوْرة الغضب يعترف بخطئه في ما بعد. وإذا ظلم يتراجع ويحاول أن يقف على خاطر المظلوم. إلا أن غضبته تأتي أحياناً محسوبة متعمّدة. ذات مرة صفع فهد الجلوي أحد حراس الأمير. فقد كان فهد شاباً معتداً بنفسه وهو نجل ابن عم عبد العزيز ومن المخلصين له. استدعى الأمير ذلك الشاب وانتشل عصا ممّا تساق به الإبل وضرب الفتى بها كي يعلّمه احترام حراس حاكم البلاد. وبعد لحظة جلس بهدوء يتحدث مع ضيوف من إنجلترا.

المعروف أن عبد العزيز أصيب بجروح عديدة في المعارك، وآثارها بادية عليه. طعامه غير منتظم. يأكل بسرعة ويعود إلى العمل من جديد، بسرعة أيضاً. كان يجهد نفسه بالعمل المتوتر وبقلة النوم. ولا يأخذ قسطاً من الراحة بالنحو المطلوب أبداً. يزيد من استخدام الأدوية ليبقى مستعداً للعمل على الدوام. لكنه ما كان

يريد أن يتعالج جدياً. فهو بطبيعته لا يطيق الأمراض ولا العلاج. وكان بالطبع مدمناً على القهوة.

إلا أن أعصابه تبقى باردة دوماً، في الأفراح والأتراح، في سورات الغضب وأثناء المرض. يفكر برجاحة عقل وبرودة أعصاب فيحسب خطاه خطوة خطوة، وخصوصاً ما له أهمية كبيرة بالنسبة إلى الدولة، ليتخذ بعد ذلك القرار الصحيح. كان زعيماً سياسياً لا يجارى، ولم يكن إحساسه السياسي قد خانه يوماً.

عندما يكون الأمير في الرياض كان يعقد مجلسه بعد صلاة المغرب لتبادل الرأي مع المقرّبين إليه. ثم يتردد على زوجاته، فيعود إلى مكتبه ويدعو الأصدقاء من جديد. وهناك يدخل في حديث في شتى المواضيع حول الناس والجياد والإبل وصيد الصقور والحرب والنساء والمعارك الشهيرة والقضايا الدينية وما إلى ذلك. ويصغي باهتمام إلى أحاديث الأجانب الذين يزورون الرياض، ويحبّ الخوض معهم في السياسة الدولية.

بسط عبد العزيز سيطرته على نجد تماماً قبل ربيع 1918م، إلا أنه كان يتفنّن في تفادي الصدامات مع الأعداء المحيطين به. سالم الصباح الذي تولى مشيخة الكويت بعد وفاة جابر بات يتصرف بما لا يتلاءم ورؤية عبد العزيز إلى المصلحة العامة، فيما كان حكام حائل يتصرفون بحكمة وهدوء، ويخشون مهاجمة عبد العزيز علناً، لكنهم كانوا مستعدين دوماً لتسديد الضربة. وكانوا يتاجرون مع حلفائهم العثمانيين في السر والعلن، بينما

يحارب عبد العزيز تهريب البضاعة من خلال الكويت. إلا أن الشيخ سالم كان يخطف رجاله ويعتقلهم عندما يدخلون الأراضي الكويتية.

في تلك الفترة أعلن الشريف حسين نفسه ملكاً على البلاد العربية، وبعث برسالة إلى عبد العزيز يطالبه فيها بالاعتراف به والتخلي عن سيطرته على قبيلة عتيبة المقيمة بين نجد والحجاز. احتج أمير الرياض على ذلك وطالب بترسيم الحدود بين نجد والحجاز والاتفاق على عائدية القبائل الحدودية. وردّ حسين، كما يقول أحد المؤرخين النجديين، بلهجة مهينة: عن أي حدود تتحدث؟ هل أنت مجنون أم سكران؟[8]، ولم يغفر أمير نجد للشريف حسين هذه الإهانة. فحذر الإنجليز وأبلغهم أنه سيضطر إلى محاربة حسين.

كان الصدام مع حسين يختمر ويقترب. خالد بن لؤي، حاكم الخرمة، وهو من الأشراف العبادلة وأحد أبناء عمومة الملك حسين بن علي، انضم إلى الإخوان، فطرد ممثلي شريف مكة من هناك، ورفض تسديد الضرائب، ووضع منطقته تحت حماية عبد العزيز. وكانت الخرمة آنذاك مركزاً تجارياً مهماً على الطريق بين نجد والحجاز. وقد صدّ أهاليها هجوماً من فصيل غير كبير أرسله الشريف حسين لتأديبهم. وطالب الإخوان والعلماء بمحاربة حسين. إلا أن عبد العزيز الحكيم قرر التريث والانتظار لعلمه بأن الأمر ليس بهذه البساطة، وخاصة أنه اصطحب البعثة الإنجليزية التي يرأسها جون فيلبي، فطالبه هذا الأخير بالتقيّد بالاتفاق

مع بريطانيا وعدم مهاجمة حلفائها، ومنهم الشريف حسين.

ظل عبد العزيز ينتظر الفرصة طوال صيف 1918م. وقد أبلغه رسله ومبعوثوه أن الجيوش العثمانية على وشك الانهيار. الجنود يفرون منها بأعداد كبيرة والمجاعة والأمراض متفشّية بين أفرادها إلى جانب شحّ السلاح والذخيرة. كل ذلك أدى إلى تفسّخ القوات العثمانية. ولذلك فالإنجليز في طريقهم إلى النصر في الحرب العالمية الأولى.

ومع ذلك كان من الصعب على عبد العزيز أن يفهم سياسة الإنجليز. فهو لم يهاجم حلفاءهم، لكنهم يحمون شيخ الكويت الذي ناصر قبيلة العجمان ضده. طلبوا منه أن يهاجم جبل شمر، لكنهم تغاضوا عن بيع الكويتيين السلاح لهذه الإمارة. لم يسمحوا له بمهاجمة الشريف حسين، لكنهم زوّدوه بالمال والسلاح فراح يشتري بنقودهم ولاء القبائل الحدودية ويؤلّبها على أمير نجد.

ولم يستطع فيلبي أن يوضح له أن مختلف الدوائر البريطانية، وزارة شؤون الهند ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية والمكتب العربي في مصر، تعمل خلال الحرب من دون تنسيق في ما بينها، وأحياناً يسود العداء علاقات بعضها بالبعض الآخر. المكتب الهندي يميل إلى حاكم نجد، فيما يؤيد المكتب العربي في مصر الشريف حسين ويقطع له وعوداً ضبابية. وزارة الخارجية تنطلق في سياستها من الاتفاق مع الفرنسيين، من معاهدة

سايكس - بيكو التي تقتضي تقسيم البلاد العربية وشطب كل وعود الإنجليز السابقة للشريف حسين والقوميين العرب.

إلا أن الإنجليز، بعد أن احتلوا القدس قبيل أبريل 1918م، لم يعودوا في حاجة إلى إزالة إمارة جبل شمر، حتى إنهم رفضوا تقديم ما وعد به جون فيلبي أمير الرياض في ديسمبر 1917م. فكانت خيبة أمل عبد العزيز شديدة.

ومع ذلك شنّ هجوماً على حائل. ففي 5 أغسطس 1918م بدأ عبد العزيز حملته على جبل شمر التي ترك لنا فيلبي تقريراً مفصّلاً عنها. وكنا قد تحدثنا عن مشاركة الصبي فيصل في هذه المعركة.

وجد عبد العزيز صعوبة كبيرة في إقناع الإخوان والعلماء بالمشاركة في الحملة على حائل. فقد كان فيصل الدويش ينادي بالحرب على الشريف حسين، والإخوان يكتسبون قوة، ولا بد من كسب ودّهم من جديد. كان عبد العزيز خطيباً بارعاً، فتمكن من إقناع الحاضرين بأن من اللازم شن الحملة الآن على ابن رشيد بالذات.

دحر أمير نجد قوات ابن رشيد من جديد، لكنه لم يتمكن من احتلال حائل. وعاد بغنائم جيدة من ماشية وأسلحة، بل وحتى ذهب الخزينة الذي وقع في يديه. وكان الإخوان والعساكر والمتطوعة البدو راضين جميعاً.

في أعقاب الحرب العالمية الأولى حلّ في العالم وباء الإنفلونزة "الإسباني" الفتاك.

ففي شتاء 1918-1919م أودى هذا الوباء بحياة عدد من الناس فاق عدد ضحايا معارك الحرب العالمية الأولى. وجاء هلاك عشرات الملايين من الناس كأنه عقاب للشعوب المتهورة على المجزرة التي دبرتها أثناء الحرب. كان الوباء الشامل من الخطورة والفظاعة بحيث خيّل للكثيرين أن يوم القيامة قد قام. فالضحية تلقى حتفها بعد بضع ساعات من ظهور أول أعراض المرض. الرئتان تمتلئان بالدم ويصاب المريض بعسر التنفس ويختنق. والرأي السائد الآن أن ذلك كان نوعاً من "إنفلونزة الطيور" الذي يزرع الرعب اليوم في قارات بكاملها. كانت الإنفلونزة "الإسبانية" تختار ضحاياها على نحو غريب. فقد مات بها الشبان الأصحّاء وليس الشيوخ ولا الأطفال من ذوي المناعة الضعيفة.

في الولايات المتحدة أودى المرض في عامي 1918-1919م بحياة 675 ألف شخص، مات منهم 200 ألف في شهر أكتوبر 1918م وحده قبل أن تضع الحرب العالمية الأولى أوزارها. وفي العالم كله وقع ضحية الوباء ما بين 30 و40 مليون شخص. ففي الهند وحدها لقي 10 ملايين شخص مصرعهم.

توفي في مدن نجد وواحاتها آنذاك نحو 25 ألفاً من الحضر، إضافة إلى أعداد لا تحصى من البدو. وقد حلّ الموت في كل بيت تقريباً. وفي عائلة الأمير نفسه

اختطفت يد المنون وليّ العهد العملاق الجميل تركي موضع اعتزاز عبد العزيز وافتخاره، إضافة إلى ولديه الآخرين، فهد الذي كان يعزّه فيصل، وسعد البالغ من العمر خمس سنوات، كما اختطفت من بين النساء الجوهرة زوجة عبد العزيز المحبوبة.

حتى ذلك الحين تزوج عبد العزيز نساء كثيرات، إلا أن الجوهرة زوجته الوحيدة التي أحبها حقاً. وهي ابنة خالته. وقد نظمت زواجه منها أمه وخالته، أم الجوهرة. تزوجت هذه الفتاة الحسناء الموهوبة من عبد العزيز في ربيعها السابع عشر. وقد حصلت خلافات بين الزوج والزوجة أحياناً إلى حد الافتراق الوقتي، إلا أن عبد العزيز عاد إليها، وقد أنجبت له ولدين.

كان عبد العزيز طوال حياته محبوب النساء يعيش بينهن زوجات مخلصات ووالدات لأبنائه.

زوجاته كثيرات. وهو يفتخر بكثرتهن، فليس في ذلك مخالفة لأصول الإسلام. قال مرة: إنني أتبع الرسول عليه السلام، أفعل ما يرتضيه. وسيكون لدي من النساء قدر ما سمح به.

ذات مرة أبدى عبد العزيز في حديث مع اللورد الإنجليزي روبرت بيلهيفن استغرابه من بريطانيا المتنورة التي تسمح بالتهتّك والعلاقات غير الزوجية من دون أن يتلقّى مقترفوها العقاب. في الصحراء عقوبة الخيانة الزوجية هي الرجم بالحجارة حتى الموت. أما في بريطانيا فلا أحد يُعاقب، بل على العكس تمتدح الكتب والأشعار تلك التصرفات. وسأله

اللورد: "كم كان عندك من الزوجات؟". فأجاب عبد العزيز: "أربع زوجات كما أمر الرسول". فسأل اللورد: "كم عددهن إجمالاً؟ وكم امرأة طلّقت؟". فقال عبد العزيز: "تزوجت وطلّقت مراراً، ولكني إن شاء الله سأتزوج وأطلّق مرات أخرى".

قال عبد العزيز لجون فيلبي في أحد الأيام:

> تزوجت نساء كثيرات في حياتي، وسأتزوج بحمد الله. فأنا لا أزال شاباً قوياً. وبسبب موت الرجال في حربكم العالمية سيحين في أغلب الظن الوقت الذي يتحلى فيه أهالي أوروبا بالحكمة ويسمحون للرجال بالزواج من أكثر من امرأة[9].

لم يكن عبد العزيز يفهم الرجل الذي لا يتزوج سوى امرأة واحدة. فهذا شيء غير طبيعي بالنسبة إليه. وهذا النوع من الرجال جدير بالاحتقار، ولا بد أن نأسف له، ولا بد له أن يراجع الأطباء للعلاج.

كان عبد العزيز متقيّداً تماماً بوصايا الرسول. السيد المسيح لم يعطِ أي توجيهات بشأن عدد الزوجات للنصارى. أما خاتم النبيين محمد (ص) فقد نقل إلى الأمة الآية الكريمة: "... فانكحوا من النساء ما طاب لكم مثنى وثلاث ورباع"[10].

كان عبد العزيز عادة يحتفظ بثلاث زوجات، ومكان الزوجة الرابعة يبقى شاغراً ليملأه متى يشاء، وخصوصاً أثناء الحملات الحربية أو حتى في أثناء

الصيد. وإذا لم يكن المكان شاغراً وشعر بحاجة إلى الزواج، فإنه يطلّق إحدى زوجاته الأربع.

كل مساء تقريباً، بعد صلاة المغرب، ينهي أعمال النهار ويتوجه في التاسعة على وجه التقريب إلى إحدى حريمه حيث يقضي بعض الوقت. ولم تتذمر ولا واحدة من زوجاته ولم تقل إنه لا يوليها الاهتمام الذي تستحقه. وحتى عندما تقدم به العمر ظل رجلاً قوياً يحرص على المرأة ويعتني بها. ذات مرة استغرب أحد أحفاده من جده وهو يرتب شاربيه ولحيته ويتطيّب كثيراً بالعطور وماء الورد قبل أن يذهب إلى واحدة من زوجاته.

ثمة أسباب عديدة ومتنوعة وراء زواجه المتكرر، معظمها أسباب سياسية، لأن الزواج يوطّد أواصر التحالف مع القبائل المتنفذة في جزيرة العرب. فقد تزوج بنات من عائلة آل الشيخ أحفاد الإمام محمد بن عبد الوهاب، ومن وجهاء آل السديري ومن أعيان قبائل مطير وعنزة والدواسر. وكانت تربطه علاقات مصاهرة مع جميع القبائل والأفخاذ المتنفذة في نجد. ولا أحد يعترض على الطلاق لأنه غير مستهجن ويحفظ للمرأة ماء الوجه. كان مبعث اعتزاز المرأة أن يتزوجها حاكم البلاد وإن إلى حين من الزمن. وإذا ولدت له أطفالاً فإن أواصر القربى بين عائلتها وعائلته تكون أقوى وأمتن.

عبد العزيز كان يسهر على مطلقاته دوماً، يؤمن لهن المال اللازم ولا يعترض على زواجهن من غيره في ما بعد. وإذا كان لإحداهن أطفال فهو يزوّدها بالعبيد

والوصائف ويعطيها منزلاً تربيهم فيه. وكان أحياناً يتزوج من القبائل التي يسيطر عليها وذلك ليعزز الأواصر مع أعيانها ويتصالح معهم إلى أمد طويل. كذلك كان يتزوج لمجرد أنه رجل صحيح الجسم، سليم يتوق إلى المرأة دوماً. لقد كان يحب المعارك المظفرة والأغاني المؤثرة والمرأة الحسناء.

ومهما بدت تقلبات الحياة، ومهما كان عدد الزوجات، فإن الجوهرة هي زوجته المفضلة. كانت ملكة فؤاده. لقد تقطّعت نياط قلبه لوفاة تركي والجوهرة. فظل حزيناً جداً عليهما أواخر شتاء 1919م والأيام الأولى من ربيعه، حيث هطلت الأمطار ونبتت الأعشاب والزهور. اعتكف آنذاك في القصر ولم يستقبل أحداً. ولم يسمح لأحد بأن يدخل غرفة الجوهرة ما عدا شقيقته نورة. وقد أبقى عبدها وخدمها في خدمته. كان بعد صلاة الصبح كل يوم جمعة يزور قبرها في مقبرة العود في الرياض.

الفصل الثالث

الفتى اليافع يكتشف العالم الواسع

أعلنت الإمبراطورية العثمانية استسلامها في 30 أكتوبر 1918م، وانتفى التهديد الذي كانت تمثّله على آل سعود ويؤثر في سياستهم على مدار قرن ونصف تقريباً. انسحب الأتراك العثمانيون من المنطقة، وبقيت كل من مصر والعراق وفلسطين والحجاز واليمن وعسير وأواسط الجزيرة العربية وحدها وعلى انفراد، فيما كان الإنجليز يهيمنون على كل البقاع. كانت لهم حاميات في القاهرة وإسطنبول وبغداد ودمشق وعدن والخرطوم. علمهم يرفرف في البحار والمحيطات من البلقان ومصر حتى الخليج العربي والهند. وبدا كأن مستقبل البلاد العربية في أيديهم. وقد فرضوا سيطرتهم المباشرة في كل مكان، ما عدا نجد، رغم وجود معاهدة لهم معها.

كان جبروت الإمبراطورية البريطانية الهائلة لا يقهر حسب الظاهر. وقد توسعت رقعتها بعد الحرب العالمية الأولى إلى عدة ملايين أخرى من الكيلومترات المربعة يقيم فيها 13 مليون نسمة. إلا أن هذه الإمبراطورية التي انتفخت إلى درجة تفوق التصور قد تضعضعت وخارت قواها، فهي جنّدت نحو 9 ملايين مقاتل لخوض الحرب. وبلغ عدد الخسائر من قتلى الحرب

والذين فتكت بهم الأمراض نحو مليون شخص، ثلاثة أرباعهم خسائر المملكة المتحدة وحدها. وهذا يعني إبادة جماعية في النخبة البريطانية. لقد كلفت الحرب العالمية الأولى بريطانيا 10 مليارات جنيه إسترليني على وجه التقريب، فيما كانت المستعمرات الجديدة تتطلب المزيد من النفقات من دون أن تعطي عائدات. ونكتفي هنا بمثال واحد على ذلك من بلدان الشرق الأوسط. فإن السيطرة على العراق سنة 1921م كلّفت الإنجليز 23 مليون جنيه إسترليني. وهذا أكثر من ميزانية الصحة العامة في المملكة المتحدة. وباتت كلفة الصرف على أطراف الإمبراطورية أعلى من عائدات المستعمرات، ما حكم على الإمبراطورية نفسها بالزوال. بيد أن ذلك لم يتضح للجميع إلا بعد ربع قرن من الزمان، أي في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

الخطر الرئيس على إمارة نجد هذه المرة ينبعث من شريف مكة. وكان عبد العزيز يخشى أن تؤيد لندن دعاواه في زعامة العالم العربي عموماً والجزيرة خصوصاً.

في كل الأحوال، كان من الضروري الاتفاق مع الإنجليز من دون التخلي عن أمنية استعادة سلطة آل سعود كاملة في الجزيرة.

وتجدر الإشارة في هذا الخصوص إلى أن حكومة الهند البريطانية لم تكن ترى ضرورة لإزالة إمارة جبل شمر الموجودة على انفراد. فالإنجليز تبنّوا تكتيك العثمانيين القديم لدعم توازن القوى وتأجيج التنافس

بين مختلف الإمارات في الصحراء. وكان أمير نجد يدرك بمنتهى الوضوح ذلك التكتيك.

في 1918-1919م نشب خلاف بين الحجازيين والنجديين على واحة الخرمة الحدودية. وكان الإنجليز يتوقعون صداماً بين الطرفين. فقرروا تأييد الشريف حسين، ولكن من دون تدخل في النزاع بين حكام الجزيرة.

ففي أواخر مايو 1919م تحرك عبد الله نجل الشريف حسين لغزو الخرمة ونصب مخيماً في بلدة تربة الصغيرة على الطريق المؤدي إليها. وفي الليل طوّق الإخوان بقيادة خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد عساكره وأبادوها، فيما تمكن عبد الله من الإفلات منهم على ظهر الحصان. واستولى الإخوان على 8 مدافع ميدانية كان الإنجليز سلّموها إلى الشريف حسين، إضافة إلى رشاشات وبنادق وخيام. وسرعان ما وصل عبد العزيز نفسه على رأس عساكره إلى هنا، وكان مستعداً لاقتحام الحجاز. فشاع الذعر والهلع في مكة.

إلا أن رسولاً وصل من جدة في 4 يوليو 1919م يحمل رسالة من المندوب السامي البريطاني جاء فيها:

> حكومة صاحب الجلالة أمرتني بأن أبلغكم بوجوب العودة إلى نجد حال وصول رسالتي هذه إليكم. يجب أن تتركوا تربة والخرمة كمنطقة محايدة إلى حين ترسيم الحدود بينكم وبين الملك حسين. وإذا امتنعتم عن الانسحاب بعد تسلم رسالتي

هذه، فإن حكومة صاحب الجلالة ستعتبر المعاهدة معكم لاغية ومفسوخة وستتخذ الخطوات اللازمة لإعاقة عملياتكم العدائية[1].

كذلك طالب الإنجليز عبد العزيز بألا يزحف على الطائف.

وعزز الإنجليز إنذارهم هذا بإرسال طائرات وجنود إلى جدة.

كان عبد العزيز يحلم بغزو الحجاز موطن الحرمين الشريفين. وكان من شأن ذلك أن يغدو الذروة التي تكلل نجاحاته وحياته. والطريق مفتوح، كما بدا له. لكنه ضبط نفسه وقيّم الوقائع الفعلية. وكالعادة أنقذته قدرته على الصمود كسياسي لا يلين له عود حتى في دوامة الأحداث الكبرى، في حين فقد الأشخاص المحيطون به رشدهم من الانفعال وفرحة النصر الوشيك، وراحوا يطالبونه بغزو مكة في الحال.

لكنه يدرك تماماً قدرة الإمبراطورية البريطانية المنتصرة في الحرب العالمية الأولى. وما كان بوسعه أن يقاتل الإنجليز. ولذلك قرر الانسحاب. ترك حامية في الخرمة وتلقى تعهدات بالولاء من قبيلة عتيبة وعاد إلى نجد. ولكن ما مدى دعم الإنجليز للشريف حسين في المستقبل؟ ألا يحتمل أن يتبدل موقفهم الحالي ويقرروا تسليم الجزيرة كلها إليه؟

في تلك الفترة وردته دعوة من لندن لزيارة عاصمة الإمبراطورية البريطانية. وكانت تلك فرصة سانحة لتدقيق المواقف.

إلا أن ترك نجد لعدة أشهر لم يكن ممكناً في تلك الظروف. فأوفد عبد العزيز نجله فيصل إلى بريطانيا بدلاً منه. ولكن لماذا فيصل بالذات؟

يقول بندر الفيصل:

> السبب الموضوعي لذلك هو أن الملك عبد العزيز كان يعتبر فيصل من أبناء آل الشيخ، وكان يسميه "ولد آل الشيخ"، أي إنه لم يكن مقرّباً من الملك. وعندما طرحت مسألة الإيفاد إلى إنجلترا أرسلوه لأنه لا يهم من يرسلون إلى بلد الكفّار. وفيصل غير مهم[2].

ولعل عمق تديّن الفتى أدى دوره أيضاً، فيما كان وجود الشاب المحارب سعود في نجد ضرورياً لأبيه بعد وفاة تركي.

يرى بندر الفيصل أن التقارب بين والده الأمير فيصل وجده عبد العزيز حصل بعد العودة من بريطانيا.

لقد تعيّن على الفتى اليافع فيصل أن يطّلع على أحوال الإمبراطورية البريطانية المترامية الأطراف في عقر دارها، في عاصمتها لندن. ونعتقد بأنه لا موجب للمديح الذي غالباً ما يلجأ إليه بعض الباحثين العرب حين يبالغون في الثناء على فيصل اليافع الذي كان صبياً في حقيقة الأمر آنذاك، ولم يكن مؤهلاً لأداء مهمة سياسية مستقلة. كان عليه أن يمثل والده بكل جدارة ويشارك في أهم المحادثات التي كلف عبد العزيز أحد أقربائه الأبعدين، وهو أحمد ابن ثنيان، بإجرائها. وهدفها

الأول إقناع الإنجليز بخطأ الاعتماد على الشريف حسين.

منح عبد العزيز أحمد بن ثنيان الصلاحيات اللازمة. وهو من أبناء فرع جانبي من آل سعود، حفيد حاكم الرياض الذي انتصر عليه في حينه فيصل جدّ عبد العزيز. وكان والد أحمد قد هاجر في حينه إلى تركيا.

لقد كُتب على عائلة ابن ثنيان أن تؤدي دوراً مميزاً في مصير الأمير فيصل، لأن عفت ابنة أخي أحمد وصلت من إسطنبول إلى جدة في ما بعد، وباتت الزوجة المفضّلة لفيصل، ولكن لكل حادث حديث. وحديثنا عنها سيأتي.

كان أحمد بن ثنيان يتكلم التركية والفرنسية ولديه خبرة في التعامل مع الأجانب لكونه ترعرع في إسطنبول، كما زار أوروبا أيضاً. وعندما فشل في الحصول على عمل يتجاوب مع قابلياته جاء إلى الجزيرة العربية وقاتل في صف حاكم نجد، وكشف عن مواهب دبلوماسية فذة. فهو الذي تمكن من الاتفاق مع الحاميات العثمانية المحاصرة في الأحساء عندما وقعت في أيدي عبد العزيز وأقنعها بالجلاء مع سلاحها إلى البصرة، الأمر الذي جعل الأتراك يحافظون على ماء الوجه.

آنذاك دعي إلى لندن أيضاً نجل شيخ البحرين، إلا أنه وصل إليها قبل وفد نجد. أما وليّ عهد الكويت الشيخ أحمد الجابر الصباح فكان مقرراً أن يصل مع النجديين. وقد استقل مع مرافقيه في الكويت الباخرة العتيقة

”لورنس“، فيما التحق به النجديون في البحرين. ورافق فيصل وابن ثنيان التاجر عبد الله القصيبي ممثل عبد العزيز غير الرسمي في البحرين. وكان يجيد الإنجليزية بنحو لا بأس به، وقد قام برحلات عديدة إلى بومباي. كذلك اصطحب الوفد ثلاثة خدم. وكلفت المجموعة السياسية التابعة للقوات البريطانية في بغداد السيد همفري باومان بأن يرافق الضيوف الذين أطلقت عليهم رسمياً تسمية ”بعثة أواسط الجزيرة العربية“.

كانت السفينة ”لورنس“، في أواخر عمرها، مرشحة للتفكيك قريباً. إلا أنها بدت أعجوبة من عجائب التكنيك بالنسبة إلى الفتى النجدي اليافع.

في طريقها إلى بومباي ألقت السفينة مراسيها في مسقط وأقام سلطان البلاد مأدبة فاخرة تكريماً للضيوف الكبار.

قصة رحلة الوفد النجدي إلى بريطانيا وفرنسا مبنية على مصادر بقلم باحثين إنجليز كانوا من المستعربين الموالين للعرب ولعبد العزيز نفسه ولفيصل، ولذا جاءت كتاباتهم موضوعية وطيبة ومشحونة بالتفاصيل المهمة غير المتوافرة في الإفادات السعودية الشفوية ولا في المراجع الخطية3. وقد أمكن العثور في الأرشيفات البريطانية على وقائع إضافية تكشف عن مضمون المحادثات السياسية التي أجراها الوفد النجدي في لندن.

يقول بندر الفيصل:

عندما خرج فيصل من هنا ذهب إلى البحرين وركب السفينة... ووجد الدكتور الذي في السفينة أن فيصل مريض فعالجه، وإلا لكان مات في الرياض. وتلك هي مشيئة الله[4].

تلك هي من جديد "الصدفة" القادرة على كل شيء، أو هي العناية الإلهية التي تدخلت في مصير الرجل ومصير بلاده. فليفسّر كل شخص هذا الحادث وفقاً لمعتقداته.

همفري باومن يؤكد مرض فيصل، مشيراً إلى أن الطبيب وصف له الكينا. واستخدم الفتى الدواء بانتظام، ولم يشكُ إلا مرة واحدة من أنه ملّ من أقراص الكينا المُرة.

وقد حصل خلاف طفيف بين وفدي نجد والكويت، لعل سببه أن أحمد الجابر الصباح كان في سن الثلاثين، مكتنز البدن، يبدو في عمر أكبر من عمره. ولذا كان يرى أن من غير اللائق أن يتنازل عن الزعامة للأمير الذي كان في الثالثة عشرة من العمر. أما فيصل فكان متواضعاً جمّ الأدب. وما كان في نيته أن يثير موضوعاً بروتوكولياً كهذا لو لم يذكّره ابن ثنيان بمكانته الرفيعة. إلا أن الطرفين توصلا، على أي حال، إلى تسوية الخلاف.

أما ابن ثنيان فهو يعرج قليلاً بعد إصابته بجراح في الحرب. شعره الطويل مضفور مثل شعر فيصل. وكان النجديون يرتدون عباءات الوبر السوداء أو البنية

الجيدة النسيج والمطرزة بالخيوط المذهبة. ولا يرتدون الدمقس والحرير. كانوا في كوفية بيضاء يؤطّرها عقال عريض مطرز بخيوط الذهب. أما الكويتيون فكانوا في كوفيات زرقاء أو مقلمة بالأبيض والأحمر، وعقال أرفع ومن دون تطريز. إلا أن الشيخ أحمد الجابر كان رائع المظهر في ثياب المراسم. وقد التقطت للجميع صور فوتوغرافية في تلك الثياب. ولكنهم على ظهر السفينة الساخنة في قيظ المنطقة الاستوائية كانوا جميعاً في الدشداشات البيضاء. فلم تكن هناك مكيفات هواء في تلك الحقبة.

تدرب الموفدون العرب على استعمال الشوكة والسكين أثناء تناول الطعام مع باومان والموظف الإنجليزي الآخر الذي كان معهم في الرحلة. وأتقن النجديون والكويتيون بسهولة أساليب التعامل على الطريقة الأوروبية وآداب السلوك بالمفهوم الأوروبي. ذات مرة، في فندق "تاج محل" في بومباي، نسي الإنجليزيان العادات فأكلا عيدان الهليون باليد. ودهش العرب لهذا التصرف المتناقض. وعندما لمح الإنجليزيان نظراتهم المستغربة، انتبهوا إلى أنفسهم ولم يستخدموا أصابعهم بعد ذلك على المائدة المجهزة بالشوكات والسكاكين.

تركت الهند انطباعات جديدة في نفس فيصل، وخاصة الرحلة بالقطار لحضور سباق الخيل في مدينة بونا. ولا بد أن تكون قد انطبعت في ذاكرة الفتى تلك الحشود البشرية، كأعشاش النمل، في بومباي التي

تختلف تماماً عن المدن الصغيرة في جزيرة العرب وصحاريها الخالية القفراء. ظل يتذكر بالطبع الزي الرائع لوجهاء الهنود الذين شهدوا السباق، والقطار نفسه الذي هو أعجوبة تقنية أخرى يراها عن كثب.

توجه الوفدان العربيان من بومباي إلى لندن بباخرة أحدث هي "كيغوما" الألمانية من غنائم الحرب. بديهي أن السفينة نفسها وأجهزة الملاحة التي عرضها القبطان على فيصل في قمرة القيادة ومحركات الباخرة كانت آليات مدهشة بالنسبة إلى الفتى الذي ترعرع في البادية. آنذاك لم يكن في بلاده محرك بخاري واحد.

إلا أن فيصل لم يعجب بالبحر، إما بسبب الحر المرهق على الباخرة أو بسبب الفراغ الاضطراري من أي عمل. فالرحاب الصحراوية اللامتناهية التي تمتد تحت قدميه أرضاً ثابتة صلدة أعزّ على نفسه من رحاب البحار والمحيطات. لقد قام برحلات بحرية كثيرة، وحالما توافر إمكان الطيران فضّل الطائرة على سائر وسائل النقل.

كان ابن ثنيان في أحاديثه مع الإنجليز لا يكلّ من كيل المديح لحاكم نجد واللوم للشريف حسين. حاول أن يقنع محدثيه بأن عبد العزيز سيحكم الجزيرة العربية من كل بد، وبأن الإنجليز عبثاً يعلقون آمالهم على شريف مكة.

تقيّد أعضاء الوفد النجدي بمواقيت الصلاة، وهم إلى ذلك لا يدخنون، فيما كان الكويتيون يدخنون، ويفوّتون أحياناً موعد الصلاة. كان أولئك وهؤلاء يتناولون

الطعام على مائدة واحدة، وفيما عدا ذلك يحاولون البقاء على انفراد. الجميع يحتسون القهوة التي يعدّها الخدم بالفناجين. وهي قهوة رائعة كما أكد الإنجليز.

كلا الوفدين جلبا هدايا متماثلة لملك بريطانيا، هي السيوف. سيوف النجديين بقبضات وأقربة ملبسة بالذهب ومطعّمة باللؤلؤ من صنع الأحساء. عندما رآها قبطان السفينة أعجب بها أشد الإعجاب، ولاحظ أن لون الذهب على المقابض يختلف عن لونه على الأقربة. فأوضح له ابن ثنيان المسألة قائلاً: ليس عندنا ذهب في نجد. وعندما نصنع مثل هذه السيوف نصهر القطع النقدية الذهبية المتوافرة لدينا. المقبض مصنوع من الليرات العثمانية والقراب الذي هو أكبر حجماً مصنوع من الجنيه الإنجليزي الذهبي. ومما له دلالته أن الإنجليز كانوا يدفعون معونة شهرية لحكومة نجد بالجنيه الإسترليني الذهبي، فيما دفع عبد العزيز إلى الملك جورج الخامس، من خلال الهدايا، بتلك العملة نفسها، بالمعنى الحرفي للكلمة.

وأخيراً وصل الوفدان إلى بليموث حيث استقبلهما جون فيلبي ومراسلو الصحف مع آلات التصوير.

إذا تطلعنا في وجوه العرب الذين التقطت صورهم في بليموث نجدهم في الزي العربي الجميل وغير المألوف حسب المفاهيم الأوروبية. الفتى المعتدل القامة الواقف في الوسط مستنداً إلى سيفه وفي حزامه خنجر هو الأمير فيصل. ملامح وجهه رقيقة تنم عن الاهتمام وحب الاستطلاع. يتطلع إلى العالم

المحيط به، وهو عالم جديد ممتع ومثير للغاية. إنه عالم واسع غير مألوف، كأنه كوكب آخر. على مدى أسابيع يتعيّن عليه أن يجتاز هنا مدرسة فريدة، دبلوماسية وسياسية وتعليمية عامة. وسيرى ما لم يره أحد من أفراد عائلته أبداً، بل ولم يسمع به. وسيدرك أن هناك حياة أخرى فيها من المغريات الكثير ومن المنفّرات الكثير، وأن الناس في هذا العالم غير المألوف يعيشون وفق قوانينهم وأخلاقياتهم وعاداتهم ومعتقداتهم ودياناتهم التي تختلف عمّا تعوّده في بلاده. وهو بالطبع لا بد أن يعجب بالمنجزات التقنية والمادية. في البعيد تنبسط بلاده التي أسرت روحه وفؤاده، وإن كانت فقيرة متخلفة شبه جائعة. هناك يرتفع الأذان خمس مرات في اليوم، ويقيم المسلمون الصلاة ويتوجهون بالدعاء إلى الباري خالق السموات والأرض، خالق الصحراء والواحات في جزيرة العرب وصاحب كل المعجزات الأخرى التي يراها هنا في إنجلترا. حاكم نجد، أبوه، البطل المغوار الذي يخشاه الأعداء ويحبه الأصدقاء أوفده إلى عاصمة الإمبراطورية البريطانية في مهمة ورسالة عليه أن يؤديها كما يليق بابن ذلك البطل المغوار. وبعد العودة إلى الوطن سيحدث والده ساعات طوالاً عن الانطباعات والتداعيات، وللوالد أن يقدّر بعقله الراشد ونظرته الدقيقة ما أدّاه ابنه وما قام به من واجب. وله أن يقرّبه إليه ليجعله في القريب العاجل نصيراً أميناً له، بل ساعده الأيمن.

وصل الوفد إلى لندن برفقة جون فيلبي. ففي مساء 14 أكتوبر 1919م دخل القطار محطة بادنغتون، ثم استقل أعضاء الوفد ثلاث سيارات أوصلتهم إلى فندق "كوينز هوتيل".

بعد ذلك حصلت مظاهر خلل قلّما تجده عند الإنجليز المحبين للنظام. نقلوا الضيوف من فندق إلى آخر. وفي أحد الفنادق لم يكن في الإمكان تناول الطعام. ذات مرة سلكوا الطريق تحت وابل المطر ليصلوا إلى مطعم يتناولون فيه طعام العشاء. وبعد هذه الحادثة كتبت صحف لندن في الموضوع متهكمة ساخرة. ووقعت تلك الصحف بيد الملك جورج الخامس، فلفت نظر اللورد كرومر إلى ما كتبته الصحف وجرى تلافي النواقص. فالنجديون ضيوف على الدولة من الناحية الرسمية.

من المستبعد أن يكون فيصل على علم بكل تلك التفاصيل. ولو كان على علم بها لما التفت إليها بالطبع. الغرف الفارهة في الفنادق تركت انطباعاً في نفسه، وخاصة الانطباع العميق الأول عن الحمام الفاخر والماء الساخن والبارد بكميات لا حدود لها.

ورغم مرور عشرات السنين... نعم، بعد عقود كاملة من السنين، لم تظهر مثل هذه الحمامات الفاخرة حتى في القصر الملكي في وطنه. ولم تغدُ تلك الحمامات ظاهرة معتادة للكثيرين من أهالي المملكة الصحراوية إلا بعد نصف قرن. وبالطبع استخدم فيصل جهاز الهاتف في الفندق واطّلع على إمكان الكلام مع شخص آخر عن بعد. ورأى طبعاً الطائرات والآلات الكاتبة. واحتفظ في

ذاكرته بهذه المستحدثات التقنية، وكان يفكر في كيفية الاستفادة منها في الوطن.

عاصمة الإمبراطورية البريطانية تترك انطباعاً عميقاً في نفس كل من يصل إليها. دير "وستمنستر أبي" ومبنى البرلمان والبنوك والمكاتب الفخمة في مركز سيتي التجاري والمتاجر الضخمة الغنية على الشوارع الرئيسة وكاتدرائية القديس بولس الشاهقة والمتحف الوطني وتماثيل الأسود ومسلة نلسون في ساحة الطرف الأغر والجسور الجميلة على نهر التايمز العكر... والسيارات الكثيرة التي تسابق الحافلات ذات الطبقتين وتضيّق الخناق على مركبات الخيل... والنساء السافرات في فساتين لا تكاد تغطي الركبتين وحواراتهن الطليقة مع الرجال، كل ذلك كان جديداً على الفتى القادم من الجزيرة العربية المحافظة.

في حديقة النبات، دخل فيصل عالماً أسطورياً تقريباً. فقد رأى في الجنينة زنبقة فكتوريا الشهيرة متفتّحة هائلة وسط بحيرة اصطناعية. والأمر لا يقتصر بالطبع على حديقة النبات. فهناك المتنزهات تنتصب فيها أشجار البلوط والزيزفون المعمرة، وتتشعب فيها المماشي وتحتضنها الأعشاب الحليقة وتتخللها أواني الزهر الجميلة. كل ذلك بدا للفتى النجدي ركناً من أركان الفردوس وأعجوبة لا أقل غرابة من السيارات والطائرات.

زار فيصل البنك البريطاني، وشاهد في نهر التايمز غواصة ألمانية من غنائم الحرب، والتقطوا له صوراً

على متنها.

كذلك شاهد الوفد النجدي مرصد غرينيتش ودهش أعضاؤه لرؤية النجوم بالتلسكوب في وضح النهار. وفي كمبريدج اطّلعوا على كلية ترينيتي التي تخرّج فيها مرافقهم جون فيلبي. ثم قاموا برحلات في ربوع إنجلترا وويلز وإيرلندة، بما فيها من حفلات استقبال ومآدب وولائم لا نهاية لها. وفي ويلز شاهدوا لأول مرة مؤسسة صناعية ضخمة هي مصنع التعدين، وفي بلفاست شاهدوا أحواض بناء السفن، وفي برمنغهام مصنع الأسلحة الخفيفة ومصنع السيارات. وكان في برنامج الزيارة حضور ميدان للرماية ومزرعة لخيول الإنسال والتكاثر ومواقع الصيد والمتاحف والمسارح والمتاجر.

عندما زار فيصل مصنع السيارات، بعد أن شاهد حركة المرور في شوارع لندن، اشتدت به الرغبة ليقود السيارة بنفسه. وبعد سنوات اشترى عبد الله القصيبي الذي كان ضمن الوفد سيارة "فورد" خصوصاً للملك عبد العزيز، فيما أولع فيصل في الحجاز بقيادة السيارات. جلبوا السيارة الأولى إلى الرياض مقطورة بالإبل. واستغرق ذلك أكثر من أسبوع عبر الأماكن نفسها التي يمر بها الآن على وجه التقريب طريق السيارات السريع المكوّن من ستة خطوط، والذي يوصل الركاب من الساحل إلى العاصمة في حوالى أربع ساعات.

وتعرّف فيصل والوفد المرافق له إلى هيئة تحرير جريدة "ديلي سكيش"، حيث التقطوا له صوراً وعرضوا عليه كيفية التحميض. ثم تابعوا كيف تتحول الصورة الفوتوغرافية إلى رقيقة معدنية ثم دخلوا المطبعة التي تنضد فيها الجريدة. وجلس فيصل على كرسي رئيس التحرير وأخذ بضع نسخ من الجريدة للذكرى.

كانت المهمة الإضافية بل الأساسية التي توخّاها الإنجليز من برنامج مكوث الوفد النجدي في بريطانيا العظمى، هي ترك أعمق الانطباع في نفوس الضيوف، واستعراض القدرات الصناعية والعسكرية والسياسية والفكرية لقلب الإمبراطورية الهائلة النابض. وكانت تلك من الممارسات المعتادة في كل دولة تدّعي العظمة. كاتب السطور لاحظ أكثر من مرة عندما كان يعمل مترجماً وصحافياً في العهد السوفياتي كيف تُتخذ إجراءات "خلق انطباع جيد عن الصورة الإيجابية للبلاد" لدى الوفود العربية أثناء زياراتها للاتحاد السوفياتي. وبالطبع كانت تلك المهمة الضخمة قد نفذت أثناء زيارة فيصل لإنجلترا.

آنذاك لم يكن فيصل يعرف، وما كان ليعرف، شأن الزعماء الإنجليز أنفسهم، أن الإمبراطورية بلغت ذروتها النهائية وبدأت تنحدر على نحو متسارع نحو الانهيار. إلا أن فيصل آنذاك ظل لعقود أخرى من السنين يراعي، في علاقاته مع بريطانيا التي غدت القوة الرئيسة في الشرق الأوسط، تلك القدرات الهائلة التي تقف من وراء

الدبلوماسية البريطانية. وقد ساعده ذلك في تحاشي الأخطاء وفي الحساب الدقيق لخطواته عندما تولى مهمات وزير خارجية المملكة العربية السعودية.

زار فيصل والوفد المرافق له مبنى البرلمان البريطاني، ودعي لاحتساء الشاي في المطعم المخصص لأعضائه. كان السكّر يوزع بالبطاقات من زمن الحرب العالمية الأولى. ولذا يقدم بحبات قليلة ومحدودة على الموائد. سألوا فيصل: "هل تريد سكراً يا أمير؟" فأجاب: نعم. ووضع في فنجان الشاي كمية أكثر من المعتاد، كما يفعل الفتيان المحبّون للحلوى. ولم يبقَ من السكر شيء لشاي الآخرين. فأربك ذلك مرافقي الوفد من الإنجليز، فطلبوا كمية إضافية. وعندما غادر الوفد مبنى البرلمان، سأل أحدهم فيصل هل أعجبته الزيارة فقال بصراحة: نعم. شعرت بارتياح عميق. "وأي مجلس أعجبك أكثر؟" - مجلس اللوردات، هو الأفضل من دون ريب. "ولماذا؟" - لأن الجالسين فيه يرتدون زي الوجهاء. وكان فيصل يقصد القبعات الأسطوانية العالية والستر المطرزة بالذهب. وهل كان في الإمكان توقّع ردّ فعل آخر لدى الفتى القادم من الجزيرة العربية البعيدة؟ فهو ما كان يعرف وما كان بوسعه أن يعرف آلية الديموقراطية البريطانية التي يؤدي فيها ملك الإمبراطورية الهائلة دوراً رمزياً، ويؤدي مجلس اللوردات وظائف محدودة جداً. ما كان بوسع فيصل أن يعرف بأن الإضرابات تهزّ بريطانيا وأن الجنود رفضوا

القتال آنذاك، وأن الزعماء الإنجليز يخشون جدياً "وباء البلشفية".

كان على فيصل أن يتصرف برصانة واتزان في حفلات الاستقبال والولائم والزيارات الرسمية. إلا أن طبيعة الصِبا كانت تتفوق على ما عداها أحياناً. نظّم له جون فيلبي رحلة إلى إيستبورن، حيث يتعلم ابنه كيم أو فيلبي الصغير في إحدى مدارسها، واتضح أن رفاق كيم الصغار يتميزون بالفكاهة والمرح وحسن المعاشرة. أمطروا فيصل بالأسئلة عن سيفه وخنجره وعن الإبل والعواصف الرملية وعن معارك أبيه وعن سمك القرش في مياه السواحل الجنوبية. ومن المستبعد أن يكون فيصل قد أجاب عن كل أسئلتهم حتى بمعونة إيماءات فيلبي الأب التي كان يسانده بها من دون ترجمة. ثم توجه الصبية مع فيصل إلى الفسحة المعشوشبة المطوّقة بشجيرات حمراء الثمار، وهجموا على تلك الشجيرات بسيفه وخنجره، ما أفزع المعلم وجون فيلبي والد كيم أشد الفزع. وأخيراً أمكن إنقاذ الشجيرات الجميلة بجهود المرشدين الإنجليز والسعوديين. على هذه الصورة جرى بالصدفة لقاء الملك السعودي المرتقب فيصل بن عبد العزيز مع المخبر السوفياتي الشهير وجنرال الاستخبارات الخارجية السوفياتية في ما بعد كيم فيلبي. وقبيل العودة إلى لندن، التقطت صورة فوتوغرافية لجميع الصبية يبدو فيها فيصل باسماً.

وثمة نقطة أخرى في ما يخص طبيعة الصِبا. ففي محطة "البيكاديلي" لمترو الأنفاق في لندن، أعجب فيصل بالسلّم الكهربائي كل الإعجاب، فصعد ونزل عليه عدة مرات.

كتب منير العجلاني يقول:

> دعي الأمير فيصل، خلال هذه الزيارة أيضاً، إلى حضور افتتاح مسجد إسلامي أنشئ حديثاً في لندن، وكادت هذه الدعوة تثير لسموّه متاعب، فقد أشار عليه جماعة بحضورها، ورأى آخرون أن يعتذر عن الحضور، فجاءته برقية من والده الملك عبد العزيز (إن كان المسجد للمسلمين كلهم فاحضره، وإلا فلا...!). ولما كان الجامع يديره "الأحمدية القاديانية"، الفرقة المعروفة في الهند، آثر الأمير عدم الاشتراك في حفلتهم حتى لا يفسّر حضوره بأنه تأييد لمذهبهم وتقوية لهم ضد منافسيهم[5].

في قاعة العرش بقصر بكينغهام، استقبل الملك جورج الخامس وعقيلته وكريمته الأميرة ماري الوفد النجدي، وذلك في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح الثلاثين من أكتوبر. وقبل ذلك جرت بين الملك وبين الشيخ أحمد الجابر مقابلة منفصلة سافر الشيخ في أعقابها عائداً إلى الوطن.

بدأ فيصل تلاوة رسالة أبيه إلى جورج الخامس بالبسملة، ثم سلم نصّها إلى الملك، وقدّم إليه بعد ذلك

سيفين على سبيل الهدية. وأعرب ملك بريطانيا عن مؤاساته لعبد العزيز ومبعوثه نظراً إلى وباء الإنفلونزة الذي أودى بحياة الكثيرين من رعايا ابن سعود، وبينهم ثلاثة من أولاده. ثم قدم صورتين فوتوغرافيتين - صورته وصورة الملكة - وعليهما إهداء بخطّه من أجل حاكم نجد وعاهد فيصل بأن وزراءه سيبحثون المسائل السياسية مع الوفد.

تؤكد وثائق الأرشيفات الإنجليزية لتلك الفترة[6] أن الإنجليز كانوا جادين في مباحثاتهم مع وفد نجد. وقد درسوا رسالة عبد العزيز التي أوضح لهم فيها حقيقة خلافاته مع الشريف حسين وأسباب الاشتباكات بين الإخوان وأهل الحجاز، مؤكداً أن الخرمة وتربة ورنية وبيشة وكذلك تثليث من أراضي نجد.

وتضمنت الفقرة الثالثة من الرسالة طلباً بالسماح لحجاج نجد بدخول مكة، فيما تضمنت الفقرة الرابعة تمديد تقديم المعونة المالية الإنجليزية وزيادتها، نظراً إلى الخراب الذي تعرضت له نجد. وأخيراً ورد في الرسالة طلب بتعيين جون فيلبي مندوباً سياسياً يتولى المساعدة في ترسيم الحدود بين الحجاز ونجد. واتضح أن بين الدوائر البريطانية الرسمية خلافات جدية تعود جذورها إلى التنافس القديم بين وزارة الخارجية ووزارة شؤون الهند. وكانت تصل من جدة المرتبطة بوزارة الخارجية أنباء التأييد الذي يحصل عليه الشريف حسين رغم تصرفاته الاستفزازية تجاه عبد العزيز، وكذلك المطالبة التي تثير سخط لندن في ما

يخص تنفيذ وعودها قبيل الانتفاضة العربية على العثمانيين. أما وزارة شؤون الهند (مكتب الهند) فقد كانت تؤيد حاكم نجد.

قال تركي الفيصل: عندما كان الأمير فيصل اليافع في لندن، أجرى أحمد بن ثنيان المحادثات بدلاً منه. لكن أحمد كان يناقش كل شيء مع فيصل الصغير. وما كانا يتفقان في الرأي أحياناً كثيرة. ولكن الفتى كان يريد أن يعرف كل شيء. فعندما ودّعه الوالد إلى لندن قال له: ستحدثني عن كل ما يدور هناك بعد أن تعود[7].

كانت مباحثات النجديين مع الإنجليز صعبة، حتى بدت غير إيجابية. فقد رفض الإنجليز قطعاً كل الطلبات التي تضمنتها رسالة عبد العزيز. وترك اللقاء مع اللورد كيرزون أسوأ الأثر في نفس فيصل وابن ثنيان.

كتب الميجر نورمان براي يقول:

> إن اللقاء في وزارة الخارجية كان الأكثر تعثراً. فقد عاملهم اللورد كيرزون كأنهم أطفال من واجبه أن يرعاهم ويتكفّلهم إلى درجة جعلتهم يغادرون إنجلترا حانقين غاضبين ويقطعون على أنفسهم عهداً بألا يعودوا إلى هذه البلاد مرة أخرى.
>
> وقد كلفت بمرافقتهم إلى باريس في غياب فيلبي مؤقتاً. ورأيتهم في حالة انفعال شديد. فقد قال لي أحمد: "إذا جاء الكابتن واي إلى نجد سنقطع رقبته". وأجبته: "لا، لا. فهذا يتعارض مع تقاليدكم في حسن

الضيافة". فقال أحمد ضاحكاً: "لن نفعل به ذلك طبعاً، ولكن الأفضل له ألا يأتي إلينا".

ربما كانت غضبة ابن ثنيان مفتعلة، لأنه أدلى بحديث موزون تماماً إلى وكالة "رويتر" بعد لقائه مع كيرزون، قال فيه إن اللورد كيرزون أبلغ فيصل وجهة نظر الحكومة البريطانية في شأن اقتراح ترسيم الحدود بين عبد العزيز وملك الحجاز، وأشار إلى أن الحكومة البريطانية ترى ضرورة لاتخاذ إجراءات لتنظيم لقاء بين ملك الحجاز وحاكم نجد بهدف إيجاد حل لمشكلة الحدود. وقال ابن ثنيان إنه شخصياً يميل إلى الاعتقاد بأن ملك الحجاز سيوافق على عقد مثل هذا الاجتماع، وأكد أن عبد العزيز أبدى الكثير من ضبط النفس. ففي أغسطس الماضي كان الطريق إلى مكة مفتوحاً أمامه، إلا أنه امتنع عن الزحف على المدينة المقدسة رغم وجود خمسة آلاف محارب رهن إشارته. طبيعي أن ابن ثنيان لزم الصمت بخصوص الإنذار البريطاني الذي أوقف زحف العساكر على مكة آنذاك، إلا أنه أضاف أن استئناف العمليات الحربية أمر لا مفر منه ما لم تتخذ الحكومة البريطانية تدابير عسكرية ملموسة أو تتولى مهمة ترسيم الحدود، وأن عواقب تطور الأحداث على هذه الصورة يمكن أن تكون وخيمة على كلا حليفي بريطانيا.

بذلك "الاستياء" الظاهري كشف النجديون أمام الإنجليز عمق خلافاتهم مع الشريف حسين.

وقد تحدث نورمان براي مراراً مع فيصل وابن ثنيان عن مستقبل جزيرة العرب، ونصح النجديين بضبط النفس. كذلك كان موقف بريطانيا واضحاً بالنسبة إلى فيصل وإلى مستشاره السياسي أيضاً. فقد قال أحمد بن ثنيان لنورمان براي أعاهدكم باسم سيدي السلطان ابن سعود أن الحرب لن تقوم في السنوات الثلاث المقبلة مهما بدر من الشريف حسين من استفزازات.

كتب براي يقول:

> أنا مستعد للشهادة بأن ذلك كان عهداً من أناس كرماء لم يحنثوا به، بل طبّقوه بدقة. وقد حافظ عبد العزيز على العهد الذي قطعه ممثله حتى من غير تشاور معه.

تحدّي بريطانيا هو آخر ما يمكن أن يقوم به عبد العزيز. ولذا تعيّن عليه أن يصبر وينتظر.

من محطة قطار فكتوريا التي تنطلق منها اليوم القطارات السريعة في النفق المؤدي إلى أوروبا تحت المانش، توجه النجديون إلى مضيق كاليه وركبوا العبّارة إلى فرنسا، حيث بدأت جولتهم في الأماكن التي شهدت المعارك بين فرنسا وفلاندر.

كان قد مرّ عام واحد على أكثر حروب التاريخ إراقة للدماء حتى ذلك الحين. وكان تسريح القوات في بدايته، وقد أخذ الفلاحون يعودون إلى حقولهم الممزقة بالخنادق والمزروعة بالألغام والمغطاة بالأعشاب الطفيلية. وفي كل مكان حُفر القنابل والأخاديد والأشجار المحروقة والأسلاك الشائكة. كانت

الألغام غير المنفجرة لا تزال منتشرة هنا وهناك. ولم يبقَ من القرى والمدن سوى الأنقاض وأكوام القرميد. والصلبان تنتصب في كل مكان. فهناك كثير من القبور، ولا شيء غير القبور... كانت تلك حرباً غريبة على النجديين. إلا أنهم لمسوا وأدركوا نطاق المجزرة. وذكر لهم الدليل المرافق لهم عدد المشاركين في الحرب وعدد الخسائر والضحايا الهائلة، وهي تفوق التصور بالمقارنة مع ما حصل في جزيرة العرب.

ظلت آثار هذه المعارك في ذاكرة الفتى. وبعد سنين طويلة، عندما سئل فيصل عن مشاركته الشخصية في الحملات العسكرية والمعارك في الجزيرة العربية جاء جوابه متحفظاً جداً، ربما لأنه رأى آثار الحرب الكبرى وأبعادها في أوروبا.

مسلسل الانطباعات والتداعيات أتعب فيصل ومرافقيه. فقد أمضى الوفد ليلته في ستراسبوغ ثم زار كولونيا قبل أن يصل إلى باريس، وهناك نزل في "أوتيل دوموند".

في العاصمة الفرنسية قرر براي أن ينظم لقاءً بين الوفد النجدي ونجل شريف مكة الأمير فيصل بن حسين، الذي كان آنذاك في زيارة لباريس. ولم يكن الإنجليز قد تخلوا بعد عن فكرة إصلاح ذات البين والتقريب بين حليفيهم في جزيرة العرب. إلا أن ابن ثنيان رفض اصطحاب فيصل بن عبد العزيز إلى اللقاء، وحسناً فعل.

في تلك الحقبة كان فيصل بن الشريف حسين يعتبر ملكاً لسورية، ينعم بالأمجاد والتكريم من دون أن يعلم بأن الفرنسيين ينوون طرده من سورية. فما قيمة ممثلي إمارة "لا شأن لها" في الجزيرة من "الوهابيين شبه الهمج" بالنسبة إليه؟

حصل اللقاء، فجلس فيصل بن حسين على أريكة واحدة مع أحمد بن ثنيان، فيما جلس على الأريكة المقابلة نورمان براي وجعفر العسكري رئيس أركان فيصل بن حسين.

"من هم هؤلاء الإخوان؟" - سأل فيصل خلال الحديث. ولاحت في السؤال نبرة إهانة، لأن الجميع يعرفون من هم الإخوان الذين هزموا قوات عبد الله بن الشريف حسين شقيق المتكلم. إلا أن سؤال فيصل الذي لا يحتاج إلى جواب كان يعني أن الإخوان من الضآلة وقلة الأهمية إلى درجة أنه لا أحد يعرف بوجودهم.

وواصل فيصل بن حسين: قيل لي إنه لا يسمح لهم بحلق اللحى. ولاحت في هذه العبارة نبرة تهكّم أشد وإهانة لمشاعرهم الدينية تأكيداً لاحتقاره لهم.

اتّقدت عينا أحمد بن ثنيان شرراً وكانت يده على مقبض سيفه. فنهض نورمان براي وجعفر العسكري في الحال ليُنهيا اللقاء.

ركب أحمد السيارة وهو في أشد درجات الهياج. وقال لنورمان لائماً: لماذا ألححت على حضوري هذا اللقاء؟ ألم أقل لك إنه لقاء لا خير فيه؟

وبالطبع حدّث ابن ثنيان رئيس الوفد فيصل عن هذا اللقاء، فظل المشهد راسخاً في ذاكرته. إلا أن ذلك لم يمنعه كوزير للخارجية من القيام بزيارة ودّية بعد 13 عاماً لبغداد التي صار فيصل بن حسين ملكاً عليها وعلى العراق. فالوقائع السياسية باتت أقوى من العواطف.

في بعض الأحيان كان المقدم جراي الذي يعرفه عبد العزيز جيداً منذ أن كان مندوباً سامياً في الكويت يمدّ يد العون إلى نورمان براي. فهو يتقن اللغة العربية الفصحى تماماً، لكنه يكاد يجهل اللهجات العامية.

بعث فيصل من فرنسا إلى وزير شؤون الهند البريطانية اللورد مونتيجي رسالة شكر على الحفاوة التي قوبل بها ووقّع الرسالة كالآتي: فيصل بن عبد العزيز بن سعود نجل ملك أراضي نجد وشيخ مشايخ قبائلها. وقد صاغ التوقيع على هذا النحو أحمد بن ثنيان، فيما ذيّله فيصل بإمضائه بعد تفكير قصير. ويعني ذلك وصف عبد العزيز بالملك لأول مرة في الممارسات الدبلوماسية.

وتسلم فيصل رسالة من ملك بريطانيا جورج الخامس ليوصلها إلى والده، جاء فيها أنه كان سعيداً بلقاء نجله فيصل وأحمد بن ثنيان، وأعرب عن رغبته في أن تجمع عرى الصداقة بين كل البلاد العربية. كذلك أعرب عن أمله بأن تعيش كل الشعوب العربية وزعماؤها بعد الحرب العالمية في جوّ الحرية والسلام

والوحدة، مشدداً على أن الحكومة البريطانية ستدعم جهود عبد العزيز في هذا الاتجاه.

في باريس عرف النجديون بمضمون معاهدة الصلح التي وقّعت في فرساي صيف ذلك العام، 1919م، وبالفقرات الأربع عشرة التي تقدم بها الرئيس الأميركي ولسون وفكرته بشأن تقرير المصير لجميع الشعوب، كما عرفوا بفكرة عصبة الأمم. كانت تلك قضايا بعيدة عن النجديين ولا تشغل بالهم كثيراً. إلا أن فرنسا وبريطانيا كانتا تتقاسمان الغنائم الاستعمارية في الشرق الأوسط، والاتفاق بينهما هو وحده الذي كان له تأثير مباشر وغير مباشر على مصير الجزيرة العربية.

الدول العظمى الخمس التي سمع بها فيصل لم تعد منها على قيد الوجود ثلاث: ألمانيا والنمسا - المجر والإمبراطورية العثمانية، فيما زحفت إلى مقدمة المسرح دولة عظمى جديدة هي الولايات المتحدة، لكنها كانت بعيدة عن جزيرة العرب ومجهولة بالنسبة إلى النجديين إلى درجة لم تحظَ باهتمامهم تقريباً. أما روسيا النائية أيضاً فكانت تسودها فتنة غير مفهومة للنجديين تسمى في تلك البلاد "الثورة".

كانت فرنسا المنتصرة، رغم الخسائر الفادحة، تغني وترقص محتفلة بالنصر، وتبكي على نخبتها وخيرة أبناء الأمة الذين اختطفتهم يد الحرب. وكان بوسع باريس في سنة 1919م أن تقدم الكثير للضيوف القادمين من جزيرة العرب، إلا أنه لم تكن هناك لقاءات رسمية مع المسؤولين الفرنسيين، فيما باتت المعالم

السياحية التي لا نهاية لها في المدينة العظيمة الرائعة عاجزة عن ترك انطباعات عميقة في نفوس النجديين المتعبين.

أمضى الوفد في باريس أسبوعين إضافيين لعدم توافر وسيلة نقل مناسبة للعودة. وسهرت على الوفد هنا شركة "توماس كوك" السياحية. ويبدو أن أعضاء الوفد لم يكونوا مرتاحين لخدماتها بعد الاستقبال الفخم في إنجلترا. وأخيراً غادر الوفد بالباخرة ميناء مارسيليا برفقة المقدم جراي في نهاية ديسمبر.

عاد الوفد النجدي إلى الوطن في فبراير 1920م من الطريق نفسه الذي غادره فيه، من خلال بومباي والبحرين.

الفصل الرابع

الرجولة

نحن لا نعرف ماذا فعل فيصل في العامين أو الثلاثة الأولى بعد عودته من بريطانيا. فليست لدينا معلومات عن هذه الفترة. والأكيد أنه كان يشغل موقعاً أكثر مهابة في مجالس أبيه، ويواصل الدراسة والاطلاع على شؤون الدولة.

عندما بلغ ربيعه السادس عشر ولدت له زوجته الثانية، سلطانة بنت أحمد السديري، ابنه البكر عبد الله. وكان ذلك حدثاً سعيداً كميلاد أي طفل ذكر.

ومعروف أيضاً أنه شارك في حملة والده الأخيرة على حائل والتي أدّت إلى ضمّ جبل شمر.

حينما عاد فيصل وابن ثنيان من بريطانيا وأبلغا الوالد نتائج الرحلة، فهم عبد العزيز أن الإنجليز لا يزالون يعتمدون على الشريف حسين، رغم أنهم لا ينوون دعم اعتداءاته المحتملة على نجد. كذلك فهم أنه لا وقت لدى الإنجليز للاهتمام بآل الرشيد. فالإمبراطورية البريطانية كانت مشغولة البال، خارج حدود الجزيرة العربية، بترسيخ مواقعها في العراق وفلسطين وشرق الأردن ومصر. ولذا قرر عبد العزيز أن يتحرك.

في شتاء 1920-1921م نجح الإخوان في مقاتلة الكويتيين الذين هبّت شمر لنجدتهم. وأنقذ الإنجليز محسوبهم الشيخ سالم، إلا أنه سرعان ما توفي، فيما وجد خليفته أحمد بن جابر حلاً وسطاً مع عبد العزيز. وأطلقت يدا حاكم نجد، فهزم شمر في أبريل - مايو 1921م وحاصر حائل من دون أن يتمكن من احتلالها.

في تلك الأثناء رسم ونستون تشرشل في مؤتمر القاهرة تركيبة الشرق الأوسط لما بعد الحرب العالمية الأولى. فقرر الإنجليز تنصيب فيصل نجل الشريف حسين ملكاً على العراق، وسرعان ما جرت مراسم التتويج. كذلك قرروا تنصيب عبد الله الابن الثاني للشريف حسين أميراً على شرق الأردن. وأدرك عبد العزيز أن عليه أن يستعجل، وإلا ستفلت إمارة جبل شمر من يديه.

عقد عبد العزيز قبيل شنّ الحملة الجديدة على حائل مجلساً لأعيان نجد وشيوخ القبائل والعلماء وزعماء الإخوان. وقرر المجلس تسمية عبد العزيز "سلطاناً لنجد وملحقاتها" لغرض تأمين مكانة دولية أرفع للبلاد. وسرعان ما اعترفت السلطات البريطانية في العراق باللقب الجديد. وما سهّل مهمة عبد العزيز الانقسام الذي حصل في عائلة ابن رشيد والمنافسة القاسية بينهم وبين آل سبهان وتردّي معنويات شمر القتالية عموماً.

في أغسطس 1921م عاد عبد العزيز إلى ضواحي حائل بعساكر بلغت حسب بعض الإحصاءات نحو 10 آلاف شخص، بمن فيهم الإخوان بقيادة فيصل الدويش.

وبعد شهرين من الحصار استسلمت المدينة. كان آخر أمرائها محمد بن طلال بن رشيد قد اعتصم في الحصن واستغاث بالسلطات البريطانية في العراق وبالملك فيصل الأول طالباً النجدة، إلا أنها لم تصل إليه. فسلم نفسه بعد فترة بشرط أن تؤمن له حياته، فأقام في الرياض أسيراً فخرياً وزوّج ابنته من عبد العزيز. إلا أنه قتل في الرياض عام 1954م بيد أحد عبيده.

في 1 نوفمبر 1921م لم تعد هناك إمارة مستقلة باسم جبل شمر. وفي 2 نوفمبر أقسم أهالي حائل يمين الولاء لعبد العزيز. منع سلطان نجد أعمال النهب في المدينة، ووفّر بعض المؤن للجياع. وكان الشيعة أكثر الجميع خوفاً على حياتهم، إلا أن عبد العزيز أصدر مرسوماً بحمايتهم. وممّا له دلالته أن الإخوان لم يكونوا راضين تماماً عن تسامح حاكمهم.

بسقوط إمارة جبل شمر باتت أواسط الجزيرة كلها بيد سلطان الرياض، فتحولت نجد وملحقاتها إلى القوة الرئيسة في جزيرة العرب. ولم يكن بوسع إمارة جبل شمر أن تصمد في وجه جارها الجنوبي الأقوى الذي كان محاربوه يتقدمون تحت شعارات تعاليم محمد بن عبد الوهاب المتجددة. ولما كانت تلك الإمارة معتمدة على قبيلة كبيرة واحدة، فإنها لم تتحول إلى نواة للدولة الموحدة في الجزيرة، فيما كانت الصراعات داخل العائلة الشمرية الحاكمة وغياب الزعيم القوي أضعفت الإمارة أمام منافسها القوي الحازم. كان حكام جبل شمر قد ربطوا مصيرهم بالإمبراطورية العثمانية،

بينما الحركة القومية لعرب الجزيرة ذات صبغة معادية للعثمانيين تماماً. وكانت بريطانيا في تلك الفترة تعتقد أن ضم القسم الشمالي من أواسط جزيرة العرب إلى نجد لا يهدد مصالحها في العراق وشرق الأردن، ففضّلت أن تنفض يديها رغم أن تعزز نجد خلق لها متاعب كثيرة.

كان لا بد من الاتفاق مع أقوى إمبراطورية في العالم.

ففي 1 نوفمبر 1922م جرى في العقير لقاء بين عبد العزيز والمندوب السامي البريطاني في العراق بيرسي كوكس. كانا صديقين قديمين يفهم أحدهما الآخر. وكل منهما شخصية بارزة في مجاله. كلاهما يتحليان بالحكمة والتسامح. السير بيرسي كوكس يمثل المدرسة المعروفة من الموظفين البريطانيين المستعربين في الفترة التي بلغت فيها الإمبراطورية ذروة جبروتها. وقد كلف بمهمة ترسيم الحدود بين مشيخات الخليج التابعة لبريطانيا آنذاك وبين أراضي سلطان نجد.

والمشكلة أن الجزيرة العربية لم تكن تعرف الحدود الثابتة مطلقاً. فللحكام السيادة على الناس وعلى القبائل، وليس على الأراضي. والبدو الرحل يمكن أن يتنقلوا مئات الكيلومترات بحثاً عن المراعي الأفضل ويظلوا من رعايا الحاكم ذاته، ما يعني أن سلطته تنبسط أيضاً على الأراضي التي ترحل فيها هؤلاء البدو.

إلا أن كوكس تمكن من أن يقنع عبد العزيز بأن يوافق على حدود ثابتة. وأدرك سلطان نجد أثناء كلامه مع كوكس أنه يمكن أن يحصل على مكافأة أكبر بكثير من

قطع الأراضي التي تحال عائديتها على العراق. وفهم عبد العزيز أنه إذا وافق على التنازل للإنجليز عن مناطق في الشمال والشرق، فإنهم يمكن أن يطلقوا يده من جهة الغرب في محاربة الشريف حسين الذي تعب منه الإنجليز أنفسهم، حيث إن كوكس لم يعد يكرر أي إنذارات في الدفاع عن حسين. وهو أمر التقطه عبد العزيز وتلمّسه بدقة، لكنه كان يفهم أن النجاح يقتضي انتظار الفرصة السانحة. أما الآن فقد وقّع عبد العزيز بروتوكولي العقير في 2 ديسمبر 1922م.

البرتوكول الأول رسم الحدود بين العراق ونجد، وكذلك المنطقة المحايدة التي كانت للعراقيين والنجديين فيها حقوق متساوية لرعي الماشية. أما البروتوكول الثاني فقد نصّ على حق أي قبيلة في إعلان التبعية لحكومة أخرى إذا رغبت في ذلك.

وإلى جانب ترسيم الحدود بين نجد والعراق وقّع عبد العزيز مع مندوبي الكويت اتفاقية الحدود التي رسمت هي الأخرى منطقة محايدة لبدو الطرفين يرعون فيها الماشية.

رفض الإخوان، وخاصة من مطير، سياسة عبد العزيز الحذرة الموزونة. فهم متحمسون للغزوات والغارات باسم الدين. وقد أخذتهم النشوة للانتصارات في جبل شمر، فواصلوا زحفهم نحو الشمال واحتلوا وادي سرحان. وتوغلوا حتى فلسطين وظهروا في جنوب سورية. وأغار الإخوان على العراق والكويت من دون سماح من عبد العزيز، فحاول أن يخفف من غلوائهم، إلا

أنهم توجهوا صوب شرق الأردن، وقتلوا في طريقهم في واحة طريف كل الرجال شباباً وشيوخاً. وكانت تلك مخالفة لأصول الحروب في الصحراء. إلا أن الأهم هو أن الإنجليز اعتبروا حماسة الإخوان خطراً يهددهم، فأطلقوا الطائرات ووجهوا المصفحات والمدرعات ضد مقاتلين لا يحملون سوى البنادق العتيقة والسيوف. وحصلت مجزرة دموية للإخوان، فلم يبقَ على قيد الحياة سوى عشرات الأشخاص من ألف وخمسمئة محارب. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يواجه فيها الإخوان الأساليب الحديثة لخوض القتال، فتلقوا درساً أليماً.

كان عبد العزيز على حق من جديد. فالإخوان أعماهم التعصب، بينما هو يفهم الوقائع. ولعله تذكر زيارته للبصرة حينما رافقته جرترود بيل أثناء مشاهدة الآليات الحربية الحديثة هناك. ولربما تذكر أيضاً أحاديث نجله اليافع فيصل عن زيارته لبريطانيا وعن القدرة الحربية الفعلية للإنجليز.

الحملة العسكرية على عسير كانت أكثر نجاحاً.

بعد سقوط حائل قرر عبد العزيز أن يستعيد سيطرته على عسير الجبلية، فأرسل إليها قوات تعدادها نحو 5 آلاف رجل تحت قيادة نجله فيصل. وكان القائد العسكري المحنّك خالد بن لؤي مستشاراً لفيصل ورئيساً لأركانه. فهو الذي هزم عساكر الشريف حسين في تربة، ما يدل على دقة عبد العزيز في اختيار المربين

والمرشدين لابنه الثاني فيصل ليجعل منه سياسياً محنّكاً وقائداًعسكرياً مجرّباً.

تحركت القوات من الرياض في يونيو - يوليو 1922م. وفي الطريق التحقت بها بضعة آلاف من البدو.

عسير تقع بين اليمن والأراضي التي كانت تحت سيطرة الشريف حسين، ولم تكن لها أبداً حدود دقيقة.

وكان ساحل عسير وتهامة وقسم من الجبال تحت سيطرة عائلة الإدريسي، وهي من العوائل الحاكمة الفتية نسبياً.

إلا أن عبد العزيز كان يعتبر عسير جزءاً من دولته لا يعود إلى الحجاز ولا إلى اليمن. ولكنه لم يكن قبل الحرب العالمية الأولى يمتلك القوات الكافية لبسط نفوذه عليها. وقد ثار محمد الإدريسي على العثمانيين في سنة 1912م، وفي السنة نفسها توجّه الشريف حسين، بناءً على طلب من الأستانة، في حملة على عسير لإسناد الحامية العثمانية في مدينة أبها، العاصمة الجبلية المطوّقة بالقبائل الموالية للإدريسي. تمكن حسين من دحر تلك القبائل وفك الحصار عن أبها، فظلت الحامية العثمانية فيها حتى عام 1919م حين تم جلاء العثمانيين من الجزيرة العربية بأسرها. وكان شيوخ آل عايض الذين بقوا في أبها موالين للأتراك. وعندما ثار عليهم الإدريسي إبان الحرب العالمية الأولى، حظي بدعم الإنجليز واعترفوا به حاكماً لعسير كلها. القبائل هناك غالباً ما تغيّر ولاءاتها. فكانت أسرة آل

عايض تعتبر شريف مكة ومحمد الإدريسي عدوين لها، ولذا طلبت النجدة من حاكم نجد.

وعندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، تحرك عبد العزيز لنجدتها، علماً بأن تعاليم الإدريسي الدينية مرفوضة من قبل أتباع محمد بن عبد الوهاب، وهو أمر بات حافزاً إضافياً لتعاون عبد العزيز مع آل عايض. وفي عام 1920م هزمت القوات النجدية بقيادة عبد العزيز بن مساعد، ابن عم حاكم نجد، قوات محمد الإدريسي وضيّقت عليها الخناق في منطقة الساحل.

أخذ حسن بن عايض وابن عمه محمد يتصرفان باستقلالية كبيرة عن أسيادهم النجديين، فاقتادهما ابن مساعد إلى الرياض، إلا أنه أطلق سراحهما بعد نصيحة من عبد العزيز. فلم تكن لديه القوى الكافية لحكم عسير بطريقة مباشرة.

لم تبقَ في عسير قوات نجدية آنذاك. وبعد حين من الوقت ترسخت سلطة حسن بن عايض في المنطقة الجبلية، فأخذ يتجاهل إرادة سيده الجديد.

واقتضى الأمر تلقينه درساً لكي يفهم من هو سيد جبال عسير الحقيقي.

توجهت القوات النجدية بقيادة الشاب فيصل إلى درب الفيلة عبر بيشة. وهناك خيّم فيصل عدة أيام. ثم تحرك نحو خميس مشيط، حيث انضم إليه رجال من قبيلة شهران، وهزم خصومه في معركة حجلة، فدخل مدينة أبها من دون قتال. تقدم فيصل حتى مدينة القنفذة على ساحل البحر الأحمر، وكانت فيها لشريف

مكة حامية صغيرة. أصيب الكثيرون من رجال فيصل بالملاريا وقضوا نحبهم في مناخ الساحل الرطب الحار. وهذا ما أنقذ الحامية. فقد انسحب فيصل وابن لؤي من القنفذة. وفي تلك الأثناء فرّ حسن بن عايض إلى الجبال، ثم استسلم بعد حين من الوقت، فاقتيد إلى الرياض بصفة أسير شرف.

أدى فيصل المهمة بنجاح وبأقل قدر من الضحايا.

في عسير وجد الفتى نفسه في بلاد تختلف كثيراً عن مسقط رأسه. فالجبال عالية والخط الساحلي حار ورطب، وأخلاق الناس وعاداتهم تختلف عمّا عند النجديين. نساء كثيرات لا يرتدين الحجاب، ويخدمن الضيوف بأنفسهن، وهو أمر غير معتاد في نجد. الجميع يرتدون قبعات عريضة من هشيم الأعشاب تحميهم من أشعة الشمس. والرجال في القرى، وخاصة الساحلية، لا يرتدون سوى المآزر القصيرة.

الأمطار غزيرة تروي المزروعات على مدارج السفوح، والبحر مليء بالأسماك.

أمضى فيصل بضعة شهور في عسير يتمرّن على إدارة الدولة. وكان من شؤونها في تلك الفترة مراقبة القبائل واستحصال الزكاة ونشر الدعوة الإسلامية بالشكل الذي عرفه وتعلمه في عائلة جده، وتوزيع الهدايا والمعونات على شيوخ القبائل. في تلك الشهور، ترعرع الفتى سريعاً وكسب خبرة في تصريف أمور الدولة. وهناك، في عسير، تزوج فيصل مرة أخرى من إحدى بنات وجهاء قبيلة شمران.

قدّم أمين الريحاني في كتابه **ابن سعود ونجد** وصفاً لمشهد عودة فيصل إلى العاصمة في يناير 1923م، قال فيه إن نجل السلطان البطل الشاب عاد من وديان تهامة الملفحة بالشمس وجبال عسير الباردة الواقعة على بعد 700 ميل و30 يوماً في الطريق. كان قد توجه إلى أبها على رأس قوة من 5 آلاف رجل في حملة تأديبية للقضاء على تمرد وراءه مؤامرة تمتد خيوطها إلى مكة مباشرة، إلى الملك حسين[1].

في الرياض تقدم فيصل على ظهر حصانه والرمح بيده أمام العلّيّة التي جلس فيها جده عبد الرحمن في عامه الثالث والثمانين. ويصف الريحاني فيصل بأنه شاب جذاب لم تبدُ عليه إمارات التعب، بل تعبّر ملامحه عن الاعتزاز الهادئ بالنفس. ترجّل ليقبّل جده عدة مرات، ثم امتطى ظهر الجواد سريعاً والتحق باستعراض الإخوان وهم يهزون رماحهم ويلوّحون بسيوفهم ويتنادون بصيحات القتال.

وعلى أثر فيصل وصل عبد العزيز نفسه. ففي ليلة البارحة مضى ليستقبل ابنه، ورأى أن يرافق قواته المظفرة حتى بوابة العاصمة. وبعد الخيالة جاء الهجانة على ظهور الجمال، والرايات ترفرف. إلا أن معظم المحاربين تفرقوا قبل ذلك إلى قبائلهم وأماكن سكناهم، لأن الرياض لم تكن تتسع لهم جميعاً.

كانت الأمور في عام 1923م تسير نحو الحرب ضد ملك الحجاز. وكان عبد العزيز مستعداً لتسديد الضربة، إلاّ انه مرض في تلك الفترة. أصيب بـالحمرة الحادة،

والتهب وجهه وارتفعت درجة الحرارة. ثم فقد البصر بعينه اليسرى ربما بسبب إعتام العدسة. الطبيب الذي استدعي لمعالجته من مصر أجرى له عملية ليست ناجحة بالكامل، إلا أن عينه استعادت البصر بعض الشيء، فأرجئت الحملة على الحجاز. لكن هذا التأخير الاضطراري بات في مصلحة سلطان نجد.

فالملك حسين في تلك الفترة فقد شعبيّته في الحجاز وفي العالم الإسلامي أجمع. تحول إلى مستبد طائش أفسد علاقته مع شعبه وتخاصم مع أعيان الحجاز وتجارها. ولم يعد يوزع المعونات البريطانية الأخيرة على القبائل، بل يحتفظ بها في خزائنه. كفّ عن دفع رواتب الموظفين، وكان يعلم أنهم مرتشون، وأطلق العنان للربا. كان الحج المصدر الرئيس لعائدات الحجاز، إلا أن الحجاج يتعرضون للنهب والقتل. وكان المئات منهم يموتون لغياب الظروف الصحية، فتقلص عدد الحجاج. وفي عام 1924م كفّ الإنجليز عن دفع المعونات لحلفائهم في جزيرة العرب عموماً، ومنهم الشريف حسين وعبد العزيز. وللتعويض عنها، فرض حسين ضرائب جديدة على الحجاج وعلى أهالي الحجاز. فتعرض للكراهية في بلاده وفي البلاد الإسلامية. وأخيراً، اختلف حتى مع الإنجليز، وامتنع عن الاعتراف باتفاقاتهم مع فرنسا حول سورية وفلسطين.

في يوليو 1924م افتتحت القنصلية السوفياتية في جدة، الأمر الذي أثار استياء الإنجليز أيضاً.

كانت لندن آنذاك في شغل شاغل عن جزيرة العرب. فالإمبراطورية المترهلة المتورمة المترامية الأطراف باتت مكلفة وصعبة في الإدارة. وواجه الإنجليز صعوبة بالغة في إخماد الانتفاضة في إيرلندة وأقدموا على تنازلات كبيرة في أفغانستان وتعرضوا لهزيمة عسكرية فيها. ولم تهدأ الاضطرابات والقلاقل في الهند ومصر والسودان والعراق، فقرر الإنجليز أن يتركوا الحبل على الغارب في الجزيرة العربية مهما كان المسار الذي يتخذه تطور الأحداث.

وأخيراً حصل حادث أطلق يدي عبد العزيز نهائياً. ففي 3 مارس 1924م أعلن رئيس الجمهورية التركية مصطفى كمال إلغاء الخلافة. وبعد ثلاثة أيام، أعلن الشريف حسين للعالم كله أنه هو خليفة المسلمين.

لم يؤيّد أحد خلافة حسين. فلم تكن قد رفعت من منزلته في العالم الإسلامي، لا الثورة العربية على الأتراك ولا الحرب التي خاضها "الكفرة" من دول الوفاق ضد خليفة المسلمين السلطان العثماني. وكان عجزه عن حماية الحجاج مبعث ارتياب في قدرته وصلاحه ليكون حامي الحرمين الشريفين، فيما كانت نجد بأجمعها حاقدة على "الخليفة" الدعي. أما عبد العزيز فقد رفض أي إشارة أو تلميح إلى كونه هو الخليفة أو المهدي المنتظر الذي يقوم لإنقاذ الأمة.

كان سلطان نجد متديناً للغاية. كل أعماله قائمة على الإيمان بالله الذي شاء أن تكون له رسالة ومهمة في هذه البلاد. كان يخاف الله الموجود أمامه ومعه عندما

يخاطب الناس أو ينزوي للتأمل والتفكير في خيمته. وكان الله معه في المعارك، في وقت الحرب ووقت السلام ووقت المقاضاة والعدل والحكم بين الناس. كان يدعو الله قبل أن يتخذ قراراته، ويتخذها في معظم الأحيان بعد الصلاة. ويقول: أنا مسلم أولاً، ثم أنا عربي، وأنا عبد الله دوماً.

الله دعاه لحكم الجزيرة وحماية الديار المقدسة، وكان عليه أن يؤدي هذه الرسالة في سبيل الله. وهو لم يكن من المنافقين أبداً. ذلك هو اعتقاده الراسخ المكين. لم يكن أقل تديّناً من الإخوان والعلماء. وإلى ذلك، كان سياسياً تطبيقياً وقائداً عسكرياً ودبلوماسياً محنّكاً. ثم إنه يدرك تماماً أن عائدات الحجاز من الحجاج والجمارك يمكن أن تزيد كثيراً في واردات خزينة الدولة.

كتب القنصل الهولندي في جدة فان دير ميولين المعروف بتدينه العميق:

> ما أثار دهشتي عندما رأيت بأم العين ابن سعود ورجاله من الوهابيين، هو القوة الروحية الجلية التى تدفعهم للعمل. ليس التعطش إلى السلطة، بل طاعة الله هي القوة المحركة الرئيسة لأفعالهم. من أين جاءت هذه القوة؟ متى ظهرت؟ هل كان ابن سعود أستاذاً في علم النفس، وجد السبيل إلى التحكم في البدو الخارجين عن أي سيطرة، ووفّق بين معتقداتهم الدينية

ورغبتهم الغريزية في الغزو؟ وهل كان نفسه وهابياً لأنه أدرك ببساطة أن الإيمان هو السبيل الوحيد لتحويل البدو الطلقاء إلى قوة عسكرية موحدة تؤمّن النصر السريع؟ هل كان وهابياً لحسابات واعتبارات مادية وليس بسبب المعتقدات الدينية؟ لا أعتقد. في رأيي أن الحافزَين متوافران، وكلاهما قوي. ولقد تسنّى لي أن أشهد كيف كان هذان الحافزان يتصارعان. إيمانه العميق ترك في نفسي انطباعاً أشد من قوته كزعيم مدني أو دنيوي محب للسلطة. ومن النادر جداً أن تجد في رجل مثله هذا الإيمان الراسخ كالصخرة التي يقوم عليها أساس حياته كلها... لم يكن إيمان الوهابيين آنذاك سطحياً عابراً. كان راسخاً بعمق في الفؤاد[2].

لقد توحدت كلمة النجديين جميعاً في طموحهم إلى دخول الحجاز. واستولت الحماسة، التي عمّت الجميع، على فيصل أيضاً، فكان يحلم بإبعاد حسين عن الحجاز ويرغب في العمل مع والده في هذا السبيل.

كان الجميع يريدون التخلص من الشريف حسين الذي فشل في حكم مكة والمدينة بعد أن عاث في الأرض فساداً.

سمح بالتدخين وبالتضرع إلى الأولياء والصالحين ليلبّوا الدعاء، ولا يلبّي الدعاء في مفهوم المؤمنين إلا الله، كما سمح بتزيين الحرمين والمساجد وبناء القباب

على الأضرحة وارتداء الفاخر من الثياب. وبلغ به الأمر حدّ منع الحج على أهالي نجد في السنوات الأخيرة.

اقتنع عبد العزيز بأن الساعة التي كان ينتظرها مدى العمر قد أزفت. لكنه ظل يزن كل خطوة يقدم عليها. كان بوسعه أن يحتل الحجاز بضربة واحدة، لكنه أراد أولاً أن يكتنه ردود فعل البلاد الإسلامية الأخرى وبريطانيا كي لا يخطئ التقويم. جمع الوجهاء والأعيان والعلماء وزعماء الإخوان في الرياض وأوكل الدور الأول إلى والده الإمام عبد الرحمن، وجلس جنبه بتواضع في انتظار قرار المجلس. وفّر الفرصة للجميع كي يبدوا آراءهم، ثم حاول أن يوضح لهم مدى أهمية الحملة على الحجاز بمراعاة رأي باقي المسلمين. إلا أن الإخوان كانوا يعتبرون أنفسهم المسلمين الصالحين الوحيدين، فيما يعتبرون الباقين "كفاراً"، "مشركين"، ويريدون تطهير الحرمين من خلال الجهاد في سبيل الله والتمتع بغنائم الحرب ثواباً على جهودهم في حماية الدين. إلا أن عبد العزيز أقنعهم بأن يتحلوا بالصبر وضبط النفس.

في تلك الفترة، لم يكن في نجد جرائد ولا وسائل إعلام. ولذا كلّف عبد العزيز ابنه فيصل وعدداً من مستشاريه أن ينقلوا موقفه إلى مسلمي العالم ويردوا على الدعاية المعادية التي يروّجها الملك حسين من خلال صحافة البلاد العربية والإسلامية.

وبوصفه أول ناطق باسم نجد وملحقاتها، حرر فيصل، في ربيعه الثامن عشر، أول رسالة سياسية بعث

بها، في 1 يناير 1924م، إلى عدة جرائد مشهورة في العالم الإسلامي. جاء فيها:

إن ملك الحجاز وولده عبد الله لا يسعون إلا لشهواتهم ومصالحهم ولو أدى ذلك إلى هدم بناء العرب... إن أولئك القوم اتخذوا الصياح وقلب الحقائق ديدناً لهم.

وبعد الرسالة الأولى حرر فيصل رسالة ثانية في 1 يونيو 1924م جاء فيها:

منذ بضع سنين قام نفر من إخواننا يطالبون باستقلال العرب وينادون بوجوب اتحاد أمراء العرب، فشكرنا سعيهم، وحمدنا عملهم، وسألنا الله أن يحسن قصدهم ويرشدهم إلى خير العرب...

ولكن ما كاد السيف يوضع في غمده حتى رأينا الاستقلال والتحرير وصايةً وانتداباً، وحتى رأينا شباب العرب وأحرارهم يقادون إلى السجون ويجلون عن بلادهم ويمنعون من الإقامة في ديارهم. فهل الاستقلال أن يصبح العرب غرباء في بلادهم ومرافق الحياة في يد غيرهم؟ ولولا أن الحجاز يجرح شعور المسلمين احتلاله لرأينا الانتداب قد ضرب عليه!

أيها الشعب العربي الكريم.

إن (نجداً) قد حافظت على استقلاليتها في جاهليتها وإسلامها، ولم يدنس أرضها

قدم أجنبي مغتصب، وستبقى محافظة على حقها إن شاء الله ما بقي في شعبها عرق ينبض.

إن (نجداً) تمد يدها لكل من يريد خير العرب ويسعى لاستقلال العرب وتساعد كل من ينهض لتحرير العرب واتحاد العرب.

إن (نجداً) ترحب بكل عربي أبيّ، وتعدّ أرضها وطناً لكل عربي سوري أو عراقي أو حجازي أو مصري...

ليس لجماعة أو شعب حق البت في مسألة الخلافة بدون أخذ رأي باقي الشعوب الأخرى، ولذلك أنكرنا على الحسين عجلته واستبداده بأمور المسلمين.

إن أهل نجد يوافقون إخوانهم أهل مصر والهند في وجوب عرض هذه المسألة على مؤتمر يمثل الشعوب الإسلامية تمثيلاً صحيحاً، وهناك، يسند هذا المنصب إلى الكفء الذي يستطيع أن يصون حقوق المسلمين ويبعث فيهم روح الحياة والنشاط ويربطهم برباط الأخوة الذي كاد ينحلّ[3].

ولم ينسَ فيصل أثناء كتابة الرسالة الثانية الأحاديث مع داعية الوحدة العربية أمين الريحاني في ضيافة سلطان نجد.

لم يصل أي ردّ على الرسالة، مع أنها نشرت في العديد من جرائد البلاد العربية والإسلامية. فرغم

الاستياء من حكم الشريف حسين، كان مسلمو الأقطار الأخرى لا يزالون يتذكرون "الوهابيين" الأوائل في عهد أجداد فيصل وكيف وضعوا العراقيل أمام الحجاج. لم يكن أولئك المسلمون يعرفون سلطان نجد، ففضّلوا الانتظار. إلا أنهم ما كانوا ينوون دعم الشريف حسين.

كان غياب ردّ الفعل السلبي على الرسالة مؤشراً إيجابياً بحدّ ذاته.

أمر عبد العزيز بالهجوم على الحجاز، وبعث في الوقت ذاته فصائل الإخوان إلى الحدود العراقية والأردنية ليحول دون وصول إمدادات إلى ملك الحجاز من خلالها.

وبعد معارك استمرت أسبوعاً، احتل الإخوان بقيادة سلطان بن بجاد وخالد بن لؤي الطائف، وتجاوز عدد القتلى هناك ثلاثمئة شخص. واستولى الخوف على أهالي مكة. كتب منير العجلاني يقول:

> وقعت خلال اليوم الأول من دخول الإخوان إلى الطائف حوادث مؤسفة كان لها في نفس السلطان عبد العزيز أثر جدّ أليم[4].

وفي 22 سبتمبر أصدر عبد العزيز مرسوماً منع فيه منعاً باتاً تكرار مثل هذه القساوة ووعد بضمان حياة أهالي الحجاز وأموالهم.

اضطر حسين إلى التنازل عن العرش لابنه علي، وفرّ مع زوجاته وكنوزه في عدة سيارات إلى جدة. ومن هناك نقلته باخرة إنجليزية إلى المنفى وهو مقتنع بأن الإنجليز خانوه. وبعد سنوات توفي في قبرص.

كان خالد بن لؤي ناقماً على ابن عمه، أمير مكة، وهو على استعداد للانتقام منه. إلا أنه بعد معركة الطائف تلقى أمراً مشدداً من عبد العزيز بعدم العبث والاستهتار بأرواح الناس في مكة. دخل رجال الصحراء القساة المدينة من دون قتال وبنادقهم تتدلى من أكتافهم. ولم يحصل هناك قتل ولا نهب أو سلب. إلا أن الإخوان أخذوا يقتلعون النقوش من جدران المساجد ويهدمون القباب المبنية على أضرحة الأولياء والصحابة، ويحطمون المرايا ويحرقون الأبواب والنوافذ الخشبية.

بسط سلطان نجد نفوذه على الحجاز من دون قتال في الواقع، ما عدا ميناء جدة حيث كان يقيم الملك الجديد علي بن حسين، وميناء ينبع، وكذلك المدينة المنورة التي كانت محصنة منيعة.

لقد أراد عبد العزيز أن يكلف فيصل بقيادة الحملة على الحجاز، فطلب ابنه الأكبر سعود المشاركة في القتال قائلاً: علمتنا الصراحة. وأنا أريد المشاركة في الحرب. مكاني في ساحة القتال. ولا أريد أن أبقى في نجد.

فما كان من عبد العزيز إلا أن عدل عن رأيه وترأس العساكر بنفسه.

بعد أن تلقّى سلطان نجد تأكيدات بحياد بريطانيا وباقي الدول الأوروبية، جاء إلى الحجاز شخصياً على رأس قوات كبيرة. دخل مكة في 5 ديسمبر 1924م بإحرام الحج وأدى مناسك العمرة. كان مبتهجاً فخوراً

بلا ريب، من دون أن يبدو عليه شيء من ذلك، إذ تصرف بتواضع وتحفّظ.

في 13 ديسمبر 1924م نشرت "أم القرى" التي بدأت تصدر آنذاك بياناً طرح فيه عبد العزيز برنامجه من أجل الحجاز:

> سيكون أكبر همنا تطهير هذه الديار المقدسة من أعداء أنفسهم الذين مقتهم العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها بما اقترفوه من الآثام في هذه الديار المباركة وهم (الحسين) وأنجاله وأذنابهم... إن مصدر التشريع والأحكام لا يكون إلا من كتاب الله وممّا جاء عن رسوله عليه الصلاة والسلام أو ما أقرّه علماء الإسلام بطريق القياس أو ما أجمعوا عليه مما ليس في كتاب ولا سنّة... كل من كان من العلماء في هذه الديار أو من موظفي الحرم الشريف أو المطوفين ذي راتب معين فهو له على ما كان عليه من قبل إن لم نزده فلن ننقصه شيئاً...[5].

أعلن عبد العزيز عن إنشاء إدارة موقتة في مكة بعد أن جمع أعيانها وأعيان مدن الحجاز الأخرى. وعيّن ابن لؤي قائداً لقوات مكة، كما عيّن حافظ وهبة، المصري الذي يعمل عنده من سنين، حاكماً مدنياً لها.

كان عبد العزيز شخصياً قليل الاتصال بالأجانب. فما عدا السنوات المعدودات التي أمضاها في الكويت في شبابه وزيارته البصرة سنة 1916م لم يغادر الجزيرة

أبداً. كان يتردد عليه ممثّلو بريطانيا والإمبراطورية العثمانية، ولم يكن يعرف غيرهم. لكنه كان يدرك ضرورة مراعاة رأي العالم المحيط به، الذي لم يكن مؤيّداً لمبادراته، ولزوم إقامة علاقات مع القناصل الأجانب، بمن فيهم القناصل النصارى المقيمون في جدة.

قرر علي بن حسين المحاصر في جدة أن يلتزم مواقع الدفاع، فاشترى طائرتين أو ثلاثاً وعدة سيارات مدرعة. إلا أن الباعة خدعوه، فبدلاً من المدرعات بعثوا إليه شاحنات قديمة ملبسة بالدروع.

في 5 يناير 1925م بدأ حصار جدة، واستمر حوالى عام بفواصل قصيرة. ولم يتلقّ علي نجدة وإمدادات جديدة، لا من العراق ولا من شرق الأردن.

أما عساكر عبد العزيز فقد تضاءلت خلال فترة حصار جدة، لأن البدو لا يطيقون البقاء طويلاً في مكان واحد على الساحل الرطب الحار.

وفي يونيو 1925م، رفع الحصار عن جدة بسبب قيظ الصيف، وفي أغسطس من العام نفسه طلب علي المساعدة من الإنجليز مرة أخرى، إلا أنهم رفضوا مساعدته مؤكدين أنهم لن يتدخلوا إلا إذا وافق عبد العزيز.

في أواسط أكتوبر، مرّ بجدة المندوب السامي البريطاني جلبرت كليتون الذي كان قبل ذلك كبير أمناء حكومة فلسطين. فكتب في مذكراته أن علي كان

مقهوراً معنوياً ومادياً. وأبدى كليتون دهشته متسائلاً لماذا لم يدخل عبد العزيز المدينة.

فوجئ الإنجليز بهزيمة الشريف حسين السريعة. ولكي يؤمنوا مواقعهم في شرق الأردن، استولوا على ميناء العقبة الحجازي ومدينة معان العائدة للحجاز. وهي آخر نقطة في السكة الحديدية العريضة الهابطة من دمشق، والنقطة الأولى في السكة الحديدية الضيقة الممتدة إلى المدينة والمعطلة في الوقت ذاته.

كانت لعبد العزيز سيطرة على القبائل والأراضي المتداخلة مع الممتلكات البريطانية في شرق الأردن والعراق. وقد أصرّ كليتون أثناء المفاوضات على ترسيم حدود تضمن اتصالاً بين أراضي الأردن والعراق. وكان ذلك إنذاراً جعل عبد العزيز يشتاط غضباً. إلا أنه قبِل الإنذار ووقّع الاتفاقية مع الإنجليز.

ودلّل عبد العزيز من جديد على مرونته السياسية، ووافق على تنازلات في الشمال مقابل اعتراف بريطانيا فعلاً بضمّه الحجاز. وكانت النتيجة هي توقيع اتفاقيتي بحرة وحده في الأول والثاني من نوفمبر 1925م. وتناولت اتفاقية بحرة العراق ونجد، وقضت بأن أي غزوة من القبائل عبر الحدود على إحدى الدولتين تعتبر عملاً عدوانياً يتطلب عقاباً من قبل الحكومة التي تتبع لها القبيلة الغازية.

أما اتفاقية حده فقد رسمت الحدود فعلاً ولأول مرة بين نجد وشرق الأردن. وقد تنازل سلطان نجد بموجبها للأردن عن رواق يربطها بالعراق. واعتبرت غزوات

القبائل من الطرفين اعتداءً، وأُنشئت محاكم المنهوبات للنظر في مثل هذه الدعاوى.

في تلك الأثناء حاصر فيصل الدويش المدينة المنورة. وأبدى أهاليها استعدادهم للاستسلام، ولكن ليس للإخوان، بل لأحد أبناء عبد العزيز. كانوا يخشون أن ينهب فيصل الدويش المدينة من دون رحمة. فقد استولى على إحدى القرى القريبة منها ودبّر مذبحة هناك. واشتاط عبد العزيز غضباً بسبب هذا التصرف، وأمر فيصل الدويش بأن ينسحب من الحجاز إلى داخل الجزيرة. ونفّذ الدويش الأمر، لكنه أضمر حقداً على عبد العزيز.

وعندما أدرك عبد العزيز أن الوقت حان لدخول جدة، استدعى ابنه فيصل وأمره بأن يتحرك نحوها على رأس القوات وظل ينتظر وصوله.

في صبيحة الثلاثاء 25 نوفمبر 1925م، وصل فيصل على رأس قوة من جيش نجد إلى مكة وكان في التاسعة عشرة من العمر وفي حسابه النصر المبين الذي سبق أن سجله في عسير. كتبت الجريدة الرسمية "أم القرى" في أول بيان لها عن وصوله إلى مكة تقول باللهجة والأسلوب المتّبع في ذلك الزمان:

> وصل مكة المكرمة صاحب السمو السلطاني الأمير فيصل، نجل عظمة السلطان، وفي معيّته ألوية عديدة من الجيش النجدي، خيّمت في أماكن متعددة حول مكة المكرمة.

وسموّ الأمير شاب في مقتبل العمر، طلق المُحيّا، يتّقد نشاطاً وهمة.

ولقد سبق لسموّه أن قام بسياحة في الديار الأوروبية بعد انتهاء الحرب العامة، فزار لندن وبعض البلاد الإنجليزية، ثم سافر إلى فرنسا وتجول فيها، وبعد عودته بمدة قليلة توجه بأمر من عظمة والده إلى (أبها) عاصمة عسير، ففتحها الله له، وألحقت بالديار النجدية من ذلك التاريخ.

وقد حضر مواقع كثيرة مع إمارة حائل تكلّلت أعماله فيها بالظفر.

وسموّه محبوب عند كل من تعرّف به وعرف شمائله، فنرحب بمقدمه السعيد وطالعه الميمون[6].

لم يبقَ فيصل في مكة طويلاً، حيث توجه صوب جدة وخيّم في "الرغامة" التي تبعد عنها مسافة 15 كيلومتراً ويتوافر فيها خزان ماء، وكان عمه الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الذي يعزّه كثيراً معسكِراً فيها.

آنذاك استسلمت المدينة المنورة، ثم استسلمت ينبع. وفي 6 ديسمبر 1925م دخل محمد اليافع نجل عبد العزيز المدينة المنورة وصلى في المسجد النبوي الشريف. وكما كان يفعل والده، وزّع الأرزّ والمال على أهالي المدينة الذين كانوا يتحسّرون على الطعام.

وعندما علم علي بن الحسين، ملك الحجاز، بنبأ اتفاقيّتي بحرة وحده وامتناع كليتون عن دعمه، أدرك

أن نهاية حكمه باتت وشيكة. وكانت جدة تغصّ باللاجئين إليها، وهم يعانون من المجاعة وشحّ المياه. الناس يموتون في الشوارع. وقد نزح الكثيرون من أهالي المدينة إلى إريتريا وعسير وعدن ومكة. وتضاءل عدد السفن التي تصل إليها. فقرر علي وقف المقاومة بعد أن رأى أخويه في العراق والأردن مهتمين بالحفاظ على عرشيهما أكثر من اهتمامهما بنجدته. واستسلمت جدة في 22 ديسمبر بشرط ألا يدخل الإخوان الوهّابيون المدينة. واستقلّ علي باخرة بريطانية إلى عدن، ثم توجه إلى أخيه فيصل في العراق. وفي اليوم التالي دخل عبد العزيز جدة.

أبلغ أعيان مكة وعلماؤها وأعيان جدة عبد العزيز استعدادهم لمبايعته ملكاً على الحجاز. وبعد صلاة الجمعة في 10 يناير 1926م اجتمع الناس عند باب الصفاء من المسجد الحرام، وحضر السلطان عبد العزيز في موكبه. كان المشهد عربياً صافياً، أي بسيطاً ديموقراطياً، فلم يكن هناك غير سجادة وقف عليها السلطان وكرسي للخطيب... اعتلى الخطيب الكرسي، وبعد كلمة قصيرة تلا صيغة البيعة. وأطلقت 100 طلقة مدفعية. وبايع ملك الحجاز الجديد الأشراف والعلماء وأعضاء المحكمة التشريعية والأئمة والخطباء وأعضاء مجلس الشورى وممثلو المدينة المنورة وجدة وطوّافو الحجاج وخدم الكعبة وزمزم وغيرهم من أهالي مكة والمدينة.

وهذا نص البيعة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

نبايعك يا عظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود على أن تكون ملكاً على الحجاز، على كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما عليه الصحابة رضوان الله عليهم والسلف الصالح، والأئمة الأربعة رحمهم الله، وأن يكون الحجاز للحجازيين وأن أهله هم الذين يقومون بإدارة شؤونه، وأن تكون مكة المكرمة عاصمة الحجاز، والحجاز جميعه تحت رعاية الله ثم رعايتكم[7].

وصار عبد العزيز يلقّب بملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الاتحاد السوفياتي هو أول دولة كبرى تعترف بعبد العزيز ملكاً على الحجاز وسلطاناً لنجد وملحقاتها.

آنذاك كان المندوب السوفياتي كريم حكيموف موجوداً في الجزيرة العربية من عامين، حيث وصل بصفة رئيس للبعثة الدبلوماسية السوفياتية لدى حسين ملك الحجاز.

وقد دفعت ثورة أكتوبر 1917م والأحداث العاصفة في الإمبراطورية الروسية المترامية الأطراف الموهوبين من أبناء الطبقات "السفلى" إلى مقدمة المسرح. كان كريم حكيموف من عائلة فقيرة، وتمكن

من أن يصبح آمراً في الجيش الأحمر. وكانت معرفته باللغة العربية وحزمه وفطنته ومرونته الفكرية وحضور بديهته قد ساعدته أن يغدو دبلوماسياً جيداً. آنذاك واجه حكيموف مسألة في منتهى الأهمية. على من يعتمد؟ الملك الشاب علي بن الحسين يعود بنسبه إلى أحفاد الرسول. وبعض أفعال والده الحسين وأفعاله هو كانت في مصطلحات ذاك الزمان ذات طبيعة "معادية للإمبريالية"، أي معادية لبريطانيا، وهو أمر يروق موسكو. إلا أن علي كان ضعيفاً من الناحية العسكرية.

وكانت القوة الفعلية بيد سلطان نجد.

طوال حصار جدة عام 1925م كان حكيموف يتوخى التوازن في علاقاته بالملك علي الذي ضعفت مواقعه سريعاً وبين عبد العزيز، الأمر الذي أثار قلق الإنجليز. وقد بدأ المفوض السوفياتي مكاتباته مع حاكم نجد من خريف 1924م، فيما قام بزيارة مكة في أبريل سنة 1925م، حيث سمح له بذلك كمسلم، ولم يسمح بمثله للقنصل البريطاني في جدة. آنذاك أجرى حكيموف أولى المحادثات مع عبد العزيز وأعرب الطرفان عن اهتمامهما المتبادل بإقامة العلاقات بين الدولتين. وإلى جانب المسائل السياسية والاقتصادية، بحث موضوع تنظيم وصول المسلمين الروس لأداء فريضة الحج.

وممّا له دلالته أن عبد العزيز بعد دخوله المظفر مدينة جدة بعث إلى حكيموف رسالة أعرب فيها عن

امتنانه لحكومة الاتحاد السوفياتي على حيادِها التام في صراعه مع الملك علي.

في 16 فبراير 1926م نقل حكيموف إلى عبد العزيز رسالة من موسكو جاء فيها:

انطلاقاً من مبدأ حق الشعوب في تقرير المصير واحتراماً لإرادة الشعب الحجازي التي تجلّت في مبايعته لكم ملكاً عليهم، يعترف الاتحاد السوفياتي بكم ملكاً للحجاز وسلطاناً لنجد وملحقاتها... ولذا تعتبر الحكومة السوفياتية نفسها في علاقات دبلوماسية طبيعية مع حكومة جلالتكم.

وجاء في رسالة عبد العزيز الجوابية المؤرخة في 19 فبراير ما معناه: تشرفنا بتسلّم مذكرتكم المؤرخة في 3 شعبان 1342هـ (16 فبراير 1926م) والمرقمة 22 التي تفيد باعتراف حكومة الاتحاد السوفياتي بالوضع الجديد في الحجاز، وهو مبايعة سكان الحجاز لنا ملكاً للحجاز وسلطاناً لنجد وملحقاتها، الأمر الذي تعبّر حكومتي لحكومة الاتحاد السوفياتي عن شكرها عليه وتعرب عن الاستعداد التام لعلاقات مع حكومة الاتحاد السوفياتي ومواطنيه كالتي توجد بين الدول الصديقة[8].

وبعد اعتراف الاتحاد السوفياتي، اعترفت الدول الأخرى بملك الحجاز الجديد.

خضع وجهاء الحجاز لسلطان نجد، لكنهم حاولوا الاحتفاظ بحقوق كبيرة خوفاً من سيطرة "البدو

النجديين" على الحجاز الأكثر تطوراً. فقد أنشأ 56 من أصحاب الحل والعقد من الوجهاء والأعيان والأشراف والعلماء والتجار ما يشبه "المجلس التأسيسي" الذي قرر أن يكون الحجاز كياناً مستقلاً عن نجد في شؤونه الخارجية والداخلية، على أن يتوحد الكيانان بشخصية الملك الواحد، وأن تتألف في الحجاز حكومة إسلامية ويوضع دستور لها على أساس من الكتاب والسنّة.

حاول أشراف الحجاز أن يقيّدوا سلطة الملك، إلا أن تناسب القوى كان في مصلحة عبد العزيز الذي أخذ في الاعتبار رغبات الحجازيين، لكنه نفذها فقط بالقدر الذي لا يتعارض مع مصالح سلطته المطلقة. وبمرسوم من الملك تأسّست في سنة 1926م مجالس استشارية في مكة والمدينة وجدة وينبع والطائف، اتخذت في ما بعد شكل المجالس البلدية، ثم شكل مجلس الشورى لعموم الحجاز المكوّن من 13 عضواً.

وكان من اللازم الحصول على اعتراف بسلطة عبد العزيز على الحجاز من قبل الدول ذات الأكثرية الإسلامية، وإن كانت تلك مسألة وقت لا غير.

بعد استيلاء النجديين على الحجاز وصلت إلى جدة بعثة إسلامية من الهند طالبت بإحالة أمر الحرمين الشريفين على لجنة تمثل جميع الدول الإسلامية. استضاف عبد العزيز البعثة لأمد قصير، ثم أمر بعودتها إلى الهند.

بعد الحج في يونيو 1926م قرر الملك الجديد عقد مؤتمر إسلامي يضفي الصدقية على سلطته في

الحجاز. وبعث رسالة إلى عدد من رؤساء الدول الإسلامية ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى في القدس ورئيس رابطة الخلافة في بومباي، عاهدهم فيها على أنه يحمي الحرمين الشريفين ويعمل على تحسين ظروف الحجيج.

حضر المؤتمر الإسلامي في مكة 69 ممثلاً عن المنظمات الإسلامية من حوالى عشرين دولة.

تشاجر مندوبو المؤتمر وراحوا ينتقدون كل ما يرونه حواليهم وخرجوا بقرارت لا جدوى منها. إلا أن غياب القرار كان بحدّ ذاته قراراً نافعاً، فالمجتمعون اعترفوا في الواقع بسلطة عبد العزيز على الحجاز، وكان ذلك هو المطلوب. وقد أفهم عبد العزيز المندوبين من هو سيد الحجاز. المستاؤون من ذلك انسحبوا من المؤتمر، لكنهم لم يبدلوا في الأمر شيئاً. أما الباقون فقد اعترفوا بالوضع القائم.

في مقابلة مع مراسل وكالة تاس السوفياتية، أبلغ رئيس وفد مسلمي روسيا وتركستان إلى المؤتمر رئيس الإدارة الدينية المفتي رضا الدين صقر الدينوف اعتراف المؤتمر بعبد العزيز "حامي الحرمين الشريفين". كذلك طالب المندوبون بإعادة العقبة ومعان إلى الحجاز، مؤيّدين في الواقع الملك الجديد.

أثناء انعقاد المؤتمر حصلت فتنة "المحمل" المصري. كانت قافلة الجمال تأتي من القاهرة كل عام بكسوة مطرزة جديدة للكعبة. ويودّع المحمل عادة الملك فؤاد وكبار العلماء وترافقه وحدة عسكرية مصرية ومعها

موسيقى. والجنود والموسيقيون يدخنون صراحة، فيما تعتبر الموسيقى والتدخين عند الإخوان النجديين بدعة من الكبائر. فطالبوا بعدم استعمال الموسيقى النحاسية لأنها تفسد عليهم ما كانوا فيه من التكبير والتهليل وذكر الله والخشوع. ونشب شجار بين الطرفين جعل قائد الحج المصري يصدر أوامره بإطلاق النار على كل من يعترض سبيل المحمل من الإخوان. ولم يكن هؤلاء مسلحين، فرموا المصريين بالحجارة. وسقط عدد من الإخوان قتلى وجرحى برصاص الجنود. نحو عشرين قتيلاً والكثير من الجرحى، كذلك أصيبت جيادهم بجراح. وأخذ الإخوان يستعدون لمقاتلة المصريين. وكادت تقع بين الطرفين فتنة لا تحمد عقباها. وفي الحال بعث عبد العزيز ابنه فيصل لاستيضاح ما حصل. أدرك الأمير فيصل أن أمراً جللاً على وشك أن يحدث ويسبّب إراقة المزيد من الدماء. فأرسل في طلب حضور الوالد وامتطى جواده ووقف بين الفريقين المتخاصمين ليحول دون الاشتباك. وسرعان ما وصل عبد العزيز وأخذ هو وفيصل يضربان الإخوان بالعصي كي لا يبدأوا بإطلاق النار. وكلف عبد العزيز حرسه الشخصي بأن يقطع دابر القلاقل، وطلب من فيصل وحافظ وهبة أن يتابعا أمر الحفاظ على النظام.

وبذلك أفسدت العلاقات مع مصر لأمد طويل.

في ما بعد، طالب عبد العزيز مصر بالاعتذار وتعويض عوائل القتلى والجرحى. ولم تستأنف العلاقات إلا بعد وفاة الملك فؤاد سنة 1936م.

كانت انتصارات القوات النجدية وحياد بريطانيا الإيجابي الاضطراري وتضحيتها بالحسين أثناء احتلال عبد العزيز الحجاز والسياسة الذكية للملك الجديد الذي جمع بين اللين والشدة، كل ذلك جعل الجدل في عائدية الحرمين الشريفين أمراً عبثياً لا جدوى منه.

جاء في رسالة القنصل العام السوفياتي في جدة سنة 1929م:

> السيطرة على الحجاز وعائداته من الحج والجمارك وما إلى ذلك (الحج وحده كان يعطي سنوياً مليوني جنيه إسترليني) وفّرت لعبد العزيز إمكان استخدام كل هذه الموارد بنفع سياسي كبير لسلطته في نجد (مساعدة الهجر الجديدة ودعم شيوخ القبائل)... القوة الرئيسة في الحجاز المتمثلة في التجار الميّالين إلى الإمبراطورية البريطانية تنادي بالاتفاق مع الإنجليز. والبدو متذمرون من الزكاة التي تستوفى منهم بنسبة 2.5 في المئة ومن منع النهب، وكذلك من استيراد السيارات الذي حرمهم من الكسب ومن انقطاع المعونات السلطانية. كذلك فإن مطوفي الحجاج ومرافقيهم الذين يسلبون ممتلكاتهم عادة متذمرون أيضاً لأن الدولة أخذت تنظم الحج وتستأثر بعائداته[9].

لم يكن عبد العزيز راغباً في ضم الحجاز إلى نجد في وحدة اندماجية. ولذا سعى إلى تأمين نوع من الاتحاد

بينهما ككيانين لكل منهما خصوصياته واستقلاليته. ولما كان غير قادر على حكم الكيانين دفعة واحدة، اختار ابنه فيصلاً ممثلاً عنه في الحجاز بصفة نائب للملك ورئيس للحكومة في مكة، وأمر بتأليف مجلس استشاري لمساعدته.

باشر الأمير فيصل مهماته في الحجاز في صباح الأربعاء الثالث عشر من يناير 1926م.

الفصل الخامس

الأمير فيصل نائباً للملك في الحجاز

منذ التاسعة عشرة من العمر بات الأمير فيصل الساعد الأيمن لوالده في إدارة الحجاز الممتدة على مسافة 1350 كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب و300 كيلومتر من الغرب إلى الشرق. وكان عدد سكانها في تلك الفترة يناهز مليون نسمة. مجتمع الحجاز كان أكثر تطوراً من المجتمع النجدي. ففي الحجاز على أي حال جهاز إداري بيروقراطي بسيط على الطراز العثماني، وهنالك بدايات للجيش النظامي. وكانت تنشر تفاصيل ميزانية للدولة لم تنفذ أبداً. البلاد هنا مفتوحة على العالم الخارجي. عشرات الآلاف من الحجاج يتواردون عليها من الأقطار الإسلامية لأداء فريضة الحج والعمرة. وكانت في جدة قنصليات أجنبية، بينها قنصليات لدول مسيحية، فيما يزاول التجار الحجازيون تجارة واسعة بمقاييس الجزيرة مع الهند ومصر وبلدان أخرى.

في 13 أغسطس 1926م أصدر الملك عبد العزيز "الدستور"، أو على الأصح "النظام الأساسي" الذي شارك في وضعه عدد من أهل الرأي في الحجاز. وأطلقت جريدة "أم القرى" الرسمية على هذه الوثيقة تسمية متواضعة هي "التعليمات الأساسية للمملكة

الحجازية". ولعل هذه الوثيقة باتت أساساً لنظام الدولة في البلاد كلها وليس في الحجاز وحده.

أكدت "التعليمات الأساسية" أن الملك يعيّن في الحجاز نائباً عاماً له ورؤساء الدوائر الحكومية المسؤولة أمام نائب الملك، وهو بدوره مسؤول أمام الملك.

في اليوم ذاته تولّى فيصل رسمياً مهمات النائب العام للملك في الحجاز.

وجاء في "التعليمات الأساسية" أن أمور الدولة الحجازية توزع على الأقسام الأساسية الستة الآتية: الأمور الشرعية والداخلية والخارجية والمالية والتعليمية والعسكرية[1].

وأكدت التعليمات، خصوصاً، أن الأمور العسكرية وما يرتبط بها من وظائف تدار بإشراف صاحب الجلالة.

وفي مجال السياسية الخارجية احتفظ الملك لنفسه بالأمور السياسية والحقوقية وترك الأمور الإدارية والقنصلية لنائبه العام.

ووفقاً ل"التعليمات الأساسية" تأسّس مجلس الشورى في الحجاز برئاسة الأمير فيصل لوضع المشاريع والأنظمة والنظر في طائفة واسعة من الأعمال الإدارية والمالية. وإلى ذلك، تألف مجلس استشاري لدى الأمير فيصل. وكانت كل القضايا المهمة تطرح على بساط بحث مجلس الشورى أولاً ثم تحال على المجلس الاستشاري، الأمر الذي كان يؤخر عملية صنع القرار، فتقرر توحيد المجلسين في ما بعد.

إلا أن عبد العزيز اعتبر بعض أحكام "التعليمات الأساسية" متعارضة مع أسلوبه في ممارسة الحكم. واعتباراً من العام التالي، أهملت المواد 28-37 بشأن مجلس الشورى والمجالس المحلية، كما أن المواد 43-45 بشأن تأليف هيئات المراقبة المالية لم تنفذ إطلاقاً، وفقدت مفعولها في ما بعد.

كان مجلس الشورى مؤلفاً من الرئيس، وهو نائب الملك، وثمانية أعضاء. وكان فيصل يلقي خطاباً شاملاً في افتتاح الدورة الأولى للمجلس في بداية كل عام.

ويثير الالتفات أن أحد القرارات الأولى التي اتخذها المجلس كرّس للاهتمام بنقاوة اللغة العربية الفصحى في الدوائر الرسمية، ما يدل على تنوع اهتمامات المجلس. وقد أصدر الأمير فيصل أمراً إلى جميع المصالح الحكومية بوجوب الاعتناء باللغة العربية والابتعاد عن غريب الألفاظ، وعلى الأخص في المكاتبات الرسمية.

إلا أن الأهم هو توفير الأمن، وخصوصاً في موسم الحج. وكان لا بد من ترويض قبيلة حرب التي تستوفي الخوّة وتبتز المال في مقابل حماية قوافل الحجاج القادمة من مصر وبلاد الشام. وعندما يخيّل لحرب أن مبلغ أتعاب الحماية قليل تعمد إلى نهب الحجاج، وحتى إلى قتلهم أحياناً. وكان أبناء هذه القبيلة يهاجمون أعضاء السلك القنصلي في بعض الأحيان.

أخذت السلطات تقطع أعناق القتلة وتبتر أكف السرّاق على مرأى من الجميع. وكان فيصل ملزماً

بحضور إجراءات العقوبة ليصدر أوامره إلى المنفذين.

وظلت ممارسات العقاب الشديد على هذه الجرائم سارية في الحجاز أمداً طويلاً.

يقول القاضي الشيخ محمد الطيب:

> عندما مات الملك عبد العزيز استخفّ البعض بشؤون الدولة، فهاجمت طائفة من البادية (في رواية أخرى الشرطة هم الذين هاجموا – ملاحظة المؤلف) سيارة محملة بالبضاعة والأشخاص في محل يسمّى ركبه شرقي الطائف. قتلوا الأشخاص ونهبوا الأموال، فأمر الملك فيصل بالقبض على الجناة وأحضر بعضهم إلى جدة وبعضهم إلى الرياض، فأمر بقطع رؤوسهم تعزيزاً لكرامة الدولة وهيبتها. وبعد هذا تأدّب الناس وعلموا أن مُلك الملك عبد العزيز محفوظ بأولاده الأمراء الكرام[2].

اعتمد عبد العزيز وفيصل في مسألة توفير الأمن في البداية على الإخوان الذين أخذوا يمارسون إحلال النظام بقسوة وبلا هوادة. لم يكونوا مرتشين ولا يسمعون نصيحة ناصح. وما كانوا يحترمون أحداً ممن لا يتقيّدون بمبادئ الإسلام كما يفهمونها هم. كانوا يعاقبون بالجلد بالعصي، سواء كان شيخ القبيلة أو رجلاً من عامة الناس، ويشاركون في ضرب الأعناق ويقطعون أيدي السراق واللصوص. وفي آخر الأمر زرعوا الرعب في القلوب، فتوقف النهب والسلب حتى

في الطرق الكبرى، وباتت مسالك القوافل أكثر أمناً. ولم يعد أحد يلتقط حقائب السفر المتروكة خوفاً من اتهامه بالسرقة. وقد حدد الملك رسوماً دقيقة على نقل الحجاج ومنع ابتزازهم أو استيفاء سعر أكثر من المقرر. فشارك في الحج عام 1927م نحو مئة ألف شخص، وهذا عدد كبير في ذاك الزمان. فكان ذلك نصراً سياسياً ومعنوياً، ومادياً عاد على الخزانة بدخل وفير.

كان فيصل يتقيّد بتعليمات والده بحذافيرها، ويحيطه علماً بسير الأمور حتى صغائرها. وفي السنوات الأولى لم يتخذ قراراً مهماً واحداً من دون توصية أو أمر من الوالد الذي كان يحب أن يعرف كل شيء بنفسه. وهذا ما عزز ثقة الملك بنجله. ولقد تعلم فيصل على يد والده العمل بطريقة موزونة حتى في أكثر المسائل تعقيداً. فعندما صودر التبغ من التجار، سمح الملك بإعادته إليهم لكي يصدروه من جديد حتى لا يتبدّد المال. وكان يعلم طبعاً أن البعض سيظلون يتاجرون به سراً.

كان الأمير فيصل وهو في منصب نائب الملك، وبحكم تعدد سلطاته، يقوم بأعمال كثيرة في مجالات مختلفة جداً، ما جعله يكتسب خبرة كبيرة في تصريف شؤون البلاد وفي العلاقات الدولية.

نستبق الأحداث فنشير هنا إلى أن مهمات مجلس الشورى شهدت تغييرات معينة في سنة 1946م، حيث صدر نظام جديد للمجلس حدد الأعمال التي ينظر فيها وهي الآتية:

- سنّ القوانين والأنظمة.

- موازنات دوائر الحكومة والبلدية.

- الرخص للشروع في عمل مشاريع اقتصادية وعمرانية.

- الامتيازات والمشاريع المالية والاقتصادية.

- نزع الملكية للمنافع العمومية.

- قرارات استخدام الموظفين الأجانب.

- العقود لشراء لوازم دوائر الحكومة في ما تتجاوز قيمته مئتي جنيه.

- الزيادات في موازنات الدوائر خلال العام.

مجرد تعداد هذه الأعمال والوظائف يبيّن مدى سعة المعلومات التي سيكتسبها نائب الملك خلال فترة حكم الحجاز.

كانت فكرة تأسيس الجيش النظامي تراود عبد العزيز قبل دخول الحجاز. فقد شاهد القوات المسلحة الإنجلوهندية في العراق إبان الحرب العالمية الأولى. وقبل ذلك قاتل الوحدات النظامية العثمانية، فكان مقتنعاً بمزايا القوات الحديثة المدربة والمتقيّدة بالانضباط العسكري.

بعد استسلام جدة، عرض الملك عبد العزيز على جميع ضباط الجيش الهاشمي أن ينتقلوا إلى الخدمة عنده في شرطة مكة أولاً، ثم أخذت تتألف منهم أولى الوحدات العسكرية النظامية. واستقدم الملك ضباطاً من سورية والعراق لتأسيس وزارة الدفاع.

في عام 1930م شاركت لأول مرة في الاستعراض العسكري في جدة ثلاثة أفواج: المشاة والرشاشات والمدفعية، وهي نواة الجيش النظامي. وقد استخدم فيصل هذه الوحدات بالذات في الحملة على اليمن.

كان إحلال الأمن المهمة الملحّة الأولى في الحجاز. وبعده جاءت ضرورة تحسين الأحوال الصحية هناك، نظراً إلى توارد الحجاج. وأسّس فيصل مصلحة الحجر الصحي، وأخذ ينشئ المستشفيات ويستعين بأطباء من الخارج. إلا أن شحّ المال العام جعل نائب الملك ينفق على المستشفيات من جيبه.

وكانت المياه أُم المشاكل. فهي شحيحة دوماً في الحجاز، ولا تكفي حتى للاحتياجات التي لا تقبل التأجيل. فأمر فيصل بشراء عدد من الماكينات الحديثة من أوروبا لرفع المياه من الآبار. وترك تجريبها تأثيراً حسناً في النفوس. وسرعان ما ظهرت تلك الماكينات والمضخات عند المزارعين. وأخيراً تم جرّ المياه بالمواسير لأول مرة إلى بيوت مكة. وفي ما بعد ظهرت أنابيب المياه في المدن الأخرى.

وكان من الأمور الجديدة على النائب الشاب كيفية تنظيم المشاريع العمرانية وتمويلها وتقديم الرخص وبتّ المسائل الحقوقية والمظالم الكثيرة. ولذا أنشأ لجنة لدراسة المشاريع العمرانية، واستعان بالخبراء العرب والأجانب.

كان في أواسط الجزيرة عدد قليل ممن يجيدون القراءة والكتابة. إلا أن في الحجاز كانت هناك عدة

مدارس على غرار المدارس العثمانية، إضافة إلى المكتبات الخاصة الكبيرة نسبياً. وفي العهد العثماني، في أواخر القرن التاسع عشر، بدأت بالصدور جريدة "الحجاز" باللغتين العربية والتركية. وظلت تصدر حتى عام 1909م. وفي مكة تأسست مطبعة أهلية، وكانت ثمة مدرسة باللغة التركية ومدرستان دينيتان أهليتان. وبعد ثورة "تركيا الفتاة" في سنة 1908م، افتتحت مدرستان أهليتان، إحداهما في جدة والأخرى في مكة.

خلال قيام سلطة الملك حسين المستقلة، شهد الحجاز بعض النهوض في مجال التعليم، وهو أمر يعترف به الباحثون السعوديون المعاصرون على مضض. وكانت المدارس نوعان أميرية وأهلية. وإلى ذلك تأسست مدرسة عسكرية وأخرى شبه زراعية. وأكثر مدارس تلك الحقبة كانت في مكة. كذلك صدرت في عهد الحسين جريدة "القبلة" ونشرت، في ما نشرت، الكثير من الأنباء عن الجهود المبذولة في ميدان التعليم وعن العلاقات الدولية. وظلت الجريدة تصدر من 1915 إلى 1924م.

ترك نظام التعليم في الحجاز انطباعاً جيداً في نفس عبد العزيز. وفي عام 1926م أسس مديرية التعليم التي أخذت تستعين بمعلمين من الخارج. وافتتحت في الرياض والمناطق المجاورة 12 مدرسة أميرية وأهلية بلغت ميزانيتها حوالى 6 آلاف جنيه إسترليني للسنة الدراسية 1928-1929م و32 ألفاً للسنة الدراسية 1929-1930م. كذلك ظهرت في الثلاثينيات مدارس

جديدة في المدن الحجازية الكبيرة وفي الرياض، ثم في حائل وبريدة وعنيزة والقطيف والجبيل.

وكانت معظم الحصص الدراسية مخصصة للمواد الدينية.

أنشأ فيصل في الحجاز مديرية التعليم، واختار لها عالماً من بلاد الشام. وكان الأمير نفسه يتردد على المدارس يتحدث إلى المعلمين والتلاميذ وينفق من ماله على جوائز المتفوقين.

كان الجهاز الإداري البيروقراطي الفاسد يتطلب مراقبة ومتابعة. فما العمل؟ دعا الأمير فيصل الأفراد من أهل الحجاز إذا تعرضوا لسوء المعاملة من طرف موظفي الدولة أن يشكوهم إليه في الحال. ووُضع في سرايا الحكومة صندوق للشكاوى والمظالم، وتأسّست مفتشية مختصة أو هيئة للتفتيش والإصلاح تنظر في تلك الشكاوى. إلا أن من الصعب الآن الحكم على مدى فاعلية تلك التدابير.

ودعت الحاجة إلى إصلاح ما بين علماء نجد والحجاز. واتضح أن ذلك أسهل ممّا كان متوقعاً.

يقول القاضي الشيخ محمد الطيب:

> المذهب في الحجاز هو مذهب أهل السنّة والجماعة. أولاً كانوا شافعية، أحنافاً وشافعية في الحجاز كله. ومن ألف وثلاثمئة وأربعين للهجرة دخل الملك عبد العزيز إلى هناك وصاروا حنابلة. الإمام أحمد بن حنبل والإمام الشافعي والإمام أبو حنيفة والإمام

مالك كلهم متقاربون ولا بُعد بينهم. والخلافات بينهم بسيطة. أنا عندي مكتبة لكل مؤلفاتهم وأحترم كل مذهب. وهناك طلبة يأتون إليّ يحضّرون دكتوراه وماجستير في مكتبتي. معظم المسلمين في الحجاز الآن حنابلة. الناس إذا كان حاكمهم حنفياً صاروا أحنافاً، وإذا كان شافعياً صاروا شافعية. ولكن مع ذلك، المذاهب الأربعة لا يتخاصمون ولا يحارب بعضهم بعضاً. قضاة الحنابلة لا يعترضون علينا إذا حكمنا بالمذهب الحنبلي أو المذهب الشافعي، لأن الأئمة معترف بعضهم ببعض. ويقولون إن حكم القاضي يرفع الخلاف. وإذا حكم بأي مذهب يُعتمد. أهل السنّة والجماعة لا يكفّر بعضهم البعض ولا يتحاربون.

... لقاؤنا الأول مع الملك فيصل كنا قضاة في المحكمة في الطائف، وكنا نذهب إليه كل يوم خميس يتحدث معنا نصف ساعة أو ساعة عن العقبات التي تعترض سبيلنا. وكان رجلاً عظيماً وحكيماً وحازماً. كنا نلتقيه عندما كان مليكاً وعندما كان نائباً للملك عبد العزيز. وهو، كما قلت، دائماً حكيم، الناس يخافون منه وصاحب الحق ينبسط والظالم يخاف منه[3].

كان فيصل يفضّل الإقامة في مكة وفي الطائف.

ولكن ليس في الإمكان تجاهل جدة أثناء حكم الحجاز وممارسة الشؤون الخارجية، وخصوصاً إذا دعت الحاجة إلى مقابلة القناصل. في بادئ الأمر كان ممنوعاً على القناصل المسيحيين الابتعاد عن أسوار المدينة لأكثر من خمسة كيلومترات إلا بترخيص خصوصي من الملك أو نائبه، حيث كانا يوفران لهم موكباً خصوصياً ليتفادوا احتمالات الاعتداء عليهم.

كان يقيم في مكة وجدة أجانب كثيرون، وكانت الحياة الفكرية فيهما أنشط ممّا في الرياض. وهناك شعراء يشجعهم فيصل، وهو نفسه ينظم الشعر. الموسيقى كانت ممنوعة، فبات إلقاء القصائد الغزلية والتأملية والملحمية هواية محبّبة للجميع.

رافق الشعر فيصل طوال حياته. فهو يحب الشعر ويحترم الشعراء، فصاروا من أصدقائه. يقيم الأمسيات الشعرية ليس في جدة أو مكة أو الطائف، بل في العراء، حيث البادية تحيط بالحاضرين بصمتها المعهود، والنجوم تتدلى كبيرة ساطعة في السماء.

يقول عبد الرحمن الرويشد:

> من أصدقاء الملك فيصل عبد الله اللويحان، وهو من كبار شعراء نجد. الملك شاعر ولذا يحب الشعراء. وهم مرافقون له. يحب أن يقول الشعر على سجيته وهو ليس عنده قيد في الشعر. كان له منتدى يحضره أهل الحاضرة والبادية. والشعر عندنا ميزان الرجال. فكان يحضر المنتدى كل من يدّعون

الشعر والشعراء. ويقام المنتدى بوادي ليه وأحياناً في وادي مسرة. كانوا يحضرون في الليل ويعملون حطباً ويوقدون النار ويسألونه رأيه في شعرهم. وكان ناقداً للشعر ويقول الشعر. وكان من مرافقيه وأصدقائه محمد بن بليهد، وهو مؤرخ وعارف بشعر العرب، وله كتاب عن الجزيرة العربية ومواقعها. وقد تبادل معه الملك فيصل الشعر. وللملك شعر محفوظ. محمد بن بليهد صاحب كتاب **صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار**، وقد تتبّع أسماء المواقع التي ورد ذكرها في المعلقات. والمعلقات يتغنى العرب فيها بأماكنهم، ويعددون تلك الأماكن. وقد زار محمد بن بليهد هذه الأمكنة وعدّدها في كتابه **صحيح الأخبار** بأربعة مجلدات. وله كتب أخرى، ومنها كتاب **ما بقي اسمه وذهب رسمه.** الأماكن التي أسماؤها موجودة ولكنها هي غير موجودة. وله كتاب آخر بالعكس **ما بقي رسمه ولا يعرف اسمه**. كان مثقفاً يحفظ شعر البادية كلها. وهو من أصل نجدي. توفي، وولده وكيل إمارة الرياض. وهو شاعر نبطي وله شعر فصيح عربي[4].

تقول الأميرة سارة الفيصل:

كان الوالد يحب الشعر. وفي الطريق إلى الطائف كان الشعراء يأتون على ظهور الخيل في المنطقة الجبلية ويعقدون مجلساً يرددون فيه أشعارهم بحضور الملك فيصل. ومن تلك الفترة بدأ مدّ هذا الطريق من الطائف إلى مكة. وكانت العملية صعبة، وقد تابع الوالد بنفسه شق الطريق قبل تدشينه. وكنا نحن أول من نزل إلى الطريق. ويقال إن الوالد كان ينظم الشعر، لكني أقول إنه ليست عنده قصائد كاملة. كانت هناك أبيات يردّ فيها على بعض الشعراء، وهي ليست قصائد. لكنه كان كثير الاطلاع، يحب المطالعة ويقرأ كثيراً. وكان يستمع إلى الشعر ويحبه ويناقشه. وعنده مكتبة قيّمة ويقرأ كل شيء. يقرأ بالعربية، ويعرف الإنجليزية، حتى إنه يصلح للمترجم. ولا نستطيع أن نقول إنه كان يقرأ الكتب بالإنجليزية[5].

يقول القاضي الشيخ محمد الطيب:

كان الملك فيصل يفضل الطائف على جدة. وأول مدينة جاء فيها كهرباء هي الطائف، وأول مدينة جاء فيها الدفاع المدني هي الطائف. وأول مدينة جاء فيها ماطور هي الطائف. ولكل تلك الأسباب أخذت الأولوية[6].

يقول الشيخ عبد الله محمد الشهري وكيل أملاك الملك فيصل:

كان ستة أشهر في الطائف، وستة أشهر في مكة. أشهر الصيف في الطائف. الوزراء والموظفون ينزلون معه ويطلعون معه. وهو متواضع. فراشه في الطائف ينقل معه إلى مكة. وإذا عاد أعيد معه. الطريق بالسيارة بين مكة والطائف أربع ساعات. والأرض ترابية. ولم يكن هناك أسفلت. وعندما كنا نذهب نعتمر نبقى بعد العمرة ثلاثة أيام وجعانين. وبعد ذلك عمل غفر الله ذنبه كل شيء. عمل الأسفلت، وعمل المراكز والحاجات التي فيها فائدة للمسلمين.

لم تكن في القصر كهرباء. في الشتاء كنا ندفئ بالكاز. وبعد ذلك جاء هو رحمه الله بماطور 16 حصاناً في قصر "بيت الكاتب". ولما شغلنا الماطور لم يعطِ نتيجة كبيرة، لكن الأمير فيصل أول من عمل الكهرباء عندنا في الطائف. كان ذلك بعد الحرب العالمية الثانية. والمباني في الطائف كانت تدفأ في الشتاء بالحطب والفحم. حتى الثلاجات كانت بالكاز. وليس عند كل الناس. نحن لا نعرفها. في البداية الملك فيصل عنده ثلاجتان بالكاز. وحتى في قصر شبرا القهوة شغالة على الحطب. الملك فيصل كان يشرب القهوة كثيراً. في الشتاء يأتي إلى مكة ومسكنه بالإيجار في محل يسمى بئر بليلة

في حي جياد. بيته في الطائف بالإيجار أيضاً. وفي مكة بالإيجار. الإيجار غالٍ. بالطائف ثلثمائة جنيه إسترليني ذهباً سنوياً. مالك البيت اسمه درويش كاتب. الملك فيصل كان يستأجر منه البيت مع المزرعة. درويش كاتب من أهل مكة وعنده في الطائف عقارات كثيرة وفي مكة عقارات كثيرة. وكان في حينه وزير مالية الشريف حسين. وكان ثرياً[7].

كان من الصعب على الحجازيين تعوّد قيظ الصيف الرطب الصاخب في مدينة جدة، رغم أصالة التنوع واختلاف التلاوين في هذه البوابة البحرية لمكة.

في السوق المسقوف تباع الأقمشة والسروج والعباءات والآنية النحاسية والدلال والأرز والخناجر. أضواء كابية تتسرب من كوات السقف، وفي الأركان غلمان عبيد يشوون السمك واللحوم. وفي المقاهي يجلس الشيوخ بلحاهم الشيباء يحتسون القهوة بالفناجين.

حشود الناس في كل مكان. حجاج لا عدّ لهم ولا حصر في محارم بيضاء يتداخلون بين أهالي جدة في ثيابهم الزاهية. وجوه الجميع وثيابهم وعاداتهم في الخطاب جاءت إلى هنا بسمات العالم الإسلامي المترامي الأطراف. كل شيء اختلط وتشابك في جدة. فقد تجد أحد سكانها من أب هندي وأم صومالية، وقد تجد آخر هجيناً من زيجة بين عربي وامرأة من الملايو،

لكنه نفسه متزوج من امرأة أوزبكية. كان الحجاج طوال القرون يتركون في جدة آثاراً حية من العالم الإسلامي لا تعرف الحدود من حيث لون البشرة أو العرق. وترى أحياناً أوروبياً في ثوب استوائي وعلى رأسه قبعة خفيفة من الفلين. وعلى مباني القنصليات ترفرف أعلام أجنبية. ويتعالى صخب المرفأ وتفوح روائحه. ومداخن البواخر في مراسيها تبعث أعمدة الدخان. وبينها وبين الساحل تتحرك، رائحةً غادية، فلكات وقوارب تنقل الحجاج عبر المضاحل وشعاب المرجان. جدران المنازل مزينة بشرفات خشبية ذات نقوش وتخاريم جميلة تتصيد النسمات وتمكّن النزلاء من رؤية ما يجري في الشوارع وتحجب وجوه الحريم عن أنظار المتطفلين. ويخيّل للرائي أن المنازل مغطاة بستائر من الدانتلا والمخرمات. ولقد بقي شيء من جدة القديمة حتى أيامنا هذه. فهناك عدد من الأحياء العتيقة يجتذب السياح والمتسوقين في هذه المدينة العصرية الكبيرة.

الكلمة للمستشرق فان دير ميولين:

> صوت الوحي خاطب الإنسان من السماء في جزيرة العرب بالذات. وفي هذا الجزء من العالم نزلت على البشرية وصايا الحياة. في هذه البادية الخالية التي يرثى لحالها، في هذه الهضاب الصخرية الجرداء انبجست ينابيع الروح لتغني سائر العالم بثروات الروح. فهنا عاش الأنبياء ونشروا رسالتهم،

وهنا عاش الإنسان حياته على خلفية الخلود، فلم يتغير هنا إلا القليل منذ "العهد القديم". وفي مدينة جدة قبر حواء.

حسب المظهر الخارجي، بدت المدينة حجراً كريماً مؤطراً بالذهب والفيروز. لكنها في الواقع كانت قذرة لا حياة فيها. فالإعجاب الذي يستولي عليك للوهلة الأولى يتبدد حالما تتطلع إلى المدينة من الداخل، إذ يخيّل إليك أنها تتهدم وتندثر. الروائح النتنة تزكم الأنوف في كل مكان. ودورة المياه والقاذورات تصبّ من جدران البيوت. الشوارع تستخدم كمراحيض عامة للناس وللماشية على سواء. الروائح المقززة عموماً تخيّم على الأحياء، إلى جانب روائح مخلفات مخيمات الحجاج الذين يمرون بالمدينة طوال القرون. منها يبدأ طريق الحج، طريق الأمل في النجاة والخلاص، لكنك هنا أيضاً يمكن أن تواجه الغش والاحتيال[8].

ويضيف فان دير ميولين:

لم يكن أهالي جدة معجبين بتشدّد الوهابية. فهم يريدون نظاماً ليبرالياً معتدلاً ومتسامحاً يرحّب بالحجاج أياً كانوا، على أن يحملوا المال إلى البلاد. ولكنهم لم يكن أمامهم خيار... فالحكام الجدد جادون أبعد حدود

الجدية. يطالبون الجميع بإقامة الصلاة يومياً في مواقيتها الخمسة، ويحرّمون التدخين وتعاطي المسكرات وارتداء الدمقس والحرير...[9].

ولم تتنفس المدينة الصعداء إلا بعد إخراج الإخوان من الحجاز.

في بادئ الأمر اعتبر الحجازيون فيصل نجدياً غريباً عليهم. إلا أنه تمكن في ما بعد من أن يقيم علاقات طيبة مع أشراف الحجاز وعلمائه، وأخذ يتفهّم مشاكلهم ويعمل على حلّها مبدياً رغبة صادقة في تحسين الأوضاع. ثم جاء حين من الزمن اقتضى الأمر فيه وضع هذه التجربة لإدارة المجتمع المعقد والاتصالات الوثيقة مع وجهاء الحجاز موضع التنفيذ في البلاد كلها.

يقول عبد الرحمن الرويشد:

أهل مكة لا يعرفون أحداً غير فيصل. إنهم لا يعرفون عبد العزيز ولا سعود. يعرفون عبد العزيز عندما يأتي إلى مكة وقت الحج على أساس أنه هو المؤسس، لكنهم لا يتبسطون معه في الحديث ولا يطرحون معه مشاكلهم ولا يطالبون بشيء أبداً. كانوا يتحدثون معه كضيف. وكانوا مثقفين، ليس الثقافة المطلوبة طبعاً، لكنها أفضل من ثقافة القسم الشرقي بكثير. هناك تجار وأصحاب أموال ولهم صلات وهم منفتحون على الخارج[10].

يقول أحمد بن عبد الوهاب:

كانت للأمير فيصل في كل سنة رحلتان إلى الرياض. آنذاك كنا نذهب بالسيارات. ثم جاءت الطائرة وصرنا نسافر بالطائرة. يزور أباه الملك عبد العزيز ويقضي عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً ثم يعود ثاني مرة إلى مكة. أما الملك عبد العزيز فكان يأتي كل سنة إلى الحجاز يقضي فيها شهرين- ثلاثة، شهر الحج وبعده[11].

كتب المستشرق محمد أسد يقول:

كنت جالساً في المكتبة تحت نوافذ المسجد الكبير. وكان الجو مريحاً في الحجرات المستطيلة الظليلة، بين المجلدات العربية والفارسية والتركية. الهدوء يخيم هناك والوئام. وفجأة ظهرت جماعة وأمامها حراس مسلحون. كانت الجماعة هي الأمير فيصل وحاشيته. مروا بالمكتبة في طريقهم إلى الكعبة. كان الأمير نحيلاً فارع القامة، والكرامة تشعّ من محيّاه ومن قيافته. وهو في الثانية والعشرين آنذاك، لم يكن ملتحياً. قدمني إليه أمين المكتبة، وهو عالم من أهالي مكة تربطني به علاقة صداقة. صافحني الأمير، وعندما انحنيت احتراماً له رفع رأسي بيده وقال والابتسامة الدافئة تشع على وجهه: نحن أهل نجد نعتقد أن الإنسان يجب ألا يركع أمام الإنسان. فالركوع

في الصلاة لله وحده. كان نبله ينبع من دخيلته وليس ظاهرياً متظاهراً[12].

وإليكم شهادة الشيخ محمد الطيب:

أشراف الحجاز عندما كانوا يقدمون عليه يركعون أمامه. فمنع هذا، فلا يُركع إلا لله تعالى. عادة تقبيل اليد كانت موجودة عُرفاً في الإسلام لكبار القوم والعلماء احتراماً لهم وتقديراً وإظهاراً لكرامتهم. وفي الحجاز كانت عادة الركوع متغلغلة ومنتشرة، فألغاها الملك فيصل. وصار يتصافح مع الزائرين ويمد لهم يده قائلاً: "السلام عليكم، مسّاكم الله بالخير". وكان يتعانق مع كبار السن ومع الأهل والأقرباء حسب العرف والعادة، ولا يكون متكبراً. كان متواضعاً فعلاً. كان متواضعاً للعلماء ولكبار السن ولأسرته من آل سعود[13].

نصّت الاتفاقية البريطانية السعودية التي وقّعت في جزيرة دارين سنة 1915م على شبه وصاية من الإنجليز على السياسة الخارجية لنجد. إلا أن عبد العزيز في تلك الفترة لم يكن يتحسّس هذا العبء، لأنه ما كان في حاجة آنذاك إلى اتفاقيات مع بلدان أخرى أو منح امتيازات لها. فلا أحد يعلم بوجود النفط.

إلا أن أموراً كثيرة تبدّلت بعد احتلال الحجاز. فإن أقوى دولة في جزيرة العرب حظيت بمكانة دولية، واعترفت الدول الأخرى بعبد العزيز وأخذت تقيم

العلاقات الدبلوماسية معه. ولذا فكّر الملك جدياً في التخلص من قيود اتفاق دارين. ولهذا الغرض اتصل بالإنجليز واقترح عليهم إجراء مفاوضات لاستبدال الاتفاقية القديمة بأخرى جديدة. وحرصاً منه على العلاقات الطيبة مع الإنجليز، لم يفسخ المعاهدة القديمة من جانب واحد.

أوفد عبد العزيز ابنه فيصل إلى بريطانيا لإجراء تلك المفاوضات.

في أغسطس 1926م استقلّ فيصل قارباً مجذافياً إلى السفينة المرابطة بين شعاب المرجان في مرفأ جدة.

لم يعد فيصل ذلك الصبي اليافع الذي شهدناه في رحلته الأولى إلى بريطانيا، بل هو الآن شاب راشد يمتلك خبرة خوض الحروب وإدارة شؤون الدولة. وهو مفعم بالطاقات والتشوّق إلى المعارف الجديدة. كان يتعلم ويترعرع ويوسع أفق مداركه ومعلوماته. وهو يرى للمرة الثانية العالم الجديد الذي يختلف تماماً عن جزيرة العرب، ويفهم بنحو أفضل موقع بلاده في هذا العالم. وكان يفكر في كيفية الاستفادة من معارفه الجديدة في ولائه لوطنه ودينه ووالده وعائلته.

تمت زيارة بريطانيا هذه المرة من دون منغصات. فالإنجليز غيّروا لهجتهم في معاملة والده، فيما غدا أمير نجد سلطاناً لها وملكاً للحجاز. ووفرت دولته الظروف الطبيعية لحج المسلمين من رعايا الإمبراطورية البريطانية. وكانت لهذه الدولة حدود مع

دولتي الانتداب البريطاني، العراق وشرق الأردن، ومع المحميات البريطانية، الكويت ومشيخات ساحل عمان المتصالح. وكان لا بد من استبدال اتفاقية دارين. أما بريطانيا فكانت تنظر بعين الرضا إلى توقيع اتفاقية جديدة، الأمر الذي تلمّسه فيصل رأساً.

اقترنت المفاوضات بجولة جوية في سماء لندن وزيارة إسطبل الجياد العربية التي كانت الليدي آن بلانت وزوجها قد جلبا أسلافها من حائل قبل عقود من السنين. وكان فيصل يعرف أن والده اقتاد أفضل الجياد الباقية في حائل إلى الرياض لتكتمل بها مجموعة الجياد العربية الأصيلة الرائعة هناك.

أمضى فيصل ثلاثة أسابيع في إنجلترا، ثم زار هولندة حيث استقبله بكل ترحاب مستعربو جامعة ليدن.

ولم ينتظر الحجاز كثيراً وصول ممثل بريطانيا. فقد كلف الجنرال جلبرت كلايتون بإجراء المفاوضات، ووصل إلى جدة في مايو 1927م. فبعث الملك نجله فيصل للقائه.

لم تستغرق المفاوضات وقتاً طويلاً. وتمكن فيصل من بلوغ الأهداف التي طرحها عليه والده وهي: أ) اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد التام المطلق، ب) فسخ اتفاقية العقير أو اتفاق دارين، ج) موافقة بريطانيا على تصدير السلاح إلى المملكة. وفي مقابل ذلك يعترف الجانب السعودي بحق لندن في "علاقات خصوصية" مع الكويت والبحرين وقطر ومشيخات

الساحل المتصالح ومسقط وعمان ومحميات جنوب الجزيرة. وفي 20 مايو 1927م وقّع فيصل وكلايتون وثيقة رسمية بهذا الخصوص سمّيت معاهدة جدة.

كانت سعادة فيصل ووالده عبد العزيز بلا حدود. فالمعاهدة الجديدة اتفاقية متكافئة بين دولتين مستقلتين. وهي في الواقع أول معاهدة متكافئة توقّعها دولة عربية مع دولة أوروبية.

إلا أن عبد العزيز وفيصل ينطلقان من موقف واقعي في تقييم قدرة الإمبراطورية البريطانية. فالوجود البريطاني في كل مكان. والتجارة في مجملها تذهب إلى البلاد المرتبطة ببريطانيا. ومعظم الحجاج يتوافدون من تلك البلاد. ولغرض موازنة النفوذ البريطاني في المنطقة وقّع عبد العزيز معاهدة صداقة مع ألمانيا في 1929م ومع إيطاليا في 1932م، كما وُقعت اتفاقيات مع العراق وشرق الأردن وإيران. وأقيمت علاقات قنصلية مع الولايات المتحدة. إلا أن النفوذ البريطاني ظل هو الحاسم في المنطقة.

واجهت المملكة الفتية آنذاك تهديدات وأخطاراً لم تشهد مثلها من سنين. وهي نابعة من الداخل وليست آتية من الخارج.

في الوقت الذي تمّ فيه ضمّ الحجاز، كان عبد العزيز يدرك تماماً أهمية الهاتف والإذاعة كوسيلة تقنية لتقوية سلطته، وكذلك أهمية السيارات في تلبية الاحتياجات الاقتصادية والعسكرية. إلا أن الهاتف والراديو في أنظار البدو والعلماء المتشددين بدعة شيطانية. وقد ترك

الرحالة والمؤرخون العديد من النكات عن موقف الإخوان من وسائل الاتصال والمواصلات التقنية. ولم تتم إجازة استخدامها إلا بعد أن تُلِيت آيات من القرآن بالهاتف ثم أُلقيت من الإذاعة.

وبدت السيارات أيضاً بالنسبة إلى الإخوان بدعة من بدع الكفار، بل وحتى رجساً من الشيطان. فأحرقوا أول شاحنة ظهرت في مدينة الحوطة وكاد سائقها يلقى حتفه. أما الطائرات فكانت، في رأي العلماء، تطير خلافاً لمشيئة الخالق. إلا أن احتياجات المجتمع العملية كانت أشد من التحجّر والاجتهادات. ولذا اتّسع في المملكة استخدام السيارات والهاتف والإذاعة. (بعد سنين حتى العلماء ركبوا الطائرات. إلا أن الحاكي والسينما ظلا ممنوعين. استيراد أجهزتهما كان ممنوعاً، وعلى الرغم من ذلك اقتنت بعض العوائل أجهزة الحاكي وآلات العرض السينمائي).

وبينما كان عبد العزيز مع ابنه فيصل ومجموعة من المستشارين المتنورين نوعاً ما يحاولون تكييف الجهاز الإداري في الحجاز لتلبية حاجات البلاد، ظل الإخوان مصممين على "تطهيره" من "الأدران"، وكانوا يريدون إزالة أماكن العبادة التي يعتقدون أنها تتعارض مع الإسلام الصحيح.

إلا أن الملك أخذ يستخدم ضوابط شديدة لتخفيف غلواء الإخوان ولتقوية مكانته وتعزيز سلطته. فكل من يتجاهل صلاة الجماعة يعاقب بالسجن مدة تتراوح بين يوم وعشرة أيام مع غرامة مالية. وكل من يتعاطى

المسكرات يعاقب بالسجن لمدة شهر مع غرامة مالية. وفي حال تكرار الجنحة يمكن أن يسجن المذنب عامين. وتشمل العقوبة صانع الخمر وبائعه.

كل ذلك اقترن بملاحقة خصوم آل سعود السياسيين. فالأشخاص الذين شاركوا في تجمعات لنشر الأفكار الهدامة والمعلومات الكاذبة والشائعات الخطرة، وكذلك في اجتماعات موجهة ضد سياسة الحكومة، كانوا يعاقبون بالسجن فترة تتراوح بين سنتين وخمس سنوات أو النفي إلى خارج المملكة الحجازية. وكان لا بد من التنسيق مع السلطات لعقد أي اجتماع حتى للأغراض الخيرية.

إلا أن التشدد في ضبط الحياة الدينية والمعيشية لم يستمر طويلاً. فعندما ترك الإخوان الحجاز، جرى تخفيف منع التدخين، وكان بوسع البعض حتى أن يحصلوا على الخمر. ولم يعد هناك من يطالب بإطلاق اللحى قسراً.

في صيف 1926م، ألّف عبد العزيز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بإشراف اثنين من علماء آل الشيخ، وذلك ليبيّن حرصه على نقاوة الدين، ولتخفيف غلواء الإخوان في الوقت ذاته. وأمر بأن يبلغ الإخوان الهيئة عمّا يرونه من مخالفات لأحكام الشريعة لا أن يقرروا الأمر بأنفسهم.

وبالتدريج أخذت الهيئة العامة للأمر بالمعروف تعمل بصفة مديرية دينية للشرطة. وفي ما بعد وضعت هيئات الأمر بالمعروف تحت إشراف مدير الأمن العام.

وكان من صلاحيات هيئات الأمر بالمعروف مكافحة الغش والاحتيال في الأسواق وملاحقة المذنبين في التنصل من دفع الزكاة وعدم التقيّد بالصيام ومخالفة قواعد الحج وجرائم القتل أو الاعتداء على الأشخاص وتعاطي أو بيع المشروبات الكحولية. وخلال صيف 1928م، شاركت هيئات الأمر بالمعروف مشاركة نشيطة في جلسات الحكومة، وتشدّدت في مراقبة أهالي الحجاز. ورأى عبد العزيز أن ينشر تجربتها في سائر أنحاء البلاد. فأنشأ في صيف 1929م إدارة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الرياض.

عندما غادر الإخوان الحجاز خائبين وعادوا إلى هجرهم وقبائلهم في أواسط الجزيرة، بات واضحاً أن اصطدامهم مع السلطة المركزية بات وشيكاً، في حين دفع تعاون عبد العزيز مع الإنجليز في شأن تخطيط الحدود مع الكويت والعراق والأردن وسياسته في الحجاز العلاقة مع الإخوان إلى درجة الغليان. فالإخوان تصوروا أنهم غبنوا في توزيع الغنائم في الحجاز، فيما حرمهم منع غزو الكويت والعراق والأردن من فرصة تحسين أوضاعهم المالية بنهب "الكفار". وكانوا في ظروف تعمق أزمة تربية الإبل وتخلف الزراعة في الواحات، والهجر يرون في الغزوات، فضلاً عن مزاياها الأخرى، وسيلة للتخلص من الفاقة والمجاعة. كذلك فإن تسامح عبد العزيز في معاملة شيعة الأحساء والقطيف كان من العوامل الإضافية لتدهور العلاقة بينه وبين الإخوان.

كان أبرز زعماء الإخوان، شيخ مشايخ مطير فيصل الدويش، المحارب الممتاز والقائد العسكري المحنك الذي ترك الحجاز إلى مقرّه في هجرة الأرطاوية، يضمر حقداً شديداً لعبد العزيز. فقد كان يأمل بمنصب حاكم المدينة المنورة، لكنه لم يحصل عليه.

وكان من معارضي الملك ضيدان بن حثلين شيخ العجمان، أعداء عبد العزيز القدامى المتعنّتين، إلا أن الإخوان أخضعوهم قبل حين من الزمن، وكذلك سلطان بن بجاد شيخ عتيبة، على الرغم من أن تنصيبه على مشيخة هذه القبيلة حصل بفضل عبد العزيز نفسه. كان ابن بجاد يأمل بمنصب حاكم الطائف، لكن الملك لم يكن من هذا الرأي. عتيبة هي أقوى وأكبر قبيلة بين قبائل أواسط الجزيرة. كذلك انضم أحد شيوخ الروله، وهو فرحان بن مشهور، إلى الحركة المناهضة لعبد العزيز. وهكذا باتت القبائل المحيطة بالرياض من جميع الجهات تناصب السلطة المركزية العداء. وتجدر الإشارة إلى أننا لا نجد بين مناوئي عبد العزيز أحداً من قبيلة عنزة في الجزيرة العربية (ما عدا الروله)، كما لا نجد أحداً من حرب ولا من معظم شمر أو قحطان أو سبيع.

عندما أدرك عبد العزيز أن تذمر الإخوان يمكن أن يتخذ طابع الانتفاضة السافرة عليه، غادر الحجاز على عجل وعاد إلى الرياض في يناير 1927م. وجمع في أواخر ذلك الشهر نحو 3 آلاف من الإخوان في العاصمة. وفي هذا الاجتماع بالذات أبدى فيصل الدويش وابن بجاد وغيرهما من الإخوان المنشقين اعتراضاتهم على

عبد العزيز. لم يكن التمرد السافر قد أعلن بعد، فأخذ عبد العزيز يبحث عن حل وسط. وافق على تخفيف الضرائب، لكنه رفض طلب التخلي عن البرق واللاسلكي والسيارات. وتمكن من أن يقنع الحاضرين بمبايعته ملكاً على نجد والحجاز، فصار لقبه ملك الحجاز ونجد وتوابعها.

في بداية أبريل 1927م قرر عبد العزيز أن يجمع زعماء القبائل والإخوان مرة أخرى. فجاء إلى مؤتمر الرياض أكثر من ثلاثة آلاف من الإخوان، ما عدا ابن بجاد. وحاول عبد العزيز هذه المرة عزل فيصل الدويش الذي كان يعتبره خصمه الأول. ويبدو أن عبد العزيز تمكن في هذا اللقاء بالذات من أن يكسب ودّ أحد فروع مطير، فأخذوا يعارضون شيخ قبيلتهم.

لم يتجرّأ فيصل الدويش على تحدّي الملك عبد العزيز علناً، فأخذ يستعد للقيام بغزوات على العراق. وكان يأمل بتوفير الغنائم لأنصاره ويرغم الملك على أن يجاهد معه في سبيل الله، وإلا سيثبت أنه لم يعد مجاهداً في سبيله. وظل الملك ينتظر الفرصة.

كتب جون غلوب قائد الفيلق العربي في شرق الأردن آنذاك، والذي صار في آخر أيامه مؤرخاً وكاتباً يقول:

> كان عبد العزيز قدوة في العقل السليم والحذر والفطنة. وإذا كان قد أيّد التعصب فلمجرد أن يستفيد منه كأداة لبلوغ أهدافه. فهو نفسه لم يكن متعصّباً أبداً. إلا أن العقل

السليم لم يكن يستهوي الهمج الخارجين عن السيطرة[14].

ويضيف غلوب باشا:

في سنة 1927م لم يعد ابن سعود يسيطر على الموقف بالكامل. فبعد انتصارات الإخوان في الحجاز باتوا يعتمدون على قوتهم ويزعمون أن قدرتهم القتالية هي التي جعلت من ابن سعود رجلاً عظيماً. ويتذكرون أنهم كانوا أساس جيشه وليست لديه قوات نظامية كافية لإرغامهم على طاعته. المشكلة أن التمرد على ابن سعود أمر صعب. فهو إمام، وعواطف أهالي نجد الدينية لصالحه. إلا أن الجهاد ضد مسلمي العراق المرتدين، والذين هم فضلاً عن ذلك تحت حماية الإنجليز، يعتبر واجباً مقدساً. وابن سعود مسؤول عن التهاون الديني الذي بدر منه عندما لم يرغب في مقاتلة أعداء الله. ولم يكن النجديون، رغم ولائهم لابن سعود، مستعدين لمنع الإخوان بالقوة من الهجوم على العراق. إلا أن مهاجمة العراق تعني صداماً مع بريطانيا. ولم يكن ابن سعود يريد للدول الأخرى أن ترى رعاياه يخرجون عن طاعته. أما القول بأنه يسيطر عليهم بالكامل فيعني أنه يتحمّل مسؤولية غزوات الإخوان. وجاء بناء مخفر البصية ليقدم له ذريعة

> لاتهام العراق بالعدوان. (العراقيون بنوا مخفراً للشرطة، لكن الإخوان لم يجدوا فارقاً بينه وبين المخافر العسكرية – ملاحظة المؤلف). وهكذا بات العراق عدواً مشتركاً لابن سعود وللإخوان[15].

وحتى في هذا الموقف فضّل ملك الحجاز ونجد وملحقاتها الانتظار. وفي مارس 1928م عاد رجال مطير إلى هجرهم بعد غزوات ناجحة.

ظل عبد العزيز طوال صيف 1928م في مكة يشنّ حملات دعائية على العراق ليقنع الإخوان، على ما يبدو، بدفاعه عن الدين. كتب جون فيلبي يقول:

> كان عبد العزيز يدرك أن عليه أن يخفف من تعصّب أنصاره. وكان يعرف أن الحرب ضد العراق، ضد القوات الإنجليزية، هي الكارثة بعينها. فعزم على تفادي هذه الحرب مهما كان الثمن. إلا أنه يدرك أيضاً أن البادية تغلي لدرجة جعلتها مستعدة لتحدي العراق لتواطئه مع الكفار[16].

كان كبار زعماء انتفاضة الإخوان قد وضعوا مخططات اقتسام أراضي عبد العزيز في ما بينهم. فالمفروض أن يتولى فيصل الدويش حكم نجد، وسلطان بن بجاد حكم الحجاز وضيدان بن حثلين حكم الأحساء. وحصل أحد ممثلي فرع من فروع شمر الجانبية، وهو نداء بن نهير، على وعد بحكم حائل إذا انضم إليهم. إلا أنه فضّل

الانتظار، وبقي على ولائه لعبد العزيز حتى ينجلي الموقف.

في 6 ديسمبر 1928م دعا عبد العزيز في الرياض إلى مجلس عام جديد لأهالي المدينة والإخوان، حضره ممثلو الإخوان ورؤساء القبائل ووجهاء المدينة وعلماؤها. نحو 800 شخص مع المرافقين. إلا أن فيصل الدويش وابن بجاد وابن حثلين لم يحضروا الاجتماع. تكلم عبد العزيز بإسهاب أمام الحاضرين، معدّداً النجاحات والإنجازات، بما فيها توحيد الجزيرة وإحلال السلام. وبعد ذلك أقدم على خطوة جريئة، فطلب من المجلس أن يبايع شخصاً غيره من آل سعود، لأنه يريد أن يتنازل عن العرش. وقال إنه سيبايع من يختاره المجلس.

كان لتلك النقلة الدرامية مفعولها وتأثيرها على الحاضرين، وخصوصاً أهالي مدن نجد وواحاتها، وهم سند آل سعود التقليديون الذين يدركون تماماً نتيجة اعتزال عبد العزيز وانتصار فيصل الدويش وابن بجاد. فتعالت الصيحات: لا نريد سلطاناً غيرك. كان ذلك تأييداً إجماعياً لسياسة عبد العزيز وإيذاناً "بإسقاط" زعماء الإخوان الثلاثة الذين ثاروا عليه. يقول حافظ وهبة: ما من أحد من الحاضرين يعتقد بأن ابن سعود يمكن أن يتنازل عن العرش بدون صراع. فهم يعرفون جيداً أنه في أوج نضوجه البدني والذهني وأنه مستعد لمقاومة الإخوان. اقتنع وجهاء الواحات بضرورة إنهاء مسألة الإخوان. كذلك أدّت دورها في هذا الخصوص الرغبة

في حماية مصالحهم دون اعتداءات البدو المتمردين ونفور الحضر التقليدي من البدو. إلا أن المشكلة أن حركة الإخوان اتخذت لبوساً دينياً، وأن زعماءها الثلاثة يؤكدون أنهم هم بالذات حماة الدين الحقيقيون، وأن عبد العزيز يتجاهل متطلبات الإسلام إرضاءً لمصالحه، ولذا يتعاون مع الإنجليز الكفار.

مع بداية موسم الرعي، بات واضحاً أن الحرب الأهلية لا مفر منها، رغم موقف الترقب والانتظار الذي التزمت به قبائل كثيرة.

وفي 31 مارس 1929م حصلت معركة السبلة بين عبد العزيز وسلطان بن بجاد وفيصل الدويش. بدأ الملك الهجوم بعد أن وضع المشاة من أهالي نجد في الوسط وعيّن لقيادة الفصائل إخوته وأبناءه، ووضع على الجناحين المتطوعة البدو. خسر الإخوان المعركة وأصيب فيصل الدويش بجراح ثخينة في البطن. وتقدم الأمير سعود نجل الملك مع أهالي الرياض والحرس الملكي إلى الإمام لتوطيد النصر، وتحمّل الحضر من أهالي نجد العبء الأساسي للمعركة.

فرّ فيصل الدويش الجريح إلى الأرطاوية، وبعث رسلاً من عائلته يستعطفون الملك ليرأف به. حُمل مثخناً بجراحه إلى عبد العزيز فعفا عنه، عندما شاهده بهذه الحال، ظناً منه أنه لن يطول به العمر. وكلّف طبيبه الشخصي بأن يداويه.

أما ابن بجاد فقد سلّم نفسه بعد المعركة بقليل، وزُجّ به مع باقي زعماء التمرد في سجن الأحساء، وهناك

قضوا نحبهم. وأمر عبد العزيز بمصادرة كل الأسلحة في هجرة الغطغط وتدمير القرية نفسها.

بعد القضاء على حركة الإخوان، توجه الملك إلى المدينة المنورة ثم إلى مكة ليؤدي فريضة الحج في مايو - يونيو 1929م.

إلا أن فيصل الدويش تعافى، ولم تكن معنوياته محطمة، فأخذ يشن الغزوات على العراق من جديد.

في تلك الفترة عزم ابن جلوي على معاقبة قبيلة العجمان المتمردة. نجح ابنه فهد في استدراج ضيدان بن حثلين إلى البادية المكشوفة، ثم ألقى القبض عليه. وعندما رأى الإخوان من أتباع ابن حثلين أن أميرهم لم يعد إليهم، طوّقوا معسكر فهد في الحال. وكان فهد قد أمر بقتل ضيدان وخمسة من رفاقه. وفي المعركة التالية لقي فهد مصرعه، فيما انتقل نايف بن حثلين، وهو أحد أقرباء ضيدان، إلى صف الإخوان بعد أن كان قد حاربهم في البداية. كتب المندوب السامي البريطاني في الكويت هارولد ديكسون يقول إن بدو شمال شرق الجزيرة وقفوا ضد عبد العزيز بعد مقتل ضيدان غدراً، على الرغم من أن عبد العزيز ليس المسؤول عن الحادث.

أما فيصل الدويش فقد قرر التمرد من جديد والتحق بالعجمان، فقطعوا طريق الرياض - الهفوف في منتصف يوليو، فيما قطعت عتيبة الاتصال بين الحجاز ونجد.

كانت رحى الحرب الأهلية تدور. وفي كل مكان من البلاد يقتل جباة الزكاة، ولم تعد طرق القوافل في

الحجاز ونجد والأحساء مأمونة.

عاد الملك إلى الرياض في يوليو 1929م مع 200 سيارة لاستخدامها ضد المتمردين. واتفق في الحجاز على شراء أربع طائرات إيطالية وإنشاء شبكة إذاعية في البلاد. وفي نهاية عام 1930م كلفت شركة ماركوني بتنفيذ مشروع الإذاعة، فيما وصلت الطائرات بعدما انتفت الحاجة إليها.

تلقّى فيصل الدويش ضربة شديدة في سبتمبر حين هزمت قوات ابن مساعد عساكر مطير بقيادة عزيز بن فيصل الدويش. حيث قتل هذا القائد العسكري الشاب مع خيرة رجال مطير في معركة أم رضمة. وبعد أيام تلقّى فيصل الدويش ضربة أخرى. فقد هزم فرع قبيلة عتيبة المرتبط بالإخوان على أيدي أبناء القبيلة الموالين لعبد العزيز، وقد دعمتهم فصيلة ابن لؤي من الخرمة. وتفرقت فلول الإخوان.

كانت تلك نهاية انتفاضتهم.

وفي العاشر من يناير1930م، سلّم فيصل الدويش وباقي زعماء الإخوان أنفسهم إلى السلطات البريطانية، ونقلوا جواً إلى البصرة. طالب عبد العزيز بتسليمهم إليه، فوصل إلى معسكره وفد بريطاني أجرى مباحثات معه، وتوصل الطرفان إلى اتفاق بشأن تسليم زعماء الإخوان بعد أن وعد عبد العزيز بعدم التعرض لحياتهم.

توفي فيصل الدويش في 3 أكتوبر 1931م في زنزانة السجن. وقد حافظ على معنوياته حتى الرمق الأخير، ولفظ أنفاسه متوعّداً بأنه سيدافع عن قضيته

ضد عبد العزيز في يوم القيامة. على هذه الصورة انتهت حياة فيصل الدويش، أحد أبرز زعماء بدو الجزيرة، ولربما آخر ممثل كبير للعهد البائد.

في 20 فبراير 1930م وصل عبد العزيز إلى رأس تنورة، حيث جرى على متن سفينة بريطانية لقاء بينه وبين المندوب السامي في العراق فرنسيس همفريس والملك فيصل الأول. استمر اللقاء ثلاثة أيام، تبادل الملكان فيه اللوم والاتهامات، إلا أن المصالح المشتركة كانت لها الكلمة العليا، فاتفقا على توقيع معاهدة الصداقة وحسن الجوار. وقد وقّعت فعلاً بعد أسابيع من ذلك التاريخ. الهاشميون لم ينسوا الهزيمة المهينة وفقدان مكة والمدينة. إلا أن متطلبات السياسة الواقعية كانت أشد من ذلك إلى حين من الوقت. وقرر الملكان تبادل التمثيل الدبلوماسي واحترام القبائل وحرمة الأراضي التي تشملها سيادتهما.

بدا الأمر كأن النظام السعودي فرغ من حل مشاكله الخارجية والداخلية في انتظار الاستقرار النسبي. إلا أن عبد العزيز كان لا بد أن يمر بمحنتين قبل أن يحل زمن الاستقرار. وهما الحركات المسلحة في الحجاز وعسير والحرب ضد اليمن. وهذه وتلك لم تكن تمثّل خطراً جدياً على سلطته.

لم نجد في الوثائق المتوافرة لدينا ذِكراً لدور الأمير فيصل في إخماد انتفاضة الإخوان. ونعتقد أن عبد العزيز تركه في الحجاز قصداً، كي لا تقوم هناك حركات ضد الحكومة. فالحجاز ظل طوال فترة الحرب الأهلية

بمثابة مؤخرة آمنة لابن سعود. حتى قبيلة حرب المتمردة سابقاً شاركت في القتال ضد الإخوان، ربما للثأر منهم على قساوتهم السابقة.

نشرت جريدة "أم القرى" في 19 ديسمبر 1930م بلاغاً في شأن قرار الملك عبد العزيز تحويل مديرية العلاقات الخارجية إلى وزارة الشؤون الخارجية وتعيين فيصل وزيراً للخارجية، فصار مسؤولاً عن السياسة الخارجية للبلاد كلها وليس للحجاز وحده. ومما له دلالته أن الملك اتخذ قراره هذا قبل توحيد نجد والحجاز في دولة واحدة. وأدى ذلك إلى رفع منزلة فيصل. إلا أن عبد العزيز ترك لنفسه أمر توجيه السياسية الخارجية، رغم استفادته من خبرة سكرتيره السوري يوسف ياسين في هذا المجال.

في يناير 1932م أصدر عبد العزيز "نظام مجلس الوكلاء". وكانت تلك محاولة لتأليف حكومة قبيل توحيد البلاد. وعيّن فيصل رئيساً لمجلس الوكلاء المكوّن من الرئيس ووكلاء الخارجية والمالية والشورى. وكانت صلاحيات المجلس استشارية على الأرجح. فالسلطة الفعلية في يد الملك، وفي يد رئيس المجلس عندما ينوب عنه في غيابه. كذلك تولى الأمير فيصل مهمات وزير الداخلية، وكانت في عهدته دوائر الصحة والمعارف والبريد والبرق والحجر الصحي (الكورنتينات) والشرطة والبلديات.

اجتاح الجفاف نجد والحجاز عامين متواليين. وأدت الحرب الأهلية إلى إفلاس البلاد. كذلك فإن الأزمة

الاقتصادية العالمية 1929-1933م تركت آثاراً سيئة للغاية على الجزيرة العربية. تصدير المواشي والجلود والتمور تقلص كثيراً. وتضاءل عدد الحجاج إلى مستوى كارثي. وكان بيت المال خالياً. فليس هناك ما تسدد به قيمة استيراد الأطعمة. والموظفون الذين لم يتسلّموا رواتبهم شهوراً طويلة أخذوا يبتزّون الأهالي. وتوقفت المعونات لشيوخ الكثير من القبائل. وبدأت المجاعة تتفشّى.

كان من اللازم استحصال المال لتعزيز القوات المسلحة وتسديد معونات القبائل ودفع رواتب الموظفين. حينذاك صمّم الملك على إرسال ابنه فيصل الذي تولى مهمات وزير الخارجية إلى عدد من الدول الأوروبية على أمل الحصول على قروض مالية. كان عبد العزيز في حاجة إلى مليون جنيه إسترليني لتغطية النفقات الجارية ولتأمين استقرار الوضع المالي. وكان على فيصل أن يتلمّس ويبحث عن إمكانات التعاون في ميادين أخرى أيضاً. وقد رافقه فؤاد حمزة بصفة مستشاره الأول في هذه الرحلة.

في إيطاليا أقام رئيس الدولة الرسمي الملك فكتور عمانوئيل مأدبة غداء تكريماً لفيصل. إلا أن القول الفصل في هذه البلاد كان لموسوليني الذي دعا الضيف العربي إلى استعراض شباب الفاشية الذي استمر ثلاث ساعات. فقد مرّ أمام المنصات نحو 50 ألف شاب. قال فيصل نفسه عن انطباعاته لمنير العجلاني:

إن هذا الإفراط في المظاهر وحب الظهور قد يعبّر عن "عقدة نفسية" وقد يكون وسيلة إلى إلهاء الجماهير وإرضائها[17].

إيطاليا كانت تقوّي عضلاتها الضعيفة وتستعد لمنافسة الإمبراطورية البريطانية عسكرياً في حوض البحر الأحمر. واتفق فيصل مع الإيطاليين، من دون أن يعطي أي التزامات سياسية، على إعداد طيارين سعوديين في إيطاليا وإرسال طائرات إيطالية. وفي تلك الأثناء فرغت شركة ماركوني من نصب محطتي الإذاعة في الحجاز ونجد.

وصل فيصل إلى فرنسا في مايو 1932م. وتولّت وزارة الخارجية الفرنسية تدبير شؤون السفر هذه المرة، وليس شركة كوك السياحية التي نظمت رحلته في عام 1919م. أقيمت له مأدبة عند رئيس الجمهورية في قصر الإليزيه، وتفقّد الوحدات العسكرية وحضر مناورات في فرساي شاركت فيها المدرعات والدبابات والمدفعية الثقيلة، وشاهد تحليقات استعراضية للطائرات الحربية في مطار بورجيه. كان فيصل يشاهد ويتذكر ويتعلم. وكانت فرنسا دولة عسكرية قوية في القسم القاري من أوروبا الغربية. أما ألمانيا فلم تبدأ التسلح بعد. واقتصرت المحادثات السياسية على مسألة الحجاج من المستعمرات والمحميات الفرنسية. فلم تكن لفرنسا آنذاك مصالح أخرى في الحجاز ونجد.

وزار فيصل مسجد باريس وصلى فيه.

إلا أن زيارته للعاصمة الفرنسية عكّرها رشح مزعج للغاية أصابه عندما صعد إلى برج إيفل. ونشرت مجلة "جورنال" صورته ومقابلة لها معه في الفندق وهو مريض[18].

أما الزيارة إلى بريطانيا فلم تعطِ ثماراً ملموسة.

كذلك لم نعثر على معلومات مفصّلة عن وجود فيصل في ألمانيا عندما كان النازيون يوشكون أن يستولوا على السلطة. كل ما نعرفه أن آماله بالحصول على قرض من ألمانيا قد خابت[19].

إلا أن زيارته لبولندا، حيث التقاه بيلسودسكي، الماريشال المستبد المسيطر على البلاد، وكذلك رئيسها اغناطيوس موسيتسكي، أدّت إلى نتيجة غير متوقعة. ذلك أن بولندا وافقت على بيع كمية من السلاح والرشاشات إلى السعودية بشكل قرض يسدّد في ما بعد. واستخدم السعوديون تلك الأسلحة في الحرب ضد اليمن حينما اندلعت بعد عامين من ذلك التاريخ. ويبدو أن العربية السعودية لم تسدد ثمن هذا السلاح. فقد أكد السفير البولندي في الرياض آدم كولاخ أنه شاهد في متحف المدينة نماذج من السلاح البولندي العائد لتلك الفترة. لكن الوثائق الخاصة بالعلاقات السعودية البولندية لفترة الثلاثينيات لم تبقَ محفوظة[20].

أفردت للأمير فيصل ومرافقيه حافلة خاصة في القطار الذاهب من وارسو إلى موسكو. وقد توجه الأمير إلى عاصمة الاتحاد السوفياتي بمشاعر متضاربة. فمن

جهة لم ينسَ أن الاتحاد السوفياتي بالذات هو أول من اعترف بوالده ملكاً على الحجاز. وكانت هناك بعض التناقضات في التجارة، إلا أن الكيروسين الروسي حظي بطلب جيد في الحجاز. فلا جدال في مساعدة الاتحاد السوفياتي. ولكن الإلحاد عقيدة شيوعية رسمية لا يمكن أن تروق فيصل بالمطلق، على الرغم من أن المطلوب آنذاك هو الحصول على قرض من موسكو. وكان والده البراغماتي على استعداد للتعاون مع أي كان بشرط تخفيف الأزمة المالية في البلاد، فيما كان فيصل يتبع خطى أبيه.

بالنسبة إلى القيادة السوفياتية كانت تلك أول زيارة من نوعها يقوم بها زعيم عربي كبير. ولذا استقبلوه بما يليق من حفاوة واهتمام.

قبيل الزيارة تلقّى عبد العزيز من رئيس اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفياتي ميخائيل كالينين رسالة كتبت بالأسلوب الشرقي الفضفاض:

> يا صاحب الجلالة،
>
> أنتهز فرصة عودة سفيرنا فوق العادة الوزير المفوض نظير تورياكولوف إلى الحجاز بعد الإجازة لأعبّر عن أعمق مشاعر الاحترام لجلالتكم ولشعبكم الكريم.
>
> النبأ السار عن الزيارة التي سيقوم بها إلى موسكو صيف هذا العام نجلكم البار صاحب السمو الملكي الأمير فيصل إنما هو من أسعد مظاهر الصداقة التي تربط بين بلدينا.

وسنتشرف من خلال ضيفنا المحترم بأن نرفع التحيات أيضاً إلى جلالتكم زعيم الدولة الصديقة.

وأنا على يقين بأن العلاقات الصادقة بين دولتينا ستتطور في المستقبل بأشكال أكثر متانة وأكثر استجابة لصداقتنا، وأن كلا الطرفين سيبذلان قصارى جهودهما لتنفيذ مهمة تعزيز العلاقات الحالية الموفقة، تلك المهمة السامية التي تستجيب لمصالح بلدينا... كالينين[21].

وتلقّى ميخائيل كالينين من الملك عبد العزيز جواباً جاء فيه:

8 محرم 1351هـ (14 مايو 1932م)

يا صاحب الفخامة،

استلمت بشعور من الارتياح العميق تحياتكم العاطرة الواردة في الرسالة الرقيقة التي بعثتم بها فخامتكم إلي من خلال معالي السفير فوق العادة والوزير المفوض لحكومتكم الموقرة في بلادنا السيد نظير تورياكولوف. وأعرب عن الامتنان على التمنيات الطيبة التي أبديتموها لي ولشعبي. وأبعث إليكم شخصياً وإلى شعب الجمهوريات السوفياتية بأسمى آيات الاحترام.

ورغبة في تعزيز العلاقات الودية القائمة
بين بلدينا نوفد نجلنا الأمير فيصل في زيارة
إلى فخامتكم وإلى بلادكم الصديقة...
عبد العزيز آل سعود[22]

وفي 29 مايو 1932م، في يوم وصول الأمير فيصل إلى موسكو، نشرت جريدة "إزفستيا" لسان حال اللجنة التنفيذية المركزية مقالة مكرسة للعلاقات السوفياتية السعودية. وكانت لهجة المقالة وديّة، وقد أطلقت على توحيد أراضي الجزيرة على يد عبد العزيز مصطلح "حركة التحرر الوطني".

كانت محطة بيلوروسكي في العاصمة موسكو صباح التاسع والعشرين من مايو مزينة بالأعلام السعودية والسوفياتية. ولعل تلك هي المرة الأولى في التاريخ التي ترفرف فيها على هذه الأنحاء راية كتب عليها "لا إله إلا الله محمد رسول الله". حضر لاستقبال الأمير فيصل كل أفراد النسق الثاني من القيادة السوفياتية السياسية والدبلوماسية والعسكرية. الأوركسترا تعزف وحرس الشرف المكوّن من مختلف صنوف القوات يمر أمام الضيف الكبير. وقد حصل استقبال رسمي مماثل للأمير فيصل في لينينغراد وفي أوديسا. زار الأمير مصانع العاصمة والوحدات العسكرية والمتاحف والمتنزهات والمسارح. وفي أثناء الزيارة لم ينس نائبه فؤاد حمزة نفسه ولا مصالحه، فطلب من الجانب السوفياتي أن يهديه فراء الثعلب الفضي. فقدم له السوفيات تلك الهدية، وما أهونها عليهم! خاصة أن

مجلس مفوضي الشعب (الحكومة السوفياتية) اتخذ قراراً قبيل الزيارة باعتماد 100 ألف روبل من ميزانيته لمفوضية الخارجية لتغطية تكاليف زيارة نائب الملك الأمير فيصل[23].

وأجرى فيصل مباحثات مع جميع المسؤولين السوفيات، ما عدا ستالين. وسادت لهجة وديّة الخطب والكلمات التي تبودلت آنذاك. فلنقرأ ما قاله ميخائيل كالينين وفيصل في مأدبة الإفطار عند كالينين في 29 مايو 1932م.

ميخائيل كالينين:

> يسرني أن أرحّب بمجيء الممثل الرفيع المقام للدولة الصديقة لنا الحجاز ونجد وملحقاتها إلى الاتحاد السوفياتي، وأن أحيي في شخصكم رئيسها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود.
>
> لقد حملت العلاقات بين بلدينا في غضون عدد من السنين طابعاً ودياً للغاية ومخلصاً تماماً، وتعدّ زيارتكم للاتحاد السوفياتي دون شك أحد المظاهر السعيدة للصداقة التي تربط بلدينا.
>
> إنني أرحب بكم بسرور بالغ في عاصمة الاتحاد السوفياتي كونكم تمثلون حكومة الشعب العربي الذي تمكن بعد الحرب العالمية بفضل السياسة الباسلة والبعيدة النظر لقادته من اكتساب وتعزيز استقلاله

الكامل الذي يعد مقدمة ضرورية من أجل تنمية البلاد اقتصادياً وثقافياً.

إنني أعبّر عن الثقة بأن الصداقة بين دولتينا تستجيب بالقدر الكامل لمصالح شعبينا وخيرهما المتبادل. وسيساعد مجيئكم إلى الاتحاد السوفياتي بلا ريب على التعزيز اللاحق لهذه الصداقة.

أرجوكم تبليغ أطيب التمنيات بالصحة والرفاه للملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود، وإنني أحيي في شخصكم تحية حارة الممثل الرفيع المقام للدولة الصديقة لنا وموجه سياستها الخارجية...[24].

وفي كلمته الجوابية في مأدبة الإفطار قال الأمير فيصل:

سيادة الرئيس،

أتقدم إليكم بالشكر الخالص على كلمات الترحيب التي توجهتم بها إلي لمناسبة وصولي إلى بلادكم. أتقدم بالشكر إليكم يا سيادة الرئيس وإلى رجال الدولة الآخرين على الاستقبال الحافل الذي لقيته.

يسعدني أن أزور بلاد الاتحاد السوفياتي الذي تربطه ببلاد مولاي جلالة الملك أقوى أواصر الصداقة. ولا شك في أن هذه الزيارة ستساعد على تعزيز عرى الصداقة في

المستقبل. وآمل أن تساعد الاتصالات الشخصية مساعدة فعالة على حل المسائل التي تهمّ الجانبين بروح الصداقة والإخلاص.

أرى من الضروري أن أشكركم أيضاً، يا سيادة الرئيس، على تلك المشاعر الطيبة التي عبّرتم عنها بلطف كبير تجاه جلالة الملك وبلاده وشعبه، كما تقبّلت بسرور أكبر تصريحاتكم حول أنكم تتابعون باهتمام كبير تقدم بلادنا الاقتصادي والثقافي، وأرجوكم أن تشددوا هذا الاهتمام في المستقبل بما يعود بالمنفعة على كلا الطرفين.

إن الاستقبال الرائع الذي لقيته في بلادكم والموقف الودّي مني ومن الأشخاص المرافقين لي ترك لدي أفضل انطباع، وإنني لعلى ثقة بأن ذكرى هذه الزيارة ستساعد لا على تعزيز علاقاتنا المتبادلة فحسب، بل ستكون كذلك أفضل تذكار...[25]

طرح فيصل في موسكو مسألة القرض النقدي أو على الأقل إرساليات البضائع مع تأجيل الدفع. إلا أن الاتحاد السوفياتي كان مشغولاً بالتصنيع قبيل المجاعة المرعبة التي حلّت بأوكرانيا وكازاخستان والمناطق الجنوبية من روسيا ذاتها، ولم تكن لديه مصلحة فعلية في جزيرة العرب. كذلك فإن الحجاز لم يسدد أثمان الكيروسين السوفياتي. وحُلّت أثناء المحادثات بعض المشاكل

التجارية الطفيفة المتعلقة بشروط تجارة السلع السوفياتية.

غادر الوفد السعودي ميناء أوديسا إلى إسطنبول. وكان الوقت كافياً للتأمل والتفكير.

فقد شاهد فيصل دولة كبرى استقبله مسؤولوها بالطيبة والترحاب، ولكنه فهم أنهم يريدون استخدام بلاده كقوة مناهضة لبريطانيا من دون أن يقدموا لها شيئاً بالمقابل في الحقيقة. كان قد قرأ الكثير من الكتابات الانتقادية للغاية عن النظام الشيوعي في الاتحاد السوفياتي. وكان يصدق بعضها ولا يصدق البعض الآخر. إلا أن الإلحاد السوفياتي بالنسبة إلى فيصل الصادق الإيمان بات حاجزاً نفسانياً على طريق التعاون المرتقب.

نتوقف هنا لحظة لندقق طريق فيصل اللاحق في هذه الرحلة. بعض المصادر تؤكد قطعاً أنه غادر الاتحاد السوفياتي عبر أوديسا، فيما يذكر بعضها الآخر، بالقدر نفسه من الاقتناع، مدينة باكو على أنها آخر محطة في زيارته للاتحاد السوفياتي. واتضح أن هؤلاء وأولئك على حق. زيارة فيصل الرسمية انتهت في أوديسا. ثم أمضى حوالى ثلاثة أسابيع في تركيا استقلّ بعدها الباخرة الإيطالية "فلسطين" من إسطنبول إلى باتوم حيث كانت تنتظره حافلة خصوصية في القطار. تلك كانت رحلة ترانزيت عبر الاتحاد السوفياتي الصديق، أي من دون أوركسترا ولا خطب. من باتوم، عبر تفليس، وصل فيصل إلى باكو. وفي اليوم نفسه ركب البحر إلى

ميناء بهلوي الإيراني. وللمناسبة، لم ينس فؤاد حمزة أن يلمح إلى ممثلي مفوضية الشعب (وزارة) للشؤون الخارجية السوفياتية في باكو أنه يرغب في الحصول على كمية من الكافيار الأسود "على سبيل الهدية". فتسلّم عشر علب من أجود أنواع الكافيار وزن كل منها نصف كيلوغرام[26].

أثناء زيارته لتركيا لم يبحث الأمير فيصل في أنقرة أي قضايا سياسية مهمة. فقد كان مصطفى كمال (أتاتورك اعتباراً من عام 1934م) مشغولاً ببناء تركيا الجديدة، ولا تعنيه كثيراً الولايات العثمانية السابقة في الجزيرة العربية. إلا أن الأتراك استقبلوا بحفاوة بالغة نائب الملك في الحجاز التي تحتضن الحرمين الشريفين ووزير خارجية أكبر دولة في الجزيرة العربية. فقد حضر أعضاء الحكومة مأدبة الغداء الرسمية التي أقامها رئيس الجمهورية تكريماً له، فيما قدمت أطباق الطعام على صحون ذهبية نقشت عليها طغراء السلطان العثماني عبد الحميد. وزار فيصل مزرعة مصطفى كمال الشخصية (ويعتبر ذلك تكريماً خصوصياً)، ثم أجرى محادثات مع عصمت باشا (عصمت أينو اعتباراً من 1934م) رئيس حكومة إسطنبول والشخصية الثانية في البلاد. واتفق فيصل على أن تسمح السلطات التركية بسفر أقاربه الأبعدين من آل ثنيان المقيمين في إسطنبول لأداء فريضة الحج.

ولعل فيصل، الشديد الملاحظة، قد رأى العاصمة التركية الجديدة تنمو وتتطور من دون أن يبنى فيها

مسجد جديد واحد.

تقول الرواية إن فيصل رأى في إسطنبول زوجة المستقبل الست عفت. إلا أن أولاد عفت يؤكدون أن اللقاء حصل في جدة عندما وصلت عائلة ثنيان للحج. يصعب الجزم والحال هذه مَن المحق. فقد أمضى فيصل في إسطنبول زهاء خمسة أيام في انتظار الباخرة التي تقلّه إلى باتوم. كان يتناول الغداء مع مدير تشريفات مفوضية الخارجية الذي رافقه. إلا أنه كان في المساء يرتدي البزة الأوروبية ويمضي لتناول العشاء مع أعضاء الوفد. وليست لدينا أي أدلة على التقائه بعائلة ثنيان، رغم أنه لا يُستبعد أن يكون قد التقاها فعلاً فوقع بصره على عفت الجميلة. وإلا فما الذي دفعه شخصياً إلى استقبال هذه العائلة عندما نزلت من الباخرة على رصيف ميناء جدة؟

... وكانت زيارة طهران باهتة أيضاً.

في طريق العودة إلى الديار التقى الأمير فيصل في بغداد الملك فيصل بن حسين، الذي كان أحمد بن ثنيان مستشار الأمير قد أغاظه في باريس عام 1919م. العداء القديم بين آل سعود والهاشميين لم يطوِه النسيان، إلا أن المصالح علت على كل شيء. وتبادل الأمير والملك كلمات الترحيب.

عاد الأمير فيصل إلى نجد عبر الكويت، بعد رحلة استغرقت ستة أشهر تقريباً من دون أن تأتي بالشيء الرئيس الذي كان يأمله الملك عبد العزيز، وهو القروض. إلا أنها حققت بعض النجاح. فقد جرى الاتفاق على

إرسال طائرات وتدريب طيارين سعوديين في إيطاليا، وشراء أسلحة من بولندة، وتسوية المشاكل التجارية العالقة مع الاتحاد السوفياتي.

أما بالنسبة إلى فيصل نفسه فقد كانت هذه الجولة جامعة جديدة. فعندما اطّلع، وإنْ بصورة سطحية، على التنظيمات العسكرية الحديثة في فرنسا وإيطاليا وبولندة والاتحاد السوفياتي، أخذ فكرة عن الجيوش الحديثة وكيف ينبغي أن تكون. الدول التي زارها متباينة من حيث العقائد والبنية السياسية والاجتماعية. إيطاليا فاشية، والاتحاد السوفياتي شيوعي ملحد لا يؤمن بالله، وتركيا تخلت عن بعض مراحل ماضيها، وفي إيران نظام آخر. العالم الهائل الذي رآه فيصل في فتوّته سنة 1919م، وفي شبابه سنة 1926م بدا هذه المرة أكثر اتساعاً وتنوعاً. وكان لا بد له أن يفهم موقع بلاده ودورها وأن يؤمّن مصالحها في هذا العالم.

نظام عبد العزيز الذي فرض على الحجاز بالقوة لم يكن يرضي الجميع. فالكثيرون من أعيان البلد، وخاصة من أبناء الشرافة، احتفظوا بعلاقاتهم مع إخوة علي، آخر ملك هاشمي في الجزيرة.

في نهاية العشرينيات، أنشأت المعارضة الحجازية المدعومة من الأمير عبد الله في شرق الأردن والملك فؤاد في مصر ما سمّي "حزب أحرار الحجاز" لإخراج النجديين من الحجاز وتأسيس دولة مستقلة هناك. واتصلت المعارضة بحامد بن سالم بن رفادة الملقب

بالأعور، وهو من شيوخ قبيلة بلي التي نزح قسم منها من الحجاز إلى مصر بعد حركتهم ضد آل سعود سنة 1929م، كما اتصلت بحكام عسير.

كان "أحرار الحجاز" يأملون بأن العمليات الحربية في الشمال يمكن أن تدعمها انتفاضة في عسير، ثم انتفاضة عامة لسكان الحجاز.

وفي أواسط مايو 1932م عبر ابن رفادة مع قبيلته حدود مصر قرب العقبة وظهر في شمال الحجاز.

كان عبد العزيز وفيصل على علم بنشاط "أحرار الحجاز". وعندما وصل نبأ ظهور فصيل حامد بن رفادة، أصدر الملك في يونيو 1932م أمراً باعتقال جميع المعارضين في مكة فوراً، وكان بينهم عدد من أبناء عائلة الدباغ، ومنع كل الأحزاب السياسية في الحجاز.

وبعث في الوقت ذاته فصائل بالسيارات إلى شمال الحجاز قضت على رجال ابن رفادة جميعاً بعد أن استدرجتهم إلى كمين.

كانت مغامرة ابن رفادة و"أحرار الحجاز" قد أخفقت قبل بدء حلفائهم القتال المسلّح في عسير.

محمد الإدريسي احتفظ بسلطته في جنوب عسير وجزء من تهامة حسب اتفاقية 1920م مع عبد العزيز. وإمام اليمن يحيى انتهز انشغال النجديين بالعمليات في الحجاز فضمّ الحديدة وجزءاً من تهامة إلى أراضيه في أبريل 1925م. وتقدمت قوات أحمد ابن الإمام يحيى نحو الشمال مهددة المراكز الأساسية في عسير

مثل جيزان وصبيا وأبو عريش. وكان واضحاً أن الإمام يحيى ينوى ضم جنوب عسير كله إلى اليمن.

وخوفاً من اليمنيين، وقّع أمير عسير الجديد الحسن الإدريسي في 21 أكتوبر 1926م اتفاقية فرض الحماية السعودية على إمارته. وبموجبها تخلى الأدارسة عن ممارسة سياسة خارجية مستقلة، إلا أنهم في الشؤون الداخلية احتفظوا بالحكم الذاتي. ولم يعد اليمنيون يواجهون إمارة الأدارسة الضعيفة، بل يواجهون دولة عبد العزيز القوية الهائلة. فسحب يحيى قواته التي كانت على مقربة من جيزان وصبيا. وفي يونيو 1927م وصل وفد سعودي إلى صنعاء لإجراء مفاوضات.

لم تكن اليمن مستعدة لتوسيع النزاع، فيما حصلت اشتباكات متكررة على حدودها الجنوبية مع قوات بريطانيا ومحمياتها. وفي عام 1928م، قصف سلاح الجو البريطاني عدداً من المدن اليمنية، فانسحب الإمام يحيى.

في 27 أكتوبر 1930م فرض عبد العزيز اتفاقية جديدة على الأمير الحسن الإدريسي جعلت من سلطته مسألة شكلية. وكانت الحجة في إجراء تعديلات على نظام الحكم في إمارة عسير هي كثرة التهريب منها إلى الحجاز. فاشترطت الاتفاقية الجديدة انتقال السلطة كاملة إلى عبد العزيز بعد وفاة الإدريسي. وبسبب ذلك أخذ الأدارسة يقيمون اتصالات سرية مع الإمام يحيى ومع "أحرار الحجاز".

أعلن الحسن الإدريسي التمرد في نوفمبر 1932م، فدحره السعوديون في بضعة أيام، وفرّ إلى صبيا.

طهرت القوات السعودية عسير كلها. وحاول الأدارسة تنظيم المقاومة اعتماداً على القبائل الموالية لهم في الجبال الوعرة، إلا أنهم فرّوا في ما بعد إلى اليمن. وطالب عبد العزيز صنعاء بتسليم المتمردين، لكنّ الإمام يحيى لم يوافق على تسليمهم إلا بعد وعد من الملك بالعفو عنهم. وفي مايو 1933م وصل بعض الأدارسة إلى مكة وظلوا هناك تحت المراقبة. وكانوا يتسلمون رواتب. وعيّنت الرياض من جانبها أميراً لعسير.

مع اقتراب صيف 1933م غدا واضحاً أن النظام السعودي تقوّى وباتت له السيطرة من دون منازع على الأراضي الشاسعة في الحجاز ونجد وملحقاتها. وكانت السهولة التي تم فيها إخماد حركات التمرد في شمال الحجاز، ثم في عسير، دليلاً ساطعاً على ذلك.

في سبتمبر 1932م، قبل الاضطرابات المسلحة في عسير، اجتمع نحو خمسة عشر شخصاً من وجهاء الحجاز، معظمهم من أعضاء مجلس الشورى الذي يترأسه الأمير فيصل، في الطائف وتقدموا بعريضة خصوصية إلى الملك عبد العزيز أشاروا فيها إلى أن مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها تمثل شعباً واحداً موحداً بالدين والتاريخ والتقاليد. واقترحوا إعلان دولة واحدة موحدة باسم المملكة العربية السعودية. كانت تلك من دون ريب خطوة معدّة سلفاً من قبل الملك عبد

العزيز، فيما تولى نائبه الأمير فيصل تنسيقها مع أهل الحجاز.

في 18 سبتمبر 1932م أصدر عبد العزيز في الرياض أمراً ملكياً بتوحيد إقليمي البلاد نجد والحجاز وملحقاتها، فباتت تسمّى منذ ذلك الحين المملكة العربية السعودية. وأشار الأمر الملكي إلى أن كل المعاهدات والالتزامات والاتفاقيات الدولية الموقّعة من قبل الحكومة السابقة تبقى سارية المفعول، شأنها شأن القرارات والتعليمات السابقة. وتضمّن الأمر تعليمات إلى مجلس الوكلاء بصياغة دستور المملكة، كما نص على كيفية توارث العرش. ونشرت جريدة "أم القرى" الأمر في 23 سبتمبر 1932م موقعاً من قبل الأمير فيصل. وعين عبد العزيز في سنة 1933م ابنه البكر سعود ولياً للعهد.

أما الثالث والعشرون من سبتمبر فلم يصبح يوماً وطنياً للمملكة إلا في عام 1965م. ذلك أن الملك فيصل لم يرغب في جعل يوم تتويجه عيداً وطنياً للبلاد، فقرر اعتبار تاريخ توحيد المملكة يوماً وطنياً.

وتقيّداً بتكتيكه المعتاد في العفو عن الخصوم الذين يكفّون عن المقاومة، وفي استمالة المعارضين ليلتزموا جانبه، أعلن عبد العزيز العفو العام في سنة 1935م. وحل "أحرار الحجاز" حزبهم، وعاد الكثيرون منهم إلى المملكة. وصار طاهر الدباغ مديراً لمديرية المعارف، فيما صار الشيخ محمد سرور الصبان عضواً في مجلس الشورى. وقرّب الملك باقي كبار رموز المعارضة.

بعد إخماد تمرد الإدريسي، جاء دور مناطق عسير المتاخمة لليمن. فقد ظلت قوات الإمام يحيى تحتل نجران وحرض وقسماً من تهامة عسير، فيما كان الملك عبد العزيز يعتبرها من أراضيه. وبعد أن استطالت المفاوضات قرر أن يشن الحرب.

القوات السعودية كانت أفضل تسليحاً. وقد قاتلت بقيادة الأمير سعود في المناطق الجبلية الوعرة من عسير السراة، وتباطأ تقدمها عندما دخلت تلك المناطق، إلا أن سعود أفلح في دخول نجران، فيما دخلت مفرزة بقيادة فيصل ابن سعد بن عبد الرحمن مدينة باقم.

كان نائب الملك في الحجاز، الأمير فيصل يفكر في حملته الشهيرة على عسير وقد مر عليها زمن ليس بالقصير، وتكاد تكون عرضة للنسيان. وكانت حملة دخول الحجاز قد جرت من دون أن يشارك فيها. وبرز أخوه الأكبر سعود بطلاً للمعركة في الحرب الأهلية ضد الإخوان، فيما يؤدي هو في الحجاز دوره المهم بهدوء وسكينة. ولذا تاقت نفسه إلى العمل الفاعل في الأماكن التي تجري فيها المعارك ضد إمام اليمن.

يقول منير العجلاني إن وجهاء الحجاز استأذنوا الملك بأن يشاركوا في الحرب بقيادة فيصل. وقد لا يكون هناك شك في أن فيصل نفسه هو المبادر إلى توجيه هذا النداء. فوافق عبد العزيز وأمر ابنه فيصل بأن يدخل جيزان.

تحركت عدة آلاف من الجنود بسرعة إلى تهامة عسير. وتجدر الإشارة إلى أن الأفواج السعودية

النظامية الأولى - فوج الرشاشات وفوج المدفعية وفوج السيارات - كانت تمثل نواة القوات المسلحة المعززة بالمطاوعة البدو غير النظاميين. ولا شك في أن فيصل كان يعرف أصول استخدام قواته الأسرع تحركاً من قوات العدو.

زحف فيصل نحو الجنوب واحتل مدينة حرض في 12 أبريل 1934م. وجرى تطويق ميناء ميدي الصغير الذي كان يستخدم سابقاً في استيراد العبيد من الساحل الأفريقي. مدينة ميدي كانت محصنة جيداً، إلا أن الدفاع عنها ميؤوس منه في مواجهة مدفعية فيصل ورشاشاته.

وكان يقود الدفاع عن المدينة شخص من آل العرشي ذاع صيته كقائد عسكري ماهر. ولكن عندما فصلت المدينة عن المؤخرة سادها الذعر والاضطراب، وفرّ العرشي خفية لعدم ثقته بوجهاء المدينة. وبعث هؤلاء الوجهاء إلى مخيم فيصل برسول يحمل عرضاً بتسليم المدينة تفادياً لإراقة الدماء. وما كان فيصل يريد حدوث نهب وسلب أو إراقة دماء فيها، فأمر بإرسال فصيلة صغيرة لحفظ النظام، وبمرابطة القسم الأكبر من القوات خارج ميدي تفادياً للاشتباك مع أهاليها.

في 30 أبريل 1934م بعث فيصل إلى والده الملك عبد العزيز ببرقية جاء فيها:

> كنت عرضت على جلالتكم صفة ممشانا، فلما جاءت الساعة الخامسة من ليل الخميس واستعددنا للمشي، جاء حضرمي من أهل

ميدي وأخبرنا أن جند العرشي قد هرب آخرهم عند الساعة الثانية، فتقدمنا إلى ميدي الساعة 12 من صباح الخميس، واستقبلنا أهلها وقدموا لنا الطاعة وبذلنا لهم الأمان، وأعلمونا أن العرشي لم يتمكن من الفرار لضيق الوقت فأرسلنا 25 سيارة ومعها رشاشات لمطاردته واستولينا على ما في ميدي وأطرافها من القلاع والذخائر والمعدات[27].

وقُبض على العرشي وجنوده أثناء فرارهم العاجل على الطريق الساحلي باتجاه اليمن.

ثم استسلمت اللحية وعرضت قبائل مور طاعتها على الأمير فيصل، وبذلك بات الطريق إلى الحديدة مفتوحاً.

في 7 مايو 1934م أصدرت الحكومة السعودية بلاغاً آخر نورد هنا نصّه كاملاً تقريباً لننقل إلى القارئ أجواء تلك الحقبة:

على أثر استيلاء صاحب السمو الملكي فيصل على ميدي، عرض أهل اللحية وجميع قبائل مور طاعتهم على سموه وطلبوا منه التقدم إلى بلادهم لاستلامها، فأرسل سموّه من يقوم بهذا الغرض.

وقد علم أن قوات الإمام يحيى كانت تتراجع بسرعة منسحبة من سائر بلاد تهامة، ومن جملتها الحديدة، لكي تخليها أمام قوات

صاحب الجلالة، وقد صدرت الأوامر المستعجلة بتقدم الجيوش لاستلام الحديدة وتأمين أهلها وإعادة النظام إليها واتخاذ التدابير لإدارتها وتمشية الأمور فيها.

وستكون خطة حكومة جلالته في إدارة البلاد التي احتلت بالفعل والتي جارٍ احتلالُها الآن هي نفس الخطة الحكيمة التي تسير عليها دائماً، من تأمين السكان وتوزيع العدالة والمساواة بينهم وأخذ حق الضعيف، كما أنها ستحرص على سلامة وطمأنينة النزلاء الأجانب من رعايا الدول الصديقة وغيرهم، ولن تفرق في المعاملة بينهم، كما أنها ستقدم لهم كل ما في وسعها من التسهيلات[28].

كان البلاغ موجهاً إلى أهالي المناطق المحتلة وإلى بريطانيا وإيطاليا في الوقت ذاته.

تقدمت قوات الأمير فيصل بسرعة في اتجاه الحديدة، وكانت قوات الإمام يحيى تتراجع، حتى استسلمت المدينة في 5 مايو بلا قتال.

وبعد بضع مناوشات قدمت قبيلة الزرانيق، المعروفة بيأسها وشجاعتها، الطاعة والولاء للأمير فيصل. وعندما عرف الإمام يحيى بذلك، اعتكف في قصره في العاصمة اليمنية صنعاء، وأخذ يوجه الرسائل طالباً الهدنة مع عبد العزيز.

وكان فيصل يستعد لمهاجمة صنعاء.

آنذاك ظهرت في مياه الحديدة ثلاث سفن حربية بريطانية لحماية نحو ثلاثمئة من رعايا بريطانيا ومعظمهم من الهنود. إلا أن النظام كان يسود المدينة بإشراف فيصل. ولم يكن هناك خطر على هؤلاء الرعايا وأملاكهم، فقرر الإنجليز ألا يقوموا بإنزال. واستقبل فيصل قائدي السفينتين "بنزنس" و"انتربرايز" اللذين كتبا في تقاريرهما في ما بعد أن تدابير فيصل فعالة جداً. كذلك أرسل الإيطاليون سفينتين حربيتين صغيرتين وأنزلوا نحو 100 بحار، ما أثار بعض التوتر، لأن الرأي السائد هو أن الحكومة الإيطالية تلتزم جانب الإمام. ظل الفصيل الإيطالي الصغير في الحديدة زهاء أسبوعين لا يعرف ماذا عليه أن يفعل. وكانت مفاوضات الهدنة جارية مع الإمام. ثم عاد الإيطاليون إلى سفينتيهم.

في تلك الأثناء كان الأمير خالد يُجري بتكليف من والده عبد العزيز مفاوضات مع الوفد اليماني برئاسة عبد الله بن الوزير، وقد انتهت إلى توقيع معاهدة الطائف في 20 مايو 1934م بشروط الملك عبد العزيز. ومن أهم بنودها إنهاء حالة الحرب بين الطرفين وإبدالها "بحالة سلم دائم وصداقة وطيدة وأخوة إسلامية عربية دائمة"، والاعتراف المتبادل باستقلال كل من الطرفين وحرمة أراضيه واعتراف اليمن بأن عسير تهامة وعسير السراة من أراضي المملكة العربية السعودية، وكذلك نجران وبلاد يام في حدود متفق عليها.

وجرى تسليم عائلة الإدريسي إلى السعوديين بشرط الحفاظ على حياة جميع أفرادها. ودفع الإمام يحيى للسعودية تعويضات بمبلغ 100 ألف جنيه إسترليني. وقد وقّعت المعاهدة لمدة عشرين عاماً.

في بداية يونيو، وصل أفراد عائلة الإدريسي والحاشية إلى الحديدة وأعلنوا ولاءهم وخضوعهم لفيصل.

وفي 11 من الشهر المذكور صدر البلاغ الرسمي الآتي:

> وصل إلى الحديدة الحسن وعبد العزيز الإدريسي مع بعض أتباعهما، ووصلت عائلتهم وحاشيتهم المؤلفة من ثلاثمئة نفر تقريباً إلى الونف، وصدر الأمر لهم بالتوجه إلى جيزان. أما عبد الوهاب الإدريسي فالمراجعات متواصلة لعمل الترتيب لتسليمه مثلما سلم غيره...

وقد استقبل سموّ الأمير فيصل جماعة الأدارسة بما عرف به من اللطف والنبل ورقة الحاشية. وكتب زعيما الأدارسة الحسن وعبد الوهاب إلى الملك عبد العزيز في ما بعد يشكران لجلالته كريم معاملته وحلمه، ويعربان له عن تأثرهما العميق بلقاء فيصل[29].

كذلك صدر بلاغان آخران أكدا تسليم كافة أفراد عائلة الإدريسي وانسحاب قوات الإمام من أراضي المملكة العربية السعودية.

وقد تألم فيصل، بعد نشوة الانتصارات، عندما تلقّى أمراً من أبيه بالانسحاب من اليمن. فقد كان واثقاً بأنه يستطيع احتلالها كلها.

وحين عاد إلى الرياض سأل والده عن سر أمر الانسحاب، فقال له عبد العزيز "اذهب حتى يهدأ روعك وفكّر في الأمر أياماً ثم تعال إلي".

وقد نقل منير العجلاني ما رواه بعض المؤلفين عن لسان فيصل الذي قال:

> وعدت إليه متمسكاً بموقفي السابق، فقال لي: ليست اليمن أرض الغزوات السهلة. ولقد مكّننا الله من الانتصار بشكل يحفظ كرامتنا التي استفزّت، وليس لنا أن نضمّ البلاد اليمنية إلينا الآن. ليس من الحكمة أن نستنفد طاقاتنا في حرب قد تستمر عشرات الأعوام. ولو كان غزو اليمن محمود العاقبة، مأمون النتائج، لكانت بريطانيا العظمى، التي هي أقوى منا، قد انساقت وراء مطامعها ومصالحها وحاولت غزو اليمن... ويكفيك أن تعرف أنها لم تفعل[30].

كان بيت المال في المملكة خالياً آنذاك، والبلاد تعاني من خراب الحرب الأهلية ومن الأزمة الاقتصادية ومن نقص عدد الحجاج. أما اليمن بجبالها الوعرة وسكانها الكثيرين فكانت صعبة المنال. وما كان أحد يعرف كيف سيكون ردّ فعل بريطانيا وإيطاليا. ولذا كان الصلح هو

القرار الأكثر حكمة، وخاصة أنه اقترن بتعويضات يمنية كبيرة.

بدأت العلاقات بين البلدين تعود إلى مجرى التطبيع، على الرغم من المحاولة التي قام بها ثلاثة حجاج يمانيين أثناء الحج في العام التالي للاعتداء على عبد العزيز بالخناجر في مكة. وقد أصيب الأمير سعود بجراح طفيفة وهو يدافع عن والده. وقتل الحراس المهاجمين الثلاثة.

بعد حرب 1934م اتّسمت العلاقات بين آل سعود والهاشميين بطابع ودّي.

عاد فيصل إلى الحجاز مكللاً بالغار والانتصار، وكانت في انتظاره هناك عفت زوجته الشابة المحبوبة.

قبل أن نواصل الحديث عن فيصل، نسمح لأنفسنا بإطلالة قصيرة على عالم النفط وشؤونه وتوغل شركاته في الشرق الأوسط. فهذه المسألة تركت أثراً في مصير المملكة وفي المصير السياسي لفيصل نفسه، بل وحتى في حياته الشخصية، إلى درجة تجعل إهمال "العامل النفطي" أمراً غير جائز إطلاقاً. حتى الحرب السعودية اليمنية التي انتهت تواً باتت حرباً مظفرة لأسباب كثيرة ليس آخرها شراء كميات إضافية من السلاح والذخيرة بالمبالغ التي جرى تسلّمها مقابل امتياز النفط لشركة "ستاندرد أويل كومباني أوف كاليفورنيا".

الفصل السادس

النفط ذهب

في عام 1859م، حفر المزارع والميكانيكي الأميركي إدوين درايك بئراً على عمق 23 متراً في بنسلفانيا واستخرج النفط منها لأول مرة. وفي عام 1870م بلغ الإنتاج العالمي من النفط حوالى 800 ألف طن، فيما بلغ في عام 2008م 4 مليارات طن على وجه التقريب.

وقد بدأ استخدام النفط عموماً بفضل اختراع مصباح الكيروسين. وعلى بيع الكيروسين قامت جدة أعظم شركات الوقود الأميركية، ونعني شركة "ستاندرد أويل" التي أسّسها جون روكفلر عام 1870م. وفي العقد الأول من القرن العشرين بدأ الأسطول البحري ثم الأسطول التجاري باستخدام المازوت في أفران السفن. أما محرك الاحتراق الداخلي فقد ولد ثورة في ميدان النفط، حيث أنشأ الطلب المتواصل على البنزين. وما من آليات حربية تستغني عن المشتقات البترولية. فللنفط مزاياه بالمقارنة مع سائر أنواع الوقود. قيمته الحرارية أعلى بخمسين في المئة من أفضل أنواع الفحم، وكلفة استخراجه أقل، ونقله أبسط وأرخص. وبعد بضعة عقود من السنين حلّ النفط محل الفحم كوقود رئيس للمحطات الكهروحرارية. ثم إن زيوت التشحيم والزيوت التقنية الأخرى المشتقة من النفط

مادة ضرورية لجميع أنواع المكائن والآليات. وإلى ذلك، فالنفط والغاز هما الخامان الرئيسيان في الصناعات الكيميائية لإنتاج عشرات الآلاف من مختلف المصنوعات.

في عام 1911م، وبقرار من المحكمة العليا في الولايات المتحدة، تمت وفقاً للائحة شيرمان القانونية لمكافحة الاحتكار تجزئة شركة "ستاندرد أويل" إلى 39 شخصية اعتبارية مستقلة ظلت ضمن إمبراطورية روكفلر. وأهمها شقيقات أو بنات روكفلر "ستاندرد أويل أوف نيوجيرسي" (إكسون في ما بعد) و"موبيل أويل" و"ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا" (سوكال، شيفرون في ما بعد). كذلك ظهرت ونمت في الولايات المتحدة في وقت لاحق شركة "جلف أويل" لصاحبها اندريو ميلون الداخلة حالياً ضمن "شيفرون"، وكذلك "تكساكو" القائمة أيضاً على رساميل مورغان ورساميل روكفلر.

على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين عقد قران "مصالح" في سومطرة بين الشركة البريطانية "شل" والشركة الهولندية "رويال دوتش"، وتمخض هذا القران عن ميلاد سادس شركة نفطية كبرى هي "رويال دوتش شل". لقد هزّ مهد الشركة الوليدة هنري ديتردينغ الهولندي الذي تولى منصب رئيسها. وقد تجنّس بالجنسية البريطانية وتمكن في ما بعد من أن يحصل على لقب "سير" الذي أضيف إلى اسمه. أما الشركة السابعة "بريتيش بتروليوم" فقد نشأت في منطقة

الخليج العربي مباشرة. ولذا يستحق تاريخها وقفة أطول.

رجل الأعمال الثري وليم دي آرسي الذي جمع ثروة من مناجم الذهب في أستراليا حصل على امتياز من شاه إيران سنة 1901م. المساحة التي حصل عليها كانت أكبر من مساحة بريطانيا وفرنسا معاً. وكان عليه أن يدفع للحكومة الإيرانية رأساً عشرين ألف جنيه إسترليني نقداً، ثم يحول إليها 16 في المئة من الأرباح سنوياً. فلنتذكر هذه الأرقام لندرك السبق الذي كانت ستحققه حكومات البلدان النفطية بعد سبعة عقود من ذلك التاريخ.

في مايو 1908م انبجست نافورة النفط في مجلس سليمان، وهي أول بئر للنفط في منطقة الخليج.

وفي عام 1909م تأسست شركة النفط البريطانية الفارسية وكانت شركة "بورما أويل" الطرف الرئيس فيها، بعد أن دفعت إلى مجموعة دي آرسي مليون جنيه إسترليني. ثم وقّعت الشركة البريطانية الفارسية عقداً لتزويد الأسطول البريطاني بالوقود. وقبيل الحرب العالمية الأولى، وبإصرار من الأميرال فيشر وصديقه الحميم ونستون تشرشل الذي كان يشغل منصب وزير البحرية البريطانية، وضعت لندن يدها على شركة النفط البريطانية الفارسية بعد أن اشترت 51 في المئة من أسهمها. وولدت في النتيجة شركة سمّيت شركة النفط البريطانية الإيرانية، ثم تحول اسمها إلى "بريتيش بتروليوم".

على هذا النحو نشأت سبع من أكبر شركات المحروقات في العالم التي سمّيت بلغة الصحافة "الشقيقات السبع".

كان الهياج لا يزال قائماً حول نفط إيران عندما بدأت المناوشة والصراع على امتيازات النفط في وادي الرافدين، إحدى ولايات الإمبراطورية العثمانية آنذاك. كان الصراع دائراً في الدواوين البيروقراطية للباب العالي وفي صالونات المغامرين من بلاد الشام في إسطنبول والممثليات الدبلوماسية البريطانية والأميركية والألمانية. الفترة التي سبقت توقيع اتفاقية امتياز النفط في العراق مشحونة بالغدر وشراء الذمم والغش والاحتيال، وهي طويلة يصعب عرض تفاصيلها باختصار. عشية الحرب العالمية الأولى ضمنت شركة النفط البريطانية الإيرانية لنفسها نصف أسهم الشركة المنتظرة في العراق، كما اشترت "رويال دوتش شل" ربع الأسهم واشترت المجموعة الألمانية الطامعة أيضاً في نفط العراق الربع الباقي من تلك الأسهم. وخصصت كل من الشركتين البريطانيتين 2,5 في المئة من أسهمهما للأرمني كالوست غولبينكيان لقاء خدماته في إمرار مصالحهما.

هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى أخرجت رأس المال الألماني من حلبة الصراع، فيما وُضع العراق وحقوله النفطية تحت الحماية البريطانية. وأحيلت حصة ألمانيا من الامتياز على فرنسا في مقابل تخليها عن دعاواها بولاية الموصل وموافقتها على مد أنبوب

للنفط عبر سورية الواقعة آنذاك تحت الانتداب الفرنسي. إلا أن أصوات الاحتجاج جاءت من وراء المحيط. ففي تلك الفترة كان الأميركيون يعتقدون، أو يتظاهرون بأنهم يعتقدون، أن احتياطيات النفط في الولايات المتحدة توشك على النفاد، ولذا اندفعت "الشقيقات" الأميركيات إلى الأسواق الخارجية.

حرّك الأميركيون مدفعيتهم الثقيلة المتمثلة في حكومتهم. ففي عام 1928م، عندما انبجس النفط من بئر بابا كركر في العراق، وضع مبدأ اقتسام أسهم الشركة التي سمّيت "شركة نفط العراق". فحصلت شركة النفط البريطانية الإيرانية على 23.75 في المئة من الأسهم، ومثلها لشركة "رويال دوتش شل" و"لشركة النفط الفرنسية" وللشركتين الأميركيتين "ستاندرد أويل أوف نيوجيرسي" و"موبيل أويل"، فيما احتفظ غولبينكيان بالخمسة في المئة المخصصة له.

وبعد أن تعب طواغيت النفط من الصراع المرير الذي يتطلب نفقات كبيرة، قرروا أن يتفقوا في ما بينهم. فاستأجر النفطي المخضرم هنري ديتردينغ في سنة 1928م قلعة "اتشناكيري" الأرستقراطية في اسكتلندة ودعا "أصدقاءه" إلى صيد طيور الحجل البيضاء في أحد أيام الخريف. وسرعان ما وصل إليه والتر تيغل مدير شركة "جيرسي" وجون كادمان رئيس الشركة البريطانية الإيرانية. جلسوا في ثياب الصيد جنب الموقد المشتعل، بعيدين عن الأنظار، تحجبهم جدران القلعة السميكة عن المتطفلين، فوضعوا اتفاقية لم

يشهد لها التاريخ مثيلاً. اتفق "الصيادون" الثلاثة على العمل بجهود متضافرة. وفي ما بعد انضمت "الشقيقات" الأربع الباقيات إلى الاتفاق. بهذه الصورة ظهر الكارتل النفطي العالمي.

وضع "الصيادون" مبدأ اقتسام مناطق النفوذ في العالم كله، واتفقوا على أن يقدموا بعضهم لبعض مؤسسات الصناعات الاستخراجية والتحويلية وغيرها لاستخدامها بأجور حسب الكلفة. وأخذوا يشاركون بنسب مختلفة في مئات الشركات. فكانوا في بعض الحالات يستخدمون وسائط النقل والشبكات التجارية بعضهم لبعض.

حصل أعضاء الكارتل النفطي الدولي على ملايين الكيلومترات المربعة في أراضي الشرقين الأدنى والأوسط وأميركا اللاتينية وأفريقيا وجنوب شرق آسيا على سبيل الامتياز أو الاستئجار.

كانت العائدات الهائلة من النفط قد مكّنت "الشقيقات السبع" من التغلغل في شتى ميادين الاقتصاد ومن الارتباط بالبنوك أوثق ارتباط.

آل روكفلر الذين أثروا من النفط، احتفظوا لأمد طويل بنفوذهم الكبير في الشركات التي ورثت موجوداتها "اكسون" و"موبيل أويل" و"شيفرون"، وكذلك في بنك "تشيز مانهاتن" الذي كان يعمل فيه ديفيد روكفلر وصار رئيساً لمجلس مديريه في سنة 1972م.

كتبت مجلة "شبيغل" الألمانية تقول:

إن منصب رئيس الولايات المتحدة بالنسبة لديفيد روكفلر أقل مما يستحقه. فعلى مدار السنوات الأخيرة يترأس ديفيد روكفلر نادي النخبة التي ترسم لدرجة كبيرة نهج السياسة الخارجية الأميركية.

وبغض النظر عن المبالغة في تقويمات "شبيغل" على الطريقة الصحافية، نقول إن سياسة الولايات المتحدة كانت تصاغ من دون ريب عبر تصادم المطامع والمصالح، وصراع مختلف الكتل والجماعات في المجمع الصناعي العسكري، ورأس المال الكبير والإمبراطوريات الإعلامية ومراكز البحث العلمي في الولايات المتحدة. وقد تقلص وزن آل روكفلر في الولايات المتحدة كثيراً خلال العقدين أو الثلاثة الأخيرة. إلا أن دوراً كبيراً جداً في رسم تلك السياسة في الفترة من الثلاثينيات حتى السبعينيات يعود من دون ريب إلى الشركات النفطية، والإمبراطوريات المالية التي قامت على أساسها.

(في إحدى الندوات العلمية حول الشؤون الأفريقية التي عقدت في ضيعة ديفيد روكفلر بضواحي نيويورك، تسنّى لكاتب السطور أن يتحدث إلى صاحب الضيعة أثناء الاستراحة. وعندما ذكرتُ له ما كتبته مجلة "شبيغل" ابتسم روكفلر وقال باستخفاف: "كلام فيه مبالغة طبعاً". وبعد ذلك عرفت من الحديث معه أنه على اطّلاع على الموقف في السودان وعلى مواقع

الحقول النفطية الجديدة إلى درجة يحسده عليها حتى الأكفاء من المتخصصين في الشؤون الأفريقية.

كان الاتفاق على ما يسمى الخط الأحمر جزءاً لا يتجزأ من اتفاقية الكارتل النفطي. وهو يخصّ حوض الخليج العربي. وبموجب هذا الاتفاق، تعهّدت الأطراف المساهمة في "شركة نفط العراق" باستحصال امتيازات جديدة في الولايات العثمانية السابقة بنحو مشترك وبالنسب القديمة نفسها. أما "الخط الأحمر" فقد اعتبر من الولايات العثمانية ليس العراق وحده، بل وكذلك المملكة العربية السعودية، فضلاً عن الكويت. كان اتفاق "الخط الأحمر" يعكس التناسب بين الشركات البريطانية والأميركية في هذه المنطقة في بداية الثلاثينيات. وعشية الحرب العالمية الثانية، بات الإنجليز يستخرجون في حوض الخليج العربي حوالى 80 في المئة من النفط، فيما كان الأميركيون يستخرجون 14 في المئة فقط. ونشير في المناسبة إلى أن الحقول النفطية الآسيوية أدّت بالنسبة إلى الولايات المتحدة دوراً ثانوياً بالمقارنة مع حقول أميركا اللاتينية، ثم إن أميركا كانت تصدر النفط أكثر بكثير مما تستورده.

إلا أن الإنجليز الذين يهيمنون على حقول النفط في إيران والعراق اقترفوا خطأً فاحشاً عندما أتاحوا لمنافسيهم الأميركيين فرصة تثبيت أقدامهم في المملكة العربية السعودية.

تاريخ النفط السعودي مليء بالانعطافات والمفاجآت. رجل الأعمال النيوزيلندي الميجر فرانك هولمز الذي كان

يتمتع بإحساس عجيب بوجود النفط، أقام اتصالات مع عبد العزيز في مطلع العشرينيات. وكان يعمل لمصلحة مجموعات من رجال الأعمال في لندن لا تعوزهم روح المغامرة.

حصل الميجر هولمز والمجموعة التي يمثلها على امتياز بالتنقيب عن النفط في أراضٍ مساحتها 60 ألف ميل مربع، وتعهد بتسديد 2.5 ألف جنيه إسترليني سنوياً (ولنتذكر هذا الرقم) إلى عبد العزيز، في مقابل حق التنقيب الجيولوجي في أرض تحتضن أغنى حقول النفط في العالم. إلا أنه لم يعثر على النفط فيها، وذلك لأن التنقيبات كانت سطحية بسبب عدم توافر المال اللازم لدى المجموعة. وقد فشل هولمز في إقناع الشركات الأميركية الكبرى بمساعدته. فتوقف عن تسديد المدفوعات بعد عام 1927م، وأفلتت من بين يديه الثروات الخيالية التي لم يتسنّ له أن يكتشفها.

إلا أن هذا النيوزيلندي الشاطر لم يرضخ لمصيره، فحصل على امتياز آخر في البحرين لمصلحة شركة "جلف أويل" الأميركية. ولكن "جلف أويل" طرف في اتفاقية "الخط الأحمر"، فاضطرت إلى أن تبيع حقوقها إلى شركة "ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا" (سوكال). وأسست الأخيرة شركة فرعية باسم "شركة نفط البحرين" وسجلتها في كندا بصفة شركة بريطانية. وانبجست أول نافورة للنفط في البحرين عام 1932م.

يرتبط تاريخ حصول شركة "سوكال" على الامتياز السعودي بالأمير فيصل مباشرة، على الرغم من أن

المعلومات المتوافرة لدينا عن دوره في القضية جزئية وغير متواصلة. كان عبد الله السليمان الممثل الرئيس للملك في المباحثات. إلا أن فيصل هو الذي يمسك بخيوطها. ومن الجهة الأخرى، بات جون فيلبي الممثل المفوض لشركة "سوكال". بعد إخماد حركة الإخوان، التقى الملك عبد العزيز مع فيلبي في جدة عام 1930م. وفي العام نفسه أشهر فيلبي إسلامه واتخذ له اسم عبد الله، وأدى مناسك الحج. فيلبي آنذاك على اتصال بالملك، والملك بحاجة ماسة إلى المال.

قال عبد العزيز ذات مرة إنه مستعد لمنح أي امتياز لمن يعطيه مليون جنيه إسترليني.

وفي فبراير1931م وصل إلى جدة فاعل الخير الأميركي تشارلز كرين الذي ورث عن أبيه 70 مليون دولار. وهو يتمتع باحترام الرؤساء الأميركيين، فكانوا يأخذون بنصائحه. حتى إنه زار روسيا سنة 1919م بعد الثورة الشيوعية بناءً على طلب من الرئيس ولسون. كسب كرين ثقة العرب لمعارضته منح بريطانيا وفرنسا حق الانتداب من قبل عصبة الأمم، كما أنه موّل ترجمة معاني القرآن إلى اللغة الإنجليزية. وكان ابنه ريتشارد متزوجاً من فتاة من آل ميلون أصحاب شركة "جلف أويل" التي اشترت امتياز هولمز في البحرين.

عرض عبد العزيز من جديد فكرته على كرين بخصوص المليون جنيه إسترليني في مقابل امتياز النفط، إلا أن الخيّر الأميركي كان مشغول البال بأمور أخرى.

غادر كرين جدة بالباخرة في مارس 1931م، وفي ما بعد كتب إلى الرئيس روزفلت يقول: "ابن سعود أعظم رجل ظهر في جزيرة العرب من زمن النبي محمد"[1].

في أبريل 1932م وصل إلى جدة الجيولوجي كارل تويتشيل مبعوثاً من تشارلز كرين. وأخذ ينقّب عن النفط والمياه. فعثر على مياه عذبة قريباً من جدة، فيما دفع كرين تكاليف مضخة صغيرة سلّمت إلى السعوديين على سبيل الهدية.

وخلال جولته في المملكة، اقتنع تويتشيل بأن الجزء الشرقي من البلاد له مستقبل واعد من حيث النفط ومن حيث إمكان العثور على كنوز سليمان الحكيم الذهبية، بمعنى استئناف البحث عن الذهب، في الحجاز.

إلا أن كرين، وهو من العاملين بالمعروف الصادقين، رفض المشاركة في الشركة المقترحة، وبذلك فوّت فرصة التحول إلى أحد أكبر أثرياء العالم.

أما تويتشيل فقد ظل يبحث عن المستثمرين. كان يتلقّى أسئلة من نوع:

> يا للشيطان، أين تقع الأحساء هذه؟ أين تقع جزيرة العرب؟ وما هي تركيبتها الجيولوجية؟ ومن هو ابن سعود؟ من أي نوع من الشباب هو؟ أليس عندنا نفط كافٍ ويزيد قرب ديارنا؟ ما الداعي للذهاب إلى آخر الدنيا لاستخراج النفط؟[2].

وأخيراً حظي اقتراحه باهتمام "سوكال".

في الوقت ذاته أقامت "سوكال" في مايو 1932م اتصالات مع فيلبي في لندن. وقد ذاع صيته كقاهر الربع الخالي، فكان يتمتع بالأمجاد وقد خلق لنفسه هالة وزير أول للملك عبد العزيز. حاز لقب بطل الجمعية الجغرافية الملوكية، وكان يلقي المحاضرات بهذه الصفة ويتحدث من الإذاعة البريطانية ويكتب المقالات في الجرائد. وفي تلك الأثناء، اقتنع فريد ديفيس الذي كان يمثل "سوكال" في البحرين، بأن النفط ممكن وجوده في المملكة العربية السعودية أيضاً، واتفق رأيه مع رأي تويتشيل. فبعثت "سوكال" في طلب فيلبي وعرضت عليه أن يكون الممثل المكلف للشركة مقابل راتب كبير جداً في مقاييس ذاك الزمان.

استفاد فيلبي من التناقضات بين "سوكال" وشركة النفط البريطانية الإيرانية وشركة نفط العراق لصالح عبد العزيز على أي حال. وأزاح تويتشيل من المباحثات في شأن الصفقة.

بدأت تلك المباحثات في جدة. وكان في هذه المدينة فندق واحد هو فندق "المصري" الصغير الواقع في زقاق ضيق تفوح منه روائح عفنة. وفي الفندق جهاز هاتف واحد معطل في الغالب، والمراحيض عبارة عن فجوات في الأرضية والرمل تحتها، وهناك طسوت من الزنك للاستحمام. آنذاك نادراً ما يزور جدة ضيوف من أوروبا، وعندما يصلون إليها يقيمون في ممثلياتهم. سعر الماء باهظ. وبالطبع لم تكن هناك مكيفات هواء، والمراوح كثيراً ما تتوقف لانقطاع التيار الكهربائي. ولا

خدم في الفندق لتنظيف الحجرات. ثم إن سيارات الأجرة في المدينة قليلة. وفي كل الأحوال، ما كان بوسعها أن تصل إلى الفندق الصغير في الزقاق الضيق. أما إذا مرض أحد في هذه المدينة البائسة المهملة، فمن المستبعد أن تجد طبيباً يداويه. ممثليّتا بريطانيا والاتحاد السوفياتي فقط كانتا تقدمان بعض الإسعافات الطبية الأولية. وهناك نقطة واحدة للبرق. وبالطبع ليس في المدينة مطاعم أو مقاه. والمصرف الوحيد في جدة مشغول فقط بأسعار الذهب في بومباي.

وصل الزوجان هاملتون من "سوكال" في فبراير 1933م على متن سفينة ركاب مصرية. ألقيا نظرة على فندق "المصري"، لكنهما نزلا في منزل فيلبي الذي كان يسمى "بيت بغداد". كتب القنصل البريطاني رين يقول: "الحكومة السعودية كانت سعيدة ببيع كمية غير معروفة من النفط. والقضية كلها في من يدفع أكثر؟"[3].

عمولة فيلبي لقاء خدماته لشركة "سوكال" جيدة جداً. ألف دولار في الشهر اعتباراً من يناير 1933م، و10 آلاف دولار إذا فازت الشركة بالامتياز و25 ألف دولار أخرى إذا عثرت على النفط بكميات تجارية، ثم 50 سنتاً لكل طن يجري تصديره إلى حين تسلّم الـ25 ألفاً التالية. لم يكن منافسو أميركا البريطانيون يعرفون أن فيلبي بات ممثلاً أجيراً للشركة الأميركية، فظلوا على ثقتهم به. ووصل عن شركة نفط العراق ستيفين لونغريغ حاكم الموصل سابقاً. لم يكن لونغريغ هذا يعتقد بوجود النفط في العربية السعودية، لكنه يثق

بالسيد فيلبي. والأهم أن الإنجليز ما كانوا يريدون دفع أموال كبيرة.

في 22 أبريل 1933م التقى فيلبي في مكة بالأمير فيصل وعبد الله السليمان. وكرر الرجلان أمامه مطلب الملك دفع 50 ألف جنيه ذهباً (حوالى 250 ألف دولار آنذاك) في الحال، وتسديد 5 آلاف جنيه إسترليني سنوياً مقابل الإيجار والعقار، و4 شلنات ذهباً مقابل كل طن من النفط المستخرج. وفي 8 مايو 1933م اتفقوا على دفع 35 ألف جنيه إسترليني نقداً. وحرر الاتفاق على 14 صفحة، وفيه 37 مادة. وقّعه هاملتون بالنيابة عن "سوكال"، والشيخ عبد الله السليمان بالنيابة عن الحكومة السعودية.

لو كانت شركة نفط العراق تعرف بمدفوعات "سوكال" لزادت من مدفوعاتها المقترحة. إلا أن فيلبي كان يعمل لمصلحة الأميركيين.

في بادئ الأمر أطلق على الشركة الجديدة اسم "كاسوك"، أي "كاليفورنيا أرابيان ستاندرد أويل كومباني"، ثم استبدل اسمها ب"أرامكو" أو "أرابيان أميركان أويل كومباني". وتولى رئاستها فريد ديفيس، وهو ذاك الذي اكتشف النفط في البحرين.

وخلافاً للقانون الأميركي، اشترت "سوكال" 35 ألف جنيه إسترليني ذهباً في لندن وأرسلتها بصناديق خشبية إلى جدة في أغسطس 1933م. عدّها تويتشيل مع عبد الله السليمان الذي تسلّمها ووقّع إيصالاً بالتسلّم. وهذا هو المبلغ الذي مكّن عبد العزيز من شراء أسلحة

وذخيرة إضافية كانت وسيلة مهمة لانتصاره في حرب اليمن.

وبات فيلبي مستشاراً دائماً لشركة أرامكو مقابل 5 آلاف دولار في العام. كان ذلك مبلغاً إضافياً إلى المكافآت الموعودة. وفي الوقت ذاته حصل من الملك عبد العزيز على احتكار حصري لاستيراد السيارات.

(تراكمت على عبد العزيز ديون لشركة فيلبي عن السيارات التي اشتراها منها. وقد باع فيلبي الملك إجمالاً 1450 سيارة في 6 سنوات. فبلغ الدين 140 ألف جنيه إسترليني. كذلك كانت على المملكة ديون قدرها 17 ألفاً لشركة ماركوني مقابل محطات الإذاعة و30 ألفاً للشركة البولندية مقابل البنادق والرشاشات والذخيرة. سدّد الملك ديونه لفيلبي عام 1943م عندما أخذ يتسلم من الولايات المتحدة مساعدات برنامج الإعارة والتأجير، كما تسلّمت ماركوني ديونها. إلا أن الدين البولندي لم يسدد).

أخذ الأميركيون، وهم يمثلون الحضارة الغربية، يعملون في مجتمع حياته مقننة بالشريعة الإسلامية وبنحو لا يعرف المساومة. خلق لهم ذلك مشاكل منذ الثلاثينيات حتى اليوم. وقد رفض عبد العزيز منح الشركة الحصانة الدبلوماسية، فكان على العاملين فيها أن يتقيّدوا ليس فقط بقوانين بلدانهم، بل وأيضاً بالأنظمة السعودية والشريعة الإسلامية. وإذا خالف أحدهم أحكام الشريعة كان يتعرض للعقاب. وإذا قبض على أميركي يعاقر الخمرة أو الجعة فإنه يعتبر مجرماً.

وكان رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل مكان. يمكن تمييزهم من دشداشاتهم البيضاء والشماغ والعصي الطويلة التي لا يتوانون عن استعمالها عند الضرورة.

إلا أن الأميركيين أنشأوا بالتدريج "جزراً" أو "واحات" اجتماعية خاصة بهم. وهناك يقطّرون الخمر المنزلي سراً من توت العليق مع السكر والماء ويسمونه "صديقي"، ويرقصون على أنغام الموسيقى. كل ذلك محرم خارج المعسكر، ويمكن أن يُعتقلوا بسببه ويزج بهم في السجون وتفرض عليهم غرامات مالية، ثم يُسلمون إلى الشركة لكي تبعدهم عن البلاد فوراً.

كان لا بد من التكيّف مع الذهنية والعادات المحلية.

ورغم تعنّتهم وكبريائهم، أدرك الأميركيون بسرعة أنه لا يجوز ضرب العامل أو الموظف العربي حتى إذا أساء التصرف ولم يخضع للأوامر أو لا يجيد استعمال الأجهزة. فذلك يعتبر إهانة لا تغتفر. وإلى ذلك فهمَ الأميركيون أن عليهم أن يوقفوا العمل كل مرة ليتمكن العمال العرب من أداء الصلاة في مواقيتها. وفي شهر رمضان يتخلّف العمال العرب عن الحضور قبل الظهر في أماكن عملهم مهما فعل أرباب العمل ذوو العيون الزرقاء. كذلك كانت هناك صعوبات في الاتفاق على مفاهيم مثل الاستراحة والعمل ذاته والانضباط. فلم يكن الأميركيون يفهمون كيف يمكن للعامل أن يغيب فترة لأداء أشغاله الخاصة ثم يأتي إلى العمل من دون أن يوضح الأسباب أو يعتذر.

بعد فترة باشر العمل في الشركة الجيولوجي الشهير ماكس ستينك. وقال باحتمال وجود حقول نفطية في أبقيق وأبو حدرية ولا في الدمام وحدها. وكان على حق، فقد اكتشفت هناك أكبر حقول النفط في العالم. إلا أن الآبار الست التي حفرت حتى ذلك الحين لم تعطِ نفطاً بالكميات الكافية تجارياً.

لقد أنفقت "سوكال" أموالاً طائلة، فاضطرت إلى أن تبيع نصف أسهمها إلى شركة "تكساس أويل". وأخيراً، في عام 1938م، انبجست نافورة نفطية عاتية من البئر رقم 7. وكانت إنتاجيتها ألفي برميل في اليوم، فيما كانت المئة برميل فقط في اليوم تعتبر نتيجة رائعة في أوكلاهوما. هكذا بدأ عصر النفط في المملكة العربية السعودية. ظلّت البئر رقم 7 تحلب ذهباً 44 عاماً حتى أكتوبر 1982م. وقد أعطت 32.5 مليون برميل. وبات اكتشاف النفط هناك الخبر الأكثر إثارة، حتى انتبه الإنجليز على أنفسهم وحاولوا شراء الامتياز من جديد. قدموا عرضاً بـ100 ألف جنيه ذهباً و15 ألف جنيه سنوياً للإيجار مقابل امتياز في مناطق أخرى من المملكة. إلا أن عبد الله السليمان لم يفكر حتى في إحالة هذا العرض على الملك.

إلا أننا نعود إلى سيرة بطلنا الأمير فيصل.

الفصل السابع

فيصل وعفت، عفت وفيصل

في يوم خانق من شهر أبريل 1933م، الهواء فيه ساخن لزج حتى قبل أن يحل قيظ الصيف الفظيع، ولجت مرفأ جدة، بوابة الحجاز البحرية، باخرة تقل الحجاج الأتراك. ووصل معهم رجل متواضع اللباس، فارق الشباب من عهد غير بعيد، ومعه عدد من الأطفال وامرأتان ليستا في مقتبل العمر. الحجاج الأتراك كانوا يعتبرونهم من أبناء جلدتهم لأنهم يتكلمون التركية وحدها ومن دون أي لكنة. وتجلب الأنظار من بينهم فتاة ممشوقة القوام لدنة الحركات بشعر عسلي اللون وعينين بنيتين فاتحتين. ولا نفيها حقها إذا قلنا إنها مثال للروعة والجمال. عموماً لم تكن الفتاة تلتفت إلى الآخرين. فهي مشغولة برعاية أخواتها وإخوانها الصغار.

عندما نزل الحجاج إلى الرصيف انعقدت ألسنتهم من الدهشة. فالذي جاء لاستقبال هذه العائلة المتواضعة التي حسبوها تركية هو نائب الملك في الحجاز الأمير فيصل بن عبد العزيز برفقة حرس مسلحين. السيارات متوقفة على الكورنيش وفي كل مكان جمهور حاشد من الفضوليين. رب الأسرة التي وصلت مع الحجاج الأتراك هو إبراهيم أدهم ومعه زوجته آسيا وأبناؤهما الصغار الثلاثة وكذلك ابن آسيا وبنتها من زوجها الأول:

الحسناء عفيفة التي تعرف اختصاراً باسم "عفت"، وشقيقها زكي، ومعهما جوهران عمة عفت. وهم من أقرباء العائلة السعودية المالكة الأبعدين.

هكذا حصل اللقاء الذي غيّر الكثير من جوانب حياة فيصل أميراً وملكاً. بهت فيصل لجمال الفتاة، فشغلت باله وصمّم على الزواج بها. بعث ببرقية إلى والده بهذا الخصوص وحظي بموافقته.

نجل فيصل من عفت، الأمير تركي الفيصل الذي تولى في مطلع القرن الحادي والعشرين مهمات سفير المملكة العربية السعودية لدى لندن، ثم لدى واشنطن، تحدث عن ذلك اللقاء وما أعقبه باسماً وبشعور من الارتياح[1].

أما بالنسبة إلى عفت نفسها فإن قرار الزواج ربما لم يكن سهلاً عليها. إنها مقدمة على الزواج من رجل متزوج، فيما جاءت هي من بلاد أرغم رئيسها مصطفى كمال أتاتورك الأتراك على خلع الطرابيش وحطّم البنية الحقوقية والاجتماعية والثقافية للبلاد بهدف إعادة بنائها وغرس الحداثة الأوروبية في المجتمع من دون تساهل.

من بداية القرن العشرين بدأت في تركيا، بتأثير أوروبا، حركة تغيير في مكانة المرأة. إلا أن الأمر اقتصر آنذاك على بضعة أصوات تعالت من دون أن تتمكن من تغيير شيء.

وجاءت الحرب العالمية الأولى لتغير الوضع جذرياً في تركيا فضلاً عن أوروبا. فقد جرى تجنيد معظم

الرجال واحتاجت الدولة إلى الأيدي العاملة النسائية. صارت النساء يعملن في المعامل وفي البنوك والدوائر الرسمية وفي المتاجر وفي مؤسسات الخدمة بمؤخرة الجيش وفي المستشفيات. وكان ذلك يعني أنهن ملزمات بخلع الحجاب والتخلي عن التقاليد القديمة. وتحولت ثياب المرأة المسلمة إلى فساتين أوروبية.

وسمح بقبول البنات في الكليات التجارية من فترة الحرب العالمية الأولى. وفي العشرينيات ظهرت طالبات في صفوف كلية العلوم الإنسانية بجامعة إسطنبول. وسمح للنساء بالحضور على متن عبّارات البوسفور، بينما كنّ في السابق يلازمن حجرات تلك العبّارات ولا يسمح لهن بالظهور على المتن، كما سمح لهن بركوب حافلات الترام وعربات القطارات نفسها التي يركبها الرجال.

في إحدى خطبه، انتقد مصطفى كمال الحجاب وقال:

> إنه يسبّب للمرأة آلاماً ومتاعب كبيرة في الحر. يا رجال، كل ذلك بسبب أنانيتكم. فلا تنسوا أن لدى النساء عن الأخلاق نفس المفاهيم التي لدينا نحن الرجال.

وطالب مصطفى كمال "أمهات وأخوات الشعب المتحضّر بأن يتصرفن بالشكل اللائق". وأضاف: "إن عادة حجب وجه المرأة تجعل أمتنا أضحوكة للناس". وقرر أن يطلق حركة تحرير المرأة على الطراز

الأوروبي. فحصلت النساء على حق التصويت وحق الانتخاب في المجالس البلدية والبرلمان.

وبات إقرار القوانين المدنية التركية على غرار القوانين السويسرية الأداة الحقوقية الرئيسة لتغيير التقاليد العائلية القديمة. فقد منع القانون تعدد الزوجات ومنح المرأة حق الطلاق والمشاركة في دعاوى الزواج والطلاق وأزال الفوارق الحقوقية بين الرجال والنساء.

كانت الإصلاحات في تركيا تناقش في المدرسة وفي العائلة. وقد تلمّست عفت الفتية تلك الأجواء. ولكن كتب عليها أن تأتي إلى بلد إصلاحات أتاتورك محرّمة فيه، والتقاليد الإسلامية تسوده بشكلها الخالص. على أي حال، وافقت عفت على الزواج بفيصل. ولو كانوا قد سألوها رأيها، فمن الناحية الشكلية كانت مصالح الأسرة والقبيلة، على أي حال، فوق كل الاعتبارات.

لكي نعرف أصول عائلة عفت وجذورها علينا أن نعود إلى نجد قبل مئة عام على وجه التقريب. آنذاك سقطت الدولة السعودية الأولى التي شملت الجزيرة العربية كلها تقريباً تحت ضربات عساكر محمد علي باشا الكبير والي مصر، لكنها نشأت من جديد، وبمساحة أصغر بكثير، كدولة تابعة لمصر.

في 1841-1843م حكم الرياض عبد الله بن ثنيان، وهو من فرع ثانوي من آل سعود، وأحد أحفاد شقيق مؤسس العائلة السعودية. كان الأمير فيصل بن تركي ولي العهد الشرعي المعترف به من قبل شعب نجد، محتجزاً في مصر بصفة أسير شرف. إلا أن محمد علي،

الباشا المصلح الذي حول مصر في الواقع إلى دولة مستقلة، مني بهزيمة في الاشتباكات مع الدول الأوروبية في 1840-1841، واضطر إلى الاعتراف بالسيادة الرسمية للسلطان العثماني والتخلي عن معظم ممتلكاته في آسيا، بما فيها الجزيرة العربية. آنذاك "فرّ" فيصل من مصر، أو "ساعده" المصريون على الفرار منها، لكي يحول، بقوته وعزيمته، دون فرض السيطرة العثمانية على نجد.

يقول الأمير تركي نجل الملك فيصل:

> عاد فيصل بن تركي، لكن عبد الله بن ثنيان رفض الخضوع له. وقامت معركة بينهما هزم فيها عبد الله وأودع السجن ثم توفي هناك. في يوم وفاته ولدت إحدى زوجاته طفلاً سمّوه على اسمه. وهو عبد الله بن عبد الله بن ثنيان الذي سافر إلى الهند ليمارس التجارة بعدما كبر. وصل إلى البحرين ومنها إلى بومباي، وهناك أدرج المسؤول البريطاني اسمه في قائمة القادمين، ثم اتصل بممثل الإمبراطورية العثمانية في الهند وأبلغه أن عبد الله بن ثنيان وصل من الرياض. "فماذا نفعل به؟". لقد خلط المسؤول البريطاني بينه وبين والده. فطالب الأتراك بإرساله مخفوراً إلى إسطنبول. وعندما وصل إليها واتضح انه ابن عبد الله، حاكم نجد السابق،

تركه العثمانيون في عاصمتهم في حالة لا هو ضيف ولا هو أسير[2].

كان من عادة العثمانيين احتجاز أتباعهم الأسرى أو منافسيهم في عاصمة الإمبراطورية "لتأهيلهم" ثم إرسالهم عند الضرورة ليحكموا في الولايات البعيدة التابعة لإمبراطوريتهم. خصص السلطان لعبد لله راتباً معقولاً وزوّجه من إحدى محظياته، ويقال إنها شركسية أو جورجية، فولدت له خمسة أبناء وبنتاً واحدة اسمها جوهران. وكان أحد أبنائه، وهو أحمد بن عبد الله بن ثنيان، قد سمع بانتصارات عبد العزيز، فجاء إلى الرياض عن طريق الكويت والبحرين وصار من أنصاره المخلصين. وهو الذي رافق الفتى فيصل بن عبد العزيز في رحلته إلى إنجلترا سنة 1919م. وقد وافاه الأجل في الرياض، وهو في مقتبل العمر نسبياً، سنة 1921م، بعد فترة وجيزة من عودته من بريطانيا. في خلال تلك الجولة الطويلة في ربوع أوروبا حدث الفتى الأمير فيصل عن عائلته. ولعل فيصل كان يعرف أن محمد بن عبد الله، شقيق أحمد، تزوج من الشركسية آسيا وأن لديه منها أطفالاً. إلا أن مصير عائلة عبد الله بن ثنيان الكبيرة بات متعثراً. كان محمد بن عبد الله، حسب إحدى الروايات، طبيباً، أو موظفاً في السلك الدبلوماسي في إسطنبول، حسب رواية أخرى، أو أنه كان يجمع بين المهنتين. إلا أنه قتل أثناء الحرب. تقول الرواية إنه قتل عندما كان ضمن الجيش العثماني في كردستان إبان الحرب العالمية الأولى، فيما تقول رواية

أخرى إنه قتل أثناء حرب مصطفى كمال ضد اليونان. ولعل الرواية الثانية أقرب إلى الصحة، لأنها وردت على لسان تركي الفيصل المدير السابق للاستخبارات السعودية الذي يفترض بحكم المهنة أن يكون دقيقاً في ذكر الوقائع.

بعد وفاة زوجها بقيت آسيا مع ابنتها البكر عفت وابنها زكي. وتزوجت مرة أخرى من المدعو إبراهيم أحمد، وهو ضابط تركي من الأناضول، وولدت له ثلاثة أطفال. عاشت العائلة في ظروف مادية صعبة للغاية، ولم تكن تتلقى أيّ معونة من الحكومة التركية. صحيح أن عفت تمكنت من الالتحاق بالمدرسة الثانوية وتخرّجت فيها، فتعلمت قليلاً من الإنجليزية والفرنسية، إلا أن فقر العائلة كان بادياً للعيان. فلم يكن لدى الصبيّة عفت سوى فستانين وزوجين من الأحذية. وقد اضطرت العائلة إلى ترك قصر الضيافة بعد وفاة جدها عبد الله بن ثنيان. ثم إن راتب المرحوم والد عفت، وراتب زوج أمها أيضاً، كانا متواضعين للغاية.

فما العمل؟ بحثت العائلة أمور مستقبلها. وكانت قد سمعت بأن قريبها الأبعد عبد العزيز سلطان نجد صار ملكاً على الحجاز. وكانت للعائلة ملكية عقارية بسيطة في منطقة الطائف. أفراد العائلة يعرفون أن أحمد مضى للخدمة عند عبد العزيز وارتقى منزلة رفيعة، إلا أنه انتقل إلى جوار ربه. وفي عام 1928م رأت جوهرة، عمة عفت، أن تحرر رسالة إلى عبد العزيز تطلب فيها مساعدة العائلة في العودة إلى موطن الأجداد. ورد

الملك من خلال ممثله في إسطنبول "تعالوا". ولكن كيف؟ السفر من تركيا مشكلة رغم السماح بالحج. واستمرت المكاتبات حتى عام 1932م.

في ذلك العام زار الأمير فيصل تركيا بصفته وزيراً للخارجية والتقى كمال أتاتورك. كان الهدف الأول من زيارته هو الحصول على قرض، لكنه لم يتحقق. وفيصل يعرف بالطبع أن أقرباءه يرغبون في العودة إلى العربية السعودية، فاتفق في شأن عودتهم. وخلافاً للرواية الشائعة، لم يلتقِ فيصل عفت في إسطنبول، فقد رآها لأول مرة في جدة. إلا أن رحيل بعض أفراد عائلة ابن ثنيان من تركيا قد اتفق عليه، فتوجهوا إلى الحجاز من الناحية الرسمية بصفة حجاج البيت الحرام.

لا يسعنا أن نحكم على معارف الفتاة التركية عفت ومعتقداتها إلا بطريقة غير مباشرة. لقد ترعرعت في عائلة متدينة بالطبع، إلا أنها لا بد أن تكون عارفة بما كان يجري في تركيا في تلك السنوات.

عندما وصلت عفت إلى الحجاز لم تكن تتكلم العربية إطلاقاً، فيما أخذ فيصل يتعلم التركية لكي يتفاهم بطريقة ما مع زوجته الفتية. أما هي فقد امتلكت ناصية العربية بسرعة، على الرغم من اللكنة الخفيفة التي رافقتها حتى آخر أيامها.

كانت حياة فيصل وعفت المشتركة منسجمة ومتوائمة إلى أبعد الحدود. وقد أنجبت تسعة أطفال. إلا أن الأمر لا يقتصر على الأبناء. فمن النادر أن تجد شخصية من الشخصيات العالمية البارزة موفّقة تماماً

من حيث الزوجات اللواتي يشاطرنهم همومهم وأعمالهم ومشاعرهم. فإذا ألقينا نظرة على مصير كبار السياسيين والكتاب والرسامين والملحنين، نجد أن الحالات التي كانت الزوجات فيها شخصيات مميزة نوعاً ما قد شهدت على الأغلب مشاكل كثيرة ومطالب مبالغاً فيها وانفعالات وخلافات وطلاقاً. أما فيصل فقد حالفه الحظ. لقد وجد سبيلاً إلى التفاهم التام مع زوجته. تلك كانت هبة من الأقدار. لا أحد في الجزيرة العربية يسمّي زوجات الملوك ملكات أبداً. عفت هي الاستثناء الوحيد من القاعدة. لقد صارت ملكة بالفعل، وفيصل نفسه كان يعتبرها ملكة.

طفلتهما البكر هي سارة. وفيصل بالطبع، كعربي قح، يريد صبياً لا بنتاً. فجاء الوليد الثاني صبياً. شهد محمد النور سنة 1937م. وكانت فرحة فيصل بهذا النبأ عظيمة إلى درجة جعلته ينثر الذهب بالمعنى الحرفي للكلمة على الرسول الذي بشّره بالنبأ. ثم أنجبت عفت أطفالها الآخرين، لطيفة، ثم سعود وعبد الرحمن وبندر وتركي، ثم لولوة وهيفاء.

كتبت ماريانا علي رضا، الأميركية المتزوجة من الدبلوماسي السعودي علي رضا، أن الأمير فيصل كان يحب الأطفال ويعرف ساعات رضاعة الوليد ومدة نومه وفتراته ومتى تنبت أولى أسنانه ومتى يمكن فطامه.

تقول سارة الفيصل، كريمة الملك فيصل:

الأميرة الجوهرة هي بنت سعود الكبير، وأمها نورة أخت الملك عبد العزيز. الوالد

> الملك فيصل تزوج الجوهرة بعد أن تزوج الوالدة أمنا. مشاعل ابنة الأميرة الجوهرة. وكانت الجوهرة آخر زوجة للملك بعد الوالدة.

هذا ما تقوله سارة، إلا أن بندر الفيصل يقول إن زواج الوالد بالجوهرة تم قبل لقائه بعفت[3].

وقد ظل الملك فيصل لبعض الوقت مع زوجته هيا بنت تركي إلى جانب عفت. وقد ولدت له ثلاثة أطفال، هم خالد وسعد ونورة.

يقول بندر الفيصل: "الوالدة هيا بنت ابن تركي أمنا الثانية. وكما عرفت أمي فهي أمي أيضاً. لم نكن نعيش معاً. كانت في بيتها، لكنها أمنا معاً". وعن الوالدة عفت يقول الأمير بندر:

> كانت تحبّ الأطفال الصغار حبّاً جمّاً، وتجلس معهم الساعات الطوال وتعتني بلباسهم كيلا يضايقهم في قيظ الصيف. كانت الوالدة تسهر علينا وتراقب حتى مربيات أطفالي. المربيات من العبيد ينظفن البيت وغيره، وهي كانت المسؤولة الأساسية تتابع عملهن. ويبدأ يومها من الصباح الباكر، وتجلس مع الوالد عندما يعود في الحادية عشرة أو الثانية عشرة ليلاً. وكانت تأتي أقرب العوائل للوالدة. وكانت تسهر على كمال أدهم. وهي أكبر منه سناً. وكانت مربيته. كان كمال يأتي وينام عند أمي

والملك فيصل. وهو بمثابة ابن لهما. وحتى زكي أخوه الصغير كان عند الوالدة وهي حاميتهم[4].

كان الأولاد نادراً ما يرون والدهم. إلا أن عفت اتّبعت قاعدة عندما كان فيصل نائباً للملك في الحجاز، وهي أن تتناول العائلة كلها طعام الغداء معه في أغلب الأحيان. أما العشاء، فكان فيصل يتناوله في مكتبه عادة ولا يأتي إلى البيت ليتعشّى. والأولاد يتردّدون عليه بعد العشاء إذا لم يكن متأخراً جداً، فيقضون الأمسية معه بارتياح.

إلا أن ذلك الترتيب يتغيّر يوم الجمعة. فهو يوم عطلة. يوم عائلي، على الرغم من أن فيصل يعمل غالباً حتى في ذلك اليوم.

وقد عرفت عفت بمشاركتها النشيطة في تعليم البنات في المملكة. إلا أن "مشروعها" التعليمي الأول، المشترك مع فيصل، كان مدرسة للبنين. فعندما بلغ محمد، الابن البكر لفيصل من عفت، سن الدراسة، فتحت عفت في سنة 1942م مدرسة نموذجية ذات قسم داخلي في الطائف. ولم يكن هناك في تلك الفترة أساتذة مؤهلون من بين السعوديين، فاستقدموا أساتذة مصريين للتدريس. وفي ما بعد استخدمت مناهج تعليمية سعودية، لكنها قائمة على المناهج المصرية على أي حال.

تكوّنت المجموعة الأولى من تلاميذ المدرسة من أولاد العائلة المالكة والأمير محمد بالطبع، ومن أبناء

عوائل السديري وعوائل باقي أعيان البلد. وكانت مهمة المدرسة هي غرس طرق التعليم العصرية برفق واعتدال وبمراعاة خصوصية المجتمع. فكانت توفر إلى جانب تدريس المواد الدينية تعليم الحساب والجغرافيا واللغات الأجنبية. وأعطت رعاية العائلة المالكة المدرسة وزناً وأكسبتها هالة من الرزانة والثقة. وبات الكثيرون من المتخرّجين فيها في ما بعد وزراء ومسؤولين كباراً في الدولة.

المدرسة النموذجية التي افتتحتها عفت نقلت إلى جدة بتسمية جديدة وباتت بالفعل نموذجاً للمدارس الأخرى الحكومية والأهلية في المدن الكبيرة أولاً، ثم في سائر أرجاء البلاد.

وعندما ازدادت عائدات الدولة، جرى في سنة 1954م تحويل مديرية المعارف إلى وزارة أوكلت إلى الأمير فهد بن عبد العزيز، الأخ الأصغر غير الشقيق للأمير فيصل ونصيره وصديقه في الحقيقة. وعندها أخذ تعليم البنين العصري ينتشر في كل أرجاء المملكة، فجاءت البذور التي غرستها عفت وفيصل لتعطي أكلها.

كان التلاميذ يتعلمون في المدرسة النموذجية في سن السادسة، ويقيمون في المدرسة ذاتها، ما يعني أن التعليم الابتدائي، فضلاً عن التعليم العالي، كان يجري في معزل عن العائلة.

لم تكن عفت تزور أولادها في المدرسة. ونظام المدرسة لا يسمح للتلاميذ بأكثر من "إجازة" واحدة في الشهر، على الرغم من أن المبنى لا يبعد عن قصر فيصل

سوى مئتي متر. إلا أن التلاميذ كانوا يقضون العطلة الصيفية في المنزل. عندما تولى فيصل مهمات نائب الملك في الحجاز، كان يقيم في مكة شتاءً وفي الطائف صيفاً.

تقول سارة الفيصل عن والدها:

> كان حنوناً جداً على الأطفال. ورغم مشاغله كان يرعى أختي الأصغر لطيفة ويلبّسها البجاما في الليل ويسهر عليها. وكان يحب الآخرين أيضاً، جميع الأطفال. كانت حنيّته متميزة. لم تكن الوالدة عفت طويلة ولا بدينة. كانت نحيفة. لمّا كبرت صارت مكتنزة. ثم إنها ولدت 12 طفلاً. وهي امرأة رائعة، قصتها أروع من أي قصة أخرى. كانت خجولة جداً. بابا، الملك فيصل، يحكي شيئاً على سبيل المثال وهي تضحك حياءً وخجلاً. كانت شخصيتها قوية وشخصيته هو أيضاً قوية. وكانا متفاهمين على أغلب الأمور. كانت الله يرحمها، محبة للبلد وكانت درجة الإخلاص للبلد هي التي جمعت بينهما. وكان عندهما مشروع مع بعض. هي بطريقتها، تساند، وهو يبني. الوالد كان مقتنعاً ولا أحد يستطيع أن يضغط عليه، لكنه وجد في الوالدة الإنسان الذي يساعده[5].

"المشروع" الذي تتحدث عنه الأميرة سارة لا علاقة له بالسياسة الداخلية ولا الخارجية ولا بالشؤون

العسكرية. أهم شيء فيه هو تطوير التعليم، وخصوصاً النسوي، في المملكة.

كانت أمام الأمير فيصل نائب الملك في الحجاز ثم رئيس الوزراء ثم ملك العربية السعودية بأسرها مهمة بدت مستعصية، وهي تأمين التجديد العصري والتصنيع والتطور الثقافي في البلاد من دون مساس بطابعها الفكري والاجتماعي والديني، وعموماً طابعها الحضاري المميز، بل وبالعمل من أجل تمتين طبيعتها هذه وتطويرها. وكانت الأسرة من أسس مجتمع الجزيرة العربية. وفي هذه الأسرة تشغل المرأة مكانة خصوصية مميزة كما في سائر الأقطار الإسلامية. إلا أنها في المملكة مميزة جداً، وبلا تساهل.

ويستدرك مؤلف الكتاب، فيؤكد منذ البداية أنه يطرح هنا رأياً في الموضوع من موقع شخص أجنبي يتحاشى بأكبر قدر ممكن تقديم تقويمات ووصفات قد تُدخله في جدال لا يرغب فيه، لا مع العلماء المحافظين ولا مع أنصار "تحرير" المرأة.

مكانة المرأة الاجتماعية والأخلاقية في المجتمع السعودي تقوم على عمودين: العفة وصيانة البكارة حتى عقد القران، والإخلاص للزوج بعده. وتعتبر خصال المرأة هذه من المعايير الرفيعة للسلوك الاجتماعي عند مجتمعات وحضارات أخرى مثل الكاثوليك والأرثوذكس. إلا أنها في الأقطار الإسلامية فقط تتخذ شكل الأوامر القطعية، فيما تتخذ في المملكة العربية السعودية صيغة لا مساومة عليها إطلاقاً. وترتبط بها

مفاهيم الشرف والسِتر وكرامة الأسرة، وبعكسها العار والشنار والوضاعة. ولذا لن تجد هنا مواقف كالتي تتحدث عنها الروايات والملاحم الكلاسيكية في البلدان النصرانية، من "تريستان وإيزولدا" حتى "مدام بوفاري"، ومن "آنا كارينينا" لتولستوي حتى "وسام آنا" لتشيخوف. وليس في الإمكان مجرد تصور مشاهد في الظروف السعودية كالمشاهد التي نراها في غراميات الأميرال نلسون وليدي هاملتون أو المغامرات الليلية في الأغنية الروسية: "التاجر الفاجر يمضي إلى السوق". فلو كانت الليدي هاملتون في السعودية لرجموها بالحجارة على رؤوس الأشهاد. ولو كانت هناك تلك الفتاة التي باتت الليل مع التاجر الفاجر وعادت إلى منزلها بعبّ مليء بالنقود لأخذها أبوها وإخوتها إلى البادية وقطعوا عنقها برضا أمها واستحسان الآخرين. ولا مجال هنا طبعاً للكلام على العلاقة بين أبطال رواية "الدون الهادئ" لميخائيل شولوخوف، ونعني "ثلاثي" غريغوري - أكسينيا - ستيبان، رجلين وامرأة واحدة، والعياذ بالله.

عفّة الفتاة والزوجة في رأي العلماء والمجتمع الإسلامي تتعرض لخطرين، أحدهما الغرائز الجنسية والأنثوية القوية التي تعجز المرأة عن السيطرة عليها وترويضها، حيث تعوزها الإرادة وتغيب عنها الموانع الذهنية والأخلاقية ورجاحة العقل اللازمة في مثل هذه الحالات. والخطر الثاني هو القدرة الجنسية عند الذكر أو الرجولة التي تحظى بتقدير رفيع في المجتمع،

وتتجسد شرعاً في الزواج المبكر وإنجاب المزيد من الأولاد والزواج من أكثر من واحدة. ولا يخامر أحد الشك في أن هذه الخصال كانت ضرورية لتكاثر السكان في مجتمع تقليدي نسبة وفيات الأطفال فيه عالية جداً.

أما في الظروف الراهنة، فإن حرية الخطاب الاجتماعي مع المرأة خارج العائلة تعني في نظر السعوديين سهولة إغوائها من قبل الرجل. وليس صدفة أن يعتبر الكثيرون من الرجال السعوديين الحفلات والأمسيات التي تحضرها النساء الأوروبيات مقدمة لعلاقة جنسية.

لحماية المرأة من هذين الخطرين، من نزواتها العاطفية ومن عدوانية الرجل الجنسية، أقام المجتمع الإسلامي حاجزين، الأول هو الثياب التقليدية التي تضم في الجزيرة العربية الحجاب والفستان الطليق الفضفاض الذي يغطي بدن المرأة بحيث لا يرى منها سوى رسغ اليد وراحة القدم، مع السماح بالسفور ليس فقط للمسيحيات، بل وللمسلمات الأجنبيات. والحاجز الثاني هو فصل المرأة عن الرجل والتمييز بين الجنسين في الوقت ذاته. فالنساء يخاطبن الرجال إذا كانوا من عوائلهن فقط. وكل أعمالهن محصورة في الأمور المنزلية وحدها.

(ثمة تساؤلات تطرح نفسها، على سبيل المثال، من أين اغترف الشعراء السعوديون الإلهام عندما تغنوا بجمال المرأة الساحر إذا لم يكونوا قد رأوا حتى وجوه

زوجاتهم، إلا بعد الزفاف؟ لعل هذا السؤال في غنى عن الجواب. ولكن فلنأخذ تنمية الاقتصاد المعاصر. فهي تتطلب مشاركة المرأة بالذات في عدد من ميادين الإنتاج والخدمات، الأمر الذي ظل متعذراً بالنسبة إلى السعوديات حتى حلول القرن الحادي والعشرين، وجعل المملكة العربية السعودية تستقدم ملايين إضافية من الأجانب لسد هذه الثغرة).

القول بأن المسلمة "مظلومة" و"محرومة من الحقوق" أبعد ما يكون عن الدقة والصحة. فالمسألة على العكس تماماً. حقوقها مرسومة في الشريعة بالقدر اللازم من الدقة والتحديد. وفقاً للشريعة، من حق الرجل أن ينكح ما طاب له من النساء، مثنىً وثلاثَ ورباعَ، على أن يعامل كل واحدة منهن بالتساوي. جاء ذلك في القرآن وفي سنّة الرسول. وفي الوقت الحاضر ظاهرة الزوجات الأربع نادرة للغاية في المملكة العربية السعودية، على الرغم مما لوحظ في حينه من أن عمال شركة أرامكو السعوديين عندما باتوا يكسبون أكثر فإن أول ما أقدموا عليه هو الزواج من امرأة ثانية. وفي الحقيقة فإن السواد الأعظم من الرجال في المملكة يتزوجون امرأة واحدة لأسباب واعتبارات مادية ونفسية.

شروط الطلاق، شأن شروط الزواج، تضبطها الشريعة على أساس القرآن والحديث الشريف. فيكفي الرجل أن يقول طالق بالثلاث أمام شاهدين حتى يعتبر الطلاق قائماً وتتخذ الإجراءات اللازمة من دون مراجعة

المحكمة. وقبل ذلك يحاول أقرباء الزوج والزوجة إصلاح ذات البين. وإذا لم يفِ الرجل بشروط القرآن، يحق للمرأة أن تطلب الطلاق. وإذا لم ينزل الزوج عند طلبها ولم يقل "طالق بالثلاث" يحق لها مقاضاته. وفي هذه الحالة يتعين عليها أن تثبت أن الزوج لم يفِ بشروط القرآن وتحضر شهود إثبات. بالطبع ليس تقديم الأدلة الثبوتية إلى المحكمة بالأمر اليسير. فمن الصعب على المرأة أن تحصل على الطلاق إذا كان الزوج ينفذ كل الالتزامات وفقاً للشريعة. وفي حال الطلاق وفقاً للسنّة يعود أولاد المطلقة إلى والدهم عندما يبلغون السابعة من العمر وتعود البنات إليه عندما يبلغن التاسعة من العمر، ما عدا الحالات التي يعجز فيها الوالد عن إعالة أولاده. عندما طلّق الدبلوماسي السعودي علي رضا زوجته الأميركية ماريانا، تمكنت من أن تخطف أربعة من أولاده وتذهب بهم إلى الولايات المتحدة. وهو أمر مطابق للقوانين والأخلاق الأميركية، لكنه غير جائز من وجهة نظر الشريعة الإسلامية والأخلاق السعودية ويعتبر فضيحة ما بعدها فضيحة.

شهادة المرأة في المحكمة نصف شهادة الرجل، وللذكر من التركة مثل حظ الأنثيين. إلا أن المسلمة تستطيع أن تحتفظ بلقبها بعد الزواج، وتحتفظ بمداخيلها وعائداتها، وبإمكان التصرف بأموالها من دون تدخل من الزوج.

ولا بد لكل باحث منصف من أن يعترف ليس فقط بسعي الرسول إلى تحسين الظروف الاجتماعية لحياة

المرأة في ذلك الحين، بل وبالكثير الذي حققه في هذا المجال. ومن ذلك تحريم وأد البنات وتحديد تعدد الزوجات بأربع مشروطة ورعاية الأرامل والأيتام واستحداث شروط القران وتأمين المهر للعروس، وليس للعريس كما كان في روسيا مثلاً، والاعتراف بحق المرأة في الميراث. وتلك إنجازات اجتماعية بالغة الأهمية وكبيرة الأثر بالنسبة إلى زمانها.

ولعل المسلمات حتى القرن التاسع عشر، وربما حتى القرن العشرين، كنّ من الناحية الحقوقية محميات أفضل من أخواتهن في العديد من باقي بلدان العالم.

فالضيف الذي يزور المملكة العربية السعودية يرى أن المؤشرات الظاهرية للمكانة الاجتماعية السابقة للمرأة لا تزال محفوظة. أول ما يلفت نظر السائح هو ما يراه فوق الحجاب من سماعة مسجل الموسيقى والهاتف المحمول، وفي ما عدا ذلك يبدو له كل شيء باقياً على حاله.

إلا أن مؤشرات الماضي تخفي التبدلات العميقة التي أخذ فيصل وعفت يغرسانها في المجتمع السعودي بحذر وبالتدريج وبنحو موزون.

كان فيصل مطّلعاً بالطبع على التحول الجذري في قوانين الأسرة وأعرافها، والذي حصل في تركيا في العشرينيات والثلاثينيات، إلا أن تلك الطرق القطعية والحدية غير مقبولة بالنسبة إليه، لكونه رجلاً متديناً عميق الإيمان، متمسكاً بالخطوات التدريجية في السياسة. وهي يمكن أن تضعف تقيده بالشريعة، فضلاً

عن أنها يمكن أن تزعزع الاستقرار الاجتماعي في بلد متمسك بالفقه الحنبلي، والتقاليد فيه متينة راسخة.

إلا أن فيصل وعفت كانا يعرفان ما لا يعرفه، بل وما لا يفهمه الآخرون من النخبة السعودية. فمن دون التعليم للجميع، وللمرأة أيضاً، لا يمكن تطوير البلاد وتحديثها وتحقيق التبدلات اللازمة فيها. وما كان ذلك يعني بالطبع أن يؤدي توفير التعليم إلى التبدلات المنشودة فوراً، إلا أن غيابه يعني بالتأكيد شطب فرصة التطور بحد ذاتها.

لقد تميزت عائلة فيصل كثيراً عن باقي أفراد العائلة المالكة من حيث مستوى تعليم الأولاد، الأمر الذي ساعدهم في ما بعد على ولوج النسق الأعلى من النخبة الحاكمة السعودية والاحتفاظ بمواقعهم على ذلك المستوى بعد وفاة الوالد رحمه الله.

الوحيد الذي لم يحالفه الحظ في التحصيل العلمي المنتظم في الخارج هو عبد الله، الابن البكر لفيصل من زوجته الأولى، إلا أن معلمين خصوصيين من السعوديين كانوا قد أشرفوا على تعليمه في الطفولة. ورغم ذلك تولى مهمات وزير الداخلية، ثم وزير الصحة، وأحال نفسه على المعاش ومارس الأعمال بنجاح وكرس أوقات فراغه للشعر. ومن الإشارات على مستواه الإبداعي أن أم كلثوم غنّت "من أجل عينيك" من نظمه، كما غنّى له عبد الحليم حافظ قصيدتين.

أما محمد فقد التحق بمدرسة هان وقسمها الداخلي بمدينة برينستون في ولاية نيوجيرسي، ثم تعلم في

أكاديمية لورنس فيل المجاورة، وهي مدرسة أهلية تعد الطلبة لدخول الكلية. وتخرّج في تلك المدرسة سنة 1958م. وفي سنة 1962م تخرّج في كلية مينلو في كاليفورنيا بدرجة بكالوريوس، وعمل في مؤسسة النقد السعودية وفي وزارة الزراعة، ثم ترأس دار المال الإسلامي.

في مدرسة هان درس أيضاً خالد، نجل فيصل من زوجته هيا. ثم درس في جامعة برينستون، ومن هناك انتقل إلى أوكسفورد للدراسة، وفي ما بعد صار أميراً لمنطقة عسير. وحالياً هو أمير منطقة مكة المكرمة. والأمير خالد الفيصل شاعر ورسام معروف، وقد ترأس مؤسسة الملك فيصل الخيرية.

سعود، نجل فيصل من عفت، درس كذلك في مدرسة هان، ودخل جامعة برينستون وحصل منها على شهادة جامعية في الاقتصاد، ثم درس عاماً واحداً في جامعة لندن، وعمل كثيراً في وزارة النفط، ثم تولى مهمات وزير الخارجية.

وتخرّج عبد الرحمن أيضاً في مدرسة هان، ثم التحق بكلية ساندهيرست العسكرية البريطانية وتخرج فيها سنة 1963م. وكان في رتبة قائد قوات الدبابات السعودية قبل أن يتسرح من الجيش.

الأمير سعد الفيصل، شقيق الأمير خالد من الوالدة هيا، درس في جامعتي برينستون وكمبريدج، وتولى منصب نائب رئيس شركة بترومين السعودية، ثم أحال نفسه على المعاش.

والتحق الأمير بندر الفيصل بكلية ويتيير في كاليفورنيا بعد أن تخرّج في مدرسة هان، ثم انتقل إلى مدرسة الطيران في إنجلترا. وخدم في القوة الجوية السعودية.

أما تركي الابن الأصغر لفيصل من عفت، فقد دخل أكاديمية لورنس فيل بعد مدرسة هان، ثم أمضى عاماً في برينستون انتقل بعده إلى جامعة نيويورك، ثم إلى جامعة جورج تاون في واشنطن. تسنّم منصب رئيس الاستخبارات العامة، ثم سفير المملكة في لندن وإيرلندة، ثم سفيرها في واشنطن.

بنات فيصل درسن أيضاً في مدارس في الخارج، وخصوصاً في سويسرا.

ومعروف أن الإسلام لا ينكر أهمية التعليم، بما فيه تعليم البنات. بالعكس، فقد جاء في الحديث الشريف أن التعليم واجب على كل مسلم، من ذكر وأنثى. فاطلب العلم ولو في الصين!

كانت العربية السعودية في حاجة إلى نظام تعليمي خاص بها، إلا أنها لم تكن آنذاك تمتلك المال اللازم ولا كوادر المدرسين. وكان فيصل يدرك أكثر من غيره أن الضرورة تقتضي توفير مدارس ذات توجه تقني. وعفت أيضاً تفهم هذه الضرورة. ففي إحدى مقابلاتها الصحافية النادرة قالت إن فيصل بحث هذه المسألة مع الوالد الملك عبد العزيز. وكانوا ثلاثتهم على اعتقاد راسخ بأن المملكة تواجه تحديات الصحوة والانفتاح على وقائع القرن العشرين بعد فترة طويلة من

"السبات". إلا أن عبد العزيز وفيصل وعفت كانوا يتصورون أن صحوة الأمة، كصحوة الفرد، تتطلب تعاملاً حذراً من دون استعجال. وكانوا يعتقدون أن تحويل المجتمع تدريجاً، وبالسياق الطبيعي، أفضل من تسريع التبدلات، لأنها يمكن أن تؤدي إلى رد فعل رافض.

كان فيصل على يقين بأن عملية التجديد يجب أن تدخل حياة المجتمع جنباً إلى جنب مع التقاليد، من دون رفض لتلك التقاليد. فالتبدلات البطيئة والناضجة أكثر ثمرة من التغييرات العاجلة التي لا سند لها في أذهان الناس ونفوسهم. والناس لا يتقبلون ما يفرض عليهم حتى وإن كان خيراً.

وترى عفت أن فيصل يمتلك حدساً وتفهماً فطرياً لذهنية الشعب في المملكة العربية السعودية. فهو يتلمس ردود فعله على محاولات الإفراط والاستعجال في استخدام المستحدثات الغربية في مجال التعليم وفي سائر ميادين الحياة. كان فيصل وعفت كلاهما يعتقدان أن الشعب يتحلى بشعور طبيعي من الشكوك السليمة التي تفضي إلى ردود فعل عكسية على الدعاية السافرة للتبدلات والتغييرات. ولا يمكن تقبل المستجدات إلا بعد الاقتناع بمزاياها في التطبيق العملي.

وأوردت عفت في مقابلتها الصحافية تلك مثالاً على ردّ الفعل الأوّلي على المنح الدراسية في الخارج، وهي ضرورية، خاصة لعدم توافر المؤسسات التعليمية العالية

في البلاد. تقول عفت إن أمهات كثيرات طلبن منها، والدموع تترقرق في عيونهن، أن تتشفع لدى فيصل لكي يلغي تلك المنح. كان الناس يخافون من تعرض الشباب السعودي في الخارج للفساد الخلقي، ويخشون انقطاعهم عن العائلة ونسيانهم التقاليد الثقافية السعودية. وللمناسبة، فإن الملك عبد العزيز كان أيضاً من هذا الرأي، يخشى إرسال أولاده للدراسة في الخارج. ولذا فقد بعث فيصل وعفت ابنهما محمد إلى أميركا في سنة 1952 من دون أن يبلغا الملك الوالد، على أمل ألا ينتبه عبد العزيز الذي بلغ من العمر عتياً إلى غياب واحد من عشرات من أحفاده.

وعندما بدأ أوائل المتخرّجين بالعودة إلى الوطن واقتنع الجميع بالحاجة إلى المعارف التي حصلوا عليها ولم تؤثر في تمسكهم بالقيم التقليدية، رأى الكثيرون بأم العين منافع تلقّي التعليم العالي في الخارج أيضاً. أولئك الأمهات أنفسهن صرن يطلبن من عفت مساعدة أبنائهن في الحصول على بعثات ومنح دراسية في الدول الأخرى.

وقد ساعد فهم نفسية المجتمع التقليدي بعمق كلاً من فيصل وعفت على وضع تكتيك صحيح للتغييرات. وكانت القدوة الحسنة هي العنصر الأساس في ذلك التكتيك. فقد كلف فيصل عقيلته بتنفيذ مشاريعه على أساس تجريبي من دون اللجوء إلى الدعاية والإعلان. فهما يمكن أن يثيرا اعتراضاً من جانب بعض السكان.

وجاءت البداية موفّقة من خلال تأسيس المدرسة النموذجية للبنين.

ولكن ما العمل بخصوص تعليم البنات؟ لقد وضعت عفت، بكل دقة وتأمل، أشكال هذا التعليم ومناهجه على نحو لا يثير مقاومة واعتراضات شديدة. كان الأمير فهد وزيراً للمعارف، وكان مستعداً للمساعدة، ولكن ما هو رد الفعل المتوقع من طرف العلماء والسكان؟ من العامة، وليس علية القوم فقط؟ ثم إن الملك سعود عزم، هو الآخر، على تعليم بناته في مدرسة خصوصية، لكنها كانت بعيدة عن الأنظار، في داخل قصره.

استشارت عفت زوجها، فنصحها ببدء المشروع التجريبي على أساس التكتيك المعهود نفسه في التدرج والحذر الذي نجح في تنظيم المدرسة النموذجية في الطائف. فقررا أن يفتحا مدرسة لليتيمات في جدة انطلاقاً من دعوة القرآن إلى رعاية الأيتام. وسمّيت المدرسة "دار الحنان".

اشترت عفت قطعة من الأرض ل"دار الحنان" وحرصت على تمويلها، وساعدت شخصياً في خياطة الثياب لأولى التلميذات. إلا أنه لم يبعث أحد بناته إلى المدرسة في السنة الأولى من افتتاحها. فالتقاليد السعودية توكل أمر العناية بالأيتام إلى العائلة. الأقرباء يرعون المكفوفين والمعاقين والأيتام والمتخلفين عقلياً. فمن العار على العوائل الكبيرة أن تلقي عبء العناية بذوي الاحتياجات الخاصة من أبنائها على كاهل

الآخرين، حتى إذا كانوا من الأقرباء الأبعدين. وللمناسبة، فإن السعوديين حتى الآن يرفضون فكرة إرسال الطاعنين في السن ليعيشوا، أو على الأصح ليموتوا، في دور العجزة بعيداً عن العائلة. الممارسات الغربية تجيز التخلص من السهر على الوالدين بإرسالهم إلى دور العجزة وتحمّل تكاليف إعالتهم فيها. وهذا في تصورات السعوديين نوع من الخسّة والرياء.

حينما افتتحت المدرسة في سنة 1956م، حتى الخدم والعبيد في بيت فيصل، نائب الملك على الحجاز، رفضوا إرسال بناتهم اليتيمات إليها. وبقيت المدرسة خالية من التلميذات عاماً كاملاً. ودعت الحاجة إلى بعض "الإعلانات" وإلى توضيحات طويلة أكدت أن مهمة المدرسة هي إعداد أمهات المستقبل وربات البيوت وتدريس أصول الإسلام وآداب السلوك الإسلامية وغرس المعارف في عدد من المواد الأخرى، وفقاً لطرق التدريس الحديثة. وبالتدريج بدأت المدرسة تعمل على أي حال. وسرعان ما وردت إلى عفت طلبات بقبول البنات عموماً وليس فقط اليتيمات.

تحولت المدرسة الابتدائية في جدة إلى متوسطة ثم إلى ثانوية. وتخرّجت فيها أول دفعة من الطالبات في السنة الدراسية 1964-1965م.

في سنة 1960م تألفت لجنة وطنية من أبرز العلماء لرسم سياسة تعليم الإناث. وفي تلك السنة موّلت عفت افتتاح "كلية البنات" في الرياض لإعداد المعلمات. ولم يكن الأمر سهلاً على الدوام. رئيس اللجنة المحافظ

الشيخ ناصر الراشد، المسؤول عن مدارس البنات، أصرّ على استخدام الحصص التي خصصتها عفت للمواد التقنية من أجل حفظ القرآن. كان الشيخ راشد متشدداً يخشاه الآخرون. إلا أن عفت تمكنت من أن تجد الصيغة المناسبة للتفاهم معه. واستشهدت في هذا الجدل بآيات من القرآن مكرّسة للنساء تحفظها عفت عن ظهر قلب. ألم يأتِ مفهوم الرجل جنب مفهوم المرأة في القرآن الكريم؟ "إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق" (البروج 10)، "وما خلق الذكر والأنثى" (الليل 3).

المرأة والرجل متساويان أمام الله. الفوارق في الوظائف الاجتماعية للرجال والنساء قد تتطلب سلوكاً متبايناً في الحياة اليومية، إلا أن الآيات القرآنية تتحدث عن واجبات الرجال في رعاية النساء وحمايتهن. فليس بين الله وبين المؤمنين والمؤمنات وسيط. وعندما تقوم الساعة تُسأل النساء كما يُسأل الرجال عما فعلن وفعلوا، ويأتي الثواب والعقاب في الحالتين سواء.

تراجع الشيخ بعض الشيء أمام الحجج الدامغة، فأمكن إدراج العلوم الطبيعية واللغات الأجنبية إلى جانب اللغة العربية والأدب العربي في مناهج مدارس البنات.

وعندما كانت عفت تواجه مشاكل صعبة للغاية تطلب المساعدة من زوجها وباقي أفراد العائلة المالكة الذين يشاطرونها أفكارها. وكانت النتيجة مؤثرة ومذهلة.

ففي أقل من عشر سنين دخل أكثر من ربع مليون بنت وفتاة وامرأة مدارس البنات وكليات المعلمات والجامعات ودورات محو الأمية.

في السابق كانت بنات الوجهاء والعوائل الغنية يكملن الدراسة الثانوية في الخارج. ولكن هذه المرة حصلت أول مجموعة من البنات السعوديات على شهادة التعليم الثانوي داخل المملكة. وصار بعضهن من أولى طالبات "كلية البنات" لإعداد المعلمات في الرياض. والكثيرات من طالبات "دار الحنان" تخرّجن في ما بعد في الجامعات السعودية التي تأسست في الستينيات.

تقول هالة الحوتي المعاونة الإدارية لرئيس شركة "زينل" للصناعات المحدودة بجدة: أنا متخرّجة في مدرسة "دار الحنان". أهم ما علمونا إياه أن نكون شخصيات تعتمد على نفسها. كل النساء اللواتي يؤدين اليوم دوراً ملحوظاً في بلادنا من المتخرّجات في مدرستنا[6].

عندما أسست عفت "دار الحنان" بدعم حازم من زوجها، أنشأت نموذجاً أولياً لتعليم البنات العصري في المملكة العربية السعودية. وقد رعت هذه المدرسة مدى الحياة وواصلت دعمها مالياً. ومعروف أنها تبرعت في عام 1964م وحده بمليون ريال سعودي لتوسعة "دار الحنان".

وفي ذلك العام نفسه وافقت عفت على الإعلان عن المدرسة من خلال مقابلة نشرت في إحدى الصحف بعنوان "الأم نفسها يمكن أن تصبح مدرسة لأبنائها إذا

أمكن إعدادها جيداً". وجاء في المقابلة: "دار الحنان" تربي أفضل الأمهات وربات البيوت من خلال التعليم الإسلامي باستخدام الطرق الحديثة. وتعتقد عفت أن الأطفال يكتسبون الدين في الأسرة، ولذا يتطلب تحسين التربية الروحية للأمهات أنفسهن.

ورغم ذلك قوبل قرار تعليم البنات بالاعتراضات. ففي مدينة بريدة، في وسط نجد، حيث الميول المحافظة والمتشددة قوية، كان الرأي السائد أن هذا التعليم يقود البنات إلى التهتّك ويقوّض أركان الأسرة. وقامت تظاهرات بعث فيصل، رئيس الوزراء آنذاك، قوات للتصدي لها وإحلال النظام. فتمت السيطرة على الموقف من دون إراقة دماء. لم يكن فيصل يرفض الحوار مع معارضيه مطلقاً. وهذه المرة أيضاً التقى المعترضين على فتح مدرسة البنات وسألهم: هل يحرّم القرآن تعليم البنات؟ ما دام لا يحرمه فليس لدينا موضوع للنقاش. الله يرضى على تعليم كل مسلم ذكراً كان أو أنثى. وعيّن فيصل امرأة مثقفة محترمة للغاية من نساء جدة مديرة للمدرسة. وافتتحت المدرسة. إلا أن التلميذة الوحيدة فيها خلال السنة الدراسية الأولى كانت هي ابنة المديرة. بيد أن معارضة تعليم البنات سرعان ما ضعفت، فالتحقت بالمدرسة بنات أخريات.

ولا ينبغي أن نتجاهل كون الكثيرات من النساء السعوديات يخشين التبدلات هنّ أيضاً. كن يخشين من نتائجها ويخشين على ضياع نمط الحياة المميز الذي

تعوّدنه، ويخشين على التقاليد العائلية التي هي أساس الكيان الاجتماعي.

ولعل معظم السعوديات (وليس لدينا إحصائيات في الموضوع) راضيات تماماً عن وضعهن في الأسرة وفي المجتمع، مقابل ضمانات الأمن والسلامة والاستقرار في حياة محصنة تقرّها الشريعة والتقاليد. أما الإعجاب بنمط الحياة الغربية فهو سرعان ما يتبدد حتى لدى المثقفات منهن، فيحتمين من جديد بقلعة التقاليد الحصينة.

في أواخر عهد الملك فيصل كان يتعلم في المدارس الابتدائية السعودية 400 ألف تلميذ تقريباً و200 ألف تلميذة أو يزيد. وفي المتوسطات نحو 700 ألف تلميذ و34 ألف تلميذة، وفي الثانويات 20 ألف تلميذ و7 آلاف و500 تلميذة. وفي معاهد المعلمين والمعلمات نحو 10 آلاف شاب وزهاء 5 آلاف شابة. أما في دورات محو الأميّة فكان يتعلم 55.5 ألف رجل و28.2 ألف امرأة. وفي عام 1976م، أي بعد 16 عاماً من استحداث تعليم البنات، وبعد سنة من مقتل الملك فيصل، ضمت المدارس نحو نصف بنات المملكة في سن تتراوح بين السادسة والثانية عشرة. وفي بداية القرن الحادي والعشرين شمل التعليم الأغلبية المطلقة من الأطفال والأحداث، على الرغم من أنه لم يكن بعد تعليماً عاماً.

حتى مقتل الملك فيصل (مارس 1975م) كان التعليم العالي الأنثوي لا يزال في حالته الجنينية على

الرغم من وجود أقسام للبنات في بعض الجامعات. الأساتذة الرجال يتولّون تدريس البنات من خلال شاشة التلفزيون، وهناك عدد قليل جداً من المدرسات. إلا أن تطور التعليم المثير والمدهش من حيث السرعة قد أدى في نهاية القرن العشرين إلى جعل البنات يمثّلن أكثر من نصف عدد الطلبة الجامعيين.

كانت الست عفت منذ البداية تدرك أن المملكة ينبغي أن تستفيد من قدرات جيرانها العرب الأكثر تطوراً لتأمين مستلزمات الخطوات الأولى في بناء نظام التعليم العصري. فاستدعت للتدريس في "دار الحنان" معلمات مصريات وفلسطينيات وسوريات. وبمبادرة من عفت، أخذت "كلية البنات" في الرياض تعدّ معلمات سعوديات وتؤمن المنح الدراسية للطالبات. وفي بادئ الأمر كانت المناهج مستنسخة عن المناهج المصرية، ثم بدأ وضع مناهج سعودية.

وبعد وفاة الملك فيصل، تبرعت عفت بقطعة أرض لتأسيس معهد للبنات للتدريب على الشؤون الإدارية والمالية. وكان المعهد بمثابة "بناء فوقي" لمدرسة "دار الحنان" من أجل إعداد مديرات مؤهلات يتولين إدارة المدارس والكليات والمعاهد والمستوصفات والمستشفيات مراعاةً لمصلحة النساء. وافتتحت في المعهد دورات خاصة لزوجات الدبلوماسيين السعوديين لتعليمهن اللغات الأجنبية وإطلاعهن على تاريخ وأحوال البلدان التي يعمل فيها أزواجهن. وافتتحت دورات

لتاريخ المملكة العربية السعودية واللغة العربية للأجنبيات المقيمات في جدة.

كانت عفت تتحاشى اهتمام وسائل الإعلام بشخصيتها. فلم تُجرِ مقابلات صحافية، ولم يصوّر فيلم وثائقي واحد عن نشاطها، ولم تنشر الصحف صورتها ولا أخباراً رسمية عنها. ذلك لا يعني عدم وجود طموحات من هذا النوع لديها، إلا أنها تعمّدت أن تبقى في ظل زوجها، لأن ذلك يتماشى مع تقاليد الجزيرة العربية حيث لا يعتبر من الحكمة التركيز على إنجازات المرأة حتى وإن كانت توصف بالملكة. فالدعاية كان يمكن أن تلحق الضرر برسالتها وتولّد ردّ فعل غير مرغوب فيه. ثم إن القضية بالنسبة إليها أسمى من كل ما عداها. وتجدر الإشارة إلى أن عفت هي المرأة الوحيدة التي لقّبها العامة بالملكة في بلد لا يعرف الملكات.

لقد اكتسب أبناء فيصل من والديهم الاهتمام البالغ بالتعليم. فقد أنشأت الأميرة سارة الفيصل، البنت الكبرى للست عفت، مؤسسة التربية الإسلامية في الرياض، وتضم مدرسة أهلية للبنات ودار حضانة للأمهات العاملات. كذلك أسّس أنجال الملك فيصل مدارس مماثلة للبنين هي مدارس الملك فيصل في الرياض، تلى ذلك تأسيس مؤسسة الملك فيصل الخيرية وجامعة الفيصل العلمية. وكان محمد الفيصل قد أسس مدارس المنارات لتعليم الأولاد والبنات إلى مستوى

الثانوي، وتعلم فيها نحو 17 ألف تلميذ. كذلك أسّست سارة الفيصل مدارس التربية الإسلامية للبنات.

كان التعليم النسوي في مقدمة اهتمامات عفت. فهي التي أسّست أول مدرسة أهلية للبنات، إلا أنها شاركت بفاعلية أيضاً في تمويل نشاطات نسائية أخرى. فبدعم منها ظهرت في الرياض سنة 1962م جمعية "النهضة" الخيرية التي كان بوسع النساء أن يلتقين فيها ويبحثن أمورهن. وباتت الست عفت الرئيسة الفخرية للجمعية، فيما تولت الأميرة سارة المهمات الإدارية والتنظيمية، كما شاركت في إنشاء الجمعية الأميرة لطيفة، شقيقة سارة، وزوجات كبار رجال الأعمال.

وبفضل التركة العقارية للملك فيصل غدت الست عفت من أغنى نساء المملكة. وكانت، رحمها الله، تتصرف بثروتها للأغراض الخيرية.

في البداية تولت جمعية "النهضة" مهمات محو الأمية بين النساء. ثم توسعت المهمات حتى شملت رعاية الأيتام، وإلقاء المحاضرات على النساء في طائفة واسعة من المواضيع الاجتماعية والثقافية والأدبية، وتعليم اللغتين الإنجليزية والفرنسية، ودورات الكتابة على الآلة الطابعة، وبعض المهن والحرف الأخرى. وسُجّلت جمعية "النهضة" في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، فبدأت تؤدي وظائف رسمية تقريباً. كانت تعرض على النساء أفلاماً تعليمية عن رعاية الأطفال وقواعد النظافة ومبادئ الخدمات الطبية. ولم يقتصر نشاط الجمعية على الفئات العليا من السكان، بل شمل

الكثيرين من ذوي الدخل المحدود. وأنفقت الجمعية أموالاً كثيرة على هذه الأغراض، فكانت عفت وكريمتاها سارة ولطيفة يتبرعن بالمال لها على الدوام.

وبعد ذلك افتتحت عفت في يونيو 1963م جمعية خيرية نسائية في جدة. ثم ظهرت مؤسسات وجمعيات نسائية في المنطقة الشرقية أيضاً.

كان ظهور المؤسسات والجمعيات النسوية في المملكة العربية السعودية مؤشراً على تحوّل معين في تقييم المرأة لنفسها. فالنساء أخذن يعتبرن أنفسهن ليس فقط عضوات في الأسرة لا همّ لهن سوى الشؤون المنزلية والتقيد بالقيم العائلية، بل وكذلك عضوات في المجتمع قادرات على المساهمة بقسطهن في تطويره. وقد أكدت عفت أنها لم تكن تستهدف أبداً تقاليد المجتمع السعودي ولا تهدف إلى تغييرها، بل تعتبر تعليم البنات وإنشاء الجمعيات النسوية مساهمة في القوة الحيوية للكيان الاجتماعي في البلد وتمتين أواصر الأسرة ككيان اجتماعي مصغر وتقوية الأمة ككيان مكبر للمجتمع. وكانت تعتقد أن المرأة غير المتعلمة، كما هي عليه آنذاك، حلقة ضعيفة في سلسلة الروابط التي تجمع بين الأسرة والأمة. فالمرأة الجاهلة عاجزة عن توفير التربية اللازمة لأولادها، وهي معزولة عن عملية التطور السريع التي شهدتها المملكة.

كاتب السطور ليس وحيداً في تقويمه للموقف في المملكة العربية السعودية على اعتباره ظاهرة فريدة.

فأنا أورِد هنا ما قالته الباحثة الأميركية كاترين بارسينين:

> كان أسلوب الملك فيصل في تطوير البلاد قائماً على مبدأ الانتقائية. فقد أراد إيصال المعارف المهنية والتقنية إلى البلد لتؤدي الدولة وظائفها بمزيد من الفاعلية من دون التعرض لهويتها الثقافية الفريدة. فإن إدخال العادات والأخلاق والقيم الاجتماعية والثقافية الغريبة بلا حدود ولا ضوابط كان سيعني تدخلاً عدائياً في "ديار الإسلام" ومظهراً من مظاهر الإكراه أو الغزو الثقافي. إلا أن التبدلات أمر ضروري لبقاء أي نظام. فكان الملك فيصل متقيّداً بفكرة التغيّرات الموزونة بدقة والتي تغني النسيج الاجتماعي للمملكة العربية السعودية، من دون أن تفتت أصالتها وهويتها... كانت المشاريع التي حظيت باستحسان وبدعم مالي من الست عفت والملك فيصل قد اختيرت بكل دقة وفقاً لاتجاه التحولات المطلوب ولوتيرة تلك التحولات. وكانت مهمات التربية والتعليم التي توخاها الملك وعقيلته تهدف إلى إجراء التغييرات ولكن بالسرعة التي يتقبلها السكان من دون توتر أو انفعال[7].

بديهي أن الانتقائيّة أمر صعب بحدّ ذاته. ولعملية التطور ديناميتها وحركتها الذاتية. فإذا انطلقت مرة فإنها تخلف نتائج حتمية لا مردّ لها. ولذا ليس من الواضح تماماً أي تقاليد ستبقى قائمة في ظل التطور السريع.

تتساءل كاترين بارسينين:

ما هو الدور الذي أدّته عفت في سياسة فيصل؟ هل كانت مجرد معبّر عن اهتماماته ومصالحه وتؤدي دوراً بروتوكولياً؟

وتجيب الكاتبة عن سؤالها هي:

هذا القول لا يطابق الواقع مطلقاً، لا سيما أن عفت واصلت نشاطها بعد مقتل الملك. إنها امرأة فريدة شغلت مرتبة خصوصية. امرأة تحيطها هالة غيبية... ومن جهة أخرى، ليس صحيحاً القول إنها فعلت كل ما فعلت بمبادرة شخصية منها دون أن يهتم الملك فيصل بذلك. كل الوقائع تشير إلى أن ما حصل هو تعاون وتشاور وثقة وتأثير متبادل بين شخصيتين فذتين على قدر بالغ من التكامل والتواؤم والتقاء المعتقدات...[8]

يقول أحمد بن عبد الوهاب عن الملك فيصل:

كان عائلياً، والفضل في كونه عائلياً يرجع إلى الملكة عفت. فهي التي أوجدت له الجو العائلي، وهي التي ربّت هؤلاء الأولاد الذين رأيتهم. وأنا أعتقد أن عفت ربّته هو نفسه.

فكان لها تأثير كبير عليه. ولذلك يقال في تاريخنا العربي إن كل رجل عظيم وراءه امرأة. كثير من العظماء وراءهم امرأة[9].

الفصل الثامن

الحرب العالمية الثانية – اكتشاف أميركا

في الأول من مايو 1939م جرت في الظهران، مركز المنطقة الشرقية، احتفالات بهيجة واسعة.

فقد وصل عبد العزيز إلى المدينة برفقة نجليه سعود وفيصل وموكب من 2700 شخص. وفي جوّ مهيب أدار الملك صنبور النفط لضخّ باكورة كمياته إلى أول ناقلة حمولتها 8 آلاف طن. وكان في استقبال الملك وحاشيته رئيس شركة "سوكال" بيل بيرغ ورئيس مجلس مديري شركة "تكساكو" توركايلد ريبر اللذان قدما له، على سبيل الهدية، سيارة "باكارد" حمراء اللون مجهزة بمستلزمات الرحلات في الصحراء، وعرّفا الملك وولي العهد والأمير فيصل على نساء خبراء النفط الأميركيين وعيالهم.

ثم عاد عبد العزيز إلى الرياض مع إخوته وولديه وخدمه وحراسه. وفي محطات التوقف كان الأمراء ينشدون الأناشيد الحماسية كما يفعل البدو بعد الغزوات الموفقة، ويرتجلون الشعر ارتجالاً ويتلونه في الحال.

دفعت شركة "كاسوك" إلى الملك 200 ألف جنيه إسترليني ذهباً ووعدت بالمزيد، وكانت إدارة الشركة على علم بأن أعظم الاحتياطيات النفطية على اليابسة اكتشفت في أراضي المملكة العربية السعودية، إلا أنها

لم تكن تتصور تحديداً الأحجام الحقيقية لتلك الاحتياطيات.

في العام التالي، وافق عبد العزيز على منح الشركة امتيازاً في مساحات إضافية. فتسلّمت "كاسوك" حوالى 400 ألف ميل مربع، أي ما يعادل بالتمام والكمال مساحة ولايتي كاليفورنيا وتكساس معاً. والتزمت الشركة حسب الاتفاق بتسديد 140 ألف جنيه إسترليني ذهباً كدفعة أولى، إضافة إلى 20 ألف جنيه بدل إيجار سنوي و100 ألف جنيه عندما يكتشف النفط بالكميات التجارية في هذه الأراضي الإضافية. وكان على الشركة أن تبني على حسابها مصنعاً غير كبير لتكرير البترول في رأس تنورة لتزويد الحكومة السعودية بالبنزين والكيروسين مجاناً.

بدت آفاق المستقبل مشرقة متفائلة حسب الظاهر. إلا أن الملك ونجله وزير الخارجية الأمير فيصل يعرفان أن رائحة حرب كبرى تفوح في الجو من جديد، مثلما كانت الحال قبل ربع قرن. فكيف ستعيشها البلاد؟ كيف تتجاوزها؟ ولمن ستكون الغلبة؟ وكيف ستكون علاقات المملكة مع المنتصرين؟ وكيف يمكن تحاشي الوقوع في أخطاء؟ وكما كان إبان الحرب العالمية الأولى، أخذ عبد العزيز يناور بين الطرفين المتعاديين. لقد قرر الاعتماد على الغالب، لكنه الآن يعبّر عن مشاعر الودّ والصداقة للطرفين.

دخل الملك في لعبة حذرة متعددة الأصعدة والنقلات.

في يناير1939م أقامت المملكة العربية السعودية العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا النازية. وعُثر في الأرشيفات الألمانية التي جرى الاستيلاء عليها بعد هزيمة الألمان على تسجيلات لمحادثات جرت في يناير- فبراير 1939 بين عبد العزيز وفريتس غروبه مدير الهيئات الدبلوماسية والاستخبارات الألمانية في الشرق الأوسط. فقد أبلغ غروبه برلين أن ميولاً شديدة معادية لبريطانيا تسيطر على الحاشية المقرّبة إلى الملك السعودي.

وفي يونيو من العام ذاته، بعث عبد العزيز سراً بممثله في بيرختس هارتين يحمل رسالة شخصية إلى هتلر يؤكد له فيها أن هدفنا الأول هو الطموح إلى تطوير العلاقات الودية الوثيقة مع الرايخ الألماني إلى أقصى حد.

وفي 17 يونيو 1939م استقبل هتلر خالد القرقني، مبعوث عبد العزيز، في بيرغهوف بجبال بافاريا. وقد نظم اللقاء بينهما الأميرال فريدريك غليوم كاناريس مدير الاستخبارات العسكرية ومكافحة الجاسوسية في الرايخ الثالث. ورافق القرقني الجاسوس الألماني فيرنير أوتو غيورغ فون هينتيغ الذي اشتغل في منطقة الخليج (في الخمسينيات عمل مستشاراً للملك سعود). والتقى القرقني هناك مع كاناريس والجنرال غليوم كيتيل رئيس أركان القيادة العامة العليا للقوات المسلحة الألمانية. وقد وعدا المملكة العربية السعودية بقرض مقداره 6 ملايين مارك ألماني لشراء 4 آلاف بندقية و8

ملايين خرطوشة وبناء معمل صغير للأسلحة قرب الرياض. كذلك وعد الألمان بتزويد المملكة بعدة راجمات جوية خفيفة وسيارات مدرعة. وكانت نسبة الفائدة على القرض 6 في المئة.

السلاح الألماني لم يصل إلى المملكة على أي حال. ولم تصل سوى 10 شاحنات إلى جدة في أغسطس 1939م. وكان فيصل على علم بهذه الاتفاقات. إلا أن الطريق أمام الإرساليات الألمانية إلى الشرق عبر قناة السويس انقطع بعد اندلاع الحرب.

كان عبد العزيز يغازل الألمان والإيطاليين، ليس فقط لأن هتلر وموسوليني أدليا بتصريحات كثيرة مؤيدة للعرب، بل كان يريد تأمين الصداقة معهما تحوطاً لاحتمال هزيمة بريطانيا في الحرب.

لكنّ الملك عبد العزيز وهو يغازل دول "المحور" حاول الحفاظ على أفضل العلاقات مع ممثلي بريطانيا في جدة. وما كان بوسعه أن يتصرف على نحو آخر ما دام مطوّقاً من جميع الجهات بالمستعمرات البريطانية. كذلك وجّه كلمات المودّة إلى الولايات المتحدة أيضاً في أحاديثه مع الدبلوماسيين الأميركيين الذين أخذوا يترددون على المملكة إبان الحرب العالمية الثانية.

في موسم الحج عام 1940م كان عبد العزيز في منزله بمنى ليس بعيداً عن مكة. وقد أبلغه فيصل أن فريتس غروبه بعد وصوله إلى جدة طلب السماح بفتح ممثلية ألمانية في المملكة. كذلك نقل السفير الإيطالي إلى الملك عبد العزيز التماساً شخصياً من موسوليني

لمساعدة غروبه. وبحث الملك الموقف مع ابنه، مقتنعين بأن ألمانيا لا تزال بعيدة، وأن الإنجليز فقط يمكن أن يضمنوا وصول البضائع إلى موانئ الجزيرة العربية من مستعمراتهم ومن البلدان التي لهم وصاية عليها. إلا أنهما قررا الاستفادة من العلاقات مع ألمانيا للضغط على الإنجليز. فالتقى الملك مع السفير البريطاني على الغداء وأبلغه طلب غروبه. وتعهّد الملك عبد العزيز بألا يفتح ممثلية للألمان إذا ضمنت لندن إرساليات البضائع إلى المملكة، وإذا قدمت لها قرضاً بربع مليون جنيه إسترليني. ومن جهته وعد السفير البريطاني الملك عبد العزيز بدعم القضية.

وبُلّغ غروبه أنه يمكن أن يفتح ممثلية إذا احتل الألمان السويس.

كان الملك عبد العزيز يناور بمهارة في المسألة الفلسطينية أيضاً، بعد أن اكتسبت صبغة فاضحة عشية الحرب. ثم خفتت بعض الشيء على خلفية الحرب نفسها، لكنها لم تتعرض للنسيان أبداً، بل اتخذت نطاقاً واسعاً بسبب محارق الهولوكوست وتأسيس دولة إسرائيل.

حتى منتصف الثلاثينيات، ما كانت المملكة العربية السعودية تعير بالاً للاضطرابات في فلسطين أو تهتم بالقضية العبرية. ففي المملكة لا يوجد يهود. أما الفلسطينيون الحضر الذين ضيّعوا روابطهم القبلية في رأي أهالي السعودية، فلا يختلفون كثيراً عن المصريين مثلاً. إلا أن القدس هي ثالث مقدسات الإسلام من

حيث الأهمية، وهي بالطبع محط اهتمام المسلمين الغيارى، ومنهم أفراد العائلة المالكة وكل النخبة في المجتمع السعودي. كان في حاشية عبد العزيز سوريون وفلسطينيون مطّلعون على الموقف هناك، في فلسطين. وكانت تصل إلى عبد العزيز وسعود وفيصل صحف من مصر وسورية والعراق، فكان معاونوهم يقرأون لهم أهم الأخبار. وبدأت الإذاعة البريطانية إرسالها باللغة العربية متظاهرة بالموضوعية. وعلى أي حال فهي تذيع أخبار أهم الأحداث. كان الملك وأولاده وكبار مستشاريه والعلماء يناقشون الأحداث في الشرق الأوسط. أما الموقف إزاء اليهود فقد نشأ ليس من الاحتكاك المباشر معهم، بل على أساس الأنباء الواردة من فلسطين، وعلى أساس الرؤية من منظار التاريخ الإسلامي.

عبد العزيز يعرف أن أموراً مشتركة كثيرة كانت بين الإسلام واليهودية. فالإسلام يعترف بأنبياء اليهود، وهناك أصول مشتركة في ما يخص تناول الطعام وتحريم لحم الخنزير وكيفية ذبح الماشية، والختان يجري للصبيان اليهود مثلما للصبية المسلمين، وفي فجر الإسلام كان النبي محمد وأتباعه يصلّون على قبلة بيت المقدس.

في حديثه مع المندوب السامي في الكويت هارولد ديكسون عام 1937م، استنكر عبد العزيز خطة تقسيم فلسطين إلى منطقتين منفصلتين عربية وعبرية. وهي الخطة التى طرحتها بريطانيا العظمى سنة 1937م، وهيأت للصهاينة، في اعتقاده، قاعدة لتأسيس الدولة

المستقلة التي كانوا يحلمون بها. وواصل الملك عبد العزيز: يا ديكسون، هل يرضى أهالي اسكتلندة لو أن الإنجليز أعطوها إلى اليهود؟ نحن لا نفهم كيف ترغب حكومة تمثل أقوى دولة نصرانية في العالم أن تكافئ أولئك اليهود أنفسهم الذين ظلموا سيدكم عيسى[1]...

كان الملك السعودي يعتقد أن الصهاينة يريدون تأسيس دولة تمتد حتى المدينة المنورة والخليج العربي.

ولم يكن واضحاً للصهاينة آنذاك نطاق الكارثة النازية الداهمة. إلا أنهم اقتنعوا، من مشاعر الكراهية التي تكنّها لهم ألمانيا النازية، بضرورة التعجيل في تنفيذ مهمتهم والحصول على وطن خاص بهم، ولذا لا يقبلون بفرض أي قيود على هجرة اليهود إلى فلسطين. ومن الجهة الأخرى ثارت ثائرة عرب فلسطين المضطرين إلى دفع ثمن الهمجية اليهودية، وأيدتهم حكومات الدول العربية الأخرى. فالعرب لم يسيئوا إلى يهود ألمانيا أصلاً. وإذا كانت بريطانيا وأميركا تعطفان عليهم إلى هذا الحد، فيمكنهما أن توفرا لهما الأراضي في بلديهما. لكنهما تفعلان العكس تماماً، باعتقاد الملك عبد العزيز. فمن الأسهل عليهما والآمن لهما إعطاؤهم أراضي الشعوب الأخرى[2].

أما موقف فيصل من المخططات الصهيونية في فلسطين فيمكن أن نستشفه من مذكرات ليوبولد وايس اليهودي السابق من مدينة لفوف (أوكرانيا)، الذي أقام

في الحجاز طويلاً بعد أن أشهر إسلامه واتخذ لنفسه اسم محمد أسد. كتب يقول:

على الرغم من أنني يهودي المنشأ، إلا أنني منذ البداية رفضت الصهيونية رفضاً باتاً. وبالإضافة إلى حبي الشخصي للعرب، فأنا أعتقد أن من الوقاحة اللاأخلاقية أن يأتي من الخارج نازحون ساعدتهم دولة أجنبية كبرى بنوايا سافرة لتشكيل أغلبية مصطنعة في البلاد وبالتالي حرمان شعب من وطن هو وطنه من قديم الزمان... موقفي هذا لم يقابل بالتفهم لدى جميع اليهود الذين اتصلت بهم هناك. جميعهم تقريباً. فهم لا يفهمون ما الذي رأيته من خير في العرب الذين هم، باعتقاد اليهود، أناس متخلفون ينظرون إليهم بشعور لا يختلف عن شعور النازحين الأوروبيين إلى أفريقيا الوسطى. ولم يكن اليهود يعيرون بالاً لما يفكر به العرب. ولم يتعلم أحد منهم اللغة العربية في الواقع. كل منهم كان على يقين راسخ بأن فلسطين هي التركة الشرعية لليهود.

أتذكر لقاءً قصيراً بيني وبين حايم وايزمان زعيم الحركة الصهيونية. كان ذلك في فلسطين. حدثني عن مخططات وصعوبات بناء الوطن القومي لليهود. وسألته: "ماذا سيحصل للعرب؟". ويبدو

أنني بهذا السؤال عكرت لهجة الحوار وسببت له بعض الانفعال. التفت إلي الدكتور وايزمان على مهل ووضع القدح الذي كان في يده وكرر السؤال: "ماذا سيحصل للعرب؟".

فقلت: "كيف تستطيعون جعل فلسطين وطناً قومياً لكم وأنتم تواجهون معارضة مستميتة من العرب الذين يشكلون الأغلبية في هذه البلاد على أي حال؟".

"ربما، أنت تدرس هذه القضية من سنين، ما يعني أنك تعرف الأوضاع أحسن مني. ولكن بغض النظر عن العراقيل السياسية التي يمكن أن تضعها المعارضة العربية في طريقكم، ألا يثير الجانب الأخلاقي من المشكلة قلقك؟ ألا تعتقد أن من الظلم والإجحاف أن تهجّروا أناساً عاشوا في هذه البلاد أبد الدهر؟".

رفع وايزمان حاجبيه وأجاب قطعاً: "هذه بلادنا. نحن لا نفعل سوى استعادة ما حرمنا منه".

"لكنكم لم تعيشوا في فلسطين من ألفي عام تقريباً. وقبل ذلك حكمتم هذه البلاد، بعضاً منها وليس كلها، أقل من خمسمئة عام. ألا تعتقد أن العرب يمكن بنفس الحجة أن يطالبوا بإسبانيا؟ فقد حكموها على أي حال

سبعمئة عام تقريباً وفقدوها قبل خمسمئة عام لا غير".

بدأ الدكتور وايزمان يفقد أعصابه: "سخافة. العرب فتحوا إسبانيا، وهي لم تكن وطناً لهم منذ البداية. وتحققت العدالة في النهاية عندما طردهم الإسبان منها".

وقلت له: "معذرة. أعتقد أننا ينبغي أن نراجع التاريخ. فاليهود على أي حال جاؤوا إلى فلسطين غزاة فاتحين أيضاً. قبلهم كانت هنا قبائل أخرى سامية وغير سامية، هي الآموريون والآدوميون والفلستيون والآراميون والحثيون وغيرهم. وقد ظلت هذه القبائل تقيم هنا حتى في ظل بني إسرائيل. ظلت هنا بعد أن طرد الرومان أجدادنا من هنا. وهي تعيش في هذه البلاد أيضاً. والعرب الذين نزحوا إلى سورية وفلسطين بعد احتلالهما في القرن السابع الميلادي كانوا أقلية. أما الباقون الذين نعتبرهم من "عرب" فلسطين أو الشام فهم في الواقع سكان هذه البلاد الأصليون، العرب العاربة. بعضهم اعتنقوا الإسلام بمر القرون، وبعضهم ظلوا نصارى... فكيف تنكرون أن أغلبية سكان فلسطين الذين يتكلمون العربية سواء من المسلمين أو المسيحيين هم الأحفاد المباشرون لسكان هذه البلاد

الأصليين؟ بمعنى أنهم عاشوا في هذه البلاد قروناً قبل مجيء اليهود إليها".

ابتسم الدكتور وايزمان بأدب متحاشياً الرد على انفجار مشاعري، ونقل الحديث إلى موضوع آخر.

كنت آمل أن يثير دفاعي عن القضية العربية لدى بعض الزعماء الصهاينة على الأقل شيئاً من الارتباك يدفعهم إلى إلقاء نظرة أعمق على المشكلة. وقد يجعلهم ذلك أكثر استعداداً للاعتراف بالحقوق المعنوية للعرب... إلا أن ذلك لم يحصل... لقد ارتطمت بجدار من الآراء المعادية، وهي رفض قطعي لأقوالي التي حاولت فيها أن أشكك بحق اليهود في ما يسمونه أرض أجدادهم...

لقد دهشت كيف يفكر شعب لديه ثقافة بناءة غنية، ويتكلم عن النزاع العربي الصهيوني، بالمصطلحات اليهودية فقط. هل يعقل أنهم لا يفهمون بأن مشكلة اليهود في فلسطين لا يمكن أن تحل إلا بالتعاون الودي مع العرب؟ هل يعقل أنهم فقدوا البصيرة إلى الأبد فيما يخص المستقبل الأليم لموقفهم هذا؟ وفيما يخص الصراع والعداوة والأحقاد التي ستواجهها الجزيرة اليهودية - حتى إذا نجحت تلك الخطط - وسط البحر العربي المعادي لها.

وفكرت: ما أغرب أن تكون الأمة التي عانت الأمرين من الغبن في معاملة الآخرين لها على مدى حياتها الطويلة الكئيبة في المهجر، مستعدة الآن من طرف واحد لبلوغ هدفها من خلال ممارسة غبن وظلم صارخ لأمة أخرى، أمة لا ذنب لها في كل آلام اليهود السابقة[3].

لعل محمد أسد (ليوبولد وايس) الذي نشر كتابه **الطريق إلى مكة** بعد قيام دولة إسرائيل قد بالغ في تقويم رؤيته لموقف مرّ عليه 15-20 عاماً. إلا أن جميع الذين في حاشية الملك عبد العزيز، والملك نفسه وفيصل، كانوا يفكرون على هذا النحو. وإلى ذلك، فإن هذا المقتطف كان ولا يزال يجسد خلاصة الموقف العربي نفسه تجاه إسرائيل. فحتى العرب المؤيدون حالياً للتسوية السلمية معها، انطلاقاً من تعذر الحل العسكري للنزاع بسبب قوة إسرائيل وحاميتها الولايات المتحدة، لن يعترفوا أبداً بأحقية الصهاينة من الناحية الأخلاقية. وكان ذلك هو موقف فيصل الذي ظل يلازمه كل سنيّ حياته وزيراً للخارجية ووليّاً للعهد وملكاً.

الخارجية البريطانية كانت تدرك أن سياسة بريطانيا الموالية للصهاينة في فلسطين هي أحد الأسباب التي خلقت شرخاً في التعاون الوثيق بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا، والذي قامت عليه العلاقات بينهما لسنين طويلة. وإلى ذلك، كان الملك عبد العزيز يتصور أن عدوّه القديم عبد الله أمير شرق الأردن يريد ضم

القسم الغربي من فلسطين إلى إمارته. وعندما أخذ عبد العزيز يزوّد المقاتلين الفلسطينيين بالسلاح سراً، كان يريد تشويش مخططات الأمير عبد الله، فضلاً عن مساعدة الفلسطينيين في مقاتلة الصهاينة والإنجليز.

كانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب، ولندن مهتمة جدياً بموقف العرب المناوئين للاستعمار عموماً، وبالتالي لبريطانيا. إلا أن المشكلة الفلسطينية كانت تتفاقم بسبب ازدياد عدد اليهود اللاجئين إلى فلسطين هرباً من ملاحقات النازيين. وفي بداية عام 1939م عقد وزير المستعمرات البريطانية مالكولم ماكدونالد مؤتمراً عربياً يهودياً في لندن للبحث عن أساس للتسوية بالمفاوضات. وترأس الأمير فيصل الوفد السعودي، كما وصلت وفود فلسطين ومصر والعراق وشرق الأردن واليمن. كانت أهمية دور المملكة العربية السعودية تزداد بالنسبة إلى الإنجليز آنذاك، فالتقى ماكدونالد مع الأمير فيصل فور وصوله في 2 فبراير 1939م، لكنه لم يجد لديه التأييد الذي كان يصبو إليه. وبعد 5 أيام بدأت أعمال المؤتمر في قصر سانت جيمس. لم يوافق العرب ولا اليهود على الجلوس إلى طاولة واحدة. فكان ممثلو بريطانيا يتحدثون معهم على انفراد. وبعد ثلاثة أسابيع، بات واضحاً فشل المؤتمر في العثور على حل وسط. فالعرب لم يوافقوا على استمرار هجرة اليهود إلى فلسطين، مطالبين بوقفها نهائياً، فيما طالب اليهود بتوسيع تلك الهجرة وزيادة عدد المهاجرين. ولذا أنهى المؤتمر أعماله من

دون نتيجة في 14 مارس 1939م، في اليوم نفسه الذي هجم فيه هتلر على تشيكوسلوفاكيا.

بعد المؤتمر أصدرت الحكومة البريطانية ما سمّي "الكتاب الأبيض". وقيّدت لندن عدد المهاجرين اليهود في حدود 75 ألفاً للسنوات الخمس التالية. فاشتاط الصهاينة غضباً، ووصفوا هذا القرار بالغدر والخيانة والتهدئة غير النزيهة. ومن جهتهم، لم يرحب العرب بالسياسة البريطانية الجديدة. إلا أن لندن تمكّنت عموماً من أن تقلل، بقدر ما، من نفوذ المتطرفين العرب. وكانت السياسة البريطانية واقعية من هذه الناحية. وعندما خيّم خطر الاحتلال الألماني على الشرق الأوسط، فضّل الصهاينة في فلسطين أيضاً التعاون مع الإنجليز.

كان جون فيلبي قد وصل إلى المؤتمر مع الأمير فيصل بصفة معلق صحافي، وبقي في بريطانيا بضعة شهور.

في لندن التقى فيلبي سراً مع حايم وايزمان في سبتمبر 1939م وعرض عليه الحل الذي يراه للمشكلة الفلسطينية. ويقضي هذا الحل بأن يدفع يهود العالم 20 مليون جنيه إسترليني (100 مليون دولار آنذاك) إلى عبد العزيز ليوافق على تقسيم فلسطين وتأسيس وطن لليهود هناك، فيما يتسلّم الفلسطينيون تعويضات وينزحون إلى أقطار عربية أخرى، منها المملكة العربية السعودية. وقد أعجب وايزمان بهذا الاقتراح، معلناً أن اليهود يستطيعون أن يجمعوا مبلغاً كهذا. وفي ما بعد،

التقى برئيس الوزراء البريطاني تشرشل والرئيس الأميركي روزفلت ليبحث معهما المشروع.

كان عبد العزيز بحاجة ماسة إلى المال. فالآمال البراقة في ازدياد عائدات النفط سريعاً قد تبددت. وظلت عائدات الحج المصدر الرئيس لدخل المملكة. أما الخزينة فقد فرغت بسبب التقلص الشديد في عدد الحجاج لموسم 1939-1940م، حيث بلغوا 37 ألفاً فقط مقابل 60 ألفاً لموسم 1938-1939م. ولذا توقف دفع رواتب الموظفين وأفراد الجيش.

عاد فيلبي إلى الرياض في يناير 1940م، حيث كانت رحى الحرب تدور، وعرض على عبد العزيز مشروعه الفلسطيني. فأمره الملك بألا يحدّث أحداً بفكرته هذه. وبعد 4 أشهر نفد صبر فيلبي، فعرض فكرته على يوسف ياسين المستشار السياسي لعبد العزيز. وكانت تلك غلطة من جانب فيلبي الذي ما كان يعرف أن عدم الجواب يعني الرفض في المفهوم العربي. وعندما علم الملك عبد العزيز بحديث فيلبي مع يوسف ياسين، قرّعه بكل حدّة.

يمكن القول بقدر كبير من الثقة إن تلك كانت خطة مغامرة من البهلواني جون فيلبي نفسه. كان يريد فعلاً مساعدة مليكه الذي أخلص له الولاء. فالملك بحاجة إلى المال (ثم إنه لو تسلم المبلغ المقترح لسدّد الديون المترتبة عليه لشركة فيلبي). إضافة إلى ذلك، من شأن تصالح العرب مع اليهود أن يعود على فيلبي بأمجاد طنانة، ذلك لأن انتفاء فرصة اللعب والمراهنة على

التناقضات العربية اليهودية يعجّل في تدهور هيمنة الإمبراطورية البريطانية على الشرق الأوسط. وهو، فيلبي، من أعتى أعدائها. خطة فيلبي كان محكوماً عليها بالفشل منذ البداية. فالأمر لا يقتصر على كراهية عبد العزيز لليهود القائمة على أساس ديني وتعاطفه مع عرب فلسطين القائم على هذا الأساس أيضاً. الأمر الرئيس هو أن الاتفاق مع الصهاينة الذي لن يبقى سراً بالطبع، من شأنه أن يشطب صدقية النظام الملكي السعودي وينسف الاستقرار في داخل المملكة نفسها، وهي خرجت لتوّها من حرب أهلية دموية ضد الإخوان المتعصّبين دينياً.

بعد استسلام فرنسا في يونيو 1940م، أخذ فيلبي يتحدث صراحة عن ثقته بأن ألمانيا وإيطاليا ستكسبان الحرب قريباً، فحذر عبد العزيز ممثل بريطانيا في جدة من ذلك. ولربما كان فيلبي في تلك الفترة على حق. فلو لم يهاجم هتلر الاتحاد السوفياتي، ولو لم تهاجم اليابان الولايات المتحدة، لكانت هزيمة بريطانيا محققة في الشرق الأوسط على أي حال. ولكننا نعيد إلى الأذهان مرة أخرى أن التاريخ لا يعرف مفردة "لو".

كان الملك عبد العزيز يحب البهلواني الإنجليزي المغامر، إلا أنه، كما يبدو، لم يكن يثق بواقعية آرائه منذ البداية.

بعد شهور توجّه فيلبي إلى الولايات المتحدة من خلال البحرين والهند، ليلقي هناك محاضرة يدعو فيها إلى عدم المشاركة في الحرب. وعندما وصل إلى الهند،

اعتقلته الدوائر الأمنية البريطانية وأرسلته إلى ليفربول. وزجّ به في السجن لستة أشهر. (عاملوه طبعاً بكل رفق، خلافاً للمعاملة التي كان يقابل بها في الاتحاد السوفياتي وألمانيا الانهزاميون الذين يروّجون الدعاية ضد حكوماتهم. ولكننا لا ندري، ربما كانت هناك في الأرشيفات البريطانية وثائق تبقى سرية لمئة عام عن دور خصوصي لفيلبي غير معروف حتى الآن).

الحرب العالمية الثانية سدّدت ضربة قاسية إلى الاقتصاد السعودي. فقد توقف استيراد البضائع، وارتفعت الأسعار إلى أرقام خيالية. وبات البدو يرتدون الأسمال، لأن الأسواق خالية من الأنسجة وغيرها. وكان نقص الأطعمة شديداً، وخصوصاً الدقيق والأرز. فطلب عبد العزيز المساعدة من بريطانيا.

بعد رحيل فيلبي بدأ الملك مباحثات مع مندوب بريطانيا في جدة ستونغير بيرد للحصول على قرض مالي. وكان حياد عبد العزيز الإيجابي في معمعة الحرب العالمية الثانية قد وفّر للإنجليز عدة فيالق عسكرية. ولذا جرى الاتفاق على أن تقدم بريطانيا أغذية ومساعدة مالية إلى المملكة. فوصل إلى موانئ الجزيرة الدقيق الكندي والقمح المصري والأرز الهندي. وفي عام 1940م سلّمت لندن أول قسط من المساعدات المالية وقدره 100 ألف جنيه إسترليني ذهباً. وافتتح مركز تموين الشرق الأوسط الذي يديره الإنجليز في القاهرة ممثلية له في جدة، ونظّم بفاعلية

إرساليات الأطعمة والبضائع إلى المملكة العربية السعودية.

وعندما أعلنت الانتفاضة على الإنجليز في العراق في أبريل 1941م، رفض الملك عبد العزيز طلب زعيم الانتفاضة رشيد عالي الكيلاني المساعدة تحاشياً للتدخل في الشأن العراقي، إلا أنه منحه اللجوء السياسي بعد سنوات في أعقاب هزيمة تلك الانتفاضة.

وفي مايو 1941م، في معمعة الحركة المضادة للإنجليز في العراق، منع الملك عبد العزيز رعاياه من المشاركة فيها. وأثناء الحرب العالمية الثانية نزل عبد العزيز تدريجاً من علية المتفرج على الأحداث وصار يميل إلى الحلفاء.

وفي الوقت ذاته طالب الملك عبد العزيز بزيادة مدفوعات "كاسوك" في مقابل عوائد المستقبل.

في السنوات الثلاث والنصف الأولى من الحرب العالمية الثانية، تسلّمت المملكة العربية السعودية من بريطانيا حوالى 3 ملايين جنيه إسترليني على شكل بضائع ونقد فضي، وكذلك 750 ألف جنيه قدمتها شركة "كاسوك" سنة 1941م، ومبلغاً مماثلاً في سنة 1942م تعويضاً عن العائدات أو الضرائب المنصوص عليها من مبيعات ما بعد الحرب.

وقد بدأ أثناء الحرب صراع بين الإنجليز والأميركان على النفوذ في المملكة العربية السعودية. فعندما أدرك الإنجليز أنهم فوّتوا فرصة عظيمة للإثراء حين لم يعوقوا حصول الأميركان على امتياز النفط، حاولوا

استخدام مساعداتهم للمملكة للاستئثار بقطعة من الكعكة.

أما إدارة "كاسوك" فقد أخذت تشتبه في أن الإنجليز، وهم يساعدون عبد العزيز، إنما يهدفون إلى إزاحة الأميركيين من المملكة. وأثار ذلك عاصفة من الاحتجاجات والمناوشات الكلامية بين واشنطن ولندن شارك فيها روزفلت وتشرشل. في تلك الفترة تجمّد استخراج النفط تقريباً، ورفضت شركة النفط تسديد القسم الباقي من القرض الموعود بحجة أنها استثمرت 30 مليون دولار في مشروع الجزيرة النفطي. وتوترت علاقات الملك مع الأميركيين، فيما تحسنت مع الإنجليز، لأنهم كانوا يزوّدون المملكة بالأغذية وبالمال نقداً.

إلا أن الامتياز الأميركي كان في تلك الأثناء مهدّداً بخطر أكبر من ذلك. فقد كانت لندن وواشنطن تعتقدان، وخصوصاً في يوليو 1941، أن الاتحاد السوفياتي سيخسر الحرب، ويغدو في الإمكان زحف الجيوش الألمانية على إيران عبر القوقاز، فيما أعدّت ألمانيا "خطة أورينت" لغزو الشرق الأوسط. كتب تشرشل في ما بعد يقول: "المنطلق الرئيسي لهذه الخطة هو إنهاء الحرب بالانتصار على روسيا في الخريف"[4].

عندما بعث هتلر بقواته إلى حدود الاتحاد السوفياتي في 1940م ثم عبر تلك الحدود في 1941م، استطاع الإنجليز أن يأخذوا زمام المبادرة في الشرقين الأدنى والأوسط. فقد تمكّنت القوات البريطانية من دحر الإيطاليين في القرن الأفريقي وفي البحر الأحمر (يناير

1941م)، ومن إخماد حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق (مايو 1941م)، والزحف على سورية (يوليو 1941م)، واحتلال إيران بالاشتراك مع الاتحاد السوفياتي (أغسطس 1941) إلى جانب التقدم في ليبيا (1942م).

وعندما اقتربت الحرب من المنطقة توقفت "كاسوك" عن استخراج النفط في الواقع.

كان النفط - ما بين 12 و15 ألف برميل يومياً - يضخ إلى المصفاة في البحرين. وفي عام 1940م بنيت مصفاة رأس تنورة التي تكرّر 3 آلاف برميل في اليوم. وقد باشرت التكرير في يناير 1941م، إلا أنها توقفت في يونيو من العام نفسه.

وقد تعاون الأميركيون والإنجليز للحيلولة دون احتمالات تسلل المخربين إلى الحقول النفطية.

دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا في 10 يونيو 1940م. وطوال ستة أسابيع لم تصل إلى جدة سفن من جهة الجنوب.

كتب السفير البريطاني في جدة في 24 يونيو 1940 يقول: "الأمير فيصل قال لي إن العربي يكره الإيطاليين. وكلما لعن هتلر مرة لعن موسوليني ألف مرة"[5]. إلا أن الإنجليز بسطوا سيطرتهم على البحر الأحمر بسرعة.

ولكي تستعرض القيادة الإيطالية العليا قدراتها الجوية، قصفت في ليلة 18 إلى 19 أكتوبر 1940م

البحرين، وكذلك المملكة العربية السعودية، خطأً على ما يبدو.

فقد أقلعت أربع من قاذفات القنابل الإيطالية ذات المدى البعيد من طراز "سافويا مركيتي س م - 82" من مطار في جزيرة رودس، وكانت مهمتها تدمير مصفاة النفط في البحرين.

فقدت إحدى الطائرات الحربية اتجاهها في الغيوم، فيما وصلت الطائرات الثلاث الأخرى إلى أجواء البحرين. وتصورت إدارة المطار في البحرين أن تلك طائرات مدنية، فأنارت لها مدرج الهبوط. وفي تلك الأثناء ألقى الإيطاليون قنابلهم. وكانوا واثقين بأنهم أشعلوا الحريق. إلا أن شعلات الغاز في البحرين هي التي كانت مندلعة كالعادة.

مرت الطائرة الرابعة فوق الظهران. وعندما رأى قائدها شعلات الغاز تصور أنها نتيجة لقصف الطائرات الثلاث الأخرى، فقصف بالقنابل حقول نفط "كاسوك". ثم التحق بباقي الطائرات التي حطت في إحدى المستعمرات الإيطالية في أفريقيا الشرقية.

وتباهى الإيطاليون بأنهم ألحقوا بالعدو أضراراً جسيمة. إلا أن الواقع كان على غير ذلك. كل القنابل أخطأت الهدف في البحرين، حتى إنه لم يصب أحد بأذى. أما في المملكة العربية السعودية، فقد تضرر أنبوب النفط بعض الشيء. وعندما انتهت الحملة الدعائية، اضطر الإيطاليون إلى الاعتذار للسعودية وللولايات المتحدة.

في 20 أكتوبر 1940م التقى الأمير فيصل رئيس البعثة الدبلوماسية الإيطالية في جدة لويجي سيليتي ليعرب له عن قلق حكومته الشديد من الحادث. وطالب بعدم تكرار مثل هذه الأخطاء، لأنها تعرض البنية التحتية النفطية في المملكة للخطر، وهي مهمة للغاية بالنسبة إلى اقتصاد البلاد. وعبّر سيليتي باسم إيطاليا عن مشاعر الصداقة والود تجاه المملكة العربية السعودية، ووعد بأنه سيبلغ وزارة الخارجية الإيطالية حالاً بمضمون هذا اللقاء. وفي ما بعد تلقّى الجانب السعودي توضيحاً زعم أن القصف جاء لخلل فني في الطائرات.

ولم تظهر الطائرات الإيطالية في الأجواء السعودية بعد ذلك.

إلا أن النتيجة الفعلية كانت نفسية في المقام الأول. فإن قدرة قاذفات القنابل الإيطالية على تذليل مثل هذه المسافة الهائلة بآلاف الكيلومترات أثارت قلق الأميركيين في الظهران. كانت الحرب على عتبة المدينة، فعملت شركة "كاسوك" على إخلاء النساء والأطفال وبعض موظفيها. ولم يبق هناك سوى 80 شخصاً.

في أبريل 1941م، عندما حاولت السفن الإيطالية مغادرة أفريقيا الشرقية بعد أن استولى عليها الإنجليز، قصفت الطائرات البريطانية تلك السفن بنيران الرشاشات. وغرقت عند السواحل السعودية أربع سفن إيطالية. وبناءً على أمر من فيصل، احتجز نحو 800

بحار إيطالي وأضيف إليهم عدد من الركاب وصلوا بطائرات مدنية من أديس أبابا. وبدأت مباحثات طويلة بين السفير الإيطالي والأمير فيصل في شأن مصير الإيطاليين الـ800. كانوا قد احتجزوا في جزر قريبة من جدة مخصصة للحجر الصحي للحجاج المرضى. وفي 15 يونيو هبطت في جدة طائرة تقل 8 عسكريين إيطاليين في ثياب مدنية. وبعد ثلاثة أشهر سمح لهذه المجموعة بالسفر بالطائرة إلى إيطاليا.

في 31 ديسمبر من العام ذاته وصل من مكة إلى جدة وزير المال عبد الله السليمان والتقى لويجي سيليتي، وأعرب له عن أسفه، موضحاً أن المملكة ترى من غير المناسب بقاء الممثلية الإيطالية فيها.

وغادر الدبلوماسيون الإيطاليون وعوائلهم إلى تركيا في فبراير 1942م بعد أن وافقت أنقرة على تمثيل مصالح إيطاليا لدى المملكة العربية السعودية.

وفي مارس 1943م تمت مبادلة المحتجزين الإيطاليين والألمان بعدد مماثل من الإنجليز في أحد الموانئ التركية.

في بداية 1941م وصل الجنرال رومل مع الفيلق الألماني الأفريقي إلى كيرينايكا. وكانت مهمته الزحف على مصر والاستيلاء على قناة السويس ومواصلة الهجوم باتجاه الخليج العربي.

كان الإنجليز والأميركان يتوقعون ظهور القوات الألمانية في الخليج. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة لم تعلن الحرب على ألمانيا بعد، أمر مدير

"كاسوك" فلويد أولدجر بتفجير آبار النفط في حال تعرّض المنطقة للاحتلال الألماني.

تقلص الاستخراج إلى حدّه الأدنى، وأغلقت بالخرسانة المسلحة 10 من الآبار الـ16 في الظهران، وزُرعت الألغام بمعونة الإنجليز حول الآبار الست الباقية.

كان الألمان قد هزموا آنذاك في معركة موسكو، فأرجأ هتلر "خطة أورينت" (المشرق)، إلا أنها بقيت في ذهنه.

في 7 ديسمبر 1941م هاجم اليابانيون ميناء بيرل هاربور، فدخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية، وتحالف الأميركيون مع الإنجليز في الشرقين الأدنى والأوسط رسمياً.

وفي يونيو 1942م بدا كأن "خطة أورينت" وضعت من جديد في حيّز التنفيذ. وتمكن رومل من أن يلحق هزيمة بالإنجليز، فخسروا طبرق في ليبيا، فيما حصل رومل هناك على ميناء جيد يصلح لوصول الإمدادات والذخيرة والمؤن من ألمانيا. وعزز الإنجليز مواقعهم في العلمين على مسافة 120 كيلومتراً تقريباً غربي الإسكندرية، إلا أنهم أخلوا أسطولهم الحربي من الإسكندرية إلى البحر الأحمر عبر قناة السويس. وأخذت السلطات البريطانية في القاهرة تحرق أرشيفاتها، حتى دخل ذلك اليوم التاريخ باسم "أربعاء الرماد". وقامت في القاهرة تظاهرة موالية للنازيين تحمل شعارات "رومل، إلى الإمام!".

كان الإنجليز والأميركان يتوقعون الكارثة. إلا أن القوات النازية شنّت في يونيو 1942م هجوماً واسعاً على جنوب الاتحاد السوفياتي، وسرعان ما وصلت إلى سلسلة جبال القوقاز وإلى مدينة ستالينغراد إلى الشمال منها.

لم يكن بوسع هتلر أن يساعد رومل. فالجبهة السوفياتية التي تقاتل فيها 266 فرقة من الجيش النازي قد طحنت جميع الاحتياطيات الألمانية.

ولم تكن لدى رومل إمدادات. فكل الوحدات الألمانية كانت ترسل إلى الجبهة السوفياتية. وفي أكتوبر 1942 عزّز مونتغمري جيشه الثامن وبدأ الهجوم المضاد. وفي 23 أكتوبر 1942م هُزم رومل في معركة العلمين، ولم تكن لديه يومها سوى 4 فرق ألمانية و8 فرق إيطالية، ما مجموعه 80 ألف عنصر. وخسرت القوات الألمانية الإيطالية 55 ألف شخص ما بين قتيل وجريح، وأنزل الإنجليز والأميركيون قوات مشتركة في الجزائر والمغرب في 8 نوفمبر 1942م.

وعلى الجبهة السوفياتية اندحرت القوات الألمانية في معركة ستالينغراد، وفقدت ألمانيا وحلفاؤها مليوناً وخمسمئة ألف شخص، كما هزمت قواتها في القوقاز، وبذلك انتفى الخطر الذي كان يهدد مواقع الحلفاء في الشرقين الأدنى والأوسط.

ومن جديد بدأت "كاسوك" تزيد الاستخراج بعد أن فتحت الآبار التي كانت قد أغلقتها بالخرسانة المسلحة. إلا أن إدارة "كاسوك" كانت تخشى أن يدفع الإنجليز

الملك عبد العزيز إلى سحب الامتياز الأميركي وتسليمه إلى شركة النفط الأنكلوفارسية العملاقة، فسعت "كاسوك" إلى الاستعانة بالبيت الأبيض.

تمكن مدير إدارة الشركة جميس موفيت في 9 إبريل 1942م من أن يقابل صديقه القديم الرئيس روزفلت.

واقترح موفيت أن تقدم الولايات المتحدة في غضون السنوات الخمس التالية إلى المملكة العربية السعودية 6 ملايين دولار سنوياً، على أن تصدر شركته في مقابل هذا المبلغ النفط السعودي إلى الأسطول الأميركي "بسعر مخفض". وكان على الخارجية الأميركية في الوقت ذاته أن توصي الحكومة البريطانية بزيادة المساعدات للمملكة. كذلك طلب جيمس موفيت من روزفلت أن يأخذ تعهدات من لندن بألا تطالب بأيّ حقوق في مناطق الامتياز الأميركي، كما طلب منه تقديم مساعدات أميركية إلى المملكة العربية السعودية عن طريق برنامج الإعارة والتأجير، إلا أن طلبه رفض. آنذاك كتب روزفلت رسالته الشهيرة:

> يا جيمس، أليس الأفضل أن تطلب من الإنجليز أن يهتموا بملك العربية السعودية؟ بالنسبة لنا هذه البلاد أبعد ما يكون - روزفلت[6].

إلا أن الإنجليز كانوا يلعبون لعبتهم. وظلت بريطانيا البلاد المانحة الأولى للمملكة العربية السعودية. وقد شكر الملك عبد العزيز الحكومة البريطانية علناً.

قلق أصحاب شركة "كاسوك" من ذلك دفعهم هذه المرة إلى البحث عن مركز قوة للدفاع عن مصالحهم في واشنطن، فوجهوا في 8 فبراير 1943م مذكرة إلى وزير الداخلية هارولد ايكيس أكدوا فيها أن الحكومة البريطانية تساعد المملكة العربية السعودية بسخاء، لأنها نفسها تحصل على مساعدات هائلة من الولايات المتحدة. أليس الأفضل مساعدة المملكة بطريقة مباشرة؟

حتى ذلك الحين كانت واشنطن تعتبر الشرقين الأدنى والأوسط مجالاً للمصالح البريطانية. ولم تُبدِ الولايات المتحدة اهتماماً جدياً بالمملكة العربية السعودية إلا بعد مرور خمسة أعوام على اكتشاف النفط في سنة 1938م. عند ذاك وضع وزير الداخلية هارولد ايكيس، منسق تدابير الأمن القومي في الميدان النفطي، استراتيجية تهدف إلى جعل الولايات المتحدة تستهلك المزيد من النفط الأجنبي، الفنزويلي والسعودي. وفي 16 فبراير 1943م، أثناء عشاء مع الرئيس روزفلت، قال ايكيس إن حقول النفط السعودية "ربما هي أغنى الحقول في العالم"، ولذلك يحاول الإنجليز أن يستحوذوا عليها.

وفي 18 فبراير 1943م، أعلن روزفلت أن المملكة العربية السعودية "كانت مهمة للغاية بالنسبة للدفاع عن الولايات المتحدة"، وشمل المملكة بمساعدات برنامج الإعارة والتأجير وفقاً للأمر الإداري رقم (8926)[7].

وفي العامين التاليين، بعد فبراير 1943، تسلّمت المملكة العربية السعودية، إلى جانب عائدات النفط، 33 مليون دولار من الولايات المتحدة نقداً وبشكل بضائع وعملة ذهبية وفضية.

وفي عام 1948م، قدرت لجنة الدفاع الوطني لدى مجلس الشيوخ المساعدات الأميركية التي قدمت خلال الحرب وبعدها إلى المملكة العربية السعودية، على شكل قروض مباشرة وغير مباشرة وإرساليات أخرى، بـ99 مليون دولار، منها 27 مليوناً فقط غير مجانية. واستطاعت الشركات النفطية الأميركية، بمساعدة واشنطن، أن تحتوي وتجهز على نفوذ منافسيها الإنجليز.

بعد أن أدرج روزفلت المملكة العربية السعودية ضمن المستفيدين من مساعدات برنامج الإعارة والتأجير، دعا الملك عبد العزيز أو من ينوب عنه من أفراد عائلته إلى زيارة الولايات المتحدة.

فبعث الملك نيابة عنه بالأميرين فيصل وخالد، ورأى أن يُبقي ولي العهد الأمير سعود معه في الرياض. وسافر مع فيصل وخالد إلى الولايات المتحدة سفير المملكة لدى لندن الشيخ حافظ وهبة الذي انضم إليهما في الخرطوم، وكذلك الشيخ إبراهيم سليمان والسكرتير الشخصي للأمير فيصل عبد الله بلخير وعبده مرزوق بن ريحان والمرافق الشخصي للأمير خالد. وصل هذا الوفد إلى ميامي في آخر أسبوع من سبتمبر 1943م بعد أن قطع الطريق الجوي عبر أفريقيا الوسطى وأكرا

وجزر المعراج وأميركا الجنوبية. واستقبلهم ممثل الرئيس الأميركي في ميامي.

باتوا ليلة في منزل تشارلز سباركس الموظف في الخارجية الأميركية، وهو الذي كتب في ما بعد عن هذا اللقاء، وأعرب عن دهشته لعدم تكلّف الأمير فيصل وتواضعه واهتمامه بنمط المعيشة الأميركية تحديداً. فقد أراد الأمير أن يرى كل ما في الدار، وطرح أسئلة لا نهاية لها. وأثناء العشاء صبّ الطعام لنفسه بنفسه. كان يتميّز بقدرة فائقة على التكيّف أدهشت الأميركيين، لأنه ظل في ثيابه العربية يجيد الكلام مع الآخرين بكل أدب، ولم يبدُ عليه أي ارتباك في التكيّف مع نمط الحياة الغربي.

تمّ اللقاء بينه وبين الرئيس روزفلت ووزير الخارجية كورديل هيل في واشنطن، واعتبرت الزيارة رسمية على مستوى الدولة، ما يعني تقديراً رفيعاً للوفد السعودي. وأسكنوا الوفد في مبنى "بلير هاوس" على مسافة قريبة جداً من البيت الأبيض، على الجانب الثاني من شارع بنسلفانيا.

وقد جلب فيصل هدية إلى الرئيس الأميركي من والده عبد العزيز، وهي عبارة عن سيف رائع من الفولاذ الدمشقي في غمد ذهبي ومقبض مطعّم بالأحجار الكريمة. وأحيا روزفلت مأدبة لأربعين شخصاً تكريماً لفيصل وخالد. وكان بين المدعوين نائب الرئيس هنري ويليس وكبار مسؤولي الإدارة والكونغرس الأميركي.

فالأميركيون يعرفون النفط السعودي، وكانوا يريدون أن يعرفوا مع من يتعاملون.

قبيل المغادرة في 9 نوفمبر 1943م، جرى اللقاء الثاني بين الوفد السعودي برئاسة فيصل، وروزفلت. وقد ترك انطباعاً عميقاً في نفس الأمير.

أمضى السعوديون في الولايات المتحدة أكثر من شهر. فبعد واشنطن زاروا نيويورك لمدة ستة أيام برفقة هاري أوين ممثل شركة "كاسوك" الذي ظل مع الوفد حتى مغادرته الولايات المتحدة. وفي نيويورك التحق بالوفد علي رضا السعودي، الشاب الذي كان يتلقى تحصيله العلمي هناك.

شاهد أعضاء الوفد نيويورك بأيامها ولياليها، وزاروا بورصة المدينة وأكبر البنوك فيها، وصعدوا إلى أعلى "إمباير ستيت بيلدنغ" ليمتعوا الأنظار من فوقها بمنظر بانورامي لناطحات السحاب في نيويورك، وتجوّلوا في المتاجر وأماكن اللهو والتسلية. لم يكن فيصل قد بلغ الأربعين بعد. كان لا يزال في ريعان الشباب يمتّع أنظاره بالمدينة العظيمة وهو يزورها لأول مرة في حياته.

غادروا نيويورك في حافلة خصوصية بالسكة الحديد، عبر القارة الأميركية كلها، إلى كاليفورنيا، وأمضوا أسبوعاً في سان فرنسيسكو وأسبوعاً في لوس أنجلس. وتولّت شركتا "تكساس أويل" و"سوكال" تنظيم زيارتهم. تفقدوا مزرعة تربية الأغنام في ولاية نيومكسيكو، وزاروا متنزه أشجار صنوبر المموث

المعمرة لأكثر من ألف عام في كاليفورنيا، كما زاروا وادي الكنيون الكبير في أريزونا، والمزرعة التي بدأ الأميركيون يغرسون فيها النخيل، ومزرعة تربية الخيل ومصفاة النفط واستوديوات هوليوود وسد هوفر الشهير ومحطته الكهربائية في ولاية كولورادو، وعادوا إلى الشرق عبر دينفر وديترويت. وقد التقى الوفد في واشنطن مع إدوارد ستيتينيوس وزير الخارجية بالوكالة، ثم مع مساعد وزير الخارجية أدولف بيرل، وبحث معهما الموقف في الشرق الأوسط وطلبات المملكة العربية السعودية من برنامج الإعارة والتأجير، وحاجتها إلى القطع النقدية الفضية.

(في 28 أغسطس 1944م أغرقت السفينة الأميركية "جون باري" في بحر العرب بطوربيد من غواصة ألمانية. وكانت السفينة، وهي من طراز "ليبرتي"، تحمل شحنة سرية إلى المملكة مكوّنة من 3 ملايين قطعة نقدية فضية من فئة ريال واحد. السفينة غرقت بسرعة. وبعد خمسين عاماً فقط تمكّنت شركة بريطانية عمانية من انتشال قرابة مليون وأربعمئة ألف قطعة نقدية فقط من عمق 2600 متر).

أبلغ الجانب الأميركي الأمير فيصل أن الإدارة الأميركية تنظر بعين الرضا إلى فكرة شركة "كاسوك" في شأن بناء مصفاة للنفط في الظهران.

وبعد أن ودّع الأمير فيصل الرئيس روزفلت، عاد من واشنطن إلى نيويورك لبضعة أيام، ثم استقلّ الطائرة إلى بريطانيا. وفي الطريق إليها حطت الطائرة في مطار

بجزر بيرمود. وذكر هاري أوين أن لغة الأمير فيصل الإنجليزية تحسنت بسرعة. ففي نهاية الزيارة أخذ يتكلم الإنجليزية بطلاقة واضحة.

وصل الوفد السعودي إلى بريطانيا في 17 نوفمبر 1943م ونزل في فندق "دورشستر" بلندن. وفي اليوم التالي جرى لقاء بين الأمير فيصل ووزير الخارجية البريطاني أنطوني أيدن أثناء مأدبة غداء في الفندق نفسه.

وقال فيصل لأيدن يومها إن العرب يواجهون مهمتين، الأولى إحراز استقلال جميع الأقطار العربية، والثانية حل المشكلة الفلسطينية. وعبّر عن إعجابه بزيارة أميركا، مشيراً إلى أن الأميركيين لا يعرفون شيئاً عن البلاد العربية ولا يهتمون بمشاكلها، وأن بريطانيا هي الوحيدة التي تتفهّم العرب.

تفقد الأميران السعوديان وحدات عسكرية بريطانية، وحضرا مناورات قوات الدبابات والمدرعات، وشاهدا آثار الحرب العالمية الثانية في بريطانيا، أنقاض المنازل المهدمة التي تقوّضت على أهلها. كذلك زارا الغواصة التي أغرقت العديد من سفن العدو، فمُنح ربانها وسام صليب فكتوريا أو وسام النصر. عرض الربان على الأميرين بلوزة رجالية صوفية حاكتها له شخصياً زوجة تشرشل. وتوافرت للأميرين فرصة الصعود إلى طائرة تتأهب لقصف برلين. وطلب المرافق البريطاني من الأميرين ألا يتمنيا لطاقم الطائرة النجاح والعودة بسلام كي لا يحصل العكس، كما تقول الوساوس الغربية. إلا

أنهما طلبا من قائد سرب الطائرات أن يبلغهما متى ما عادت تلك الطائرة بسلام. وبعد بضع ساعات تلقيا منه نبأ عودتها. وحصل قصف ألماني أثناء زيارة الوفد السعودي، فسأل مرافقو الأميرين هل يريدان دخول الملجأ، ففضّلا البقاء في السيارة متوكّلَين على الله.

تم توجه الأميران فيصل وخالد إلى مبنى الحكومة في داونغ ستريت ليسلما ونستون تشرشل نيابة عن الوالد عبد العزيز سيفاً عربياً بمقبض ذهبي مرصّع بالمجوهرات. ولغياب رئيس الوزراء عن لندن آنذاك، استقبلتهما عقيلته.

قبيل أن يغادرا بريطانيا زار الأميران قصر بكنغهام ليسلّما على الملك جورج السادس.

تم عاد الوفد السعودي إلى الديار من خلال جبل طارق والجزائر، حيث التقى الأمير فيصل الجنرال ديغول، ثم من خلال تونس حيث أمضى الأميران ليلتهما وزارا باي تونس. وتوقف الوفد ليلة في طرابلس الغرب، وبعد ذلك أمضى عدة أيام في مصر، فطالت الرحلة إلى ثلاثة أشهر مليئة بانطباعات لا تنسى.

كانت الحصيلة الرئيسة للرحلة هي الانطباعات العميقة عن زيارة الولايات المتحدة واللقاءات مع زعمائها. فالقدرات الاقتصادية والتقنية والعسكرية والمالية الأميركية تركت أثرها في رؤية الأميرين السعوديين إلى العالم. حتى بريطانيا بدت دولة هامشية بالقياس إلى الدولة الأميركية العملاقة الرابضة وراء المحيط. وكانت المساعدات الأميركية قد لبت حاجات

الاقتصاد السعودي والاحتياجات المالية للبلاط، وأمنت الاستقرار في المملكة. إلا أن فيصل تأكد من أن الأميركيين لا يعرفون شيئاً عن العرب وعن الجزيرة العربية. وبات واضحاً أن من الضروري توجيه سياسة المملكة الخارجية صوب الولايات المتحدة، ولكن من دون الدخول في صدام أو تناحر مع بريطانيا. وقد نجح عبد العزيز وفيصل في بلوغ هذا الهدف.

كتب رئيس البعثة الدبلوماسية البريطانية في جدة السير ستينلي جوردان في تقريره السنوي لعام 1943م يقول:

> الآمال التي كانت تراود بعض الأوساط في أميركا بأن عبد العزيز يمكن أن يستقبل الدكتور وايزمان ويسوّي المشكلة الفلسطينية معه تبدَدت نهائياً عندما زار الرياض المقدم هوسكينس، الممثل الشخصي للرئيس روزفلت، في أغسطس وسأل الملك هل يمكنه أن يستقبل الدكتور وايزمان. فجاء الرد بالرفض القاطع. وجاء في هذا الرفض أن الصهاينة عرضوا على عبد العزيز في بداية الحرب، من خلال السيد فيلبي، 20 مليون جنيه إسترليني إذا لم يتدخل في مصير فلسطين. واعتبر الملك هذا العرض إهانة له، فجاء جوابه بتهكّم وسخرية لاذعة[8].

في ديسمبر1943م زار المملكة العربية القائد العام للقوات المسلحة الأميركية في الشرق الأوسط الجنرال رويس، واتفق على بناء مطارين حربيين، أحدهما في الظهران. وكان الإنجليز يعارضون قطعاً ظهور قواعد جوية أميركية في منطقة الخليج، فحاولوا على مدى شهور إحباط مخططات الأميركيين، مؤلّبين السعوديين عليهم. إلا أنهم تراجعوا أمام ضغوط واشنطن، وبدأ بناء القاعدة الجوية في الظهران عام 1944م، وشيدت في عام 1946م. ووصلت إلى المملكة بعثة عسكرية أميركية عملت على تدريب الجيش السعودي، إلى جانب مجموعة من المدربين العسكريين الإنجليز الذين استقدمهم الملك عبد العزيز لهذا الغرض أيضاً.

وافتتحت الممثلية الدبلوماسية الأميركية في جدة في مايو 1942م. وخلال الفترة 1944-1946م ترأسها المستعرب والمخبر المحنك المقدم وليم إيدي، ابن وحفيد المبشرين البريسفيتريين الكاثوليك الذين عاشوا وماتوا في بلاد الشام. وكان بين أعضاء البعثة ملحق مختص بشؤون النفط. وأخذ إيدي يدفع ويمرر المصالح الأميركية في المملكة، خلافاً لرغبة الإنجليز في أغلب الأحيان.

اشتد الجدل بين الإنجليز في شأن كيفية التصرف حيال الأميركيين في المملكة. بريطانيا آيلة إلى الضعف، ومن المستبعد أن تتمكن من الاحتفاظ بمواقعها في الشرقين الأدنى والأوسط، وكان من اللازم ضمان

المشاركة الأميركية في شؤون المنطقة، ولكن مصالح واشنطن الاقتصادية والاستراتيجية أوسع بكثير.

وكان البترول في مقدمة ميادين الصراع بين لندن وواشنطن[9]. وهو ما تشير إليه مصادر عديدة، ومنها المكاتبات بين تشرشل وروزفلت[10].

آنذاك كان الأمير فيصل يشهد في جدة صراعاً سافراً على النفوذ بين ممثلي بريطانيا والولايات المتحدة، حتى بلغت الخلافات درجة كبيرة من الحدّة.

في 26 يونيو 1944م استدعى وزير الخارجية الأميركي هل سفير بريطانيا لدى واشنطن اللورد هاليفاكس وأنّبه بشدة على سوء سلوك السفير البريطاني لدى المملكة العربية السعودية جوردان الذي حاول أن ينسف المصالح الأميركية من الجذور.

واضطر الإنجليز إلى استدعاء جوردان نزولاً عند الضغط الأميركي. إلا أن السفير الذي حلّ محله لورنس غرافتي سميث، كان أيضاً على يقين من أن الولايات المتحدة تنوي إزاحة بريطانيا وفرنسا من الشرق الأوسط[11]، فباتت العلاقة بينه وبين إيدي متوترة. واستُدعي هذا السفير وسُحب هو الآخر من جدة تحت الضغط الأميركي.

اتفق روزفلت مع عبد العزيز، من خلال المقدم إيدي، على لقاء بينهما في فبراير 1945م في أعقاب مؤتمر يالطا (روزفلت، ستالين، تشرشل). وأثناء الوداع في يالطا، أبلغ الرئيس الأميركي رئيس الوزراء البريطاني أنه سيلتقي ابن سعود في مصر، فانعقد لسان تشرشل

دهشة، وباتت نيّات الولايات المتحدة واضحة له كل الوضوح. انهال تشرشل، وهو في أشد حالات الانفعال آنذاك، باللوم على دبلوماسييه وجواسيسه، وبذل قصارى جهده ليلتقي هو أيضاً الملك السعودي.

كانت تلك بالنسبة إلى الملك عبد العزيز ثاني رحلة إلى الخارج في حياته، بعد رحلته إلى العراق في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

جرى كل شيء في منتهى السرية والكتمان. فعندما وصل الملك إلى جدة، كانت في انتظاره في المرفأ المدمرة الأميركية "ميرفي". وفي 2 فبراير 1945م أمر عبد العزيز بلاطه بالتوجه إلى مكة. وعندما حضر الجميع أمر سائقه بالمضي نحو الميناء. وكانت تلك هي المفاجأة الكبرى، حتى سرت شائعات في شأن تنحّي الملك عن العرش أو اختطافه. وجاءت زوجات الملك ينتحبن إلى الأمير فيصل ليعرفن حقيقة ما حدث. وحاول الأمير أن يهدّئ من روعهن، من دون أن يذكر التفاصيل.

اعتبر الملك طاقم "ميرفي" كله ضيوفاً عليه، فأمر بجلب مئة خروف حي إلى متن المدمرة. كان المستعرب الواسع الاطلاع المقدم إيدي يعرف أن الامتناع الصريح عن تسلّم الهدية يعتبر إهانة، فتمكن من أن يقنع عبد العزيز بأن البحارة الأميركيين إذا قبلوها فسيخالفون النظام الداخلي وسيقيّدون بالسلاسل، لأن لديهم تعليمات واضحة بخصوص تناول الطعام. وتم الاتفاق على حل وسط. سمحوا بصعود

سبعة خراف فقط إلى السفينة، لكي يتمكن الملك عبد العزيز من تناول لحم الضأن الطازج. ونصب بيت من الشعر على متن المدمرة مخصص للملك. وكانوا يزوّدونه خمس مرات في اليوم بمعلومات دقيقة عن جهة القبلة، فيقيم الصلاة كالمعتاد مع مرافقيه. ولم يمنعه ذلك بالطبع من الاهتمام بكل ما في السفينة، وخصوصاً التسليح. وقد عرضوا على الملك شريط الأخبار السينمائية عن العمليات الحربية الأميركية في المحيط الهادي آنذاك.

كان الملك قد أخذ فكرة عن قدرة الولايات المتحدة، وصار يعلّق الآمال على التعاون معها، وليس مع الإمبراطورية البريطانية التي أصابها الخور رغم جبروتها من وقت غير بعيد.

في 14 فبراير 1945م استقبل روزفلت الملك عبد العزيز على متن الطراد "كوينسي" في قناة السويس. وكان يريد من العاهل السعودي أن يساعده في حل القضية الفلسطينية، لأن موقف الإنجليز من هذه المسألة غير صحيح في اعتقاده. وباتت تلك مشكلة سياسية عويصة بالنسبة إلى الولايات المتحدة. فيهود أوروبا الوسطى، كما قال روزفلت لعبد العزيز، عانوا الأمرّين من هتلر وتعرضوا للتهجير والتعذيب والقتل الجماعي. وأضاف روزفلت أنه يتحمّل مسؤولية شخصية عن مساعدة هؤلاء المساكين، ويريد أن يعثر على حل لمشاكلهم. فهل كانت لدى الملك السعودي مقترحات معينة في هذا الشأن؟

نعم. فقد قال ابن سعود: أعطوهم وأبناءهم أفضل الأراضي والمنازل العائدة للألمان الذين ظلموهم[12].

ولم يكن ذلك ما يقصده الرئيس الأميركي. فأوضح للملك عبد العزيز قائلاً: كل اليهود الذين شاهدوا الكارثة يرتجفون هلعاً من فكرة البقاء في ألمانيا، حيث يمكن أن يتعرضوا للاضطهاد من جديد. ثم إن لديهم "رغبة عاطفية" في النزوح إلى فلسطين!

تجاهل عبد العزيز النقطة الأخيرة، وقال إن بريطانيا وأميركا على عتبة الانتصار التام على الدولة النازية، وإنه لا يفهم سبب خوف اليهود بعد انتصار الحلفاء.

وخابت آمال روزفلت من صلابة عبد العزيز، فأخذ يبحث عن حجج "دامغة" أخرى. قال إنه يأمل بكرم العرب الأسطوري وحسن ضيافتهم لكي يساعدوا في حل مشكلة الصهاينة هذه. فاعترض عبد العزيز قائلاً إنه لا يفهم لماذا على عرب فلسطين أن يتفانوا في حسن الضيافة لليهود. فليس عرب فلسطين هم الذي ذبحوا اليهود. الألمان ذبحوهم. وكما هي حال البدوي البسيط لم يستطع الملك عبد العزيز أن يفهم لماذا يريد الرئيس الأميركي إنقاذ ألمانيا من عواقب جرائمها. طيبة البدوي اللامتناهية لأصدقائه وليس لأعدائه. فأوضح عبد العزيز لروزفلت قائلاً: عند البدو عادة أخرى تقضي بأن تتولى القبائل المنتصرة رعاية ضحايا الحرب الذين لا جريرة لهم. ويمكن القيام بالشيء ذاته في ما يخص اليهود. فليتوزعوا على أكثر من 50 طرفاً من الأطراف المشاركة في التحالف المضاد لهتلر. إلا أن فلسطين، في

اعتقاد عبد العزيز، هي أصغر طرف مشارك مع الحلفاء. ورغم ذلك استوعبت حصة كبيرة من اللاجئين الفارين من أوروبا، حصة لا عدالة فيها.

يبدو أن هذا اللقاء ألقى الضوء على القضية الفلسطينية أمام روزفلت من جانب لم يكن يتوقعه. كان صادقاً في رغبته في مساعدة اليهود، ويأمل بسذاجة بإقناع العرب بالمشاركة في حل هذه المسألة. وفي نهاية الحديث الذي استغرق ساعات، وعد الرئيس روزفلت العاهل السعودي بأنه "لن يتخذ شيئاً لمساعدة اليهود إذا كان على حساب العرب، ولن يقوم بأيّ خطوة معادية للشعب العربي". وأيّد الخطة التي أعرب عنها عبد العزيز، وهي إرسال بعثة إلى الغرب لتوضيح وجهة النظر العربية بشأن فلسطين. وعندما تكلم روزفلت في الكونغرس الأميركي بعد عودته إلى واشنطن قال:

> علمت من ابن سعود من الجزيرة العربية في خمس دقائق عن قضية المسلمين وعن القضية اليهودية أكثر ممّا في دزينة من الإخباريات[13].

أكد عبد العزيز في لقائه مع روزفلت موافقته على حرية استخدام الموانئ السعودية في الخليج العربي من قبل السفن البريطانية والأميركية، وعلى بناء قاعدة جوية ضخمة هناك، لكنه اشترط ألا تُحتل العربية السعودية أبداً كما احتلت مصر وسوريا والعراق وإيران، وألا يُقتطع أو ينتزع أي جزء من أراضيها. فالقواعد التي تحتاج إليها القوات الجوية الأميركية تقدم إليها على

سبيل الإيجار لمدة لا تتجاوز خمس سنوات. وبعد ذلك يجب أن تعاد إلى الدولة السعودية مع كل المباني المشيدة عليها. ولم يفلح الرئيس الأميركي في الحصول على تمديد لمدة الإيجار. كذلك طلب الملك أن يسلّم إلى الحكومة السعودية جزء من الأسلحة الخفيفة المخزونة في إيران بعد انتهاء العمليات الحربية. وتعهد عبد العزيز في مقابل ذلك بإعلان الحرب على دول "المحور".

وناشد الملك السعودي الرئيس الأميركي أن يمدّ يد الصداقة والعون ويدعم استقلال المملكة، فحصل على تعهدات بذلك. ويعتقد المقدم إيدي أن عبد العزيز اعتبر هذا اللقاء ضمانة دون احتمالات تطاول بريطانيا على استقلاله.

أما بخصوص النفط، فقد حصل روزفلت على تأكيد من الملك عبد العزيز للامتيازات الأميركية القائمة، وكذلك موافقته على مد أنبوب النفط عبر الجزيرة العربية لربط منطقة الأحساء بسواحل البحر الأبيض المتوسط.

واستفسر عبد العزيز أثناء اللقاء عمّا إذا كانت الولايات المتحدة ستعود بعد الحرب إلى النصف الغربي من الكرة الأرضية، فتبقى العربية السعودية في مجال الهيمنة البريطانية، كما يقول له الإنجليز دوماً. إلا أن روزفلت عاهده بأن الولايات المتحدة لن تسمح ببقاء الهيمنة البريطانية الحصرية في المنطقة.

وخلال التوديع أهدى الرئيس الأميركي كرسيه المتحرك إلى الملك عبد العزيز الذي يعاني من آلام في الركبة بسبب الجراح القديمة، ووعد بإرسال طائرة له على سبيل الهدية.

غادر عبد العزيز وهو في منتهى الرضا والارتياح. فخلال 69 عاماً من حياته، كان ذلك أول لقاء مع زعيم دولة "كافرة"، لكنه زعيم أقوى دولة في العالم. وبعد ثلاثة أيام جاء موعد اللقاء مع ونستون تشرشل. ونظراً إلى أن الولايات المتحدة باتت الشريك الرئيس لعبد العزيز، فقد سأل روزفلت هل لديه مانع من لقائه مع رئيس الوزراء البريطاني، فأجاب ذاك: "ولمَ لا؟ أنا شخصياً يطيب لي دوماً أن ألتقي المستر تشرشل. وأعتقد أنه سيعجبك أيضاً"[14].

إلا أن ونستون تشرشل لم يعجب عبد العزيز.

فالرئيس الأميركي تصرّف بكل أدب كي لا يبدر منه ما يهين المشاعر الدينية لمحدّثه. وقد نزلا على نحو الخصوص بمصعدين مختلفين إلى قاعة الطعام، فأوقف روزفلت مصعده ودخّن سجارتين، وبعد ذلك فقط التحق بعبد العزيز على المائدة التي لم يكن فيها أثر للمشروبات الكحولية. ويبدو أن تشرشل تلقّى أيضاً تعليمات بشأن عادات العاهل السعودي، ولذا ألقى كلمة مقتضبة قال فيها إنه يفهم بالطبع أن دين صاحب الجلالة يمنعه من التدخين ويحرم عليه الخمر،

لكن القاعدة التي أتبعها في حياتي تفرض عليّ بكل قدسية تدخين السيجار وشرب

الخمر قبل وبعد تناول الطعام، بل وحتى أثناء تناوله، وفي الفترات والاستراحات إذا اقتضت الحال[15].

وكان تشرشل أثناء اللقاء مع عبد العزيز يحتسي الويسكي ويدخن السيجار.

ولكن ليس هذا هو الشيء الرئيس. فالأهم منه أن عبد العزيز لم يتلقّ من تشرشل تعهدات كالتي قدمها روزفلت في شأن القضية الفلسطينية. كان تشرشل أغنى تجربة وأكثر دهاءً من الرئيس الأميركي في السياسة الشرق أوسطية. وما كان بوسعه أن يعد بما وعد به روزفلت، بمعنى التشاور مع العرب في الشؤون الفلسطينية. لقد حاول تشرشل استخدام تكتيك آخر.

ذكر عبد العزيز في ما بعد للمقدم إيدي في جدة أن تشرشل كان كأنما يلوّح بهراوة كبيرة، بمعنى أن بريطانيا ساعدت الملك 20 عاماً وأمّنت استقرار حكمه طوال 20 عاماً. ولذا، فما دامت

> بريطانيا ساعدت المملكة العربية السعودية في وقت الضيق، فيحق لها أن تأمل الآن في مساعدة الملك في حل المشكلة الفلسطينية. فلا يستطيع كبح جماح العناصر المتعصبة العربية إلا زعيم عربي قوي يصرّ على موقف معتدل من جانب العرب يساعد على التوصل إلى حل واقعي وسط مع الصهيونية[16].

وأكد عبد العزيز أنه رفض اقتراح تشرشل هذا، لكنه ربما كان أثناء الحديث معه أكثر حذراً. فبعد لقائه مع

تشرشل وصفه عبد العزيز في حديثه مع إيدي على النحو الآتي: البون شاسع جداً بين الرئيس روزفلت وبين تشرشل. السيد تشرشل يتلعثم في الكلام ويتحاشى الوضوح ويغيّر موضوع النقاش لتفادي الالتزامات ويحملني على العودة إلى الموضوع نفسه. أما الرئيس روزفلت فهو يتوخى الدقة في الحديث ويسعى إلى إزالة سوء الفهم وإلى توضيح المشكلة[17].

عاد عبد العزيز إلى جدة على متن الطراد البريطاني. وقد استقبله فيصل وأهالي المدينة بفرح وسرور.

في 5 أبريل 1945م كرر روزفلت وعده لعبد العزيز بالتشاور مع العرب في شأن فلسطين. جاء ذلك في رسالة رسمية قال فيها إن وعده هذا ليس مجرد رأي شخصي، بل هو تعهد صادر عنه "كرئيس للسلطة التنفيذية".

بعد أسبوع توفي روزفلت، وحلّ محله هاري ترومان، فتجاهل وعد سلفه.

في تلك الأثناء كان المقدم إيدي يعمل بصفة مخبر، فضلاً عن عمله الدبلوماسي. كان يريد معرفة تفاصيل صحة الملك عبد العزيز، لأنه يتلقّى أسئلة كثيرة من الولايات المتحدة: ماذا لو توفي الملك وسقطت العائلة الحاكمة؟ هل تتقسّم البلاد إلى 4 دول مختلفة؛ الحجاز ونجد والأحساء وعسير؟ ماذا سيكون مصير أرامكو التي هي أغنى مكسب تجاري في التاريخ؟ ماذا سيحصل للاستثمارات الأميركية في السعودية؟ من سيضع يده على مطار الظهران الهائل الذي هو أهم

قاعدة لقاذفات القنابل الثقيلة الاستراتيجية؟ كانت صحة العاهل السعودي في محط الأنظار أكثر من أي شيء آخر. وقد قال أحد الدبلوماسيين الأميركيين: "هذه هي المرة الأولى التي يهتم بها مخبرونا بتحاليل الإدرار والغائط لحاكم أجنبي".

رأى الأميركيون أن يدسوا مخبريهم بين الملاحين العشرة الذين ينبغي أن يقوموا على خدمة الطائرة، هدية روزفلت إلى الملك عبد العزيز. وصلت الطائرة في 14 أبريل 1945م، في يوم إعلان الحداد الرسمي على وفاة الرئيس روزفلت المفاجئة. وكان على متن هذه الطائرة جون فيلبي، الوسيط المهم بين الأميركيين والعاهل السعودي. آنذاك نشطت الاستخبارات الأميركية أعمالها في الجزيرة، وهي بحاجة إلى فيلبي الذي يعتبر من الموالين للأميركيين. رحب الملك بصديقه القديم، فصار مصدراً للمعلومات بالنسبة إلى الأميركيين من داخل المملكة مباشرة.

كانت الحرب العالمية الثانية لا تزال مستمرة. فتكاثرت على المملكة زيارات كبار المسؤولين من بريطانيا، مثل أنطوني إيدن وزير الخارجية البريطاني إبان الحرب ورئيس الوزراء في ما بعد، والفيلدمارشال آلان بروك القائد العام للأسطول البريطاني في البحر الأبيض المتوسط، وكذلك كيم، ابن جون فيلبي، الذي كان شخصية مهمة في الدوائر الأمنية البريطانية في الشرق الأوسط.

(أقيمت حفلات استقبال عديدة تكريماً لكيم فيلبي. وقد استقبله عبد العزيز نفسه في مأدبة، وأهداه ثياب أعرابي بينها عباءة مطرزة بالذهب مع 30 جنيهاً ذهبية تقبّلها كيم طبعاً. ولم يكن في ذلك ما يثير الاستغراب، لأن عدم قبول الهدية يعني إهانة للملك. إلا أن النظام السعودي لم يعجب كيم فيلبي صاحب الآراء الليبرالية الوردية المتفتحة).

في يونيو 1945م وقّع الأمير فيصل باسم المملكة العربية السعودية في سان فرنسيسكو وثيقة تأسيس الأمم المتحدة، وألقى كلمة أعرب فيها عن الثقة بأن هذه المنظمة ستسعى إلى خير العالم كله، ولم ينس أن يشكر الرئيسين الأميركيين روزفلت وترومان على مساهمتهما في الدعوة إلى عقد المؤتمر التأسيسي. وكانت تلك خطبة رائعة تقبّلها الحاضرون بارتياح.

افتتح المؤتمر في جو من الحماسة بهيج للغاية، والأمل كبير بنجاحه. كان كل وفد يصل إليه يستقبل بحفاوة وترحاب. أما وصول الوفد السعودي فقد كان من المفاجآت المثيرة. فقد وصل فيصل مع نجله عبد الله وإخوته محمد وفهد ونواف الذي كان في التاسعة من العمر. وقد أثار وصول الأمراء ومرافقيهم الزنوج اهتمام الناس ودهشتهم، فغصّت الصحف بصورهم وتجمهر العامة أمام الفندق ليلقوا نظرة عليهم. وكانت لغة فيصل الإنجليزية أفضل من المتوقع. وكان المسؤول عن الوفد السعودي هذه المرة هو السيد توبس من مديرية أمن وزارة الخارجية.

في اللحظات التي يتملص فيصل فيها من نظرة توبس الساهرة، كانت عيناه تشعان بزهو الشباب. وقد رافق فيصل آنذاك رئيس مكتبه الشيخ إبراهيم سليمان الذي كانت عيناه البنيتان الحيويتان كعيون الشباب في تعارض صارخ مع لحيته البيضاء وشعر رأسه الأشيب. لغته الإنجليزية أدنى مستوى من لغة فيصل، لكنه كان جاداً في إتقانها، يحمل معه دفتراً يسجل فيه كل كلمة جديدة عليه. وفي خارج الإطار الرسمي، كان الأمراء السعوديون يرتدون البزات الأوروبية، وقد بدوا فيها أيضاً أنيقين جداً.

خلال مكوث الوفد في سان فرنسيسكو، حلّ أعضاؤه ضيوفاً على جهات عدة، وقاموا بجولات في المتنزه في خارج المدينة، وتناولوا طعام العشاء في المطاعم الفاخرة. ونظمت لهم إحدى الجولات الترفيهية في متنزه تيلاند بارك، فوصلوا إليه بسيارات فخمة ومعهم منتسبو وزارة الخارجية وأصدقاؤهم. وفي بركة المتنزه استقلوا القوارب، وكان الأمير فيصل نفسه على المجذاف، وكذلك أخوه الأمير محمد والشيخ إبراهيم. لم يكن الأميران يجيدان التجذيف، فتبلل كل الجالسين في القارب. تلك كانت أول تجربة لهما مع المجذاف. ثم تناول الجميع وجبة السندويش، وحملهم المطر على العودة إلى منزل علي رضا المتزوج من أميركية، فتناولوا القهوة مع الفطائر هناك. وأدى أحد السعوديين عرضة السيوف تحت أنغام "جيرسي بونس"، وكان ماهراً في الأداء.

بعد مؤتمر السلام، ظل الأمير فيصل مع باقي أعضاء الوفد شهراً آخر في الولايات المتحدة. ثم غادر نيويورك بالباخرة "كوين ماري" إلى لندن. وكانت هذه السفينة في طريق العودة إلى بريطانيا لأول مرة بعد الحرب، فاستقبلت هناك بحفاوة وبمصاحبة الأوركسترا.

بدت الحياة لفيصل كأروع ما يكون. الاستقرار والأمن والاستقلال، كلها متوافرة في المملكة العربية السعودية. وإلى ذلك كسبت المملكة صديقة جديدة جبارة هي الولايات المتحدة، لا سيما أن العلاقات معها ساعدت على التخفيف من ضغوط بريطانيا العظمى، خاصة أن الرئيس الأميركي السابق وعد بأخذ رأي العرب في الاعتبار في أهم مسألة بالنسبة إليهم، وهي مصير فلسطين.

في الثالث من سبتمبر من العام نفسه انتهت الحرب العالمية الثانية باستسلام اليابان في الشرق الأقصى، إلا أن التناقضات اشتدت بين الحلفاء بعد ذلك ببضعة شهور في شأن سحب القوات السوفياتية من شمال إيران. وبات الشرق الأوسط إحدى أهم مناطق التناقضات بين الولايات المتحدة من جهة والاتحاد السوفياتي من جهة أخرى. كانت "الحرب الباردة" على الأبواب، وقد شغلت مكاناً خاصاً فيها المملكة العربية السعودية التي بات تعاونها مع الولايات المتحدة أكثر وثوقاً ومتانة بمرور الزمن. ولكن اتضح أن الرئيس الأميركي الجديد هاري ترومان ينظر إلى مصير

فلسطين والعلاقات مع الصهاينة بمنظار يختلف تماماً عن منظار سلفه روزفلت.

الفصل التاسع

خريف العمر

زار الأمير فيصل الولايات المتحدة عام 1948م لمقابلة الرئيس ترومان ووزير خارجيته دين آتشيسون الذي كتب التوصيف الآتي عن الأمير:

> عندما تحدث فيصل إلى الرئيس ترومان، خُيّل إليّ أن أفكارهما تتقاطع فيما بينها، ولا تلتقي. فالأمير مشغول البال بالشرق الأوسط والرئيس مشغول البال بمصير اليهود المهجرين في أوروبا... الأمير ترك في نفسي انطباع رجل يمكن أن يكون عدواً لدوداً يجب أن يحسب له الحساب بكل جدية[1].

ولم يلاحَظ عند الأميركيين رأي من هذا النوع بخصوص وليّ العهد الأمير سعود.

لقاء فيصل مع ترومان حصل في أعقاب الدورة الشهيرة للجمعية العامة للأمم المتحدة، حيث حزّ قرار الولايات المتحدة بدعم تقسيم فلسطين في قلب الأمير وآلمه أشد إيلام. ولم يكن يعرف آنذاك أن الرئيس الأميركي صمّم على القيام بهذه الخطوة منذ عام 1945م.

ففي أكتوبر 1945م استدعى وزير الخارجية الأميركي أربعة من رؤساء البعثات الدبلوماسية في

الشرق الأوسط ليعرضوا على ترومان آراءهم في ما يخص الأضرار التي ستلحق بالمواقع الأميركية في المنطقة، ورافقهم مدير قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية خلال لقائهم مع ترومان شخصياً. طرح عليهم الرئيس عدة أسئلة في الموضوع. ثم أوجز، أخيراً، موقفه قائلاً بمنتهى الصراحة:

> آسفٌ يا سادة، ولكن عليّ أن ألبّي طلبات مئات الآلاف من الأميركيين الراغبين في انتصار الصهيونية. وليس لديّ مئات الآلاف من العرب بين الناخبين المؤيدين لي[2].

وفي خريف عام 1947م، قبل فترة وجيزة من انعقاد دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة التي أقرّت خطة تقسيم فلسطين، التقى الرئيس ترومان في واشنطن برؤساء الممثليات الدبلوماسية الأميركية في المملكة العربية السعودية وباقي الأقطار العربية، واستمع إلى تقاريرهم بشأن ردّ الفعل السلبي الذي أثاره تأييده للمخططات الصهيونية.

كانت الخارجية الأميركية ووزارة الدفاع قد تقدمتا في عام 1947م بحجج دامغة ضد التأييد الأميركي لخطة تقسيم فلسطين، وأشارتا إلى وجود مصالح حيوية مهمة للولايات المتحدة في العالم العربي. إلا أن ترومان بتّ تلك المسألة آنذاك، وإلى الأبد كما يبدو، بتكرار موقفه السابق في صيغة نهائية قطعية.

لقد انطلق ترومان في قراره، بالدرجة الأولى، من الاعتبارات المرتبطة بالانتخابات الرئاسية لعام 1948م.

بعد تجربة مريرة وخيبة أمل عميقة، ومن خلال تحليل التجارب والأخطاء على أرض الواقع، تأكد الأمير فيصل أن العلاقة مع إسرائيل بالنسبة إلى الولايات المتحدة مشكلة تخص السياسة الداخلية لهذه البلاد، وليس سياستها الخارجية. وبات هذا الأمر أكثر وضوحاً بالنسبة إليه، مع تزايد قوة مراكز الضغط الصهيونية ونفوذها، وتأثير وسائل الإعلام على العملية السياسية في الولايات المتحدة. وفي ما بعد، عندما كسبت المملكة قدرات مالية هائلة، أخذ الملك فيصل، في آخر عهده، يعمل على إيجاد مراكز ضغط عربية في الولايات المتحدة في مقابل مراكز الضغط الصهيونية.

أما في عام 1947م، فقد ظل الأمير فيصل، حتى لحظة التصويت في الأمم المتحدة على السيناريو الأميركي لتقسيم فلسطين إلى دولتين عبرية وعربية، يصدق العهد الذي قطعه روزفلت لوالده الملك عبد العزيز وتعهدات الدبلوماسيين الأميركيين في شأن الاستئناس برأي العرب وأخذه بالحسبان.

اتخذ قرار تقسيم فلسطين بـ33 صوتاً في مقابل 13. وكانت تلك ضربة موجعة لكرامة فيصل ومكانته كممثل للوفود العربية. وعندما أقرّ الرئيس الأميركي تأسيس الدولة اليهودية، شعر فيصل بالإهانة وخيبة الأمل، واعتبر تصرفات ترومان إهانة لكل العرب.

كان فيصل يعد قيام الدولة العبرية في قلب العالم العربي مخالفة لميثاق الأمم المتحدة الذي يدعو إلى الاستقلال والعدالة وتقرير المصير لجميع الأمم

والشعوب. وقد عارض تقسيم فلسطين، مشدداً على أن هذه البلاد أرض عربية، وأن تسليم جزء منها إلى اليهود مخالفة لميثاق الأمم المتحدة. وقال في كلمته في الجمعية العامة:

> لقد تعهدنا أمام الله والتاريخ بأن ننفذ الميثاق بإخلاص وحسن نية، وبذلك نحترم حقوق الإنسان ونصدّ كل عدوان. ولكن للأسف، فإن قرار اليوم قد هدم الميثاق وكل المواثيق التي سبقته[3].

وأضاف الأمير فيصل:

> لقد شعرنا مثلما شعر الآخرون بالضغط الذي أُجري على عدة مندوبين في هذه المنظمة من قبل بعض الدول الكبرى، وذلك لكي يكون تصويتهم في صالح مشروع التقسيم، ولهذه الأسباب فإن حكومة المملكة العربية السعودية تودّ أن تسجل في هذه المناسبة التاريخية أنها لا تعتبر نفسها ملزمة بالقرار الذي تبنّته الجمعية العامة اليوم، وبالإضافة إلى ذلك فإنها تحتفظ لنفسها بكامل الحق في حرية التصرف بالطريقة التي تراها تتناسب مع مبادئ الحق والعدالة[4].

ولم يُخفِ الأمير غضبه وخيبة أمله من الموقف الأميركي.

وبدأت الصحافة الأميركية حملة تشهير بالمملكة العربية السعودية، ولم يكن السعوديون يفهمون حرية

الصحافة على هذه الصورة.

يقول السفير نديم دمشقية:

> في العام 1947 كان الملك فيصل وعد أعضاء الوفود العربية بأن المسألة سوف تُحلّ لصالح العرب وليس لصالح اليهود، بناءً على كلام الأميركان. إلا أنه وجد نفسه في موقف محرج جداً. والأكثر من ذلك أنهم قاطعوه مدة طويلة ولم يستقبلوه. ثم رتّبوا شؤونهم معه. وهو في الحقيقة ضيّع ثقته بهم[5].

عاد فيصل إلى الوطن مكتئباً في مزاج من تعرّض لخديعة لا أبشع منها. وفي نهاية أغسطس 1948م زاره السفير البريطاني في الطائف، فاندفع الأمير في نقد لاذع للتأييد الأميركي لليهود في المسألة الفلسطينية. ونقل السفير البريطاني مضمون الحديث إلى الأميركيين. بعد أن عرض فيصل بمرارة وأسف قائمة الأفعال الأميركية التي تكلّلت باعتراف الولايات المتحدة بإسرائيل في الواقع حتى قبل إعلان تأسيسها، قال إن الأميركيين لا يتحلّون بالحكمة السياسية ولا بالأخلاقيات. وهو يعتقد أن الأميركيين ماديون لا يهتمون بمبادئ الأخلاق. ولذا تعوزهم الحكمة في القضايا الإنسانية التي لا تقوم إلا على تلك المبادئ. ونصح فيصل الإنجليز بأن يعلّموا الأميركيين الحكمة السياسية والرشاد.

وأضاف أن معظم الدبلوماسيين في الشرق الأوسط، على حدّ علمه، يتفهّمون عدالة الموقف العربي. وقد دهش كل الدهشة لعدم أخذ رأيهم في الاعتبار في الولايات المتحدة.

وزادت في مرارة تقويمه للموقف هزيمة الجيوش العربية في أول حرب ضد إسرائيل واستيلاؤها على أراضٍ عربية جديدة. كذلك حزّ في نفسه وقوع الضفة الغربية لنهر الأردن تحت سيطرة الهاشميين المناوئين للمملكة العربية السعودية.

عندئذ دق الدبلوماسيون الأميركيون ناقوس الخطر. فإنّ تحوّل شخص مثل فيصل إلى عدو للولايات المتحدة أمر في منتهى الخطورة. ولذا تحدث الكتاب السري المؤرخ في 3 سبتمبر 1948م عن مهمة "إعادة الأمير فيصل إلى الحظيرة الأميركية"، وهي مهمة تتوقف كلياً على "سياستنا إزاء فلسطين وإزاء القضايا الأخرى. فإن إعجابه بإنجازات أميركا قد خفت من زمان"[6].

لقد أتقن عبد العزيز وفيصل بسرعة لهجة خطاب "الحرب الباردة" من خلال العلاقة مع الولايات المتحدة وبريطانيا، وهي لهجة تسرّ أسماع الأميركيين. فرغم الاعتراضات على الولايات المتحدة كانت المملكة مع الأميركيين في جانب واحد من المتاريس. وكان التهجّم على الاتحاد السوفياتي والشيوعية أمراً سهلاً على الزعماء السعوديين لغياب العلاقات الدبلوماسية مع السوفيات، ولأن الشيوعية الملحدة غريبة بالمطلق على

الملك وابنه المتدينين، فيما كان تأييد موسكو لإسرائيل في الشهور الأولى من وجودها أمراً مفضوحاً في العالم العربي.

"العلاقات الخصوصية" بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة التي أُرسيت أسسها في الثلاثينيات والأربعينيات، وكذلك تفهّم المصالح المشتركة بين البلدين، قد صمدت حتى محنة 1947-1948م، على الرغم من الهزات الشديدة التي تعرضت لها تلك العلاقات أكثر من مرة. فإن حسابات الأعصاب الباردة العقلانية جعلت عبد العزيز وفيصل يبنيان سياستهما الخارجية على أساس التعاون مع الولايات المتحدة.

في 31 ديسمبر 1950م بعث الرئيس ترومان برسالة إلى الملك عبد العزيز أعرب فيها عن نية الولايات المتحدة دعم سيادة المملكة وحرمة أراضيها. وقام هذا الالتزام على البلاغ الثلاثي الذي أقرّ عام 1950م ووعدت فيه الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بمقاومة أي محاولة لتغيير الحدود في الشرق الأوسط بالقوة. كتب الرئيس الأميركي ليندن جونسون عن ذلك الالتزام في ما بعد يقول:

> لقد أيدنا حرمة أراضي جميع دول المنطقة. التزامنا هذا غير مسجل في أي معاهدة، إلا أنه قائم على البلاغ الثلاثي لعام 1950م. وقد أعلنا نحن الرؤساء الأربعة - ترومان

وأيزنهاور وكندي وأنا - تقيدنا بهذا الالتزام على رؤوس الأشهاد[7].

وصل فيصل إلى الولايات المتحدة سنة 1952م للمشاركة في أعمال الجمعية العامة، وعاد إلى هناك في مطلع العام التالي. التقى الرئيس الأميركي الجديد أيزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دالاس، وحصل الأمير على تأكيدات لرسالة ترومان، لكنه لم يحصل على تأييد أميركي في مسألة الخلاف مع بريطانيا على واحة البريمي. وسنتناول هذا الموضوع في ما بعد.

كان الخبراء المختصون في شؤون الشرق الأوسط في واشنطن يدركون هم أيضاً أهمية التعاون مع المملكة العربية السعودية. ففي سبتمبر 1950م بعثت الخارجية الأميركية إلى الرئيس بمذكرة سرية جاء فيها:

> إن نفط الشرق الأوسط مهم للولايات المتحدة، لأن استهلاكه يحفظ الموارد النفطية في النصف الغربي من الكرة الأرضية والتي هي ضرورية كل الضرورة للأمم المتحدة في المواقف الطارئة.

في أواخر الأربعينيات توصلت اللجنة المشتركة للبنتاغون ووزارة الخارجية إلى استنتاج يقول إن أمن المملكة العربية السعودية مهم حيوياً للأمن القومي في الولايات المتحدة، وأوصت بإيفاد المدربين العسكريين وإرسال الأسلحة إلى المملكة.

واعتباراً من عام 1942م كانت تعمل في المملكة بعثة عسكرية أميركية تتولى إعادة تنظيم الجيش السعودي والتشكيلات العسكرية البدوية. وفي عام 1946م دشنت القاعدة الجوية الأميركية في الظهران. وكانت تعمل في المملكة منذ عام 1942م بعثة جيولوجية، وكذلك بعثة زراعية افتتحت عدة مزارع نموذجية. وفي يناير 1949م أعلن في واشنطن "برنامج ترومان" الذي نصّت النقطة الرابعة فيه على تقديم المساعدات الفنية للبلدان الأجنبية. وفي إطار مساعدات "النقطة الرابعة" تسلّمت المملكة العربية السعودية في الفترة 1952-1954م حوالى 5 ملايين دولار لتطوير الزراعة والنقليات واستثمار الموارد الطبيعية.

أما في شأن القضايا الإقليمية، فكان عبد العزيز وفيصل يعربان دوماً عن مخاوفهما من خطط الهاشميين الذين حكموا العراق وشرق الأردن. فإن مشروعهم "سوريا الكبرى" أو "الهلال الخصيب" اعتبرته المملكة العربية السعودية خطراً فعلياً يتهددها. وعلى أساس مناهضة الهاشميين تعاونت السعودية مع الملك فاروق في مصر.

ومنحت المملكة العربية السعودية حق اللجوء السياسي لرشيد عالي الكيلاني قائد الحركة المناهضة للإنجليز في العراق عام 1940م، وكان مقيماً في ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وبهذا الخصوص

التقى المندوب البريطاني في جدة الملك عبد العزيز وطالب بتسليم الكيلاني فوراً "كمجرم حرب".

كان الأمير فيصل حاضراً في هذا اللقاء بصفته وزيراً للخارجية، فردّ قائلاً بكل حدة وبلا تسامح:

> اعلموا أن رشيد عالي الكيلاني هو عندنا لاجئ سياسي، وقد قبلنا التجاءه وارتبط بذلك شرفنا، فلن نسلمه قط، ومن أراد أن ينتزعه من بيننا فسوف يجدنا أمامه، ولن يخلص إليه إلا على جثثنا نحن آل سعود قبل كل الناس ... قال هذا أو ما معناه، ثم أقبل على أبيه الملك عبد العزيز يسأله العفو عن تسرعه في الرد، فبارك الملك قول ابنه فيصل وأيّده

كما يؤكد منير العجلاني[8].

كان هذا الجواب مطابقاً للتقاليد العربية الحقة. وكان في الوقت ذاته تحدياً لحكومتي بريطانيا والعراق.

ولقد عقدت المشكلة الفلسطينية الموقف بين شركة أرامكو الأميركية والمملكة العربية السعودية. فهدد الملك عبد العزيز بسحب امتياز الشركة ومنحه للإنجليز إذا دعمت الولايات المتحدة الصهاينة وأسست دولة إسرائيل. وقوبل هذا التهديد بجدية. وحاول مدير الشركة فريد ديفيس وفريقه إقناع الملك عبد العزيز ومستشاريه والأمير فيصل بأن "المشكلة الإسرائيلية غير مرتبطة بعلاقات الشركة مع الولايات المتحدة"[9].

كان عبد العزيز وفيصل يدركان بالطبع أن القطيعة مع أرامكو أمر مستحيل. فالرهان كبير جداً.

ثم إن لأرامكو في الكونغرس الأميركي في الفترة 1946-1949م أربعة مراكز ضغط مسجلة. وإلى ذلك كانت الشركات المساهمة في أرامكو ترشح ممثليها لمناصب حكومية مهمة في الولايات المتحدة. وعلى سبيل المثال، جون فوستر دالاس الذي شغل منصب وزير الخارجية في الفترة 1953-1959 انتقل إلى الوزارة من رئاسة مجلس الوصاية في مؤسسة روكفلر.

طوال الفترة 1945-1950م اكتشفت أرامكو المزيد من حقول النفط الواحد تلو الآخر، وعلى مساحات أثارت دهشة أكثر الجيولوجيين خبرة وحنكة. وفي مايو 1951م اكتُشف أحد أكبر حقول النفط في العالم هو حقل السفانية المغمور، في الجرف القاري للخليج العربي، كما اكتشف أكبر حقل نفطي بري في العالم، وهو حقل غوار، في بداية الخمسينيات أيضاً.

وجرى توسيع الميناء النفطي في رأس تنورة. ففي منتصف الستينيات وصلت قدرة المصفاة في رأس تنورة تدريجاً إلى 15 مليون طن سنوياً على وجه التقريب، ثم تضاعفت. وشيّد مصنعان آخران لإنتاج المشتقات البترولية في جدة والرياض.

بعد الحرب العالمية الثانية أدى استعمال الوقود السائل في توليد الكهرباء وانتشار السيارات وتطور الصناعات الكيميائية إلى نشوء طلب غير مسبوق على النفط، وخصوصاً في الجزء الشرقي من الكرة الأرضية.

فالكثير من مناطق العالم التي كانت متخلفة عن الولايات المتحدة في استهلاك النفط أخذت تلحق بها.

وكانت الأطراف المساهمة في شركة أرامكو قد حسبت منذ الحرب العالمية الثانية أن مدّ أنبوب للنفط من المملكة العربية السعودية إلى البحر الأبيض المتوسط يقلص نفقات نقل البترول إلى أوروبا. وتقرر مدّ أنبوب طوله 1712 كيلومتراً بقدرة 15 مليون طن سنوياً من حقول أبقيق في المملكة إلى الساحل اللبناني ليس بعيداً عن صيدا، على أن تزداد القدرة التمريرية للأنبوب في ما بعد إلى 20 مليون طن. لقد كان أكبر أنبوب في العالم في ذلك الوقت.

في يوليو 1945م أسّست الأطراف المساهمة في أرامكو شركة "التابلاين" لإنشاء خط أنابيب بترولي من القطيف إلى صيدا.

كانت الشركات البريطانية وحكومة بريطانيا العظمى عاجزة عن منع زيادة استخراج النفط من قبل أرامكو. إلا أنها حاولت إعاقة وصول أنبوب النفط من المملكة إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وكان الصراع السياسي في سورية ولبنان بعد الحرب العالمية الثانية مرتبطاً بنحو مباشر أو غير مباشر بالتنافس الأنجلوأميركي على البترول.

أيّد عبد العزيز حكومة حسني الزعيم التي تسلمت السلطة في سورية بعد انقلاب عسكري في مارس 1949م، وكانت على ارتباط بالولايات المتحدة. فقدم الملك عبد العزيز لهذه الحكومة قرضاً بمبلغ 6 ملايين

دولار. وكان حسني الزعيم يعارض مخططات "سوريا الكبرى" و"الهلال الخصيب" التي بادر إليها أمير شرق الأردن عبد الله وأيّدها الإنجليز. وأبرم حسني الزعيم الاتفاقية الموقّعة سابقاً لمدّ أنبوب النفط عبر الأراضي السورية.

وبعد الانقلاب العسكري الثاني الذي جرى في أغسطس 1949م جاءت حكومة جديدة في سورية برئاسة سامي الحناوي واتبعت سياسة موالية للإنجليز. فأعلنت فسخ اتفاقية مدّ أنبوب النفط وأيّدت فكرة "سوريا الكبرى".

أما أديب الشيشكلي الذي قام بانقلاب حكومي جديد في سوريا في ديسمبر من العام نفسه، أي عام 1949م، فقد أعاد الاعتبار إلى الشركات النفطية الأميركية وأعاد إليها مواقعها وسمح بمدّ أنبوب النفط. وعندما سقط نظام الشيشكلي في فبراير 1954م لجأ الرجل إلى المملكة العربية السعودية.

في عام 1950م تمّ مدّ وتدشين أنبوب النفط عبر الجزيرة العربية بقيمة 230 مليون دولار.

كان التطور السريع للصناعة البترولية في المملكة العربية السعودية بعد الحرب العالمية الثانية قد جعل شركتي "سوكال" و"تكساكو" تدركان أن الأموال المتوافرة لديهما غير كافية لاستثمار الحقول النفطية السعودية الهائلة، بما في ذلك مدّ أنبوب النفط وتأمين أسواق التصريف لمثل هذه الكميات من النفط. ولذا قررتا أن تتعاونا مع شركتي "ستاندرد أويل كومباني

أوف نيوجيرسي" و"موبيل أويل". وجرى الاتفاق على مساهمتهما في أرامكو في أواخر عام 1946م. إلا أن الشركات البريطانية ظلت تقاوم هذا القرار عامين آخرين، ذلك لأن "جيرسي" و"موبيل" وقّعتا في حينه اتفاقية "الخط الأحمر". وتدخلت وزارة الخارجية الأميركية دفاعاً عن مصالح أرامكو في الجدل مع حكومتي فرنسا وبريطانيا بشأن مخالفة هذه الاتفاقية. وفي نوفمبر 1948م انضمت الشركتان الأميركيتان العملاقتان الأخريان إلى أرامكو، فأسدل الستار على اتفاقية "الخط الأحمر" لعام 1928م.

واعتباراً من عام 1948م كانت أسهم أرامكو موزعة على النحو الآتي: "سوكال" 30٪، "تكساكو" 30٪، "ستاندرد أويل كومباني أوف نيوجيرسي" 30٪، "موبيل أويل" 10٪.

كانت أرباح استثمار الموارد النفطية في حوض الخليج العربي كبيرة إلى درجة جعلت الشركات الدخيلة تلج الساحة الغريبة عليها مستعدة لشراء الامتيازات بأسعار أكثر نفعاً للحكومات المحلية. وكانت من بينها شركات أميركية مستقلة لها وزنها. وجاء ظهور الشركات من خارج اللعبة ليبيّن للحكومة السعودية مقدار المال الذي كان ينبغي أن تدفعه لها أرامكو ولم تدفعه. وباتت تلك الشركات ورقة رابحة بيد الحكومة للمطالبة بإعادة النظر في اتفاقيات الامتياز.

ومن أواخر الأربعينيات باتت الحكومة السعودية أكثر شطارة في عالم المال والصفقات الدولية، ففهمت

حجم العائدات الهائلة التي تستأثر بها أرامكو، وأخذت تطالب بتوزيع للأرباح أكثر عدالة. كان السعوديون على علم بنجاحات فنزويلا التي حصلت على زيادة كبيرة في عائدات الامتيازات النفطية، فوقّعوا بأنفسهم اتفاقاً مع شركة "غيتي أويل" بشروط أفضل بكثير من شروط أرامكو.

في عام 1950م صدر المرسومان الملكيان المؤرخان في 4 نوفمبر و27 ديسمبر بفرض ضريبة الدخل على الربح الصافي لجميع الشركات الأجنبية العاملة في المملكة. وبعثت أرامكو احتجاجاً رسمياً على ذلك. إلا أن الإجحاف في اتفاقية البداية واضح للعيان. ففي المملكة العربية السعودية، مالك الأرض والحكومة شخصية اعتبارية واحدة، خلافاً للبلدان الأخرى، بما فيها الولايات المتحدة. هناك، خلافاً للمملكة، تدفع الشركات إيجاراً لصاحب الأرض وضريبة للحكومة.

بعد مباحثات متوترة، تمّ في 30 ديسمبر 1950م توقيع اتفاقية جديدة ثبّتت ضريبة على عائدات تسويق النفط. وكان ذلك إنجازاً كبيراً للمملكة، حيث تضاعفت عائداتها تقريباً في الفترة من 1950م إلى 1957م. إلا أن عيب هذه الاتفاقية يكمن في حساب تلك العائدات على أساس العائدات الإجمالية لأرامكو. فقائمة الأسعار تضعها الشركات الأم التي تبيع النفط بأسعار أرخص للشركات التجارية أو شركات النقل المتفرعة عنها في كافة أرجاء العالم، وبالتالي فإن مستحقات الحكومة

السعودية تغدو أقل من المداخيل أو العائدات الفعلية للشركات الأم المساهمة في شركة أرامكو.

وعلى الرغم من ازدياد عائدات الحكومة السعودية، فإن كلفة النفط على أرامكو أقل بعشر مرات من كلفته في الولايات المتحدة وبخمس مرات من كلفته في فنزويلا.

كان يعمل في أرامكو في نهاية عام 1943م نحو 3000 عامل ومهندس ومستخدم. وفي أواخر الأربعينيات بلغ عددهم 20400 موظف، إضافة إلى المتعهدين والوكلاء. وفي بداية الخمسينيات تحولت الظهران إلى مدينة أميركية مصغرة يقيم فيها نحو 10 آلاف شخص. وفي كل من مدينتي أرامكو الأخريين - أبقيق ورأس تنورة - خمسة آلاف شخص. ومن بين الـ20400 شخص العاملين في أرامكو، كان هناك 4 آلاف أميركي و3 آلاف أجنبي و13400 سعودي. وبحساب العوائل يبلغ مجموع الأميركيين الذين كانت لهم علاقة بأرامكو 6400 شخص.

ورغم رغبة الطرفين في التعاون، لم يكن هناك مفر من الاحتكاكات، بل والعداوات في الغالب. فالمدن الثلاث مقسمة إلى عدة حارات على أساس اجتماعي وقومي. مستخدمو أرامكو الأميركيون يقيمون في شقق مكيّفة تتوافر فيها كل أسباب الراحة، في منازل تسبح بالأعشاب والزهور. فيلات الأميركيين المبنية على طراز العنابر والثكنات الجيدة نوعاً ما تبدو اليوم متواضعة جداً بالمقارنة مع القصور الفخمة لرجال

الأعمال وكبار الموظفين السعوديين في الدمام والهفوف والظهران. ولكنها بدت في الأربعينيات والستينيات في ذروة الأبهة والفخامة. وإلى جانبها مشتملات من الخرسانة المسلحة للعمال السعوديين المؤهلين، وللباقين خرائب بنيت كيفما اتفق مما هو متوافر من مواد. كان "الكفار" ذوو العيون الزرقاء يضطهدون العمال السعوديين الأجراء ويعاملونهم كأناس من أردأ الأنواع. وكانت الأجور زهيدة، فيما المساكن والخدمات الطبية غالية، والتمييز في كل مكان.

كان العمال السعوديون يعيشون في عالم آخر. الدافع الأول الذي يقودهم إليه هو إمكان الكسب. في البداية استخدمت أرامكو أسرى الحرب الإيطاليين السابقين الذين أسرهم الإنجليز في أفريقيا الشرقية في 1940-1941. وكان بعضهم ماركسيين أوضحوا للعمال العرب أنهم يتعرضون لاستغلال بشع. ثم استبدلت الشركة الإيطاليين بالفلسطينيين، فنقلوا إلى زملائهم في العمل أفكار القومية العربية والانتماء إلى العروبة ومرارة ضياع فلسطين. وظهرت بين العمال تنظيمات سرية، وأعلن أول إضراب عن العمل في سنة 1945م.

وفي أكتوبر 1947م أقرّ مجلس الوكلاء (الوزراء) الذي ترأسه الأمير فيصل نظام العمل الذي وضع بالاستفادة من تجربة القوانين المصرية. وتقرر تطبيق أسبوع العمل من ستة أيام بثماني ساعات في اليوم في

جميع المؤسسات التي يتجاوز عدد عمالها الأجراء عشرة أشخاص.

وأخذ العمال السعوديون في الأربعينيات يطالبون بزيادة الأجور وتحسين ظروف المعيشة وتوفير الخدمات الطبية وإزالة التفرقة والتمييز. وأُخمدت القلاقل والاضطرابات، إلا أنها كانت سبباً لقلق إدارة أرامكو. وأُعلن الإضراب العام في سنة 1952م، فأقدمت إدارة الشركة على عدة تنازلات.

كان ذلك "ضغطاً من تحت". وكان هناك "ضغط من فوق" يزداد أيضاً، من جانب الملك عبد العزيز والأمير فيصل. فبتكليف من والده دخل فيصل في عملية أخذ ورد مع أرامكو. كانت المهمة هي عدم ذبح الدجاجة التي تبيض ذهباً، ومحاولة الحصول على مزيد من البيض.

لم تقتصر قضايا المدفوعات على ضريبة الأرباح. فقد التزمت أرامكو في حينه بدفع إيجار الأرض ذهباً. إلا أن سعر الذهب ارتفع كثيراً إبان الحرب العالمية الثانية، واستغرقت مباحثات المدفوعات مئات الساعات، إلى أن تم التوصل أخيراً إلى حل وسط. وافقت أرامكو على دفع 12 دولاراً مقابل "الجنيه الإسترليني الذهبي" الموعود، بدلاً من سعر صرفه في نيويورك الذي كان يعادل 8.24 دولارات. إضافة إلى ذلك، التزمت الشركة بمدّ سكة حديد تربط بين الرياض والميناء العميق الجديد في الدمام.

وبهدف رسم سياسة الأسعار، وبالتالي المدفوعات المستحقة للمملكة العربية السعودية، ألّفت أرامكو ما سمي باللجنة التنفيذية (الأيكسكوم). وهي هيئة لم يسمح للعرب بدخولها. وسرعان ما أدرك السعوديون أن الأيكسكوم بالذات هي التي تحدد أسعار النفط ومبلغ الإيجار. ولم توافق هذه اللجنة على قبول سعوديين اثنين في عضويتها إلا في بداية الخمسينيات، وذلك خوفاً من التأميم في أوج الأزمة الإيرانية آنذاك. إلا أن أصحاب الشركة ألّفوا في 1959م لجنة سرية غير الأيكسكوم لوضع الاستراتيجية النفطية. ولم يكن السعوديون يعلمون شيئاً عن هذه اللجنة التي سمّيت الآنكوم (لجنة الاتفاقات والمباحثات).

لم تكن الخلافات مع شركة أرامكو لتمنع إدارتها من التعاون مع عبد العزيز وفيصل عندما تتفق مصالح الطرفين، مثل رغبة كلا الطرفين في بسط أو استعادة السيادة السعودية على واحة البريمي. ونحن هنا نستبق الأحداث، فنتناول قضية البريمي التي "أشرف" عليها الأمير فيصل، لكي نأخذ فكرة متكاملة عن النزاع على هذه الواحة.

كان سبب الجدل والخلافات هو الحدود غير المرسومة بين المملكة العربية السعودية والمحميات البريطانية في قطر ومشيخات ساحل عمان المتصالح ومحميات عدن (جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية في ما بعد) واليمن في منطقة الربع الخالي، وكذلك الحدود البحرية مع البحرين والكويت. وفي الأربعينيات

شملت أعمال التنقيب عن النفط معظم أراضي الجزيرة العربية. وباتت عائدية قطاعات كاملة من الأراضي الصحراوية أو الجرف القاري التي لم تكن لها قيمة اقتصادية في السابق مثار جدل وخلافات بسبب احتمالات اكتشاف النفط فيها.

وحصل بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا في نهاية الأربعينيات خلاف على مجموعة واحات البريمي. وكانت تدّعي عائديتها إمارة أبو ظبي وسلطنة مسقط، وهما محميتان بريطانيتان آنذاك، والمملكة العربية السعودية.

استمر النزاع سنوات طويلة، والحديث عنه طويل مرير. إلا أننا نكتفي بلمحة مقتضبة للغاية.

كانت البريمي عبارة عن تسع واحات تؤلف تقليدياً نقطة تقاطع طرق القوافل في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية، وقد ضمت إلى الدولة السعودية الأولى في سنة 1795م. وكان السعوديون يعتبرون البريمي جزءاً من المنطقة الشرقية حيث استمرت سيطرتهم على هذه المجموعة من الواحات 155عاماً. وقد سمحوا للجيولوجيين من شركة أرامكو بالتنقيب عن النفط هناك، فاعترضت بريطانيا على موقفهم هذا، معلنة أن فترة السيطرة السعودية لمحة قصيرة في تاريخ البريمي العائدة إلى أبو ظبي وسلطنة مسقط.

وطالبت الحكومة البريطانية نيابة عن أبو ظبي ومسقط بوقف أعمال التنقيب في "أراضٍ عائديتها محل خلاف". وقرر عبد العزيز ألا يؤزّم الخلاف، فأمر

بسحب جيولوجيي أرامكو وإرجاء أعمال التنقيب حتى يتم الاتفاق على الحدود بعد التدقيق فيها.

إلا أن شركة الزيت الإنجليزية الإيرانية (بريتيش بتروليوم في ما بعد) شرعت في أعمال التنقيب الجيولوجي في المنطقة التي "عائديتها محل خلاف" على حدّ تعبير الإنجليز.

وعلى الرغم من أن الملك عبد العزيز، وهو في خريف العمر، يمسك رسمياً بزمام الحكم، إلا أن أهم مسائل السياسة الخارجية الكبرى أخذت تنتقل أكثر فأكثر إلى الأمير فيصل. وبدأت "الحرب الباردة" الصغرى بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا، في الميدان الدبلوماسي أول الأمر. وهنا أيضاً مكّنت خبرة الأمير فيصل الطويلة ومعرفته بوقائع الجزيرة العربية من كسب الجولة الدبلوماسية تلو الجولة أو تحقيق التعادل في الصراع، قبل أن يلجأ الإنجليز إلى القوة العسكرية.

في البداية حاول الإنجليز الدفاع عن موقفهم استناداً إلى اتفاقية عام 1913م مع الحكومة العثمانية التي تنص على وجود خط مباشر من محميات عدن حتى قطر يقسم منطقتي النفوذ في الجزيرة. كل الأراضي الواقعة جنوبي وشرقي هذا الخط للإمبراطورية البريطانية. وهذا يوسع حدود إمارات ومشيخات ساحل عمان المتصالح لتشمل البريمي أيضاً.

وفي الحال تشبث عبد العزيز وفيصل بنقاط الضعف في الحجج البريطانية هذه. فالدولة السعودية أعيدت إلى نجد والأحساء قبل عام 1913م، واتفاقية الدول

الأخرى بشأن الحدود وقعت من دون موافقة حكومة نجد. هذا أولاً، وثانياً الاتفاقية المذكورة لم تبرمها لندن والأستانة، ولذا فهي لاغية أصلاً.

في أغسطس 1951م جرى في لندن لقاء بين الوفد السعودي برئاسة وزير الخارجية الأمير فيصل والوفد البريطاني برئاسة وزير الخارجية هربرت موريسون. واحتفظت أرشيفات الخارجية البريطانية ببروتوكولات تفصيلية لـ11 جولة من المباحثات المتوترة، خاضها عن الجانب البريطاني مسؤول كبير في الخارجية هو ر.ج. بوكر المتضلع في القضايا العربية والقانون الدولي، وعن الجانب السعودي الأمير فيصل نفسه. ولم يقتصر الجدل على البريمي، بل تناول أيضاً عائدية الجرف القاري والجزر والمضاحل في الخليج العربي، والتي كانت الكويت والبحرين تدَعيان عائديتها. كان الطرفان يدركان أن المقصود هو السيطرة على حقول النفط الكبرى المتوقعة في الجرف القاري (والتي اتضح في ما بعد أنها حقول هائلة). وكشف فيصل عن معرفة عميقة في الجوانب القانونية الدولية من القضايا موضوع البحث، وكذلك في العلاقات القائمة تقليدياً مع المشيخات والإمارات. واقترح رأساً عدم مناقشة مسألة صيد الأسماك واللؤلؤ، لعلمه بأن جباية الضرائب من هذا الصيد أمر يتعلق بسيادة الكويت والبحرين على الجزر غير المأهولة. ووافق بوكر على ذلك وخفّف من حدة موقفه، فيما فصل الأمير فيصل بين مسألة الخلافات مع الكويت والبحرين وبين النزاع على البريمي. وفي

الحالة الأولى أصرّ على عائدية الجزر والمضاحل موضع الخلاف إلى المملكة العربية السعودية من دون قيد أو شرط، لكنه قال إن الحل لا يتم إلا بطريقتين: 1) على أساس قانوني حقوقي، و2) على أساس التخلي عن جميع الدعاوى وفقاً للعقل السليم بأفضل نحو عملي وودّي[10].

ونشير هنا إلى أن الموقف المرن الذي التزمه الأمير فيصل قبل أكثر من نصف قرن يمكن أن تقتضيه الحاجة في الممارسات العالمية الآن. فلمن وبأي قدر يعود الجرف القاري؟ للبلد الواقع في الجزء القاري أم للبلد الذي تعود إليه الجزر الواقعة في هذا الجرف القاري؟ آنذاك، في تلك المباحثات بشأن الجزر التسع التي ادّعت الكويت ملكيتها، وافقت بريطانيا على تسليم ثمانٍ منها إلى المملكة العربية السعودية. كذلك لاحت بوادر حل وسط في شأن الحدود البحرية مع البحرين. وفيما بعد خلّت كل خلافات المملكة العربية السعودية مع الكويت والبحرين على أساس ودّي.

إلا أن مشكلة البريمي أكثر تعقيداً. كان فيصل يدافع عن موقفه بصلابة. فللمملكة العربية السعودية حقوق تاريخية في هذه الأراضي، وأعرب عن قلق بلاده من إنشاء ما سمّي قوة كشافة ساحل عمان المتصالح التي يقودها ضباط إنجليز وأردنيون موفدون من الفيلق العربي في الأردن. كانت العلاقات مع الهاشميين متوترة، فأثار ظهور قوات مسلحة صديقة لهم على

الحدود الجنوبية الشرقية للمملكة العربية السعودية قلق الرياض حقاً وفعلاً.

بعد مفاوضات طويلة، ظل الطرفان على مواقفهما السابقة حسب الظاهر. إلا أن فيصل توصل إلى حل وسط في غاية الأهمية بالنسبة إلى المملكة. فقد تقرر عقد مؤتمر يشارك فيه ممثلو الإمارات والمشيخات المعنية، برئاسة المندوب السامي البريطاني، وممثلو الملك عبد العزيز، للتوصل إلى اتفاق بشأن الحدود. ووافق الطرفان على وقف أعمال التنقيب الجيولوجي ووقف تحرك قواتهما المسلحة في المنطقة المختلف عليها حتى انتهاء أعمال المؤتمر.

وفي عام 1951م توقفت أعمال الممثلية (الملحقية) العسكرية البريطانية في المملكة العربية السعودية.

عُقِدَ المؤتمر المذكور في الدمام من أواخر يناير حتى فبراير 1952م، لكنه لم يسفر عن نتيجة.

وانسحب تدهور العلاقات بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا على ميادين خارج نطاق الخلافات الإقليمية.

فبعد فشل مؤتمر الدمام وصل المندوب السامي البريطاني إلى البريمي "لأداء وظائفه الإدارية". وفي بداية سبتمبر 1952م توجهت مجموعة من الموظفين السعوديين، وعلى رأسهم تركي بن عطيشان، إلى قرية حماسة في واحة البريمي "لأداء وظائفهم الإدارية" أيضاً. كان بين هؤلاء الموظفين كتبة وفنيون وحراس وخدم، نحو 40 شخصاً زوّدتهم أرامكو بسيارات نقل.

وقد حسب السعوديون الحساب للعواقب. فإن شيخ أبو ظبي ادّعى عائدية حماسة وقريتين أخريين، فيما ادّعى سلطان مسقط بباقي القرى الست، إلا أنه لم يكن مستعداً لعمليات فورية. وإلى جانب الشرطة المرافقين للسعوديين، أجزل ابن عطيشان العطاء لعدد كبير من أهالي البريمي فانحازوا إليه. وكان بينهم مسلحون وأبناء القبائل المحلية. أما المندوب السامي البريطاني فقد توجه إلى البريمي على رأس فصيل مسلح، وخيم على بعد أربعة كيلومترات من السعوديين، فيما شرعت الطائرات البريطانية في التحليق في سماء حماسة على ارتفاع منخفض. وعلى الرغم من ذلك، تعززت المواقف السياسية السعودية تدريجاً في المنطقة المتنازع عليها. ولم تكن ممارسات تقديم الهدايا السخية للقبائل من أجل ضمان ولائها لهذا الحاكم أو ذاك تثير اعتراضاً في الجزيرة العربية. وقد طلب الإنجليز من الحكومة السعودية سحب بعثة ابن عطيشان، لكنّ الحكومة رفضت طلبهم.

واقترح عبد العزيز وفيصل إجراء استفتاء في الواحات، وكانا واثقين من تأييد سكانها، إلا أن الإنجليز أصرّوا على التحكيم.

في خريف 1952م ترأس الأمير فيصل الوفد السعودي إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة. وفي لقائه مع وزير الخارجية الأميركي دين اتشيسون، قدم الأدلة التي تثبت أن البريمي كانت عائدة إلى المملكة على مدى 100 عام، وأن أي اعتراف بهذه المنطقة على أنها

منطقة خلاف ستكون له عواقب وخيمة بالنسبة إلى الملك ابن سعود[11]. وطلب فيصل من الولايات المتحدة أن تضع حداً للتدخل البريطاني في المنطقة وتسعى إلى تسوية النزاع وتساعد في حماية حقوق المملكة العربية السعودية. وأعرب فيصل عن رغبة الجانب السعودي في أن تغدو الولايات المتحدة عضواً في لجنة ثلاثية تضم أيضاً المملكة العربية السعودية والمملكة المتحدة لإجراء الاستفتاء العام.

وفي 8 يناير 1953م، قبل 12 يوماً من احتفالات تنصيب الرئيس أيزنهاور، أبلغ نائب وزير الخارجية الأميركي بروس السفير السعودي أن الولايات المتحدة التي هي صديقة للطرفين ترفض المشاركة في حل هذه المسألة. وكان أتشيسون في سبيله إلى الاستقالة مع الرئيس ترومان، ولذا قرر فيصل أن يتفق مع الإدارة الأميركية الجديدة. فوصل إلى واشنطن من جديد بعد شهرين والتقى وزير الخارجية جون فوستر دالاس في 2 مارس، ثم التقى الرئيس أيزنهاور في اليوم نفسه. وبعد ذلك التقى النائب الجديد لوزير الخارجية والتر بيديل سميث. وأبلغوا فيصل من جديد أن الولايات المتحدة تفضّل التحكيم في شأن البريمي، على أن تحتفظ بريطانيا حتى ذلك الحين بالوضع القائم.

عاد الجيولوجيون الإنجليز إلى منطقة البريمي في عام 1953م. إلا أن عبد العزيز كان يخشى منح الأميركيين ترخيصاً بالتنقيب عن النفط، لعدم رغبته في تعميق الخلاف مع بريطانيا. وفي ذلك العام زار وزير

الخارجية الأميركي دالاس الرياض وشعر بالارتياح لسماع الخطاب المعادي للشيوعية. إلا أن السعوديين كانوا يأملون تأييد الأميركيين لموقفهم في النزاع من أجل البريمي. لكن فيصل تيقّن المرة بعد المرة أن واشنطن لا تريد التضحية بعلاقاتها مع حليفتها الرئيسة في "الحرب الباردة" الكبرى من أجل الدفاع عن مصالح المملكة العربية السعودية، بل وحتى عن مصالح الشركات النفطية الأميركية نفسها.

وعندما توفي الملك في نوفمبر 1953م كان ابن عطيشان لا يزال في قريته في البريمي، فيما واصل الإنجليز التنقيب عن النفط بهمة ونشاط.

لقد دفع الأميركيون فيصل إلى حل الخلاف بالتحكيم، فوافق لعلمه بأن الموقف السعودي قوي بما فيه الكفاية. وعقدت محكمة التحكيم جلستها في جنيف في بداية 1955م. وصاغ الحجج السعودية المستعرب البارع جورج رينتس من أرامكو في "مذكرة" بثلاثة مجلدات تضمنت الأدلة التاريخية والجغرافية والمادية والإثنوغرافية على حق المملكة العربية السعودية في هذه الأراضي. ووكلت أرامكو أفضل المحامين في العالم بتقديم المشورة للسعوديين. وعندما سارت الأمور في مصلحة المملكة العربية السعودية، أفشل الإنجليز التحكيم.

ففي سبتمبر 1955م استقال ممثل بريطانيا في المحكمة، متوقّعاً أن قرارها لن يكون في مصلحة بلاده.

وفي أكتوبر 1955م دخلت البريمي قوة "كشافة ساحل عمان المتصالح" بقيادة ضباط إنجليز. وبعد مقاومة رمزية استسلم رجال الشرطة السعوديون، وجرى إجلاؤهم إلى الوطن من خلال أبو ظبي والبحرين. وقدمت الحكومة السعودية شكوى إلى مجلس الأمن الدولي ضد بريطانيا.

ونظراً إلى علاقات التحالف الوثيقة بين الولايات المتحدة وبريطانيا، كان الأمير فيصل يعتقد أن واشنطن على علم بتصرفات لندن ولا تريد أن تتخذ أي إجراءات. "فالحرب الباردة" الكبرى في الشرق الأوسط هي التي تملي عليها كيفية التصرف. وكان حلف بغداد الذي ظهر إلى الوجود توّاً قد أثار مخاوف السعوديين من مشاركة بريطانيا والعراق فيه، فتأزمت العلاقات مع الولايات المتحدة.

من الناحية الشكلية، التزمت الولايات المتحدة جانب المملكة العربية السعودية في هذه المسألة، لكنها كانت تخشى تصاعد النزاع، فراحت تقنع الحكومة السعودية بأن تسحب احتجاجها في الأمم المتحدة وتستأنف المفاوضات مع بريطانيا. وفي مايو 1956م وصل إلى جدة نائب وزير الخارجية البريطاني وأجرى عدة لقاءات مع الأمير فيصل، ثم استمرت المفاوضات مع السفير البريطاني الذي وصل إلى جدة أيضاً. وفي 9 نوفمبر 1956م قطعت المملكة العربية السعودية العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا بسبب مشاركتها في العدوان الثلاثي على مصر.

قدمت أرامكو الدعم لوزارة الخارجية السعودية ووزارة الدفاع، بل وحتى للاستخبارات المصرية في عملياتها ضد المواقع البريطانية في سلطنة عمان وجنوب الجزيرة العربية. وقد اكتشفت هذه المعلومات في وقت لاحق بين وثائق أرامكو. وبذلك تحركت هذه الشركة الرابحة الهائلة ضد حليفها. إلا أنها كانت بمثابة دولة مستقلة تتعاون مع المسؤولين الأميركان فقط في الحالات التي تعود عليها بالنفع. وفجأة اتسع الخلاف على البريمي. ففي المناطق الداخلية في سلطنة عمان قامت في عام 1954م انتفاضة بقيادة الإمام غالب ضد سلطان مسقط سعيد بن تيمور، وقصفت الطائرات البريطانية مواقع أنصار الإمام، وشاركت "كشافة الساحل المتصالح" في المعارك بقيادة ضباط إنجليز. وعلى الرغم من عدم شدة القتال، باتت تلك المعارك موضوعاً لمكاتبات بين رئيس الوزراء البريطاني مكميلان والرئيس الأميركي أيزنهاور. وادّعى مكميلان أن الشركات النفطية الأميركية تقف وراء الإمام غالب، فيما رفض أيزنهاور تلك الادّعاءات بالطبع. وفي منتصف أغسطس 1957م هزم الإنجليز قوات الثوار الرئيسة، إلا أن عمليات الأنصار استمرت بشكل حرب عصابات حتى عام 1961م. (وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحارثي ممثل الإمام غالب في دمشق زار الاتحاد السوفياتي مع ابنه في عام 1958. وكان كاتب السطور طالباً آنذاك، فرافق الوفد بصفة مترجم في جولته على القوقاز. وفي أدجاريا التي تعتبر إسلامية، أرادوا أن

يقدموا إلى الضيف الكريم على الغداء خنوصاً مقلياً، إلا أنني تمكنت من تفادي الفضيحة في الوقت اللازم، وخلّت من دون تقديم طبق لحم الخنزير على المائدة المثقلة بالثمار والأطعمة الجورجية الوفيرة. ولم يتحقق على أرض الواقع أي تعاون سوفياتي مع الإمام غالب).

في النهاية اتفقت أرامكو وشركة نفط العراق على اقتسام مناطق النفوذ. فصارت حقول أبو ظبي البترولية الغنية جداً من حصة الإنجليز. إلا أن المصالح الأميركية كانت موجودة أيضاً في شركة نفط العراق. وفشلت جهود الحكومة السعودية الرامية للحصول على واحة البريمي التي كانت تعتبرها من أراضيها.

ليس من الجائز القول إن السعودية كانت راكدة في أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات. فعندما توافرت لدى الحكومة إمكانيات مالية، على ضآلتها، أمر فيصل بتحسين الخدمات البلدية، وبدأت أعمال تنظيف شوارع جدة وساحاتها من القمامة والأوساخ، وكذلك مكافحة البعوض والذباب، وتقلصت الإصابات بالملاريا، وافتتحت مستشفيات عديدة بعد المستشفى السريري الأول، وشيد أول فندق كبير في المدينة. كذلك فتحت المتاجر الحديثة أبوابها، وبدأت حركة عمرانية لبناء المنشآت والمساجد ودور الضيافة. وافتتح معمل للصابون ومعمل للأحذية، وتحسنت شبكة البرق والهاتف. وأخيراً بني مطار جديد بدلاً من المطار القديم، واتسعت أعمال شركة الخطوط الجوية السعودية التي

تأسست قبل ذلك بقليل، وشُقّت طرق جديدة وجرى تمهيد الطرق القديمة وبنيت عدة مدارس جديدة.

(نشير للحقيقة والواقع إلى أن جدة، في بداية القرن الحادي والعشرين، هي مدينة عصرية كبيرة، ولعلي أقول مدينة أنيقة لا تقارن بجدة في بداية الخمسينيات. فالتحسينات الفعلية في الخمسينيات لم تبدل شيئاً آنذاك في موقف الأجانب السلبي. يقول خوسيه آرنولد في كتابه **سيوف الذهب والقدور والمقالي**:

> القيظ الشديد والرطوبة العالية على ساحل البحر الأحمر في سبتمبر يجعلان من مدينة جدة مستنقعاً رطباً قذراً ينوء تحت حر مرهق. والمدينة تغص بالحمير والجمال والأغنام والماعز والناس. وما إن يخرج المرء من المكان المبرد بالمكيفات حتى يتصبّب العرق منه فيبتل قميصه، فضلاً عن بدلته. النهيق والنعيق والزئير وأصوات محركات السيارات تصم الآذان[12].

وأخيراً اكتُشفت في أواسط الجزيرة احتياطيات كبيرة من المياه الجوفية، الأمر الذي أدى إلى تحسين الزراعة الإروائية في الواحات.

ومكّنت العائدات المتزايدة عبد العزيز في خريف حياته من تعمير الحرمين الشريفين، فأصدر أمره بذلك، فيما شمّر فيصل عن ساعديه لتنفيذ الأمر. وعلى مدار خمس سنوات عمل المعماريون والمهندسون وألف

وخمسمئة عامل وألفان من الصناع واسطوات الفسيفساء على تعمير المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة. وكانت تلك أوسع وأكبر أعمال ترميمية منذ أن شيّد المسجد الخليفة الأموي وليد بن عبد الملك في القرن الثامن الميلادي. فقد فعل الزمان والزلازل والحرائق فعلها في تهديم أركان المسجد. وفي القرن الخامس عشر عمر السلطان المملوكي الأشرف سيف الدين قايتباي المسجد، إلا أنه تهدم من جديد في ما بعد.

وفي يونيو 1952م ألغى الملك ضريبة الحج.

ورأى فيصل أن يوسّع المسجد الكبير في مكة أيضاً. وقد بدأت الأعمال في عهد الملك سعود، فجُرفت 800 منزل ومئات الحوانيت في منطقة الكعبة لتتسع لـ300 ألف حاج.

وبفضل النمو السريع في عائدات البترول وتعديل اتفاقيات الامتياز، ازدادت مداخيل المملكة عشرات المرات في السنوات الأولى بعد الحرب العالمية الثانية. إلا أن تركيبة السلطة وأساليب توزيع المداخيل ظلت على حالها.

وأصرّ فيصل، وبصيغة حذرة، على لزوم تحديث البلاد، بدءاً من الجهاز الإداري. ولم يكن الملك عبد العزيز يريد أن يترك شيئاً من مقاليد الحكم، إلا أنه كان يدرك صعوبات تصريف كل الأمور وفقاً لمتطلبات العصر. وفي أكتوبر 1953م بسط سلطة مجلس الوزراء على المملكة كلها وليس على الحجاز وحده، فعيّن

الأمير سعود رئيساً للوزراء، وبات الأمير فيصل نائباً له. إلا أن هذه الحكومة لم تباشر أعمالها إلا بعد وفاة الملك المؤسس.

أفراد العائلة المالكة السعودية الذين سافروا إلى الخارج في الأربعينيات والخمسينيات، اطلعوا على ظروف حياة الطبقات الراقية في أوروبا الغربية والولايات المتحدة، وشاهدوا مظاهر الأبهة والكماليات بشتى أصنافها. وحصلت حالات من عدم التناسب بين المصروفات والعائدات، إلى جانب السخاء العربي الذي هو خصلة إنسانية حميدة، إلا أنه اقترب أحياناً من التبذير المفرط.

وتقاطرت على المملكة العربية السعودية جموع النصابين والوصوليين من كل أرجاء الشرق الأوسط والبلدان الغربية. وتعرض السعوديون للغش والخداع من جانب السماسرة والمقاولين والتجار الذين كانوا يبيعونهم البضاعة بأسعار أعلى من سعرها الحقيقي بخمس وعشر وحتى عشرين مرة.

بات الوضع غير الطبيعي ومخاطره على النظام واضحة لفيصل ولأفراد عائلة آل سعود ممن يتحلون ببعد النظر. فالتدابير التي اتخذها الملك عبد العزيز في السنوات الأولى بعد الحرب العالمية الثانية لتحديث الدولة تحتاج إلى تعميق، لكونها كانت شكلية وذات طابع سطحي.

لقد لاحظ عبد العزيز بحرقة وألم أن النفوذ، الغريب على مبادئه ومعتقداته، يخترق حدود الدولة التي بناها

متقيّداً بأصول الدين الحنيف، ورأى كيف تستولي الوقاحة والتعطش إلى الثروات على الكثيرين من المقربين إليه. ولم يتمكن من أن يفهم جذور هذه الظواهر ولا أن يسيطر عليها.

فعلى الرغم من وجود أناس في حاشية الملك مخلصين بالمطلق في ولائهم له، لم ينسوا أنفسهم، وكانوا "محبين" لها. كتب القنصل الأميركي في جدة راينز تشايلدز يقول إن "شلة من السوريين" نشأت في بلاط ابن سعود وعلى رأسهم الشيخ يوسف ياسين الذي يتولى خمسة مناصب: وزير الدولة، وسكرتير الملك ومدير القسم الدبلوماسي في الديوان الملكي ونائب وزير الخارجية (نائب الأمير فيصل) ومندوب المملكة في جامعة الدول العربية. كان يتقاضى خمسة رواتب إضافة إلى العلاوات السنوية والسندات ومصاريف الإيفاد والمأموريات، كما يتلقى بين الحين والآخر هدية من الملك بمبلغ ألف أو ألفين جنيه إسترليني ذهباً. كان يتسلّم رواتبه بانتظام، فيما الكثيرون من الموظفين السعوديين لم تصرف لهم رواتبهم لأربعة شهور متتالية.

و"الشلة الثانية" ترأسها فؤاد بك حمزة الذي يعتبر من الناحية الرسمية وزير دولة لمشاريع التنمية. فكان مسؤولاً عن صرف المساعدات المتسلمة من الولايات المتحدة وقسم من عائدات الإيجار التي تحولها أرامكو والمخصصة للمشاريع التنموية. فؤاد حمزة ويوسف ياسين يختلفان في الرأي ويتشاجران، لكنهما كانا يتفقان في ما بينهما إذا دعت الضرورة إلى العمل ضد

آخرين. ولاحظ تشايلدز أن هؤلاء "السوريين متعطشون للمال بنحو لا يرتوي"، فلا ينسون أنفسهم أبداً في جميع المشاريع. ومعروف أن كبار الموظفين من أمثال وزير المال الجبار عبد الله السليمان كانوا يتقاضون رواتب ضخمة للغاية، ويودعون أموالهم في خارج المملكة تحوّطاً للطوارئ. وكان التنافس قائماً بين "السوريين" وعبد الله السليمان، ولكنهم أحياناً يتفقون على "مصالحة من دون إلقاء السلاح"[13].

ونشير هنا إلى أن الشاميين كانوا من حملة الأفكار القومية المؤيدة لفلسطين. ولعل ذلك كان من أسباب موقف الدبلوماسيين الأميركيين السلبي جداً منهم. إلا أن الوقائع التي أوردها أولئك الدبلوماسيون دقيقة بقدر كبير.

كتب تشايلدز[14] يقول: "المعارضة الداخلية ضد السوريين تكتلت قريباً من الأمير فيصل". فإن نائب الملك في الحجاز قد استشف بعين ثاقبة دور مستشاري والده على حقيقته. إضافة إلى ذلك، فإن الخبرة الدولية الهائلة التي اكتسبها جعلته غير راضٍ عن يوسف ياسين لتدخله في شؤونه طوال الوقت وتطاوله على صلاحياته، لكونه على اتصال مباشر بالملك. ولم يكن في الإمكان إقناع الوالد بتغيير رأيه حيث ظل يثق بموظفيه القدامى المخلصين له. ولم يكن فيصل يخفي موقفه السلبي من يوسف ياسين. فأثناء زيارة السفينة البريطانية "نيوكاسل" إلى جدة، دُعي قائد الأسطول البريطاني في البحر الأبيض المتوسط إلى حفل

استقبال عند نائب الملك في الحجاز، فرصفت الموائد بحيث لا يجلس يوسف ياسين مقابل فيصل[15].

باتت الحالة الصحية للملك عبد العزيز ومستقبل المملكة محط اهتمام وزارة الخارجية الأميركية وشركة أرامكو. كان عبد العزيز يعيش حياة معتدلة متزنة للغاية. يأكل قليلاً، ولا يتناول إلا القليل من الخبز واللحم والتمر والخضر والفاكهة. ولا يشرب الماء إلا من مصدرين هما بئر جاران في مكة وبئر الحسا على مقربة من الرياض. وعندما كان يقوم بجولاته في البلاد يأخذون له صهريجاً من الماء. وإذا شعر بوعكة يعملون له فصاداً. كان يشعر بألم شديد في رجليه، اليسرى التي أصيبت بجروح في زمن ما واليمنى أيضاً. ولكنه عندما بدأ يستخدم الكرسي المتحرك الذي أهداه إياه روزفلت قلّت حركته وتسارعت شيخوخته. لكنه ظل على عادته في التردد على زوجاته وملاطفتهن.

جون فيلبي أول من لاحظ على صديقه وحاميه الكهل أنه يتراجع أمام الشيخوخة في خريف العمر. فقد بدا عليه الضيق أثناء المجالس الطويلة. وفي أحد مواسم الحج تعذر عليه أداء المناسك بسبب حالته الصحية.

وبعث الأميركيون إلى الرياض سراً الطبيب الشخصي للرئيس ترومان ليسهر على صحة الرجل الذي غدا شخصية سياسية في منتهى الأهمية بالنسبة إلى الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

وكان السؤال المطروح من سيحلّ محلّ الملك إذا وافاه الأجل؟

وقد دأب الأميركيون على المفاضلة بين أبناء عبد العزيز والكلام على منافسة بينهم.

في برقية للقنصل العام الأميركي من جدة بتاريخ 7 أغسطس 1946م ورد ما يأتي:

> ليست للأمير سعود شخصية ومنزلة كمنزلة والده. ويبدو أن إدارة فاترة تماماً تنتظر المملكة العربية السعودية في ظله. ومعروف للجميع أن الأمير فيصل، النجل الثاني للملك والذي هو نائبه في الحجاز ووزير الخارجية، شخصية لامعة أكثر، بل هو رجل أكثر أهلية وموهبة[16].

فيما كتب القنصل العام الأميركي في جدة تشايلدز الذي حل محل المقدم إيدي في عام 1946م نفسه عمّا اعتبره تنافساً بين فيصل وسعود يقول:

> عندما سافر فيصل إلى الولايات المتحدة في عام 1945م عُيّن أخوه وزير الدفاع الأمير منصور نائباً للملك بالوكالة في الحجاز لفترة غياب فيصل. فأثار ذلك انزعاج الأمير عبد الله، الابن الأكبر للأمير فيصل، الذي يعتقد أنه تعرض للغبن والإجحاف. وفي العام الحالي، حين سافر الأمير فيصل إلى مؤتمر لندن، عُيّن الأمير عبد الله نائباً للملك بالوكالة، ما يعني أرجحية جماعة فيصل.

هناك مجموعتان، الأولى بزعامة وليّ العهد الأمير سعود، وهي تميل إلى الأمير منصور والأمير ناصر، وهناك مجموعة ثانية يمثلها نائب الملك في الحجاز الأمير فيصل وينتمي إليها ابنه البكر عبد الله. فيصل وابنه عبد الله محبوبان في الحجاز، ولعل الملك أخذ في الاعتبار شعبيتهما هناك عندما عيّن عبد الله نائباً للملك بالوكالة، وليس بقصد الإساءة إلى المجموعة التي يتزعمها الأمير سعود[17].

كانت الولايات المتحدة ترغب في استمالة ولي العهد إليها. فقد كتب تشايلدز من جدة في نوفمبر 1946م يقول:

أعتقد أن من المرغوب فيه تماماً، وإلى أقصى حد، أن يقوم وليّ العهد بزيارة إلى الولايات المتحدة ليأخذ فكرة عن قوتنا وعن تطورنا الاقتصادي وعن شعبنا وثقافتنا وحكومتنا. ومن شأن هذه الزيارة أن توفر فرصة نادرة لإطلاع الأمير سعود، ولي العهد الذي سيغدو ملكاً مطلقاً، على المثل العليا للديمقراطية الأميركية ومبادئها وممارساتها[18].

ونُظّمت زيارة ولي العهد الأمير سعود إلى أميركا في عام 1947.

كان عبد العزيز يتذكر جيداً كيف مزّق التنافس بين أعمامه إمارة نجد التي بناها جده فيصل، فاعتبر مهمته

الرئيسة في خريف العمر أن تنتقل السلطة إلى ولي العهد من دون خلاف.

وفي عام 1945م قال عبد العزيز لأحد مستشاريه وهو جالس في الكرسي المتحرك والدموع تترقرق في عينيه: يا ليت عندي ثلاثة أولاد مثل فيصل[19]. كان يعرف جيداً مواهب فيصل، لكنه لم يكن ينوي تغيير قرار تسليم العرش إلى الابن الأكبر.

وعندما أحسّ الملك بقرب النهاية، استدعى ولديه الاثنين وذكّرهما بخطورة الخلاف وأضراره على مصير الدولة وعلى آل سعود وعلى الشعب السعودي. وطلب منهما أن يقسما بالقرآن الكريم ألا يتشاجرا وأن يغدو سعود ملكاً وفيصل ولياً للعهد، على أن يعيّن بنفسه في ما بعد ولياً للعهد. هذا المشهد نقله حافظ وهبة، على الرغم من تعذر التأكد الآن مما إذا كان وهبة قد حضر اللقاء فعلاً أو لا.

كتب حافظ وهبة يقول: إن ذلك حصل في يوم من السنوات الأخيرة من حياة الملك عبد العزيز، حينما دعا سعود وفيصل للحضور إلى قصر المربع وكان، هو وهبة، حاضراً على حدّ قوله. فأراد أن ينصرف، لكن عبد العزيز أشار إليه بالبقاء. أمر الملك ابنه فيصل بأن يقسم سبع مرات بالولاء لأخيه سعود، مطالباً إياه بأن يكرر هذا القسم أمام الناس بعد وفاة الملك. فقال فيصل سمعاً وطاعة. ثم خاطب الملك ابنه سعود وطالبه بأن يخلص لأخيه ويتقبّل نصائحه. وقال: إنه ذكي جداً، وعليك أن تعمل بنصائحه. فأعلن سعود الطاعة وكرر القسم سبع

مرات. ويؤكد حافظ وهبة أن الأميرين طوال السنوات التي عرفهما فيها حافظا على الولاء أحدهما للآخر، على الرغم من قلة الألفة بينهما[20].

لدينا رواية أخرى عن لقاء الملك بابنيه نقلها منير العجلاني. وهي لا تناقض رواية حافظ وهبة من حيث المبدأ على الرغم من اختلاف التفاصيل، بل وحتى اختلاف المكان الذي يشير إليه الرجلان. كتب العجلاني:

> يقال إن الملك عبد العزيز فكّر في آخر أيامه في خلع سعود من ولاية العهد وأفضى بفكرته إلى ابنه فيصل، فتلطف فيصل بصرف والده عن عزمه وقال له إن بقاء سعود ولياً للعهد يخدم استقرار المملكة، وإنه سيؤازر أخاه بكل قوته ويضع كل تجربته في الحكم رهن إرادته.

قبيل وفاته في الطائف استدعى الملك ولديه وقال لهما، حسب العجلاني:

> الشعب السعودي والمسلمون أنتم مسؤولون عنهم، وهم متعلقون بكم. يجب عليكم أن ترفعوا شأن الإسلام وتجمعوا كلمة العرب وتخدموا شعبكم.
>
> ولن تستطيعوا ذلك إلا إذا كنتم أنتم أنفسكم مثالاً للاتحاد والتعاون وعدم التفرق، فكونوا متحدين متحابين كأنكم رجل واحد[21].

وطلب الملك من سعود وفيصل أن يقسما بالقرآن على تنفيذ وصيته، فأقسما. وعندما انصرف سعود وفيصل دعاهما الملك من جديد قبل أن يصلا إلى الباب وطلب منهما أن يقسما مجدداً. ثم دعاهما للغرض نفسه مرة ثالثة.

لقد تفهّم فيصل وتقبّل قرار والده. فلا بد أن يرث العرش أخوه الأكبر. وكان خيار الوالد نهائياً لا رجعة فيه. سعود كان إلى جانب أبيه في المعارك وفي قيادة قبائل نجد وواحاتها، والبدو يحبونه. وهو مرح ومستبشر وسخي. وكما فعل والده، عمل سعود على تقوية العلاقات مع أعيان الجزيرة وشيوخها متزوجاً العديد من بناتهم.

كان مجلس الوكلاء (الصيغة الأولى لمجلس الوزراء) برئاسة الأمير فيصل قد أعلن بلاغه الرسمي رقم 3 في 11 مايو 1933م، ويتضمن بالتفصيل إجراءات تعيين ولي العهد، كما يتضمن تسمية سعود ولياً للعهد. وحظي هذا القرار بتأييد أكثر علماء الدولة احتراماً.

وتقرر عدم التأخير في البيعة. ففي 22 من شهر مايو ذاته أقسم أفراد العائلة المالكة من آل سعود وشيوخ القبائل وكبار العلماء يمين الولاء والبيعة للأمير سعود ولياً للعهد. وكان الشخص الأبرز في تلك المراسم هو محمد بن عبد الرحمن أخو الملك عبد العزيز، وليس ابنه فيصل.

ونشرت جريدة "أم القرى" نبأ تعيين سعود ولياً للعهد في سنة 1933م مشددة على أنه الابن الأكبر للملك.

إلا أن الأمر لم يمر من دون إشكالات. فإن مبدأ تسليم السلطة في الجزيرة العربية يقوم ليس فقط على أولوية الميلاد (ولا جدال في أولوية سعود)، بل وعلى كبر السن، أي حق أخي الملك الذي يليه سناً في العرش. وفي هذه الحالة يمكن أن يدّعي الأمير محمد، أخو عبد العزيز، حق ولاية العهد.

المصادر الرسمية السعودية، ومنها جريدة "أم القرى"، أكدت أن محمداً أصغر سناً من عبد العزيز. إلا أنه ولد من أم أخرى في السنة نفسها التي ولد فيها عبد العزيز. ويقول دوغوري إن الأخوين ولدا في اليوم نفسه، وأمضيا الطفولة والفتوة معاً. أمضيا في صغرهما عامين مع والدهما في قبيلة بني مرة، وعاشا معاً في المنفى في الكويت، وكانا يحلمان معاً بالأمجاد وباستعادة ممتلكات الأجداد. كان عبد العزيز قائداً لا جدال في مواهبه، فيما كان محمد يتبعه ويشاركه في المغامرات الخطرة التي انتهت بنصر مظفر في تحرير الرياض من الشمريين عام 1902م.

ثم حصل خلاف بين الأخوين قد يكون سببه رغبة الملك في توريث العرش للأمير سعود، وقد يعود إلى تشدد محمد الميّال إلى حركة الإخوان، لا سيما أن إحدى زوجات محمد، على سبيل المثال، هي بنت سلطان بن بجاد شيخ عتيبة أحد زعماء الإخوان الذين تمردوا على عبد العزيز، أو ربما كانت "وراء الخلاف امرأة"، كما يقول التعبير الفرنسي المعروف، وهي زوجة عبد العزيز حصة من آل السديري التي طلقها بعد أن

أنجبت من حملها الأول بنتاً وليس ولداً. فتزوجها محمد وأنجبت له ولداً. ثم طلّقها، فتزوجها عبد العزيز من جديد وأنجبت له هذه المرة سبعة أولاد، لا أكثر ولا أقل.

ولا شك في أن محمداً يكنّ الإخلاص اللامتناهي لعبد العزيز، إلا أنه لم يكن مرتاحاً لمبايعة الأمير سعود ولياً للعهد. وقد تجلى ذلك في المجلس الذي عقده عبد العزيز في ديسمبر 1934 وجمع فيه أفراد العائلة المالكة من جديد ليؤكدوا تأييدهم للأمير سعود. فقد جدد محمد ولاءه لعبد العزيز ورفض خياره.

ويمكننا الافتراض أن فيصل كان مع أخيه سعود في مقابل عمهما محمد. فإن مستقبلهما كان سيظل غامضاً، بل وعصيباً في حال نجاحه المشكوك فيه.

إلا أن موقف محمد لم يحظَ بالتأييد لدى عائلة آل سعود الكبرى. فذهب إليه فيصل في ما بعد وأقنعه بمبايعة سعود ولياً للعهد.

توفي محمد بن عبد الرحمن في 26 يوليو 1943م. وكتب دبلوماسي بريطاني في هذه المناسبة يقول: "الملك حزين لوفاة أخيه ورفيقه القديم"[22].

كان لدى الملك عبد العزيز في عام 1943م 34 ولداً على قيد الحياة، كذلك وُلد له ابن آخر قبل وفاته في عام 1953م بوقت غير طويل. وكان مصير البلاد بيد أولاده يقررونه مع العلماء.

في عام 1940م حصل بعض التوتر في العلاقة بين فيصل وسعود. ولكي يصلح عبد العزيز ما بين الأخوين، أمر في سنة 1943م بتزويج فهد، الابن البكر لسعود،

من ابنة فيصل الكبرى العنود. وبالفعل قرّبت هذه الزيجة بين الأخوين.

ونذكر هنا في المناسبة أن تقويمات الأجانب لتلك الحقبة لم تأخذ في الاعتبار، في الغالب، إيمان فيصل العميق وإخلاصه لوالده وتقيّده الكامل بمصالح العائلة.

لقد بنى فيصل بإشراف والده آلية الحكم المعتمد على نفسه في الحجاز. وتولى تنفيذ وظائف تخص الدولة بأسرها كرئيس لمجلس الوكلاء الذي تأسس سنة 1928م وكرئيس لمجلس الشورى، على الرغم من أن كلا المجلسين كانا من المستلزمات الشكلية للحكم في ظل عبد العزيز. ولا ننسَ أن الحج كان المصدر الرئيس لعائدات المملكة قبل بدء استخراج النفط، وأن فيصل بالذات كان المسؤول عن سلامة الحجاج وتحسين الظروف الصحية في الحجاز. وفي عام 1930م تولى مهمات وزير الخارجية على الرغم من أن خيوط السياسة الخارجية كانت بيد والده المعتمد على خبرة يوسف ياسين.

وخلافاً لأخيه فيصل، لم تكن لدى سعود ممارسات كبيرة في الشؤون الدولية. فقد سبق أن زار مصر لعلاج عينيه وزار أوروبا في 1931م و1938م والعراق في 1937م والولايات المتحدة في 1947م والهند في 1949م. وما عدا الرحلتين الأخيرتين، لم تكن تلك الزيارات في مهمة سياسية. كان الأمير سعود متضلعاً في العلاقات المتبادلة بين قبائل نجد، وقد حظي بشعبية واسعة بين وجهاء القبائل لسخائه وزيجاته

العديدة. وكان ذلك، في لحظة انتقال السلطة إليه عام 1953، أهم من خبرة فيصل الدولية.

والحقيقة أن سعود كان يتابع مجرد متابعة، وبصمت، نشاطات والده عبد العزيز أثناء وجوده في نجد. فالملك لم يكلفه بسلطات أو مهمات تنفيذية. وفي صيف 1953 فقط عيّنه عبد العزيز، بعد أن عاجلته الشيخوخة، قائداً للقوات المسلحة والشرطة، ثم عيّنه رئيساً للوزراء، وعيّن فيصل يومها نائباً لرئيس الوزراء.

اعتباراً من عام 1949م أمر عبد العزيز بعرض كل المكاتبات الدولية على سعود.

وفي نوفمبر من ذلك العام عيّن سعود نائباً لقائد الجيش السعودي، وهو المنصب الثاني بعد الملك في التراتبية العسكرية.

وكانت فرص تقدم أولاد الملك في صعود سلم السياسة تتوقف، في ما تتوقف، على منزلة عوائل أمهاتهم وعلاقة عبد العزيز الشخصية بهن.

وكان أولاد عبد العزيز يعيشون معاً. وكانت الأواصر بين الأشقاء، عادة، وثيقة للغاية.

كان عبد العزيز يشعر أحياناً بتعلق خصوصي بإحدى زوجاته أو محظياته، فيشمل شعوره هذا أولاده منها. فكان، على سبيل المثال، يحب منصور الذي ولد في حدود عام 1921م وطلال الذي ولد في عام 1931م حباً جماً.

أولاد عبد العزيز وأحفاده كانوا يتزوجون في إطار العائلة المالكة الكبيرة من دون أن يتجاوزوا هذا الإطار.

الكثيرون منهم تزوجوا بنات أعمامهم من أحفاد عبد الرحمن أو بنات أعمام أعمامهم من آل جلوي، وكذلك بنات "العرايف" من آل سعود الكبير. وغالباً ما كان أفراد عائلة آل سعود يتزوجون من آل السديري إحدى بطون قبائل نجد الشهيرة التي كانت من بناتها جدتهم أم عبد العزيز.

وتفرّعت من إخوة مؤسس السلالة السعودية محمد بن سعود في القرن الثامن عشر بطون الوجهاء من آل ثنيان ومشاري وفرحان. كانوا يتمتعون بالنفوذ والاحترام، لكنهم لم يرتقوا ذرى النخبة السياسية المكوّنة من أعمام وإخوان عبد العزيز وأبنائه وأحفاده.

عائلة آل سعود الكبرى أجمعت على صيانة الاستقرار في البلاد والحفاظ على مواقعها في قمة المجتمع السعودي. إلا أن ثمة احتمالاً لاختلاف المصالح بين شتى جماعات الأمراء في إطار هذه المهمة الجماعية الكبرى، وكانت هناك بالفعل فوارق جوهرية في تلك المصالح.

كان فيصل، في حال غيابه عن البلاد، يعيّن ابنه البكر عبد الله نائباً للملك بالوكالة في الحجاز. ومن جهة أخرى كان منصور، عم عبد الله، وزيراً للدفاع يقيم في الحجاز أيضاً. وهو شاب طموح في عمر عبد الله نفسه تقريباً، يرى أن من حقه هو أن يتولى منصب نائب الملك بالوكالة، بصفته ابن الملك، في حال غياب فيصل.

التزم سعود وأخوه ناصر الذي ولد عام 1919م، وكان أميراً للرياض، جانب أخيهما منصور في ما يشبه

المواجهة مع فيصل وابنه عبد الله. لم يكن منصور الأخ الثالث لفيصل ولا الرابع من حيث السن، إلا أنه ارتقى الذرى منطلقاً كالصاروخ بفضل تشجيع الوالد له. وتقول الرواية الرسمية إنه رأى النور بعد النصر على إمارة جبل شمر في عام 1921م، ولذا كان عبد العزيز متعلقاً بوالدته، وعندما توفيت سنة 1938م تركزت مشاعره على حب منصور، وليده البكر منها.

عندما بلغ منصور السابعة عشرة من العمر عُيّن مشرفاً على قصور البلاط في الرياض. وفي مارس 1944م عُيّن قائداً عاماً للجيش السعودي. ونص المرسوم الملكي المؤرخ في 26 نوفمبر 1942م على ترقيته، فشغل منصب وزير الدفاع الذي استحدث لأول مرة آنذاك. ومن المستبعد أن يكون سعود قد استحسن هذه التعيينات، لأن دوره كنائب للقائد العام، وهو ثاني منصب بعد الوالد، لم يعدْ له معنى في الواقع.

أخذ منصور يبسط نشاطه على السياسة الخارجية أيضاً. ففي أواخر عام 1943م قام بعدة رحلات إلى فلسطين على سبيل العلاج، إلا أنه كان في الحقيقة يدرس الموقف وينقل انطباعاته إلى والده. ورافق منصور تحديداً الملك عبد العزيز في لقائه مع روزفلت ومع تشرشل في فبراير 1945م. ولعل البعض يرون في ذلك منافسة لفيصل كوزير للخارجية، إلا أن الأرجح أن عبد العزيز، عندما غادر البلاد، أراد أن يترك السيطرة التامة على الموقف بيد ابنه سعود في نجد وابنه الآخر فيصل في الحجاز.

وعندما غادر فيصل إلى الولايات المتحدة في أبريل 1945م للمشاركة في الجلسة التأسيسية للأمم المتحدة، تولى منصور، وليس عبد الله نجل فيصل، مهمات نائب الملك بالوكالة في الحجاز. وكانت له عندما كان موجوداً في مكة والطائف بصفة وزير للدفاع اتصالات مثمرة مع الإنجليز، حيث أرسلوا بعثة عسكرية لتدريب الجيش السعودي.

وسرت في حينه شائعات نسبت إلى منصور رغبته في تغيير نظام وراثة العرش المعمول به في المملكة. ولكن حتى لو كانت لديه مثل هذه الرغبة أو الطموحات فإنها لم تكن قائمة على أساس. ذلك لأن الملك لم يُشر، بل ولم يلمّح إلى أنه يمكن أن يسلم العرش إلى منصور.

لكنّ منصور توفي فجأة في باريس في مايو 1951م.

ولم يعد الجيش، والحال هذه، متأثراً بطموحات الأخ الأصغر لسعود وفيصل. كما عاد توازن القوى في العائلة المالكة إلى حالته السابقة، فيما تسلم منصب وزير الدفاع أخوهما مشعل المعروف بهدوئه واتزانه.

عندما قلّ اهتمام الوالد بأمور الدولة، بسبب الشيخوخة، رأى سعود أن يقضي فترة في الحجاز. فأمضى هناك في سنة 1952م أربعة أشهر ونصف الشهر، ثم عاد بعد أن أوكل تنفيذ "الإصلاحات" في الحجاز إلى عبد الله السليمان، وزير المال العتيد، إما لقلة معرفته بالموقف هناك أو لأنه كان يريد العودة

سريعاً إلى نجد حيث يوجد السند الأكيد لسلطته المرتقبة.

ولم يخامر أحداً في العائلة الحاكمة السعودية شك في أن سعود سيكون ملكاً وفي أن فيصل سيكون ولياً للعهد.

ويأتي بعدهما من حيث السن الأمراء محمد وخالد وناصر وسعد وفهد. لم تكن لدى سعد طموحات سياسية تذكر، فيما بدت بوادر التدهور على صحة ناصر. ومهما يكن من أمر، فقد انتهى توزيع الدورين الأولين (الملك وولي العهد)، وما كان محمد وخالد وفهد، وثلاثتهم يودون فيصل كثيراً، يفكرون أصلاً في هذين الدورين.

في التاسع من نوفمبر 1953م توفي الملك عبد العزيز عن عمر ناهز 73 في قصر "القروى" بالطائف. وافاه الأجل بالسكتة القلبية في النوم.

كان فيصل الوحيد من بين أبنائه إلى جانب أبيه ساعة وفاته. ثم وصل ولي العهد سعود من جدة فوراً. استقبله فيصل في باب القصر وبايعه ملكاً، فيما أعلن سعود على الملأ أن فيصل ولي عهده. وقد وفيا بالعهد الذي قطعاه أمام الوالد وجرى انتقال السلطة إلى الملك سعود بهدوء. ثم بايع الملك سعود نحو مئة من الأمراء وقفوا إلى جانب فيصل وقالوا: بايعناك وفقاً لكتاب الله وسنة رسوله.

هطلت أمطار غزيرة وكارثية في جدة بعد وفاة الملك عبد العزيز.

نقل الجثمان بالطائرة إلى الرياض، ودفن بالبساطة المعهودة في مقبرة العَود الشهيرة. فلا كتابات ولا ناووس ولا ضريح... كي لا يغدو القبر محجة للمنافقين. وضعت على القبر عدة أحجار مسطحة جُلبت من أقرب أخدود، وحجران قائمان عند الرأس والقدمين. وعلى مقربة من هناك قبر نورة شقيقة عبد العزيز المحبوبة وقبر زوجها سعود الكبير.

الفصل العاشر

آه يا أخي ومليكي!

قال عبد الرحمن الرويشد:

الملك سعود كان يظن أن مُلك عبد العزيز سيتحول إليه من دون جهد، ولهذا واجه مشاكل كبيرة، جديدة قديمة. الناس في عصر الملك عبد العزيز يعتبرونه موحداً مؤسساً، فلم يطالبوا بشيء أبداً. لم يطالبوا بمدارس وغيرها، واقتنعوا بالأمن والاستقرار والنعمة التي جاءتهم. كانوا راضين. كانوا يريدون أن يقولوا شيئاً، ولكنهم لا يستطيعون لأنهم رأوا أن عبد العزيز عمل الكثير، كالأمن والوحدة التي ضمنها لهم، ولما مات فتحوا النار على سعود. يريدون السيارات، يريدون ثمار الاستقرار والأمن والبترول، لأنهم تفتحوا وتعلموا. ولذا انصبّت كل المشاكل على رأسه. ولسوء حظه أنه تحمل العواقب بنفسه رغم وجود بعض رجال عبد العزيز معه[1].

في تلك الفترة ظهرت تحديات جديدة. فقد كتبت القنصلية الأميركية في الظهران في كتاب سرّي إلى وزارة الخارجية الأميركية بتاريخ 25 أغسطس

1954م عن "منشور هدّام" عليه رسم المطرقة والمنجل، وزع في الخُبر واحتوى تهجماً شديداً على الحكومة وعلى "الإمبرياليين" الأجانب و"الخنازير الأميركيين"، ودعا العمال إلى النضال ضد أرامكو. وكشف التحقيق الذي أجراه الأميركيون أن المنشور طبع في لبنان على الأرجح. فهو يتضمن كلمة "كاديلاك" مكتوبة بالطريقة اللبنانية. ثم إن شتيمة "الخنازير" ليست شائعة في المنطقة الشرقية من المملكة العربية، إلا أنها منتشرة في لبنان[2].

بعد عام من الجلوس ألقى الملك سعود كلمة جسدت تفهمه للموقف الدولي، حيث دعا "الدول الإمبريالية" إلى أخذ العبرة من أحداث السنوات الأخيرة التي دلت على "انتصار الحرية والاستقلال" على حد تعبيره[3].

في أوائل الخمسينيات، وخصوصاً بعد ثورة يوليو 1952م في مصر، وبتأثير منها، ظهرت في المملكة بدايات تنظيم سري معارض، وهو للقوميين من حملة الأفكار المناوئة للغرب (الإمبريالية) بصبغة اشتراكية بعض الشيء، إيديولوجيتهم خليط من الشعارات الناصرية والبعثية والشيوعية. وقد تأسست أول جماعة من هذا النوع عام 1953م باسم "جبهة الإصلاح الوطني"، ألّفها شباب سعوديون بعضهم من منتسبي القوات المسلحة والموظفين والمستخدمين في أرامكو ممن حصلوا على نصيب من التعليم، وكذلك بعض الصحافيين.

إلا أن الحكومة السعودية أعلنت في عام 1956م تفكيك هذه الجماعة، واعتقل عشرات الأشخاص بينهم خمسة ضباط أُعدم أحدهم.

كانت واضحة بالنسبة إلى سعود وفيصل المخاطر التي تتهدد النظام من جانب الميول التي تسربت إلى الجيش النظامي، وتحديداً بين الضباط الذين كانوا ينساقون بسهولة وراء الأفكار القومية المناوئة للإمبريالية والأفكار المعادية للملكية.

وقد ركزت المملكة بعد الحرب العالمية الثانية على إنشاء الجيش النظامي، وأبقت في مصر، لغرض التدريب، الكتيبة التي أُرسلت لمقاتلة إسرائيل عام 1948م. وتولت بعثة عسكرية أميركية وأخرى بريطانية، ثم مصرية مهمة تدريب الجيش النظامي السعودي تحديداً.

إلا أننا يمكن أن نفترض، متأكدين تقريباً، أن سعود وفيصل اقتنعا بضرورة تقوية المطاوعة البدوية. فإن عصبية الإخوان المتشددين لم تعد تهدد النظام ذاته، بل اتجهت نحو مكافحة "المستحدثات" و"مغريات الحضارة العصرية". آنذاك أُطلقت على المطاوعة البدوية تسمية الحرس الوطني، وأخذت تتلقى شيئاً من السلاح الحديث. وتمركزت وحدات الحرس الوطني أساساً قرب المدن الكبيرة، وكذلك في منطقة آبار البترول. وحتى نهاية الخمسينيات بلغ عدد أفراد تلك الوحدات 15-20 ألف شخص.

كانت من أسباب الإسراع في إنشاء الحرس الوطني الأحداث المفجعة التي حدثت في الظهران في يوليو 1956م. ففي التاسع منه قوبل الملك سعود أثناء وصوله إلى هذه المدينة بتظاهرة حملت شعارات معادية للإمبريالية وطالبت بتصفية القاعدة العسكرية الأميركية هناك، كما سلم المتظاهرون الملك عريضة تضمنت مطالب العمال الاجتماعية.

وبعد يومين، في 11 يوليو، أصدر الملك مرسوماً بمنع الإضرابات والتظاهرات ومعاقبة المشاركين فيها بالحبس. واستخدم لإفشال الإضراب رجال المطاوعة البدوية من هجر الإخوان والحرس الشخصي لأمير المنطقة الشرقية. وطاولت الاعتقالات الكثير من الناشطين الذين لقي البعض حتفهم في الأحداث، وطُرد العمال الأجانب من البلاد، فكفّت غالبية العمال السعوديين عن المشاركة وانتهى الإضراب.

أخذت قيادة أرامكو في الخمسينيات بالتدريج تضع الحسابات الواعية فوق الجشع والأطماع. فرفعت مستوى الأجور في عام 1957م إلى 1300 دولار سنوياً. وكان ذلك مبلغاً خيالياً بالنسبة إلى الجزيرة العربية. وقدمت للعمال سكناً مجانياً، وبنت لهم قاعات رياضية وأحواض سباحة ومكتبات ومساجد، ووفرت نقليات مجانية إلى أماكن العمل ذهاباً وإياباً، بل وحتى إلى القرى والقبائل في أيام العطل، حيث يلتقي العمال أهاليهم. وطبّق أسبوع العمل من 45 ساعة، ودفعت أجور الأعمال الإضافية مع إجازة سنوية لمدة أربعة

أسابيع وخدمات طبية مجانية للعمال وعوائلهم. كذلك تلقت عوائل العمال معونات في حال وفاة المعيل. إضافة إلى ذلك افتتحت صفوف محو الأمية، وتوافرت لمن يريد مواصلة التعليم فرصة الدراسة المجانية في المدارس الصناعية. ولكن لم يكن يسمح للسعوديين في أرامكو بالترقية إلى مستوى كبار المديرين. وكان القليلون جداً من الموظفين العرب يقيمون في الحارات المميزة جداً في المناطق السكنية المخصصة للأميركيين.

عندما تولى سعود مقاليد الحكم، كان يريد أن يواصل شكل السلطة الأبوي التقليدي الذي سار عليه والده. ولا يجوز القول بالطبع إن العالم الخارجي لم يؤثر على آرائه. فقد أخذ يتكلم، بالأقوال لا الأفعال لعدم توافر الإمكانيات، ليس فقط عن ضرورة تمتين الأسس الإسلامية للدولة، بل وعن لزوم تحسين الإدارة وتطوير التعليم والصحة والنقليات والاقتصاد.

وكان الجميع، بمن فيهم فيصل، يعترفون طبعاً بصلاحيات الملك سعود التامة وغير المنقوصة حسبما ما تقتضيه التقاليد المتعارف عليها. إلا أن المسألة الأساس، كما يقول إبراهيم الرشيد، هي ضرورة التجديد الكامل للجهاز الحكومي السعودي وموظفيه، وتحويل النظام الملكي القبلي غير الرسمي إلى حكومة عصرية فاعلة على الطريقة الأوروبية[4].

ومن السذاجة طبعاً الكلام على "الطريقة الأوروبية"، إلا أن الحاجة كانت ماسة لتأليف حكومة

على غرار حكومات الدول المتطورة في الشرق الأوسط على الأقل.

هذه المسألة بالذات تعتبر نقطة الاختلاف في الرأي بين سعود وفيصل. فالملك سعود أراد أن يُبقي كل شيء على حاله. أما ولي العهد فيصل الذي لم يشكك أبداً، وفي أي حال من الأحوال، في شرعية تربّع سعود على العرش، إنما كان ينادي ببناء جهاز للدولة أكثر حداثة وفاعلية وشعوراً بالمسؤولية مع توزيع الميزانية حسب أبواب الصرف الرشيدة، بما فيها النفقات الشخصية للملك.

كتب منير العجلاني يقول:

> قصة الخلاف بين سعود وفيصل ليست سراً، وإنْ حُجبت عن العيون، خلال عهد الملك سعود، بعضُ أسرارها. وما هي بقصة جديدة أنشأتها، بعد تولي سعود للملك، أطماع رجال تستهويهم الألقاب. بل هي قصة قديمة نشأت في حياة الملك عبد العزيز، وكانت صورة مجسدة للنضال بين خُلقين وبين عقلين.
>
> وقد حدد فيصل نفسه أبرز معالم هذه الصورة حين قال لأخيه سعود:

أنت تعتقد أنك "فوق" النظام وأنا أعتقد أنك "تحت" النظام. أنت وأنا وكل رجل.

> أنت تظن أن أموال الدولة ملك لك، وأنا أعتقد أن أموال الدولة للشعب، ولذلك لا

نلتقي على صعيد واحد[5].

بدا الأمر في المرحلة الأولى كأن سعود وفيصل اتفقا على توزيع الصلاحيات على الرغم من تسرب أنباء الخلافات بينهما من المملكة العربية السعودية إلى الخارج منذ عام 1954م. فقد ظل سعود رئيساً للوزراء، أي في المنصب الذي عيّنه فيه والده في أكتوبر 1953م، فيما كان فيصل نائباً له. وكان مجلس الوزراء الذي تألّف في مارس 1954م متوازناً من الناحية السياسية. فمن بين الوزراء الـ11 الذين تولوا 13 وزارة، كان هناك ثلاثة أشخاص من غير العائلة المالكة، أحدهم وزير المال والاقتصاد العتيد عبد الله السليمان، وثلاثة من الأمراء الأكبر سناً، ومنهم فهد، وثلاثة من الأمراء الأصغر، ومنهم سلطان وعبد الله نجل الأمير فيصل.

وبيّن هذا التوازن غير المتين أن سعود ألّف حكومة ائتلافية الطراز لا تستطيع أي مجموعة فيها أن تزعزع مواقعه، فيما بقيت السلطة الفعلية في يده. ولكن لا يستبعد أن يكون تصريف الشؤون اليومية أمراً مملاً جداً بالنسبة إلى سعود. ولربما تعرض الملك لضغوط من أعمامه وإخوانه الذين طالبوا بتعيين فيصل المحنك رئيساً للحكومة. فقد أصدر سعود في أغسطس 1954م على أي حال مرسوماً ملكياً بتعيين فيصل رئيساً للحكومة ودمج ديوانه الشخصي في الحجاز بديوان رئيس الوزراء. وقد جاء تعيين فيصل رئيساً للوزراء

وانتقاله إلى الرياض ليسوق الدليل على وحدة العائلة المالكة أمام البلاد في الداخل وأمام العالم الخارجي.

كتب منير العجلاني:

> يؤكد العارفون أن التعاون الصادق بين سعود وفيصل استمر سنتين أو أكثر. فقد تخلى سعود عن رئاسة مجلس الوزراء لأخيه فيصل وأطلق يده في الحكم، وقال له بلسان الحال ما قاله الخليفة الرشيد لوزيره يحيى: يا أخاه، أنت أجلستني هذا المجلس ببركة نصحك وتفكيرك، فاحكم كيف أردت، فأنت أعرف بأهداف أبينا، وأنت أدرى مني بشؤون الإدارة والسياسة وأحوال العالم، لأنك مارست أعباء الحكم ووجهت سياسة البلاد الخارجية خلال ربع قرن أو أكثر، فلست ناظراً معك في شيء ولا واقفاً دونك في أمر.
>
> وكان عقلاء الأسرة وراء هذا السلوك الرشيد، وكان سرورهم بالتزام الملك سعود برأيهم ومشورتهم عظيماً جداً[6].

إلا أن الأمور تبدلت في ما بعد.

حتى وفاة الملك عبد العزيز كانت الإدارة في المملكة مقسومة قسمين؛ وزارة الخارجية في جدة ووزارة الدفاع في مكة. وبعد وفاة وزير الدفاع الأمير منصور نقلت وزارته إلى الرياض. وكانت إدارة إقليم الحجاز

موجودة في مكة وإدارة نجد في الرياض، ما يعني وجود ظروف للمنافسة والانقسامات المحتملة.

ثم إن انتقال فيصل إلى الرياض يعني أن سعود بحاجة إليه لأنه الشخص الوحيد في العائلة المالكة الذي يمتلك خبرة دبلوماسية غنية. ولسنا معنيين هنا بالكيفية التي استفاد بها سعود من خبرة أخيه الدبلوماسية.

يقول أحمد بن عبد الوهاب:

> بعد أن مات الملك عبد العزيز وجاء الملك سعود، تقرر في عهده نقل الدولة إلى العاصمة الأم. لأن المملكة العربية السعودية كانت لها عاصمتان. الرياض التي فيها الملك ومكة تماشياً مع الإسلام. وبعد ذلك تقرر أن العاصمة الإدارية حيث يوجد الملك. فما دام الحاكم هناك فيجب أن تكون الحكومة هناك. وجرى نقل الحكومة في عملية استمرت حوالى سنة أو سنتين حتى استطاعوا أن يعمروا الرياض لتستوعب الإدارات الحكومية والإسكان وهيكل الدولة. واستغرق استيعاب الإدارات الحكومية سنتين من دون السلك الدبلوماسي، فبقي في الحجاز. ومن هذا المنطلق في عهد الملك سعود انتقلنا كلنا إلى الرياض. فانتقل فيصل إلى الرياض وصارت العاصمة هناك. وكان سعود يأتي إلى جدة، إلى الحجاز،

للحج ويبقى بعد الحج. وبالطبع تنتقل الدولة... فكنا نأتي إلى جدة فترة قصيرة ثم ننتقل إلى الطائف طول الفترة الصيفية، ثم ننتقل من الطائف إلى الرياض مروراً بجدة. فكانت هذه مكلفة ومتعبة، وما زالت إلى اليوم. الدولة السعودية لا تستطيع أن تنتقل كلها لأن الوزارات كبرت الآن. مجلس الوزراء ينتقل الآن مع الملك والوزراء يأتون ويحضرون الجلسة ويعودون إلى الرياض[7].

وكان من الأحداث المهمة إقالة "القيصر" المالي الجبار للمملكة العربية السعودية عبد الله السليمان واستبداله بمحمد سرور الصبان الذي كان فيصل يعرفه من عمله في الحجاز. ولكن اتضح أن الصبان تعوزه الإرادة والعزيمة، فبات طوع بنان الملك سعود وبلاطه.

لقد تصرف فيصل بحكمة طبعاً. كان يبدي ولاءه لأخيه الملك سعود من دون أن يتدخل في قراراته، فوفر له الفرصة كي يعمل كما يحلو له.

وبدت مواقع فيصل أقوى حسب الظاهر عندما تولى مهمات رئيس الوزراء. فكان بوسعه أن يطبّق، على نطاق البلاد كلها، خبرته الإدارية التي تراكمت على مدى ثلاثة عقود تقريباً من عمله نائباً للملك في الحجاز. إلا أن جر الحبل سرعان ما بدأ بين الديوان الملكي ومجلس الوزراء. وكان بين مستشاري الملك الداهية القديم الجريء نفسه يوسف ياسين، وخالد القرقني الذي التقى هتلر في حينه، وكذلك المخبر النازي

المستعرب فرنر أوتو فون هنتنغ الذي نظم ذلك اللقاء المشهود، وعبد الله بلخير المترجم والسكرتير الشخصي للملك سعود، وأيضاً ابن أخي مفتي القدس الحاج أمين الحسيني والمحامي الفلسطيني أحمد الشقيري، وأخيراً عيد بن سالم سائق الملك. وهو رجل نبيه رغم قلة تعليمه، وقد تولى الإشراف على جميع مرائب سيارات الملك، ثم بات رئيساً للديوان الملكي برتبة وزير، فمديراً لخزينة البلاط، ثم ممثلاً مفوضاً لسعود.

كان يؤلم فيصل كثيراً أن يرى الصلاحيات السلطوية تنتقل يوماً بعد يوم من الحكومة إلى عدد من الطفيليين المحيطين بالملك، فيما يكاد مجلس الوزراء يتحول إلى ألعوبة بيد الديوان الملكي.

ثم إن باقي أفراد العائلة المالكة التفتوا إلى هذه الظاهرة المريبة، فازداد قلقهم. آنذاك كتبت جريدة "الحياة" اللبنانية عن انتقادات للملك صادرة عن عدد من إخوانه الأصغر سناً.

واعتباراً من عام 1956م أخذ سعود يعيّن أولاده في مناصب حساسة في وزارات القوى ومصالحها. فعيّن ابنه مساعداً لرئاسة الحرس الملكي بدلاً من أخيه نواف، كما عين ابنه البكر فهد في بداية ديسمبر 1956م وزيراً للدفاع بدلاً من أخيه مشعل الذي اتُّهِمَ بتعاطفه مع جمال عبد الناصر.

وفي يونيو 1957م سافر رئيس الوزراء فيصل إلى الولايات المتحدة للعلاج بعد أن ألم به التعب واشتد عليه المرض. وبعد بضعة أسابيع من سفره غبَن خالد،

أحد أولاد سعود، قائداً للحرس الوطني. وجرّد وزير الداخلية عبد الله، نجل الأمير فيصل، من صلاحيات السيطرة على شرطة الحجاز وأحيلت تلك الوظيفة على سعيد الكردي المخلص للملك سعود.

لم يكن سعود رجلاً بسيطاً ولا ساذجاً، بل كان ذكياً. ولم يكن يشبه "الملك لير" بشيء في تصرفاته التي أسفرت عن تجريد فيصل من كل سلطاته في الواقع.

إلا أن تركيز كل الصلاحيات بأيدي سعود وحاشيته، وكذلك التسيّب المالي الصارخ وتردّي المستوى السياسي للحكم جعل العائلة المالكة كلها تمتعض مما آلت إليه الأمور، فيما قوى اجتماعية وسياسية جديدة في البلاد باتت تمثّل خطراً على استقرار النظام.

وإلى ذلك امتنعت شركة أرامكو عن تقديم القروض للمملكة بحساب العائدات المرتقبة، مثلما كانت الحال سابقاً، إلى حين انتظام الأحوال المالية في البلاد. كذلك قوبلت محاولة سعود الحصول على قرض من صندوق النقد الدولي بإرسال خبراء الصندوق إلى المملكة، فأوصوا بتقليص النفقات بعد أن درسوا الوضع المالي فيها.

أما فيصل فقد أجريت له عدة عمليات جراحية اقتضت إرجاء موعد العودة إلى الوطن مراراً. إلا أنه لم ينقطع في الولايات المتحدة عن متابعة السياسة الدولية ولا عن الشؤون الداخلية في المملكة. فقد التقى الرئيس أيزنهاور ثم عدداً من كبار المسؤولين الأميركيين في سبتمبر 1957م. وحظي بإعجابهم

كزعيم سياسي، لكنهم ما كانوا يستطيعون التأثير جوهرياً في العملية السياسية في المملكة التي يقودها أفراد العائلة الحاكمة وأبرز العلماء. وفي طريق العودة توقف فيصل في مصر للراحة والاستجمام بضعة أسابيع، إلا أن ذلك لم يمنعه من القيام بلقاءات مع جمال عبد الناصر.

آنذاك تلبّدت سماء سعود بالسحب. وكانت خيبة أمل العائلة فيه واضحة للعيان، ولم تعد تخفي تذمرها واستياءها.

في العاشر من فبراير 1958م عاد فيصل إلى الوطن، وهو على علم تام بأمزجة العائلة المالكة. وبعد أيام ترك منصب رئيس الوزراء الذي بات شكلياً تماماً. كانت طريقته في الصراع واضحة: أنا لا أقف ضدك يا أخي، ولكن فلنرَ هل تستطيع أن تستغني عني؟ كان فيصل يرفض فكرة إسقاط الملك سعود من الأساس، لكنه لم يعد راغباً في التساوم على حل وسط، كما كانت الحال عام 1954م. فإما السلطة التنفيذية كاملة الآن وإلا فلا.

لكننا، ونحن نعرض لوحة الموقف داخل المملكة العربية السعودية في تلك السنوات، لا ننسى القوى الخارجية المؤثرة فيه بقدر متزايد، بل وبقدر حاسم في الغالب. كانت كلمة الملك هي العليا في السياسة الداخلية من دون ريب. ولكن في السياسة الخارجية كانت هناك كلمتان، إحداهما لسعود والأخرى لفيصل.

وكلما حاول الملك أن يلعب بصورة مستقلة في الساحة الغربية عليه كثرت الأخطاء واهتزّ استقرار النظام.

حاول سعود أن يلتف على فيصل المحنك. وما كان هذا الأسلوب مشجعاً للتعاون بينهما.

فيصل يتابع بكل اهتمام الظواهر الجديدة في حياة الشرق الأوسط، ويدرك مدى تخلف بلاده المترامية الأطراف والقليلة السكان والفقيرة جداً آنذاك عن جيرانها العرب كمصر وسورية والعراق. كانت بلاده لا تزال على هامش العالم العربي من حيث التطور الصناعي والنقليات وإعداد القوات المسلحة، ومن حيث عدد طلاب المدارس والجامعات، ومن حيث الجرائد والمجلات والكتب.

آنذاك بدا كأن مصير المنطقة يقرر على ضفاف النيل في المقام الأول. فيصل يتابع أخبار الاضطرابات في مصر وعمليات البوليس والمقاومة ضد قوات الاحتلال البريطانية في منطقة قناة السويس، وأخبار حريق القاهرة المرعب والفوضى الحكومية التي قادت إلى حركة الضباط الأحرار أو ثورة 23 يوليو 1952م. وعلى الرغم من لطف موقف فيصل في العلاقة مع الملك فاروق فهو لم يكن يتعاطف معه، بصرف النظر عن التزام الرياض والقاهرة مواقف متماثلة حيال مخططات "الهلال الخصيب" و"سوريا الكبرى".

يقول محمد حسنين هيكل:

انشغل آل سعود في الصراع ضد الهاشميين

قبل مجيء جمال عبد الناصر إلى السلطة

بزمن طويل. وقادهم هذا الصراع إلى التحالف حتى مع العائلة المالكة في مصر، وأعني الملك فاروق. كان الصراع ضد الهاشميين أحد أعمدة السياسة الخارجية المصرية التي لم تتغير من هذه الناحية بعد ثورة يوليو. العائلة المالكة في العراق طبقت سياسة توفير القواعد العسكرية للأجنبي، وعلى أساس مقاومة هذه السياسة توطدت علاقات مصر مع السعودية. وعندما تسلم عبد الناصر مقاليد الحكم ظل هذا الاتجاه قائماً. ونشأت بين سعود، بعدما غدا ملكاً، وبين عبد الناصر علاقات طيبة لأنه كان يعتقد أن عبد الناصر يمكن أن يكون حليفاً أكثر فاعلية ضد الهاشميين، فيما كان عبد الناصر يأمل بتفاهم أكبر مع ملك السعودية الجديد بعد وفاة عبد العزيز. وأعتقد أنهما في البداية قد أعجب أحدهما بالآخر[8].

التقى جمال عبد الناصر والملك سعود عدة مرات، وكان كلاهما آنذاك يطبقان سياسة ودية حيال الولايات المتحدة ومعادية لبريطانيا.

إلا أن مخططات القيادة المصرية الجديدة أبعد مدى. فقد ركبت هذه القيادة موجة القومية العارمة التي اجتاحت الأقطار العربية ضد الغرب. ولم تقتصر جهود عبد الناصر على توجيه سياسة مصر في المجرى القومي المعادي للغرب (وللإمبريالية)، بل غدا زعيماً

ورمزاً ومهندساً للقومية العربية التي كان تطورها خاضعاً لقوانينها ومنطقها الخاص.

كان تعنّت زعماء بريطانيا وفرنسا، وعدم رغبتهم في التخلص من "أعباء الرجل الأبيض" والتنازل عن دورهم الذي ولى زمانه، وعدم فهمهم أن السيطرة الاستعمارية المباشرة محكوم عليها بالفشل، قد أثارت عداء الشعوب العربية لهم، وحتى كراهية النخب السياسية التي كانت مستعدة للتعاون معهم، من حيث المبدأ، على أساس التكافؤ. كان الجرح ينزف دماً بعد الإهانة التي تعرضت لها الكرامة العربية في فلسطين. واتضح على أرض الواقع أن الدول الاستعمارية القديمة لم تعد تمتلك، لتنفيذ سياستها الإمبريالية، لا القوى اللازمة ولا المال ولا الإرادة الكافية. ولذا أخذت تتطلع إلى النجدة والدعم من جانب الزعيمة الأقوى في الغرب - الولايات المتحدة - التي ليس لها ماضٍ إمبريالي في أقطار الشرقين الأدنى والأوسط. وبات "الحلم الأميركي" يستهوي أذهان ممثلي الطبقات الجديدة والكثير من المثقفين في المنطقة. كانت شعبية الولايات المتحدة واسعة للغاية. القيادة الأميركية تعتقد أن زمن الإمبراطوريات الاستعمارية مضى وانقضى. إلا أن الدول الاستعمارية، وفي مقدمها بريطانيا، كانت حليفة للولايات المتحدة في "حربها الباردة" ضد الاتحاد السوفياتي.

وبعد أن تسلمت إدارة دوايت أيزنهاور السلطة في الولايات المتحدة في يناير 1953م، زار وزير خارجيته

جون فوستر دالاس الشرق الأوسط في مايو من العام ذاته على أمل تحقيق الهدف الرئيس بطفرة جريئة واحدة، ليجذب زعماء بلدان المنطقة إلى حلف عسكري مناهض للاتحاد السوفياتي، بحيث يغدو استمراراً لحلف شمالي الأطلسي - الناتو. وكان "الخطر الشيوعي" محور محادثاته مع الزعماء العرب. إلا أن أكثريتهم يرون أن الخطر يهددهم من جهة أخرى، من جهة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، وأن المشاكل المحلية أهم بالنسبة إليهم من "الحرب الباردة" الأميركية السوفياتية.

زار دالاس يومها تل أبيب وعمان والقاهرة ودمشق وبيروت وبغداد. وفي القاهرة رأى الضباط الناشطين الشباب المستعدين للدراسة والعمل من أجل إنقاذ مصر من التدهور والفساد. وكان البون شاسعاً بينهم وبين الملك البائس فاروق. إلا أن المصريين ينتظرون من الولايات المتحدة أن تعترف بهم لاعباً مستقلاً على ساحة الشرق الأوسط، فيما اعتبرت واشنطن مصر مجرد أداة في صراعها مع موسكو. ولم يكن جمال عبد الناصر ورفاقه يرون خطراً على مصر من جهة الاتحاد السوفياتي، فيما كان جلاء قوات الاحتلال البريطانية بالنسبة إليهم على رأس جدول الأعمال.

في 18 مايو 1953م وصل دالاس إلى الرياض وقابل الملك الكهل عبد العزيز. وبعد أن استمع العاهل السعودي إلى تهجم دالاس على الشيوعية حوّل مجرى الحديث إلى موضوع البريمي وقال إن "الصديقة

القديمة" بريطانيا سددت هناك ضربة إلى المملكة العربية السعودية. وكان الأمير فيصل أكثر تحديداً في كلامه، فأطلع جون فوستر دالاس على تفاصيل الخلافات في شأن البريمي وقال إنه ينتظر مساعدة من الولايات المتحدة. واستشهد بالرسالة التي بعث بها إليه الرئيس ترومان في 31 أكتوبر 1950م، وأكدها الرئيس أيزنهاور أثناء مقابلته له، والتي تقول: "إن صيانة استقلال المملكة العربية السعودية وحرمة أراضيها تستجيب لمصالح الولايات المتحدة". وكتب ترومان في تلك الرسالة: "إن أي تهديد لمملكتكم يثير في الحال قلق الولايات المتحدة"[9]. وتلك صيغة تكاد تعني علاقات تحالف بين البلدين، فيما الخلاف على البريمي "تهديد لحرمة أراضي المملكة" في رأي الأمير فيصل.

تملّص دالاس من بحث هذا الموضوع تحديداً، وقال للملك ولفيصل بلهجة فيها شيء من الحدة إن الولايات المتحدة لن تقاتل بريطانيا بسبب البريمي.

وتعين على فيصل أن يخوض "حربه الباردة" ضد بريطانيا وحده، على الرغم من أن أيزنهاور أكد رسمياً رسالة ترومان في 15 يونيو 1953.

لم يكن بوسع واشنطن أن تعارض تصرفات حلفائها على الرغم من عدم استحسانها تلك التصرفات. أما بالنسبة إلى وزير الخارجية الأميركي دالاس فقد كانت الشيوعية هي العدو الرئيس، وهو من هذه الناحية يؤيد الشعار الانعزالي الذي رفعه الشيوعيون في العشرينيات والثلاثينيات: "من ليس معنا فهو ضدنا".

وكان "يجب" على دول الشرقين الأدنى والأوسط، في اعتقاده، أن تدخل في الأحلاف العسكرية التي تتزعمها الدول الغربية لمواجهة "الشيوعية" و"الخطر السوفياتي". وقد رحب زعماء تركيا وإيران بهذه الدعوات غير المفهومة بالنسبة إلى العرب الذين خلقت لديهم الضغوط الأميركية والبريطانية والفرنسية ردود فعل عكسية، ما حول جهود جون فوستر دالاس إلى وسيلة لتسهيل السياسة السوفياتية في "العالم الثالث"، بما فيه الشرقان الأدنى والأوسط.

فالمهمة الوطنية للتيارات السياسية الجماهيرية التي تسلم الكثيرون من زعمائها السلطة في الأقطار العربية هي إحراز الاستقلال وتوطيده، وبالتالي إلغاء المعاهدات غير المتكافئة سياسياً مع الدول الاستعمارية وتصفية الوجود العسكري الغربي، وخصوصاً القواعد الحربية في المنطقة، وتعزيز القوات المسلحة الوطنية كوسيلة لحماية السيادة الوطنية والكرامة القومية، وكرمز للمكانة الجديدة المتكافئة وتنمية الاقتصاد المستقل، ما يعني تصفية مواقع الرأسمال الأجنبي وامتيازاته، بما في ذلك الشركات النفطية الأجنبية. أما القوة الخارجية التي تربط سياستها بأماني الشعوب هذه، وبطموحات النخب السياسية الجديدة، فهي التي تغدو حليفة لتلك النخب. وبصورة تلقائية تحول خصم بريطانيا وفرنسا في هذه المنطقة إلى حليف للعرب وللشعوب الأخرى.

وهكذا فُتِحَ الباب في انتظار الضيف الجديد. وهو بالطبع الاتحاد السوفياتي الذي كانت سياسته المعلنة في تلك الفترة تتجاوب مع الاتجاه العام للتطور التاريخي في المنطقة وتستجيب لميول شعوبها وطموحاتهم. إلا أن "دعوة" الاتحاد السوفياتي إلى دخول باب المنطقة المفتوح فعلاً تقتضي أن يذلل كل من الجانبين حواجزه ويجتاز موانعه. كانت موانع زعماء المنطقة أعلى؛ وهي الخوف من انتشار الشيوعية، ذلك الخوف الذي غرسته الميول القومية والطباع الدينية والاجتماعية، إضافة إلى الدعاية الغربية الطويلة الأمد. إلا أن تلك المخاوف تضاءلت بسبب ضعف الأحزاب الشيوعية المحلية وعدم تقبل الجماهير للعقيدة الشيوعية. أما الشيوعية في الاتحاد السوفياتي نفسه فهي تعتبر قضية داخلية له وخياراً لشعوبه، فيما خلّفت انطباعات جيدة وعميقة لدى النخب السياسية في المنطقة تلك الصورة التي رسمتها الدعاية السوفياتية وبعض عناصر النموذج الاجتماعي والسياسي السوفياتي والنجاحات العسكرية والصناعية للاتحاد السوفياتي التي عززها هدير جنازير الدبابات أثناء الاستعراضات العسكرية المؤثرة والمثيرة. فباتت مفردة "الاشتراكية" (لا "الشيوعية") ذات جاذبية خصوصية، فيما باتت مفردة "الرأسمالية" منفّرة منبوذة، تجسد الهيمنة السياسية والاقتصادية والعسكرية للغرب.

أما الجانب السوفياتي فكان في حاجة إلى جهود أقل لتجاوز موانعه الأوطأ. كان يكفي القيادة السوفياتية التي خلفت ستالين أن تتخلى فقط عن النعوت المفتعلة من قبيل "أذناب الاستعمار وصنائعه التوفيقيين" التي كانت تطلقها على جميع الزعماء غير الشيوعيين في الشرقين الأدنى والأوسط، بل وفي "العالم الثالث" كله. وكان يكفي تلك القيادة أن تفهم أن تطور الأحداث في المنطقة يوفر فرصاً جديدة للتبشير العقائدي ولمهمة تعزيز أمن الاتحاد السوفياتي على السواء، إذا تناولت القيادة السوفياتية قضايا النظرية والتطبيق بمرونة أكثر مما في العهد الستاليني.

لم تشهد المملكة العربية السعودية الهيمنة الغربية المباشرة. فالقاعدة الأميركية في الظهران لم "تستولِ" عليها أميركا بالقوة، بل سلّمَها إليها الملك عبد العزيز بالتراضي، على سبيل الإيجار لفترة زمنية محدودة. ثم إن الذهنية الفكرية لسكان المملكة قائمة على مشاعر الولاء للقبيلة والإسلام والعائلة المالكة، وليس على النزعة القومية العلمانية. فكان فيصل يشاطر القوميين العرب اهتماماتهم السياسية عندما لا تمثل خطراً على النظام السعودي. كذلك تركت شخصية الرئيس عبد الناصر الفذة وجاذبيته وشعاراته انطباعاً في نفس ولي العهد، الأمر الذي تحدث عنه في ما بعد صراحة. إلا أن ارتيابه الشديد بالشيوعية الملحدة واستنكاره لدور الاتحاد السوفياتي في تأسيس دولة إسرائيل جعلاه

يتحفظ على أي نوع من أنواع التعاون معه. لكننا سنتناول هذا الموضوع في ما بعد.

سمعة جمال عبد الناصر أو شخصيته الفذة تقوم على قوة مصر كدولة إقليمية. أشارت "الأهرام" في عددها ليوم 10 يناير 1970م إلى قول فيصل عن النصيحة التي كأنما أعطاها الملك عبد العزيز لأولاده، حين أوصاهم بتقدير دور مصر، ذلك أنّ تاريخ العرب لا معنى له من دون مصر.

في بداية الخمسينيات كان يقيم في مصر أكثر من ثلث إجمالي سكان البلاد العربية. وكانت تصدر في القاهرة وحدها 14 جريدة يومية و23 جريدة ومجلة أسبوعية. وكان نجوم السينما المصرية يتمتعون بالشهرة في العالم العربي "من المحيط إلى الخليج"، فكانوا يتغلغلون حتى في المملكة العربية السعودية بنحو ما.

في السنوات التي كان التلفزيون يخطو خلالها خطواته الخجولة الأولى في الأقطار العربية، أدرك جمال عبد الناصر الأهمية البالغة للإذاعة، فتأسست "صوت العرب" في يوليو 1953م بإرسال مدته 30 دقيقة في اليوم، تحول في بداية الستينيات إلى إرسال على مدار الأربع والعشرين ساعة تقريباً. وكان مذيعو القاهرة يوحون للمستمعين أن إذاعة "صوت العرب" تتحدث إلى العرب وتناضل من أجلهم وتعبر عن وحدتهم، وأن مصر تخدم الأمة العربية في نضالها ضد الإمبريالية الغربية وخدمها وصنائعها في العالم العربي.

وكان جمال عبد الناصر بالطبع يحدد هوية هؤلاء "الخدم".

كذلك كان نجاح "صوت العرب" قائماً على هيمنة الثقافة المصرية في العالم العربي. فلم تكن هناك ثقافة تجاريها من حيث عدد الملاهي الكوميدية والأوبرات الطنانة والأحاديث الإذاعية والمسابقات على الهواء وما إلى ذلك. عندما كانت المغنية المصرية العظيمة أم كلثوم تحيي حفلاتها الساهرة طوال خمس ساعات في أول خميس من كل شهر، كان العرب "من المحيط إلى الخيلج" يتحلقون حول الترانزيستورات ليمتعوا أسماعهم بصوتها. وكانت المواضيع القومية والوطنية تصدح في أغاني أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، خاصة أغنية "يا جمال! يا جمال". وازدادت قدرة محطة "صوت العرب" من 72 كيلوواط عام 1952م إلى 1624 كيلوواط بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ. أما في البلدان العربية الأخرى، وخصوصاً المملكة العربية السعودية، فقد جاء فهم أهمية الدعاية الإذاعية متأخراً. وكانت هذه البلدان غير مستعدة لمواجهة الضربات الإذاعية المنطلقة من القاهرة.

كذلك فإن بلاغة جمال عبد الناصر الخطابية التي لا ريب فيها أثرت في ملايين المستمعين العرب. كان ساحراً يتحكم في مشاعر الجموع، متمكناً في أروع صورة من اللغة العربية الفصحى التي يطعمها أحياناً باللهجة المصرية. إلا أن الأهم هو إحساسه بما يريد المستمع أن يسمع منه، ولذا تتكرر مفردة "الكرامة" في

خطبه بكثرة. ذلك لأن للكرامة صداها الطيب في قلوب ملايين العرب الذين عانوا من إهانات المستعمر عشرات السنين. وبالنسبة إلى عرب الجزيرة المعتزين بتقاليد الشرف والفخار كانت الكرامة جزءاً لا يتجزأ من طبيعتهم النفسية.

في عام 1954م حقق عبد الناصر جلاء القوات البريطانية من منطقة السويس. ولأول مرة من عام 1882م لم يبقَ في مصر جندي أجنبي واحد.

إلا أن الولايات المتحدة وبريطانيا لعبتا لعبتهما انطلاقاً من مهمات "الحرب الباردة".

ففي 24 فبراير 1955م تأسس بدعم من الولايات المتحدة الحلف العسكري المسمّى حلف بغداد بين بريطانيا وتركيا والعراق وباكستان وإيران. وتعرضت مصر وسورية ولبنان والمملكة العربية السعودية والأقطار العربية الأخرى لضغوط تهدف إلى إرغامها على الانضمام إلى الحلف.

كان فيصل ضد حلف بغداد انطلاقاً من منطق بسيط وواضح: كيف يجوز الدخول في حلف مع بريطانيا التي تحتل الأرض السعودية في البريمي؟ كيف يمكن الدخول في حلف مع العراق الهاشمي؟ كلا. الابتعاد أفضل. وكان جمال عبد الناصر ضد حلف بغداد. أليس الأجدر تأييد الزعيم المصري في هذا الأمر؟

بالنسبة إلى القيادة السوفياتية الجديدة في الفترة 1954-1955م كان من مصلحتها الاستراتيجية الطبيعية أن تتجاهل وتقفز فوق حزام دول الشرق

الأوسط الموالية للغرب وتمد يدها إلى الأنظمة العربية التي رفضت، انطلاقاً من اعتبارات خاصة بها، الانضمام إلى الأحلاف العسكرية التي كان الغرب ينوي إنشاءها. وكانت الآفاق أكثر تفتحاً وجاذبية على أبواب مصر التي هي مفتاح العالم العربي، وهي الدولة العربية الأكثر نفوذاً وسكاناً. صحيح أن موسكو كانت قبل عامين لا أكثر من ذلك التاريخ تطلق النعوت على زعماء مصر الجدد واصفة إياهم "بالقوميين البرجوازيين" و"عملاء الإمبريالية الغربية". ولكن من يعير بالاً لتهجمات دعائية قديمة عندما يكتشف الجميع مصالح سياسية مشتركة في ما بينهم؟

لم تكن القاهرة تعتبر الاتحاد السوفياتي عدواً. فالعدو هو بريطانيا. وكانت بغداد تنافس القاهرة على الصعيد العربي، وفيها نظام ملكي مرتبط ارتباطاً وثيقاً ببريطانيا. أما المملكة العربية السعودية فلم تكن آنذاك صديقة ولا خصماً للاتحاد السوفياتي. إلا أن التوجهات المعادية للإنجليز والأميركيين قرّبت بين القاهرة والرياض.

لقد عمل جمال عبد الناصر على بناء مصر دولة قوية بجيش مسلح جيداً. أمنية الاستقلال والطموح إلى قوات مسلحة فاعلة يرافقان مصر منذ هزيمة محمد علي الكبير المهينة على أيدي الدول الغربية في منتصف القرن التاسع عشر، تم تقليص القوات المسلحة المصرية إلى حدها الرمزي الذي فرضته بريطانيا بعد احتلال مصر في سنة 1882م. فالدول الغربية لم تكن

راغبة في تقوية خصوم إسرائيل في المنطقة، ولا في تقديم السلاح إلى أنظمة لا يمكن التكهن بنيّاتها. ولذا رفضت تلك الدول تلبية طلبات جمال عبد الناصر. وفي كل الأحوال كان شرط تقديم السلاح هو مشاركة مصر في الأحلاف العسكرية المزمع إنشاؤها وإرسال بعثة عسكرية أميركية إلى مصر. فأخذ جمال عبد الناصر يفكر في مصدر آخر للسلاح، رغم بعض التردد والمخاوف. ويعتبر من قبيل السفسطة الآن السؤال عمّن كان المبادر إلى توقيع صفقة السلاح بين مصر والاتحاد السوفياتي، هو أم هي؟ فالطرفان كانا آنذاك يسيران للقاء أحدهما الآخر.

وقد عجّلت قرار طلب السلاح من الاتحاد السوفياتي الغارة الإسرائيلية على غزة في 28 فبراير 1955م التي لقي 38 جندياً وضابطاً مصرياً مصرعهم فيها. وكان هدف ذلك الهجوم نسف شعبية جمال عبد الناصر أو العمل على إسقاطه. إلا أن النتيجة جاءت معكوسة.

جمال عبد الناصر أسهم في وضع نظرية وسياسة "الحياد الإيجابي" في البداية، ثم "عدم الانحياز". وكان من مؤسسي حركة عدم الانحياز. فالبكباشي المصري الشاب أقام علاقات وثيقة مع رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو ورئيس جمهورية إندونيسيا سوكارنو والرئيس اليوغسلافي جوزيف بروز تيتو. وفي منتصف فبراير 1955م زار تيتو ونهرو مصر، وأعلنا معارضتهما القطعية لحلف بغداد. ثم إن عبد الناصر يكنّ مشاعر الاحترام العميق لنهرو بوصفه

النصير الأكبر سناً والزعيم السياسي البارز. ولعل نهرو وتيتو أشارا على عبد الناصر بأن يستفيد من التنافس بين الغرب والشرق لمصلحة مصر. ففي مؤتمر باندونغ في أبريل 1955م التقى جمال عبد الناصر مع شوان لاي، رئيس مجلس الدولة في جمهورية الصين الشعبية، الذي نقل إلى القيادة السوفياتية طلب الرئيس المصري إرسال السلاح. ويبدو أن الرئيس عبد الناصر استنتج أن التقارب مع الكتلة الشيوعية يقوّي مواقعه في التعامل مع الغرب. إلا أنه استصغر شأن مخاطر هذه اللعبة. فقد اعتبره الغرب، الواقع في أسر كليشهاته ومعتقداته الجامدة، عدواً له و"عميلاً للشيوعية".

الأمير فيصل حضر مؤتمر باندونغ هو الآخر، وما كان بوسعه آنذاك أن يلمع بين نجوم المؤتمر. استمع إلى الخطب بكل انتباه، ودرس برنامج حركة عدم الانحياز، واقتنع بأن مبادئها تتجاوب مع مصالح المملكة العربية السعودية. كذلك اقتنع كل الاقتناع بما قاله جمال عبد الناصر في المؤتمر:

> هناك شرط آخر أحب أن أُشير إليه، ألا وهو ألاعيب الضغط السياسي التي بها تعمل الدول الكبيرة على استخدام الدول الصغيرة كأداة لتحقيق أغراض الأولى. هذا يجب وقفه فوراً إذا أردنا أن نضع حدّاً للتوتر الدولي الموجود حالياً. على أي أساس يستطيع إنسان أن يستسيغ أن أقطار شمال أفريقيا التي ظلت قروناً مستقلة ومقرّاً للعلم

والعرفان والحضارة العريقة تنحط مرتبتها إلى أن تصبح مناطق لا تتمتع بالحكم الذاتي؟

إن التعاون إنما يأتي بالغرض المقصود منه إذا آمنّا جميعاً بضرورة تحقيق المبادئ الأساسية الآتية:

أولاً: يجب على كل دولة أن تحترم الاستقلال السياسي لكل دولة أخرى، وأن تراعي العدالة الإقليمية فيها وألا تتدخل في شؤونها.

ثانياً: لكل دولة الحق في أن تختار ما تراه صالحاً لها من النظم السياسية والاقتصادية[10].

آنذاك كان فيصل يدرك أكثر من عبد الناصر أن أفضل البلاغات والتصريحات يمكن أن تترك جانباً ولا يؤخذ بها في الحياة الفعلية وفي السياسة الواقعية. إلا أنه كان رغم ذلك معجباً بعبد الناصر أيّما إعجاب.

في 27 سبتمبر 1955م أعلن جمال عبد الناصر نبأ توقيع الاتفاقية المصرية التشيكية للتعاون العسكري والفني، فثارت ثائرة زعماء الغرب، وخاصة في الولايات المتحدة وبريطانيا، وجاء ردّ فعلهم على هذا النبأ في منتهى السلبية. ولكن كلما علا زعيقهم في انتقاد عبد الناصر في الغرب ارتفعت منزلته وسمعته في مصر وفي العالم العربي بأسره.

صفقة بيع السلاح لمصر تعني اختراق الاتحاد السوفياتي للشرق الأوسط، وقد غيرت من حيث المبدأ توازن القوى فيه. ومن سخرية القدر أن العرب أرادوا القضاء على إسرائيل بالسلاح السوفياتي، وكانوا في الخمسينيات يأملون "برمي اليهود في البحر"، فيما الاتحاد السوفياتي لم يكن يهدف إلى ذلك مطلقاً. كانت إسرائيل "حليفاً" قوياً أميناً للولايات المتحدة، فيما كان المصريون والسوريون "أصدقاء" للاتحاد السوفياتي ليس إلا. ولم يكن هؤلاء الأصدقاء يتسلمون أحدث الطائرات من السوفيات على الرغم من أن الأسلحة الدفاعية، وخاصة راجمات الدفاع الجوي والمدفعية والدبابات التي تسلّموها، كانت ممتازة للغاية.

كل تلك الجوانب تكشفت في ما بعد. إلا أن العالم العربي في الحقبة التي نحن بصددها كان مفعماً بالإعجاب ببسالة عبد الناصر وبخرق الاحتكار الغربي لصادرات السلاح. وقد أعرب الأمير فيصل عن استحسانه الصريح للصفقة المصرية التشيكية، على الرغم من موقفه السلبي جداً من الشيوعية الملحدة. أما العاهل الأردني الملك حسين الذي لم يكن معجباً بجمال عبد الناصر إطلاقاً، فقد كتب في ما بعد عن القنبلة التي فجّرها عبد الناصر في العالم العربي بإعلانه صفقته التاريخية لشراء السلاح من الكتلة السوفياتية. فقد تبدل كل شيء في الحال، ورأى مئات الآلاف من الأردنيين الذين يستمعون إلى دعاية إذاعة القاهرة بتلهف أن عبد الناصر هو المخلّص والمهدي المنتظر،

وأنه يجسد أفضل أمانيهم في مستقبل مشرق وفي نجاح النضال ضد إسرائيل. لقد رأوا أن عبد الناصر هو أول رجل دولة عربي تخلص من قيود الغرب. واعترف الملك حسين بأنه هو أيضاً يشاطرهم تلك المشاعر بقدر كبير[11]. لقد اعتبرت الجماهير التي خرجت آنذاك إلى شوارع دمشق وبغداد وعمان، وحتى المناطق الخليجية (البريطانية) في الجزيرة العربية، تلك الصفقة نصراً للعرب على "الإمبريالية" و"صنيعتها" إسرائيل.

كانت علاقات المملكة العربية السعودية مع الولايات المتحدة في تلك الفترة ليست بأفضل حال. ففي الأول من يونيو 1955م أبلغ فيصل السفير الأميركي جورج وادسورث أن المملكة لم تعد في حاجة إلى مساعدات النقطة الرابعة الأميركية. وكانت سياسة المملكة آنذاك هي "عدم إزعاج الحكومة الأميركية"[12]. كذلك أعرب فيصل في الوقت ذاته عن الاستياء الشديد من عدم مساعدة الولايات المتحدة للمملكة في الخلاف على البريمي.

في 30 نوفمبر 1955م، رغم أزمة البريمي، أعرب الملك سعود عن رغبة المملكة في أن ترسل الولايات المتحدة أسلحة إليها وتوفد مدربين عسكريين لمدة خمس سنوات.

إلا أن مدة اتفاقية القاعدة الجوية في الظهران انتهت في عام 1956م، وبدأت مفاوضات التمديد.

وقد وافقت واشنطن على الشروط السعودية لتمديد الاتفاقية على أن تسدد الولايات المتحدة إيجارها

بإرساليات السلاح. فما كان الأميركيون يستطيعون التفريط بمواقعهم في المملكة العربية السعودية في وقت يتحدث فيه الجميع عن إرساليات السلاح "التشيكي" إلى مصر.

في أواخر عام 1955م أبلغ الاتحاد السوفياتي الحكومة السعودية استعداده لإحياء العلاقات الدبلوماسية وبيع السلاح للمملكة. ولم يلتفت الزعماء السياسيون السوفيات البراغماتيون إلى النظام الملكي السعودي الذي لم يكونوا يمتدحونه، فيما وجهت الصين الشيوعية الدعوة إلى الأمير فيصل لزيارة بكين. وقد بحث سعود وفيصل الاقتراحين بكل جدية. وبدا لهما الخطر الشيوعي أمراً محتملاً، فقررا التزام الحذر، وذلك لأن المملكة العربية السعودية ما كان بوسعها أن تتحدى الولايات المتحدة.

عندما أعربت الأردن عن استعدادها للانضمام إلى حلف بغداد، خرج عشرات الآلاف من الناس إلى شوارع المدن الأردنية تلبية لنداء "صوت العرب" وكادت تطيح النظام الملكي، فأرغمت الملك حسين على رفض الاقتراح.

إلا أن فكرة تأسيس حلف إقليمي عربي صرف كانت تراود الزعماء العرب. وفي أكتوبر 1955م عقدت مصر تحالفاً دفاعياً مع سورية والمملكة العربية السعودية. ورأى فيصل أن مصالح هذه الأنظمة المتباينة جداً كانت متوافقة. ووصل إلى المملكة مدربون عسكريون ومخبرون ومعلمون مصريون، فضلاً عن المهندسين

والأطباء والموظفين الصحيين والممرضات. وبالتعاون مع السعوديين (ومع شركة أرامكو) خططوا لدعم كل القوى المناهضة للإنجليز في مشيخات الخليج.

آنذاك وجّه جمال عبد الناصر صفعة أخرى لواشنطن بإعلانه الاعتراف بالصين الشيوعية.

كان الزعماء الغربيون يفكرون في "معاقبة" الزعيم المصري "المارق" وتلقين جميع العرب، و"العالم الثالث" كله، درساً لن ينسوه. وبإصرار من جون فوستر دالاس رفض البنك الدولي منح مصر قرضاً لبناء السد العالي في أسوان، وهو مشروع حيوي مهم للبلاد. وعند ذاك هدر الرعد من جديد. ففي 26 يوليو 1956م أعلن جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس. وعلى موجة الحماسة الجديدة التي عمّت الأقطار العربية، أكد فيصل أن كل عربي يفتخر ويعتز بقرار جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس[13]. ولكن ينبغي ألا ننسى أن هذا القرار يمثل بالنسبة إلى شركة أرامكو سابقة في منتهى الخطورة.

في تلك الفترة ولدت في دهاليز الخارجية الأميركية والبنتاغون ووكالة الاستخبارات المركزية خطة إشراك الملك سعود في حل أزمة السويس وفقاً للشروط الغربية. فوصل إلى الرياض ممثل البنتاغون روبرت أندرسون ومدير قسم الجزيرة العربية في الخارجية الأميركية دافيد نيوسوم والسفير الأميركي لدى المملكة العربية السعودية جورج وادسورث ومدير مكتب الاستخبارات المركزية في بيروت ويلبور ايفلاند. وقد

ترك لنا الأخير وصفاً مثيراً للقائه مع سعود وفيصل في كتابه **حبال مفتولة من الرمال. فشل أميركا في الشرق الأوسط**، حيث كتب يقول:

> الملك سعود بن عبد العزيز جالس على العرش. نظارته السميكة العدستين بارزة على وجهه، وإلى يساره جلس ولي العهد الأمير فيصل الذي يمثل القوة الحقيقية في المملكة. ويأتي إلى يساره، وأوطأ منه، مستشارو الملك وعلى رأسهم السوري يوسف ياسين بلحيته السوداء وعينيه المتراقصتين كأنه جاء توا من حكاية "علي بابا والأربعين حرامي"[14].

أوضح وادسورث، من خلال المترجم، أن الرئيس أيزنهاور بعث أندرسون ممثلاً شخصياً عنه ليبحث مسألة في منتهى الأهمية. ثم تفوّه أندرسون نفسه ببضع كلمات بروتوكولية... ويضيف إيفلاند:

> طوال تلك الفترة كان فيصل مطرقاً لا يفصح وجهه عن أي تعبير (ينمّ عن معرفته الجيدة للغة الإنجليزية). وأخيراً دخل أندرسون في صلب الموضوع، وأعلن بلغته المنمقة أن تأميم عبد الناصر لقناة السويس من دون تفكير يجعل من نفط المملكة العربية السعودية شيئاً لا ضرورة له... وأن رئيسنا ينصح سعود أن يوضح للرئيس المصري أن أفعاله تشكل خطراً على كل

الشعوب العربية... لقد ذكر أندرسون بصريح العبارة، إذن، أن نفط السعودية سيكون شيئاً لا ضرورة له. ولم يفوّت الأمير فيصل ويوسف ياسين هذه العبارة. فقد تهامسا في ما بينهما رأساً، ثم همس فيصل شيئاً في أذن سعود. فالتفت الملك إلى أندرسون، كأنه علم شيئاً جديداً في آخر لحظة، وقال: "عبد الناصر لم يفعل شيئاً سوى أنه استعاد ما يعود إلى شعبه"[15].

ورداً على هذا القول أسهب أندرسون في الحديث عن الأخطار التي تهدد مصالح العرب والغرب، قائلاً "إن الدفاع عن العالم الحر دون الشيوعية سيكلف غالياً"، وإن حرباً يمكن أن تندلع في المنطقة فتتوقف إرساليات النفط من المملكة العربية السعودية إلى البحر الأبيض المتوسط. وأخيراً صمم أندرسون على أن يلقي على بساط البحث الحجة الأقوى التي تصورها ورقة رابحة فقال:

> لا بد لصاحب الجلالة أن يعلم بأننا، نحن الغربيين، حققنا تقدماً كبيراً، وإننا الآن على عتبة الحصول على مصادر جديدة للطاقة تكون أرخص وأكثر فاعلية من النفط[16].

وبعد تشاور قصير مع فيصل والشيوخ الحاضرين، سأل سعود عمًا يمكن الغربيين أن يستخدموه بديلاً من النفط، فجاء الجواب بإيجاز: "الطاقة النووية". كانت تلك أكذوبة. فخيم صمت طويل، ثم نهض الملك مشيراً

إلى إنهاء اللقاء. وبعد الصلاة تناولوا طعام الغداء - حساء الطماطم على الطريقة الأميركية مع لحم الضأن ولحم البعير والأرز ولبن الإبل الساخن وعصير الفواكه -. وفي مأدبة العشاء في قصر "الناصرية" لم تبحث الأمور السياسية مع الضيوف الذين بلغ عددهم العشرات، بل تُليت على الجميع آخر أخبار الإذاعة البريطانية، وتناول الضيوف الطعام، ثم طيّبوا أيديهم في أقداح ماء الورد، وتبخروا بالبخور وانصرفوا.

يقول إيفلاند:

> اتضح أن الأمير فيصل سبق وقرأ الكثير عن الطاقة النووية ورفض ادّعاءات أندرسون بأننا يمكن أن نزود أوروبا الغربية بشيء يعوضها عن النفط، باعتبار ذلك أمراً غير قابل للتنفيذ. إلا أن فيصل فكر بأسلوب آخر لإنهاء مهمتنا، بحيث لا ينشأ انطباع وكأن أحداً خدع أيزنهاور، أو أنه، وهذا هو الأسوأ، حاول أن يمارس ضغطاً على الملك سعود بالافتراء والكذب. فقد اقترح فيصل لقاءً آخر مع الملك يحفظ لنا ماء الوجه. وفي ساعة متأخرة بعد منتصف الليل، دعا فيصل كلاً من أندرسون ونيوسوم إلى الصحراء، وهناك أعرب لهما شفوياً عن شكوكه بشأن إمكاناتنا لتوليد الطاقة النووية وسلمهما رسالة خطية[17].

وقد ترجم إيفلاند تلك الرسالة لهما عندما كانوا عائدين على متن الطائرة.

يقول إيفلاند:

> أشار السعوديون في تلك الرسالة إلى أن معاقبة عبد الناصر سيكون لها تأثير ضعيف على جهودنا للحيلولة دون دخول الشيوعية إلى الشرق الأدنى والأوسط. وعلى الولايات المتحدة، كما قالوا، أن تستخدم نفوذها لإرغام إسرائيل على إعادة اللاجئين الفلسطينيين أو تعويضهم قبل إحلال السلام. وإلا فلا مفر من الحرب، ولن يربح منها أحد سوى السوفيات. وأخيراً، أعرب فيصل عن مخاوفه من هجوم تخطط له بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر، وأصرّ على أن يُنقل تحذيرُه من هذه المخططات إلى الرئيس أيزنهاور شخصياً. وعندما كنت أترجم الرسالة فكرت في أن أبناء الصحراء القليلي الخبرة هؤلاء قبضوا علينا ونحن متلبسون بجريمة الكذب[18].

هكذا أشار مسؤول الاستخبارات المركزية الأميركية في بيروت إلى اطلاع فيصل على قضايا الطاقة، بما فيها الطاقة النووية، وإلى توقعاته الدقيقة لتطور الأحداث، وأشاد بلياقته وأدبه الدبلوماسي على الرغم من غرابة استخدام نعت "القليل الخبرة" بحق فيصل.

ملابسات العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر معروفة لا تحتاج إلى وقفة هنا. وقد أثار هذا العدوان في الأقطار العربية موجة من العداء للغرب، جعلت الولايات المتحدة تتنصل تماماً من حلفائها الذين أعدّوا عملية "الفارس" تلك من وراء ظهر واشنطن. فأدانت العدوان في هيئة الأمم المتحدة وطالبت بسحب القوات المعتدية من الأراضي المصرية.

وتوافرت للقيادة السوفياتية، كما توقع فيصل، فرصة ذهبية لتعزيز النفوذ السوفياتي في الشرق الأوسط، فلم تتوانَ عن الاستفادة منها. وسلط الاتحاد السوفياتي كامل قدرات آلته الدعائية ووزارة خارجيته على الدول الغربية، وكسب بذلك عدداً متزايداً من الأنصار والمؤيدين في الشرق الأوسط. وفي معمعة العمليات الحربية في منطقة قناة السويس، ولعلمه بموقف الولايات المتحدة السلبي منها، عزم خروشوف على نقلة ماهرة هي التهديد باستخدام القوة ضد الدول المعتدية الثلاث، ثم أقدم على أكذوبة استخدام القنبلة النووية. كذلك أطلقت مغامرة السويس يد موسكو لإخماد الانتفاضة المعادية للسوفيات التي اندلعت في المجر آنذاك.

في الخامس من نوفمبر 1956م بعث وزير خارجية الاتحاد السوفياتي ديمتري شيبيلوف ببرقية إلى الأمين العام للأمم المتحدة طالب فيها بعقد جلسة عاجلة لمجلس الأمن الدولي لبحث مسألة امتناع بريطانيا وفرنسا وإسرائيل عن تنفيذ قرار الدورة الطارئة

الخاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة، ومسألة الإجراءات الفورية لوقف العدوان على مصر. وتضمنت تلك البرقية مسوّدة قرار جاء فيها أن جميع أعضاء الأمم المتحدة، وفي الدرجة الأولى الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، يقدمون مساعدة عسكرية لمصر في حال لم يُنفذ مطلب وقف العدوان. وأعلنت الحكومة السوفياتية

> أنها مستعدة للإسهام في قسطها في ردع المعتدين وحماية ضحايا العدوان، وفي قضية إحلال السلام من خلال إرسال القوات الجوية والبحرية اللازمة لهذا الغرض إلى مصر[19].

ونشير في هذا الخصوص إلى أن الاتحاد السوفياتي لم يكن يمتلك في منطقة الشرق الأوسط آنذاك قوات جوية ولا بحرية جاهزة للقتال.

في ليلة 5-6 نوفمبر، في أعقاب إنزال المظليين الإنجليز والفرنسيين في منطقة قناة السويس، بعث رئيس الوزراء السوفياتي نيقولاي بولغانين برسائل إلى رؤساء حكومات بريطانيا (أنطوني إيدين)، وفرنسا (غي موليه)، وإسرائيل (بن غوريون)، أعلن فيها "التصميم على استخدام القوة لهزم المعتدين وإحلال السلام في المشرق". وجاء في رسالة بولغانين إلى إيدين:

> كيف ستكون حال بريطانيا لو هاجمتها دول أخرى تمتلك جميع أنواع السلاح العصري

الفتاك؟... إن الحرب في مصر يمكن أن تنتقل إلى بلدان أخرى وتتحول إلى حرب عالمية ثالثة[20].

المطبوعات الغربية تلزم الصمت عموماً بشأن هذا الإنذار النووي الذي هو أول وآخر إنذار من نوعه في العصر الحديث. وممّا له دلالته أن الوثائق المتضمنة لرد الفعل على هذا الإنذار وتقويم احتمالات السلوك السوفياتي لا تزال مختومة بختم السرية حتى اليوم في الأرشيفات البريطانية، على الرغم من أنها افتتحت منذ زمن لتقادم العهد.

وقد حالف الحظ كاتب السطور في العثور، بين الأرشيفات البريطانية صدفة، على وثيقة تلقي الضوء على رد الفعل البريطاني (وربما الفرنسي أيضاً) على الإنذار السوفياتي. وهي المذكرة التي أعدتها اللجنة البريطانية لرؤساء الأركان من أجل حكومة نيوزيلندة عشية مغامرة السويس.

خلاصة المذكرة أن الحرب النووية يمكن أن تندلع بسبب الحسابات الخاطئة. ستالين كان في الإمكان توقع نتائج أفعاله، أما خروشوف فقد "يخطئ الحساب" في أفعاله. الاتحاد السوفياتي، حسب التقويمات الإنجليزية، من المستبعد أن يكون مستعداً للمجازفة بحرب نووية. ولكن، ماذا لو كان "الفلاح الفظ"، نيكيتا خروشوف، صادقاً؟ ماذا لو كان حقاً لا يفهم مدى خطورة المجازفة؟ ماذا لو امتنعت الولايات

المتحدة عن دعم الحلفاء؟ التراجع والانسحاب، إذن، أفضل.

قال البروفيسور والت روستو، المستشار السابق في إدارة أيزنهاور، في لقائه مع المؤلف بمدينة أوستن (تكساس) في 17 سبتمبر 1990م:

> كان تقدير الإدارة الأميركية لسلوك خروشوف المحتمل مماثلاً تقريباً لما جاء في الوثيقة التي عثرت أنت عليها. وقد أبلغني بذلك هنري كابوت لوج المقرب إلى الرئيس أيزنهاور، والذي كان يومها في منصب المندوب الدائم للولايات المتحدة الأميركية في هيئة الأمم المتحدة.

كانت أزمة السويس فرصة العمر بالنسبة إلى السياسة السوفياتية في الشرقين الأدنى والأوسط، وكانت انتصاراً لنيكيتا خروشوف شخصياً. أوردُ هنا تسجيلاً لمقابلتي مع وزير خارجية الاتحاد السوفياتي آنذاك ديمتري شيبيلوف، المرشح لعضوية هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في حينه. ولعله من آخر الزعماء السياسيين السوفيات الأحياء من تلك الحقبة:

> شيبيلوف: كنت منذ البداية أميل قطعاً إلى عدم السير بالأمور إلى حد التعقيدات الحربية مهما كانت الظروف. أما خروشوف، فهو، بما يتميز به من حدة الطبع والتذبذب، وانطلاقاً من عبارته المحببة "سنريهم نجوم

الضحى"، كان يمكن أن يقدم على شيء من هذا القبيل. إلا أنه كان يفهمنا ويتفهم العواقب عندما ندخل معه في حوار واقعي هادئ.

المؤلف: الإنذار الصاروخي النووي السوفياتي، هل هو أكذوبة متعمدة وموزونة؟

شيبيلوف: موزونة طبعاً. فقد كان القرار الثابت عدم السير بالأمور إلى حد النزاع الحربي. إلا أنني اتخذت بعض التدابير ذات الطابع النفساني ونفذتها. وعلى سبيل المثال استدعيت سفراء فرنسا وبريطانيا وإسرائيل ليلاً. تصور: ليلاً. العينان متقدتان من السهر، والموقف غير عادي، واللهجة شديدة، والتحذير الرسمي الطنان. اللغة الروسية غنية وغزيرة المعاني بالطبع، ومفردة "التحذير" لا تعني أننا سننفذ بالفعل.

المؤلف: لكنهم لم يكونوا واثقين تماماً، أليس كذلك؟

شيبيلوف: لم يكونوا واثقين. لكننا سرعان ما أدركنا أنهم أخذوا يبحثون عن مخرج من الورطة. غرابة أطوار خروشوف أفادتنا كثيراً: "الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يبدر عنه...". أنا شخصياً انطلقت من هذا المنطلق. وبالطبع استفدنا من العامل النفسي

ووظفناه حتى النهاية. إلا أننا كنا مقتنعين تماماً بعدم السير بالأمور إلى الحرب بأي حال من الأحوال[21].

(الغريب أن ديمتري شيبيلوف الذكي هذا اقترف على أي حال غلطة سياسية لا تغتفر عندما انضم في ما بعد إلى المعارضة المناوئة لخروشوف، فوجد نفسه على هامش السياسة مدى الحياة).

في معمعة العدوان الثلاثي على مصر قطعت المملكة العربية السعودية علاقاتها مع بريطانيا وفرنسا، وفرضت حظراً على تصدير النفط إلى هاتين الدولتين. وقد فُجّرت في سورية أنابيب نقل النفط من العراق إلى البحر الأبيض المتوسط. ولم تعد أوروبا تتسلم النفط العراقي، فاضطرات إلى شراء كميات من النفط من الولايات المتحدة. ولم يسمح السوريون بإصلاح الأنابيب إلا في مارس 1957م. آنذاك كان في السوق العالمي فائض من النفط، ولذا لم يعطِ الحظر السعودي نتيجة ملموسة. وقد أيدت أرامكو في تلك الأثناء قضية العرب، وسمحت بجمع التبرعات من منتسبيها لمصلحة الهلال الأحمر، وخصصت مبالغ لعلاج الجرحى المصريين ضحايا العدوان. وفي النتيجة ظل أنبوب نفطها المؤدي إلى البحر الأبيض المتوسط يعمل كالمعتاد ولم يمسّ أحد مصالحها. عموماً، تعززت مكانة الولايات المتحدة في المملكة العربية السعودية بعد أزمة السويس.

كانت الحرب التي شنّتها حكومتا بريطانيا وفرنسا على مصر آخر إرهاصة أو اندفاعة جدية للأطماع الاستعمارية الإمبراطورية، وكانت محاولة فاشلة للوقوف في وجه العملية التاريخية لتصفية الاستعمار. فإن زعماء بريطانيا وفرنسا وإسرائيل عندما أقدموا على مغامرة العدوان الثلاثي، لم يكن هدفهم قناة السويس وإسقاط جمال عبد الناصر فقط. وذلك لأن بريطانيا زجّت بقواتها المسلحة في المعركة من أجل الحفاظ على الإمبراطورية البريطانية، وإنْ بالشكل الذي كانت عليه في أواسط الخمسينيات. وقاتلت فرنسا في مصر من أجل الجزائر والإمبراطورية الاستعمارية في أفريقيا. أما إسرائيل فمن أجل إضعاف أكبر دولة عربية وأخطرها على تل أبيب وإعادة مصر إلى حظيرة المعسكر الغربي. ومن الناحية السياسية خسرت تلك الدول الحرب في القناة وعلى الساحة الدولية سواء بسواء. فسرعان ما فقدت كل من بريطانيا وفرنسا كل مستعمراتهما تقريباً. كذلك اقترب أجل المحميات والمستعمرات البريطانية في شبه جزيرة العرب.

إلا أن انتصار جمال عبد الناصر ونجاحاته إبان أزمة السويس واتساع نفوذه وشعبيته كانا مثار قلق متزايد عند سعود وحاشيته. ثم إن زيارة عبد الناصر للمملكة العربية السعودية عشية حرب السويس والاستقبال الرائع له من طرف رعايا الملك قد خلّفا في نفس سعود شعوراً بعدم الارتياح.

زار جمال عبد الناصر المملكة في أعقاب تأميم قناة السويس وقبل أسبوعين من العدوان الثلاثي. وفي الوقت نفسه وصل إلى المملكة الرئيس السوري شكري القوتلي. كانا يريدان بحث التعاون بين الدول الثلاث. وقد توجه الملك سعود وولي عهده الأمير فيصل إلى الظهران للقاء عبد الناصر والقوتلي.

في حديثه إلى المؤلف قال محمد حسنين هيكل: "كان فيصل مستاءً لأننا أمّمنا قناة السويس من دون أن نتشاور معهم".

المؤلف: "لكنه أعرب عن تأييده للتأميم، أليس كذلك؟".

هيكل:

ما كان بوسعهم إلا أن يؤيدوا قرار مصر هذا. فيصل لم يكن راضياً عن التأميم، أولاً، لأنه تم من دون مشاورة معهم، وثانياً لأنه يلقي عليهم بعض المسؤوليات. كانوا يخشون بعد تأميم قناة السويس من حصول موجة للمطالبة بالتأميم عموماً، بما في ذلك تأميم شركات النفط في العالم العربي كله. وهذا ينسف علاقات المملكة العربية السعودية مع الولايات المتحدة. لكننا ما كنا لنسمح بتسرّب القرار السري لتأميم القناة إلى الخارج. وقد شاركت أنا في تلك الزيارة إلى العربية السعودية... بعد التأميم وقبل الحرب... كانت مهمتنا أن نوضح الموقف إذا

حصلت تعقيدات. وهم كانوا يخشون التعقيدات. وبالطبع لم يكن سعود مرتاحاً لاستقبال الجماهير جمال عبد الناصر بتلك الحفاوة[22].

أهم ما في زيارة عبد الناصر هذه ليس المباحثات، بل إعجاب السعوديين بالرئيس المصري واستقبالهم الحار له.

كتب خوسيه أرنولد يصف ذلك الاستقبال:

رغم عدم الإعلان عن زيارة عبد الناصر فقد شاع النبأ وانتشر على أي حال. عندما حطت طائرته تجمّع قرب المطار نحو عشرة آلاف شخص. واصطفت آلاف أخرى على امتداد الطريق من المطار إلى الدمام، على طول 15 ميلاً. استقبلت الجموع عبد الناصر بكل حماسة. وعندما حطّت طائرته في مطار الرياض كانت في انتظاره أكبر جموع بشرية يشهدها تاريخ المدينة. آلاف الناس اندفعوا إلى الطائرة هاتفين صائحين عبر صفوف الحرس. كانوا يريدون لمس يد عبد الناصر الذي يعتبرونه، على ما يبدو، منقذ العالم العربي[23].

على الصعيد السياسي بحثت مسألة انضمام المملكة العربية السعودية بنحو ما إلى الوحدة المرتقبة بين مصر وسورية. ولم يكن هناك أي أمل بالتأثير على سياسة الوحدة المرتقبة. ولذا تحمّس مستشارو سعود

لدخوله في مواجهة مع عبد الناصر من دون أي اهتمام برأي فيصل. وكان سعود في السياسة الدولية يعتمد على مستشاريه بالطبع. غير أن الأميركيين أيضاً حاولوا أن يؤلّبوه على عبد الناصر.

لقد خرج جمال عبد الناصر من أزمة السويس 1956م بأقوى وأكثر شهرة وشعبية مما كان عليه في أي وقت مضى. وبعد فترة وجيزة حُلت أيضاً مسألة بناء سد أسوان العالي بمساعدة الاتحاد السوفياتي.

وراحت السفينتان السعودية والمصرية تفترقان أبعد فأبعد. فبدلاً من الموقف الإيجابي حيال عبد الناصر، بدأت طموحات الملك سعود تتعارض مع توجهات عبد الناصر. وكان العاهل السعودي الطموح جداً يتصور أن لديه مؤهلات ليكون زعيماً للعالم العربي لا أقل من مؤهلات جمال عبد الناصر. ثم إن خوف مستشاري سعود على مناصبهم ومصالحهم وكذلك ضغوط الأميركيين قد دفعت الملك إلى المضي في تلك الطموحات.

كانت موجات الحركة القومية المناهضة للغرب في الشرقين الأدنى والأوسط خلال الخمسينيات والستينيات تعلو تارة وتهبط تارة أخرى، فتتحول إلى حزازات ونزاعات معتادة بالنسبة إلى المنطقة. إلا أنها في الخط العام كانت تتصاعد. وكان نفوذ الاتحاد السوفياتي كبيراً ما دامت موسكو تؤيد العرب ضد الغرب وكذلك (وإنْ ببعض التحفظات) ضد إسرائيل التي هي في أنظار العرب رمز "للاستعمار الاستيطاني"

و"القلعة الأمامية للغرب في المنطقة". وكانت أزمة العلاقات بين الطرفين العربي والسوفياتي وخيبة أمل أحدهما في الآخر، آنذاك، لا تزال في طيّات المستقبل. أما في تلك الفترة، فالعلاقات السوفياتية مع عدد من الأقطار العربية كانت تتعزز على العموم، والتعاون يتوسع على الرغم من أنه كان يتعثر أو ينقطع أحياناً بسبب اضطهاد الشيوعيين المحليين، وبسبب الخلافات العقائدية التي تبعث الآن على الابتسام، فيما كان عجز بريطانيا وفرنسا عن صيانة مواقع الغرب في المنطقة وتزايد نفوذ ومنزلة الاتحاد السوفياتي مصدري قلق شديد للإدارة الأميركية وحافزاً للتحرك والعمل. ففي 5 يناير 1957م وجه الرئيس الأميركي دوايت أيزنهاور إلى الكونغرس رسالة خصوصية بشأن سياسة الولايات المتحدة في بلدان الشرقين الأدنى والأوسط أطلقت عليها في ما بعد تسمية "مبدأ أيزنهاور". ووصف الرئيس الأميركي في تلك الرسالة الوضع في المنطقة بـ"المتأزم"، وطالب بالسماح له باستخدام القوات المسلحة الأميركية هناك في أي لحظة يرى استخدامها فيه ضرورياً من دون طلب ترخيص من الكونغرس. كذلك أصرّ الرئيس على أن تُمنح له صلاحيات لتقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية إلى بلدان هذه المنطقة التي تتفهم "مخاطر" الشيوعية الدولية. وناشد أيزنهاور الأقطار العربية في الوقت ذاته الكفّ عن التعاون مع الاتحاد السوفياتي وحلفائه.

كتب عميل وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في بيروت آنذاك إيفلاند يقول:

> استولت عليّ الحيرة والدهشة. فمن، يا ترى، يستطيع أن يحدد بالضبط ما يعتبره العرب خطراً عليهم؟ الجيش الإسرائيلي زحف توّاً على مصر واحتلّ شبه جزيرة سيناء بكاملها وقطاع غزة. ولولا تهديد روسيا بالتدخل لنصرة المصريين لاجتاحت القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية القاهرة ولاحتفلت بسقوط عبد الناصر على نحو مهين[24].

بعد زيارة جمال عبد الناصر للمملكة العربية السعودية، وفي أعقاب أزمة قناة السويس، عُقد مؤتمر القمة العربي في بيروت. آنذاك التقى الملك سعود مع ملك العراق فيصل الثاني، واتفق العاهلان على صرف النظر عن الخلافات الهاشمية السعودية أمام تحديات القومية الثورية. وبعد أقل من ستة أشهر، في أبريل 1957م، بعثت المملكة العربية السعودية، وباستحسان الأميركيين، قواتها لنجدة ملك هاشمي آخر هو العاهل الأردني حسين بن طلال الذي نحّى رئيس الوزراء سليمان النابلسي الموالي لعبد الناصر وكان في حاجة إلى دعم عسكري. إلا أن سعود قام قبل ذلك بزيارة مهمة للولايات المتحدة رافقتها ملابسات متناقضة وشهدت نوعاً من الإحراج.

في أعقاب إعلان "مبدأ أيزنهاور"، قررت إدارة أرامكو أن تنظم زيارة الملك سعود للولايات المتحدة لمقابلة الرئيس الأميركي. وبعد تحليل الإيجابيات والسلبيات أشار مديرو أرامكو إلى أن الولايات المتحدة، بسبب تأييدها لإسرائيل، تفقد شعبيتها في العالم العربي على الرغم من التزامها جانب مصر أثناء العدوان الثلاثي. وكان الأمير فيصل يتابع رحلة أخيه بقلق متزايد. فقد تصرف عمدة نيويورك الكاثوليكي روبرت واغنر بنحو لا يليق بمقام الملك سعود، ضيف الرئيس الأميركي، حينما رفض استقباله إرضاءً للناخبين اليهود في مدينته، وذلك رداً على تصريحات الملك التي اعتبرها واغنر "معادية للسامية والكاثوليكية". ورغبة في تلافي الإحراج، خرج الرئيس أيزنهاور شخصياً، وخلافاً للبروتوكول، ليستقبل طائرة سعود في واشنطن، فلقي العاهل السعودي كل الحفاوة والترحاب من أصحاب الأمر والنهي في أعظم دولة في العالم، ونُفّذت كل طلباته بشأن إرساليات السلاح.

في 9 فبراير 1957م وقّعت اتفاقية المساعدات العسكرية الأميركية للمملكة العربية السعودية، وتحديداً تطوير القوة الجوية السعودية وتدريب الطيارين وعناصر القوات المسلحة، بما فيها الحرس الملكي، وبناء مستودع جديد في الظهران في مقابل تمديد اتفاقية قاعدتها. وكانت الإرساليات الحربية مخصصة لتجهيز فرقتين. وتقرر بيع الدبابات والطائرات التدريبية وزوارق الحرس الساحلي وتزويدها بالمدربين

الأميركيين فوراً، ومنح قرض أميركي للمملكة بمبلغ 41 مليون دولار لشراء الأسلحة ولتنفيذ عدد من المشاريع الاقتصادية. وطلب أيزنهاور من الملك سعود التأثير على سورية ومصر كي تبتعدا عن طريق الشيوعية. وكان أيزنهاور وحاشيته يتمنون أن تكون زعامة العالم العربي للملك سعود بدلاً من جمال عبد الناصر.

في طريقه إلى واشنطن توقف الملك سعود في القاهرة على أمل إقناع جمال عبد الناصر بأن الزيارة ليست موجهة ضده. ولم يبعث البيت الأبيض الدعوة إلى عبد الناصر لزيارة الولايات المتحدة التي رفضت تزويد مصر بالقمح وفقاً للقانون رقم 480. فوعد سعود عبد الناصر بأنه سيكلم الأميركيين في هذا الشأن، إلا أن طلبه قوبل برفض قاطع في واشنطن ما إن تطرق إلى موضوع استئناف إرساليات القمح إلى مصر. كانت واشنطن تعتبر جمال عبد الناصر عدواً للولايات المتحدة، فيما ينبغي للملك سعود أن يوازن ويقابل نفوذه في العالم العربي. وكان الملك ميّالاً إلى تلك التوجهات، إلا أن الأمير فيصل المجرّب المحنّك تلمّس مسبقاً العقبات والمطبّات الخفية على هذا الطريق. وعندما التقى سعود، في طريق عودته، جمال عبد الناصر والقوتلي في القاهرة، علم أنهما يرفضان موقفه بالمرة. فأخذ الملك سعود يسحب نفسه من "مبدأ أيزنهاور" بحكمة وهدوء.

كان الأمير فيصل يرى مخاطر اللعبة اللامسؤولة المطروحة أمام أخيه. فالوقوف في وجه موجة

القومية الوحدوية وفتح جبهة ضد جمال عبد الناصر أمر خطير للغاية. ولذا قرر فيصل أن يقوم بخطوة غير مسبوقة للإعلان صراحة عن سحب تأييد الملك "لمبدأ أيزنهاور". كان الانطباع السائد أن الممكلة العربية السعودية من أنصار "مبدأ أيزنهاور"، وفجأة نسمع في شهر مارس 1957م وزير الخارجية السعودي الأمير فيصل يؤكد علناً أن سياسة الحكومة لم تتبدل بعد زيارة صاحب الجلالة الملك للولايات المتحدة وأنها تطابق بالكامل وجهة نظر مصر في كل القضايا[25].

فيصل المتشدد، المتحفظ حتى في المظهر الخارجي، بدا كأنه على الضد من جمال عبد الناصر من حيث التربية والمنشأ ونمط التفكير والمكانة. ولكن قرّبت بينهما وقتياً الآراء المشتركة في شأن مكان الأقطار العربية في منظومة العلاقات الدولية، وكذلك تشابه الطباع، كما تشير كل الدلائل. فكلا الرجلين شخصيتان قويتان، وقد كُتب عليهما أن يغدوا خصمين متناحرين، ولكن ذلك سيحصل بعد سنين.

كان فيصل البراغماتي يدرك أن على المملكة العربية السعودية أن تتعاون مع الولايات المتحدة وأن تتنصّل في الوقت ذاته عن حماقاتها في العالم العربي، وألا تدخل في مواجهة مع جمال عبد الناصر بأي حال من الأحوال في تلك الفترة. وجاء تصريحه الأخير ليؤكد تلك التوجهات.

إلا أن خطوة فيصل هذه لم تمنع القاهرة من شنّ حملتها الدعائية على الملك سعود. وقد ركزت "صوت

العرب" على أكثر المواضع إيلاماً وحساسية في اعتقاد القاهرة، مُدّعية أن عائدات البترول السعودي تتعرض للتبذير بينما يجب أن تكون ملكاً "لجميع العرب". ولم يكن سعود قادراً على الرد. لم تكن لديه إذاعات ولا كوادر مؤهلة، فبدأ يخسر المعركة الإعلامية داخل المملكة وخارجها.

في أغسطس 1957م وقّع وزير الدفاع السوري خالد العظم في موسكو اتفاقية التعاون العسكري والاقتصادي. وبعد عودته إلى دمشق أعلنت السلطات السورية أن ثلاثة من المنتسبين إلى السفارة الأميركية أشخاص غير مرغوب فيهم فطُردوا لضلوعهم في مؤامرة انقلاب حكومي من أجل إعادة أديب الشيشكلي، الدكتاتور الموالي للغرب والذي أُطيح قبل ذلك. كان الجميع لا يزالون يتذكرون الانقلاب على مصّدق في إيران ودور الولايات المتحدة فيه. ولذا اعتُبر احتمال مشاركة الدوائر الأمنية الأميركية في أعمال ضد الحكومة السورية أمراً مفروغاً منه. وسرعان ما عيّن خالد العظم ضابطاً معروفاً بتعاطفه مع الشيوعيين رئيساً لأركانه وهو عفيف البزري. وتصورت واشنطن والعواصم الغربية الأخرى أن الشيوعيين يوشكون على تسلّم السلطة في سورية. كانت تقارير السفارات والدوائر الأمنية الأجنبية في بيروت وبغداد وعمان تبالغ في نفوذ الشيوعيين السوريين وقوتهم وفي قدرات الاتحاد السوفياتي على التدخل في الأحداث في سورية.

ومن جهتها حشدت تركيا قواتها على طول الحدود السورية، فيما تقدم الأسطول الأميركي السادس إلى شرق البحر الأبيض المتوسط، وأرسلت الولايات المتحدة أسلحة إلى الأردن والعراق ولبنان.

آنذاك عرض الملك سعود الوساطة بين سورية وتركيا. حضر الأتراك للمفاوضات، لكنّ السوريين تغيّبوا عنها، وفي اعتقادهم أن المملكة العربية السعودية ليست هي التي تحدد قواعد اللعبة. في ذلك الوقت كرر خروشوف في سبتمبر - أكتوبر 1957م أكذوبة السويس ولكن بلهجة أخف، من دون تهديد بالسلاح النووي. فقد حذر تركيا من "المصائب والويلات" التي ستجلبها على نفسها لو أنها طبقت مخططات "الأوساط الأجنبية". وكان ملك العراق وملك الأردن مستعدين للمشاركة في القتال ضد سورية، إلا أن عرشيهما اهتزا بعد أن أرغمهما السكان المتأثرون بدعاية القاهرة على التخلي عن نيّاتهما. وحتى الملك سعود دعا إلى الحذر والاعتدال في رسالة بعث بها إلى الرئيس الأميركي، إلا أن الأحداث الأهم كانت في شمال المنطقة.

ففي 24 أكتوبر 1957م عيّنت موسكو الماريشال قسطنطين روكوسوفسكي، بطل الحرب العالمية الثانية الشهير، قائداً لدائرة القوقاز الجنوبي العسكرية. وبدأت مناورات مشتركة للقوات البرية والبحرية السوفياتية في القوقاز الجنوبي ومنطقة البحر الأسود. وبلغت الأزمة أوجها.

إلا أن الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة كان كلاهما يسعى إلى تفادي الصدام. وفجأة ظهر خروشوف في حفل استقبال أُقيم في موسكو في 29 أكتوبر لمناسبة العيد الوطني لتركيا ودعا إلى حل سلمي للنزاع. وتخلّت العواصم الغربية عن التدخل المباشر في شؤون سورية، وانفرجت الأزمة.

توقفت الضغوط الدولية على سورية في نهاية أكتوبر. إلا أن الوضع في الداخل السوري ظل في أشد حالات التوتر وغياب الاستقرار. ولم يكن ميزان القوى واضحاً، فقررت القيادة السورية وكبار الضباط دخول الوحدة مع مصر خوفاً من ازدياد نفوذ الشيوعيين.

يقول بندر الفيصل:

> في البداية كان الملك فيصل ممن وقفوا إلى جانب عبد الناصر وأسندوه إلى أبعد الحدود، وبعد ذلك جاءت حكاية سوريا. ومن هناك ابتدأ الخلاف. كنا في مصر، وجاء عبد الناصر الله يرحمه إلى البيت عندنا في الليل. وكان بيتنا في مصر الجديدة. وكان معنا الأمير عبد الله الفيصل. وفي اليوم التالي وصل القوتلي من سورية ليعلن الوحدة مع مصر. وكان الملك فيصل يقول لعبد الناصر لا تتحد مع سورية. ليس هناك رابط بينك وبين سورية. وإذا كنت تريد القومية العربية اجعل مصر هي المركز وكلنا معك يا سيادة الرئيس. ولا حاجة بك إلى

التدخل. كلنا سنأتي إليك. فنزل عبد الناصر وخرج. ومن هناك بدأ الخلاف بين الملك فيصل وعبد الناصر، ثم جاءت اليمن[26].

في 1 فبراير 1958م ظهرت دولة جديدة سمّيت الجمهورية العربية المتحدة.

بدا كأن العملية السياسية تسير نحو تعزيز الوحدة العربية تحت راية العروبة، بل وربما نحو توسيع حدود الجمهورية العربية المتحدة لتشمل بلداناً أخرى. وأحسّت الأنظمة الموالية للغرب في العراق والأردن ولبنان بالخطر.

ففي لبنان الذي تبنّى "مبدأ أيزنهاور" في سنة 1957م كانت الميول الناصرية المعادية للغرب قوية، وكان البلد ينزلق نحو الحرب الأهلية.

وقد قبل جمال عبد الناصر الوحدة مع سورية على مضض، فهو يعرف الحياة السياسية السورية التي هي بحر هائج. إلا أن النشوة العارمة التي اجتاحت العرب وأسهم عبد الناصر في تأجيجها استولت عليه هو أيضاً. وحظيت الوحدة بين مصر وسورية بتأييد شامل من قبل الجماهير العربية، وخصوصاً في سورية. فغصت دمشق بمئات الآلاف من القادمين من جميع أرجاء البلاد. كانوا مبتهجين يكررون الهتافات الوطنية والقومية المنظومة شعراً ويستمعون إلى الخطب الحماسية الطويلة. وعندما وصل جمال عبد الناصر إلى دمشق في 24 فبراير 1958م نزل في بيت شكري القوتلي فذاع الخبر رأساً. كانت المسافة بين البيت

وبين دار الضيافة الحكومية أقل من مئتي متر احتاج الموكب إلى ساعتين ليجتازها عبر الحشود المهللة. في ما بعد كتب أنور السادات الذي حضر المشهد يقول: أنا عاجز حقاً عن وصف ذلك الأسبوع. كان أشبه بنوبة جنونية متواصلة. سيل من الخطب ليل نهار... كل ذلك بدا قليلاً في أنظار الجموع، فكانت حماستها تشتد وتستعر. كل الخطب ترحب، والجمهور يصفق للخطباء. وكان الناس ينشدون ويزعقون ويطالبون بالمزيد. وطوّقت الجماهير دار الضيافة أسبوعاً كاملاً[27].

كان الاتحاد الذي أُعلن بين العراق والأردن على عجل في 14 فبراير 1958م، نكاية بالجمهورية العربية المتحدة، مجرد دليل على ضعف البلدين. لقد خسرا المعركة.

ولم يكن بالإمكان معارضة الجمهورية الجديدة صراحة. وصل ولي عهد اليمن محمد البدر إلى الرياض، وأعلن هناك نبأ تأسيس اتحاد بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة. وقال الملك سعود إن هذا أمر مفيد، فيما أشار البدر إلى أن مهمة الاتحاد هي النضال في سبيل تحرير الأراضي المحتلة من قبل بريطانيا في جنوب جزيرة العرب.

غطت الغشاوة أعين زعماء الدول الغربية وملوك الدول العربية، وخُيّل للجميع أن ساعتهم هم أيضاً على وشك أن تحين. ولم يفتح عيونهم موقف الاتحاد السوفياتي والشيوعيين العرب المتحفظ إزاء فكرة الوحدة العربية وإزاء الخطوة الأولى لتطبيقها من خلال

تأسيس الجمهورية العربية المتحدة. فلم يكن هناك أي دليل على "انتصار الشيوعية" في الشرق الأوسط.

إلا أن موجة القومية العربية الثورية باتت كأنها تريد أن تبتلع المنطقة كلها. وبما أنه كان من الصعب الوقوف في وجهها، فالأسهل، ربما، القضاء على زعيم ورمز القومية العربية جمال عبد الناصر. عند ذاك ولدت في أحشاء وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية فكرة العمل لتنفيذ مخطط كهذا.

وزعم إيفلاند عميل وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في الشرق الأوسط آنذاك أن وكالة الاستخبارات والسعوديين عملوا معاً.

في 5 مارس 1958م فجّر جمال عبد الناصر قنبلة دعائية حينما أعلن في خطاب له في دمشق كشف مؤامرة سعودية لاغتياله وتقويض الجمهورية العربية المتحدة.

وقيل إن المعلومات عن المؤامرة جاءت من عبد الحميد السراج الرئيس السابق للاستخبارات أو "المكتب الثاني" في الجيش السوري. فقد صرّح بأنه تسلم حوالى مليوني جنيه إسترليني لكي يدبر تفجير طائرة عبد الناصر.

وتأكيداً لزعم السراج نشرت الصحف المصرية صورة فوتوغرافية لثلاثة شيكات موقّعة في الرياض لحساب البنك العربي في بيروت بمبلغ إجمالي قدره 1900 ألف جنيه إسترليني مع رسالة إلى السراج على استمارة

رسمية من مكتب السكرتير الشخصي للملك سعود وشريط لتسجيل حديث السراج مع الوسيط.

يقول محمد حسنين هيكل:

عندما بدأنا محادثات الوحدة مع سورية أثار ذلك استياء الهاشميين والملك سعود على حد سواء. هيكلية التحالف أخذت تتبدل. فقد أخذنا نتكلم عن العدالة الاجتماعية بعد أحداث السويس. وفجأة اكتشف آل سعود والهاشميون أن لديهم عدواً مشتركاً. اشتاط سعود غضباً. ولا ننسى أنه كان في تلك الفترة على خلاف مع فيصل. وفي أثناء المحادثات كان فيصل يجلس جنب سعود في الغالب ويهمس في أذنه إذا كان سعود يريد أن يقول شيئاً. وقد جاؤوا إلى سعود وأوضحوا له أنه يستطيع أن يستخدم عبد الحميد السراج. آنذاك حصلت حكاية الشيكات. وأنا أعرف أن الشيكات حقيقية... بعد ذلك جاء فيصل بنفسه إلى عبد الناصر ليعتذر ويطلب منه أن ينسى ما حدث. أنا أعتقد أن ذلك كان من تدبير السوريين واللبنانيين الذين في حاشية سعود. وكان ذلك من الأسباب التي جعلت فيصل يناهض أخاه. فإن ارتباك نظام حكم سعود هو الذي تسبب في هذه الفضيحة[28].

كتب إيفلاند أن سعود عندما خسر العرش جاء إلى القاهرة واعترف لعبد الناصر بأنه أنفق على هذا النوع من التصرفات الطائشة 12 مليون جنيه إسترليني (33.5 مليون دولار) من أموال أميركا.

وقد تحدث سامي شرف للمؤلف عن تفاصيل اللقاء بين سعود وعبد الناصر وعن الشيكات الآنفة الذكر، فسألته: هل يُعقل أن تعود العلاقة الشخصية بين الرجلين بعد اتهام الأول بمحاولة اغتيال الثاني، فأجاب سامي شرف: "والله، السياسة بحر واسع"[29].

أما مراد غالب فقد أبدى رأيه في هذا الخصوص قائلاً:

> لا أستطيع أن أقول إن كانت محاولة اغتيال عبد الناصر حقيقية أم قصة مختلقة من أجل تشويه سمعة المملكة العربية السعودية وتشويه صورة الملك سعود. لذا هذا الشيء غير معروف. لكننا نعرف أنه كانت هناك محاولة فعلاً. وأنا كمؤرخ أقول إنه كان هناك دليل مادي على المحاولة[30].

كانت الإخفاقات في السياسة الخارجية قد تراكمت على خلفية الأوضاع المالية المتردية جداً في المملكة آنذاك. الخزينة خاوية، والأمراء السعوديون قلقون من ارتباك سعود وعدم سيطرته على الموقف.

وبات الأمراء وكذلك كبار العلماء يعتقدون أن بقاء السلطة بيد سعود ليس في مصلحة المملكة. وبعد خطاب عبد الناصر الآنف الذكر، التقى ثمانية من الأمراء

الأصغر سناً وواحد من الأمراء الأكبر سناً، وهو عبد الله، في قصر الأمير طلال، وقرروا ألا يبقى سعود في الحكم بعد الآن. لم يحضر الأمراء الأكبر سناً هذا اللقاء، إلا أنهم أيضاً من هذا الرأي. ذكر روبرت ليسي أن طلال كأنما استقل الطائرة، كما قيل، إلى المدينة المنورة، وكان فيها سعود، ليبلغه رأي إخوانه. وتولى عبد الله بن عبد الرحمن، عم الملك وعم ولي العهد فيصل والصديق المقرب إليه، مهمة التعبير عن رأي العائلة الموحد.

كان الوضع في الرياض متوتراً. ولعل سعود قد عاد إلى العاصمة، ولكن الوصول إليه بات متعذراً في الواقع. أما فيصل فكان يستجمّ في الصحراء ويمارس الصيد قليلاً في ذلك الربيع بعد العملية الجراحية الخطرة التي أُجريت له. حاول إخوانه إقناعه بالتحرك، إلا أنه رفض رفضاً قاطعاً القيام بأي خطوة ضد أخيه. وعندما عاد إلى الرياض في 24 مارس 1958 وجد الملك سعود في حيرة تامة، فيما كان إخوانه عازمين على خلعه.

جلس سعود وفيصل وعبد الله بن عبد الرحمن في القصر الملكي في انتظار السحور حتى مطلع الفجر، وانضم إليهم 12 أميراً، في مقدمهم فهد بن عبد العزيز ومحمد بن عبد العزيز، فطلبوا من الحرس الزنوج وباقي الخدم أن يتركوا المبنى. وأبلغ الأمير محمد الملك سعود قرار العائلة الإجماعي قائلاً: أقسمنا أن ننقذك وننقذ أنفسنا والمملكة.

التفت الملك إلى عمه عبد الله بن عبد الرحمن وإلى أخيه فيصل، فلاذا بالصمت ولم يُحرّكا ساكناً.

فسأل بعد فترة قصيرة: ماذا تريدون مني؟

فقال محمد نيابة عن الجميع:

أردنا أن نطلب منك أن تتنازل عن الحكم، إلا أن أخاك فيصل ضد هذه الفكرة، وأصرّ على أن تبقى أنت على العرش. فوافقنا بشرط أن تسلم السلطة كاملة إلى فيصل.

وأجاب الملك في الحال: موافق.

لعل الملك سعود كان مهيّأً لمثل هذا الحوار وهذا القرار. فقد كتب منير العجلاني يقول إن فيصل أبلغ سعود من خلال عمه مساعد وأخويه فهد وسلطان بالشروط التي يوافق بها على رئاسة الحكومة.

وفي غضون ساعة من الزمن صدر المرسوم الذي منح فيصل السلطة كاملة في وضع السياسة الداخلية والسياسة المالية ومراقبة التنفيذ[31].

احتفظ سعود بالعرش وببعض السلطة على الدوائر الأمنية والمؤسسة العسكرية، كما احتفظ بتأييد قبائل نجد التي كان يجزل لها العطاء... وبأمل العودة إلى السلطة.

قطعت إذاعة مكة قراءة القرآن لتذيع المرسوم.

وباشر فيصل مهماته في الحال.

الفصل الحادي عشر

رقاص الساعة: من رئيس الوزراء إلى نائب رئيس الوزراء

كان إنقاذ البلاد من هاوية الإفلاس وسوء السمعة المالية على الصعيد الدولي من أكبر المهمات العاجلة وأكثرها إلحاحاً. فبدأ فيصل من تقوية الانضباط المبدئي في الحكومة، وأصدر لهذا الغرض النظام الجديد لمجلس الوزراء. وهو ينص على محاكمة أي وزير يبيع أو يؤجّر عقاراً عائداً للدولة أو يشتري أو يستأجر عقاراً عائداً لها. فكل وزير بات من الآن فصاعداً مسؤولاً أمام رئيس الوزراء، المسؤول بدوره أمام الملك. إلا أن الملك لم يعد يستطيع إقالة الوزير إلا بطلب من فيصل، فيما تعني استقالة رئيس مجلس الوزراء استقالة المجلس كله. وعلى الرغم من أن القواعد الجديدة لم تحرم الملك من كل سلطاته، إلا أنها جعلت مجلس الوزراء مستقلاً عن الديوان الملكي، وعن فريق مستشاري سعود على أي حال.

عندما تسلم فيصل مقاليد السلطة ناشدته المعارضة السعودية في الخارج أن يبدأ الإصلاح بروح الناصرية أو البعث. إلا أن ولي العهد تجاهل هذه الدعوات الغريبة

تماماً على عقيدته السياسية، فتعرض لتهجّمات من الجماعة التي تكوّنت حديثاً وأطلقت على نفسها اسم "جبهة التحرير الوطني في السعودية".

كانت أمام ولي العهد أمور أكثر إلحاحاً. فقد اكتشف أن خزانة الدولة خالية، ولا بد من الحصول على 26 مليون ريال لتسديد المدفوعات العاجلة، فيما تجاوزت ديون الدولة 100 مليون ريال.

كانت الرساميل تهرب من البلاد، وانخفض سعر صرف الريال إلى 6 ريالات للدولار الواحد، والدولة تعاني أشد حالات الإفلاس.

عيّن فيصل لرئاسة مؤسسة النقد السعودية أنور علي، المالي الباكستاني المحنك المتشدد. وكانت المؤسسة ظهرت في سنة 1952م لتقوم بعمل الخزينة المركزية في البلاد وتؤمن سير عمل النظام المالي السعودي. إلا أنها ظلت معطلة بسبب تجاهل سعود لها، فخوّل فيصل مدير مؤسسة النقد صلاحيات كبيرة. وعندما قال الملك لمدير المؤسسة إن المال لا يكفيه للصرف على القصور أجابه أنور علي: "فجّرها، يا صاحب الجلالة"[1].

ألزم فيصل البنوك التجارية بإيداع 15 في المئة من أموالها لدى مؤسسة النقد بصفة احتياطي.

وجرى تقليص الصرف على الأسرة المالكة، وأوقف بناء القصور الجديدة، واعتُمدت أموال لأبواب الموازنة

المخصصة للتعليم والصحة.

في يونيو 1958م أخذت الحكومة الجديدة تنفذ برنامج الإصلاح المالي بمساعدة خبراء صندوق النقد الدولي، وفرضت قيوداً على الاستيراد، ومنعت استيراد السيارات الجديدة والكماليات، كما منعت تحويل الأموال إلى الخارج، فتحسنت الأحوال المالية في البلاد، وحلّت سنوات عجاف لأولئك الذين يعتاشون على نزوات البلاط ويستوردون الكماليات، وكذلك الوسطاء والسماسرة ووكلاء الشركات الأجنبية. وزعم هؤلاء أن ازدهار البلاد ذوى وذبل، لكنهم يقصدون بالازدهار مداخيلهم وعوائدهم. وطُبّق نظام ضبط العملة، وجرى تقليص اعتمادات التنمية الاقتصادية والاحتياجات الاجتماعية على حدّ سواء. كذلك جرى تأميم ميناء جدة، أكبر ميناء تجاري في البلاد، وفُرضت قيود على حرية التجارة للوافدين من دول أخرى، وأُلزموا بأن ينقلوا إلى عائدية شركائهم السعوديين ما لا يقل عن 51٪ من رأس المال.

وأخذت تدابير التقشف والتقتير والقيود والضوابط الشديدة تعطي أُكُلها. ففي يناير 1960م أعلن مجلس الوزراء إنجاز برنامج الاستقرار الاقتصادي، وقد استغرق العمل فيه 18 شهراً. واعتباراً من ذلك العام تجاوزت احتياطيات صندوق مؤسسة النقد حجم إصدار الأوراق النقدية.

إلا أن الضربة جاءت في تلك اللحظة بالذات من الجهة غير المتوقعة. فقد انخفضت أسعار النفط... وسنتناول هذه المسألة في وقت لاحق.

في إطار فرض نظام التوفير والتقتير الاقتصادي، قلّص فيصل مصروفاته مجسّداً قدوة في التواضع. كان يتنقل بسيارته من دون حرس ولا موكب ناقلات محمّلة بالجنود. وكان يتجاهل حتى تدابير الحيطة الأمنية المعقولة، إلا أن العناية الإلهية كانت تحرسه.

ظل يقيم في الدار نفسها التي كان يقيم فيها سابقاً، ويمضي كل صباح إلى مبنى مجلس الوزراء. يبدأ العمل في البيت، ثم يواصله في المكتب، حيث يدرس الوثائق ويصدر الأوامر ويستقبل المراجعين، وهم كثيرون دوماً.

كان ولي العهد يستقبل أمراء المناطق والمدن والواحات وشيوخ القبائل الذين لم يعودوا متنفذين بالقدر الذي كانوا عليه في عهد والده عبد العزيز. ولكنهم من الأعيان والوجهاء الذين لا يجوز تجاهل وزنهم ونفوذهم، كما كان يلتقي أكبر العلماء وأقرب أقربائه الكثيرين أيضاً. يقوم بذلك كله من دون فخفخة ولا كبرياء. يتفهم مشاكل الناس وينصت بصبر واهتمام إلى أقوالهم. كان أرستقراطياً بالمنشأ والتربية، لكنه ديمقراطي في مخاطبة الجميع من دون أدنى تعالٍ أو

ازدراء. يلتقيهم بابتسامة طيبة رقيقة، ومتعبة بعض الشيء.

فيصل وسعود يمثلان مدرستين مختلفتين، لا في السياسة وحدها، بل وفي فلسفة الحياة. فيصل يعوّض عن ضعفه البدني بالتقيد بالانضباط الحديدي والاعتدال والقيود الذاتية، فيما كان سعود القوي المتين في شبابه يترهّل بسبب الإفراط في الطعام، فيمرض ويضعف أكثر فأكثر. ضغطه مرتفع، ويعاني مشاكل في المعدة، والبدانة بلغت به حداً يضيّق من حركته، والرمد القديم جعله دوماً يرتدي نظارات قاتمة.

حالة سعود الصحية منعته أكثر من مرة من تنفيذ نيّاته لتقييد سلطة أخيه فيصل وتحديد نفوذه وشعبيته المتزايدة.

إضافة إلى تأمين استقرار الاقتصاد والمالية واجه فيصل مهمة تعزيز موقع المملكة المتضعضع دولياً. العلاقة مع الولايات المتحدة متضاربة. كلا الطرفين يتحاشيان توثيق التعاون في ما بينهما. إلا أن فيصل لاحظ بوضوح نية واشنطن استخدام المملكة أداة لسياستها.

العلاقة مع أرامكو متردية ولا تشهد تحسناً. كلا الطرفين لا يثق أحدهما بالآخر، أما العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا فهي مقطوعة منذ أزمة السويس.

بعد مؤامرة السرّاج، شنّت القاهرة حرباً دعائية شعواء على المملكة، وكانت "صوت العرب" تحرض القبائل السعودية على التمرد على العائلة المالكة وتدعو إلى إقامة النظام الجمهوري. وزعمت إذاعة القاهرة أن آل سعود يخدمون مصالح الإمبرياليين الأميركيين، ويساعدون اليهود بتمويل دولتهم في فلسطين، وتلك إهانة ما بعدها إهانة للمملكة العربية السعودية. لم يكن عبد الناصر يهاجم فيصل شخصياً، إلا أنه حاول، كما هو واضح، أن يدق إسفيناً بين الملك وولي عهده.

في 18 أبريل 1958م نقلت إذاعة مكة بيان فيصل عن المبادئ الأساسية للسياسة الخارجية للدولة: علاقات الأخوة مع الأقطار العربية والحياد الإيجابي وعدم الانحياز إلى الأحلاف العسكرية. ووعد فيصل باستئناف العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا إذا سُوّيت الخلافات على البريمي، ومع فرنسا حين تنسحب من الجزائر. وكان بوسع الولايات المتحدة أن تأمل مستقبلاً بتسلّم النفط السعودي على الرغم من تعقد العلاقات معها بسبب الدعم الأميركي لإسرائيل. أما بخصوص مطار الظهران، فقد أشار البيان إلى عدم وجود قاعدة عسكرية أميركية فيه. وقال فيصل:

> تودّ حكومة جلالة الملك أن تعلن أنه لا توجد في الظهران قاعدة أميركية، وأن مطار الظهران مطار سعودي وقاعدة سعودية.

وكل ما للحكومة الأميركية في هذا المطار هو تسهيل المرور لبعض الطائرات وللتموين بالوقود. ليس هذا المطار مقراً لأي قوات عسكرية، كما أنه ليس مخزناً لأي أسلحة حربية من أي نوع كانت، كما أنه غير مسموح بمرور الأسلحة والذخائر الحربية فيه[2].

وأقدم فيصل على خطوة مهمة ذات مغزى سياسي وهدف اقتصادي. ففي 8 أبريل 1958م توقف دفع المعونات إلى الأردن وانسحبت مجموعة القوات السعودية الموجودة هناك. وواضح أن ذلك قلّل من حدة المواجهة مع مصر وزاد في توفير المال، إلا أن تلك الخطوات ظلت حتى ذلك الحين من دون استجابة.

فقد استمرت مسيرة القومية الثورية في المنطقة. وسرعان ما اقتنعت الأسرة المالكة بجدوى تسليم السلطة التنفيذية إلى الأمير فيصل في الوقت المناسب. اندلعت الحرب الأهلية في لبنان في مايو 1958م، حيث التقت كلمة اليساريين العرب والإسلاميين والقوميين ضد الرئيس كميل شمعون الماروني الموالي للغرب. كان ذلك صراعاً لبنانياً طائفياً داخلياً، إلا أن الحكومة اللبنانية اتهمت الجمهورية العربية المتحدة رأساً بممارسة التخريب في لبنان.

وعلى الرغم من عدم عثور المراقبين الدوليين الذين بعثتهم الأمم المتحدة على أثر لتسلل العملاء ونقل السلاح من الجمهورية العربية المتحدة، اتهمت الحكومة اللبنانية جمال عبد الناصر بأن بلاده تمثل خطراً على السلام العالمي والأمن الدولي وأنها مرتبطة بالشيوعية الدولية. واستخدم كميل شمعون ووزير خارجيته شارل مالك عمداً الصياغات الواردة في "مبدأ أيزنهاور" في هذا الخصوص.

وأخذت القوات المسلحة الأميركية والبريطانية تتقدم إلى شرق البحر الأبيض المتوسط. وبُحثت مخططات غزو سورية واحتمال استخدام الجيش العراقي لهذا الغرض.

في 14 يوليو 1958م أصدر رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد أمراً إلى لواء عسكري بقيادة عبد الكريم قاسم بالتوجه إلى الأردن لدعم الملك حسين. وكان المتوقع أن تجري عملية مشتركة ضد سورية، إذا انتصر الناصريون في لبنان. وبدلاً من ذلك دخل لواء عبد الكريم قاسم بغداد ونفّذ انقلاباً حكومياً أدى إلى إعلان الجمهورية العراقية في اليوم نفسه.

قُتل الوصي عبد الإله ونوري السعيد والملك فيصل الثاني والكثيرون من أقاربه، بمن فيهم النساء، واستمرت المجزرة الدموية طوال الليل. كان رجال الأعمال الأجانب يؤخذون عراة من الفنادق إلى

الشوارع ويتعرضون للضرب والقتل وسط هتافات الجموع والرعاع. وتمكن من الاختباء في السفارة السعودية بضعة أفراد فقط من العائلة المالكة، إلا أن حملة التنكيل كانت في بدايتها. واعتقل نحو ثلاثة آلاف من ممثلي النخبة العراقية المخلوعة، وأعدم الكثيرون منهم على الملأ رمياً بالرصاص، وبعضهم أمام عدسات كاميرات التلفزيون. وعملت محكمة الشعب برئاسة العقيد فاضل عباس المهداوي المقرّب إلى الشيوعيين مثلما كانت تعمل آلات القتل في عهد الثورة الفرنسية الكبرى أو في زمن ثورة أكتوبر الروسية.

تسلّمت مقاليد البلاد مجموعة متنافرة من الضباط، على رأسهم مدبر الانقلاب اللواء عبد الكريم قاسم الغريب الأطوار، ومن الناصريين وفي مقدمهم العقيد عبد السلام عارف، ومن الشيوعيين.

وسرعان ما انسحب العراق من حلف بغداد الذي سُمّي في ما بعد حلف السينتو أو منظمة المعاهدة المركزية.

طلب كل من لبنان والأردن المساعدة من الغرب، فقامت قوات أميركية بإنزال في لبنان في 15 يوليو 1958م، فيما نقلت قوات المظليين البريطانيين إلى الأردن عبر الأجواء الإسرائيلية في 17 يوليو. وسارع جمال عبد الناصر إلى زيارة موسكو من جديد بعد أن كان فيها قبل أيام، وذلك ليستطلع النيات السوفياتية.

إلا أن خروشوف ما كان ينوي التدخل رغم الإعلان عن مناورات سوفياتية بلغارية على الحدود التركية وصدور تصريحات في المناسبة.

تحولت أصول سلوك الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة في الشرق الأوسط إلى إجراءات رمزية في الواقع. التصريحات تتوالى، واستعراض القوى يجري، وفي الوقت نفسه تُتخذ كل التدابير اللازمة لتفادي الصدام المباشر.

أما في لبنان، فقد نشأ توازن تقريبي في القوى بين الطوائف المهيمنة على البلاد. ولم يبق للأميركيين ما يفعلونه هناك، فسحبت الولايات المتحدة قواتها من لبنان.

واتضح أن "مبدأ أيزنهاور" مجرد فقاعة. فالأحداث في الأقطار العربية تسير وفقاً لمنطقها الخاص الذي لا يطابق ثوابت "الحرب الباردة"، ولم يعد الرهان على الاستفادة من مكانة الملك سعود بصفته ثقلاً موازناً لعبد الناصر ورقة رابحة.

تألمت المملكة العربية السعودية كثيراً لأحداث العراق. فالهاشميون هم خصوم آل سعود القدماء، إلا أنهم واجهوا مصيراً بشعاً. طبيعي أن العائلة السعودية المنتشرة في رحاب المملكة المترامية الأطراف يصعب أن تفاجأ بالمخاطر على حين غرّة، إلا أن تلك المخاطر كانت واردة على أي حال.

ومن جديد، تجلّت مواهب فيصل الواقعية البراغماتية. فبعد حوالى أسبوعين من الانقلاب في بغداد اعترف بالنظام العراقي الجديد، مثلما فعلت بريطانيا في المناسبة.

في بداية أغسطس 1958م قام فيصل بزيارة رسمية إلى القاهرة لمد الجسور مع عبد الناصر. ورأى خلال تلك الزيارة ضرورة للتصريح بأن العلاقات مع الجمهورية العربية المتحدة ممتازة، وأن التوتر السابق قد خفَ، وأن الشيوعية هي سبب المصائب في الشرق الأوسط. وخفتت الحملة الإذاعية من القاهرة على السعودية وقتياً.

في أبريل 1959م تولى الأمير فيصل، إضافة إلى وظيفته، منصب وزير الداخلية، ذلك أن ابنه عبد الله استقال ثم أخذ يمارس التجارة والأعمال في جدّة. لا جدال في خبرة فيصل وبراغماتيته بالطبع، إلا أنه أخذ على عاتقه أعباء تفوق طاقة الإنسان، فعاقت نشاطه.

في عام 1959م عاد الملك سعود من أوروبا وأثنى على إصلاحات أخيه وامتدحه على إحلال الاستقرار، إلا أنه سرعان ما سافر إلى سويسرا للعلاج. وفي طريق عودته في ديسمبر عرّج على جمال عبد الناصر في مصر. مجرد اللقاء مع الرئيس المصري يجعلنا نفترض أن محاولة اغتيال عبد الناصر بالمال السعودي (أو الأميركي) لم تكن واردة في حقيقة الأمر، أو أن

مستشاري سعود لم يبلغوه أنهم سلّموا شيكات إلى السوريين. وقد نفى سعود في مصر وجود أي خلافات مع أخيه فيصل، وأخذ يدلي بتصريحات استخدم فيها مفردات جمال عبد الناصر وباقي القوميين. استنكر "الإمبريالية بجميع أشكالها" ودعا إلى تحرير جنوب اليمن من نير الاستعمار. ورغم مواقف الملك سعود هذه، ظلت لعبد الناصر مصلحة في انشقاق العائلة المالكة.

ولكن، فلننتقل إلى شؤون النفط.

في أغسطس 1960م اتخذت "الشقيقات السبع" قراراً بتقليص المدفوعات على كل برميل من نفط الشرق الأوسط بعشرة سنتات. ففي السوق العالمي كان هناك فائض من النفط أدى إلى انخفاض أسعاره، ولذا قررت "الشقيقات" تحميل مصدّري النفط خسائرها.

في تلك الحقبة كانت أرامكو مزدهرة بعد أن افتتحت 10 حقول نفطية هائلة فيها 675 بئراً عاملة. وكانت قدرات آبار المملكة تزيد عدة مرات على قدرات آبار الولايات المتحدة وكندا، حيث لم تكن قدراتهما الاستخراجية آنذاك تتجاوز مئة برميل في اليوم. ثم إن نفط المملكة من أجود الأنواع - النفط أو الزيت العربي السعودي الخفيف جداً والعربي الخفيف والعربي المتوسط والعربي الثقيل - وأغلاها النفط العربي السعودي الخفيف المستخرج في حقلي غوار وأبقيق.

كان الحقلان ينتجان معاً 4 ملايين و960 ألف برميل في اليوم (حوالى 250 مليون طن في العام). وغدا النفط العربي السعودي الخفيف معياراً ومنطلقاً لتحديد أسعار سائر أنواع النفط. ويتوقف سعر كل نوع من النفط على مقدار ما يعطي من المشتقات البترولية الخفيفة كالبنزين والكيروسين. فكلما كانت كمية تلك المشتقات أكثر كان سعر البرميل من نفطها أغلى.

العوائد التي كان يأملها فيصل في 1960-1961م تقلصت بـ30 مليون دولار. كان ذلك ثاني هبوط في الأسعار منذ عام 1959م، إلا أنه هبوط أشد وأكثر خطورة. وما أثار استياء الأمير فيصل وغضبه أن قرار الخفض في الحالتين اتّخذته الشركات النفطية سراً، من دون أن ترى تلك الشركات ضرورة حتى للتشاور مع البلدان المنتجة للبترول.

وكانت تلك أيضاً ضربة في الصميم، ليس فقط لنظام عبد الكريم قاسم القومي في العراق، بل حتى لجميع شركاء أميركا وأصدقائها. وكان لا بد من رد مناسب، ولكن كيف؟

كان فيصل يتابع منذ عدة سنوات نشاط المهندس السعودي الشاب عبد الله الطريقي، الذي تولى مهمات مدير قسم البترول والثروة المعدنية في وزارة المال التي يترأسها فيصل نفسه، إضافة إلى وظيفته في رئاسة مجلس الوزراء. وباتت طروحات الطريقي

"المناهضة للإمبريالية" والمعادية لأرامكو والمؤيدة للناصرية أكثر إقناعاً وجاذبية.

هذا الاختصاصي التكنوقراطي الذكي، الوسيم بابتسامته العذبة، شخصية غير عادية. ولد في واحة الزلفي لعائلة ليست من الوجهاء، وتمكن من السفر إلى الكويت للدراسة. ولفت الفتى النبيه انتباه عبد الله السليمان، وزير المال الجبار في المملكة آنذاك، فأوفده للدراسة في القاهرة، ثم في تكساس، حيث حصل على دبلوم مهندس بترول. إلا أن الأميركان في جامعة هيوستن تصوروا أنه من المكسيك، فعاملوه بما تعوّدوه من زهو وكبرياء، ومنذ ذلك الحين شعر بالكراهية تجاه أميركا.

وعندما عاد الطريقي إلى الوطن أرسله عبد الله السليمان إلى الظهران ليراقب كميات البترول التي تستخرجها أرامكو والمبالغ التي تدفعها للدولة السعودية. وما كانت إدارة أرامكو مسرورة لوجود مراقب سعودي بين ظهرانيها. وعلى الرغم من أن عبد الله الطريقي بات ممثلاً لبلاده في مجلس إدارة أرامكو المكوّن آنذاك من الأميركيين وحدهم، فقد أُهين بعدم السماح له بالإقامة في الحي الذي يقيم فيه كبار موظفي الشركة.

وعندما تعمّق الطريقي في مراجعة الحسابات الرسمية فهم رأساً أن أرامكو تبيع النفط السعودي

بتنزيلات خصوصية للشركات الأربع المساهمة فيها، الأمر الذي يوفر لها أرباحاً إضافية من نقل النفط وتكريره وتسويقه هو ومشتقاته. إضافة إلى ذلك كانت الشركة تستخرج النفط من دون خطط طويلة الأمد، ما يؤدي إلى استنزاف الحقول النفطية مهما كانت غنية. كذلك كانت كميات هائلة من الغاز المصاحب للنفط تحرق جزافاً من دون اهتمام بإمكان الاستفادة منها.

كان الأميركيون في أرامكو ينظرون باحتقار إلى الشاب السعودي المتذمر منهم، فزعموا أن معارفه "سطحية"، لكنهم في قرارة أنفسهم يعلمون أن الطريقي كان على حق تماماً.

في عام 1951م توجه عبد الله الطريقي إلى فنزويلا ليتأكد كيف تمكّنت هذه البلاد من بلوغ شروط أفضل في العقود مع الشركات النفطية، فتوصل هناك إلى استنتاج مثير.

نظرياً كانت أرامكو تتقاسم العائدات مع المملكة العربية السعودية مناصفة. ذلك ما نصّت عليه اتفاقية عام 1950م. وهي ترضي شركات النفط لأنها عندما تدفع للسعوديين ضريبة الدخل المحلية تعفى حسب القوانين الأميركية من دفع هذه الضريبة في الولايات المتحدة. وفي عام 1951م، مثلاً، استطاعت الشركة أن تحول إلى المملكة العربية السعودية، حسب اتفاقية المناصفة، مبلغاً إضافياً قدره 50 مليون دولار كانت

تلك الشركة ستدفعه إلى الحكومة الأميركية لو لم تدفعه إلى السعوديين.

ثم إن مبدأ "المناصفة" نفسه ينطوي على الخداع والغش. فالعائدات تقسم "بالتساوي" بعد أن تقتطع منها الشركة "مصروفاتها"، وهي تضم كل أنواع البذخ والكماليات التي دأب عليها الموظفون الأميركيون، بما في ذلك الطائرات الخصوصية والعلاوات السنوية. والأهم من هذا وذاك أن أرامكو كانت تبيع النفط في رأس تنورة لشركائها المساهمين بتنزيلات قدرها 18٪، فيما يبيعه هؤلاء بالأسعار العالمية.

وبيّنت حسابات الطريقي أن تقسيم العائدات الفعلي لم يكن بنسبة 50:50، بل 32:68 لمصلحة الأميركيين. كان فيصل مطّلعاً على هذه الحسابات، ولا يخامره شك في صحتها.

كرّس عبد الله الطريقي معظم نشاطه في الخمسينيات لتحقيق مشاركة سعودية في جميع مراحل إنتاج النفط وتسويقه، "من البئر إلى محطة البنزين". وكان من دُعاة الحد الأعلى، يطالب بالكثير جداً ويتوخى الحصول على ذلك الكثير بأقصى سرعة. كان يريد أكثر فأكثر، فتمكن، على أي حال، من إرغام أرامكو على التخلي عن التنزيلات الخصوصية لمساهميها، كما أرغمها على الدفع للمملكة حسب "قائمة

الأسعار" بصرف النظر عن التنزيلات التي تقدمها لشركائها.

عندما خفضت "الشقيقات السبع" أسعار النفط لأول مرة في فبراير 1959م انعقد في القاهرة مؤتمر البترول العربي في أبريل من ذلك العام. وألقى جمال عبد الناصر خطاباً حماسياً ندد فيه بالإمبريالية. ثم تقرر وراء الأبواب المغلقة البحث عن إطار تنظيمي لمواجهة الشركات النفطية. وحضر المؤتمر الإيرانيون والفنزويليون ووقّعوا اتفاقية سرية مع العرب للعمل المشترك.

في أغسطس 1960م اتصل عبد الله الطريقي بأهل النفط في فنزويلا. الشركات النفطية حصرت خفض الأسعار ببلدان الشرقين الأدنى والأوسط فقط، إلا أن الفنزويليين يعرفون أن الأمر سيشملهم أيضاً، لأن النفط الأرخص المستورد من منطقة الخليج العربي سينسف مواقعهم، ولذا أعربوا عن استعدادهم للتعاون.

وأيد فيصل فكرة تأسيس اتحاد للمنتجين يواجه "الشقيقات السبع" التي تتحكم في الأسعار في السوق النفطي العالمي لمصلحتها. لكنّ فيصل ما كان يريد لهذه المنظمة أن تتأسس في الرياض، كي لا يُعتبر ذلك تحدياً لأرامكو والولايات المتحدة. ولو انتهت الأمور إلى ظهور منظمة لا قيمة لها، فإن ذلك سيكون جعجعة ولا طحن، ما يعني الهزيمة السياسية. ووجد فيصل

حجة وجيهة لرفض وجود المنظمة في الرياض، وهي عدم وجود فنادق جيدة فيها للمؤتمر التأسيسي.

استقلّ عبد الله الطريقي الطائرة إلى العراق حيث رحب اللواء الركن عبد الكريم قاسم بالفكرة، ونظّم بكل ارتياح لقاء منتجي النفط في بغداد للأسباب نفسها التي جعلت فيصل غير راغب في عقده في الرياض. كانت أفعال عبد الكريم قاسم وخطبه الثورية المتشنجة تهدف إلى تحدي الغرب وإلحاق الضرر بمنافسه جمال عبد الناصر. ولكن حتى حليف الولايات المتحدة شاه إيران بعث ممثله إلى بغداد.

في 9 سبتمبر 1960م أعلن ممثلو الدول الخمس التي تبلغ حصتها حوالى 80٪ من صادرات النفط العالمية، وهي السعودية وإيران والعراق والكويت وفنزويلا، تأسيس منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك). وقرروا أن يطالبوا جماعياً شركات النفط بالكف عن التحكم في الأسعار وعدم التلاعب بها من دون موافقتهم.

رفضت الشركات النفطية بزهو وخُيلاء حتى فكرة التفاوض مع المنظمة الجديدة. وعلى مدار سنين كانت الشركات تمانع في التعامل مع فؤاد روحاني، أول رئيس لأوبك، فكان يشارك في المفاوضات بصفته ممثلاً لإيران فقط. وما دامت الأسواق العالمية تشهد فائضاً من النفط، ما كان بوسع أوبك أن تغدو أداة فعالة بأيدي

مصدري البترول. إلا أن مؤشرات التبدلات لاحت في الأفق، ونشأت آليات العمل الجماعي للمنتجين، فأخذوا يرفضون الشروط الخصوصية التي تقدم لأحد منهم ما لم تشملهم جميعاً.

وسرعان ما انضمت قطر إلى منظمة "أوبك"، ثم الجزائر والغابون وليبيا ونيجيريا والإكوادور والإمارات العربية المتحدة وإندونيسيا.

عاد عبد الله الطريقي من بغداد بأكاليل الغار، واستقبله فيصل بارتياح، وصدّق مجلس الوزراء السعودي بالإجماع على مشاركة المملكة في المنظمة الجديدة، وبات الطريقي نجم المقابلات الصحافية والتلفزيونية. كان يوضح للناس كيف تخدع الشركات الغربية العرب، ويؤكد أن عائدات أرامكو الفعلية من رأس المال المستثمر تمثّل مئات في المئة سنوياً. لا أحد يستطيع التدقيق في صحة أقواله، لكن الناس صدقوه.

كذلك أشار المهندس السعودي الشاب إلى معاملة أرامكو الوقحة للسعوديين، وكانت تلك هي الحقيقة بعينها. فهو يقول إن الحكومة السعودية منحت حقوق الامتياز عشوائياً في أراض شاسعة لا لشيء، إنما لسواد عيون الشركة. فهي أكثر خبرة من ممثلي الحكومة الصبيان الحفاة الذين ما كانوا يدركون ما يفعلون[3].

وأكد عبد الله الطريقي أن أرامكو ملزمة حسب اتفاقية 1933م بإعداد الكوادر السعودية، إلا أنها

تجاهلت هذا الالتزام. والأكثر من ذلك أنها اقتطعت نفقات إعداد الكوادر السعودية من عائدات المملكة. وحتى السعوديون الذين أمكن إعدادهم ما كان يُسمح لهم بتسنّم مناصب مسؤولة في الشركة.

في عام 1960م خيّم على أرامكو خطر التأميم. تحدث الطريقي عن ذلك، وكان مديرو الشركة قد بحثوا احتمالات الرد، بما فيها الاستعانة بحكومة الولايات المتحدة والقوات المسلحة الأميركية.

كان فيصل بحذره المعهود وفطنته البالغة يشاطر الطريقي أفكاره، إلا أنه يدرك أن البلاد غير مستعدة لمواجهة مع أرامكو، وخاصة أن مثال إيران لا يزال ماثلاً أمام عينيه. فلم يكن لدى المملكة الكوادر والقوى اللازمة للتأميم. أما المواجهة مع الولايات المتحدة من مواقع ضعيفة وتجرّع الهزيمة المحققة فهما أمر غير معقول بالنسبة إلى فيصل.

آنذاك، بقي الأمير فيصل في الظل، بعد أن أطلق يد عبد الله الطريقي، الناصري التوجهات، لمخاطبة الجمهور. وبعد 13 عاماً كان سيأتي دور فيصل نفسه، فتبدو خطب الطريقي الحماسية حينذاك لعب أطفال مقارنة مع إجراءاته.

التصديق على عضوية المملكة في "أوبك" كان آخر قرار مهم لحكومة فيصل. فبعد أيام أقاله أخوه الملك سعود وأخذ مقاليد السلطة كاملة. أما المهندس

الموهوب الطموح عبد الله الطريقي فقد اقترف أفدح خطأ في حياته بانحيازه إلى "الأمراء الأحرار" ضد الأمير فيصل، حيث تسلم منصب وزارة مرموقة جديدة هي وزارة البترول والثروة المعدنية، لكنه فقد كل شيء بعد عودة فيصل إلى الحكم... وسنبحث هذا الموضوع في ما بعد.

اختلف سعود مع أخيه مراراً، وإلى حدّ المواجهة. قدم فيصل استقالته من جديد وعلى رؤوس الأشهاد في 9 مايو 1959م، وبذلك رفض النزول عند طلب الملك زيادة مدفوعات البلاط. وتدخل الإخوة الأمراء، فسحب فيصل استقالته معززاً موقفه.

وفي مايو 1960م تجدد الخلاف بين الملك ورئيس وزرائه على من يحل محل فيصل في حال وجوده خارج المملكة، ثم اتفقا على الأمير خالد.

وفي خريف 1960م توفي جون (عبد الله) فيلبي.

نترك اختلاف الرأي بين فيصل وسعود لبعض الوقت، ونبتعد قليلاً عن السياسة السعودية الكبرى. فالسنوات الأخيرة من حياة جون فيلبي الذي ربط مصيره بالمملكة العربية السعودية، وكذلك ملابسات وفاته تستحق وقفة. ومن دون مؤلفات فيلبي كانت معارفنا عن المملكة، وحتى عن حياة فيصل، ستبقى ناقصة.

عندما توفي عبد العزيز، بطل فيلبي المحبوب الذي أخلص له الولاء، رغم متاعب شيخوخة الملك المؤسس،

راح هذا الإنجليزي الجريء ينتقد صراحة، وبكل حدة، الظواهر السلبية في إدارة البلاد ونشاطات من سمّاهم "زمرة السوريين" المحيطين بالملك سعود. استنكر البذخ والتبذير المفرط، حيث كانت البادية، على سبيل المثال، مليئة بسيارات "الكاديلاك" المعطّلة وقد تركها أصحابها من دون أن يحاولوا تصليحها. وكان المستشارون الذين يكرهون فيلبي ينقلون أقواله إلى مسامع الملك سعود، ما أدى إلى طرده من البلاد في أبريل 1955م.

حرم فيلبي العجوز من المعاش الذي خصصه له عبد العزيز ومن المساكن التي أهداها إليه في الرياض وجدة والطائف ومكة، بل لم يمهلوه حتى لجمع حاجياته، واكتفوا بأن سمحوا لزوجته روزي بأن تذهب إلى مكة لتأخذ ولديها. وبالطبع لم يكن فيلبي فقيراً كما يدّعي.

استأجر في بيروت فيلا صغيرة وجميلة وسط بستان من التفاح والخوخ مطلّ على البحر، وكان بين الحين والآخر ينشر مقالات في "الصانداي تايمز" ويواصل فضح السلبيات في المملكة آنذاك. كان ضيفاً مكرماً محبوباً في أمسيات بيروت التي لا نهاية لها. وفي عام 1956م تلقى فيلبي دعوة من فيصل للعودة إلى المملكة. لم تكن بينه وبين ولي العهد السعودي صداقة حميمة، إلا أن فيصل يكنّ له الودّ منذ أن رافقه في رحلته إلى بريطانيا وإيرلندة سنة 1919م. وكانت

تهجمات فيلبي السافرة على يوسف ياسين ومن يسميهم "زمرة السوريين"، بلغته اللاذعة في كتاباته غير المألوفة، تعجب فيصل على أي حال.

أقنع الأمير فيصل الملك سعود "بمسامحة" العجوز عبد الله فيلبي، فعاد من جديد إلى وطنه الثاني. لم يعيدوا له كل مساكنه، إلا أن ولديه أخذا يترددان على "مدرسة الأمراء" في "الناصرية". كان يقضي معظم أوقاته في منزله الطيني يضرب على الآلة الكاتبة، بعد أن رفض الانتقال إلى بناية أريح. وفي عام 1959م أدى مناسك الحج.

كان فيلبي آنذاك كهلاً ببطن متهدل بعض الشيء، وملامح شيطانية، لكنه لا يزال يتمتع بالشهرة والاحترام. في عام 1960م وصل إلى لندن، وهو في السادسة والسبعين، ليحضر مباراة الكريكيت لكرة المضرب، ثم سافر إلى موسكو للمشاركة في المؤتمر العالمي للمستشرقين، والتحق هناك بجورج رينتس كبير مستعربي أرامكو وأمضى معه أسبوعين.

في الطريق إلى الرياض، توقف في بيروت في سبتمبر 1960م ليلتقي ابنه كيم فيلبي. وهناك تلقى فيلبي الأب دعوة لطعام العشاء في منزل جون فيستر مراسل مجلة "التايم" السابق، الذي صار مستشاراً سياسياً لملك الأردن حسين. خرج فيلبي العجوز إلى شرفة المنزل المطلة على ليل بيروت الرائع وساحل

البحر الأبيض المتوسط الخلاب، وأغمي عليه، مصاباً باحتشاء القلب. أخذه كيم إلى فندق "نورماندیا"، فأصيب هناك باحتشاء آخر نقل على أثره إلى المستشفى الأميركي. وفي هذا المستشفى أفاق لحظة وقال مخاطباً ابنه: "يا إلهي، ما أشد مللي"[4]. كانت تلك آخر كلماته. توفي فيلبي في 30 سبتمبر 1960م. مات منتصراً بعد أن غدا أبرز باحث لجزيرة العرب على مدى العصور، لكنه لم يجد أبداً السبيل إلى الوئام مع ذاته.

... في ديسمبر 1960م رفع فيصل ميزانية عام 1961م إلى الملك للتصديق عليها. واردات الدولة ارتفعت إلى مليار و700 مليون ريال مقارنة مع 380 مليون ريال في عام 1958م. وكانت تلك أموالاً غير وهمية وغير منقوصة. خفضت مخصصات الملك سعود ونفقاته الشخصية إلى 235 مليون ريال، فرفض التصديق على الميزانية. وعندها بعث فيصل إلى الملك رسالة موجزة قال فيها إنه لا يستطيع الاستمرار بأداء مهماته ويمتنع عن استخدام السلطة المخوّلة له. وفي 22 ديسمبر 1960م صدر مرسوم الملك بشأن "استقالة" فيصل[5].

كان البعض من أفراد العائلة المالكة وبعض شيوخ القبائل مسرورين لعودة سعود إلى السلطة. فإن التضحيات من أجل الاستقرار المالي كانت كبيرة جداً. تباطأ تطور البلاد وتوقف إنشاء كل المشاريع والطرق،

وتأخرت مدفوعات المشاريع الناجزة، وهبط إيجار الشقق والمكاتب في الرياض. وعندما رأى فيصل أن الميزانية أخذت في نهاية الأمر تشهد فائضاً بدلاً من العجز السابق، قرر أن يؤسس صندوق الضمان الاجتماعي، وليس توظيف الأموال فوراً في المشاريع الاقتصادية. فأودع الفائض في البنك العالمي وفي صندوق النقد الدولي (83 مليون دولار في الأول و55 مليون دولار في الثاني لعام 1960م). وكان ذلك قراراً حكيماً، لأن شركات النفط أخذت في تلك الحقبة تدفع عائدات أقل إلى المملكة.

وأجمع على معارضة فيصل التجار والإصلاحيون وبعض أفراد العائلة المالكة، ومنهم الأمير طلال بن عبد العزيز الذي كان في الثلاثين من عمره يمثل جماعة الأمراء الشباب الطموحين المستائين من الأوضاع. طلال وجماعته ساعدوا فيصل بقدر ما في تسلّم السلطة عام 1958م، لكنهم لم يكونوا راضين عن تريّثه في تنفيذ توصياتهم. وعندها انحازوا إلى سعود في عام 1960م متهمين فيصل بالرجعية. إلا أن جماعة طلال انقسمت على نفسها، حيث ظل الأميران عبد الله وماجد مخلصين لفيصل.

بعد الاستقالة، ترك ولي العهد الأمير فيصل الرياض واعتزل في الطائف، ولم يعد الاتصال به متاحاً لأحد سبعة أشهر كاملة. كان يخرج إلى الصيد في البادية

ويقضي كثيراً من الوقت مع العائلة، ولم يتكلم مع الملك سعود حتى يوليو 1961م.

طبعت مرارة الألم سلوكه في تلك الفترة. فعندما بذل قصارى الجهود لانتشال البلاد من هاوية الإفلاس، وعزّز مواقع المملكة دولياً، وباشر تحديث جهاز الدولة جدياً، لم يدخل في "مواجهة" مع الملك على الرغم من تزايد وزنه ونفوذه كولي للعهد. كان على استعداد للقبول بأخيه سعود ملكاً يتمتع بالرفعة والتكريم، فيما يتولى هو تسيير الحكم والإدارة عملياً. إلا أن ذلك لم يكن في حسابات سعود وأولاده، ولا في حسابات البلاط والأمراء الشباب الطموحين، ولا بعض شيوخ القبائل الموالين للملك. كذلك فإن العائلة لم تعترض على عزل الأمير فيصل، ولعل ذلك أيضاً جرح مشاعره.

عرضوا على فيصل في الحكومة الجديدة منصب نائب رئيس الوزراء، إلا أنه رفض، واحتفظ بكرامات ولي العهد ومنزلته.

ولذا عرض سعود على فهد منصب رئيس الوزراء بالوكالة في حال غياب الملك، إلا أن فهد رفض العرض، ولم ينسَ فيصل أبداً هذا الوفاء.

في 16 مارس 1962م أعلن الملك سعود أنه لن يمدد اتفاقية قاعدة الظهران العسكرية مع الولايات المتحدة التي تنتهي مدتها في أبريل من ذلك العام. وعزا الكثيرون ذلك إلى رغبته في ألاّ يبدو في السياسة

الخارجية أقل حزماً من فيصل المعارض لتمديد هذه الاتفاقية.

تولى سعود نفسه منصب رئيس الوزراء، وعيّن ابنه محمد وزيراً للدفاع، على الرغم من عدم تخصصه في الشؤون العسكرية. وكان الكثيرون يتصورون أنه سيغدو ولياً للعهد. وتسلم طلال حقيبة وزارة المال والاقتصاد الوطني، فيما شغل أخواه بدر وعبد المحسن منصبي وزير المواصلات ووزير الداخلية، واستُحدثت لعبد الله الطريقي وزارة البترول والثروة المعدنية. وكان في المجلس الجديد 6 وزراء من غير الأعيان. أما منصب نائب رئيس الوزراء فقد ظل شاغراً كأنما في انتظار فيصل.

المعروف أن والدة الأمير طلال الأرمنية الحسناء من أحب نساء عبد العزيز. اشتهرت باسم "أم طلال"، وقد جمعت ثروة طائلة أعطت الكثير منها لابنها عندما كبر. فكانت لدى طلال ثروة مرموقة حينما بدأ نشاطه ومعارضته غير المبرّرة. كان دخله في تلك السنوات، حسب معلومات أرامكو، حوالى 200 ألف دولار سنوياً. ونستبق الأحداث فنقول إن شطارة الأمير طلال انتقلت بالوراثة إلى نجله الوليد بن طلال الذي بات في مطلع القرن الحادي والعشرين من بين أول عشرة من أكبر أثرياء العالم. كان طلال السياسي ورجل الأعمال الموهوب قد ارتقى سلّم المناصب بسرعة. ففي عام

1953م تولى مهمة ناظر القصور الملكية، وسرعان ما صار وزيراً للمواصلات، ثم سفيراً للمملكة في فرنسا. وفي ما بعد تولى الإشراف على تنفيذ مشروع توسعة المسجد الكبير في مكة. وتقدر تكاليف المشروع بمئات الملايين من الدولارات.

دخل طلال عالم المال والأعمال بهمة ونشاط في الخمسينيات. تزوج من ابنة رئيس الوزراء اللبناني سامي الصلح، وأقام علاقات وثيقة مع رجال الأعمال اللبنانيين، واستثمر الأموال في العقارات في القاهرة. وعندما تدهورت العلاقات بين جمال عبد الناصر والملك سعود، تمكن من الحصول على وعد من الرئيس المصري بعدم مصادرة أمواله في مصر.

ولم تكن التقاليد في عائلة آل سعود تتيح له إمكان احتلال موقع بين المناصب الأولى في الدولة. فهو الابن السادس عشر لعبد العزيز، فيما كانت طموحاته السياسية لا تعرف الحدود، حتى ليقال إنه كان يسعى إلى نظام جمهوري، برئاسته هو طبعاً، إلا أن الرياح تجري بما لا...

لكي يكسب طلال ثقة سعود انخرط في محاولة لمناهضة فيصل. فقد ظهرت في إحدى صحف بيروت التي كان من مالكيها معلومة زعمت أن ولي العهد تسلّم رشوة من شركة نفط يابانية للحصول على امتياز نفطي في الجرف القاري للمنطقة المحايدة. واضطر

مكتب الأمير فيصل إلى أن ينشر تكذيباً للخبر، فيما اقترف عبد الله الطريقي خطأً لا يغتفر، حين تمادى في مداهنة الملك سعود وطلال متّهماً كمال أدهم، صهر الأمير فيصل، وفيصل نفسه بطريقة غير مباشرة، بتسلّم الرشوة من تلك الشركة اليابانية، بينما كانت شروط الامتياز ملائمة جداً للمملكة، وتسلّم العمولة ممارسة شرعية ومقبولة في النشاط التجاري. ولم ينسَ الأمير فيصل للطريقي هذا التعدّي أبداً.

وبذلك جنى طلال والطريقي على نفسيهما واستحقا غضبة آل الشيخ والعديد من الأمراء الأكبر سناً.

لم يكن سعود يفكر في أي إصلاحات وأي دستور، سوى نقاشات ساخنة ومنفعلة جرت في الأيام الأولى بعد تنحية فيصل عن السلطة، بتأثير من طلال وجماعته التي أطلقت على نفسها اسم "نجد الفتاة" على غرار "تركيا الفتاة". كانت تلك النقاشات تدعو إلى عقد جمعية وطنية بمثابة برلمان أو مجلس تأسيسي، وإلى التطور الديموقراطي في المملكة العربية السعودية. وكلف طلال محامياً مصرياً لوضع مسوّدة الدستور. ونشرت صحيفة "الجريدة" اللبنانية نصّه. وبعد عودة سعود إلى السلطة أعلنت إذاعة مكة في 25 ديسمبر 1960م أن الملك ينوي منح البلاد دستوراً، إلا أنها نفسها كذبت النبأ في 29 من الشهر المذكور.

لقد عاد سعود وحاشيته إلى الحكم ليس من أجل لعبة الدستور والإصلاحات. فحالما استعاد الملك مقاليد الحكم تجاهل الوعود التي أعطاها لجماعة "نجد الفتاة"، وأخذ من جديد يحكم بالأسلوب نفسه الذي اعتاده قبل أزمة 1958م، وازدادت نفقات الدولة من جديد. كان السويسري خوسيه أرنولد الوكيل المسؤول عن شؤون القصور الملكية يبلّغ أرامكو بانتظام ما يفعله البلاط الملكي.

كتب يقول:

> عندما أُزيح ولي العهد المتقشف ارتفع الخط البياني للمصروفات من جديد. وصارت الأموال تتسرب إلى الخارج وإلى جيوب زبانية البلاط بأحجام غير مسبوقة وغير خاضعة للرقابة. إلا أن الملك سعود ظل يثق بهؤلاء الأشخاص الذين كان شغلهم الشاغل هو تكديس الثروة[6].

وسرعان ما اتضح للملك سعود أنه ليس لديه مال لدفع أثمان الحاجيات والخدمات التي يريدها من الوكيل السويسري أرنولد. فبعث في طلبه وأمره بأن يقتصد في المال، ويقلص إلى النصف المصروفات السنوية على المطابخ والأطعمة، وكانت تقدّر آنذاك بـ5 ملايين دولار. وما إن انصرف الملك حتى استدعى عيد بن سالم أرنولد هذا وسلّمه قصاصة من الورق وقال: هذه قائمة

الحوانيت والمستودعات التي يجب أن تشتري منها الأطعمة للقصور ابتداءً من هذا اليوم. واكتشف أرنولد أن كل المتاجر في قائمة عيد بن سالم مملوكة لمحسوبي البلاط. فكانت تحدد للأطعمة أسعاراً مرتفعة جداً[7].

في ما بعد ألّف خوسيه أرنولد كتاباً عرض فيه تجربة عمله وحياته في بلاط الملك سعود. وعنونه كالآتي: **السيوف الذهبية والقدور والمقالي**. رسم الكتاب للملك سعود صورة أشبه بصورة الملك "لير" الطيب القلب الذي يحاول جميع من يثق بهم أن يستغلوه. فهو يريد أن يعامل الناس بطيبة، لكنّ النصّابين ينكرون الإحسان.

لم تستمر رغبة سعود بالتقشف والتوفير أمداً طويلاً. فما إن وصلت الدفعة المالية الجديدة من أرامكو حتى بدأ إعمار قصر "الناصرية"، وهو أمر مكلف طبعاً. إضافة إلى ذلك، دُفع مبلغ 1.3 مليون جنيه إسترليني ثمناً لطائرة "كوميت" جديدة للبلاط.

لم يكن طلال بن عبد العزيز مقرّباً إلى الملك سعود بالمعنى الشخصي. حتى إنه اختلف معه عندما كان وزيراً للمواصلات سنة 1954م. أما الآن فهو، بصفته وزيراً للمال، يحاول أن يقف في وجه موجة أهواء البلاط ونزواته. إلا أن المسألة في منتهى الجدية، فالملك سعود ما كان ينوي القيام بالتغييرات والمشاريع

العزيزة على قلب طلال والتي ربط بها طموحاته وآماله.

وكما ورد في التقرير السنوي لوزارة الخارجية البريطانية عام 1961م عن الوضع في المملكة العربية السعودية، ظهر لدى الملك سعود لبعض الوقت مستشاران شخصيان من ذوي الميول "اليسارية" هما فيصل الحجيلان وعبد العزيز المعمر. وكان الإنجليز ينعتون الأول بالقومي "المتعصب"، ويصفون الثاني بـ"البعثي"، بل حتى "الشيوعي" تقريباً. لم يبقَ الرجلان طويلاً في حاشية سعود، فعاد الشيخ يوسف ياسين الذكي المتغطرس إلى الديوان الملكي[8].

فهم طلال عزلته وأدرك عدم وجود قاعدة سلطوية فعلية يقف عليها، فأقدم على خطوة متسرعة وغير موزونة، حيث طرح أفكاره "الدستورية" في مؤتمر صحافي في بيروت في أغسطس 1961م، وما كان يجوز الخوض في شأن العائلة السعودية على الملأ.

وفي 11 سبتمبر 1961م أقيل طلال من منصبه بعد أقل من ثمانية أشهر على تسلمه حقيبة وزارة المال، وحلّ محله شقيقه نواف الذي كان قبل ذلك مديراً للديوان الملكي. ولم تكن العلاقات بين الأخوين آنذاك ودية تماماً بسبب خلاف طارئ. كذلك حصلت تبدلات بين الوزراء الآخرين، حيث نُحّي من الحكومة بدر وعبد المحسن.

بدت الحال كأن سعود يمسك بزمام السلطة، إلا أنه مرض من جديد في أواسط نوفمبر 1961م. كان مرضه خطراً، فنقل في الحال إلى مستشفى أرامكو في الظهران، ثم إلى بوسطن، حيث أُجريت له عملية جراحية في البطن وأخرى في العينين. وقبيل السفر سلّم كل الصلاحيات السلطوية إلى فيصل بتأييد من العائلة جمعاء. ولم تهاجم "صوت العرب" من القاهرة الأمير فيصل مباشرة، بعد أن كانت تشن حرباً إعلامية شعواء على الملك سعود.

عندما أبدى اللواء عبد الكريم قاسم من جديد في يونيو 1961م دعاواه بعائدية الكويت وكاد يغزوها بعد إعلان استقلالها وخروج القوات البريطانية منها، لم يكتفِ سعود بإرسال رسالة تأييد إلى أمير الكويت، بل إن المملكة أرسلت إليها قوات سعودية مع قوات بعض بلدان جامعة الدول العربية وبريطانيا، خاصة أن الادّعاءات العراقية شملت جزءاً من الأراضي السعودية نفسها، ما جعل المملكة تشدد موقفها. وفي نهاية ذلك العام كانت القوات السعودية في الكويت هي الأكثر عدداً.

ولقد أثار إنهاء وجود الجمهورية العربية المتحدة بنتيجة الانقلاب العسكري الجديد في سورية موجة أُخرى من الاتهامات ضد السعودية من جانب إذاعة

"صوت العرب"، فتأزّمت العلاقات السعودية المصرية من جديد.

وفي تلك الفترة ساءت علاقات المملكة مع الولايات المتحدة. كان فيصل يعرف تماماً أن الرئيس الأميركي الجديد جون كندي يعيد النظر جذرياً في أولوياته في الشرقين الأدنى والأوسط، بعد إخفاق "مبدأ أيزنهاور" وخيبة آمال أيزينهاور ودالاس بالملك سعود. وكانت واشنطن تميل إلى الاعتقاد بأن جمال عبد الناصر هو الزعيم الوحيد في المنطقة الذي لديه هدف واضح وشعبية واسعة ومستقبل واعد. فعزم الرئيس الليبرالي الشاب المنفتح كندي على أن يمد الجسور إلى عبد الناصر مهما كانت النتيجة. وكان منطق كندي واضحاً وبسيطاً: الكل عارضوا عبد الناصر، بريطانيا وفرنسا ودالاس، وكلهم أخفقوا، فيما عزّز عبد الناصر مواقعه وتقارب أكثر مع الاتحاد السوفياتي. وقرر كندي أن "يروّض" جمال عبد الناصر ويحوّله إلى "صديق" ويبعده عن الاتحاد السوفياتي، فاستؤنفت المساعدات الأميركية لمصر حتى بلغت 200 مليون دولار تقريباً في العام.

وعجّل في تبدل التوجهات الأميركية اللقاء الفاشل بين كندي والملك سعود عندما كان يتعالج في الولايات المتحدة. فقد حصل سوء فهم فني حينما ردّ سعود بالإيجاب على اقتراح كندي بشأن اللقاء بينهما، وأضاف

"إن شاء الله". ولقلة اطّلاع كندي على آداب السلوك العربي، فهم ترجمة "إن شاء الله" حرفياً واعتبرها من قلة الاحترام لشخصية رئيس الولايات المتحدة. اللقاء جرى مع الزعيم الأميركي الشاب، ولكنّ موقفاً نفسياً سلبياً نشأ لديه حيال الملك سعود[9].

في مارس 1962م تألفت حكومة جديدة احتفظ فيها الملك سعود بمنصب رئيس الوزراء، ووافق الأمير فيصل على تولي منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية. وجاءت تركيبة الوزارة تجسيداً للوفاق بين الأخوين. فبقي محمد، نجل الملك سعود، في منصب وزير الدفاع والطيران، وتولى منصب وزير الداخلية فيصل بن تركي بن عبد العزيز (وهو نجل تركي الابن البكر لعبد العزيز والذي توفي عام 1919م)، وصار مساعد بن عبد الرحمن وزيراً للمال والاقتصاد الوطني. أما عبد الله الطريقي وزير البترول والثورة المعدنية فقد استُبدِل بالمهندس أحمد زكي يماني الموالي لفيصل، وغادر الطريقي البلاد لأمد طويل، كما هاجر طلال وجماعته بعد أن افتقدوا الدعم والتأييد داخل المملكة. وفي 15 أغسطس 1962م عقد طلال مؤتمراً صحافياً في فندق "سان جورج" في بيروت، وانتقد في تصريح نشرته له جريدة "الأنوار" البيروتية النظام السعودي من دون أن يذكر الملك بالاسم. وقال الأمير طلال: هدفنا هو إحلال الديموقراطية الدستورية في

إطار النظام الملكي[10]. وأيّده أربعة من الأمراء هم عبد المحسن بن عبد العزيز وبدر بن عبد العزيز وفواز بن عبد العزيز وسعد بن فهد.

وخشية إثارة غضب الرياض، حاولت الحكومة اللبنانية التخلص من الأمراء المتمردين، فانتقلوا إلى القاهرة حيث التقى الأمير طلال بالرئيس جمال عبد الناصر. ونشر طلال في القاهرة كتاباً دافع فيه عن فكرة الإصلاحات الدستورية، معتبراً الاشتراكية المبدأ الرئيس للإسلام. وجعلت الثورة في اليمن مجموعته أكثر نشاطاً، ولكن لفترة قصيرة.

الفصل الثاني عشر

صراع الجبابرة: مسألة حياة أو موت

تدهورت صحة الملك سعود من جديد مع اقتراب خريف 1962م، فعزم على السفر للعلاج في الخارج، وبات واضحاً أن زمام الحكم في البلاد سينتقل إلى فيصل.

عشية الرحيل إلى نيويورك لحضور دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة في سبتمبر من ذلك العام، استدعى فيصل السفير الأميركي باركر هارت، ولمّح إليه بأنه راغب في مقابلة الرئيس جون كندي. آنذاك باتت الاتصالات السعودية مع الزعماء الأميركيين من الممارسات المعتادة رغم قلتها. إلا أن فيصل من الناحية الرسمية البروتوكولية وزير خارجية فقط، فيما تركت المقابلة مع الملك سعود انطباعاً غير مريح في نفس كندي. وقد تلمّس فيصل هذه النقطة وأراد أن يصحح الموقف.

كان السفير على علم ببرودة موقف كندي وفريقه إزاء المملكة العربية السعودية، ولكنه كان يأمل بأن الرئيس الأميركي عندما يرى فيصل ويقدّر ذكاءه ووزنه ومزاياه سيغير موقفه من زعماء الشرق الأوسط ويجعله أكثر توازناً. كتب السفير هارت في مذكراته في

ما بعد يقول: كنت واثقاً من أن فيصل وكندي سيعجب أحدهما الآخر، وهذا ما حصل فعلاً[1].

وجاءت الثورة اليمنية لتجعل لقاء الزعيمين عاجلاً وضرورياً.

فوصل فيصل إلى نيويورك في 25 سبتمبر 1962م ونزل في فندق "والدورف أستوريا" الذي اعتاده. وفي 26 منه بدأ التلفزيون الأميركي يذيع أخبار الانقلاب في اليمن والذي حظي بدعم مصري فوري. اتصل فيصل بالخارجية الأميركية هاتفياً وطلب أن يبعثوا إليه بعيسى الصباغ مترجم البعثة الدبلوماسية الأميركية في جدة، فوصل الصباغ بالطائرة في اليوم نفسه. وقال له فيصل: أخشى أن يكون هدف عبد الناصر ليس اليمن بل المملكة العربية السعودية. أنا واثق من أن اليمن ستكون مجرد منطلق لعبد الناصر للاستيلاء على المملكة مباشرة أو عن طريق عملائه في الداخل. فهل ستكون الولايات المتحدة مع المملكة ضد التخريب الداخلي المحتمل وضد الاعتداء من الخارج؟ بودّي أن أحصل على جواب دقيق. عد إلى واشنطن حالاً وبلّغ المسؤولين في الخارجية مضمون حديثنا[2].

جاء ردّ الفعل فورياً تقريباً. فبعد حين، وصل مساعد وزير الخارجية فيليبس تالبوت مع الصباغ إلى نيويورك وأكد للأمير فيصل أن الولايات المتحدة ستتخذ كل الإجراءات التي تقتضيها الضرورة لمساعدة السلطات في المملكة العربية السعودية لمقاومة الاعتداء، سواء في الداخل أو من الخارج، وفي الوقت ذاته تنتظر

الولايات المتحدة من فيصل أن يركّز على الإصلاحات الداخلية بصفتها الوسيلة الأفضل للدفاع.

الأنباء الواردة من اليمن مرعبة. رؤوس أفراد عائلة الإمام وكبار المسؤولين قطعت وعلقت على جدران القصر. وقيل إن الإمام الجديد محمد البدر قتل. وأخذ قائد الانقلاب، الضابط عبد الله السلال، يطلق التصريحات المعادية للسعودية، ويعبّر عن المودة لجمال عبد الناصر. وتحدث السلال في "البلاغ رقم 1" عن ضرورة إطاحة سلطة جميع الملوك والأمراء في الجزيرة العربية وتأسيس دولة موحدة هي جمهورية الجزيرة العربية. وبعد بضعة أيام لا غير عُلم أن مستشارين عسكريين مصريين وصلوا إلى الحديدة، وبات واضحاً أن المصريين كانوا، في أقل تقدير، على علم بالانقلاب، أو أنهم هم الذين دبّروه، فيما صادرت حكومة السلال جميع أراضي وقصور الأئمة المخلوعين من عائلة حميد الدين.

حلّل فيصل الموقف، ولم يكن متعاطفاً إطلاقاً مع إمامة حميد الدين الزيدية (الشيعية). فالزيديون في اعتقاد أتباع محمد بن عبد الوهاب ليسوا من المسلمين الصالحين، على الرغم من أن الملك عبد العزيز بعد انتصاره في حرب اليمن وقّع مع جد الإمام البدر الذي أُطيح حالياً معاهدة "الأخوّة الإسلامية". فإن طرق الحكم الاستبدادي التي مارسها الإمام تتعارض مع السلطة القائمة على الوفاق والإجماع في المملكة العربية السعودية. وكان انغلاق النظام والوضع

الاقتصادي الكارثي قد دفعا مئات الآلاف من أهالي اليمن الشمالي إلى النزوح إلى اليمن الجنوبي وإلى المملكة العربية السعودية وإلى الهجرة إلى بريطانيا.

وبعد حرب 1934م كانت العلاقات السعودية اليمنية طبيعية نسبياً، وما كان أحد من الطرفين يريد تغيير الوضع القائم. وفي عام 1948م دبّر عبد الله الوزير انقلاباً حكومياً في اليمن، فَقُتِلَ الإمام يحيى واثنان من أبنائه وأحد أحفاده ورئيس الوزراء وعدد من كبار المسؤولين، وصدرت وعود بإقرار "دستور". إلا أن عبد العزيز تناسى نفوره من ولي العهد أحمد الذي لم يكن يثق به، ورغم ذلك دعم جهوده للاستيلاء على صنعاء مجدداً.

أعدم المشاركون في مغامرة الوزير علناً، وزُجّ بالبعض في السجن. وكان بين هؤلاء الضباط الشباب عبد الله السلال الذي تلقّى تحصيله في الكلية العسكرية في العراق. أمضى ثماني سنوات في السجن وأُفرج عنه بعد توسط ولي العهد محمد البدر، فصار ضابطاً في حرسه الشخصي.

كان السلال ابن حداد من عائلة حرفية لا تتمتع بالاحترام عادة. إلا أنه طموح وموهوب، فتصوره محمد البدر ضابطاً مخلصاً، لأنه لا علاقة له بالقبائل الرئيسة.

وكان السعوديون قلقين من مغازلة الإمام أحمد لجمال عبد الناصر وللاتحاد السوفياتي، حيث طلب منهما مساعدته في طموحاته في اليمن الجنوبي، فيما

كان ابنه، ولي العهد الأمير محمد البدر، من أشد المعجبين بجمال عبد الناصر.

في سنة 1956م أخذ الاتحاد السوفياتي يزوّد الإمامة بالسلاح متوخياً نفعية براغماتية سافرة. فإن عدو بريطانيا، حتى وإن كان يمثل نظاماً ملكياً من بقايا القرون الوسطى، بات صديقاً للسوفيات. وبدأت أعمال البناء في ميناء الحديدة، وشُقت الطرق بمساعدة من الاتحاد السوفياتي. وفي عام 1958م انضم أحمد رسمياً، والأصح شكلياً، إلى دولة الوحدة التي أسّسها جمال عبد الناصر بين مصر وسورية.

لكنّ علاقات الإمام أحمد مع عبد الناصر تدهورت تماماً عندما انتبه الإمام إلى دعم المصريين للمعارضة القومية في اليمن، فأعلن القطيعة مع الجمهورية العربية المتحدة في سنة 1960م، ونشر قصيدة ساخرة تهكّم فيها على شعارات الوحدة القومية والاشتراكية العربية، فيما أطلقت "صوت العرب" توصيف الدولة "الإقطاعية المتخلفة" على اليمن الشمالي.

كانت الأحداث في اليمن تمثل خطراً فعلياً على المملكة العربية السعودية وعلى آل سعود. وفيصل يعرف أن في جيش المملكة عدداً غير قليل من القوميين المتأثرين بدعاية "صوت العرب" والمدفوعين بالأحلام الشخصية لتكرار نجاحات الانقلابات العسكرية التي شهدتها مصر وسورية والعراق، ثم اليمن. ولم يكن ذلك بالأمر السهل طبعاً في بلاد مترامية الأطراف

كالمملكة العربية السعودية بتقاليدها الإسلامية الراسخة، إضافة إلى ولائها الكبير لآل سعود، إلا أن شخصية عبد الناصر العملاقة ألقت بظلالها على كل شيء آنذاك.

وبالطبع لم تكن اليمن البائسة التي تفتقر إلى الموارد الطبيعية، والمتحجرة في أطر العصور الوسطى، هي الهدف الذي يسعى إليه جمال عبد الناصر، على الرغم من أن الثورة في اليمن أعادت إليه سمعته التي فقدها بعد انفصال سورية عن دولة الوحدة قبل ذلك بفترة وجيزة. كان عبد الناصر يتوخى أهدافاً أكثر جدية وخطورة. فقد أراد تخليص اليمن الجنوبي من سيطرة الإنجليز، بما في ذلك ميناء عدن ذو الموقع الممتاز وقاعدتها العسكرية ومصفاة النفط، كما كان يأمل قيام الثورة في باقي دول الجزيرة العربية العائمة على بحر من النفط، والتي تحتضن الحرمين الشريفين.

نحن لا نعزو هنا كل الأمور إلى الحسابات النفعية البراغماتية. فإن جمال عبد الناصر نفسه وبعض المحيطين به لم تكن تعوزهم رومانسية الإيمان برسالتهم السامية.

يقول سامي شرف: "لم يحصل تدخل مصري في اليمن. كانت محاولة لإنقاذ شعب يعيش تحت التاريخ. هل هذا واجب أم لا؟"[3].

بعد شهور من ذلك كان سيكشف مدى خطأ عبد الناصر. ولكن في الفترة موضوع الحديث كاد لهيب

الثورة أو التدخل المصري يشعل المملكة العربية السعودية.

سعى فيصل إلى لقاء عاجل مع الرئيس الأميركي جون كندي. المملكة لم يكن لديها حلفاء. وليس هناك بلد، سوى الولايات المتحدة التي لها مصلحة في النفط السعودي، يمكن أن يساندها. ولكن بأي طريقة وإلى أي مدى؟

لاحظ ولي العهد السعودي الأمير فيصل حذر واشنطن منه. فإن مشاعره المعادية للشيوعية كل العداء قوبلت بتهكّم من جانب رموز البرامج أو "الأطر الجديدة" التي جاء بها كندي، فيما كانت المملكة العربية السعودية في تلك الحقبة عبارة عن "هوّة سحيقة" في تصورات وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. نظام حكم تقليدي قديم ، وبلاط يعاني من فساد موظفيه، وعائلة تشهد خلافاً بين الملك وولي عهده، ويضعفها سلوك الأمراء "الأحرار" وتصرفات عبد الله الطريقي الطائشة والخطيرة... فما كان أسعد واشنطن لو أنها تمكنت من نسيان المملكة العربية السعودية، لكنها لا تستطيع أن تستغني عن نفطها، وعن أرامكو والشركات العملاقة المالكة لها. إضافة إلى ذلك، هناك خطر ظهور الاتحاد السوفياتي، ليس في اليمن فقط حيث كان حاضراً قبل الانقلاب وازداد نفوذه مع ظهور القوات المصرية في هذه البلاد، بل وفي الدول النفطية في الجزيرة العربية.

وفوق هذا وذاك من السهل على الاتحاد السوفياتي أن يقفز من اليمن إلى أفريقيا...

ورغم ذلك كله كانت أمور الشرق الأوسط على هامش اهتمامات كندي في تلك المرحلة. فإن منافسه في المواجهة الحربية العالمية نيكيتا خروشوف قام بنقلة جريئة غير متوقعة حينما أرسل الصواريخ النووية لنصبها في كوبا. كانت تلك مغامرة طائشة من الزعيم السوفياتي حاول أن يخفي معالمها عن أنظار الأميركيين على أمل أن يغيّر تناسب القوى مع الولايات المتحدة. إلا أن كندي ضرب طوق الحصار البحري على كوبا، فبات العالم قاب قوسين أو أدنى من الحرب النووية. وعندما رأت الدولتان العظميان الهوة التي انفغرت أمامهما أخذتا تبحثان عن حل وسط. وقد كسب كندي الجولة، لكنه وافق، كمظهر لحسن النية، على سحب الصواريخ العتيقة الموجهة ضد الاتحاد السوفياتي من القواعد الحربية في تركيا وتعهد بعدم الهجوم على كوبا.

بعد عشر سنوات تمكن الاتحاد السوفياتي بشق الأنفس، وبثمن الجهود البالغة والتضحيات الجسيمة، أن يحقق التعادل الاستراتيجي مع الولايات المتحدة، حيث حملت الصواريخ الاستراتيجية العابرة للقارات والغواصات الذرية الحاملة للصواريخ خطر الحرب النووية إلى مسافة قريبة جداً من الولايات المتحدة. وساعدت قدرة الاتحاد السوفياتي الحربية هذه على التقيد ببعض قواعد اللعبة إبان حرب 1973م في

الشرق الأوسط. وبعد ذلك بدأ انزلاق الاتحاد السوفياتي إلى هاوية الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية حينما قصم سباق التسلح ظهره، إضافة إلى المعضلات الأخرى.

كل ذلك سيأتي في ما بعد. أما الآن فكان على فيصل أن يراعي اهتمام الولايات المتحدة الهامشي باليمن وحذرها في العلاقة مع المملكة العربية السعودية ومحاولات كندي مدّ الجسور مع جمال عبد الناصر.

في 4 أكتوبر 1962م جرى لقاء بين فيصل وكندي على الغداء في البيت الأبيض، ثم تحدثا على انفراد.

قبل ذلك بقليل جرت محاولة اعتداء على الملك سعود، وفرّ طياران سعوديان إلى مصر. كان كندي مطّلعاً على التوقعات المتشائمة بعض الشيء لوكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية الأميركية في شأن مستقبل المملكة العربية السعودية، وما كان فيصل يعرف بتلك التقويمات طبعاً، لكن هواجس كانت تخامره بشأنها. فهو يطالع ما تكتبه وسائل الإعلام الغربية عن الأحداث في اليمن والجزيرة.

وكتبت "الغارديان" و"الفاينانشال تايمز" خصوصاً عن توقعات متشائمة جداً في ما يخصّ المملكة آنذاك[4].

كان فيصل قد استعد لمقابلة كندي مسبقاً، قبل الانقلاب في اليمن. درس برنامج عمل حكومة الرئيس الأميركي الجديد وسياسة "الأطر" أو "الحدود الجديدة" التي أعلنها. ولذا قرر أن يطرح أفكاره في

شأن الإصلاحات المزمع إجراؤها في المملكة العربية السعودية.

ومن جهته تهيّأ كندي هو الآخر للقاء، فشدد على التعهد الذي قطعه ترومان عام 1950م وجاء فيه أن أي تهديد لاستقلال المملكة العربية السعودية وحرمة أراضيها يغدو مثار اهتمام جدي وفوري للحكومة الأميركية التي ستتخذ الإجراءات لمواجهة مثل هذا التهديد. وأضاف الرئيس كندي أن الولايات المتحدة ستؤكد تمسكها بضمان الأمن السعودي، وترسل لهذا الغرض سفناً حربية أميركية إلى الموانئ السعودية، وخصوصاً الواقعة على البحر الأحمر، وأن الولايات المتحدة ستعدّ الطيارين وتدرب السعوديين على عمليات مكافحة المتمردين وحرب الأنصار.

وبناءً على هذا القول طرح فيصل سؤالاً واضحاً من دون لف أو دوران: هل يشمل دعم الولايات المتحدة للمملكة المخاطر الداخلية أم الخارجية فقط؟

وردّ الرئيس الأميركي على السؤال الصريح بجواب صريح:

> المساعدة الأميركية تتوقف على نوعية الخطوات والإصلاحات التي تنوون القيام بها في مجال المالية والقضاء وغيرهما لتكسبوا التأييد الاجتماعي الواسع وتؤمنوا مشاركة الشباب السعوديين المثقفين في إدارة الدولة. فسيكون من الصعب على حكومة الولايات المتحدة أن تبرر أمام شعبها التعهد

بالتزامات جدية لنظام حكم يفتقر إلى إصلاحات جذرية... في شتى الميادين.

كان فيصل مهيّأً لطرح المسألة على هذا النحو، فأجاب في الحال: أوافقكم الرأي وأنوي إجراء مثل هذه الإصلاحات بالذات[5].

وأثناء مأدبة الغداء مع كندي وصلت برقية من وزارة الخارجية الأميركية.

قرأها كندي وقال منفعلاً بعض الشيء: "الملكيون استولوا على صنعاء". فأجاب فيصل من دون أن تبدو عليه إمارات الدهشة: ربما، مَن يَعِشْ يرَ[6].

وبعد أيام تأكدت شكوكه. فالقبائل الموالية للإمام في اليمن رسخت مواقعها في الجبال فقط، من دون أن تتمكن من الاستيلاء على صنعاء.

ما تميز به فيصل من هدوء واطلاع على الموقف وثقة بالنفس ووضوح الحجة والشعور بالكرامة الشخصية، ترك انطباعاً مؤثراً في الرئيس الأميركي جون كندي، فوافق على إرجاء اعتراف الولايات المتحدة بالجمهورية الجديدة في اليمن. كذلك وافق كندي على إجراء مناورات حربية مشتركة أميركية سعودية، ما يعني إبداء الدعم والتأييد للمملكة العربية السعودية فعلاً.

وأفلح فيصل في إقناع كندي برسوخ مواقعه في المملكة، واستعداده وقدرته على إجراء التحويلات الاقتصادية والاجتماعية. ووجد كندي في الأمير فيصل

شريكاً يمكن الاعتماد عليه، فوافق على تطوير التعاون العسكري مع المملكة.

وعندما تولى الأمير فيصل مهمات رئيس الوزراء من جديد في 17 أكتوبر 1962م، بعث له الرئيس الأميركي برسالة أعرب فيها عن الثقة بأن المملكة العربية السعودية بقيادته المستنيرة القوية ستسير بنجاح على طريق التقدم، ويمكنها، في نهجها هذا، أن تعتمد على الولايات المتحدة في صيانة أمن المملكة ووحدة أراضيها.

كان فيصل راضياً عن نتائج لقائه مع كندي، ولكن كان واضحاً له أن الخلافات باقية. لقد أقنع الرئيس الأميركي بالتريّث في الاعتراف بالنظام الجمهوري في اليمن، على الرغم من أن كندي لم يكن متعاطفاً مع الأئمة من آل حميد الدين. كذلك فهم فيصل أن كندي غير مطّلع على تفاصيل السياسة العربية والعلاقات السياسية بين العرب، ولا يأخذ في الاعتبار منطق سلوك جمال عبد الناصر، إلا أن فيصل قرر في نفسه أن يساعد أنصار الإمام في اليمن ليقيّد حركة القوات المصرية. ولكن الولايات المتحدة ما كانت تريد التدخل في النزاع الدائر ولا التضحية بدفء علاقاتها المتحسنة مع عبد الناصر لسواد عيون اليمن، فتعيّن على فيصل أن يستخدم كل فنونه الدبلوماسية ليستفيد من الدعم الأميركي المحدود للمملكة العربية السعودية في مساعدة أنصار الإمام خلافاً لرغبة واشنطن، وتسديد الضربة إلى جمال عبد الناصر من دون السير بالأمور

إلى حدّ استفزازه ودفعه إلى التدخل المباشر في المملكة.

كان فيصل لا يزال في الولايات المتحدة عندما أخذ الملك سعود يرسل السلاح والمال إلى الملكيين في اليمن. فكانت الطائرات المحملة بالسلاح السعودي تحطّ في جيزان على مقربة من الحدود مع اليمن. على هذا النحو بدأت المساعدات للإمام، وكانت تلك حالة مشهودة توافقت فيها أفكار الأخوين سعود وفيصل وتصرفاتهما.

عاد فيصل إلى الوطن في أواخر أكتوبر 1962م بصفة رئيس للوزراء هذه المرة.

لقد هزّت أحداث اليمن الأساس السياسي للنظام السعودي، واتضح أن في القوات المسلحة السعودية ميولاً ناصرية قوية. ففي الفترة بين 2 و8 أكتوبر، حوّلت 4 طائرات سعودية محملة بالسلاح المخصص للملكيين في اليمن وجهتها ومضت إلى مصر. وأعلن أحد الطيارين السعوديين للصحافيين هناك أن في السعودية منظمات سرية تضم ضباطاً ومدنيين ينتظرون الفرصة السانحة، وستحين قريباً جداً كما يتصوّرون.

كان عدد من أعضاء الحكومة من غير الوجهاء قد وقّعوا مذكرة ناشدت المملكة الاعتراف بالجمهورية الجديدة في اليمن، وكانت العائلة الحاكمة منقسمة على نفسها. فقد انتقل طلال بن عبد العزيز إلى القاهرة في أكتوبر 1962م، والتحق به هناك ثلاثة أمراء هم بدر بن

عبد العزيز وفواز بن عبد العزيز وسعد بن فهد، فألّفوا لجنة "الأمراء الأحرار" التي طالبت بتبديلات جذرية في البلاد[7].

وفي تلك الأثناء كان أمراء آخرون، من أمثال خالد بن عبد العزيز، يساعدون الملكيين في اليمن.

كان سعود المريض آنذاك ينوي أصلاً السفر إلى الخارج للعلاج. وبسبب قلة حزمه في مواجهة التحديات الخطيرة للنظام، رأى كبار أعضاء العائلة المالكة أن يعجّلوا في نقل صلاحيات رئيس الوزراء كاملة إلى ولي العهد فيصل ليتولى السيطرة التامة على الحكومة.

عاد فيصل إلى المملكة وألّف حكومة استبعدت أبناء الملك سعود وكذلك الوزراء من غير الوجهاء الذين طالبوا بالاعتراف بالجمهورية العربية اليمنية. وصار خالد نائباً لرئيس الوزراء وسلطان وزيراً للدفاع والطيران وفهد وزيراً للداخلية، وبعد فترة شغل عبد الله بن عبد العزيز منصب قائد الحرس الوطني.

في 6 نوفمبر 1962م أعلن فيصل برنامجه الإصلاحي الضخم من 10 نقاط، وأكد البيان الوزاري الذي صدر في هذا الخصوص

> أن الوقت قد حان الآن لاستصدار نظام أساسي للحكم مستمد من كتاب الله وسنّة رسوله وسيرة خلفائه الراشدين، حيث توضع بوضوح كامل المبادئ الأساسية للحكم وعلاقة الحاكم بالمحكوم وتنظيم سلطات

الدولة المختلفة وعلاقة كل جهة بالأخرى، وينص على الحقوق الأساسية للمواطن، ومنها حقه في حرية التعبير عن رأيه في حدود العقيدة الإسلامية والنظام العام.

ونصَّ البرنامج على أن تقوم الحكومة حالاً بإصلاح وضع هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يتماشى مع الأهداف الإسلامية الرفيعة التي وضعت أساساً من أجلها

وكذلك إصلاح القضاء والاقتصاد بحيث تصبح الدولة بعد فترة غير طويلة لديها ترات تنظيمي شامل يساعد على تقدم النشاط وسرعة الحركة واجتذاب رؤوس الأموال.

وأكد فيصل أن من أهم واجبات الحكومة النهوض بالمستوى الاجتماعي، وقد قامت الدولة بأدوار مهمة وفعالة في هذا الحقل، فضمنت لشعبها العلاج والدواء بالمجّان، وفعلت مثل ذلك بالتعليم... وأعفت كثيراً من المواد الغذائية من الرسوم الجمركية، بل منحت إعانات ضخمة لخفض أسعارها للمستهلكين... كما تسعى الحكومة إلى حماية العمال من البطالة... وتيسير الكفاية لشعبها وتأمين فرص العمل له، بل إنها تسعى جادة إلى إجراء تعديلات مهمة في شكل

الحياة الاجتماعية وإلى توفير وسائل التسلية لجميع المواطنين.

كذلك نصّ البرنامج الإصلاحي على إلغاء الرقيق وتحرير العبيد بالكامل[8]، فدفعت الحكومة 700 دولار عن كل عبد معتق وألف دولار عن كل جارية معتقة لغاية يوم 7 يوليو 1963م. وبعد ذلك التاريخ اعتُبر كل العبيد أحراراً. لكنّ معظم العبيد المعتقين، وخصوصاً من مملوكي أفراد العائلة المالكة، فضّلوا البقاء في خدمة أسيادهم السابقين وظلوا يعملون عندهم بصفة طباخين وسواق وحرس ومربيات وما إلى ذلك.

وشمل البرنامج تأسيس وزارة العدل ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية، وأكد ضرورة تطوير مجلس الشورى.

وفي بداية 1963م صدرت أحكام البنك الصناعي والبنك الزراعي في المملكة. ونصّت ميزانية 1962-1963م على زيادة كبيرة في اعتمادات التعليم والصحة.

وذكر فيصل في خطاب ألقاه في الطائف في 5 سبتمبر 1963م المشاريع التي تنوي الحكومة إيلاءها اهتماماً من الدرجة الأولى، وهي تطوير الاتصال بالهاتف وشق الطرق وبناء المطارات وإسكان البدو وخفض أسعار المياه وبناء مجمع للتعدين ومصفاة للبترول في جدة ومعمل للورق ومعمل لعجينة السليلوز ودراسة الثروات المعدنية الأخرى والبدء باستخراجها وفتح كلية البترول والمعادن وخفض أسعار الكهرباء.

وحظيت إجراءات فيصل الإصلاحية باستحسان عمه مساعد بن عبد الرحمن وأخويه فهد وسلطان ولدي حصة السديري التي كانت عفت عقيلة فيصل في علاقة جيدة معها.

كان فهد آنذاك في الحادية والأربعين، وسلطان في الثامنة والثلاثين، وهما أخَوان متقاربان في الآراء تربطهما علاقات مودّة متينة، ويتميزان عن باقي الإخوة بالطموحات والقابليات التنظيمية، وكان كلاهما في حكومة الأمير فيصل من 1958م حتى 1960م. وفي الحكومة الجديدة التي ألّفها فيصل سنة 1962م شغل فهد منصب وزير الداخلية، فيما تولى سلطان مهمات وزير الدفاع. وقد نفذ الأول برنامج فيصل الإصلاحي، فيما نظّم الثاني مساعدة الملكيين في اليمن في حربهم ضد المصريين وعزّز القوات المسلحة النظامية السعودية. وتولى إمارة الرياض شقيق آخر للملك فيصل هو الأمير سلمان.

على هذه الصورة نشأ في عام 1962م التعاون بين الأشقاء الذين تزعموا الدولة وظلوا يحكمون البلاد حتى مطلع القرن الحادي والعشرين.

عشية عودة فيصل إلى الوطن، التقى السفير الأميركي هارت وكيل وزارة الخارجية السعودي السيد عمر السقاف، وعرض في أثناء اللقاء آخر تقويم أميركي للموقف في اليمن، وكأنه بمثابة استمرار لمحادثات كندي مع فيصل. وكان السفير يعرف أن السقاف سينقل تفاصيل الحديث إلى فيصل.

جاء التقويم الأميركي على النحو الآتي: الملكيون يمكن أن يعكّروا صفو حياة الجمهوريين، لكنهم لن يتمكنوا من استعادة السيطرة على البلاد. ويحتمل أن يبقى الوجود العسكري المصري في اليمن ما دام هناك خطر على الجمهورية من الخارج. زعيم الثورة اليمنية عبد الله السلال التزم موقفاً متهاوداً حيال الولايات المتحدة، وقد أبلغ روبرت ستوكي رئيس البعثة الدبلوماسية الأميركية في تعز أنه يرغب في علاقات طيبة مع المملكة العربية السعودية وبريطانيا وأميركا، وأنه لا يعمل بإيعاز من مصر. ولربما ستعترف الولايات المتحدة بالجمهورية العربية اليمنية، ولا بد أن يعلم فيصل بأنه إذا كان جمال عبد الناصر يمثّل خطراً على العربية السعودية، فإن الدعم السعودي لولي العهد اليمني محمد البدر يمثّل خطراً عليها أكبر من ذلك. فالبدر العاجز عن تهدئة اليمن يمكن أن يستفز المصريين ويدفعهم إلى مهاجمة العربية السعودية، ولا أمل بمساندة عسكرية أميركية لتورّط سعودي في الحرب الأهلية في اليمن.

نقل السقاف مضمون الحديث إلى فيصل، إلا أن حجج هارت لم تقنعه. فإن مقاومة مصر بالنسبة إليه من متطلبات الأمن السعودي. آنذاك لم تكن لدى الولايات المتحدة في المنطقة قوات برية ولا جوية يمكن للسعوديين أن يعلقوا آمالاً عليها. وكانت واشنطن في سبيلها إلى التورط في حرب الفيتنام، وقد تجاوزت لتوّها أزمة الكاريبي.

كانت المهمة التي يتوخّاها فيصل هي جعل كندي يعلن على الملأ أن الولايات المتحدة لن تقف متفرجة في حال نشوب نزاع مسلح بين السعودية ومصر. وهو الالتزام العلني نفسه الذي لا تزال واشنطن تتحاشى إعطاءه.

كان جمال عبد الناصر يراهن بمهارة على مخاوف واشنطن من توسّع نفوذ الاتحاد السوفياتي، وكان يؤكد أن مساعدة العربية السعودية للملكيين ستدفع الجمهورية العربية اليمنية إلى زيادة الوجود العسكري السوفياتي المحدود في البلاد، وفي حال الصدام مع مصر ستُمنى السعودية بالهزيمة ويتهاوى النظام السعودي. وقد التقى رئيس مجلس الشعب أنور السادات مع السفير الأميركي لدى القاهرة جون بادو و"نصحه" بأن تعترف الولايات المتحدة بالجمهورية العربية اليمنية. وأيّد هذه الفكرة المبعوث الدبلوماسي الأميركي في اليمن روبرت سوتكي. فقد أكد أن حشد القوات السعودية على الحدود الشمالية لليمن سيسبب مجيء إمدادات مصرية إضافية. وكتب يقول: "إذا كان هناك بلد في حاجة إلى الإصلاحات فهو اليمن". وإن عودة الأئمة من آل حميد الدين "تعني إحياء حكم السادة المستبدين الذين كانوا جهلة متعصبين وجشعين معدومي الضمير"، على حدّ تعبيره[9].

لم تكن واشنطن مدينة بشيء إلى الأمير حسن مبعوث اليمن، الذي كان يصوّت في الأمم المتحدة مع "الكتلة الشيوعية" ضد الولايات المتحدة. أما البدر فقد

كان موقفه حيال الولايات المتحدة يتميز بالبرودة دوماً، ولم يكن إحياء الإمامة على العموم من أهداف واشنطن. إضافة إلى ذلك، أيّد السفير الأميركي لدى جدة باركر هارت الاعتراف بالجمهورية العربية اليمنية، وكان يومها سفيراً للولايات المتحدة، ليس فقط في السعودية بل في اليمن أيضاً في عهد الإمام، وقد اعتاد استنكار وانتقاد النظام الملكي فيها. ولم يكن الأميركيون مستعدين للتدخل العسكري في الأحداث، على الرغم من أنهم كانوا يخشون سقوط المملكة العربية السعودية أو قيام نظام قومي معادٍ للغرب هناك.

انتهج فيصل سياسة دعم القوى المعادية للمصريين في اليمن، وحاول أن يجرّ الولايات المتحدة إلى جانبه. وعمل في الاتجاه نفسه ملك الأردن حسين.

كان وجود المصريين في اليمن يمثّل جملة من المخاطر والتهديدات على المملكة العربية السعودية. فقد عزز وجودهم هناك النظام الجمهوري الضعيف الذي حوّل اليمن من جار مأمون الجانب إلى عدو للمملكة يدعو إلى إيديولوجية معادية، ويبدي مطامع إقليمية في الأراضي السعودية الحدودية. إن مجرد نجاح الانقلاب العسكري في أحد بلدان الجزيرة العربية ودعمه بتدخل مصري مباشر إنما يمثل سابقة خطيرة بالنسبة إلى العائلة المالكة السعودية. فقد كان في وسع مصر أن تستخدم قاعدتها الجديدة في اليمن الشمالي لتقديم دعم مادي للقوى المعارضة في الجزيرة العربية

بأسرها، وخصوصاً في اليمن الجنوبي وفي العربية السعودية نفسها.

ثم إن القوى الطاردة للمركز، سواء العقائدية المذهبية أو الطائفية الدينية، يمكن أن تنسف حرمة أراضي المملكة ووحدتها بنحو خطر إذا أقدم المصريون على مواجهة مباشرة معها وألحقوا بها هزيمة كبيرة.

في 2 نوفمبر 1962م قصفت الطائرات المصرية 5 قرى سعودية، فيما أطلقت السفن الحربية النار على المنطقة الساحلية.

وفي اليوم ذاته، أبلغ وكيل وزارة الخارجية السعودي السفير الأميركي أن المملكة تقطع علاقاتها مع مصر. وفي اليوم التالي، 3 نوفمبر، أُعلن قطعها رسمياً.

كانت الأضرار التي خلّفها القصف الجوي في حدّها الأدنى، إلا أنها كشفت عن عدم وجود وسائل دفاع جوي ولا طائرات لدى السعوديين للرد والتصدي. و"الحماية" الوحيدة للساحل هي الشعاب المرجانية الكثيرة هناك، فيما لا توجد لدى المصريين خرائط للجرف الساحلي السعودي.

في 10 نوفمبر 1962م التقى السفير باركر هارت الأمير فيصل، واتضح اختلاف تقويمهما للموقف في اليمن. فيصل يعرف أن أكبر القبائل تؤيد الملكيين، فيما يرى السفير الأميركي أن هذا الاعتقاد مجرد أمنية بعيدة عن الواقع. سلّم الأمير الأميركيين بلاغات مسجلة بأجهزة الإنصات للقادة الميدانيين الجمهوريين عن المعارك الضارية وعن المقاومة المتصاعدة من

جانب الملكيين، وفيها يطلب أولئك القادة مؤونة وماءً وبطانيات ومدافع وذخيرة وما إلى ذلك.

في نوفمبر ذاته، ألقى المصريون بالمظلات سلاحاً لأنصارهم ومؤيديهم في داخل المملكة العربية السعودية ذاتها، بما في ذلك طريق جدة - مكة. وراح البدو يبيعون ذلك السلاح بعضهم لبعض، أو يسلمونه إلى الدولة لقاء مكافآت مالية.

وفي 14 نوفمبر 1962م قامت طائرات حربية أميركية بطلعات استعراضية في أجواء المدن السعودية الرئيسة، لكنها لم تقترب من حدود اليمن التي استمر فيها القصف الجوي المصري من دون جواب ولا عقاب.

كتب باركر هارت في مذكراته يقول: إن القيادة السياسية في واشنطن اعتبرت المصالح النفطية الأميركية في المملكة مهمة وحيوية بالنسبة للأمن الأميركي الطويل الأمد. ولم تكن للولايات المتحدة مثل هذه المصالح في اليمن. إلا أن "الحرب الباردة" انسحبت على حوض البحر الأحمر أيضاً. وكان الرئيس كندي يبحث عن نقاط تماس أو التقاء مع جمال عبد الناصر لتكون السياسة الأميركية أقل اعتماداً على الخلافات بين العرب والولايات المتحدة في شأن إسرائيل. وكان في ذهنه أن يطبّق هذه السياسة من خلال تبادل الرسائل مع عبد الناصر بانتظام. فاللهجة المهذبة في العلاقات واستئناف المساعدات الاقتصادية لمصر، بعد توقفها في عهد أيزنهاور، مكسب كبير لعبد

الناصر أو خسارة كبيرة في حال انقطاع التعاون. إلا أن الولايات المتحدة لمّحت لعبد الناصر بلا مواربة أنها لن تسمح لمصر بمحاولة احتلال المملكة العربية السعودية أو شن أي عملية حربية جدية ضدها.

كان فيصل يعرف الأعباء الأساسية للسياسة الأميركية، فعمل بتوازن حذر كتوازن السائر على الحبل. كان يساعد الملكيين في اليمن على المكشوف تقريباً، وخلافاً لوصايا الأميركيين، لثقته بأن الولايات المتحدة لن تسمح لمصر بأن تحتل المملكة العربية السعودية.

وكان البيت الأبيض يعمل في وضع صيغة للفصل بين القوات في اليمن ليعرضها على جمال عبد الناصر وفيصل والملك حسين والسلال. وفكرتها أن تبدأ مصر بسحب قواتها من اليمن بعد وقف المساعدات السعودية إلى الملكيين. إضافة إلى ذلك، أكدت الولايات المتحدة من جديد تصميمها الراسخ على حماية استقلال المملكة العربية السعودية وحرمة أراضيها. وكان على الجمهورية العربية اليمنية أن توقف حملتها الدعائية ضد السعودية وبريطانيا، فيما يتعيّن على مصر أن تضمن تنفيذ الجمهوريين في اليمن التزاماتهم. وفي المقابل يمكن الولايات المتحدة أن تعترف بجمهورية اليمن. كانت مهمة واشنطن هي تفادي المواجهة السافرة بين مصر والمملكة العربية السعودية وتخفيف وتيرة تصعيد النزاع، وخصوصاً من قبل مصر التي هي الجانب الأقوى في المعادلة.

درس فيصل المقترحات الأميركية، وفهم منها أنها لا تتجاوب مع تطلعاته، بل تستجيب لاستراتيجية جمال عبد الناصر، لذا رفضها بطريقته المؤدبة المعتادة. ويبدو أن كندي لم يكن يفهم النوابض العميقة للنزاعات والخلافات العربية - العربية. كان يأمل أن المنطق سيعلو، وستُراعى مصالح أطراف النزاع ومصالح الولايات المتحدة سواء بسواء. إلا أن لتطور الأحداث منطقه المشبع بالعواطف الممزوجة بترسبات "الحرب الباردة".

في 19 ديسمبر 1962م اعترفت الولايات المتحدة بالنظام الجمهوري في اليمن مقابل وعد مصري بسحب القوات منها في حال توقف التدخل السعودي.

كانت خيبة أمل فيصل شديدة للغاية.

فقد فهم أن مساعدة الملكيين ضد الجمهوريين ليست من الحكمة في اعتقاد الولايات المتحدة. ولكن ما هو موقف بريطانيا؟ كان أئمة اليمن يزعجون لندن على الدوام بمطالبتهم بإعادة الأراضي اليمنية الجنوبية التي استولت عليها بريطانيا. وجاء قيام النظام الجمهوري وظهور القوات المصرية في اليمن ليشددا على تلك المطالب، بل ليوفرا قاعدة في المؤخرة للقوى المناهضة لبريطانيا في عدن والمحميات. وكان من شأن هذا الوضع أن يوفر الظروف لتعاون سعودي بريطاني في الشأن اليمني على أساسٍ معادٍ للمصريين. إلا أن العلاقات الدبلوماسية بين لندن والرياض مقطوعة منذ عام 1956م، فيما يلقي النزاع على البريمي بظلاله على

التعاون المحتمل. وبعد وزن الإيجابيات والسلبيات بات فيصل على استعداد لحل وسط يحفظ المصالح الاستراتيجية المشتركة، وكان يرى كيف ينسحب الإنجليز من المستعمرات الواحدة تلو الأخرى، وسينسحبون من عدن أيضاً.

في بداية نوفمبر 1962م أوفد فيصل صهره كمال أدهم إلى لندن ليستطلع أبعاد موقف بريطانيا. وحاول أدهم بكل حذر أن يجس النبض في شأن إمكان استخدام ضباط إنجليز من المحالين رسمياً على التقاعد ليعملوا في المملكة. كذلك بحث مسألة استئناف العلاقات الدبلوماسية من دون حل مشكلة البريمي، ولكن مع الحفاظ على ماء الوجه للطرفين[10].

الا أن المسألة معقدة، لأن لندن لم تكن قد اتخذت موقفاً واضحاً من النزاع اليمني.

بريطانيا امتنعت عن الاعتراف بالجمهورية العربية اليمنية بحجة أن الحكومة الجديدة لا تسيطر على البلاد بأسرها. وعلى أساس معلومات واردة من عدن رفضت وزارة المستعمرات البريطانية الاعتراف بالجمهورية اليمنية، فيما كانت وزارة الخارجية تؤيد الاعتراف بها. وباتت الوايت هول مشلولة والحال هذه.

كانت خيبة أمل فيصل من عدم رغبة الأميركيين في الضغط على جمال عبد الناصر كبيرة. فعمد في يناير 1963م إلى استئناف العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا بعد أن قطعت من زمن العدوان الثلاثي سنة 1956م. أما الخلافات في شأن واحة البريمي فقد

أُرجئت إلى حين من الزمن. كان الإنجليز يشاطرون فيصل خططه الرامية إلى الوقوف في وجه نيّات المصريين لتعزيز مواقعهم في جنوب الجزيرة العربية، فتعاونوا مع السعوديين في تموين الملكيين في اليمن. ووصلت بعثة عسكرية بريطانية إلى السعودية في يونيو 1963م لتدريب الحرس الوطني. وكان فيصل يتذكر نجاحات الفيلق العربي الذي أنشئ في حينه في الأردن بقيادة غلوب باشا والضباط الإنجليز، ولذا كان يأمل بزيادة القدرات القتالية للحرس الوطني السعودي على هذه الصورة. وفي العام ذاته قدم الإنجليز إلى الجيش السعودي طائرات وطيارين وصواريخ "أرض-جو" لمواجهة الغارات الجوية المصرية.

فيصل يعرف أكثر من غيره نقاط ضعف المملكة من الناحية العسكرية. عدد القوات البرية آنذاك كان 15 ألف عنصر ليس بينهم سوى 5 آلاف شخص مدربين على خوض الحروب الحديثة. و"الجيش الأبيض" البدوي، أي الحرس الوطني، فيه 15 ألف عنصر أيضاً. إلا أن أفراده مسلحون بالبنادق فقط ولم يحصلوا حتى على تدريب عسكري حديث.

في الحرس الملكي 2000 عنصر مدربون جيداً، ولكن ينبغي ألا ننسى أن انقلاب اليمن قام به الحرس الشخصي للإمام بالذات.

طائرات سلاح الجوي السعودي القليلة مرابطة على الأرض، فيما أعلن ملاّحو الطائرات التي فرّت إلى مصر أنهم من خصوم النظام الملكي، ولم يبقَ في البلاد سوى

6 طيارين مؤهلين خيّمت عليهم ظلال الريبة والشكوك بسبب فرار تلك الطائرات. وفي 10 نوفمبر 1962م وصلت من الأردن ست طائرات من طراز "هوكر هنتر" الإنجليزية الصنع يقودها طيارون أردنيون. وهي التي ألقت السلاح بالمظلات إلى الملكيين في منطقة مأرب - الجوف اليمنية.

في 5 أكتوبر 1962م وصلت أول مجموعة من الجنود المصريين إلى اليمن. وفي 21 منه تجاوز عدد القوات المصرية هناك ألف عنصر.

وفي يناير 1963م حاول الملكيون الهجوم على صنعاء. أخذت طائرات "إيليوشين" المصرية، السوفياتية الصنع، تقصف المدن السعودية جيزان وخميس مشيط وأبها اعتباراً من أواخر ديسمبر 1962م ووسعت منطقة القصف إلى الشمال من تلك المدن في محاولة لقطع طريق تموين الملكيين اليمنيين.

كان فيصل في الرياض، على الغداء، عندما أبلغه مستشاره رشاد فرعون قصف أبها. همس بالخبر في أذن فيصل وسط عشرات الضيوف، واستوضح منه عن الأوامر التي يريد نقلها إلى وزير الدفاع الأمير سلطان. فأجاب فيصل بهدوء: اجلس لتتغدّى معنا، وواصل الحديث مع أحد شيوخ القبائل عن الأمطار وهل ستهطل أم لا. وبعد الغداء عقد فيصل مجلساً للحاضرين ليتجاذبوا أطراف الحديث ويحتسوا القهوة ثم الشاي ثم القهوة من جديد. وعندما حان موعد

الصلاة كرر رشاد فرعون سؤاله، فألقى عليه فيصل نظرة غامضة وقال بكل هدوء: أبلغ أخي سلطان أن يخبرني إذا ظهر المصريون في ضواحي الرياض. وحتى ذلك الحين لا ينبغي أن يتخذ أي إجراء[11].

فيصل يعرف أن الولايات المتحدة لن تسكت على العدوان السافر من جانب عبد الناصر، فجاء القصف المصري ليكون حجة لمحاولة زعزعة التعاون بين كندي والزعيم المصري، لأن هذا القصف أكد صحة الحجج التي ذكرها فيصل للرئيس الأميركي أثناء مأدبة الغداء في البيت الأبيض. وقد حصل فيصل على وعد رسمي من كندي بضمان الدعم الأميركي التام للحفاظ على سيادة المملكة ووحدة أراضيها. وجعل القصف المصري الرئيس الأميركي يعلن هذا الالتزام على الملأ.

في 3 يناير 1963م أعلن فيصل التعبئة العامة.

وفي 7 منه طرح الشروط السعودية لوقف النزاع، ومنها سحب جميع القوات الأجنبية من اليمن، ووقف المساعدات المباشرة وغير المباشرة لجميع أطراف النزاع، وتوفير الفرصة لليمنيين ليقرروا بأنفسهم نمط الحكم ونوعية الحكومة التي يريدون، على أن يرسم مستقبل اليمن السياسي في استفتاء عام يجري بإشراف لجنة دولية. وأشارت هذه المبادرة السلمية الأولى التي تقدم بها فيصل إلى تسلسل الأهداف السعودية في اليمن، وأولها ضمان انسحاب القوات المصرية وآخرها احتمال عودة الملكيين إلى الحكم.

ظل فيصل يكرر هذه الشروط طوال سنوات الحرب في اليمن، وبدت خطته مطابقة للمقترحات الأميركية، إلا أن الإشكالات، كما هي العادة، تكمن في التفاصيل. فمن الذي يضمن انسحاب القوات المصرية ومتى؟ وبأي شروط تتوقف المساعدات السعودية للملكيين في اليمن؟

في ذلك اليوم نفسه، السابع من يناير، قُرئت من إذاعة مكة رسالة الرئيس كندي إلى الأمير فيصل التي أعرب فيها عن حرصه على سيادة المملكة العربية السعودية وحرمة أراضيها وتطوير البلاد. وكانت تلاوة الرسالة وسيلة فاعلة حذّر فيصل بها جمال عبد الناصر على المكشوف من أن الولايات المتحدة لن تسمح له بالاستيلاء على المملكة. ثم إن فيصل دفع الخارجية الأميركية، على هذه الصورة، إلى نشر الرسائل المتبادلة بينه وبين كندي. ولم يعترض الرئيس الأميركي على نشرها، حتى إنه أعلن مناورات عسكرية مشتركة تزمع الولايات المتحدة إجراءها مع المملكة العربية السعودية في يناير 1963م. وفي الحال، شنّت مصر حملة دعائية شعواء على الولايات المتحدة والسعودية.

وأخذت الطائرات المصرية، السوفياتية الصنع، تقصف المدن السعودية الواقعة على مسافة أبعد فأبعد عن الحدود اليمنية. ففي بداية مارس تعرضت للقصف الجوي خميس مشيط وشهران وأبها وغيرها من مدن ومناطق عسير.

ولم يكن لهذا القصف أي مفعول بالنسبة إلى سير الحرب في اليمن. فجمال عبد الناصر يدرك تماماً مدى إمكانياته. إلا أن عرض العضلات والأنفة والكبرياء شيء لا بأس به في الاستهلاك المحلي والدعاية، ولكن تحدّي الولايات المتحدة في بلد توجد لها فيه مصالح استراتيجية مجازفة مميتة، وليس بوسع عبد الناصر أن يأمل دعم الاتحاد السوفياتي في مغامرات من هذا النوع.

لقد أدى قصف الأراضي السعودية إلى التفاف العائلة المالكة والوجهاء ومعظم السكان حول الأمير فيصل. وكان قد أخذ درساً من خطب عبد الناصر الدعائية. فبعد أسبوعين من إذاعة رسالة كندي، دعا إلى اجتماع جماهيري في الرياض حضره نحو 30 ألف شخص، وألقى فيه خطاباً حماسياً مدوياً. في السابق كان يتجاهل التهجمات الدعائية من إذاعة القاهرة وفي الصحافة المصرية، لكنه انتقل الآن إلى الهجوم المضاد. قال إن بلاده تتعرض للإهانات، وإن قيمها الإسلامية تتعرض للامتهان. ونزل فيصل إلى الجموع التي حيّته بكل إعجاب وأبعدت الحراس عنه، إلا أن كل شيء مرّ بسلام.

ومع تزايد نشاط الملكيين، أخذت تزداد التزامات المصريين وتعداد قواتهم في اليمن. وبدأ أول هجوم مصري كبير في اليمن في فبراير 1963م، وصادف حدوث ذلك في شهر رمضان، بقيادة قائد القوات

المسلحة المصرية عبد الحكيم عامر نفسه. وشارك في الهجوم نحو 20 ألف جندي مصري.

كان دعم فيصل للملكيين سخياً جداً من الناحية المالية، لكنه لم يشمل الأسلحة الثقيلة. فقد تسلم الملكيون أساساً البنادق والقنابل اليدوية والمتفجرات وبعض المدافع الميدانية. وجرى دفع اليمنيين المقيمين في المملكة العربية السعودية للالتحاق بالملكيين رهبة أو رغبة. ورداً على الهجوم المصري في شهر رمضان، زاد السعوديون من مساعدتهم المالية إلى الملكيين ليوزعها هؤلاء على شيوخ القبائل فيكسبوا المزيد من الأنصار. إلا أن الدعم السعودي كان مقتّناً، كي لا يستفز المصريين ولا يدفعهم إلى مهاجمة المملكة مباشرة.

كذلك قاتل في صف الملكيين مرتزقة أجانب. وعلى الرغم من الاعتراف بالنظام الجمهوري في اليمن، احتفظت واشنطن بقناة اتصال مع البدر. كتب المخبر السوفياتي السابق ليف باوسين في كتابه **الدوائر الأمنية العالمية في الشرق الأوسط** يقول:

> كان ميجر الاستخبارات الأميركية بروس كوندي الذي اعتنق الإسلام موجوداً دوماً في مقر الإمام المخلوع في المناطق الشمالية من اليمن.

ويضيف باوسين أن تجنيد المرتزقة للقتال إلى جانب البدر كان من مهمات لجنة خاصة تألفت في الولايات المتحدة برئاسة روبرت كونر الضابط السابق في الاستخبارات الأميركية[12].

في عام 1963م كان لجمال عبد الناصر في اليمن جيش مؤلف من 30 ألف عنصر تقريباً، وهذا أكثر مما تستطيع الرياض أن تعبئه من الجيش والحرس الوطني في حال إعلان الحرب عليها، وكان خطر غزو عسير وارداً. فالجمهوريون اليمنيون طالبوا بإعادتها إليهم زاعمين أن آل سعود استولوا على عسير في الثلاثينيات.

وشاركت الأمم المتحدة في الجهود الرامية إلى نزع فتيل الحرب في اليمن، وأسفرت جهودها عن ظهور خطة "الفصل بين القوات". ففي 30 أبريل 1963م أعلن الأمين العام للأمم المتحدة يوثانت أن مصر والسعودية والجمهورية العربية اليمنية وافقت على خطة سلمية تقضي بسحب جميع القوات الأجنبية في وقت واحد ووقف المساعدات الخارجية لأطراف النزاع وتحديد منطقة منزوعة السلاح عرضها 12 ميلاً على امتداد الحدود اليمنية السعودية. ووافقت المملكة العربية السعودية على وقف المساعدات للملكيين وعدم السماح بوجود قواعد مؤخرتهم في أراضيها، فيما وافقت مصر على سحب قواتها من اليمن. كانت تلك أول محاولة لوقف الحرب في اليمن، وليست الأخيرة.

ولما كانت الأمم المتحدة تفتقر إلى المال، فقد وافق فيصل وعبد الناصر على دفع تكاليف نشاط بعثة لها في اليمن مكوّنة من مئتي عنصر من الكنديين واليوغسلافيين برئاسة الجنرال فون هورن، وكانت مهمتها مراقبة الفصل بين القوات ومتابعته.

في مايو 1963م عاد إلى مصر جزء من قواتها في فخفخة واعتزاز. وتحدث جمال عبد الناصر يومها عن "النصر" في اليمن. إلا أن الاستخبارات المصرية أبلغت أن الجمهوريين لن يصمدوا من دون مساعدة المصريين. ولذا تحول "سحب" القوات المصرية إلى استبدال وتجديد، حيث وصلت وحدات جديدة بدلاً من الوحدات العائدة إلى الوطن. وما كان بوسع بعثة الأمم المتحدة أن تراقب هذه العملية، لأن جميع مراقبيها المئتين كانوا على الحدود اليمنية السعودية. واجه الملكيون صعوبة في الحصول على المساعدات، فيما ظلت الطرق البحرية والجوية لإمدادات المصريين في منأى عن رقابة الأمم المتحدة.

لقد قامت موافقة المصريين على شروط الفصل بين القوات على تصورات القاهرة الخاطئة للموقف في اليمن. وعندما اتضح أن الملكيين لم ينهزموا، أستأنف المصريون عملياتهم الحربية. ففي 28 مايو 1963م أعلن القائد العام المصري في اليمن رسمياً أن قواته لن تغادر البلاد، وأن مهمتها تمدد حتى تُنجز، أي إنها ستبقى في اليمن خمس سنوات أخرى في أقل تقدير.

أما موافقة السعوديين على تلك الشروط فقد كانت إشارةً صريحة على التعاقب في أهدافهم. فلو كان المصريون قد نفذوا نصيبهم من الاتفاق لانتفى الخطر الرئيس على الأمن السعودي. وبسبب غياب الثقة بالمصريين، رضخ فيصل لضغوط الولايات المتحدة التي اشترطت أن يكون قبول السعوديين بخطة الأمم

المتحدة مقدمة لمواصلة المساعدات العسكرية الأميركية للمملكة.

وأعلن فيصل أن الحكومة السعودية تنفذ التزاماتها بصدق وأنها أوقفت مساعداتها للملكيين. ومن المستبعد أن يكون صنبور المساعدات السعودية قد أُغلق بالكامل، إلا أن الإمدادات الحربية والمالية تقلصت كثيراً. ومن جهتهم رفض الملكيون شروط الأمم المتحدة وواصلوا القتال، وفي المقابل أمّن السعوديون رحيل الإمام البدر إلى أوروبا.

لقد أدى الاتفاق مع الأمم المتحدة إلى خلاف خطير بين السعوديين والملكيين. فلما اتضح أن سحب القوات المصرية وليس عودة الإمامة هو الهدف الرئيس للسعوديين، تعقّدت علاقاتهم مع الملكيين. ولم تكن مشاكل المصريين مع الجمهوريين أقل تعقيداً، إن لم نقل أكثر.

في 29 مايو 1963م استقبل فيصل السفير الأميركي هارت وأبلغه أنه استأنف مساعدة الملكيين التي توقفت منذ 28 أبريل، ما دام المصريون يواصلون قصف القرى السعودية ويستبدلون قواتهم بدلاً من أن يسحبوها. فعبرت الحدود من السعودية إلى اليمن في 27 مايو عدة شاحنات محملة بالبنادق. وقال فيصل: كيف أستطيع أن أوضح موقفي للشعب بغير هذه الصورة؟ فسأل السفير: أي شعب؟ فأجاب فيصل: الشعب السعودي. فقال السفير: ولكنْ هناك شعوب أخرى لا بد من أن تؤخذ في الاعتبار. هناك الولايات

المتحدة والأمم المتحدة والعالم كله. استئناف المساعدات للملكيين سيتخذه عبد الناصر حجة لتبرير زعمه بأن الحكومة السعودية لم توقف تلك المساعدات أبداً، وتتوافر للمصريين ذريعة للقيام بعمليات حربية ضد أهداف سعودية. فقال فيصل: فليجرّبوا[13].

لم يكن فيصل يريد الخلاف مع الولايات المتحدة، لكنه يعرف أن عبد الناصر وقع في الفخ وتورط في اليمن، وهو لا يريد أن يخلصه من الورطة من دون ضمانات ثابتة في شأن انسحاب القوات المصرية. أما الفتور البسيط في التعامل مع واشنطن فلن يغيّر طبيعة علاقات الشراكة الاستراتيجية مع الولايات المتحدة.

في 10 يوليو1963م وقف السقاف والسفير الأميركي هارت على سطح مبنى وزارة الخارجية يراقبان تحليق ست مقاتلات من قاذفات القنابل الأميركية في سماء جدة. بهذه الصورة استعرضت الولايات المتحدة ظهور قواتها الجوية المرابطة في الظهران، وأخذت المدمرات الأميركية تمخر مياه البحر الأحمر في زيارات للموانئ السعودية.

وفي 16 يوليو ذاته وصل السفير الأميركي إلى الطائف لمقابلة فيصل، والتقى وزير الدفاع الأمير سلطان صدفة، وأبلغه أن الطائرات الأميركية ستحلّق من جديد في أجواء الطائف بعد بضع دقائق.

لم يكن سلطان يعرف شيئاً عن ذلك، لكنه تمكن من الاتصال بآمر الدفاع الجوي ليحذره من عدم إطلاق

النار على الطائرات "الصديقة". وأثناء المقابلة مع السفير سأله فيصل: كيف سيكون موقف الولايات المتحدة في حال إخفاق الفصل بين القوات إذا لم يسحب عبد الناصر قواته من اليمن، وإذا استأنفت المملكة العربية السعودية مساعداتها للملكيين وتعرضت للهجوم؟ لم يُجب السفير الأميركي عن السؤال[14].

اعتباراً من يوليو 1963م أخذت الطائرات الأميركية تحلق بانتظام في الأجواء السعودية، بما فيها المناطق التي تبعد 160-170 كيلومتراً عن الحدود اليمنية لتشعر المصريين بحضورها، ثم اقتربت التحليقات من الحدود إلى مسافة 60-70 كيلومتراً.

ولم يحصل اشتباك مع المصريين ولا مرة.

في تلك الفترة كان لدى السعودية ستة ملاحين جويين فقط تدربوا بصفة طيارين عسكريين، وهناك ثلاثون آخرون لديهم إعداد عمومي وبوسعهم أن يقودوا طائرات حربية. وكانت الصيانة الفنية للطائرات متردّية، لكنّ الطيّارين السعوديين جريئون بواسل. قال عنهم المدربون الأميركان إنهم طيارون بأعصاب من حديد، لكنّ المملكة العربية السعودية كانت تفتقر إلى الكوادر اللازمة لمواجهة المصريين في الجو وفي البحر.

في 20 أغسطس 1963م استقال الجنرال فون هورن بعد أن تدهورت علاقاته مع مقر الأمم المتحدة. لم تكن لديه وسائط النقل الجوي والبري الكافية، فنشأ عنده اقتناع بأن مهمة الأمم المتحدة في اليمن مكتوب

لها الفشل. وكانت استقالته ضربة للذين علّقوا آمالهم على الأمم المتحدة في التسوية اليمنية. وحلّ محله الجنرال الهندي جاياني، وقد اضطر إلى الاعتراف في 4 سبتمبر بأن بعثة الأمم المتحدة قد أخفقت، واتهم مصر في ذلك، لكنه أعلن، من أجل الموازنة بين الطرفين، أن المملكة العربية السعودية أيضاً لم تنفذ الاتفاق.

فغادر مراقبو الأمم المتحدة اليمن في 4 يناير 1964م.

واستمرت الحرب في اليمن أربع سنوات أخرى.

في نهاية أغسطس 1963م كانت قد وصلت رسالة من الرئيس كندي ناشد فيها فيصل العثور على سبل للانفراج في العلاقة مع جمال عبد الناصر. وأكد فيصل في رسالته الجوابية أن الانفراج يمكن أن يحصل عندما ينسحب عبد الناصر من اليمن. وظلت واشنطن تحاول المرة تلو المرة إقناع فيصل بضرورة الاتفاق مع جمال عبد الناصر، فيما كان فيصل يدافع عن موقفه المرة تلو المرة بأدب ومجاملة، ولكن بعزم وإصرار.

في عام 1963م قام رئيس الجمهورية العربية اليمنية عبد الله السلال بعدة زيارات إلى القاهرة ليتفق في شأن زيادة المساعدات المصرية، واقترح أن تنضم اليمن إلى الجمهورية العربية المتحدة التي لم تعد على قيد الحياة، لكنّ عبد الناصر لم يوافق على هذه المهزلة. كانت جبال المنطقتين الوسطى والشمالية من اليمن في أيدي الملكيين، فيما يحتفظ الجمهوريون والمصريون بالمدن الرئيسة والطرق التي تربط بينها.

وفي 22 نوفمبر 1963م اغتيل كندي.

عام 1963م هو عام صراع الجبابرة: جمال عبد الناصر والأمير فيصل والرئيس كندي. كذلك كان نيكيتا خروشوف، قبل إطاحته، طرفاً في اللعبة الكبرى في الشرق الأوسط.

كان موقف فيصل من عبد الناصر معقداً. فالرجل الذي حظي بإعجابه البالغ في أواسط الخمسينيات بات خصماً لدوداً يمثّل خطراً فتاكاً على المملكة. فقد اصطدمت بوجود الرئيس المصري سياستان: فيصل يريد الاحتفاظ بما ملكت يداه، أي الحفاظ على المملكة، وعبد الناصر يريد توسيع نفوذ مصر. جمال عبد الناصر تحدّى الغرب ليعيد إلى العرب كرامتهم ويحقق تقدمهم، وفيصل سعى إلى التعاون مع الغرب ليحافظ على كرامة شعبه الذي لم يفرّط فيها أبداً، ويحقق تقدم بلاده أيضاً. كلاهما يعارضان هيمنة الغرب على المنطقة، وكلاهما خصمان لإسرائيل، لكنهما افترقا ولم يلتقيا إلا بنكسة 1967م، بهزيمة مصر في الحرب مع إسرائيل.

يقول محمد حسنين هيكل:

> إذا تناولنا شخصية الرجلين فهما في تعارض تام. كان عبد الناصر ثورياً انتفض على النظام، فيما أراد فيصل تعزيز سلطة العائلة المالكة[15].

لن أدخل في جدال مع عميد الصحافة المصرية الموقر. فهو يبسّط الموقف إلى أبعد الحدود، وأنا أريد لهذا الكتاب أن يمكّن القارئ من إعطاء تقويم لرأيه المبتور

هذا. فالكم الهائل من الوقائع التي يعرضها الكتاب يسوق الدليل على أن الهاجس الأساس لفيصل بن عبد العزيز هو المملكة أولاً وآخراً.

وسائل الإعلام الغربية أمعنت في تأييد المملكة العربية السعودية كي تلعب ورقة العداء للسوفيات، وزعمت أن في اليمن نحو ألف مستشار سوفياتي. ونشرت أنباء تقول إن المصريين كأنما استخدموا الغازات السامة. حتى إن صبياً في التاسعة من العمر نقل إلى لندن مصاباً بالتسمم. وبعد 6 أسابيع من الفحوص والدراسات لم يتمكن الأطباء من الجزم بأن الصبي تسمم بتلك الغازات. وعلى حدّ علم المؤلف، فإن الاتحاد السوفياتي لم يزوّد أحداً بالسلاح الكيميائي أبداً، لكنّ كل الوسائل، كما هو معروف، كانت صالحة على الصعيد الدعائي "للحرب الباردة".

في يناير 1964م التأمت القمة العربية في القاهرة، وجاء عقدها رسمياً بسبب مخططات إسرائيل لتحويل مجرى نهر الأردن، وحضرها فيصل مع الملك سعود.

الفصل الثالث عشر

الطريق إلى العرش بالتوافق

كان الملك سعود في سبتمبر 1963م يعالج قرحة الاثني عشري في فيينا. يومها بلغت فاتورة حساب الإقامة في الفندق 4 ملايين دولار. وهناك زار سعوداً عددٌ من إخوانه غير الراغبين في خلاف جديد بينه وبين فيصل عندما يعود إلى الوطن بعد العلاج. وقد طلبوا من الملك أن يقطع لهم عهداً بألا يتدخل في شؤون الدولة وأن يعيش على الاعتمادات المالية المخصصة له.

وافق الملك، لكنه سرعان ما امتنع بعد عودته إلى الرياض عن التصديق على الميزانية التي رفعها له فيصل. وعندها أقرّ فيصل الميزانية بنفسه من دون موافقة أخيه، وذلك انطلاقاً من الصلاحيات المخوّلة له كرئيس لمجلس الوزراء.

ثم بدأ سعود جولة في البلاد ليجمع كلمة مؤازريه. كان متحيّراً مرتبكاً لضياع مراكز النفوذ، ينشد العون لدى شيوخ القبائل والتجار والعلماء وحتى الناصريين. وعندما يئس من تأييد أمراء آل سعود، أخذ يتجاهل رأي العائلة المالكة، فاستعداها عليه أكثر ودفعها إلى الوقوف ضده.

خالف القاعدة التقليدية الثابتة التي يتقيّد بها آل سعود ويرفضون بموجبها دعوة أي كان من خارج الأسرة لحل مشاكلهم الداخلية.

كان لدى الملك سعود عدد غير قليل من المؤيدين في المنطقة الشرقية، فيما كان كل أهالي الحجاز يؤيدون ولي العهد من دون قيد أو شرط. ولذا عندما أصدر الأمير فيصل في نوفمبر 1963م أمراً إلى السلطات المحلية في الحجاز بأن تخفض مستوى مراسم الاستقبال التي اعتادها الملك هناك أيّده في ذلك إخوته وأعيان المنطقة.

كان سعود في الطائف، فعرف أن أقواس النصر في جدة ومكة والمدينة لم تنصب لاستقباله، فاعتبر ذلك إهانة له وقطع جولته رأساً. من الناحية الشكلية كانت أسباب عدم إقامة أقواس النصر اقتصادية لغرض ترشيد الصرف في ظروف التعبئة الوطنية، لكن ذلك كان ضربة موجعة لمكانة الملك وسمعته. فماذا يبقى للملك إذا حرم من الفخفخة ومراسم التكريم كرئيس للسلطة التنفيذية؟

أخذت صحة سعود تتردى، وبات يعاني من الرمد والبدانة والآلام المتواصلة في المعدة. كان في حدود الستين من العمر، ولكن مظهره كمن في الخامسة والسبعين، بل حتى الثمانين. هذا الرجل الذي كان في حينه مرحاً مستبشراً بالحياة بات اليوم عرضة للوساوس والاكتئاب، يعتمد أكثر فأكثر على أولاده ومستشاريه.

انتقل سعود من الطائف إلى حائل على أمل كسب ودّ قبائل الشمال، إلا أنه هناك أيضاً قوبل ببرودة وبمجاملة متكلفة، على الرغم من أن حاكم حائل عبد العزيز بن مساعد بن جلوي كان صديقه.

في ديسمبر 1963م اعتكف الملك بين جدران قصر "الناصرية" في الرياض، ونشر حول القصر 1500 جندي من الحرس الملكي مسلحين بالبنادق الأوتوماتيكية والرشاشات، على الرغم من أن الحرس الوطني بقيادة الأمير عبد الله بن عبد العزيز وضع اليد على مشاجب سلاح الحرس الملكي.

وفي 15-16 ديسمبر استدعى سعود جميع أبنائه، حتى الذين كانوا في الخارج. عادوا جواً واستقلوا سياراتهم من المطار على عجل باتجاه قصر الوالد وأسنانهم مصطكة غضباً. لم يقف أحد في وجوههم. الجميع كانوا يريدون عودة سعود إلى السلطة. ولكن كيف؟... ولم يتردد أحد من إخوان سعود على قصر الملك تقريباً.

بعث سعود برسالة إلى فيصل يطالبه بالاستقالة من منصب رئيس الوزراء أو البقاء في رئاسة الحكومة بشرط أن يقصي عنها فهد أو سلطان، إلا أن فيصل رفض الطلب وحاول أن يلتقي أخاه سعود، لكن الأخير امتنع. ظل فيصل محافظاً على هدوئه، حتى إنه أبلغ والدة الملك العجوز أنه لا يضمر سوءاً لابنها وقال: لو ذكر سعود أسماء الأشخاص الذين كأنما يدبرون مؤامرة ضده لعالج، هو فيصل، أمرهم.

كان جانب فيصل هو الأقوى. وقد أعلن الأمير سلطان النفير في القوات المسلحة، فيما أعلنه الأمير عبد الله، أخو فيصل غير الشقيق، في الحرس الوطني. وفي الأسبوع الأخير من ديسمبر 1963م، عندما خيّم التوتر في الأجواء، خُيّل للعارفين بالأمور أن الحرب الأهلية توشك أن تندلع. فإن أدنى خطوة غير حذرة يمكن أن تسبب إطلاق النار. لكن الوضع في العاصمة بدا هادئاً حسب الظاهر.

ولي العهد يتوجه عادة إلى مكتبه مروراً بأسوار "الناصرية" التي يحرسها جنود مسلحون من الحرس الملكي. لم يلتفت إليهم فيصل. وعندما لفت مرافقوه انتباهه إليهم قال بابتسامة متعبة: لاحظت أناساً أكثر من المعتاد جاؤوا ليرحّبوا بي[1]!

ذات مرة توقف الأمير ونزل من السيارة إلى الطريق المترب واقترب من الجنود وسألهم: "هل لديكم كفاية من الطعام والشراب؟ أنتم هنا من زمان. سأبعث إليكم قهوة"[2]. وقد يكون فيصل قال لهم شيئاً آخر غير ذلك، إلا أن الألسن أخذت تتناقل هذه الالتفاتة التي جعلت حتى جنود الحرس الملكي يميلون إليه. وبعد ذلك أخذوا يرفعون أيديهم بالتحية كلما مرّ أمام قصر "الناصرية".

كان فيصل حسب الظاهر من دون حماية، يتحدى المخاطر من دون خوف أو وجل. لكن الجميع بالمطلق يعرفون أنه لا ينوي إطاحة الملك ولم يشارك في أي

دسيسة ضده. أما التنكيل بفيصل فيعني الحكم بالموت على سعود نفسه.

المفتي العام الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، قريب فيصل عائلياً، التقى الملك سعود لتحقيق المصالحة. اشتكى له سعود من أن المؤامرات تُحاك ضده وأنه يتعرض لسوء المعاملة ويُمنع حتى من مقابلة شعبه. ولذا فهو، وفقاً للشريعة، ملزم بالدفاع عن النفس، ولذلك استدعى الحرس الملكي لهذا الغرض. إلا أن المفتي العام حذر الملك من أنه إذا قام بعمل يقود إلى إراقة الدماء فإن العلماء سيعيدون النظر في قسم الولاء له.

وفهم سعود أنه فقد تأييد العلماء.

بعد ذلك سُحب الحرس الملكي من الأسوار الخارجية للقصر، وقد بدأ التذمر بين أفراده أيضاً، وذلك لأنهم قضوا خمسة أيام في حالة التأهب التام من دون ذخيرة في الواقع، وما كانوا راغبين في إراقة الدماء.

لاحظ كاتب السطور أن الأمراء من عائلة آل سعود لا يحبون عموماً تذكّر تاريخ العلاقة بين سعود وفيصل. ولعلهم لا يريدون أن ينكأوا جراح الماضي. الجميع يكتفون بأكبر قدر من الإطراء لفيصل ويفضّلون ألا يذكروا سعود بسوء. فهو على أي حال ملك وأخ وعمّ لهم، وهم محقون طبعاً في القول إن ضبط النفس وبسالة فيصل أمّنا خاتمة هذه المواجهة من دون إراقة دماء.

تراجع سعود وتنازل، فيما احتفظ فيصل بالسيطرة التامة على الحكومة، لكنه اتخذ التدابير الكفيلة بإعادة شيء من السمعة الدولية لأخيه على الأقل.

آنذاك ظل جمال عبد الناصر الشخصية الريادية الأولى على صعيد السياسة العربية، إلا أنه لم يتمكن من إنجاح المفاوضات المصرية السورية العراقية بشأن الوحدة، فيما ظل النصر في اليمن أمنية بعيدة المنال. وفي مطلع 1964م عزم عبد الناصر على استئناف الحوار مع المملكة العربية السعودية، فدعا الملوك والرؤساء العرب إلى القاهرة في يناير من ذلك العام لوضع التدابير الرامية إلى منع إسرائيل من تحويل مجرى نهر الأردن، كذلك نوقشت قضايا أخرى. وجاء عقد القمة في القاهرة ليكون بحد ذاته دليلاً على زعامة مصر في العالم العربي.

وافق فيصل على أن يمثّل أخوه سعود المملكة العربية السعودية فيها. وكان حضور سعود مع فيصل إشارة إلى وحدة الأسرة المالكة. لكنّ عبد الناصر عندما قدم آيات التكريم للملك سعود، رفع قيمته في نظره شخصياً، وبذلك دقّ إسفيناً في العلاقة بين الأخوين.

وأدّت محادثات سعود مع عبد الناصر إلى استئناف العلاقات الدبلوماسية السعودية المصرية، وتقرر إرسال بعثة سلام عراقية جزائرية لبدء المفاوضات بشأن اليمن، والتزم فيصل المستاء من مبادرة سعود موقفاً متشدداً أثناء اللقاء مع الوفد العراقي الجزائري

المشترك، وكذلك مع المسؤولين المصريين، فلم يتوصل اللقاء إلى نتيجة.

أما في داخل المملكة فقد ظلت مواقع فيصل تتقوّى وتتعزز. كان جميع "الأمراء الأحرار"، ما عدا طلال، قد عادوا إلى الوطن من القاهرة. وحتى طلال نفسه عاد إلى الرياض نادماً في فبراير 1964م، وأعلن أنه فهم غلطته التي لا تغتفر. لقد اختلف طلال مع عبد الناصر بعد أن أدرك أنهم استخدموه كألعوبة. وكانت معظم أملاكه موجودة في المملكة، فعندما خسر الجولة في السياسة حاول أن يستعيد أملاكه على الأقل[3].

يبدو أن سعود أُعجِبَ بالدور الذي أدّاه في القمة العربية كرئيس دولة وملك كامل الحقوق، إلا أنه في بلاده فقد موقعه السياسي. صحيح أن البعض طرحوا فكرة اعتبار سعود إماماً وفيصل ملكاً ورئيساً للسلطة التنفيذية، ذلك أن والدهما عبد العزيز عمل على هذه الصورة بالتعاون مع والده الإمام عبد الرحمن، غير أن الوئام التام كان قائماً بين الأب وابنه آنذاك. عبد الرحمن نفسه تنازل عن الدور القيادي لمصلحة ابنه، وليس هناك ما يشبه هذه العلاقات بين سعود وفيصل.

في منتصف فبراير 1964م طالب سعود بضم بعض أبنائه إلى الحكومة وتعيين بعض الوزراء حسب اختياره، كما طالب بزيادة ميزانيته الشخصية.

التقى أفراد الأسرة بالملك سعود. شارك في المحادثات معه الأمير سعود بن جلوي حاكم المنطقة الشرقية وابن عمه عبد العزيز بن مساعد بن جلوي أمير

حائل وعبد الله بن عبد الرحمن عم الملك. كانت وساطة الأميرين من آل جلوي نافعة للغاية. فهما من أصدقاء سعود القدماء، وكانا يدركان أن الملك يضعف مواقع الأسرة، فناشداه أن ينزل عند رغبة الأمراء والعلماء.

وفي الليل سيطرت قيادة الجيش على الحرس الملكي ووزعت عناصره الـ800 على مختلف الوحدات العسكرية، وحلّ محلهم 200 شخص بصفة حرس ملكي جديد ارتدوا قبعات أخرى وبزات زرقاء، وصاروا يمثّلون حرس التشريفات للملك سعود.

ترك أفراد الحرس الملكي قصر "الناصرية"، وظل سعود في القصر مع مئة من أفراد الأسرة والخدم وجماعة صغيرة من الحرس الشخصي مطوّقين بالجيش النظامي الذي يقوده الأمير سلطان.

في 13 مارس 1964م بعث سعود برسالة أخرى إلى فيصل يطالب فيها باستعادة صلاحياته الملكية كاملة غير منقوصة، فلم يستجب فيصل للطلب.

وفي 24 مارس قام الملك بآخر محاولة متشنجة لزرع الانقسام بين أنصار فيصل، فطالب باستقالة مجلس الوزراء وتأليف حكومة جديدة من المهندسين والتكنوقراط برئاسة فيصل نفسه. التقى الأمراء الأكبر سناً والعلماء وكبار شيوخ القبائل بفيصل واستمعوا إلى قصة خلافه مع سعود. وبعد ذلك طلب منهم فيصل أن يفكروا في ما ينبغي القيام به وانصرف. استمر مجلسهم ست ساعات وقرروا أن يطالب ولي العهد أخاه

الملك بأن يتنازل عن العرش، لكنّ فيصل رفض أن يعتلي العرش بهذه الطريقة، وأصرّ على بقاء سعود ملكاً، وعلى تقليص نفقاته المفرطة.

في حدود الساعة الرابعة من بعد ظهر السادس والعشرين من مارس توجّه العلماء من أهل الحل والعقد إلى قصر "الناصرية"، وطلبوا من الملك أن يتخلى عن السلطة، لكنّه أصرّ على موقفه.

ولكن بعد مغيب الشمس، وربما بعد زيارة أخرى للملك، جاء أهل الحل والعقد إلى فيصل وأبلغوه أن سعود وافق على عدم ممارسة شؤون الدولة بشرط أن يبقى ملكاً ولا أحد يتعرض لمخصصاته الشخصية. فقال فيصل: الملك يعرف أنني موجود هنا لأدافع عنه وعن إخوته. وأنا سعيد لأنكم حصلتم على دليل قاطع على أنه مهتم فقط بـ ... أشكر لكم جهودكم[4].

وفي 27 مارس شهد الموقف انفراجاً. ففي الساعة الرابعة مساءً زار أفراد العائلة المالكة وأهل الحل والعقد الملك فوافق على توقيع بيان يتنازل فيه عن السلطة لمصلحة فيصل.

وفي اليوم التالي غادر الملك مع أبنائه وحراسه العاصمة في موكب سيارات الجيب وهي تزمر، ومضى لزيارة والدته وزوجاته اللواتي تمّ إخلاؤهن من الرياض.

أثناء أزمة ديسمبر، أشركت العائلة المالكة أهل الحل والعقد في حلها، وأيّد العلماء فيصل آنذاك. أما هذه المرة فقد أصرّ الأمراء على أن يصدر العلماء فتوى يشرّعون فيها سلطة فيصل على أساس دائم ويحوّلوا

سعود إلى رئيس "دستوري" للدولة ليس في مقدوره أن يغيّر الأوضاع وحده.

ويعود الفضل في توحيد العائلة المالكة من أجل بلوغ هذا الهدف إلى محمد بن عبد العزيز بالذات. وتمكن عبد الله ومساعد، وكلاهما من أبناء الإمام عبد الرحمن ومن أعمام الملك سعود وولي العهد فيصل، أن يقنعا العلماء، وإن بصعوبة، بضرورة إصدار هذه الفتوى.

فقد كان من الصعب إقناع العلماء بتجريد الملك سعود من جميع صلاحياته نهائياً، إذ إن ذلك أمر لا يطابق تقاليد الجزيرة أبداً. لكنّ المخاوف من إراقة الدماء وانتشار الفوضى هي التي دفعت العلماء إلى القيام بهذه الخطوة.

ذكر المستعرب رونالد ميتس، ممثل أرامكو السياسي في الرياض، أن الفتوى أصدرها اثنا عشر من العلماء الكبار، بينهم أربعة من آل الشيخ. وأعدّ نص الفتوى محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، وعمر بن حسن آل الشيخ رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نجد والأحساء والمحافظات الشمالية، وعبد الملك بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رئيس الهيئة العامة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ نائب مدير إدارة المعاهد والكليات. وكان اثنان منهم مسؤولين في الهيئة المذكورة، والعضو الخامس في هذه المجموعة هو عبد العزيز بن باز نائب رئيس الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة والمعروف بآرائه المعادية للأجانب. أما

العلماء الأربعة من آل الشيخ فهم من أخوال فيصل ومعارفه الشخصيين، رغم أن القرابة من جهة الأم تعتبر ثانوية.

وفي 29 مارس 1964م صدرت فتوى العلماء وجاء فيها:

> بناءً على الخلافات القائمة فيما بين جلالة الملك سعود وأخيه سمو الأمير فيصل... وبالنظر إلى توسع هذه الخلافات في الآونة الأخيرة حتى كادت تقع بسببها فتنة وفوضى في البلاد لا يعلم مدى أضرارها ومفاسدها إلا الله عز وجل، وحيث إنه لا بد من النظر في وضع حل حاسم لهذه الخلافات والمنازعات التي تتجدد من حين إلى آخر... فقد قررنا نحن الموقعين أدناه بناءً على ما تقتضيه المصلحة العامة ما يلي:
>
> أولاً- أن يكون جلالة الملك سعود ملكاً على البلاد، له حق الاحترام والإجلال.
>
> ثانياً- أن يقوم سموّ الأمير فيصل، ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء، بتصريف جميع شؤون الدولة الداخلية والخارجية، في حضور الملك وغيبته، من دون الرجوع إلى الملك في ذلك[5].

وفي اليوم التالي اجتمع 72 أميراً عند محمد بن عبد العزيز في القصر الأبيض الكبير في أعلى الهضبة التي

في جوار وادي حنيفة جنوب غرب الرياض (وكانت في بداية الستينيات لا تزال بلدة مترامية الأطراف بمنازل من الطين الوردي)، وبين هؤلاء الأمراء إخوة وأبناء عبد العزيز وأولادهم الكبار وأبناء أعمامهم وعدد من أبناء آل جلوي وعلى رأسهم ابن مساعد العجوز الذي دحر في حينه عزيِّز بن فيصل الدويش (نجل زعيم الإخوان) أثناء تمردهم وكان حاكماً لحائل والمناطق الشمالية. بعض الحاضرين كهول وشيوخ، فيما كان بعض أحفاد عبد العزيز في العشرين من العمر. وهم يمثلون كل فروع عائلة آل سعود ما عدا أبناء الملك سعود وبعض أحفاد العرايف المؤيدين له. وسمّي اجتماعهم مجلس أهل الحل والعقد. ويعني هذا المصطلح السياسي والحقوقي التقليدي في الشريعة الإسلامية مجلساً مؤقتاً للمخوّلين حق حل الخلافات.

كان أفراد العائلة السعودية المالكة يلتقون دوماً ويتحدثون في ما بينهم، وكل فرع من فروع العائلة له مجالسه الخاصة التي تجسد مستوى نفوذ أفراده والقضايا التي يبحثها. وكانت الآراء والمقترحات التي تطرح في هذه المجالس ترفع في ما بعد إلى الملك وولي العهد، ولم يكن هناك أي "برلمان" عائلي رسمي. أما مجلس أهل الحل والعقد فقد التأم لأن الجميع كانوا يخشون الاضطرابات والفوضى في البلاد.

كان الأمراء حذرين تماماً، فلم يعلنوا قرار مجلسهم إلا بعد أن أصدر العلماء فتواهم في 30 مارس 1964م، وما فعله المجتمعون في مجلس أهل الحل والعقد جاء

كأنه تأييد للفتوى لا غير. بهذه الطريقة جرى الحفاظ على الشرعية رسمياً.

وفي اليوم ذاته قرر مجلس الوزراء برئاسة نائب رئيس الوزراء خالد بن عبد العزيز ما يأتي:

> أولاً: مع بقاء صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز ملكاً للبلاد تُناط جميع المسؤوليات والصلاحيات التنظيمية والتنفيذية والإدارية والقضائية التي يتمتع بها جلالته طبقاً لأحكام الشريعة الغراء والأنظمة المرعية في البلاد بصاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز ولي العهد ونائب جلالة الملك، ويُعتبر سموّه المسؤول الوحيد عن القيام بجميع تلك الصلاحيات والمسؤوليات.
>
> ثانياً: كافة الأحكام الشرعية والنظامية التي تنيط صلاحيةً بصاحب الجلالة الملك بوصفه رئيساً للدولة وقائداً أعلى للقوات المسلحة تُعتبر بحكم هذا القرار مناطة بصاحب السمو الأمير فيصل نائب جلالة الملك...[6]

وتوافد إلى الرياض شيوخ القبائل ليعلنوا البيعة لفيصل، وجاء إليه أبناء سعود السبعة وقبّلوا يده وطلبوا الصفح والعفو.

عاد الأمير سعود بن جلوي من الرياض إلى الدمام ليهدّئ من روع مديري أرامكو، وقال لهم إن خلافاً عائلياً بسيطاً حصل ولا موجب لإثارة الضجة من لا شيء.

كانت إدارة أرامكو تخشى إراقة الدماء، فسحبت من البادية، تحوّطاً للطوارئ، كل بعثاتها الجيولوجية. ولم تكتفِ بذلك، بل أبرقت إلى واشنطن بأن الموقف قد يستدعي إرسال قوات أميركية لحماية الظهران. لقد جرت الأحداث في الرياض من دون تدخل الأميركيين، إلا أن رهان الولايات المتحدة على المملكة العربية السعودية كبير جداً ولا بد أن يجعل واشنطن تهيّئ صيغاً احتياطية للعمل في حال حصول تهديد لمصالحها.

بعث فيصل برسالة إلى توم بارجر، رئيس شركة أرامكو آنذاك، يطمئنه فيها إلى أن الخلاف بينه وبين الملك تمت تسويته.

وكان رونالد ميتس، أحد مسؤولي أرامكو، قد زار فيصل في مساء 28 مارس 1964م فوجده في أفضل حال. وقال له الأمير إن المسألة كانت صعبة، لكن كل الأمور حالياً على ما يرام[7].

وكتب محلّلو أرامكو:

> إن الحملة الدعائية المسعورة الفظة التي شنّها عبد الناصر على العائلة المالكة، بمن فيها الملك نفسه، وفرار طلال وإخوته في ما بعد، هزّت العائلة من الجذور. فأخذ النشطاء

من أفرادها يلتقون ويتفقون في ما بينهم على إسناد بعضهم البعض وممارسة الضغط على الملك وتنظيم أمورهم.

وجاء في تحليل أرامكو هذا: "إن وحدة العائلة طوال أزمة مارس 1964م كانت وهمية". وقد وجد الأمراء والعلماء في فيصل زعيماً ذكياً بعيد النظر

إلا أن وحدة الأهداف التي جعلتهم يلتفون حوله ليست مضمونة مستقبلاً. ففي الواقع لوحظ نشوء تكتلات متنافسة فيما بينها على السلطة الكبرى، الأمر الذي يمكن أن يقود إلى صراع مرير ينذر بعواقب خطيرة وتدميرية محتملة[8].

كان المسؤولون في أرامكو مطّلعين على الوضع أفضل من وزارة الخارجية الأميركية أو وكالة الاستخبارات المركزية، لكنهم أخطأوا التقدير هذه المرة. فقد أفلح فيصل في رصّ صفوف العائلة وأنشأ آلية للكوابح والتوازن وانتقال السلطة أمّنت الاستقرار في المملكة لخمسين عاماً أخرى.

وعندما أبقى فيصل لأخيه سعود لقب ملك بلا سلطة ظل وفياً لما عاهد به والده عبد العزيز.

وكي لا تنشأ أيّ مقدمات لمواجهة مسلحة في المستقبل، أحال فيصل الحرس الملكي على وزارة الدفاع وأمر بمحاكمة أي عنصر يخالف هذا الأمر. أما حراس الملك الشخصيّون فقد باتوا خاضعين لوزارة الداخلية والحرس الوطني، ولكن الأمر صدر لهم بأن

يواصلوا الخدمة كحرس شخصي للملك سعود. وعُيّن مستشارو الملك على ملاك الجهاز الحكومي، وأمر فيصل وزير المال بإعادة النظر في مبلغ الاعتمادات الشخصية للملك سعود، وتقرر ألا تتجاوز مخصصاته ما يعادل 40 مليون دولار سنوياً.

في 22 أغسطس 1964م أغلقت الحكومة كل قصور الملك سعود لجرد ممتلكاته. أُقفلت أبوابها وختمت وقطعت الكهرباء عنها، وصدر توجيه إلى القائمين على خدمتها بأن يبحثوا لأنفسهم عن عمل آخر، وظل تحت تصرف الملك قصره في الرياض فقط.

في سبتمبر من العام ذاته حضر ولي العهد مؤتمر رؤساء وملوك الدول العربية في الإسكندرية بصفته الحاكم الفعلي للمملكة العربية السعودية.

وقبل ذلك، في يونيو، أُلقي القبض على جماعة من الشيوعيين وغيرهم من المعارضين، الناصريين على ما يبدو، في المملكة، ووجّهت إلى أولئك وهؤلاء تهمة التجسس لدولة أجنبية. وأعلنت وزارة الداخلية أنها ستتعامل بقبضة من حديد مع كل من يروّج "للمبادئ الهدامة"، وأبدى فيصل تصميمه على تعزيز السلطة بأشد السبل.

بدا الأمر كأن العلاقة بين فيصل وسعود وضعت في أطر ترضي ولي العهد والنخبة السياسية السعودية بكاملها، إلا أن الملك سعود لم يتحمّل ذلك.

وألحّ سعود على العلماء في أن يعيدوا النظر في فتواهم، ما حمل العائلة المالكة، والعلماء، على اتخاذ

القرار الذي عارضه فيصل بإصرار طوال كل هذه السنين. فإذا كانت السلطة الكاملة تعود للملك، فلا بد أن يتميز الحاكم الذي يمتلك تلك السلطة بالحكمة وبعد النظر والصلابة.

عندما عاد فيصل من القاهرة إلى جدة في أوائل خريف 1964م علم أن أنصاره أجروا محادثات متوترة مع الملك لإقناعه بالتنازل عن العرش. فقال في معرض تقييمه لتصرفات أخيه: أُعالج جرحاً فينفتق جرح آخر[9]. وفي 24 أكتوبر غادر فيصل جدة متوجهاً إلى الرياض عن طريق البر من دون استعجال، تاركاً الأحداث تتطور من دون أن يتدخل فيها. عاد الأمراء إلى العاصمة بعد لقائهم معه في جدة لينهوا المهمة ويضعوا فيصل أمام الأمر الواقع.

عندما كان الأمراء والعلماء مجتمعين للتشاور في الرياض، سلك فيصل الطريق من جدة إلى العاصمة وطوله 1300 كيلومتر على مهل ومن دون تسرع. فالتقى وجهاء القبائل وأوضح لهم الموقف، مثلما فعل والده عبد العزيز في حينه، وحدثهم عن خططه ومشاريعه وعن خلافه مع الملك سعود، ووزع عليهم الهدايا. وكان واضحاً له أن القبائل تقف إلى جانبه.

كانت الرياض هادئة، لأن الجميع مهيّأون نفسياً للتغييرات.

عبد الله بن عبد الرحمن، عم الأمير فيصل وصديقه منذ الطفولة، بحث قضية خلع الملك مع أبرز الشيوخ

والعلماء، وفهم أنهم يشاطرونه فكرته، فيما كان هو يؤدي الدور الرئيس في المفاوضات مع سعود أيضاً.

وفي 29 أكتوبر 1964م اجتمع نحو مئة من كبار الأمراء والعلماء في فندق "الصحراء" أو "صحارى بلاس" قرب مطار الرياض. في الزمن الحاضر، هذا الفندق مُحاط بالفيلات والمباني العالية الكثيرة. أما في تلك الفترة فكان عبارة عن بناية مربعة بلون المغرة تنتصب وحيدة في الصحراء.

وقبل ذلك بقليل التقى كبار الأمراء في منزل خالد بن عبد العزيز، الأخ غير الشقيق للأمير فيصل وصديقه الحميم، وقرروا إرغام سعود على التخلي عن العرش. وكان كبار العلماء أيضاً مستعدين لتنصيب فيصل ملكاً على البلاد.

وقد أعدّ العلماء الفتوى اللازمة، فيما توجه وفد الأمراء وأهل الحل والعقد لمقابلة الأمير فيصل.

كتب دوغوري في وصف هذا اللقاء يقول:

> عرف فيصل بنبأ الفتوى مساء 29 أكتوبر أثناء التقائه بشيوخ القبائل. وبعد أن قرأ نص الفتوى أذّن المؤذن داعياً إلى صلاة العصر، فمضى فيصل ليصلي من دون أن ينبس ببنت شفة. وعاد بعد الصلاة صامتاً أيضاً، إلى أن طالبه رسل الأمراء والعلماء بالجواب. فقال: انتظروا الجواب حتى صلاة المغرب. وعندما حان الموعد طالبوه بالجواب من جديد. فقال: من حقي أن

أسألكم كيف تنوون تنفيذ قراركم. فأجابوه: نعلن أنك أنت الملك. فسأل فيصل في شبه ابتسامة: وماذا بشأن الملك الحالي؟ فلم يجيبوا عن السؤال. فواصل فيصل كلامه: نحن في بيت عبد العزيز لا نسقط ملكاً إلا بعد فشل كل محاولات الإقناع، فهل استنفدتم كل إمكانيات الإقناع؟ فهتف أعضاء الوفد: والله أنت ملك حقيقي[10].

عاد الوفد إلى الرياض ومضى إلى قصر "الناصرية" لإقناع الملك بالتنازل عن العرش. وقالوا له إن بوسعه أن يختار أي طريقة يرغب فيها للتخلي عن الحكم. حدثوه عن موقف فيصل الرافض للخلع، وحذروه قبل أن ينصرفوا بأنهم يأملون تسلّم الجواب بحلول صباح الثاني من نوفمبر. فإذا امتنع عن التنازل فإن الأمراء والعلماء سينفذون قرارهم بحقه.

آنذاك وصل فيصل إلى الخرج التي تبعد 70 كيلومتراً عن الرياض، واستقبل هنا وفداً حدثه عمّا جرى أثناء اللقاء مع الملك، فطلب منهم أن يواصلوا محاولات إقناع أخيه وتحذيره، لأنه هو، فيصل، لا يريد القيام بأي خطوة تسيء إلى سمعة آل سعود والعرش السعودي، اللهم إلا إذا تعرضا فعلاً لخطر عظيم. وأصرّ أعضاء الوفد على أن مهمتهم انتهت، وبات على الأمراء وفيصل نفسه أن ينفذوا الفتوى.

في 31 أكتوبر التقى كبار الأمراء الملك سعود من جديد، ولكن من دون جدوى. وفي اليوم ذاته وصل

فيصل إلى الرياض.

استدعى فيصل أخاه خالد، نائب رئيس الوزراء، إلى القصر وبحث معه ومع باقي الأمراء خطة العمل اللاحق. ظل الموقف على حاله في 1 نوفمبر.

كان الجميع يدركون ضرورة وضع حدّ لازدواجية السلطة بنحو حازم. "حرام أن نضحي بالبلاد". في مثل هذه العبارة يكمن منطق تصرفاتهم[11].

وفي الجلسة المشتركة لمجلس الوزراء ومجلس الشورى برئاسة خالد بن عبد العزيز قرر الحاضرون بالإجماع مبايعة فيصل بالمُلك والإمامة.

كتب منير العجلاني يقول:

> حمل قرار مجلسي الوزراء والشورى إلى فيصل، في حضور عدد من أكابر العلماء والأمراء، فوقف المفتي الأكبر للمملكة ورئيس قضاتها معلناً البيعة لجلالة الملك فيصل باتفاق رجال الحل والعقد ومن ورائهم الشعب كله. قال سماحته موجهاً الخطاب إلى فيصل:
>
> بسم الله الرحمن الرحيم
>
> الحمد لله رب العالمين وصلى الله على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وبعد، فقد حصل الاتفاق والإجماع من أمراء سائر العائلة المكرمة السعودية ومن طلبة العلم على خلع سعود بن عبد العزيز، والآن هو مخلوع، وسيبايع فيصل الآن، نسأله تعالى

أن يوفق فيصل لما يحبه، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير، وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

ثم تقدم سماحته فبايع جلالة الملك المعظم قائلاً:

لقد بايعتك على كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى إقامة العدل والإنصاف والقيام بأمور الإمامة وأداء حقوقها، المعروفة والمعلومة، وفقك الله لما يحبه ويرضاه.

فأجاب صاحب الجلالة:

وأنا من جانبي أبايعكم على اتباع كتاب الله وسنّة رسوله وتحكيم الشريعة، وأن أكون خادماً للشرع في جميع الأمور، وأن أسعى بكل ما في إمكاني لحفظ كيان هذا البلد وخدمة مواطنيه فيما يصلح دينهم ودنياهم [...].

وتوالى الحاضرون من الأمراء والوزراء والعلماء والأعيان بمبايعة جلالته.

ويضيف منير العجلاني:

وقد أذاع جلالته على أثر قبوله البيعة بياناً على الشعب ألقاه بنفسه في الراديو. قال جلالته:

"إخواني وأبناء وطني،

نحمد الله إليكم ونستعينه ونستغفره ونسلم على نبيه محمد هادي البشرية ومنقذ الإنسانية ونسأله تعالى لنا ولكم التوفيق والسعادة.

إخواني، لقد شاء الله جل وعلا أن يضع على عاتقنا في هذا اليوم مسؤولية الملك ونحن الذين حرصنا بكل ما في وسعنا من جهد أن تجري الأمور في مجراها الطبيعي وأن لا تخرج إلى الحد الذي وصلت إليه.

وحاولنا في السنوات الأخيرة أن نكف عن بلادنا وأمتنا ما قد تتعرض له من نتائج وخيمة، غير أن العامة قد انتابها الجزع بشكل خاص وتتالت الأحداث التي تعرفونها وما نحن الآن بصدد التعرض له.

وجاء قرار أسرة آل سعود إجماعياً يلزمنا بالمبايعة، ثم تبعته فتوى أصحاب السماحة والفضيلة العلماء ورؤساء المحاكم والقضاة، ثم قرار أعضاء مجلس الوزراء وأعضاء مجلس الشورى، فلم يسعنا وقد ألح أهل الحل والربط على وضع مسؤولية الملك في عنقنا إلا القبول. وما كنا طوال المدة السابقة نرفض حتى مجرد التفكير في ذلك تهرباً من المسؤولية وإنما عزوفاً عن مظاهرها ورغبة صادقة في أن تجري الأمور كما أسلفنا في مجراها الطبيعي.

والآن وقد شاءت إرادة الله الكبير أن نقوم بهذا الواجب المقدس، فإننا نسأل الله تعالى العون والتوفيق والسداد حتى نحقق لكم ما عقدتموه من آمال. لنصل ببلادنا العزيزة إلى المستوى المنشود والهدف المرسوم[12]".

وتكاثرت على العاصمة الوفود القادمة من جميع أرجاء البلاد، جاءت لتهنئ فيصل وتبايعه ملكاً جديداً، وهو يستقبلهم محاطاً بإخوته.

وفي 2 نوفمبر أعلنت إذاعة مكة أن سعود تنازل عن العرش.

في ذلك اليوم استُدعي رؤساء البعثات الدبلوماسية في الثانية والربع من بعد الظهر وأُبلغوا أن مجلس الوزراء ومجلس الشورى، ومعظم أعضائه من أعيان مكة، اجتمعوا في العاشرة والنصف صباحاً برئاسة الأمير خالد بن عبد العزيز وأقرّوا الفتوى الشرعية الصادرة في 28 أكتوبر، التي اعتبرت فيصل ملكاً للبلاد، كما وافقوا على قرار أفراد عائلة آل سعود بخلع الملك سعود وبايعوا فيصل بالملك والإمامة.

وفي اليوم ذاته، 2 نوفمبر، بعث الرئيس الأميركي ليندون جونسون برقية تهنئة إلى الملك فيصل، وتُليت البرقية من إذاعة مكة. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم وجّه فيصل من الإذاعة بياناً مقتضباً إلى الشعب، وعد فيه بمواصلة الإصلاحات الداخلية والعمل على الصعيد الدولي من أجل السلام ونزع السلاح والتعاون مع

الأقطار العربية وتنفيذ قرارات مؤتمرات القمة العربية. وبثّت إذاعة مكة المرسوم الذي نص على بقاء مجلس الوزراء في تشكيلته الحالية، فبقي الملك فيصل رئيساً للوزراء والأمير خالد نائباً لرئيس الوزراء.

وكان المنتظر أن يلقى الملك المخلوع تعاطفاً أكبر في المنطقة الشرقية، إلا أن شيوخ القبائل هناك كانوا يقولون: "تلك هي مشيئة الله عز وجل". على أي حال كان فيصل في العامين الأخيرين هو الحاكم الفعلي للبلاد.

كذلك أدى دوراً مهماً موقف العلماء الذين أعلنوا أن كل التغييرات الجديدة مطابقة للشريعة، بمعنى أن كل شيء كان "مطابقاً للقانون" بالمصطلح الغربي أيضاً.

لقد حصل استبدال السلطة هذا عنوة، أو على الأصح بالتوافق، لكنه حصل، وهذا هو الأهم، من دون إراقة دماء، في وقت كانت تجري فيه في الشرق الأوسط انقلابات حكومية قاسية، ودموية غالباً، وكان الحكام الجدد كثيراً ما يفقدون "الشرعية" بالنتيجة.

وافق الملك سعود شفوياً على التنازل عن العرش في 3 نوفمبر. وفي اليوم ذاته استقلّ الطائرة إلى الظهران للمشورة الطبية في مستشفى أرامكو. حضر الكثيرون من إخوته في المطار لتوديعه، وكان بينهم الملك الجديد فيصل في ختام طابور المودعين. طأطأ رأسه باحترام أمام أخيه الأكبر، كما كان يفعل دوماً، وقبّل يده.

في 4 يناير 1965م (2 رمضان 1384هـ) بايع سعود أخيراً الملك فيصل تحريرياً:

من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل.

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

بناءً على ما أقرّته الأسرة والعلماء بتنصيبكم ملكاً على البلاد، فإنا نبايعكم على كتاب الله وسنّة رسوله ملكاً للبلاد، راجياً لكم التوفيق وللشعب السعودي الرفاهية والازدهار والتقدم والسلام.

التوقيع: سعود[13]

أوصى الأطباء الأميركيون سعود بالعلاج في الخارج. ولمساعدته في ركوب "البوينغ-720" أحضر له عريف في القوة الجوية الأميركية رافعة شحن، لأن الملك لم يكن قادراً على المشي، فضلاً عن الصعود إلى متن الطائرة، وذلك لأنه كان يستخدم كرسياً متحركاً.

غادر سعود المملكة هذه المرة من دون رجعة كما يبدو، وجرى تجريف السور المحيط بقصر "الناصرية"، والبالغ طوله سبعة أميال. وجاء التجريف بمثابة إشارة رمزية إلى انتهاء عهد الملك سعود.

فهل خالف فيصل العهد الذي قطعه لأبيه؟ كلا، بالطبع. لقد ظل متقيّداً به حتى آخر لحظة، وحاول حتى النهاية أن يجد سبيلاً للتفاهم والاتفاق مع أخيه

سعود، إلا أنه اضطر إلى النزول عند رأي أفراد الأسرة والعلماء الذين لم يرغبوا في بقاء سعود على العرش.

كتب السفير الأميركي باركر يقول:

> على الرغم من أن استبدال الملك يستجيب لمصالح الشراكة بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، إلا أنه كان قراراً سعودياً مئة في المئة من دون أي تدخل أجنبي. فقد طبّق في السعودية النظام المعهود لصنع القرار بالتوافق وبمشاركة متكافئة من جميع أهل الحل والعقد. كان ذلك هو أساس الاستقرار. ولم تأتِ برقية التهنئة من ليندون جونسون إلا بعد أن صار فيصل ملكاً من الناحية الرسمية. وهذا يعني أن واشنطن حاولت قدر الإمكان تفادي الانطباع الذي قد ينشأ وكأن الولايات المتحدة تتدخل في الشؤون الداخلية للمملكة[14].

وبعد التنصيب والبيعة أجرى مراسل جريدة "الحياة" البيروتية سليم حبيقة مقابلة مع الملك فيصل نشرت في 7 نوفمبر 1964م. وجاء فيها، في ما جاء:

> س - ما هي الأسباب التي دفعت بالشعب السعودي إلى إعلان هذا الانقلاب الداخلي الأبيض في وقت كنت فيه صاحب السلطة الملكية والوزارية معاً؟

ج – السؤال، في الحقيقة، يجب أن يوجه إلى الشعب وممثليه، لأنه يقدّر الأوضاع والأسباب والنتائج والأحداث. وبالنسبة إلي شخصياً، فإنني أبعد الناس عن السعي لمُلك أو لحكم، ذلك لأن الأمة هي التي تقرر، فلم أرَ بدّاً من النزول عند مشيئتها.

... أرجو أن أحقق برامج واسعة من الخدمات للمملكة ولشعبي. وإن ما أريد قوله هو أننا منذ سنتين أو ثلاث سنوات حققنا إصلاحات جمّة في الإدارات العامة وفي مختلف مرافق البلاد، فإذا ما حدث شيء جديد غداً فإنما يكون متمّماً لكل هذه الإصلاحات.

س - ما هي وجهة نظر جلالتكم في تطوير النظام الملكي؟

ج – المهم في الحكم ليس الاسم، وإنما التطبيق. فكم من نظام جمهوري فاسد، وكم من نظام ملكي صالح والعكس بالعكس. فالنظام سواء أكان ملكياً أم جمهورياً إنما يعكس الخير والتوفيق والرقي وحسن الاستعداد الذي يتجاوب كله بين الراعي والرعية. ومن هنا - كما قدمت - يمكن أن نقارن بين نظام جمهوري صالح ونظام ملكي غير صالح وبالعكس. أما إذا كان هذا وذاك غير صالح فإنه يولد المقت والإعراض لدى

أي شعب كان. فالأسماء كما ترون ليست هي الدليل للحكم ونوعه، وإنما هو التطبيق وشخصية الحكام الصالحين. وما أسماء أنواع عديدة من الحكم التي ابتدعت أخيراً والتي باتت معروفة إلا أسماء استوردت من الخارج، والتاريخان العربي والإسلامي لم يوردا أسماء من هذا النوع الحديث.

س - ما هو العمل الذي تفكرون بأن الملك والحاكم يجب أن يحققه لكي يدخل تاريخ أمته من الباب الكبير؟

ج – في نظري وتفكيري وإحساسي أن خير ما يعمله الحاكم، أياً كان، لحسن حياة شعبه ومستقبل بلده، أن يكون عضواً نافعاً في صف الإنسانية وخادماً أميناً لأمته ووطنه ومرشداً حكيماً في الملمات.

آنذاك أوقفت الصحف المصرية وإذاعة القاهرة حملتها الدعائية ضد فيصل، وكان ذلك دليلاً على أن جمال عبد الناصر يودّ الاتفاق على شؤون اليمن.

في عام 1965م توجه الملك سعود إلى المهجر في اليونان برفقة 130 شخصاً من أفراد أسرته والمقرّبين إليه.

ورافقه إلى الخارج عدد من أبنائه الـ52 المخلصين لوالدهم. وكانوا يقدّرون تماماً قيمة فقدان العرش، إلا أن الأمل كان يراود البعض منهم في العودة إلى السلطة بأي شكل من الأشكال.

ففي خريف 1966م اتفق الملك المقيم في أثينا مع عدوّه السابق عبد الناصر على التعاون في العمل ضد فيصل.

كان عبد الناصر يفهم مدى تورطه في مستنقع اليمن، فما المانع، والحال هذه، من الاستفادة من الملك سعود في نقلة على رقعة الشطرنج ضد أخيه فيصل؟

في نهاية 1967م نجد سعود وعياله في جمهورية مصر "الاشتراكية"، يقيمون في الطبقات السابعة والثامنة والتاسعة من فندق "هلتون" على شاطئ النيل. وقد جلب سعود معه إلى مصر بطائرات خصوصية ثلاث خزانات حديدية ضخمة غير قابلة للاشتعال، وفي كل منها، كما أكد أحد أبنائه، ما لا يقل عن 15 مليون جنيه إسترليني نقداً وذهباً ومجوهرات.

سأل مراسل "نيويورك تايمز" الملك السابق سعود: "هل تأمل حقاً باستعادة العرش؟". فأجاب: "شيء غير مستبعد إن شاء الله"[15].

وفي مايو 1967م ظهر الملك السابق سعود في ساحة السوق بصنعاء، وقد وصل إلى العاصمة اليمنية بطائرة هيّأها له جمال عبد الناصر. وصل ليعانق "الإخوة اليمنيين الجمهوريين" الذين كان قبل خمس سنوات يصفهم بالخونة والمتزلفين. تمشّى في الشوارع أمام كاميرات التلفزيون وهو لا يكاد يقوى على المشي، وامتدح الرئيس جمال عبد الناصر ونعته بأفضل صديق في العالم، ووعد باعتماد مليون دولار للجمهورية العربية اليمنية. فقد أعلن الملك المريض أنه لا يزال

الحاكم الشرعي للمملكة العربية السعودية، ودعا إلى الانتفاضة في الجزيرة العربية بأسرها. إلا أن الجمهور اليمني وجد صعوبة في التحمّس لمثل هذا الكلام.

يقول محمد حسنين هيكل: "كنت مع الملك سعود آنذاك في اليمن. كان المشهد سريالياً حقاً"[16].

ولم يعد المسؤولون في الرياض يهتمون بتخريجات من هذا النوع.

وسرعان ما جاءت النكسة وهزيمة مصر في حرب الأيام الستة ضد إسرائيل لتغيّر اصطفاف القوى بالكامل في الشرق الأوسط وتقود إلى المصالحة بين جمال عبد الناصر والملك فيصل بن عبد العزيز. ولم يبقَ لسعود مكان في مصر، فعاد إلى أثينا في أواخر عام 1967م.

كان الاكتئاب ينتابه يوماً بعد يوم، فيما تكاثرت عليه الأمراض بأنواعها. وعندما وافاه الأجل في فبراير 1969م خلّصه الموت من الآلام على أي حال.

ما إن علم الملك فيصل بوفاة أخيه حتى بعث في الحال بطائرة لنقل جثمانه إلى الوطن. وكان الحزن العميق يطغى على مُحيّا الملك فيصل وهو يهيل التراب على قبر ثاني ملك للبلاد كان في حينه مرحاً مستبشراً بالحياة. دفن سعود إلى جانب قبر والده عبد العزيز في مقبرة العود المركزية بالرياض، كما يقتضيه العرف في هذه البلاد، من دون كتابة ولا شاهد قبر.



الوالد، أمير نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود



الملك عبد العزيز مع وليّ العهد الأمير سعود والأمير فيصل





الأمير الشاب فيصل يركب البحر... متوجهاً الى لندن بتكليف من والده



استقبال الأمير النجدي الشاب على الساحل البريطاني



في كلية ترينيتي بمدينة إيستبورن. خلف الأمير من اليمن، يقف الصبي
كيم فيلبي الاستخبارات السوفياتية الشهير في ما بعد

CAMBRIDGE CHRONICLE AND UNIVERSITY JOURNAL NOVEMBER 12, 1919 9

The Arab Mission at Cambridge.



Chronicle Photos.]

Top row (left to right): 1, 2 and 4, Gentlemen in Waiting to the Amir; 3, Mirza Bihruz, University Teacher of Arabic and Persian; 5, Major H. St. John Philby, interpreter and officer in charge of the party; 6, Mrs. Robertson; 7, Mr. D. S. Robertson, Fellow of Trinity College. Bottom row (left to right): Shaykh Abdullar ibn Qunaibi; Mrs. Browne; the Amir Faysal, grand son of Ibn Sa'ood; Professor E. G. Browne; Shaykh Ahmad, of the Ibn Sa'ood.

The members of the Arab Mission paid a visit to Cambridge University on Monday week. The party belong to the great Anezah tribe, whose capital is at Ar-Rujadh, Central Arabia, and who are one of two rival tribes which divide the practically independent power of Central Arabia (the other Shamar tribe are favourable to the Turks). The most prominent of the party is the Amir Faysal, the fourteen-year-old son of the ruler of the tribe. On their arrival on Monday morning, the party had lunch at the University Arms Hotel. Early in the afternoon they visited Trinity College, and were taken round by Professor A. A. Bevan (Lord Almoner's Professor of Arabic), and were later officially received by the Vice-Chancellor in the picture gallery at Emmanuel College. On Tuesday there was another big programme. In the morning the party visited Professor and Mrs. Burkitt at their house, and then went to King's College Chapel, which was shown to them by the Provost (Sir W. Durnford). Later they attended Professor Browne's Arabic classes, one of the party reciting a chapter of the Koran and a poem to each class. The party afterwards took lunch in the Combination Room at Pembroke. In the afternoon a visit was made to Newnham, where the party were received by Miss Stephen, Miss Clough, and others, who entertained them in the Combination Room. Whilst at Newnham the party had the pleasure of witnessing a lacrosse match. In the evening they dined with Professor Browne at his house. The party left Cambridge on Wednesday morning for London, en route for Cardiff. Some idea of the extent of the tour of the Mission may be gathered from the following list of places to be visited:—Cardiff, Swansea, Mumbles, Fishguard, cross to Rosslare, Ireland, Waterford, Cork, Dublin (where they will be received by the Viceroy), Belfast (received by the Mayor), cross to Holyhead, Bangor, Carnarvon, Llanberis, Birmingham, and Chester (received by the Lord Mayor). At all of these places they will visit the chief works and places of interest, and at Cardiff they will descend a coal mine. Professor Browne has received a letter signed by members of the party, expressing the great pleasure they experienced in Cambridge during their visit, a pleasure that was enhanced by the fact that so many of their hosts were able to speak Arabic. Everyone in Cambridge was much impressed by the personal charm and dignity of bearing, in the young Amir

الوفد النجدي في كامبريدج. الصورة التي جلبت الشهرة الصحافية لفيصل في بريطانيا



VISITORS FROM THE EMPIRE'S CONFINES

IMPORTANT ARABIAN AND SOUTH AFRICAN CHIEFS IN LONDON

FROM ARABIA: MAJ. BOWMAN, SHEIKH FAISAL and his Cousin, Sheikh Ahmed Thuniyan Ibn Sa'ud.

SHEIKH AHMED IBN JABIR getting his first glimpse of England.

MAJ. BOWMAN (centre) SHEIKH AHMED IBN (right) and one of the latter's attendants.

SHEIKH FAISAL, SON OF SHEIKH ABDUL AZIZ IBN SA'UD
The Ruler of Nejd, Central Arabia.

THE SHEIKH AHMED IBN JABIR OF KOWEIT
Nephew of our Ally, the Ruler of that region.

FROM SOUTH AFRICA: GRIFFITH LEROTHODI (in the light overcoat) AND HIS BROTHER CHIEFS WHO ARRIVED AT WATERLOO ON SATURDAY

Griffith Lerothodi Moshesh, the Paramount Chief of Basutoland, and six other Basuto Chiefs arrived at Southampton on Saturday, and are now in London. They have come to England in order that they may personally express their loyalty to the King and congratulate his Majesty on the victory of the Allied cause. They will also take the opportunity of discussing with the Colonial Office matters affecting their country, and will visit various provincial centres. A number of important Arabian Chiefs, including a son of the powerful Sheikh of Nejd, and a nephew of our staunch ally, the Sheikh of Koweit, whose portraits are here given, are also in London on a special mission to the King.

صورة الأمير فيصل والشيخ أحمد الجابر من الكويت من الصحافة البريطانية



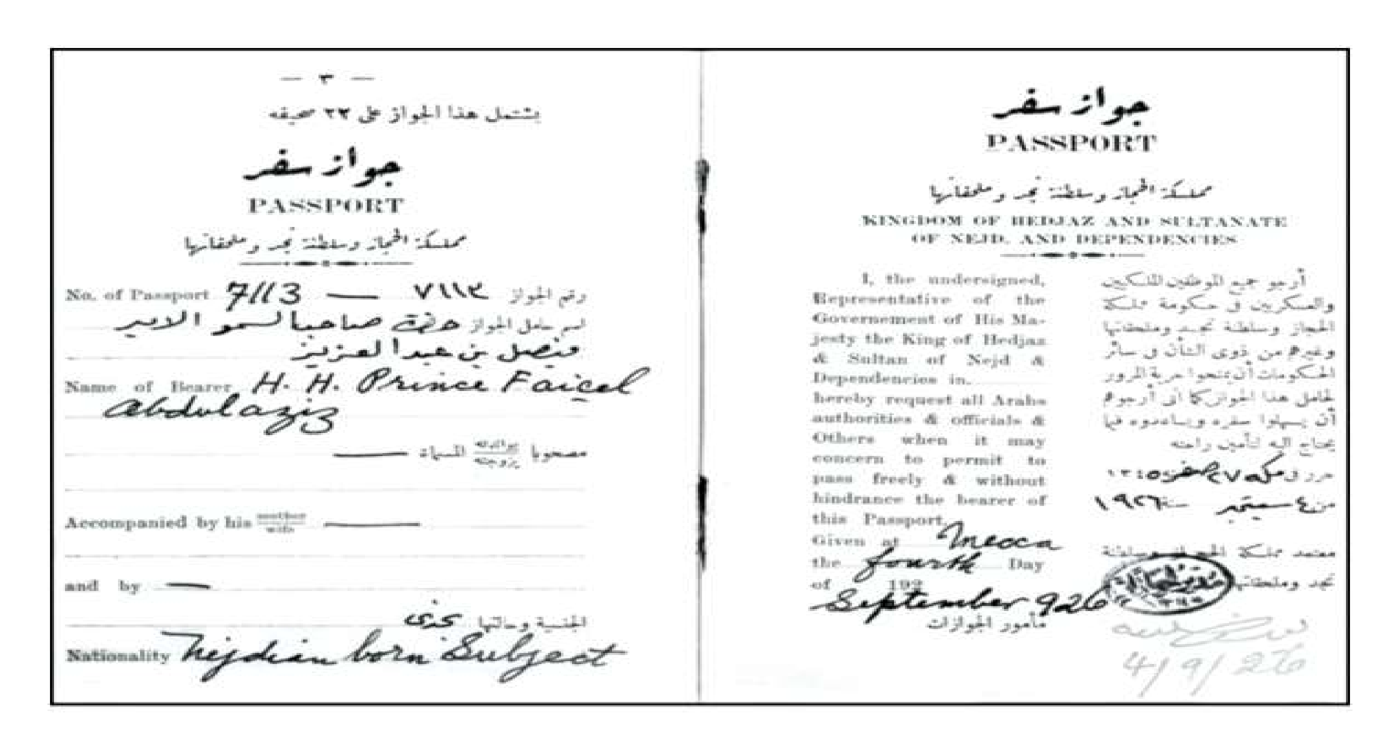
فيصل في عهد الفتوة



فيصل في الحجاز



فيصل نائباً للملك في الحجاز



— ٣ —

يشتمل هذا الجواز على ٣٢ صحيفة

جواز سفر

PASSPORT

مملكة الحجاز وسلطنة نجد وملحقاتها

No. of Passport 7113 — ٧١١٣ رقم الجواز

اسم حامل الجواز حضرة صاحب السمو الامير فيصل بن عبد العزيز

Name of Bearer H. H. Prince Faical Abdulaziz

مصحوباً بوالدته / بزوجته السماة —

Accompanied by his mother / wife —

and by —

الجنسية وحالتها نجدي

Nationality Nejdian born Subject

جواز سفر

PASSPORT

مملكة الحجاز وسلطنة نجد وملحقاتها

KINGDOM OF HEDJAZ AND SULTANATE OF NEJD AND DEPENDENCIES

I, the undersigned, Representative of the Governement of His Majesty the King of Hedjaz & Sultan of Nejd & Dependencies in. hereby request all Arabs authorities & officials & Others when it may concern to permit to pass freely & without hindrance the bearer of this Passport.

Given at Mecca the fourth Day of 192 September 926

أرجو جميع الموظفين الملكيين والعسكريين في حكومة مملكة الحجاز وسلطنة نجد وملحقاتها وغيرهم من ذوي الشأن في سائر الحكومات أن يمنحوا حرية المرور لحامل هذا الجواز كما أني أرجوهم أن يسهلوا سفره ويساعدوه فيما يحتاج اليه لتأمين راحته

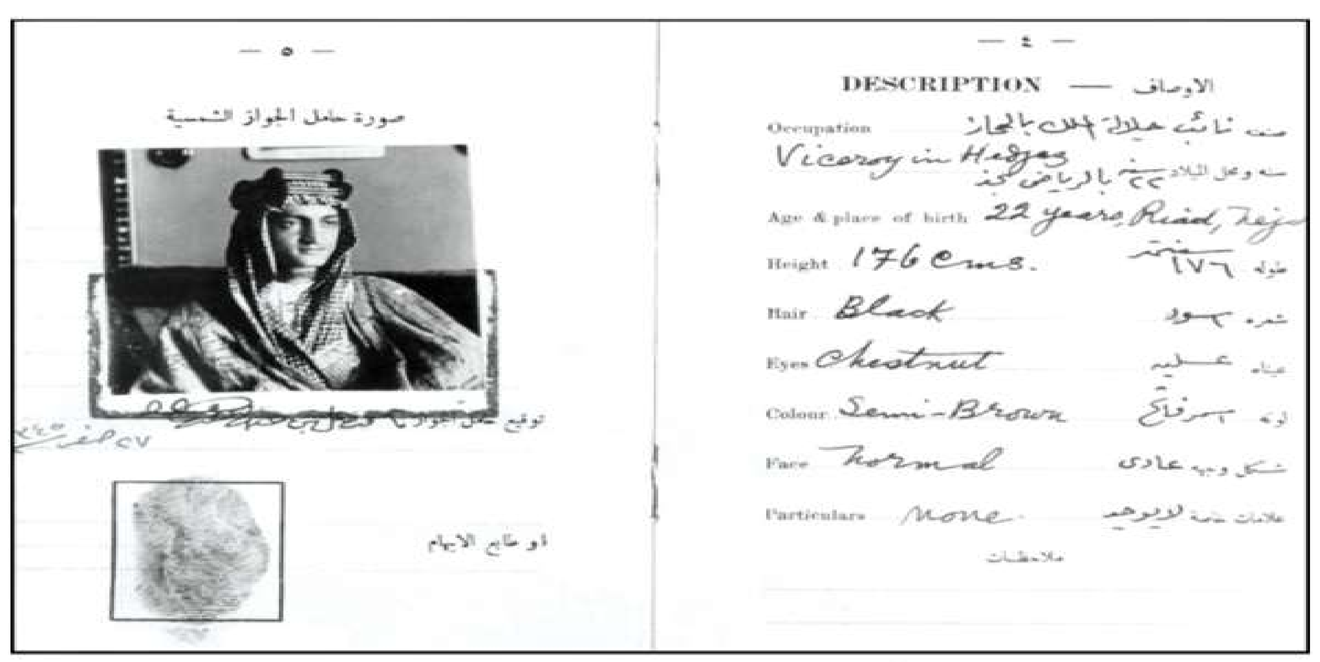
حرر في مكة ٢٧ صفر ١٣٤٥

من ٤ سبتمبر سنة ١٩٢٦

معتمد مملكة الحجاز وسلطنة نجد وملحقاتها

مأمور الجوازات

4/9/26



— ٥ —

صورة حامل الجواز الشمسية

توقيع حامل الجواز

او طابع الابهام

— ٤ —

DESCRIPTION — الاوصاف

Occupation Viceroy in Hedjaz — صنعته نائب جلالة الملك بالحجاز

Age & place of birth 22 years, Riad, Nejd — سنه ومحل الميلاد ٢٢ سنة بالرياض نجد

Height 176 Cms. — طوله ١٧٦ سنتيمتر

Hair Black — شعره اسود

Eyes Chestnut — عيناه عسليه

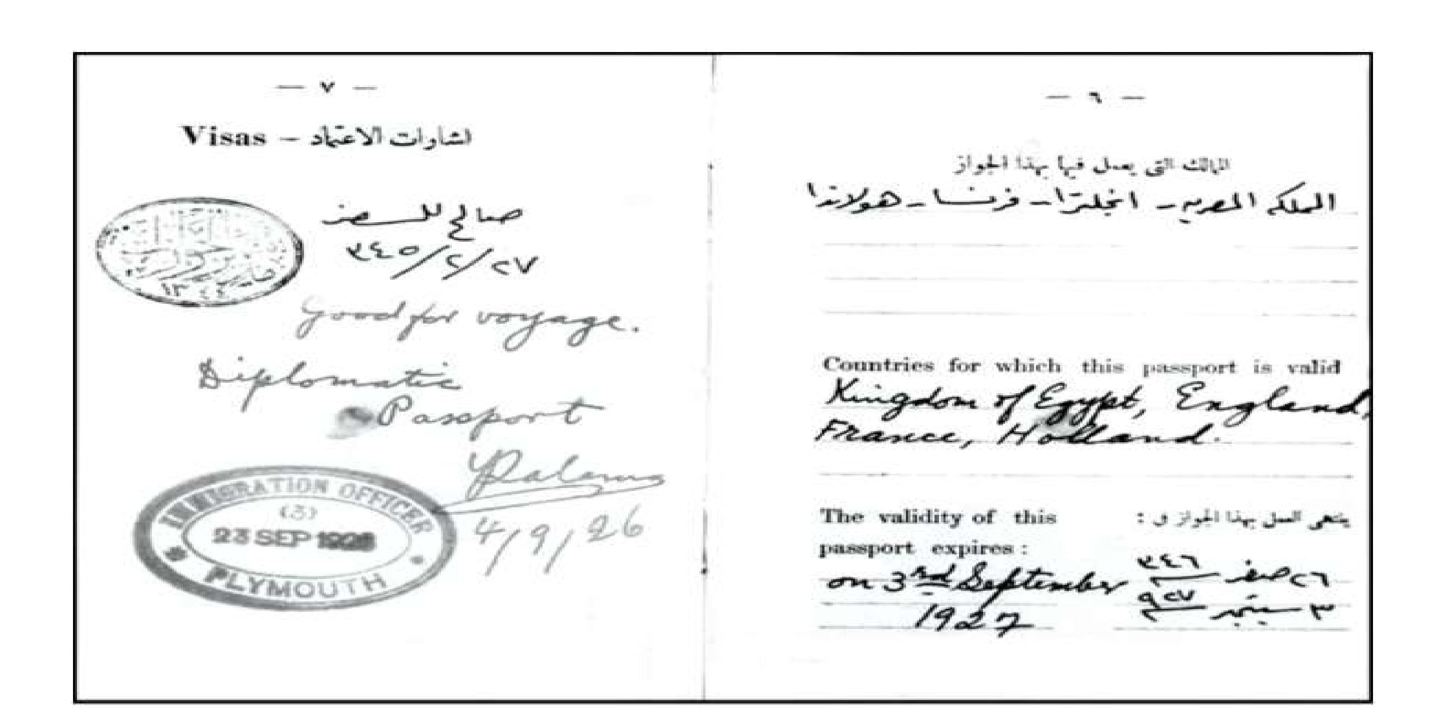
Colour Semi-Brown — لونه اسمر فاتح

Face Normal — شكل وجهه عادي

Particulars None — علامات خاصة لا يوجد

ملاحظات

جواز سفر الدبلماسي للأمير فيصل نائب الملك في الحجاز صادر في عام 1926م



— ٧ —

Visas — اشارات الاعتماد

صالح للسفر
٢٤٥/٤/٢٧

Good for voyage.
Diplomatic Passport

IMMIGRATION OFFICER (3) 23 SEP 1926 PLYMOUTH

4/9/26

— ٦ —

الممالك التي يعمل فيها بهذا الجواز

المملكة المصرية - انجلترا - فرنسا - هولاندا

Countries for which this passport is valid

Kingdom of Egypt, England, France, Holland.

The validity of this passport expires: on 3rd September 1927

ينتهي العمل بهذا الجواز في : ٦ صفر ٣٤٦ / ٣ سبتمبر ٩٢٧

— ١١ —

Visas — اشارات الاعتماد

Visa N°
Vu au Consulat Royal d'Egypte à Paris
Bon pour se rendre en Egypte

PARIS, le
CONSUL D'EGYPTE

— ١٠ —

Visas — اشارات الاعتماد

Visa Diplomatique

EN TRANSIT par la Belgique

toutes voies
Visé à la Légation de Belgique.
LA HAYE, le 18 Octobre 1926
Pour le Ministre
~~Le Secrétaire de Légation~~

BELGIQUE
Gratis

صفحات أخرى من جواز السفر الدبلماسي



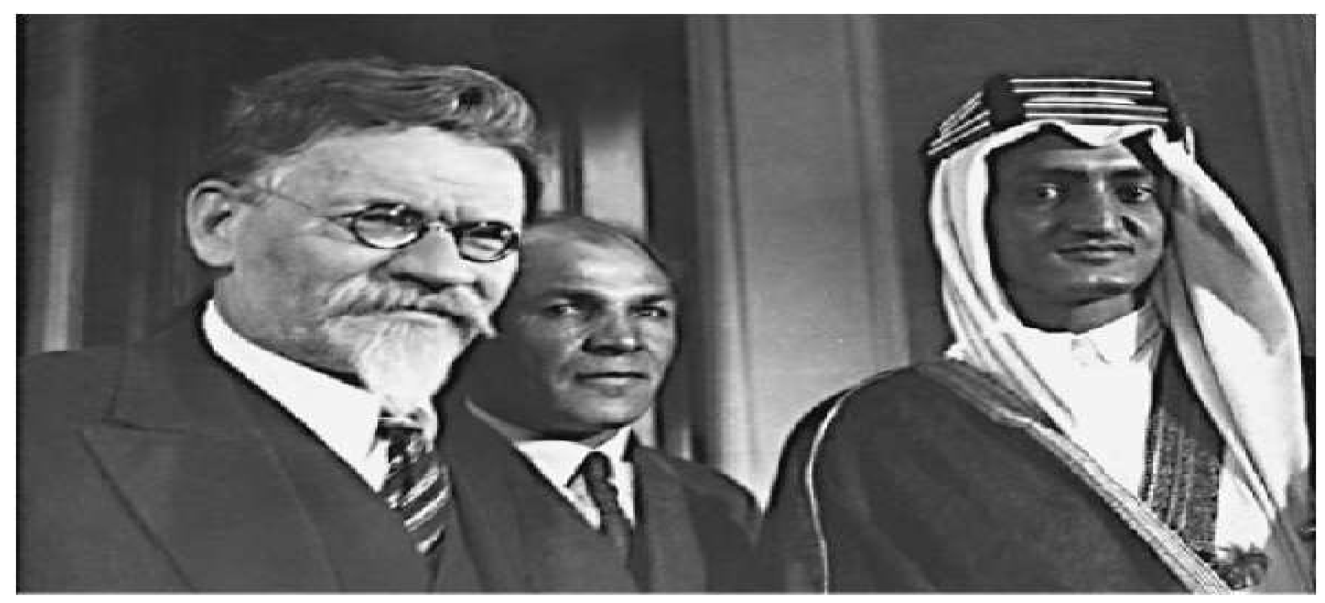
نائب الملك وزير الخارجية الأمير فيصل يتفقد حرس الشرف في أول زيارة تاريخية إلى الاتحاد السوفياتي في مايو عام ١٩٣٢م



في لينينغراد مع مفوّض (وزير) الشؤون العسكرية والبحرية فوروشيلوف ونائب مفوّض الخارجية كاراخان والمبعوث الدبلماسي الى الحجاز نظير تورياكولوف



مع نائب مفوّض الخارجية كاراخان في محطة قطار بيلوروسكي بموسكو



في ضيافة رئيس اللجنة التنفيذية المركزية (الحكومة) السوفياتية ميخائيل كالينين



مع نائب مفوض الخارجية كريستينكي ومعاونيه في محطة بيلوروسكي بموسكو

الوفد السعودب في زيارة للوريات المتحدة عام 1943م



الأمير فيصل يوقع ميثاق الأمم المتحدة. سان فرنسيسكو، يونيو 1945م



... ويلقي كلمة في الجلسة الختامية للمؤتمر التأسيسي هناك



الأمير فيصل في حفل استقبال



وفد المملكة في الولايات المتحدة



الأمير فيصل في قسم المخطوطات



الفارس الهمام فيصل يتابع صولات رعاة البقر



زيارة أخرى للولايات المتحدة



... واعجاب بالأماني والطموحات الأميركية
(خيبة الأمل بها ستحل في القريب العاجل)



لا مفر من الإيجاز الصحافي أمام مراسلي الإذاعة
اللجوجين



الصورة الوحيدة التي عثر عليها المؤلف لفيصل بالزيّ الأوروبي. قبيل لقاء الأمير مع الرئيس الأميركي أيزنهاور عام 1957م.



من هوايات الأمير فيصل الصقور



...والجياد



... والسيارات. يتأهب للجلوس
وراء مقود المصفحة



الأمير فيصل مع الجيولوجيين الأميركيين



دوام وليّ العهد (الملك) فيصل يستمر
12—16 ساعة في اليوم



رقصة العرضة بالسيوف: (من الشمال الى اليمين): ولي العهد خالد، الملك فيصل، الأمير فهد، الأمير عبدالله



الملك فيصل والرئيس عبد الناصر



... ومع الرئيس أنور السادات



الملك فيصل بعد حرب 1973م يعبر قناة السويس على معدية البونتون، برفقة السادات، الى سيناء. إلا أن القدس لا تزال بعيدة



الملك فيصل في زيارة الرئيس حافظ الأسد. استقبال حاشد للضيف المعظم



لقاءات فيصل بكبار الشخصيات فب العا لم. مع كينيدي



... مع ديغول



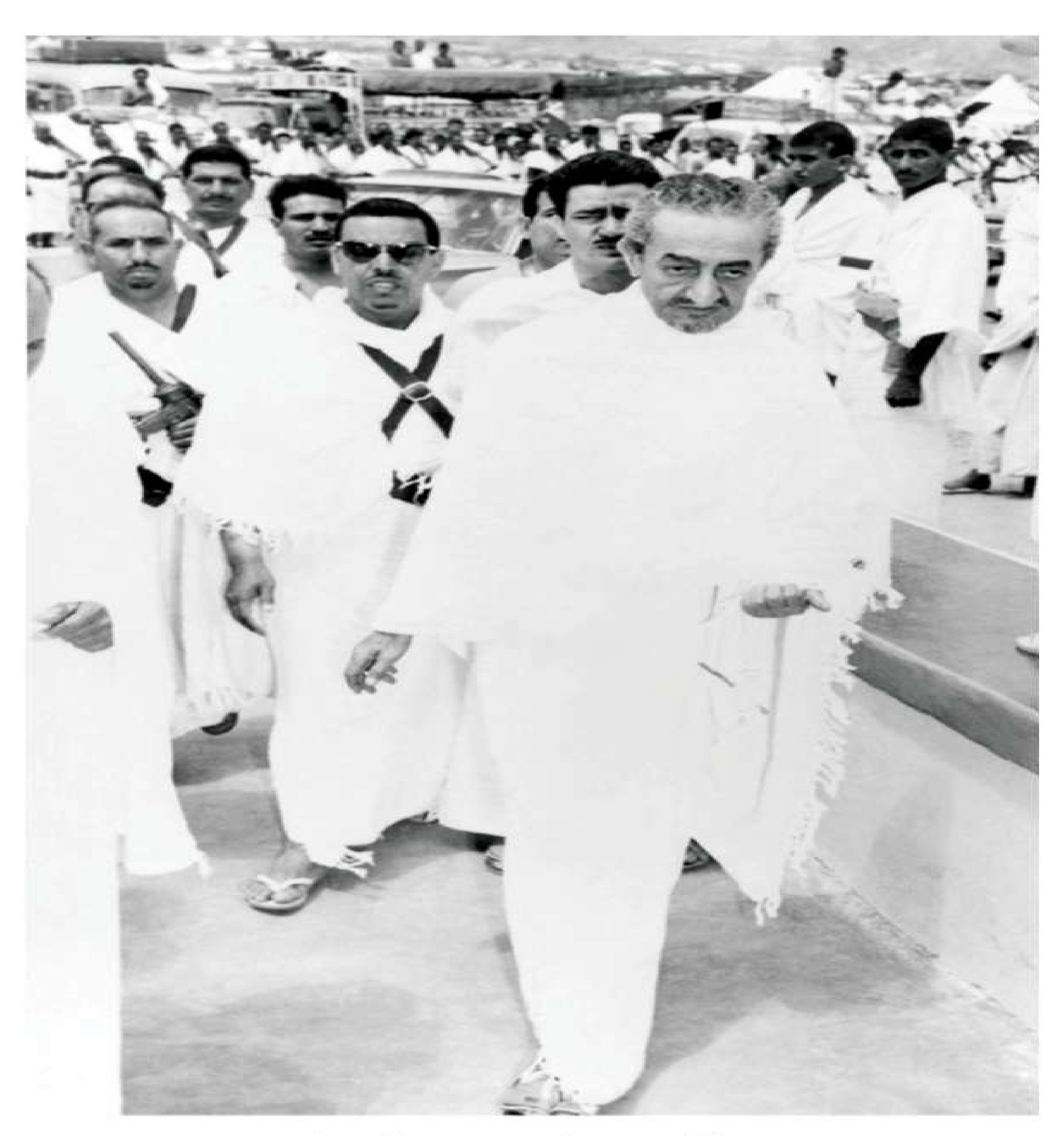
...ورئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو



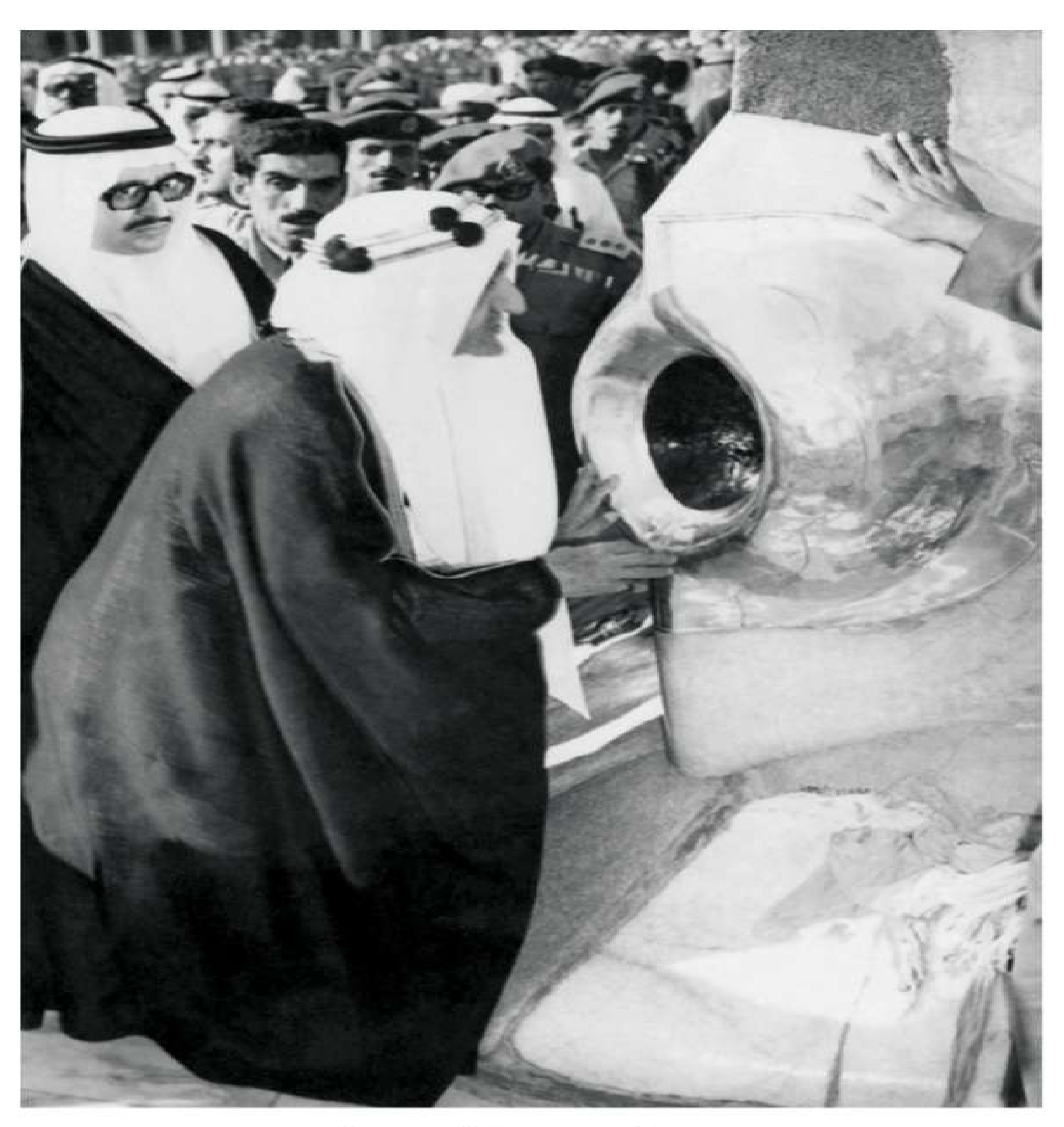
...وملكة بريطانيا إليزابيث الثانية



...والرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون



الملك فيصل في مناسك الحج



...والتمسّح بالحجر الأسود



...وفي الحرم الملكيّ



...وأثناء الصلاة مع إخوته



... في ابتهال عميق. هذه هي صورة الملك فيصل الراسخة في ذاكرة السعوديين تجسيداً لمعتقداته وسياسته القائمة على الايمان

الفصل الرابع عشر

فيصل بن عبد العزيز ملكاً

نحن الآن في منتصف الستينيات. السلطة انتقلت كاملة إلى فيصل في آخر المطاف، وانفرجت أزمة نظام الحكم. سمعة الملك فيصل تتوسع داخل البلاد وخارجها، إلا أن ضرورة الإصلاحات وتحسين جهاز الدولة وبناء أصعدته الجديدة لا تزال ماثلة أمام الأنظار. ثم إن الزعيم السياسي مهما كان كبيراً لا بد له من أن يعتمد على فريق مكوّن من شركاء في الرأي لهم وزنهم ونفوذهم في المجتمع، ومن منفذين فنيين محترفين ومخلصين للزعيم.

فيصل يعالج بمنتهى الحذر الجراح التي خلّفتها العلاقة مع أخيه الملك سعود في كيان الأسرة المالكة من جهة، والآثار التي تركها تمرد "الأمراء الأحرار" من الجهة الأخرى. وبعد تردد قصير وافق أخوه وصديقه الحميم خالد على الاضطلاع بمهمات وليّ العهد. كان الأخ الثاني من حيث ترتيب السن هو محمد المعروف بسرعة الانفعال والتأثر، ما جعله أقل استعداداً لأداء دور الملك في المستقبل. ثم إنه هو نفسه ما كان يطمح إلى اعتلاء العرش. أما خالد المتديّن فيجسد القيم التقليدية ويمارس بنجاح الإصلاح بين أفراد أسرة آل سعود الكبرى، ويحظى بمنزلة وتقدير لدى وجهاء

القبائل والعلماء، ومن ورائه أكبر إخوته الإداري النشيط والزعيم الحازم نائب رئيس الوزراء فهد بن عبد العزيز، فيما احتفظ الأخ الأصغر سلطان بمنصب وزير الدفاع والطيران. وكي لا يكون وزن إخوة فيصل وحلفائه وأصدقائه أكبر من الباقين، تقرر أن يشغل المرتبة الرابعة في الهرم السلطوي الأمير عبد الله الذي لم يكن لديه إخوة أشقاء، فتولى قيادة الحرس الوطني. وبعد مقتل فيصل تولى زمام الأمور على التوالي الملوك خالد وفهد وعبد الله، فحافظوا على الاستقرار في العائلة وفي المملكة عشرات السنين.

في الستينيات بات مساعد بن عبد الرحمن، عم فيصل الذي هو في مثل عمره تقريباً، وزيراً للمال ومنسّقاً لشؤون أسرة آل سعود. وكان الملك سعود يعرف بعلاقته الحميمة مع فيصل، ولذا نحّاه عن المناصب المهمة في الدولة، وبذلك دفعه كلياً إلى معسكر فيصل.

وكان من بين الأشخاص الأكثر قرباً من فيصل في الشؤون اليومية والأمور المهمة، والذين يعتبرون من المستشارين والمنفذين الموثوق بهم، كل من رشاد فرعون وكمال أدهم وأحمد بن عبد الوهاب.

يقول محمد عنان:

> كان الملك فيصل يحرص أن يكون حوله مثقفون من مستوى رفيع. ليس ثقافة عادية. كان يأتي بشخص من فرنسا متخصص بالبوليتكنيك ويأتي بآخر من

أميركا عنده مستوى. أحمد بن عبد الوهاب وصل إلى مرحلة يسمّونه كابن للملك فيصل. والدكتور رشاد فرعون كان إلى جانب الملك فيصل ولم يتركه لحظة واحدة . كمال أدهم مثلاً كان رئيس الاتصالات الخارجية. وأنا أعتبره ظاهرة. تمكن من ضبط الاتصالات العربية مع فيصل بطريقة لا أذكى منها أبداً، الاتصال بين الملك والرؤساء وليس جهاز استخبارات أو مخابرات. كان هو كل شيء. فمثلاً، في المهمات السرية الخاصة كان يذهب هو شخصياً ولا يكلف سفيراً أو غيره. الشيخ كمال أدهم كان يثق به فيصل ثقة عمياء، وكان يتكلم العربية والإنجليزية والفرنسية[1].

يقول أحمد بن عبد الوهاب عن أقرب مستشاري الملك فيصل:

رشاد فرعون كان أقرب شخص إليه. وعلاقته مع رشاد فرعون أن الأخير كان طبيب الملك عبد العزيز، وكان فيصل عندما يذهب إلى عبد العزيز يجد رشاد دائماً قريباً منه. وكان يتمتع بشخصية محبوبة وجاذبية خاصة، ولذلك عندما مات الملك عبد العزيز وترك رشاد المملكة إلى باريس جاء به وعيّنه وزيراً للصحة. وكان قريباً منه وجليسه عائلياً، وليس عائلياً فقط. وكان رشاد فرعون

أجرأ موظفي الملك فيصل عليه، بأدب طبعاً. وكان الملك فيصل رحمه الله يرتاح إلى رأيه. لم يكن فقط يستمع إليه، بل كان يرتاح إلى رأيه. وهو على الرغم من أنه طبيب جراح، إلا أنه كان يتمتع بأفق سياسي واسع. وهو سوري الأصل. وقد أخلص لفيصل وأدرك فيصل إخلاصه له، وهذه نقطة مهمة، لأن الإخلاص المتبادل بين شخصين في غاية الأهمية.

س: وكمال أدهم.

ج: كمال أدهم كان ابناً له كواحد من أبنائه. ربّاه مثلما ربّاني، وكان كمال أخا زوجته. أنا وكمال أدهم كنا أول الأولاد الذين يلعبون في بيت الأمير فيصل[2].

كان فيصل على معرفة جيدة بوالد أحمد بن عبد الوهاب. وهو من مكة، وقد أمضى سنوات طويلة في إسطنبول. وهناك ربطت عبد الوهاب علاقة صداقة مع آل ثنيان، فكان يعرف والد عفت ووالدتها وعمتها. وقد عاد عبد الوهاب إلى الحجاز ليقوم على خدمة عبد العزيز. وعندما تزوج فيصل من عفت بات صديقاً لعائلته. توفي عبد الوهاب في سن مبكرة، فترك أحمد يتيماً في الثانية عشرة من العمر، فتولى فيصل تربيته في عائلته ورعايته كما يرعى ابناً له.

أُوفد أحمد إلى مصر للدراسة في المرحلة الثانوية، ثم في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حالياً).

وعندما عاد من مصر، باشر العمل في مكتب الأمير فيصل، ثم عُيّن مديراً للتشريفات. وعندما صار فيصل ملكاً واصل أحمد وظيفته كرئيس للتشريفات الملكية.

يقول أحمد بن عبد الوهاب:

> أنا عشت معه يمكن أكثر من أولاده، لأنني كنت أعيش معه من الصبح، من السرير إلى أن يدخل السرير مرة ثانية... وأقرب شخص سياسي للملك فيصل في فترة مُلكه هو رشاد فرعون. ولم يكن فيصل يفرّق بين الناس فاكهة كذا وفاكهة كذا. كان الناس عنده سواء. ومن يقلْ لك إني كنت رقم واحد عند فيصل بلّغه سلامي وقل له إن أحمد عبد الوهاب يقول لا. أنا شاهد على العصر. وأنا أكرر ذلك. كان الملك فيصل عنده الناس سواسية[3].

فيصل كان يجيد انتقاء السعوديين الموهوبين ويوفر لهم فرصة الترقية السريعة في الخدمة، فنشأت حوله طبقة من التكنوقراط المؤهلين الذين أجزل لهم العطاء، فيما ردوا عليه بالولاء والعمل الجاد. ونذكر منهم هنا أحمد زكي يماني وهشام ناظر.

يقول عبد الرحمن الرويشد:

> أحمد زكي يماني كان يعيش عند فيصل في بيته. كان يرعاه وهو شاب يدرس. أبوه من علماء مكة، لكن هذا الشاب له صلة بالملك فيصل من قبل أن يكون وزيراً. ويماني اسم

الحارة التي يسكنها، اليمانية. وعلاقته مع الملك فيصل جيدة جداً[4].

تلقّى هذا الشاب الموهوب تحصيله العلمي في القاهرة، ثم في جامعة نيويورك، ثم في مدرسة الحقوق بهارفرد. وعاد إلى مكة سنة 1956م، ففتح مكتباً للاستشارات القانونية وأخذ ينشر المقالات في الصحف، ما لفت نظر ولي العهد إليه، فعرض على اليماني أن يعمل عنده وسأله عن الشروط التي يريدها، فقال اليماني: مستعد للعمل مع سموّكم مهما كانت الشروط[5]. وبعد بضع سنوات حلّ هذا التكنوقراط العصري والحذر في الوقت ذاته محل عبد الله الطريقي وزيراً للبترول، فصار مستشاراً موثوقاً لفيصل في جميع الشؤون النفطية.

يقول هشام ناظر:

أول صلة لي مع الملك فيصل وأنا كنت طالباً في كلية فكتوريا في الإسكندرية مع الملك حسين، وهي كلية ثانوية. ابتعثت الحكومة السعودية معظم الطلبة الذين كانوا في كلية فكتوريا ما عداي أنا. جئت إلى الملك فيصل وكان في جدة سنة 1952م وقلت له إني أنا الوحيد الذي لم أبتعث بين الطلبة المبتعثين، وأنا أحمل بينهم أعلى الدرجات. فقال لي في ذلك الوقت: إذا كان كلامك صحيحاً، فأنت تكون أول المبتعثين. وفي خلال أسبوع سافرت إلى أميركا والتحقت بجامعة

كاليفورنيا في لوس أنجلس، كلية العلوم السياسية[6].

ظل هذا الشاب الموهوب في عداد من اهتم بهم فيصل. ففي الستينيات عيّنه في وزارة البترول حيث رُقّي بسرعة إلى منصب وكيل الوزير.

وفي عام 1968م عيّنه مديراً للجنة المركزية للتخطيط برتبة وزير، ثم أصبح وزيراً للتخطيط. واعتباراً من عام 1986م تولّى أيضاً منصب وزير البترول.

كتب أحد المعلّقين الأجانب عن الملك فيصل في عام 1967م يقول:

> إنه يقود البلاد برفق وبإصرار من القرون الوسطى إلى عصر المحركات الصاروخية... وفي الحقيقة هناك فيصلان... الأول رجل ذكي شديد الملاحظة منفتح على العالم يتصرف من دون تكلف، سواء في ورشة التصاميم في لندن أو في مؤتمر عام في واشنطن. والثاني بدوي خالص يستطيع أن يمتطي ظهر الحصان بلا سرج ويجلس القرفصاء جنب الموقد في الصحراء، يتناول اللحم المقلي والأرز بالأصابع ويتحدث إلى أهالي البادية بلهجتهم. وعلى الرغم من أسفه الشديد لاختفاء نمط المعيشة السابق في الصحراء، فإنه يقول: "ينبغي لنا أن نلج

العالم الحديث ونجد مكاننا اللائق فيه سواء أعجبكم ذلك أم لا"[7].

مجمل حياة فيصل قبل التربّع على العرش وبعده يسوق الدليل على أنه يدرك تماماً صعوبة تحديث البلاد وتحقيق طفرة من التخلف إلى الحداثة. لقد ذلّل مقاومة الراغبين في العجالة والتسريع انطلاقاً من الشعارات العصرية البرّاقة، لكنه كان مستعداً لاستخدام القوة ضد الرافضين للتبدلات مهما كانت.

آنذاك كان خطر "اليسار" ماثلاً، ويمثّل أكبر قدر من التهديد الفعلي. صحيح أن محمد حسنين هيكل يقول في حديثه إلى المؤلف بعد عقود من السنين إن فرصة نجاح الانقلاب "اليساري" في المملكة العربية السعودية كانت معدومة، إلا أن هذا الكلام جاء بعد عشرات السنين. ولكن في الستينيات كان جمال عبد الناصر والاستخبارات الغربية وفيصل نفسه والثوريون "اليساريون" المتشددون يعتقدون أن النظام الملكي في السعودية معرض للوقوع في الهاوية، ولم تكن عمليات القاهرة ضد المملكة تقتصر على الحرب الإذاعية أو على قصف القرى والبلدات الحدودية. لقد كان لدى جمال عبد الناصر مؤازرون في السعودية على استعداد للفعل والعمل. كانت ترد إليهم أموال وأسلحة ومتفجرات ومطبوعات دعائية. وكان الملك يرد على التهديدات بصرامة وحزم معتمداً على الدوائر الأمنية.

في حديثه مع المؤلف قال سامي شرف:

وقد حصل لقاء الطائف بين عبد الناصر والملك فيصل... ثم تم الصلح بينهما وسُوّيت كل المسائل المعلقة. ومن ضمن الكلام الذي أثاره فيصل أن قال له عندك شخص اسمه سامي شرف كان يحوك ضدنا مؤامرات. وقال له الرئيس عبد الناصر سامي شرف موجود ويمكن أن نحضره. كان يعمل مؤامرات سابقاً، ولكنه الآن لا يفعل ذلك.

وأضاف سامي شرف في حديثه مع المؤلف أنه شخصياً لم يقابل فيصل، وأكد أن فيصل وعبد الناصر كان يحترم أحدهما الآخر[8].

المعارضة الثورية المنظمة داخل المملكة لم تحقق نجاحاً. ففي ديسمبر 1962م اعتُقل 40 ضابطاً شاباً كانوا يخططون للقيام بانقلاب. وفي فبراير 1963م عثرت الهيئات الأمنية السعودية على جماعة جديدة تضم خصوماً للنظام الملكي.

وفي ديسمبر 1965م أعلنت وزارة الداخلية إلقاء القبض على 65 مشتبهاً فيهم في ممارسة "النشاط الهدام". ووجّهت إلى 34 منهم تهمة الانتماء إلى تنظيم سري انحرف عن الطريق القويم بهدف الإخلال بأمن البلاد. وبعد أن اعترف الموقوفون تحريرياً بذنبهم وطلبوا العفو، عفا الملك عنهم، لكنه منع إعادتهم إلى الخدمة في دوائر الدولة. أما الأجانب منهم فقد طُردوا من البلاد. وتتكون المجموعة الثانية من 31 متهماً

بالشيوعية والترويج للمبادئ الهدامة. وحكم على 19 منهم بالسجن لمدد تتراوح بين 5 سنوات و15 سنة.

وفي 1966-1967م بقي من التنظيمات المعارضة الموجودة في الخارج والتي لها ارتباطات داخل المملكة كل من "اتحاد شعب الجزيرة" و"جبهة التحرير الوطني في السعودية". كذلك ظهرت جماعة أخرى باسم "الجبهة الشعبية لتحرير الجزيرة العربية". وقامت الهيئات الأمنية السعودية باعتقالات واسعة طاولت بعض اليمنيين والفلسطينيين.

في 9 يناير 1967م أُعلن اعتقال مخربين مدربين تسللوا من الجمهورية اليمنية، واتهموا بتدبير تفجيرات في الدوائر الحكومية، بما في ذلك وزارة الدفاع، وفي مبنى البعثة العسكرية الأميركية وقصور الأمراء، وفي قاعدة عسكرية قرب الحدود اليمنية. وفي مارس قُطعت رؤوس 17 من المحكومين على الملأ في الرياض، وطُرد من المملكة أكثر من 600 يمني.

في عام 1968م ضعفت وقتياً المعارضة الداخلية والخارجية للملك فيصل. فالقوات المصرية انسحبت من اليمن، وكفّت مصر عن دعم خصوم الملك داخل المملكة. وقد أكد سامي شرف هذه الحقيقة في حديثه مع المؤلف.

إلا أن آلية المعارضة اليسارية استمرت بالعمل حتى من دون الدعم المصري.

ففي عام 1969م دبّرت جماعة من الضباط السعوديين، بينهم عدد من أفراد القوة الجوية، مؤامرة

انقلابية. وفي يونيو 1969م ألقت الدوائر الأمنية القبض على نحو مئتي ضابط معظمهم برتب أدنى من وكيل قائد. وحسب معلومات "اتحاد شعب الجزيرة" كان بينهم ضباط من الظهران. كذلك أُلقي القبض على بعض عمال الصناعة النفطية وموظفين ومستخدمي بنوك كانوا على ارتباط بالضباط "الثوريين". وبين المعتقلين عمال يمنيون وفنيون فلسطينيون. وزعمت منشورات "جبهة التحرير الوطني في السعودية" أن 40 من المتهمين بمحاولة الانقلاب أُعدموا في أغسطس.

خلال الأشهر التي أعقبت الكشف عن المؤامرة نُشرت خارج المملكة أخبار متواصلة عن اعتقالات وإعدامات واسعة.

وليس بالإمكان حتى اليوم الكلام على العدد المضبوط للمعتقلين والذين أُعدموا في تلك الأحداث، وذلك لأن التهجمات والمبالغة الدعائية من جانب المعارضين قد لا تستحق التصديق. إلا أن مصير المشاركين الفعليين في مؤامرة 1969م بات معروفاً.

يقول جميل الحجيلان:

> المؤامرة ليست خطرة إذا كانت مدعومة من شخصين أو ثلاثة أو سبعة، ثمانية، خمسين. المؤامرة الخطرة هي تلك التي لها قاعدة. لا أستطيع أن أقول لك إن مئة في المئة من الشعب السعودي كانوا مع الملك فيصل، لكنني أستطيع أن أقول إن أغلبية الشعب

السعودي، 95 في المئة من الشعب السعودي كانت مع النظام، مع الدولة. أما أن تكون هناك مجموعة من الناس الذين لهم رؤية خاصة فهذا من طبيعة الأمور.

س: والجيش؟

ج: نعم، هناك عدد معين. أنا أعرف واحداً منهم قريباً لأسرتنا كان في سلاح الطيران اسمه داوود الرميح وقد توفي رحمه الله. وكانت هناك أسباب ذُكرت. يوسف الطويل و"كم شخص" من رجال الأعمال لا يعرفهم أحد. وليس عندهم نداء واضح ولا برنامج. ولا تنسَ أن الإعلام المصري وعبد الناصر لم يستطيعا أن يؤثّرا في الرأي العام السعودي، ولكنهما قد يكونا أثّرا في شريحة معينة...[9]

يقول بندر الفيصل:

أنا أعرفهم، بعض الضباط كانوا زملائي في القوات الجوية، وعندما تتعرف إليهم لا يمكنك أن تتخيل أن هذا الشخص يمكن أن يسير يوماً من الأيام هذا المسير. كانت تلك مؤامرة. نعم خلايا لا يعرف أعضاؤها بعضهم بعضاً. خلايا على نمط الحزب الشيوعي، الطريقة نفسها. إلا أن عدد المهمين منهم لم يكن كبيراً، الحركة نحو مئتي شخص، وقد عوقبوا بالسجن. ولكن كانت كل معاشاتهم (رواتبهم) تُصرف إلى عوائلهم، ولم تنقطع

المعاشات أبداً. وكان الملك خالد قد عفا عنهم، ولم يُعدم أحد منهم أبداً، فليس عندنا إعدام من هذا النوع. إلا أن الدعاية المصرية نشرت الأكاذيب حول الإعدام. حتى الذين هربوا إلى مصر عاد واحد منهم إلى جدة، وحضر أمام الملك فيصل وطلب منه السماح بالكلام، وقال له أنا فلان الفلاني الذي ذهبت إلى مصر، فسأله الملك: يعني أنك رجعت إلى أهلك؟ اذهب إليهم. إلا أن تلك كانت مشاكل خطيرة. وكان في مخططاتهم أن يضربوا طائرة الملك فيصل، كما حصل في المغرب. كانت الخطة أن الملك فيصل يأتي من جدة إلى الرياض وتطلع الطائرة من الظهران وتضرب طائرته. لم تكن بينهم عناصر شيوعية وماركسية، ولا حتى قومية عربية. كل ما في الأمر أنهم وُعدوا بأن يصيروا حكّاماً، فغُرّر بهم[10].

فهل لنا أن نصدق نجل فيصل ووزير الإعلام السابق في المملكة بصفته مصدراً موثوقاً للمعلومات؟ نعم بالطبع، خاصة أن مؤلفين أجانب رأوا داوود الرميح ويوسف الطويل بعد سنين من الحادث بين الناس الطلقاء. لقد حظي كلا هذين الرجلين المتورطين في المؤامرة بالعفو، وصارا من رجال الأعمال الموفقين الذين ينافسون بعض أفراد الأسرة المالكة السعودية الشباب من حيث الثراء.

أما بخصوص المعارضة "اليمينية" فإنها في عهد الملك فيصل لم تتخذ أبداً شكل المؤامرات والإرهاب، كما حصل في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين. لقد كانت على الأرجح مقاومة سلبية خاملة من المحافظين الذين يخشون التبدلات.

كان فيصل يتفهم أهمية التلفزيون كوسيلة من وسائل التنوير والإعلام والدعاية. وقد اطّلع أثناء رحلاته إلى الولايات المتحدة وأوروبا على هذا النوع من وسائل الإعلام ومن التأثير في أذهان الناس، فوفّر للسعوديين بنشر التلفزيون فرصة الترفيه، وأقام حاجزاً في وجه الحرب الإذاعية من القاهرة.

إلا أننا في بداية القرن الحادي والعشرين لا نستطيع تقريباً أن نتصور أهمية التلفزيون بالنسبة إلى الأكثرية المطلقة من السعوديين في الستينيات. وهنا نعطي الكلمة لأول وزير للإعلام في المملكة جميل الحجيلان، فهو الذي أدخل التلفزيون إلى البلاد في تلك الفترة:

> التلفزيون في المملكة العربية السعودية وضعه يختلف عن أي تلفزيون في العالم العربي. ففي الأردن وسورية ومصر هناك دور سينما والناس معتادون هذا الشيء. ولكن الغالبية الكبرى من الشعب السعودي عندما قام التلفزيون لم تكن قد رأت بعد صورة متحركة على الشاشة لعدم وجود دور سينما. ولذلك كان دخول التلفزيون يشكل اقتحاماً لمفاهيم طيبة، ولكنها كانت قلقة

وخائفة. فالتلفزيون يفترض تقديم أغانٍ للرجال والنساء، ويعرض صوراً لامرأة غربية لا شيء على رأسها. كل هذا يعدّ اقتحاماً لمفاهيم كانت مستقرة وغير قابلة لإعادة النظر فيها.

بدأ التلفزيون في جدة وفي الرياض. وطبعاً بدأنا ببرامج القرآن والأحاديث والأخبار العالمية. ولكن الصحافة السعودية آنذاك كان ممنوعاً عليها أن تنشر صورة المرأة. فكيف أستطيع أن أقدم على التلفزيون صورة نساء أوروبيات وأميركيات يتحدثن؟ كانت مشكلة كبيرة بالنسبة إليّ كمدير للتلفزيون. ولا أستطيع أن أقدم كل يوم أربع ساعات أو خمس ساعات من البث التلفزيوني من دون أن أستعين ببرامج أجنبية... ولذا قررت أن أتخطّى هذه المرحلة ولم أستشر الملك فيصل. قررت أن أتحمّل المسؤولية وأقدم صورة المرأة.

استدعيت مساعداً لي اسمه الدكتور عبد الرحمن الشبيلي وقلت له ابحث لي عن برنامج علمي تكون فيه صورة امرأة. وبعد البحث وجد برنامجاً هو عبارة عن حديث عن الحيوانات تقدمه سيدة، وهو برنامج تلفزيوني أميركي. سيدة أميركية جميلة في لباسها الغربي طبعاً. يبدأ الفيلم ثم هي

تنهض وتتكلم، وقلت له: قدم هذا البرنامج. وكانت تلك أول مرة ترى الغالبية السعودية صورة امرأة على الشاشة. وهذا شيء مهم اجتماعياً. أول مرة. يمكن 90 في المئة وربما مئة في المئة من السعوديين لم يروا شيئاً من هذا القبيل في حياتهم. صورة امرأة على التلفزيون ليس على رأسها أي شيء. أنا كنت أقيم مع زوجتي في الفندق قبل أن أسكن في بيتي وانتظرت البرنامج في غرفة فندق "اليمامة" سنة 1965م. بدأ الإرسال التلفزيوني وأنا أنتظر. وعندما رأيت صورة المرأة قفزت من حيث لا أشعر إلى الجهاز وأردت أن أقفله. كنت أعتقد بأني سأكسر الجهاز بكلّيته. أنا نفسي فوجئت. وقلت لزوجتي: انظري. وأكملت البرنامج، وتجاوزنا جدار الخوف. وانطلقنا.

طبعاً التلفزيون، كما قلت لك، يشكل اقتحاماً لمفاهيم اجتماعية، وربما مفاهيم دينية كثيرة. فالاعتراضات لم تنقطع إطلاقاً، وكانت تأتي بحسن نية. مفاهيم طيبة، رؤية دينية خاصة، رؤية اجتماعية خاصة. ولكن العمل التلفزيوني كان عملاً إعلامياً، والعمل الإعلامي عمل سياسي. وهذه كانت سياسة الدولة. كان التلفزيون نافذة يطل المواطن السعودي من خلالها على أمور ما كان

يعرفها، اجتماعية وسياسية واقتصادية، في بلد ما كان فيه لا سينمات ولا نوادٍ ولا مقاهٍ عامة. التلفزيون كان الوسيلة الترفيهية الوحيدة التي تجتذب المجتمع حول الأسرة لمدة ست ساعات على الأقل يومياً. وعندما تركت الإعلام في نوفمبر 1973م كان التلفزيون يُشاهد في مكة وجدة وفي الطائف وفي منطقة الرياض وفي القصيم وفي المنطقة الشرقية. الجنوب لم يكن يصله بعد.

ولم تكن في المملكة رقابة مسبقة على الصحف. كان العمل توجيهياً فقط، وليس رقابة. كانت هناك توجيهات إلى الصحافة تحاشوا هذا الشيء وتجنّبوا هذا الشيء. وكان اقتناعي أنني أُحسن النية في الصحافة[11].

إلا أن "النيّات الحسنة" يفهمها مختلف الناس بأنماط مختلفة. ففي الرياض نفسها كانت هناك جماعة حاولت إحياء مبادئ حركة الإخوان. كانوا يقضون الوقت في التعبّد والصلاة ويقلدون الإخوان حتى في المظهر الخارجي، حيث يصبغون لحاهم الناتئة إلى الإمام بالحناء، ويرتدون الثوب الذي بالكاد يغطي الركبتين. كانت هذه المجموعة على ارتباط بالأمير خالد بن مساعد بن عبد العزيز آل سعود، وقد قامت بتظاهرة صاخبة ضد التلفزيون. ولقي الأمير نفسه مصرعه في

اشتباك مع الشرطة قيل إنه جرى أمام مبنى التلفزيون، وفي رواية أخرى في منزل الأمير.

ونحن نتوقف عند تفاصيل هذه الحادثة، لأن فيصل بن مساعد الأخ الأصغر للأمير القتيل خالد هو الذي أقدم بعد عشر سنوات على جريمة اغتيال الملك فيصل.

يقول جميل الحجيلان:

> وكما فهمت أن هذا الشاب خالد كان متديناً وربما أثروا عليه وقالوا له إن من مصلحة البلد وحماية للدين ألا يكون تلفزيون في البلد. وربما أن الدولة علمت بأن هناك نوايا لكي يقام بعمل عنيف... ومخاطر على التلفزيون وهذا يشكل طبعاً خروجاً على سياسة الدولة. فالدولة لا تملك إلا أن تتصدى...[12]

الملك فيصل يجسد السلطة في الدولة. وقد يكون أحد من أفراد عائلة الأمير القتيل قد حمّل الملك مسؤولية مقتله. ولعل الكلام عن هذه الحادثة الأليمة في عائلة القتيل ظلّ عالقاً في ذاكرة الغلام فيصل بن مساعد.

ثمة روايات كثيرة عن مقتل الأمير خالد بن مساعد. ولكنّ أخاه الآخر عبد الله يقول:

> الذين يعرفون أخي خالد جيداً يقولون إنه كان متميزاً بتقواه، بزهده، بعلمه، وبذكائه. كان يحفظ القرآن، وفضّل الدعوة وعمل الخير وطلب العلم على كل شيء آخر... كان

من جلسائه وأصدقائه رحمه الله الشيخ عبد العزيز بن باز مفتي المملكة العربية السعودية السابق وغيره من المشايخ وطلاب العلم المعروفين. كان أخي رحمه الله يدعو ويجهر بما يعتقده خطراً على مبادئ وأخلاق مجتمعه الإسلامي. وكان ينتقد التلفزيون كواحد من هذه المخاطر. يخطئ من يسقط الماضي على الحاضر ويفصل الرأي عن مكانه وزمانه. منتصف الستينات كانت فترة عصيبة، ولم ينفرد أخي عن كثيرين آخرين في تفكيره وآرائه. ألوف الشباب كانوا يفكرون وبالطريقة نفسها آنذاك...

أخي خالد لم يقتل أثناء اقتحام محطة التلفزيون... كان أخي في البيت عندما جاءت فرقة من القوات الخاصة في منتصف ليلة الثامن من سبتمبر 1965م وحاصرت المنزل في شارع الخزان.

ماذا حدث بعدها؟

... توجد روايات كثيرة. بعضها يقول إن أخي خالد أطلق رصاصة في الجو لإبعاد الشرطة فردوا عليه بوابل من الرصاص. وبعضها يقول إن الرصاصة انطلقت من مكان قريب. بعضها يقول إنه أطلق النار صوب الشرطة فأصاب أحدهم في ساقه ففتحوا النار عليه، وبعضهم يقول غير ذلك.

كان الجو مشحوناً والاضطراب مسيطراً، لذا ليس من السهل التيقّن ممّا حدث تماماً! باستثناء القول إن رصاصة أصابت أخي خالد في رأسه فسقط داخل بيته وعادت الروح إلى بارئها.

أعمامي يقولون إن ما حدث كان خطأً غير مقصود. ليس هناك شخص مسؤول عن مقتل أخي، ولم يأمر بإطلاق النار عليه أحد. ما حدث كان قضاء الله وقدره. الأخطاء تقع. مقتل أخي خالد كان خطأً كبيراً... الشخص الوحيد الذي نعى الأمير خالد بن مساعد هو الأمير خالد الفيصل (الشاعر المعروف وابن الملك فيصل) حيث رثاه بقصيدة...[13]

نقّاد فيصل عندما يأخذون عليه "قلة التقدمية" يتجاهلون الأوضاع الفعلية للمجتمع السعودي، وهي مهمة حتى في صغائر الأمور.

يقول نهاد الغادري:

عندما رفض الشيخ عبد العزيز الباز فكرة نزول الإنسان (الأميركي) على القمر، حاول فيصل أن يجعله يغير رأيه ليأخذ الناس فكرة غير مشوّهة عن المملكة. وأرسل إليه الدواليبي أستاذ الشريعة ليقنعه بإعطاء تصريح مناقض لتصريحه الأول حتى يعطي صورة غير مشوّهة للبلد. وكان بوسع الملك أن يمنع الباز، لكنه ما أخذه بالقسر، بل حاول

إقناعه. العلاقة الدينية للسلطة أيام فيصل كانت علاقة موحدة، يحاول أن يطورها نحو الأفضل من خلال المجادلة، عكس الآخرين... ومن ذلك مثلاً وضع صورة النساء على جوازات السفر. في السابق ما كانت صورة المرأة تلصق بالباسبور. وسألني رأيي، فقلت لا بد أن نضع صوراً شرعية. فطلب مني أن أذهب إلى الشيخ محمد بن إبراهيم لأشرح له الموضوع. وذهبت، وحاول الشيخ أن يقنعني بأن صورة المرأة تثير الفساد والزنى والعياذ بالله. وسأل ما الحل، فقلت يجب أن تلصق صورة المرأة في جواز السفر بشرط أن يكون لباسها شرعياً. وما إن قلت كلمة شرعي حتى وافق. وبعد ثلاثة أيام بعث الشيخ رسالة إلى الملك بمعنى نقترح على جلالتكم أن تكون في جوازات السفر صور شرعية للنساء، فشعر فيصل بمنتهى الارتياح. وأخذت أنا أول جواز سفر وضعت فيه صورة زوجتي. وكنا مسرورين لحل المشكلة[14].

قلت لأحمد بن عبد الوهاب:

بالنسبة إلى كتابي، قضية العلاقة مع العلماء مهمة جداً. فيصل كان رجل الإصلاح، ولا بد من التغيير. وفي نفس الوقت كان رجال الدين متمسكين بتقاليد قديمة أحياناً، فما

رأيك، وهل يمكن التعليق على ذلك، وأنا لا أصرّ طبعاً...

فقال لي أحمد بن عبد الوهاب:

أنا لا أتكلم عن وضع رجال الدين في الوقت الحاضر. ولكني أحدثك عن علاقة فيصل برجال الدين في تلك الأيام. كانوا يحترمونه وهو يحترمهم. فيعطيهم حق الاحترام على ألا يتعدوا على احترامه... ولكن في العمل كل شيء له محله. كان يعطيهم يوماً واحداً في الأسبوع. يوم الخميس. فكانت هناك مثلاً معارضة من رجال الدين لتعليم المرأة. فألحّ في إقناعهم وقال لهم: البيعة لي وليست لكم. وفتح المدارس (للبنات). كانوا يعارضون إلغاء الرقيق ويقولون إنه في الإسلام. فهو جاء وألغى الرقيق بقرار. وأعتقد، إذا كان لي حق أن أقول كلمة وأنا لا حق لي في ذلك، أنهم كانوا يهابونه أيضاً. فهناك الاحترام والهيبة. لأنه كان مُهاباً. ولكنه كان يحترمهم ولا يتطاول عليهم إلا بالنقاش.

س: مثلما كان عبد العزيز؟

ج: تماماً. لذلك يقال من قبل الناس الذين رافقوا عبد العزيز ومنهم حافظ وهبة والدكتور رشاد فرعون إن الملك عبد العزيز يقول لرجال الدين: كلكم على رأسي، (وهو

تعبير عن الاحترام) ولكن لا تجعلوني أهزّ رأسي (وعندها ستسقطون). فكان فيصل مثل أبيه يحترم رجال الدين، ولذا كانت كلمته مسموعة. وأضرب لك مثلاً: عملنا نظام الأوسمة في عهد فيصل. وليَ الشرف أنني أنا الذي عملته. ورفعته إلى الملك فيصل فأحاله على مجلس الوزراء، وصدر قرار مجلس الوزراء برئاسته طبعاً، وأعيد إليه، وكان يجب أن يصدر مرسوماً. وفي الليل قال لي: خذ هذا النظام واذهب إلى الشيخ محمد بن إبراهيم، الإمام المفتي في ذلك الوقت، واعرضه عليه لنستأنس برأيه. فذهبت إلى المفتي وقلت له إننا نريد أن نعد نظام الأوسمة، لأن الرؤساء الذين نذهب إليهم يعطوننا أوسمة وليس لدينا شيء نعطيه لهم. فقرأه، وسألته: ما رأيك؟ تطلعّ فيّ وقال: سلّم لي على الملك فيصل وقل له إن له في رقابنا بيعة فليفعل ما يفعل ولا يسألني[15].

لقد حدد الملك فيصل بدقة ووضوح الأطر والأبعاد التي يتصور فيها كيفية بلوغ التقدم والتجديد، وبالتالي القاعدة التي يقوم عليها التعاون والحوار مع العلماء من رجال الدين. فكان يقول: ديننا يطالبنا بالتقدم إلى الإمام، ولكن بالحفاظ على كنوز تقاليدنا السامية وأخلاقنا الفضلى. إن ما يسمى التقدم في العالم

المعاصر وما يدعو إليه المصلحون، سواء كان التقدم الاجتماعي أو الإنساني أو الاقتصادي، كله موجود في الدين الإسلامي وفي الأنظمة الإسلامية[16]. إلا أن عملية التبدلات تقتضي وجود جهاز حكومي وإدارة للدولة يقف على رأسها أناس لديهم فكرة عن وظائفهم ومهماتهم الجديدة. كان فيصل قد أرسى مقدمات هذا الجهاز في خلال ثلاثين عاماً من حكمه للحجاز. وبمشاركته تمّ في الحقبة التالية تأسيس وزارات حتى مسمياتها ترسم أبعاد وظائفها - وزارة المالية والتجارة والاقتصاد، وزارة النقل والمواصلات، وزارة الزراعة، وزارة المعارف، وزارة الصحة، وزارة البترول والثروة المعدنية، وزارة الإعلام، وبالطبع وزارة الدفاع ووزارة الداخلية. وتولت مؤسسة النقد السعودية مهمات البنك المركزي، فيما تولت هيئة الرقابة والتحقيق مهمات المراقبة. إلا أن المفارقة، وخصوصاً في المراحل الأولى، كانت في وجود مسؤولين مؤهلين ومحترفين على مستوى إدارة تلك الوزارات، على رأس موظفين عاديين غير متعلمين وغير مؤهلين لأداء واجباتهم على الصعيد الأدنى. وعملت الإدارة الحكومية والجامعات السعودية المتنامية على إعداد كوادر تمكن بعضها من تحقيق نجاح في الشؤون الإدارية. إلا أن التجربة في الشرق الأوسط تبين أن إعداد الجهاز الإداري الفاعل عملية طويلة الأمد.

لقد بنى فيصل الكيان أو الهيكل الإداري للدولة ببطء وتأنٍّ، مستفيداً من التجارب والأخطاء والفشل

والإخفاق، فتمكن من إرساء بدايات هذا الكيان الذي لا وجود لدولة عصرية من دونه.

وفي ما يخص الأعمال الملموسة في مجال الصحة والتعليم والزراعة والصناعة والبناء والمواصلات، فإننا نريد أن نلقي على ذلك كله نظرة من زاوية أخرى.

فأنا أورد هنا برنامج أول تنظيم معارض في المملكة العربية السعودية، وأعني جبهة الإصلاح الوطني التي ظهرت إلى الوجود على موجة الإضراب العمالي عام 1953م، وأنشأها ضباط وموظفون وعمال من شركة أرامكو. فقد أوجز البرنامج أهداف الجبهة في ما يأتي:

1. تحرير البلاد الناجز من الهيمنة الإمبريالية ومن التسلط الاقتصادي لأرامكو وشركات النفط الأخرى.
2. اعتماد دستور يكفل الانتخاب البرلماني ويضمن حرية النشر والتجمع وإجازة الأحزاب والنقابات وحرية التظاهر والإضراب.
3. تطوير الصناعة الوطنية وتوفير البذور والأسمدة والآلات الزراعية للفلاحين بأسعار مخفوضة.
4. إلغاء الرق.
5. إعادة النظر في الاتفاقيات المعقودة مع شركات النفط وتعديلها بشكل يضمن حق استثمار ثروات البلد على نحو يكفل تقدمه الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.
6. مكافحة الأمية وتأسيس مدارس البنات وتوسيع التعليم العالي والمهني[17].

وقد تكررت تلك الأهداف بصيغ مختلفة مع تشديد على بعضها من دون البعض الآخر في برنامج "الأمراء الأحرار" (جبهة التحرير العربية) و"اتحاد أبناء الجزيرة" ("اتحاد شعب الجزيرة" في ما بعد) و"جبهة التحرير الوطني في السعودية" والحزب الشيوعي السعودي.

ويمكننا أن نفرّق في برامج تلك التنظيمات بين الجانب السياسي والجانب الاقتصادي - الاجتماعي. فالمطالب السياسية، كالديموقراطية والدستور والانتخابات وحرية الرأي والإضراب، تعبّر عن المتطلبات والأمنيات الصادقة أحياناً والمفتعلة الزائفة أحياناً أخرى لدى حفنة من الثوريين الطامعين في السلطة، ولدى جزء من الطبقة المتوسطة المثقفة القليلة العدد. أما المطالب الاقتصادية والاجتماعية فكانت تعبّر حقاً عن مصالح الأغلبية الكبرى من السكان.

ونحن على ثقة بأن فيصل كان مطّلعاً على وثائق المعارضة "اليسارية" "العلمانية"، وقد أقدم على ما يسمّى بلغة السياسيين على "اختطاف الثورة"، إما بسبب حساباته الواقعية الواعية، أو بفضل إحساسه الغريزي الفطري الملازم لأي زعيم سياسي كبير. وقد تحدثنا عن إلغائه الرق والعبودية، وسنتحدث عن "ترويض" أرامكو في ما بعد. إلا أن فيصل بعدما صفّى وشلّ التنظيمات الثورية السرية، أخذ في الواقع يطبّق مطالبها وبرامجها الاجتماعية والاقتصادية. وقد فعل ذلك بنجاح أكثر من الأنظمة الثورية الاستبدادية في

الأقطار العربية الأخرى. قال في مقابلة مع مجلة الـ"تايم" سنة 1973م إن الثورات يمكن أن تنطلق من العروش كما تنطلق من خلايا المتآمرين. نحن في حاجة إلى كل شيء في هذه البلاد. إلا أن الاستقرار له الأولوية... علينا أن نبني ببطء، فنحن لا نستطيع تحقيق المعجزات في ليلة وضحاها[18].

وكان واضحاً للعيان ما ظهر في هذه البلاد لتحسين أوضاع الناس من مدارس وطرق وموانئ وخطوط جوية وحافلات وسلع استهلاكية وخدمات صحية... وتوافر الرعاية للمكفوفين، وللأيتام من الصبية والصبايا، وللصم والبكم... كل ذلك يجري بتوجيه من الملك وبأموال تعتمد بناءً على طلبه. كذلك ينفذ مشروع تحلية المياه في جدة بالعديد من ملايين الدولارات، ويُشيّد سد كبير في وادي جيزان على مقربة من الحدود مع اليمن، وتستمر أعمال تثبيت الرمال ومكافحة التصحر في المنطقة الشرقية وفي أماكن أخرى.

كان فيصل يدرك أن خطط تنمية البلاد لا بد أن تستغرق حيزاً كبيراً من الوقت. فهي لا توضع لعام واحد، والعديد من برامج التنمية تتطلب جهوداً طويلة الأمد. ولا بد أن تكون مفردة "الخطة الخمسية" علقت في ذاكرته بعد أن سمعها أكثر من مرة أثناء زيارته للاتحاد السوفياتي. كان يرفض كل ما يتّسم بطابع "اشتراكية" في الممارسات العامة. ولكن أليس في

الإمكان التخطيط لسنوات من دون التخلي عن المبادئ والمعتقدات؟

يقول أحمد عبد الوهاب:

عندما سافر الملك فيصل إلى ماليزيا وكان تنكو عبد الرحمن رئيس وزرائها فقال له عندي إدارة تخطط لماليزيا، فتعالَ لتطّلع عليها. فذهبنا إلى هذه الإدارة وأنا من ضمن الوفد، ورأى الملك فيصل بعض الخرائط للبلد من هنا ومن هناك فأعجبته كثيراً، وهي مربوطة برئيس الدولة. ولما رجع الملك فيصل من ماليزيا أسند إلى هشام ناظر وكيل وزارة البترول آنذاك إدارة التخطيط، وكان اسمها الرسمي "الهيئة الملكية للتخطيط"، ثم صارت وزارة بعد فترة ودخل وزير التخطيط الحكومة. ولذلك فإن أول خطة خمسية عملت في عهد الملك فيصل.

كانت خطة ضعيفة، والميزانية كانت ضعيفة أيضاً. الخطة الخمسية الكبيرة هي ثاني خطة خمسية، وفيصل كان متردداً في توقيعها. ذهب إلى وزارة التخطيط وكان يومها رئيساً للوزراء، وعقد مجلس الوزراء لأول مرة جلسة في مبنى الوزارة. وقيل له إن هناك خرائط ضخمة من فوق وما إلى ذلك. ورآها ووافق عليها. وجاءت إليه ثانية

لكي يوقّعها بصفته ملكاً. بالأمس كان رئيساً للوزراء واليوم هو ملك، ولم يوقّعها، فبقيت على مكتبه. كان هشام ناظر يأتي إليه كل يوم ويسأل رئيس الديوان هل وقّعها الملك أم لا. وجاء مستشار الملك الدكتور رشاد فرعون، مات رحمه الله، فسأل الملك فيصل وأنا واقف إلى جانبه وقال: "يا جلالة الملك متى هذا السجين ستفرج عنه؟". فقال فيصل: "يا رشاد أنا حضرت مجلس الوزراء حول الخطة هذه وأقررتها وأنا رئيس مجلس الوزراء، ولكنني خائف من طموحاتها كلما حاولت أن أوقّعها". طموحاتها كانت ضخمة للغاية. وبعد بضعة أشهر مات الملك فيصل، فوقّعت الخطة من قبل الملك خالد[19].

يبدو أننا استبقنا الأحداث الآن بعض الشيء. فالخطة الخمسية الثانية وضعت بعد انفجار العائدات السعودية في أعقاب "الثورة النفطية" عام 1973م. وقد نصت على نفقات غير مسبوقة، فقرر فيصل إرجاءها بسبب طموحاتها الفائقة.

يقول هشام ناظر:

عندما انتقلت من وكيل وزارة البترول إلى التخطيط، كان جهاز التخطيط جديداً، وكانت الفكرة أيضاً جديدة. وكان هناك نوع

من التنافس البيروقراطي ما بين الأجهزة الحكومية والتخطيط، على اعتبار أن كل الأجهزة كانت حذرة، ربما يأتي التخطيط ويسحب بعض صلاحيات هذه الأجهزة. ولذلك عندما انتقلت إلى التخطيط وجدت أن الجهاز ضعيف جداً، ولا يستطيع أن يقوم بمهماته لا من حيث التكوين العملي ولا من حيث الإمكانات المادية... تعاقدت مع ستانفورد إنستيتوت لكي يزوّدوني بالخبرات، واستفدت من خبراء الولايات المتحدة واستعنت بخبراء من الجامعات السعودية، من السعوديين الموهوبين الموجودين في ذلك الوقت، وحاولت أيضاً استقطاب الخبرات السعودية للعمل معي في التخطيط، وأنشأت علاقة قوية مع وزارة المالية والاقتصاد الوطني عندنا، وكان عليها الأمير مساعد الذي هو عم الملك، على اعتبار أن هناك التمويل المادي. وعندما ذهبت إلى الملك وقد تمت كل هذه الأمور، وجد أن هناك عملاً جدياً يستحق التأييد. ومنذ ذلك الوقت صرت أحظى بتأييد كبير من جانب الملك. للأسف، إن الملك قتل قبل حتى أن يتم الخطة الأولى.

الملك فيصل كان يعتمد على رجاله من النواحي الفنية، ولذلك لم يكن يتدخل.

وعندما تقول له أرجو أن توجهوني في الموضوع المطروق يسألك دائماً ما هو رأيك أنت. وكان يطلب من الرجال الذين هم في الحكومة في ذلك الوقت، في مناطق مختلفة، أن يمدّوه هم بالأفكار فيما يتعلق بالمناطق التي يرأسونها. هذا كان من طبيعته أن يعتمد على الناس المحترفين ويثق بهم. وإذا قدم له الوزير المهني فكرة فإنه يعتمدها اعتماداً على نصيحة الوزير[20].

يحصل في المجتمعات أحياناً إضفاء هالة من "الغيبية" و"الخصوصية" على السلطة والملك أو رئيس الجمهورية، فيتحول في أنظار الأغلبية إلى شخصية مميزة تماماً تقف فوق الجميع، أقرب إلى السوبرمان، الإنسان الخارق. ويميل الناس عادة إلى نسيان حقيقة كون الزعيم إنساناً كسائر البشر، لديه عائلة وأطفال، ويمكنه أن يحب ويحقد وأن يكون في صحة جيدة أو عرضة للمرض، متزناً يضبط نفسه ومشاعره، أو شديد الانفعال لا يضبط أعصابه، وأن تكون له هواياته ومشاربه وأذواقه في الطعام وفي الحياة المعيشية. في الولايات المتحدة يحاول الشخص أن يكشف خفايا روحه ويعرّيها أو يتظاهر بأنه يعرّض حياته الشخصية على الملأ ليبيع مذكراته بأغلى ثمن. أما في المملكة العربية السعودية فالحياة الشخصية لأفراد الأسرة السعودية، وبخاصة الملوك، موضوع مغلق أساساً بالنسبة إلى الجمهور. المقابلات الحية التي أجريناها،

الدكتور إيغور تيموفيييف وأنا، مع حاشية الملك فيصل كشفت أساساً عن خصائص سلوكه كرئيس للدولة، لكنها رفعت النقاب رغم ذلك عن بعض اللمسات (غير الكاملة أبداً) في شخصيته، ليس فقط كزعيم سياسي، بل كذلك كإنسان. ولا بد أن نأخذ في الاعتبار أننا تحدثنا إلى أناس مقرّبين للملك فيصل ومخلصين له كل الإخلاص، ما يعني أن تقويماتهم أصلاً لا بد أن تأتي إيجابية.

يقول أحمد بن عبد الوهاب:

> كان رجلاً دقيقاً. وعلى سبيل المثال مواعيده لا يغيّرها أبداً... وكان شغيلاً. صحيح أنه كان في شبابه كأي بشر، ولكنه كان منظماً. ولم يسرف في مراهقته، ولم يُذكر عنه أنه كان مراهقاً مسرفاً. تلك الفترة التي لم أعشها، لكنني أسمعها من الكبار الذين جلسنا معهم...
>
> لم يكن يصحو مبكراً، لأنه ينام متأخراً في الليل، بعد منتصف الليل، لأنه كان يجلس في المكتب حتى الحادية عشرة أو الحادية عشرة والنصف ثم يرجع إلى البيت ويجلس مع أسرته.
>
> كان يصلي الصبح حاسراً وينام ثانية ساعتين، يسمّونها عندنا في نجد تفطيرة، يصلي ويفطر. ويبدأ يومه حوالى العاشرة صباحاً. يبدأ بفطور خفيف ويذهب إلى

المكتب في العاشرة أو العاشرة والنصف صباحاً، ويبقى هناك حتى الظهر. أنا أحدثك عنه كالأمير، فيشتغل عمله اليومي في المعاملات إلى أن يؤذن الظهر فيقوم يصلي صلاة الظهر ويتغدى مع الناس، في صالونه، مع الناس ممن يرغبون في المجيء إليه. الصالون صغير، ثلاثون أو أربعون شخصاً لا أكثر. وبعد ذلك يذهب إلى البيت. كان الله يرحمه من المهم جداً له القيلولة بعد الغداء ولو لمدة 45 دقيقة يرتاح فيها ثم يقوم لصلاة العصر ويلبس ثيابه وينزل إلى المكتب. ويبقى هناك إلى المغرب. ويخرج قبل المغرب بعشر دقائق ويركب السيارة. وهو للمناسبة ما كان يحب المظاهر. كان بسيطاً جداً في الحياة، ليس مجرد تواضع. كان أميراً. وعندما صار ملكاً والمفروض عليه أن يكون له موكب، إلا أنه كان يكره ذلك كثيراً. كان يركب السيارة ويذهب إلى الصحراء. كل يوم يخرج في سيارته ومعه نفر من أصدقائه ودائماً معه الأمير أخوه خالد وأمير آخر اسمه فيصل بن سعد (ابن عمه سعد بن عبد الرحمن). وخارج المدينة يصلي المغرب ويسبّح ويرجع إلى قصره، إلى بيته. وهناك الناس كلها جاهزة، يجلس معهم ويتعشى. بعد العشاء يذهب إلى

العائلة. هناك مجلس للأسرة، للأميرات أخواته، وللنساء اللواتي عندهن طلبات أو شكاوى. يجلس معهن ساعة. ثم يصعد إلى الدور الآخر، يصلي صلاة العشاء، ويرجع مرة أخرى إلى المكتب ويجلس في المكتب إلى منتصف الليل. فترة الليل هي فترة التقارير السياسية والصحافية والمعاملات الطويلة. عندما تُقدم إليه ورقة يقرأها كلها ويصححها ويضع خطوطاً ويكتب جملاً في بعض الأحيان. وأنت تعرف طبعاً أن رؤساء الحكومات والملوك عندهم شيء بدائي مثل البرقيات. والخبر الذي يأتي بالبرقية، عاجل وأسرع من الخبر الذي يأتي في معاملة. أليس كذلك؟ فيصل كان يبدأ بالبرقيات في أي وقت. كان الله يرحمه لا يترك مكتبه إلا بعد أن يفرغ من كل أعماله اليومية. وإذا جاء شيء عاجل يتم بالتلفون. ولذلك ما كان يحب التلفون كثيراً. لكن الموظف الحاجب أو السكرتير إذا كان هناك شيء عاجل يمكنه أن يكلمه في أي وقت. ولم يكن يقول اترك هذا لغد أو لبعد غد. وتلك صفات نادرة. ولذلك كانت الأمور في أيامه ماشية أولاً بأول، وكان يرجع بالليل. وعنده جلسة بالليل - المتعة. يبقى في الليل مع العائلة، زوجته وبناته وأولاده. ولما كبر أولاده صار يلتقيهم

مع زوجاتهم وأولادهم. الجسلة ساعة، من الحادية عشرة والنصف إلى الثانية عشرة والنصف ليلاً على وجه التقريب. وفي الواحدة يبقى وحده ويمضي للنوم. وآنذاك يقرأ مقالات أو مجلة قبل أن ينام. وفي الصباح يصلي الصبحية... حياته دقيقة ومنظمة، ولذلك يشعر الذي يشتغل معه بالارتياح. ولم تكن لدى الملك فيصل عطلة نهاية الأسبوع. فهو يشتغل يوم السبت ويوم الجمعة ويوم العيد ويوم الحج. عندما كان أميراً كانت عنده عطلة أسبوعية، من يوم ما صار ملكاً تغيّرت حياته[21].

أورد هنا إفادات أخرى قد تختلف بعض الشيء عمّا تحدث عنه أحمد بن عبد الوهاب.

يقول عبد الرحمن الرويشد:

لما تولى فيصل المُلك رأى ما نسميها الوقوعات، أي الحوادث. وانزعج عندما رآها. وقال: كيف يحدث هذا واليوم هو خامس يوم ولم أطّلع عليها بعد؟ هذه وظيفتي أنا، يجب أن أراها يومياً. هيّئوا موظفاً يجلبها لي لأراها يومياً وأؤشر على الحاجيات التي أحب أن ترفع إلي. واضطررنا إلى أن نرسلها إليه يومياً. أذهب أنا وأحد المسؤولين مدير عام الحقوق ومساعده وأنا مساعده الثاني.

وكلنا الثلاثة نذهب بعد صلاة الفجر. ومن خصائصه أنه بعدما يصلي الفجر لا ينام. الساعة خمسة ونصف أو ستة صباحاً. في القصر وهو بيده اللي يسقي الأشجار والزهور. وعندما نأتي الشرطة هناك عندها خبر. والشمس لم تطلع بعد. ومعنا الورقة عن الأحداث التي حدثت البارحة منسقة ومطبوعة بالآلة الكاتبة. عندما انزعج من تأخر وصول الوقوعات قال يجب أن تجلبوها لي رأساً من دون روتين ولا ديوان. عادة الملك يسقي الزهور عندما نأتي إليه. يترك السقي وأجيء إليه أنا وضابط الحرس المأمون ونسلم الورقة بدون كلام، مجرد: السلام عليكم. ويرد: عليكم السلام. ويؤشر على الحدث المهم. وعندما أعود إلى وزارة الداخلية أجد الورقة سبقتني. وهو يبكّر عادة، يأتي في الساعة الثامنة أو الثامنة والنصف.

المسائل المتعلقة بالفتن والمؤامرات تعدها المخابرات وهو يؤشر عليها طالباً توضيح السبب في حدوثها. وهذه الخدمة عندنا موجودة لكننا نجريها إجراءً روتينياً، لكنه يريد أن يعرف رأي الجهات الخاصة... وأنا لا أعرف الطريقة التي يعملون بها.

س: ولكن لما بدأت الدعاية الناصرية تؤثر على الحوادث في المملكة، من كان يجهز التقارير والردود على تلك الدعاية؟

ج: الإعلام والاستخبارات طبعاً. وكان مسؤول الاستخبارات عمر شمس. وكذلك المباحث اشتركت والداخلية والاستخبارات. وأنا لا أدري عن الاستخبارات ولكن تقاريرها طبعاً كانت توضع يومياً على طاولة الملك. ولذا انصرف فيصل عن عائلته وتزوج الحكومة كما قلت[22].

يقول هشام ناظر:

أنا أعرف أن الملك فيصل كان يشتغل إلى منتصف الليل. أهم ما كان في العلاقة بيننا وبين الملك أننا كنا نجده في أي وقت. أنا مثلاً لو كنت في اليابان ووصلت إلى المملكة حوالى السادسة أو السابعة مساءً ولو ذهبت إلى الملك في الساعة العاشرة مساءً أجده في مكتبه. كان عنده أربعة دوامات. دوام من الصبح إلى الظهر، ودوام ثانٍ بعد الظهر ودوام ثالث في الليل، وطبعاً يقال إنه بعد الحادية عشرة يقرأ أوراقه ويقرأ التقارير. وأنا كنت ألقاه في أي وقت أريد أن ألقاه. وأي وزير يستطيع أن يذهب إلى الملك ما

دام الملك في مكتبه، إلا إذا كان الملك مرتبطاً بمقابلة أو بضيوف أو بأشياء أخرى.

س: أنا أعرف أن صحة الملك فيصل لم تكن جيدة تماماً، وقد تعرض لعملية جراحية، فكيف تمكن أن يقوم بهذا العبء الخارق؟

ج: ما كان يبدو عليه أي شيء. ولا يشتكي، ولم يكن يتخلى عن النزول إلى مكتبه ولا يوم الجمعة، يوم الإجازة الأسبوعية. ولذلك لو كان يتألم فهو يتألم بينه وبين نفسه من دون علم من حوله بألمه. لكن الذي أستطيع أن أقوله إن الملك فيصل كان رحمة الله عليه ملتزماً في أكله، في شربه، في منامه، حتى يقال إنك تستطيع أن تؤقت ساعتك على حركاته[23].

ولقد وجدنا تفاصيل مرض الملك فيصل في كتاب منير العجلاني **تاريخ مملكة في مسيرة زعيم**.

يقول العجلاني:

وقد سألت الدكتور رشاد فرعون - مستشار الملك الذي غامر بمنصبه وزيراً للصحة وبما هو أكثر من ذلك وسافر إلى أميركا برغم معارضة الملك سعود ليكون إلى جانب الملك فيصل عند إجراء العملية له - أن يذكر لي قصة المرض في مراحلها المختلفة، ففعل، وأنا الآن "أدوّن" ما أتذكره من أقواله:

زار الأمير فيصل أميركا عام 1945م، وخلال هذه الزيارة فحصه الأطباء الأميركيون فحصاً عاماً وقرروا أن سبب شكواه (القرحة)، وأعطوه علاجات مهدئة، ومنعوه من المقليات والشحوم والطماطم والبرتقال، ولكنه يأكل اللحم المشوي والبيض المسلوق ويشرب الحليب. وقد استمر في الحِمية ثلاث سنوات.

وفي آخر عام 1948م، انعقدت في باريس دورة الأمم المتحدة، وكان الفيصل على رأس الوفد السعودي، وأصيب هناك بنوبة حادة جداً، منعته من حضور الاجتماعات وأوصوه بالراحة، ثم ذهب إلى سويسرا، ثم إلى الريفييرا الفرنسية (مدينة كان) للاستراحة والنقاهة.

وكانت تعاوده نوبة ألم شديد، وكان سموّه يصف هذا الألم بقوله إنه يشعر بشيء يدور على نفسه، ثم ينتشر إلى جميع منطقة البطن!

فحصه أطباء باريس فلم يجدوا أثراً للقرحة... وأخذو صوراً للمرارة قالوا إنها سليمة.

وفي سنة 1957م ذهب الفيصل إلى أميركا للعلاج، وفحصوه فحصاً جديداً، فلم يجدوا قرحة. ولما فحصوا الصور التي

أخذت للمرارة في باريس وجدوا فيها(حَصَيات)، وقالوا إن الأعراض من هذه الحصيات الصفراوية؛ ففتحوا البطن وأخرجوها، ثم فحصوا المعدة باللمس فوجدوا فيها التصاقات تدل على وجود التهاب قديم في البيريتوان (التهاب الصِفاق)، وقدروا أنه ناشئ عن أعراض تيفوئيد قديمة أو انفجار الزائدة... ونصحوه بالاستراحة.

وبعد شهر من العملية، عاودته آلام أشد من الآلام الأولى... فاستحضروا له أطباء من بوسطن وفيلادلفيا ونيويورك، وعقدوا اجتماعاً وفحصوه، وقالوا إن معه (قرحة حادة) وتلزمها (المداخلة) حالاً، أي القيام بعملية سريعة.

فتحوا البطن، مرة ثانية، فلم يجدوا في المعدة أي آثار صلابة تدل على قرحة، فاستحسنوا أن يُجروا له عملية تفاغم (آنستومون) أي ربط المعدة بالأمعاء، وذلك بفتح طريق من أسفل المعدة إلى الأمعاء رأساً.

ومتى انتهت هذه العملية المزدوجة، واستراح المريض، عمدوا إلى إجراء عملية جديدة في الحجاب الحاجز...

هنا طلب الأمير فيصل أن يقوموا بكل هذه العمليات مرة واحدة.

ولكنهم أجابوه أن عملية الحجاب الحاجز تُجرى من الصدر لا من البطن. وهكذا قاموا بالعملية المقترحة، وحاولوا القيام بعملية الفتق في الحجاب الحاجز لترميمه، وعندما أدخل الجراح إصبعه ليرى الفتحة التي يمر فيها "المريء" إلى المعدة، وسعتها، وكيفية ترميمها، وجد ورماً عند الفتحة ملتصقاً بالمريء، فدُهش، وقال: أنا أمام ورم! ولا أدري ما هو هذا الورم؟

فأخذوا قطعة وفحصوها، فوجدوا أن الورم سليم وليس خبيثاً!

فقال الجراح: إذن نستأصله!

واستؤصل الورم الملتصق بالمريء، وأثناء الاستئصال انفتح المريء، فخاطوه وصغّروا فتحة الحجاب الحاجز.

وبذلك اتضح أن جميع الأعراض التي كان يشكو منها الأمير، هي من هذا الورم، الذي كان يضغط على الضفيرة العصبية الشمسية عندما يدور فيحدث كل تلك الآلام!

... ولكنهم اكتشفوا ذلك بعد عمليات كلفته في صحته ثمناً غالياً...

لقد بقي الأمير أكثر من سنتين، بعد عملية التفاغم، يشعر بهبوط في القوى

وضيق النفس، خلال ساعة بعد تناول كل طعام.

وقد تحَمّلَ الأمير كل ذلك بصبر عجيب. وكنتيجة للعمليات التي أجريت له خطأً، فإن الأمير يلتزم في طعامه نظام حمية منذ خمس وعشرين سنة: يبدأ طعامه بلحم مشوي أو دجاج، ثم أرز مع خضر مسلوقة بالزبدة، ثم موزة أو تفاحة.

وقد أخذ منذ بعض الوقت يتناول أحياناً "مهلبية" أو(خشافاً) - "كونبوت"[24].

يمكننا أن نأخذ من أقوال أحمد بن عبد الوهاب وعبد الرحمن الرويشد فكرة عن أسلوب عمل الملك فيصل الذي يتلخص في البت الفوري للشؤون الحكومية الجارية. إلا أنه عندما يواجه قضايا جديدة أو خطيرة، فإنه يتقيّد بأسلوب على العكس من الأسلوب الأول. إنه يحاول إطالة الوقت لتختمر المسألة، ويفضّل أن يأتي الحل بنفسه، ينتظر حتى تُحل المشكلة بالتي هي أحسن.

يقول نهاد الغادري:

أهم شيء عنده هو الوقت. الوقت بالنسبة إليه يحل الكثير من المشاكل. ما يجب أن يقرره اليوم يؤجله إلى الغد إذا لم تكن هناك مشكلة. فالأربع والعشرون ساعة تعطي تفاعلات داخلية أو تطفو خلالها أشياء

جديدة. والسبب أنه ما كان يستطيع أن يتخذ قراراً يضطر إلى التراجع عنه فيما بعد. ولذا يأخذ وقته وكأن الزمن ليس له حساب. ذات مرة تندَرنا في شأن الكونكورد لتقوم برحلة إلى المملكة. قلت له إن الكونكورد تقلع من باريس وتصل نيويورك في ثلاث ساعات ونصف، بينما الطائرة العادية تقطع المسافة في ثماني ساعات. فضحك وسأل وما الفرق؟ وماذا يعمل المرء في نيويورك خمس ساعات؟

إذا دخلت في موضوع إياك أن تظهر متلهفاً. تدخل عليه وإذا شعر أنك مستعجل على الموضوع يحمله ويضعه في الدرج ويقول إن شاء الله خيراً. وإذا تركت له الموضوع وأبديت عدم اهتمامك به وكتبت أو شرحت رسالة وتركتها عنده فهو يمكن أن يوقّعها بعد ساعة. والسبب هو أنه إذا رآك مستعجلاً يخشى أن تكون العجلة قادتك إلى موقف خاطئ. وإذا شاهدك متأنياً تشعر بالاطمئنان يدرس القضية ويتخذ قراره. أسوأ شيء عنده العجلة[25].

يؤكد منير العجلاني الذي عايش الملك فيصل وتابع أعماله، أن الملك لا يحب أن يفرض رأيه على الآخرين، بل يدعوهم إلى معالجة القضايا بأنفسهم. وهو يمقت التهوّر وروح المغامرة، ويستخدم عامل الوقت في حل

المسائل الصعبة أحياناً. فالتأنّي ليس أسلوب فكر، بل أسلوب عمل، أسلوب صنع القرار وإعداده في مرحلته التمهيدية[26].

ذكر فرانك جانغرز، رئيس أرامكو السابق، قصة تتعلق به شخصياً، لكنها تجسد أسلوب عمل الملك فيصل. فهو يقول، من دون أن يشير إلى تاريخ محدد، إن وسائل الإعلام الفرنسية نشرت أكذوبة عن خلافات جدية بينه وبين الملك. وزعمت الجرائد الفرنسية أن علاقات المملكة مع أرامكو تدهورت إلى درجة تكاد تؤدي إلى طرد جانغرز نفسه من البلاد. واتضح في ما بعد أن الإسرائيليين هم الذين أطلقوا تلك الأكذوبة، فطلب جانغرز لقاءً مع الملك فيصل. كان الملك يستقبله عادة بعد يوم أو يومين من الطلب. إلا أن أسبوعين مرّا، فتزايدت الشائعات عن خلافاته مع الملك. وأخيراً وصلته الدعوة. جلس جانغرز مع فيصل فرآه ينتف عباءته دليلاً على الامتعاض. شربا الشاي، وتبادلا كلمات المجاملة لا غير. فلم ينتظم الحديث بينهما. إلا أن الباب فُتح ودخل فريق التلفزيون الفرنسي لتصوير اللقاء. فصوروا الملك ورئيس أرامكو وكأنهما يتجاذبان أطراف الحديث بكل ودّ. وكان جانغرز يعرف أن فيصل لا يطيق مصوري التلفزيون، وخاصة إذا كانوا من الفرنسيين الذين لا يحبهم. وبعد التصوير شربا القهوة. فقال الملك: السماح لك بالتصوير، ومن خلال الفرنسيين، أصعب من تجرّع السم. هكذا انتهت الشائعات عن الخلافات. ويضيف جانغرز:

تلك كانت طريقته ليقول لي من دون كلام:
لا تشغل بالك، لم يحصل ما يضير. وهو يعرف بأنني أعرف أنه يعرف ما أعرف[27].

رباطة الجأش وضبط النفس إلى جانب الاحترام في معاملة الآخرين والمرؤوسين وحتى الخدم من خصال فيصل التي تمثّل في حدّ ذاتها ظاهرة مميزة. فكان من هذه الناحية يختلف حتى عن والده الشديد الانفعال رغم قدرته على ضبط أعصابه في اللحظة المناسبة. أورد بهذا الخصوص بعضاً مما أكده معاصروه.

يقول هشام ناظر: "عمرك لا تسمع كلمة بذيئة من فم الملك فيصل. عمرك لا تسمع أي نوع من الشدة حتى لو غضب"[28].

يقول نهاد الغادري:

لم يسمع أحد أولاده أو زوجته أو إنسان آخر صوته مرتفعاً أبداً. ولم يسمع منه أحد في حياته كلمة نابية. ولم يشتم حتى في عصبيته. عندما يتنرفز تبدأ في داخله عصبيته. وإذا غضب لا يظهر منه الغضب. قد يبدو عليه الألم، لكنه يكبت مشاعره. قدرة عجيبة. لا تستطيع أن تقرأ في وجهه شيئاً. وجه ثابت. مشاعره الداخلية لا يعبر عنها لا بالحركة ولا بالكلمة. الذين يعرفونه من قريب يعلمون أن الطريقة التي يتعامل فيها مع ثيابه تدل على أنه متنرفز إذا كان متنرفزاً. وإذا بدأ ينتف بهدوء معنى ذلك أن

الحديث الذي يسمعه، يريد أن يعطي إشارة بأنه غير مهتم به أو أنه منزعج[29].

يقول أحمد بن عبد الوهاب:

إذا غضب يغضب من دون أن ينظر إلى الشخص الذي أمامه، ولا يقول كلمة نابية، يا سعيد أو يا بعيد أنت كذا، أبداً. وهو لا يعرف كلمات مثل يا كلب، يا حمار، أبداً. لا، أبداً. أنا شخصياً والله ما سمعت منه أي كلمة. كان متمكناً من نفسه، ولكن إذا زعل يزعل. ومن ميزات الأمير والملك أنه كان من الرجال القليلين الذين يقيّمون الخطأ. وتقييم الخطأ يعني أنه ليس كل خطأ يثير زعله. إذا غلطت معه ما كان يزعل لمجرد أنك غلطت معه، لكنه يقيّم غلطتك وقد يجد لك عذراً في غلطتك. ولكن إذا طفح الكيل وغضب يغضب حقاً[30].

ولائِم ولي العهد ثم الملك فيصل، وخصوصاً على مائدة الغداء والعشاء، تتحول في الغالب إلى مناظرات وتبادل للآراء، يشارك فيها أفراد أسرة آل سعود وشيوخ القبائل وكبار الموظفين ورجال الدين والأدباء. كان فيصل في شبابه مولعاً بمطالعة كتب التاريخ، إلا أن شؤون الدولة استحوذت على كل أوقاته. فتحولت إلى "مدرسة" له، ليس فقط ممارساته كزعيم سياسي، بل كذلك أحاديثه الخاصة مع الضيوف.

يقول نهاد الغادري:

حديثه إلى المائدة لا يجلس من حوله إلا كبار القوم الذين يمكن أن يثير معهم موضوعاً معيناً. يطرح فكرة ويتركها للنقاش. هذه الجلسة اليومية على الغداء تكون كأنها مدرسة يومية له وللآخرين. يطرح موضوعاً للمناقشة، داخلياً، خارجياً، سياسياً بحسب الأحداث[31].

أورد رشاد فرعون في مقابلته مع روبرت ليسي مثالاً على ذلك. أثناء هبوط الأميركيين على سطح القمر، قال الشاعر كنعان الخطيب إن القمر يواجه الأرض دوماً بجانب واحد. فاعترض الملك لأنه كان يعتقد أن القمر يدور حول محوره أيضاً، مثل الأرض. ولكي يتأكد من معلوماته لم يتقاعس عن تصفح المطبوعات في المساء، ولعله راجع دائرة المعارف فاتضح له خطأه. وفي مأدبة اليوم التالي اعترف أمام الجميع بأنه لم يكن محقاً[32]. ولا شك في أن تصرفاً مثل هذا خصلة نادرة عند الإنسان، وخصوصاً إذا كان زعيماً سياسياً.

كانت حياة الملك فيصل على مرأى من الجميع. وكان رعاياه ينتظرون منه الرعاية والعدل والإنصاف على الطريقة التي تفهمها بها المجتمعات التقليدية، كما كانوا ينتظرون منه الشدة في حماية العدل. كانوا يصدقون ما تتناقله الألسن أكثر من أنباء الإذاعة والتلفزيون. فالظروف الجديدة تتطلب روايات وأساطير جديدة، أو أحاديث عن وقائع تتحول في أنظارهم إلى أساطير بطولية.

لقد غرس فيصل احترام القانون والتشريع، وكان بنفسه قدوة من هذه الناحية.

يقول أحمد بن عبد الوهاب:

كان مشرعاً ويطبّق التشريع، أول ما يطبّقه على نفسه ليكون قدوة لمن حوله وللناس الذين يحكمهم. هذه من مميزات فيصل[33].

يقول نهاد الغادري:

دخل عليه بدوي وقال له أمام الناس أنت أخذت أرضي. فوجئ الملك. قال له الرجل إن الأرض التي جنب قصرك لي وأنت أخذتها مني. فطلب الملك من المحامي، عنده محام مصري مهتم بأوراقه، وسأله هذه الأرض لمن؟ فقال أرضنا. فردّ البدوي قائلاً: أريد الشرع، أي الحكم الشرعي والعودة إلى القضاء. فقال الملك لا حول ولا قوة إلا بالله. وقال أحد الحاضرين سنأتي بالشرع، أي بالقاضي الشرعي، فردّ الملك قائلاً: الشرع لا يأتي إلي، أنا أذهب إلى الشرع. وحدد موعداً وذهب إلى القاضي ومعه محاميه وأوراقه. استمع القاضي إلى الطرفين وحكم بالأرض للبدوي. فتنرفز فيصل وقال للقاضي: لستَ عادلاً. فأوعز القاضي إلى البدوي بالخروج وقال لفيصل: يا طويل العمر، من يصدّق غداً في هذا البلد؟ الأرض لك. ولو حكمت بذلك من يصدّق بأنني حكمت بالعدل؟ سيقولون

خاف من الملك والأرض للبدوي أصلاً. والأفضل أن تُظلم أنت ويقال عدلاً من أن يُعدل معك ويقال ظلماً. فأجاب الملك: لا حول ولا قوة إلا بالله. ومضى. ودخل البدوي على الملك في اليوم الثاني وقال له: والله الأرض أرضك يا أيها الملك. فلامه فيصل وقال لماذا اشتكيت إذن؟ أليس حراماً عليك والأرض أرضي. فأجاب أريد أن أعيش إلى جوارك. أريد أن أموت وأنا إلى جانبك، ولذا طلبت الأرض. قال له: كان بإمكانك أن تطلب أرضاً ونعطيك إياها. وأمر الملك ببناء بيت للبدوي قريب من قصره، وصار يتردد عليه يومياً. ولما توفي فيصل ذهب إلى قبره يبكي. ذلك مثال على علاقة الملك فيصل بالناس وعلاقتهم به. لم يغضب على البدوي لما طلب منه الأرض ولم يسجنه، ولم يحضر القاضي إلى القصر ولم يقطع رأس القاضي[34].

يقول القاضي الشيخ محمد الطيب:

مرة من المرات كان رجل قوي شديد العضلات قتل شخصاً آخر ضعيفاً، فلما قتله سجن وجيء به إلى المحكمة وسألناه، وأنا قاضٍ من القضاة، فاعترف أمامنا بأنه قتل فلاناً لأنه رماه بحجر. وجاء الناس يتوسطون والأمير خالد أشفق عليه، وكان

ولياً للعهد آنذاك والملك فيصل هو الملك. وتوسط الناس لإلغاء القصاص. وكنا نحن القضاة نزور الملك فيصل في مكتبه كل يوم خميس. فسأل رئيس المحكمة مرة: هل جاء عندكم سرحان الخمّاش؟ فأجاب الرئيس: جاء واعترف بالقتل وسجلنا اعترافه والناس يتوسطون عند ولي العهد خالد للشفاعة له. فقال الملك فيصل: أعطوني أوراقه. وأخذ الأوراق وكتب عليها بخط يده: "يُقتل يوم الجمعة اقتصاصاً"[35].

ولعل من الإنصاف أن نتذكر أولئك الذين وفّروا للملك فيصل مستلزمات الحياة اليومية من طعام وشراب وحراسة وما إلى ذلك. فالباحثون عادة لا يتذكرون هذه "الشخصيات الصغيرة". خدماتهم وأفضالهم لا تجد حيّزاً في المدونات التاريخية الرسمية، فضلاً عن التقارير السياسية. إلا أن ذكرياتهم وأحاديثهم تساعدنا في ترسيم بعض ملامح معيشة بطل كتابنا وخصاله وطباعه.

يقول عطية عبد المعطي طباخ الملك فيصل:

الأكل المفضّل عنده هو المسلوق. في الفطور يتناول الجبنة المربّعة والعيش (الرغيف). الجبن المربع كانوا يجلبونه من فرنسا. يشرب القهوة العربية من دون سكر. وما كان يحب الطعام الحلو، ويتناول الفاكهة. كان يتغدى ويتعشى مع الآخرين، لكنه يتناول

الفطور وحده. الغداء يتم في الديوان الملكي. وأنا آخذ الطعام معي من البيت وأسخنه في الديوان. والملك يتناول الغداء بعد الصلاة، في الساعة الواحدة. هو يتغدى مع الجماعة الموجودين، إلا أن أكل الملك خاص به. وهو لا يأكل البطاطا. يأكل الدجاج المشوي واللحم المشوي والأرز واللبن (الحليب) ولحم الخروف، ولا يأكل بسرعة. يأكل حسب الجالسين معه، لأنه لو أكل بسرعة ونهض لنهضوا هم أيضاً. كان يأكل الموز والتفاح، ويقشرها ببطء ويأكلها آخر الناس وينهض من المائدة آخر الناس. والعشاء يتم المغرب في الديوان بعد صلاة المغرب، وبالطريقة نفسها. والناس عموماً عددهم كبير. والذين يقدمون الأكل سفرجية الديوان. وعددهم نحو عشرة، وهم بملابسهم العادية. والأكل عادي وليس فاخراً. وكان يشرب مياهاً معدنية تأتي من فرنسا. مياه "أفيان". المأكولات الأولية كانت تأتي من فرنسا. كان طول عمره ريجيم. حتى عندما قالوا له أنت عملت عملية وخلاص قال لهم أنا تعودت على هذا الأكل. وظل يأكل الأكل نفسه حتى مماته. وكنت أرافقه إلى أي مكان يذهب إليه، فرنسا، سويسرا، أي مكان. والمأكولات آخذها

معي بالثلاجات. اللحم والخضر والأرز... كانت عندنا سيارات فيها كل شيء عندما نذهب إلى الصيد في البادية. ونشوي اللحم على الفحم في الصحراء، والحطب معنا. وقد نقضي في البادية ثلاثة أشهر نمشي فيها من مكة لغاية الرياض. وكنا نأخذ الصقور معنا للقنص. وكان يرعى الصقور شخص اسمه ضيف الله. وهو على قيد الحياة، لكن صحته متدهورة. وكان الملك فيصل يحب الصقور كثيراً[36].

يقول الشيخ عبد الله محمد الشهري (86 عاماً) وكيل أملاك الملك فيصل:

نوار بن زيد مرافق خاص للملك. وكان عبد الله السميري الله يرحمه هو المسؤول عن الشؤون المالية. هو وأخوه سعد. نوار بدوي قوي حمّال السلاح، ومرزوق بن ريحان من أعز الموجودين والخدامين المخلصين للملك فيصل. وكان السياف اسمه سعيّد وهو من الحبشة. وهو عبد مملوك للملك فيصل، وهو سيّاف وكان يركب مع الملك فيصل في سيارته إلى أن الله سبحانه وتعالى رأى ما رأى[37].

تواضع فيصل في حياته المعيشية أمر يعترف به حتى خصومه، فيما يورد المقرّبون إليه أمثلة متزايدة على ذلك التواضع.

يقول أحمد بن عبد الوهاب:

كانت عند كمال أدهم، شقيق زوجة فيصل، شركة مقاولات اسمها "عرين"، فكلف فيصل شركة "عرين" ببناء بيت له. فبنت الشركة قصر الحمراء. وفوجئ فيصل بعد انتهاء البناء بأن البيت كبير وفيه زخارف. فعاد ذلك اليوم في الليل وقال لكمال أدهم إني رأيت البيت ولن أسكن فيه. دخل الباب ورفض أن يصعد إلى فوق. وبعد ذلك الأمير سلطان كانت عنده فيلا كبيرة فقال انزل هناك. فهو على أي حال ملك وصارت هناك موجبات أمنية، والبيت في شارع الإمارة قريب من المدينة، كل من يدخلها أو يخرج منها يمر قربه. سكن في فيلا سلطان ثلاثة أشهر، ثم ذهبنا إلى الرياض... البيت هذا أخذته الحكومة وجعلته دار ضيافة من أيام ما كنت أنا في الحكومة. وقد دخله فيصل وهو دار ضيافة. دخله مع أنور السادات، دخله مع عبد الناصر وغيره، لكنه لم يسكن فيه.

لا يزال قصر الحمراء قصر الضيافة. وهناك قصر الملك فيصل في الرياض، وهو الذي كبّره ابن لادن (من هذه العائلة الكبيرة الثرية نشأ في ما بعد أسامة بن لادن، إلا أن العائلة تنصّلت منه في الواقع - ملاحظة

المؤلف). وعندما كنا نذهب إلى الرياض ليس لفيصل بيت يسكنه، فاضطر إلى السكن في القصر. وعلى الرغم من أنه ملك، فإن مسكنه فوق كان صغيراً. ولكنهم عملوا صالوناً كبيراً من أجل العزائم، فاضطررنا إلى أن نعمل صالونات كبيرة. وعندما جاءت الملكة إليزابيث أين يعزمها؟ وعندما جاء نكسون أين نعزمه؟ "الناصرية" كانت قصر الملك سعود، وعندما مات سعود أنا حولته إلى ضيافة إلى اليوم.

القصور الفاخرة كلها لم تُبنَ في عهد الملك فيصل يا سيدي العزيز. لم نبنِ قصوراً فخمة. الرجل ما كان يؤمن بهذا. كان اشتراكياً... ها ها ها[38].

الفصل الخامس عشر

فخ لعبد الناصر في اليمن

كانت خسائر المصريين في اليمن في ازدياد، والحملة العسكرية باتت عبئاً ثقيلاً على الاقتصاد المصري، فلم تلقَ الحرب حماسة وشعبية في مصر.

القادة العسكريون المصريون بالغوا في تقويم أهمية القصف الجوي والمدفعي والإنزال المظلي في المناطق الجبلية من اليمن. ففي فترة الأمطار الموسمية ما كان في الإمكان عموماً استخدام سلاح الجو والمدفعية والدبابات، فيما كان العدو اليمني يتحرك على المسالك الجبلية سيراً على الأقدام أو على ظهور الدواب. ولم يكن الجنود المصريون من أبناء فلاحي وادي ودلتا النيل مهيئين تماماً للحرب في الجبال.

إلا أن الاعتراف بإخفاق الحملة على اليمن من شأنه أن يمثّل ضربة موجعة لجمال عبد الناصر. ولذا استمر حتى نكسة 1967م بزيادة قواته هناك، من 3 آلاف شخص في عام 1962، إلى 30 ألفاً في عام 1963م، ثم إلى 45 ألفاً، وأخيراً 70 ألفاً في عام 1967م.

يقول محمد حسنين هيكل:

> انتشرت عندنا نكتة مفادها أننا أرسلنا لنصرة الثورة في اليمن كتيبة واحدة، ثم أرسلنا فرقتين لنجدة تلك الكتيبة[1].

لم يقتصر الأمر على فرقتين طبعا، إلا أننا نؤكد للحقيقة والواقع أن المصريين أرسلوا إلى اليمن معلمين وأطباء ومهندسين زراعيين ومهنيين صناعيين إلى جانب القوات المسلحة.

بقي جمال عبد الناصر الشخصية الرئيسة على الساحة السياسية العربية، لكنه لم ينجح في الخروج بنتيجة من مباحثات الوحدة المصرية السورية العراقية، فيما ظل النصر في اليمن بعيد المنال. ولذا قرر عبد الناصر استئناف المفاوضات مع المملكة العربية السعودية في بداية عام 1964م.

فيصل يدرك بالطبع أن جمال عبد الناصر أقوى لاعب على الساحة السياسية العربية في تلك الحقبة، لكونه يعتمد على موارد مصر وعلى مشاعر العرب القومية وعلى التعاون مع الاتحاد السوفياتي.

في التاسع من مايو 1964م وصل نيكيتا خروشوف إلى الإسكندرية على متن الباخرة السوفياتية "أرمينيا". واستقبلت مصر الضيف الكبير بحفاوة منقطعة النظير لا يجيدها أحد في العالم سوى المصريين. بحر بشري مفعم بالمشاعر والحماسة لا بد أن يحرك في نفس خروشوف ساكناً. كان الاستقبال صادقاً والترحيب خالصاً. فإن خروشوف في أنظار الكثيرين من المصريين زعيم بلاد عظيمة جازفت من أجل وقف العدوان الثلاثي على مصر وقدمت للقوات المسلحة المصرية أسلحة عصرية، وجعلت تلك القوات على قدر كبير من الجبروت، كما قدمت لمصر مساعدات

اقتصادية وفنية كبيرة مكّنتها من الشروع في التصنيع، ثم وافقت على المساعدة في تحقيق حلم الشعب المصري بتشييد سد أسوان العالي.

قدم جمال عبد الناصر إلى خروشوف أسمى وسام مصري هو "قلادة النيل". وردّ خروشوف بالمثل، فمنح كلاً من جمال عبد الناصر وعضيده آنذاك المشير عبد الحكيم عامر لقب بطل الاتحاد السوفياتي ووسام لينين، الأمر الذي أربكهما كثيراً وأثار استياءً كبيراً في داخل الاتحاد السوفياتي. فليس هناك زعيم غير شيوعي حصل على مثل هذا التكريم، ما عدا الرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بلّا سنة 1963م.

في الثالث عشر من مايو 1964م فجّر خروشوف وعبد الناصر السد الثانوي لتوجيه مياه النيل في قناة التحويل وتمكين البناة من الشروع في بناء مرحلة جديدة من السد العالي.

كان الزعيم السوفياتي معجباً بجمال عبد الناصر من دون ريب. فإن جاذبية الزعيم العربي الشخصية وحسن أدبه ومستوى أدائه الحكومي أمور لا بد أن تروق خروشوف، فبات عبد الناصر حليفاً مهماً في العالم العربي وفي أفريقيا. وفي اليمن كانت القوات المصرية تقاتل بالسلاح السوفياتي الملكيين المدعومين من قبل المملكة العربية السعودية والدول الغربية. وإلى ذلك كانت مصر من أعمدة حركة عدم الانحياز ومنظمة الوحدة الأفريقية، وباتت القاهرة محجة الكثيرين من الثوريين المناهضين للغرب القادمين من الأقطار العربية

والأفريقية. وعمد عبد الناصر إلى طرد أو "تمصير" رأس المال الأجنبي، وأمّم ملكية البرجوازية الكبيرة والمتوسطة، وأجرى إصلاحاً زراعياً مرتين، وخصص "للعمال والفلاحين" 50 في المئة من المقاعد في الهيئات السلطوية، وأقرّ ميثاق العمل القومي الذي كانت صياغات كثيرة فيه قريبة من الكليشهات العقائدية السوفياتية.

كل شيء عند عبد الناصر جيد ومقبول، ولكن... يا ليته يكون مثل فيديل كاسترو، فيمتلك ناصية "الاشتراكية العلمية" ويغدو ماركسياً، وعندها يسود العلاقات السوفياتية المصرية التناسق والوئام! ظلت الفكرة التبشيرية الشيوعية البدائية تعشّش في ذهن نيكيتا خروشوف، وتطفو على السطح من حين إلى آخر في خطبه أمام الجمهور.

أوردُ هنا ما قاله لي صديقه أوليغ كوفتونوفيتش الدبلوماسي الراحل والأديب والمثقف المعروف الذي كان مترجم الزعيم السوفياتي من اللغة العربية وإليها:

> كان نيكيتا خروشوف وحاشيته في القيادة السوفياتية يعتبرون الزعماء العرب متمسكين بالدين أكثر من اللزوم، ولذا قرر خروشوف أن ينوّرهم. آنذاك كان على يخت "الحرية" مع عبد الناصر والرئيس الجزائري بن بلّا والرئيس العراقي عبد السلام عارف، فأخذ يحدثهم قائلاً: "كان عندنا، على ما أتذكر، راهب لديه عشيقة، قتلها وقطّع

جسدها إرباً إرباً... هذا ما قاده إليه الدين والإيمان بالله". ارتبك الحضور، فقال له عبد الناصر برفق: "يبدو أن المسألة هنا لا علاقة لها بالدين. فهناك رهبان وقساوسة طيبون وآخرون رديئون، ولعل بعض الشيوعيين يقترفون جرائم أيضاً". فزعل خروشوف وقال بخشونة: "نعم، خرية الرجل تفوح في منخره كعطر التوت". ووجدت صعوبة في تلطيف ترجمة هذا الكلام للحاضرين[2].

فيصل لم يكن آنذاك على علم بمثل هذه الأمور. كان على يقين بأن الشيوعية الملحدة تتوغل في العالم العربي أعمق فأعمق. ذكر مراد غالب أنه عندما قال لفيصل أثناء زيارته للمملكة العربية السعودية أنه يريد أداء مناسك العمرة أجابه مدهوشاً: "أنت تؤمن بالله؟"[3].

إلا أن فيصل كان على حق طبعاً في كون خطاب نيكيتا خروشوف الثوري وسياسة الاتحاد السوفياتي الفعلية يمثلان خطراً مباشراً أو غير مباشر على النظام الملكي في السعودية.

أطيح نيكيتا خروشوف في 14 أكتوبر 1964م في تواطؤ "هادئ" بين معظم أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي. كان استياؤهم من حكمه يعود أساساً إلى أسباب داخلية، إلا أن بعض مغامراته المتهورة في السياسة الخارجية جعلتهم في حالة من التوتر الشديد.

ونحن هنا نريد أن نعطي لنيكيتا خروشوف حقه. كان يجمع بين أكثر الطموحات التبشيرية سذاجة وبين النفعية السياسية الذكية. ولعله كان يحلم برؤية الناس من مختلف الأجناس تحت الرايات الشيوعية الحمراء. لكن عمله في العالم العربي وفي "العالم الثالث" بأسره اتسم في معظم الأحوال بالمهارة، والتوفيق بين الحزم والحذر، والجمع بين خشونة الفلاح وفطنة رجل الدولة.

سياسة الاتحاد السوفياتي في الشرقين الأدنى والأوسط في عهد نيكيتا خروشوف لم تتغير بعد سقوطه.

فقد ظل التعاون مع مصر محور السياسة السوفياتية الشرق أوسطية. وجرى بعد ذلك تبادل الوفود على مستوى رفيع. وجاء إشراك الشيوعيين المصريين السابقين في البُنى السلطوية الرسمية ليوفر خلفية إضافية ملائمة للتعاون السوفياتي المصري، وبات مثاراً للمزيد من القلق عند فيصل.

في الخمسينيات والستينيات قادت التطورات الاجتماعية والسياسية الداخلية في سورية، التي هي البلد المهم الثاني في المنطقة بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي، إلى جعلها تقف في وجه إسرائيل وفي وجه الدول الغربية معاً، الأمر الذي مهّد التربة لتوسيع تعاونها مع موسكو. ووفّر حزب البعث العربي الاشتراكي السوري إمكان العثور على نقاط تماسٌ كافية وإقامة حوار وتفاهم مع القيادة السوفياتية، فيما أعطى موقع

سورية الاستراتيجي هذه البلاد أهمية كشريك له وزنه بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي.

واقتنع فيصل من حساباته الهادئة بأن الولايات المتحدة ستمضي بمزيد من الحزم في دعمها وتوسيع حجم مساعداتها للمملكة كلما ازداد نفوذ الاتحاد السوفياتي في مصر وسورية. كان مقتل الرئيس كندي قد أنهى مغازلة واشنطن للقاهرة، فيما تورطت مصر في حرب اليمن إلى درجة ما كان بوسعها أن تكسبها. وباتت في يد فيصل عدة أوراق رابحة تكفيه للتوصل إلى الحل الوسط الذي يريده.

كان جمال عبد الناصر من حيث المبدأ سيسحب قواته من اليمن إذا ما تمكن من الحفاظ على ماء الوجه، وكانت هذه الحرب عبئاً ثقيلاً على المملكة العربية السعودية أيضاً. فالمواجهة مع مصر ليست من خيارات فيصل. فهو كان يعيد ويكرر: ليقرر اليمنيون نمط الحكم الذي يريدون، سواء كان ملكياً أو جمهورياً. ولكن ذلك مستحيل في وجود القوات الأجنبية في البلاد. عبد الناصر وعد بسحب قواته أكثر من مرة، لكنه اضطر إلى البقاء في اليمن خوفاً من هزيمة زبائنه الجمهوريين.

وبات الزيديون الموالون للإمامة في الأصل قاعدة سياسية للمقاومة ضد الجمهوريين. فالكثيرون من أهالي الجبال في شرق اليمن وشمالها زيديون، وقد اعتمد محمد البدر عليهم بالذات. واتضح أن حكومة عبد الله السلال غير فاعلة، فكان يتحاشى حتى مجرد

الإشارة إلى الانتخابات وإمكان تغيير قيادته. كان اعتماده على مصر كلياً. وقد تردد على القاهرة بكثرة جعلته موضوعاً للتندر والسخرية. وكان الضباط المصريون في بعض مناطق اليمن يتصرفون كأنهم هم الحكام الفعليون. ولم يتورع المستشارون المصريون في اليمن حتى عن المضاربة التجارية واختطاف بعض مواقع التجارة الخارجية من أيدي التجار اليمنيين.

وبلغت الوصاية المصرية حدّاً أثار استياء الكثيرين من الجمهوريين اليمنيين أنفسهم.

بعد قمة الإسكندرية، استمرت طوال عام 1964م محادثات فاترة بين فيصل وعبد الناصر في محاولة للفصل بين القوات، على الرغم من أن المصريين كانوا يستبدلون قواتهم ولا يسحبونها. وفي يوليو - أغسطس من ذلك العام شنّ المصريون هجوماً كبيراً لقطع الطريق أمام الملكيين إلى الحدود السعودية، ولوضع فيصل أمام الأمر الواقع قبيل مؤتمر القمة العربية في سبتمبر.

تكبّد الملكيون عدة هزائم، إلا أن الفيضانات في موسم الأمطار عاقت تقدم الآليات الحربية الثقيلة المصرية، فتمكن الملكيون من إعادة الانتشار والحفاظ على طرق التموين من القواعد الموجودة داخل الأراضي السعودية.

وترك الإمام محمد البدر مقرّه في جبال اليمن وانتقل إلى المملكة العربية السعودية. ولم يتمكن الجمهوريون من ترسيخ مواقعهم في الأراضي التي احتلها حلفاؤهم المصريون، فقد أخذ الملكيون يعودون إليها بالتدريج.

خلال الهجوم المصري الأخير حاول الأمراء من حاشية البدر أن يقلّلوا من اعتمادهم على المملكة العربية السعودية، فأقاموا اتصالات مع الأردن والعراق وبعض الدول الأوروبية من وراء ظهر السعوديين. ورداً على ذلك أوقف فيصل المساعدات المالية للإمام. إلا أنه استأنفها في ما بعد، بشرط أن يتعاون الملكيون مع الجمهوريين المنشقين ومع القبائل المناهضة للمصريين رغم عدم خضوعها للإمام. واضطرت قيادة الملكيين إلى الرضوخ لهذا المطلب لعدم وجود دعم مالي من جهات أخرى.

الهجوم الصيفي عام 1964م عزّز مواقع المصريين والجمهوريين وقتياً في اليمن. وكما هي الحال بعد هجوم رمضان 1963م كان جمال عبد الناصر يأمل بترسيخ نجاحاته حتى يتفق مع السعوديين من موقع القوة، فيما كان فيصل، بعد أن عزز سلطته في الداخل، مستعداً لمحاولة أخرى لحل مسألة الوجود المصري في اليمن من خلال المفاوضات. فأعلن كلا الزعيمين في القمة العربية في الإسكندرية في سبتمبر 1964م أنهما توصلا إلى اتفاق بشأن التسوية السلمية للنزاع في اليمن.

وتقرر أن تقام هدنة لمدة 7 أشهر تبدأ مصر خلالها بسحب قواتها، فيما توقف المملكة العربية السعودية دعمها للملكيين. وكان على اللاعبين اليمنيين من الملكيين والجمهوريين أن يؤلفوا حكومة انتقالية.

في 30-31 أكتوبر 1964م التقى ممثلو الملكيين والجمهوريين في مصيف أركويت في السودان في محاولة للاتفاق. ولأول مرة اعترف الجمهوريون، شأن المصريين، بخصومهم الملكيين اليمنيين طرفاً في التسوية. كذلك وافق الملكيون الذين لم يضم وفدهم أحداً من عائلة حميد الدين على مبدأ التفاوض مع الجمهوريين، إلا أن أحداً من الطرفين لم يقدم على تنازلات أكثر من هذه. واتفق رئيسا الوفدين محمد الزبيري عن الجمهوريين وأحمد الشامي عن الملكيين على ألا تضم الحكومة الانتقالية أحداً من الجمهوريين العسكريين، ولا من أمراء عائلة حميد الدين. ولكن تعذر على الطرفين الاتفاق على موعد إجراء الانتخابات: قبل أو بعد انسحاب القوات المصرية نهائياً. وتقرر الدخول في مفاوضات جديدة في مدينة حرض شمال اليمن في شهر نوفمبر، إلا أن هذا اللقاء لم يحصل. ففي نهاية نوفمبر 1964م استؤنف القتال، وقد بدأه الملكيون هذه المرة.

لا يجوز أن نلوم أحداً في فشل اتفاق الإسكندرية. فلا المصريون ولا السعوديون كانوا مستعدين لتنفيذ التزاماتهم بالكامل. كان كل طرف يأمل بأن يغدو الاتفاق غطاءً دبلوماسياً لانسحاب الطرف الآخر وليس لانسحابه هو. إضافة إلى ذلك لم يكن الزبيري والشامي يمثلان إجماعاً لقوى الجمهوريين وقوى الملكيين، واتضح أن كليهما كانا مستعدين لترك زعمائهما - الأول قيادة الجمهوريين العسكرية والثاني أسرة آل حميد

الدين - من أجل بلوغ التسوية السياسية. فالأمور كانت تسير نحو إبعاد زعماء كلا الطرفين المتحاربين، وليس ممثليهما، عن المشاركة في الحكومة الانتقالية. ولهذا رفضوا فكرة الهدنة وحاولوا من جديد تحقيق نصر عسكري.

إلا أن لقاء أركويت كانت له نتيجة غير متوقعة. فقد لوحظ انقسام خطير في صفوف الجمهوريين واحتكاكات بين السعوديين والملكيين. وفي ديسمبر 1964م استقال ثلاثة من كبار خصوم النظام الملكي، وهم أحمد نعمان ومحمد الزبيري وعبد الرحمن الإرياني من مناصبهم في الجمهورية العربية اليمنية لخيبة أملهم من توقف عملية المصالحة الوطنية، واحتجاجاً على "فساد الحكومة وعجزها وإفلاسها". وكانت الاستقالة دليلاً على اختلافهم مع القيادة العسكرية المتقيّدة بالخط الصارم ومع الأوصياء المصريين. ترك محمد محمود الزبيري معسكر الجمهوريين نهائياً وأنشأ حركة سياسية في منطقة القبائل أطلق عليها اسم "حزب الله". وأخذ ينادي بالمصالحة الوطنية على أساس الإسلام، متناسياً طبيعة الحكومة المرتقبة، سواء الجمهورية أو الملكية.

في أبريل 1965م دعاه فيصل إلى التباحث في المملكة العربية السعودية، لكنه قتل وهو في طريقه إلى لقاء الملك. وألقت إذاعة صنعاء مسؤولية مقتله على الملكيين، فيما ألقى الرأي العام مسؤولية تلك الجريمة على الحكومة العسكرية الجمهورية.

لم يكن شيوخ القبائل الموالون للنظام الجمهوري نفسه راضين عن المشير عبد الله السلال، وعن تعسف المصريين في البلاد. فأخذوا يهددون بحملة على صنعاء ما لم يعيّن السلال أحمد محمد نعمان رئيساً للوزراء، فتنازل لهم الرئيس السلال. وبعد ذلك جرى تضييق أكبر على سلطته بتأليف المجلس الرئاسي الذي ضمّ بعض أنصار أحمد نعمان، مثل عبد الرحمن الإرياني ومحمد عثمان ونجل أحمد نعمان. ولقد غيّر تعيين أحمد نعمان رئيساً للوزراء الخريطة السياسية في الجمهورية العربية اليمنية، فكان إشارة إلى النية في التخلص من الوصاية المصرية والرغبة في تسوية الحرب الأهلية بالمفاوضات.

دعا رئيس الوزراء أحمد محمد نعمان إلى مؤتمر للقبائل في بداية مايو 1965م، وعُقد في مدينة خمر التي كان يوجد فيها المقر الدائم لشيخ مشايخ قبائل حاشد عبد الله الأحمر. وكان الجمهوريون المعتدلون المهيمنون على الحكومة آنذاك راغبين في تسوية العلاقات مع القبائل وكسب ودّها، لدعم نهجهم في المصالحة الوطنية من أجل تقليل الاعتماد على المصريين. ودعا المؤتمر في أحد قراراته إلى مدّ يد الصداقة إلى جميع الجيران، ليتمكن أبناء اليمن من العيش في سلام. ووجه أحمد نعمان إلى الملك فيصل إشارات الاستعداد للمصالحة من خلال الوسطاء الكويتيين والسوريين والأردنيين. كذلك تقدم بالتفاتة

طيبة إلى بريطانيا حيث ألغى وزارة شؤون الجنوب المحتل.

في 10 مايو 1965م بعث أحمد نعمان برقية إلى الملك فيصل مباشرة، طالباً إليه المساعدة في إحلال السلام في اليمن. وردّ فيصل بالإيجاب من حيث المبدأ، إلا أنه أعرب عن أمله بالاتفاق بين جميع الأطراف المعنية. ورفض الاقتراح اليمني بطرح المسألة على جدول أعمال لقاء وزراء الخارجية العرب في القاهرة في 26 مايو 1965م، وذلك لأن القول الفصل في هذا اللقاء للمصريين.

غير أن فيصل أعرب عن استعداده لمقابلة وفد يمني يضم كل الأطراف. ووافق أحمد النعمان على الفكرة، إلا أن القاهرة أبدت استياءً من المبادرات السلمية المستقلة للحكومة اليمنية، فأوقفت المساعدات لحكومة نعمان، ودفعت عبد الله السلال إلى حل الأزمة السياسية من خلال تقوية سلطته. ففي 28 يونيو 1965م ركب نعمان الطائرة إلى مصر ليقابل الرئيس عبد الناصر شخصياً، فاعتقل مع الوفد المرافق له في القاهرة. وفي 1 يوليو أعلنت الإذاعة نبأ "استقالته".

ورداً على هذا التدخل المصري الفظ، لجأ نحو 250 شيخاً من الجمهوريين، وعلى رأسهم عبد الله الأحمر، إلى محمية بيحان البريطانية في 20 يوليو 1965م، ثم توجهوا من هناك إلى المملكة العربية السعودية لمقابلة الملك فيصل.

ولكي تقوّي القاهرة شركاءها الضعفاء في صنعاء زادت من عدد قواتها في اليمن في شهر أغسطس 1965م.

ووفّر ارتباك صفوف الجمهوريين لفيصل إمكان التأثير على الوضع في اليمن بنحو أنشط، فشجع بمرور الوقت مختلف الجماعات اليمنية بالدعم السياسي والمادي لكي تعارض الوجود المصري في اليمن، على الرغم من أن تلك الجماعات ليست من أنصار الملكية.

واكتملت الخارطة السياسية لليمن بظهور اتحاد القوى الشعبية الذي أسّسه إبراهيم علي الوزير، وهو يمثل جماعة قبلية عارضت آل حميد الدين في الأربعينيات. وأعلنت هذه المنظمة أنها ليست ملكية ولا جمهورية، وأنها تنادي بتأليف "حكومة إسلامية" لإنهاء الحرب الأهلية. وكان اتحاد القوى الشعبية الذي بات يُعرف بـ"القوة الثالثة" يحظى بتأييد متزايد عاماً بعد عام. صحيح أن أكثرية اليمنيين لم تناصر الوزير، على الرغم من وجود استياء متزايد من السلال والمصريين بين الجمهوريين ومن البدر بين الملكيين، إلا أن فيصل قرر أن يدعم اتحاد القوى الشعبية بحزم، فسمح للوزير بأن يفتح مكتباً له في الرياض، ورفض مطلب الملكيين بأن يندمج تنظيم الوزير في معسكرهم.

ومن أجل تكوين ائتلاف واسع مناوئ لمصر في شمال اليمن، عقد فيصل في الطائف في أغسطس 1965م اجتماعاً للشيوخ المنشقين على الجمهوريين وممثلي "القوة الثالثة" والملكيين، ولكن في غياب

الأمراء من آل حميد الدين. وأيّد مؤتمر الطائف فكرة "الدولة الإسلامية" بديلاً من نظامي الحكم الملكي والجمهوري، ودعا إلى تأليف مجلس دولة من 7 أو 6 أعضاء يمثلون جميع التكتلات اليمنية ليتولوا وظائف رئاسة الجمهورية. كذلك دعا الحاضرون إلى تأليف مجلس شورى يضم جميع التكتلات، وأيّدوا إجراء استفتاء عام يحدد نمط نظام الحكم في البلاد.

وطالب المشاركون في هذا اللقاء بانسحاب القوات المصرية وبوقف المساعدات السعودية إلى الملكيين، وهو أمر يستجيب لاستراتيجية فيصل. وحظيت قرارات المؤتمر بتأييد واسع من القبائل وكبار الزعماء اليمنيين.

وقد خلق استعداد السعوديين وبعض الشخصيات اليمنية مثل أحمد الشامي للاتفاق على إنهاء الحرب الأهلية، من دون ضمانات بعودة النظام الملكي، انقساماً في صفوف الملكيين.

وحاول الملك فيصل والرئيس عبد الناصر أن يحلّا المشكلة اليمنية بالمفاوضات من جديد. ففي نهاية أغسطس 1965م توجّه الرئيس المصري شخصياً إلى جدة للقاء العاهل السعودي، ومضى جمال عبد الناصر إلى هذا اللقاء بصحبة حملة ضغوط دعائية على فيصل. وهدّد عبد الناصر شخصياً، وكذلك المشير عبد الحكيم عامر، بأن الحرب قد تنشب بين مصر والمملكة العربية السعودية في حال فشل المفاوضات، وتحدثا عن اليمن بوصفها ساحة للمعارك البطولية والانتصارات المجيدة

للجيش المصري الذي استولى على كميات كبيرة من الأسلحة الأميركية على حدّ قولهما. لكنّ فيصل واجه رشقات الدعاية المصرية بهدوء أكثر من هدوئه وهو يستمع إلى الأخبار عن بعض الانتصارات المصرية في اليمن. فالملكيون لم يتعرضوا للهزيمة، والقوات السعودية في عسير ظلت تعزز مواقعها على الرغم من أنها لم تكن قادرة بعد على التصدي لهجوم مصري مباشر إذا حصل. وكان فيصل يعرف أن عبد الناصر يراوغ ولا ينوي القتال. كان كلا الزعيمين يبحثان عن مخرج، عن حل وسط.

فيصل يفهم أن عبد الناصر خصم خطير حتى بعد وقوعه في فخ اليمن. ففي المملكة، كما في اليمن، تنظيمات معارضة معتمدة على مصر وتسعى إلى إسقاط النظام الملكي. وقد كشفت تجربة العراق واليمن عن المصير الذي أعدته تلك التنظيمات لأفراد العوائل الحاكمة. كذلك كان لتلك التنظيمات المعارضة مؤازرون في القوات المسلحة السعودية، وكانت الدوائر الأمنية المصرية تعد وتمارس عمليات التخريب في المملكة.

احترام الرئيس عبد الناصر للملك فيصل لم يمنع وسائل الإعلام المصرية من شن حملة دعائية شعواء على السعودية مشحونة بالشتائم والإهانات الشخصية للملك وحاشيته. ولم يتخلف عن هذه الحملة محمد حسنين هيكل، القلم الأول في أصابع جمال عبد الناصر. فكانت إذاعة "صوت العرب" تقرأ على كل العرب مقالاته الأسبوعية.

يقول جميل الحجيلان: "حسنين هيكل لم يضبط قلمه الجارح في تهجمات غير معقولة"[4].

يقول نهاد الغادري:

> كان فيصل يكره محمد حسنين هيكل لأن هيكل اتّهم فيصل بأمور ما أنزل الله بها من سلطان. وعندما وصل جمال عبد الناصر إلى جدة وأراد أن يقدم محمد حسنين هيكل إلى فيصل ويعرّفه إليه قال له فيصل: عندنا أشياء أكثر أهمية للبحث. فيصل لا ينسى ولا يقبل الإهانة الشخصية[5].

يقول جميل الحجيلان:

> كان إعلامنا يتّسم بالهدوء ويأخذ في الاعتبار أن هنالك رأياً عاماً سعودياً هادئاً شخصيته مطبوعة بالشعور الديني العميق، بالهدوء، بضبط النفس. فكانت توجيهات الملك فيصل أن يكون إعلامنا تعبيراً عن هذه الحقيقة في عرض الموقف السعودي. ويجب أن لا نساير الإعلام المصري في تجاوزاته العديدة... في خلافاتنا مع الرئيس عبد الناصر كانت هناك قواعد: يجب ألا تصدر كلمة نابية من الصحف أو من إذاعتنا في حق الأشخاص. كان الإعلام المصري يجهل الرأي العام السعودي، يجهل تكوينه، وحتى تكوينه الجغرافي والاجتماعي كان يجهله، أسماء القبائل وأسماء الأشخاص يلفظونها

بشكل يدعو إلى السخرية. هذه كلها أمور أسهمت في عدم تحقيق الهدف الذي وضعه الإعلام المصري نصب عينيه حتى يؤثر في الرأي العام السعودي. هذه المرحلة لم تَطل، لأن في عام 1965م بدأ التلفزيون السعودي يعمل، واستحوذ على الرأي العام كله، فصار المواطن السعودي لا يعلم ماذا يقال في إذاعة خارجية[6].

في 24 أغسطس 1965م أعلن الزعيمان السعودي والمصري أنهما وقّعا ما سمّي "اتفاقية جدة" لإنهاء الحرب في اليمن. ومن شروط الاتفاقية وقف إطلاق النار فوراً، ووقف المساعدات السعودية إلى الملكيين، وإنهاء الوجود المصري في غضون 10 أشهر، وتأليف حكومة انتقالية محايدة، وإجراء استفتاء عام في نوفمبر 1966م يحدد معالم المستقبل السياسي لليمن. وكان مقرراً وضع التفاصيل في لقاء المصالحة بين مختلف التكتلات اليمنية في حرض في شمال اليمن في نوفمبر 1965م. واتفق الطرفان، سراً حسب الظاهر، على وقف المساعدات للمتطرفين من أنصارهما - عبد الله السلال عن الجمهوريين وآل حميد الدين عن الملكيين -. كذلك اتفقا على استبدال مراقبي الأمم المتحدة بآلية مصرية سعودية لمتابعة الفصل بين القوات، إلا أنها كانت غير فاعلة كما اتضح في ما بعد.

بعد لقاء جدة زار عبد الناصر موسكو ثم بلغراد، وكأنه يريد تأكيد مكانته الدولية الرفيعة بوصفه الزعيم

الأوحد في الساحة العربية.

في فترة الإعداد لمؤتمر حرض، نقّذ الطرفان شروط الاتفاقية. ففي سبتمبر 1965م احتُجز عبد الله السلال في القاهرة، تحت الإقامة الجبرية في الواقع، فلم يتمكن من العودة إلى اليمن حتى أغسطس 1966م، فيما أوقف السعوديون المساعدات المالية إلى الملكيين وحالوا دون انضمام أمراء آل حميد الدين إلى وفد الملكيين لمؤتمر حرض.

استمر المؤتمر من 23 نوفمبر حتى 25 ديسمبر 1965م، وشارك فيه وفدان يمثلان الملكيين والجمهوريين ("القوة الثالثة" أُدرجت ضمن وفد الملكيين).

إلا أن مؤتمر حرض فشل في تسوية النزاع اليمني، رغم حسن نية القاهرة والرياض. وكانت العقبة الأساس هي طبيعة النظام الانتقالي في اليمن الشمالي قبل الاستفتاء؛ فالجمهوريون أصرّوا على إبقاء نظام الحكم الجمهوري، فيما أراد الملكيون صيغة أكثر اعتدالاً بشكل "الدولة الإسلامية" من أجل تنفيذ أفكار مؤتمر الطائف. وفي أواسط ديسمبر غادر الكثيرون من مندوبي الجمهوريين إلى صنعاء وأرجئ مؤتمر حرض بسبب اعتراضات الملكيين. وكان المفروض أن تستأنف المفاوضات في فبراير 1966م، إلا أن القضية أُجهضت.

تعزو معظم المصادر، حتى المتعاطفة مع الجمهوريين، أسباب فشل مؤتمر حرض إلى تعنّت هؤلاء. آنذاك لم يكن عبد الله السلال في اليمن، فيما

كانت مصر مستعدة للتخلي عن الجمهورية. ولكن نظراً إلى تاريخ اليمن المشبع بالدماء واحتمال انتقام طرف من الطرف الآخر في حال فوزه، كان الجمهوريون يفهمون أن عودة الملكية تعني الملاحقات والتنكيل الواسع، وتمثّل خطراً على حياة زعماء الجمهورية.

ولذا، حتى المعتدلون من الجمهوريين من أمثال عبد الرحمن الإرياني وأحمد نعمان رفضوا الإقدام على تنازلات في ما يخص مستقبل النظام الجمهوري. وكان موقف القيادة العسكرية للجمهوريين هو الأكثر تشدداً. فقد وصل إلى حرض رئيس الوزراء الفريق حسن العمري الذي حذر وفده من أن أي تنازلات تنسف النظام الجمهوري للبلاد لن تكون مقبولة.

فشل عملية المصالحة لم يكن نابعاً فقط من الخلافات بين اليمنيين، فقد كانت عوامل إقليمية بين أسبابه. ورغم اتفاقية جدة، ظل التنافس قائماً بين جمال عبد الناصر وفيصل، وأخذ العاهل السعودي يطبّق بهمة ونشاط فكرة رص صفوف الأقطار الإسلامية، فضلاً عن العربية، في مواجهة سياسة مصر القومية. وسنعود إلى استراتيجية فيصل هذه في ما بعد، إلا أننا نذكر هنا أن جمال عبد الناصر كان يخشى جهود الملك فيصل هذه، ويقرأ من ورائها رغبة في نسف أو إضعاف دوره الدولي في المنطقة. كذلك شككت القاهرة في الاتفاقيتين اللتين وقّعتهما المملكة العربية السعودية مع الولايات المتحدة وبريطانيا في ديسمبر 1965م بشأن بناء المنظومة الحديثة للدفاعات الجوية في المملكة

(على الرغم من أن توقيع هاتين الاتفاقيتين جاء رداً على القصف الجوي المصري غير المسبوق للأراضي السعودية).

في خطاب ألقاه في 23 ديسمبر 1965م انهال جمال عبد الناصر بتهجمات شخصية شديدة اللهجة على الملك فيصل، محذراً الملكيين اليمنيين من أن الجمهوريين سيسددون إليهم ضربة جوابية ماحقة إذا استأنفوا الحرب.

وشهدت بداية عام 1966م جولة جديدة في توتر العلاقات بين القاهرة والرياض. انقطع الحوار بين فيصل وعبد الناصر، وزاد المصريون من قواتهم في اليمن، فيما شنّت وسائل الإعلام المصرية حملة مسعورة على النظام السعودي، وبدأت إذاعة مكة ترد على الحرب الإعلامية التي شنتها إذاعة "صوت العرب". كل ذلك جعل العلاقة بين الزعيمين المصري والسعودي أكثر حساسية، وخلق صعوبات أمام البحث عن حل وسط.

في 22 فبراير 1966م أعلنت بريطانيا نيتها في الانسحاب من جنوب الجزيرة العربية كلياً حتى عام 1968م، وبدا كأن لقمة عدن تكاد تقع سائغة في فم مصر أو أتباعها في اليمن.

كان التنافس مع فيصل والفوضى في شمال اليمن والأمل بلقمة جنوب اليمن كل ذلك دفع عبد الناصر إلى تغيير موقفه من النزاع اليمني. ففي خطاب ألقاه في 22 فبراير 1966م أعلن الرئيس المصري بلهجة درامية أنه سيحتفظ بقواته المسلحة في اليمن خمس سنوات

أخرى في أقل تقدير، لحماية الثورة اليمنية من مؤامرات الإمبريالية والرجعية على حدّ قوله، فتحولت اتفاقية جدة إلى حبر على ورق، وتبدّدت الآمال في العثور على حل سريع للنزاع في اليمن.

شنّ المصريون والجمهوريون عمليات قتالية في مارس 1966م وفقاً لاستراتيجية جمال عبد الناصر الجديدة المسماة "النفس العميق". وتتلخص في سحب القوات المصرية من أراضي القبائل وحشدها في المثلث الذي يسيطر عليه الجمهوريون تماماً بين مدن صنعاء والحديدة وتعز، في انتظار انسحاب الإنجليز من اليمن الجنوبي. واستؤنف القصف المصري الجوي للأراضي التي يسيطر عليها الملكيون.

وقررت القاهرة أن تشد أزر الجمهوريين من جديد. فعندما بدأت حكومة حسن العمري بالبحث عن تسوية مقبولة للطرفين، أرسل المصريون المشير عبد الله السلال إلى اليمن من جديد في أغسطس 1966م. وسيطرت القوات المصرية على مطار صنعاء كي لا يحول العمري دون عودة السلال. وبعد ذلك اقتيد العمري نفسه إلى القاهرة ووضع تحت الإقامة الجبرية. وتعرضت الدوائر الحكومية والعسكرية في الجمهورية العربية اليمنية للتطهير، فنحّي عنها كل معارضي السلال.

في ذلك الشهر التقى فيصل زعماء الملكيين في الطائف لبحث سبل التصدي للاستراتيجية المصرية الجديدة. وأصرّ الكثيرون من الملكيين، وفي مقدمهم

آمر الجبهة الشرقية محمد بن حسين، ابن عم الإمام البدر، على شنّ هجوم واسع على خلفية إعادة توزيع القوات المصرية والاضطرابات القائمة في صنعاء، إلا أن فيصل كان أكثر حذراً. وبقدوم خريف 1966م اتضح أن انقساماً جدياً حصل من جديد بين الرياض وبين الملكيين اليمنيين. أوقف فيصل المساعدات المالية لهم مرة أخرى، وأجرى اتصالات مباشرة مع عدد من شيوخ المناطق التي انسحب منها المصريون وأخذ يساعدهم مالياً ويشجعهم على التعاون مع "القوة الثالثة" بزعامة إبراهيم الوزير. وكان دعم فيصل "للقوة الثالثة" في تلك الفترة محاولة أخرى لاجتذاب شيوخ الجمهوريين المنشقين من أمثال عبد الله الأحمر الذي كان من الصعب عليه أن يتعاون مع الملكيين.

واصل المصريون زيادة قواتهم المحتشدة في مثلث صنعاء - تعز - الحديدة حتى بلغ تعدادها 60 ألف عنصر في أكتوبر 1966م، وذلك بعد تقليصها بموجب اتفاقية جدة.

وفي بداية عام 1967م قصف المصريون نجران مرتين، ولم يتكبد الجانب السعودي خسائر تذكر، فيما كان التدمير على أقله. إلا أن ذلك كان تحذيراً للمملكة كي لا تعلق الآمال على "انتصار" الملكيين في اليمن بعد أن تمكنت من الجمع بين الملكيين وبين الجمهوريين المنشقين عن عبد الله السلال. كذلك كشف القصف عن انفعال المصريين الذي سببه نجاح السعوديين هذا.

لقد اقترنت استراتيجية عبد الناصر الجديدة بتفعيل التحركات المعادية للسعودية. ففي تلك الفترة بالذات، في يناير 1967م، دعا جمال عبد الناصر الملك سعود المخلوع إلى القاهرة لكي يستفيد منه في الحرب الدعائية الإعلامية ضد فيصل، وأخذت الطائرات المصرية تقصف من جديد أهدافاً في المملكة العربية السعودية. وكان هناك الكثير من الأدلة على أن المصريين هم الذين دبروا عدة انفجارات في المملكة خلال الفترة من ديسمبر 1966م حتى أبريل 1967م، وبعضها من أجل إفشال موسم الحج.

وضعت استراتيجية "النفس العميق" المصرية الرياض أمام معضلة جديدة. فالوجود المصري في اليمن لا يزال يمثّل خطراً، لكنه لم يكن خطراً بالغاً كما في السابق، لأن المصريين فضلوا البقاء في مثلث صنعاء - الحديدة - تعز. وكان القصف الجوي بالطبع يخلق مشكلة، إلا أن المفروض أن تساعد شبكة الدفاع الجوي الجديدة على التصدي لغارات الطائرات المصرية.

ولكي يُقيّد تحرك المصريين كانت الحاجة تقتضي التعاون مع الملكيين اليمنيين كالسابق. إلا أن سياستهم الشرسة جداً كان يمكن أن تستفز المصريين فيتجاوزوا هذا المثلث، بل ويسددوا ضربات إلى المملكة العربية السعودية. وقد بات هذا الاحتمال وارداً من جديد بسبب الخطاب المصري المعادي والعمليات التخريبية الفعلية للمصريين في المملكة. وبتشجيع واضح من

مصر استأنفت حكومة الجمهورية العربية اليمنية دعاواها بنجران وجيزان وعسير.

وكان عام 1967م مرشحاً ليكون عام الاشتباكات الضارية. إلا أن الحل الذي لم يتمكن فيصل وعبد الناصر من فرضه في ساحة القتال ولا على طاولة المفاوضات جاء من الخارج. فقد مُنيت مصر بهزيمة كارثية في الحرب مع إسرائيل عام 1967م، وتغير الموقف جذرياً في اليمن أيضاً.

سياسة "ترويض" عبد الناصر الأميركية لم تؤدّ إلى نتيجة، وذلك لأن مصر أخذت تتسلم المساعدات الغذائية الأميركية، لكنها ظلت تتحدى أميركا اعتماداً على الآليات والمساعدات الحربية السوفياتية.

وكان الأميركيون مستائين من مشاكسات جمال عبد الناصر. فقد التزمت القاهرة وواشنطن باللياقة السياسية، لكنهما في الواقع أخذتا تستعرضان العضلات على الرغم من أنهما لم تتجاوزا أبداً الخط الأحمر الذي يمكن أن يؤدي إلى المواجهة الحربية. وكان الخطاب الناصري وتعاون عبد الناصر الوثيق مع الاتحاد السوفياتي ومحاولات إسقاط النظام السعودي بهدف الاستيلاء على النفط، كل ذلك هو الذي حدد موقف الرئيس جونسون، فلم يعترض في الواقع على الضربة الإسرائيلية لمصر عام 1967م.

الفصل السادس عشر

"حرب الأيام الستة"

عندما اجتاح الإسرائيليون مصر وسورية والأردن كان فيصل قد عاد من أوروبا لتوّه. وصل إلى الظهران يوم 4 يونيو، فيما قامت الحرب يوم 5 يونيو. وفي ما بعد عرف أن الجيوش العربية انهزمت، على الرغم من أن نطاق الفاجعة لم يتضح بالكامل إلا بعد حين من الزمن. وكان عليه أن يمشي من جديد على حدّ الشفرة، فيتضامن مع الأقطار العربية في حربها ضد إسرائيل من دون أن يفرّط في التعاون مع الولايات المتحدة. وكان منطق الحرب العربية الإسرائيلية يقتضي نقل القوات المصرية من اليمن، فيما كان الملك فيصل بالطبع يتمنى النصر للسلاح العربي. إلا أن النكسة والاحتلال اليهودي لسيناء والجولان وغزة والضفة الغربية والقدس الشريف، قبلة المسلمين الأولى، كانا أكثر مما يتحمله العقل. كل ذلك يتعارض بالكامل مع تمسك الملك فيصل العميق والصادق بمثل الإسلام العليا ومبادئ التضامن العربي. كان ذلك يهدد الاستقرار الذي كسبته المملكة توّاً، لأن الميول المعادية لإسرائيل والمتعاطفة مع جمال عبد الناصر والناصرية ومشاعر العداء للأميركان كانت قوية في المملكة نفسها، وقد تفجرت وطفت على السطح.

القيادة الإسرائيلية سعت إلى الحرب واستعدت لها، معتبرة الوضع مناسباً تماماً لإشعال فتيلها. وكانت ثقة الزعماء العرب الساذجة باستعداد جيوشهم وأهليتها للقتال قد أضعفت من يقظتهم وعرقلت اتخاذ التدابير الفعلية للتعبئة والإعداد للحرب، فيما قلّل الصراع في قمة الهرم السياسي والعسكري السوري من فاعلية قيادة العمليات القتالية. وبعد أزمة الكاريبي الصاروخية، استبعد الاتحاد السوفياتي من مفرداته التضليلية أكذوبة التهديد النووي، ولم يكن يمتلك بعد القدرة على إرسال قوات مسلحة على جناح السرعة إلى منطقة النزاع.

بدا التفوق الاستراتيجي في أنظار القيادة الإسرائيلية واضحاً للعيان. فاحتلال الأراضي العربية يزيد في عمق المناطق التي تسيطر عليها إسرائيل وسعتها، ويجعلها تبسط هيمنتها على سيناء ومرتفعات الجولان والضفة الغربية. في تلك السنوات كان الكثيرون يعتبرون مفردة "العمق الاستراتيجي" مفهوماً له شأنه. ويصعب الجزم الآن بما إذا كانت قد طرحت آنذاك مهمة الإلحاق الكلي أو الجزئي للقدس الشرقية والضفة الغربية وغزة ومرتفعات الجولان واستثمارها من قبل المستوطنين اليهود الوافدين، أو أن القيادة الإسرائيلية كانت مستعدة آنذاك لحل سلمي وفقاً لصيغة "الأرض مقابل السلام" فقط. وكان سيرضي القيادة الإسرائيلية يومئذ إسقاط النظام القومي المعادي للغرب ولإسرائيل في كل من سورية ومصر

واستبداله بنظام معتدل موالٍ للغرب ومستعد للصلح ولحل وسط.

الولايات المتحدة الأميركية كانت متورطة في حرب الفيتنام وتخشى فتح "جبهة ثانية" للمواجهة مع الاتحاد السوفياتي. إلا أن الإدارة الأميركية كانت على علم بتناسب القوى الحقيقي في المنطقة انطلاقاً من الاستعدادات الحربية للطرفين المتنازعين. وكان من مصلحة واشنطن موضوعياً تسديد ضربة إلى مكانة الاتحاد السوفياتي ومواقعه، الأمر الذي تقود إليه هزيمة حلفائه وأصدقائه العرب بنحو يراد له أن يؤدي إلى استبدال النظام الحاكم في كل من سورية ومصر. وقد ظلت مهمة إزاحة الاتحاد السوفياتي من الشرق الأوسط في أجندة وجدول أعمال السياسة الأميركية.

عشية الحرب العربية الإسرائيلية الثالثة، بعد 11 عاماً من العدوان الثلاثي 1956م، كانت قيادة الاتحاد السوفياتي على ثقة بأن الجيشين المصري والسوري على استعداد تام للنزاع المحتمل، اعتماداً على المساعدات السوفياتية. فقد كان توازن القوى، كميات الأسلحة وعدد القوات من الطرفين والقدرات البشرية الكبيرة جداً في العالم العربي، والتصور الساذج بأن "اليهود لا يجيدون القتال"، ذلك التصور الذي لم تبدده الحربان الإسرائيليتان السابقتان، كل ذلك جعل القيادة السوفياتية مطمئنة نوعاً ما في شأن النزاع الحربي المحتمل، ولسان حالها يقول: نحن ضد الحرب، ونعرف أن لا أحد يسمح للعرب بإزالة إسرائيل من الوجود،

ولكن لا بأس بتلقينها درساً. الأفضل ألا تنشب الحرب، ولكنها إذا نشبت يجب أن تكون محدودة ولا تقود إلى هزيمة العرب. وقد علم المؤلف في حينه أن موسكو كانت تشطب المعلومات الاستخبارية الواردة من إسرائيل في شأن الاستعداد الفعلي للقتال لدى جيوش الطرفين وفي شأن المخططات الإسرائيلية لخوض الحرب، على اعتبار أنها معلومات تضليلية غير موثوقة، وذلك لأن تصديق مثل تلك المعلومات والتحذيرات يعني التشكيك في "حكمة وبعد نظر" القيادة السياسية للاتحاد السوفياتي والارتياب في العمل الطويل الأمد الذي مارسته وزارة الدفاع السوفياتية في مصر وسورية، في الوقت الذي كانت فيه لليونيد بريجنيف مصلحة في دعم قيادة القوات المسلحة السوفياتية ليعزز مواقعه في داخل البلاد.

في بداية عام 1967م مارست القيادة السورية الدعاية المعادية لإسرائيل من اعتبارات السياسة الداخلية في المقام الأول، إلى جانب استعراض القوى والعضلات على خط الهدنة مع الإسرائيليين، فيما كان خطاب القيادة الإسرائيلية المعادي لسورية يقترن هو الآخر بتهديدات ومناورات عسكرية، على الرغم من مبالغة الاستخبارات السورية ووسائل الإعلام السوفياتية في حجم تلك التهديدات، كما يبدو.

وقد وفرت مغامرات جمال عبد الناصر المرتبطة بالسوريين كل الذرائع التي كان ينتظرها الإسرائيليون ليسددوا ضربتهم.

ففي 18 مايو 1967 طلب عبد الناصر سحب القوات الدولية من خط الهدنة مع إسرائيل ومن شواطئ مضيق تيران، وأرسل قوات مصرية إلى هذه المواقع، وأغلق أمام السفن الإسرائيلية المنفذ إلى البحر الأحمر عبر خليج العقبة.

كانت الدبلوماسية السوفياتية التي دعمت عبد الناصر سياسياً تريد للأزمة "حلاً سلمياً عادياً ومقبولاً للطرفين". بالنسبة إلى المصالح الاستراتيجية السوفياتية، لا فرق عندها بالنسبة إلى الجهة المهيمنة على مضيق تيران ولا أهمية لما إذا كانت السفن الإسرائيلية تبحر من خلاله أو لا. ولذا كان الاتحاد السوفياتي مستعداً لتأييد أي حل وسط، على اعتبار عدم جواز إشعال فتيل الحرب بسبب عدم استطاعة بضع سفن المرور من إيلات إلى البحر الأحمر.

إلا أن موسكو كانت على علم بقرب الحرب الداهمة.

... هذا نص برقية وزير خارجية الاتحاد السوفياتي أندريه غروميكو إلى السفراء السوفيات في بولندة وألمانيا الديموقراطية وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا ورومانيا والمجر ومنغوليا وكوريا الشعبية والفيتنام وكوبا:

28 مايو 1967م. سري

قوموا بزيارة الرفيق غومولكا (الرفاق أولبريخت ونوفوتني وجيفكوف وتشاوشيسكو وكادار وتسيدينبال وكيم إيل سونغ وهوشي منه وكاسترو) وأبلغوهم ما

يلي بناءً على تكليف من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي:

نظراً لتأزم الموقف في الشرق الأوسط اتخذت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي والحكومة السوفياتية في الأيام الأخيرة عدة خطوات الهدف منها الحيلولة دون شن عدوان إمبريالي على الدولتين العربيتين التقدميتين الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية السورية والدول الملتفة حولهما.

وكما جاء في بيان الحكومة السوفياتية في 23 مايو نحن ننطلق من أن القوى الإمبريالية في الولايات المتحدة وبريطانيا تعمل من وراء ظهر إسرائيل التي شغلت العناصر الشرسة المنفلتة مكان الصدارة فيها أكثر فأكثر، وأن تلك القوى تسعى منذ وقت طويل إلى إنهاء نضال العرب ضد الاستعمار والإمبريالية.

وقد حصلنا بالقنوات السرية على معلومات تفيد بأن استفزازاً حربياً جديداً أُعدّ من طرف إسرائيل ضد الجمهورية العربية المتحدة. ولذا بعثنا في 26 مايو، من خلال سفيرنا في تل أبيب، برقية رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي الرفيق ألكسي كوسيغين إلى رئيس وزراء دولة إسرائيل

أشكول. وتضمنت البرقية تحذيراً صارماً من العواقب الوخيمة التي يمكن أن تنجم عن محاولات البدء بالعمليات الحربية...

كما قررت اللجنة إرسال رسالة مناسبة إلى الرئيس جونسون. أكدنا فيها أنه في الوضع الناشئ يتوقف على الولايات المتحدة بالذات وعلى الرئيس جونسون شخصياً ما إذا كانت إسرائيل ستقدم على العمل العدواني الطائش ضد الدول العربية أم لا. وقلنا صراحة إننا نعتبر أعمال الدول العربية عادلة وذات صفة دفاعية. وأكدنا أنه إذا علت كلمة النهج المغامر ولعلع السلاح فسيكون ذلك بداية لأحداث كبرى. وإذا اقترفت إسرائيل العدوان واندلعت العمليات القتالية فإننا سنقدم المساعدة للدول التي تتعرض للعدوان...

وصدرت إلى ممثلي الاتحاد السوفياتي لدى الأمم المتحدة تعليمات بشأن دعم موقف الجمهورية العربية المتحدة وسورية والدول العربية الأخرى في مجلس الأمن الدولي في إطار بيان الحكومة السوفياتية الصادر في 23 مايو من العام الحالي...

بلغونا بالتنفيذ برقياً!

أندريه غروميكو[1]

لم تكن لموسكو سيطرة على مصر وسورية، ومع ذلك لم يرغب الاتحاد السوفياتي في الضغط على الأمم المتحدة لتتخذ قراراً بالعودة إلى الأوضاع التي لا يقبل بها جمال عبد الناصر، فإن موسكو ما كانت تريد إهانة حليفها الكبير. إلا أن واشنطن هي الأخرى لم تكن لها سيطرة على إسرائيل، وكان ذلك هو أصل المشكلة.

عندما اتضح في اليوم الثاني أن القوات الجوية العربية قد دُمّرت بالكامل وأن القوات البرية قد مُنيت بهزيمة كارثية، لم يكن الاتحاد السوفياتي مستعداً للتدخل العسكري في النزاع.

في 6 يونيو 1967م اتخذ مجلس الأمن الدولي بالإجماع قراراً يدعو كل الحكومات المعنية، كخطوة أولى، إلى اتخاذ جميع الإجراءات العاجلة لوقف إطلاق النار فوراً ووقف العمليات الحربية في الشرق الأوسط. إلا أن القوات الإسرائيلية واصلت الهجوم.

في 7 يونيو اقترح الوفد السوفياتي على مجلس الأمن الدولي أن يحدد موعداً دقيقاً لوقف العمليات الحربية، أي أن يطالب، كخطوة أولى، بوقف إطلاق النار فوراً وجميع العمليات القتالية في تمام الساعة الثامنة حسب توقيت غرينتش من مساء السابع من يونيو 1967م. واتخذ القرار اللازم بالإجماع في ذلك اليوم نفسه.

أعلنت الأردن في 7 يونيو استعدادها لتنفيذ قرار وقف إطلاق النار، فيما أبلغت الحكومة المصرية الأمين العام للأمم المتحدة يوثانت في 8 يونيو أنها قررت

الموافقة على مطلب وقف إطلاق النار بشرط أن يقوم الطرف المقابل بالمثل. إلا أن إسرائيل تجاهلت القرار.

في 8 يونيو أصدرت الحكومة السوفياتية بياناً جديداً حذرت فيه إسرائيل من مغبة عدم تنفيذ مطلب مجلس الأمن الدولي بوقف إطلاق النار فوراً، وأكدت أن الاتحاد السوفياتي في هذه الحالة سيعيد النظر في علاقاته مع إسرائيل ويتخذ قراراً في شأن الاستمرار أو عدم الاستمرار بالعلاقات الدبلوماسية معها.

وفي 9 يونيو أبلغ الأمين العام للأمم المتحدة يوثانت مجلس الأمن الدولي بموافقة مصر وسورية والأردن على وقف إطلاق النار. إلا أن القوات الإسرائيلية بدأت آنذاك عملياتها البرية والجوية على امتداد خط الجبهة مع سورية. وفي اليوم ذاته طالب مجلس الأمن، وللمرة الثالثة، بوقف العمليات الحربية فوراً، فيما واصلت القوات المسلحة الإسرائيلية زحفها على الأراضي السورية وقصف دمشق من الجو.

وفي جلسة مجلس الأمن يوم 10 يونيو دعا المندوب السوفياتي إلى اتخاذ "إجراءات حازمة وعاجلة لإيقاف المعتدي وإدانته بكل ما يفرضه القانون الدولي من شدة". وناشد مندوب الولايات المتحدة الطرفين وقف إطلاق النار، إلا أنه اعترض في الوقت ذاته على إدانة إسرائيل.

في العاشر من يونيو قطع الاتحاد السوفياتي علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل، واستخدمت الحكومة السوفياتية خط الاتصال المباشر مع واشنطن وحذرتها

من أن الاتحاد السوفياتي لن يتورع عن اتخاذ التدابير العسكرية ما لم توقف إسرائيل عملياتها الحربية، فأوقفت القوات الإسرائيلية إطلاق النار في جميع الجبهات في 10 يونيو 1967م، ورأى زعماء إسرائيل أنها نفذت المهمات الاستراتيجية الحربية التي أوكلت إليها. ولعلهم كانوا يأملون توسيع منطقة الاحتلال أكثر ليكسبوا المزيد من الأوراق الرابحة في المساومات، إلا أن قطع العلاقات الدبلوماسية من جانب الاتحاد السوفياتي، على الرغم من أنه استنزف مخزون سبل الضغط السياسي على إسرائيل، قد خلق جواً من الغموض. فإن الفعل السوفياتي اللاحق قد يأتي بنحو غير متوقع، وهذا هو ما أوقف القيادة الإسرائيلية. أما واشنطن فقد رأت أن من غير الجائز استفزاز الاتحاد السوفياتي للقيام بأعمال لم يحسبوا لها الحساب مسبقاً، وأن إسرائيل قد حققت كل النجاحات اللازمة، وبات في الإمكان التمتع بثمارها السياسية على مهل.

على الرغم من أن الولايات المتحدة وبريطانيا كذّبتا منذ اليوم الأول للحرب الأنباء القائلة بأنهما تساعدان إسرائيل، لم يصدق أحد في العالم العربي تلك التكذيبات. ثم إن إسرائيل لم تكن في الحقيقة في حاجة إلى مساعدة، فهي كانت قبل الحرب مسلحة بأحدث المقاتلات الفرنسية من طراز "ميراج 3" التي ضمنت نجاح الضربات الجوية.

كانت المملكة العربية السعودية في أواخر مايو 1967م تتوقع اندلاع الحرب بين يوم وآخر، وقد

وضعت قواتها المسلحة في حالة التأهب، بل أرسلت عدة وحدات عسكرية إلى ساحل خليج العقبة. وفي اليومين الأولين من الحرب كررت وسائل الإعلام السعودية بلاغات الانتصارات التي أعدّها المصريون سلفاً، فيما كان القادة العسكريون متحمسين لدخول المعركة كي ينالوا هم أيضاً نصيبهم من أكاليل الغار. ولذلك جاءت الخيبة أشد مرارة وأقسى.

ففي 6 يونيو زار السفير الأميركي في جدة هيرمان آيلتس وزارة الخارجية السعودية ليسلم بيان البيت الأبيض الذي يكذب الأقوال المصرية بأن الولايات المتحدة تساعد إسرائيل. ولكن حتى كبار الموظفين والقادة العسكريين السعوديين كانوا على ثقة بأن العرب يستطيعون إلحاق الهزيمة بإسرائيل لولا تدخل الولايات المتحدة وبريطانيا في النزاع. وكان الأميركيون يخشون على سلامة مواطنيهم، إلا أنهم أوقفوا عملية إخلائهم بناءً على طلب من الملك فيصل حينما عاد إلى البلاد، فيما كانت إدارة أرامكو تخشى التأميم، إلا أن أحمد زكي اليماني بدّد تلك المخاوف بتوجيه من فيصل قائلاً إن الوقت لم يحنْ بعد.

جاء في التاريخ الرسمي لشركة أرامكو: "إن الكثيرين في السعودية كانوا يريدون للملك أن يتخذ إجراءات فورية..."[2]. مصر أغلقت قناة السويس، وأوقف العراق وليبيا وسورية والجزائر وحتى الكويت تصدير النفط إلى الولايات المتحدة وبريطانيا، وقطعت العلاقات الدبلوماسية معهما ست دول عربية هي مصر وسورية

والجزائر والسودان واليمن والعراق، وكان الجميع ينتظرون موقفاً رسمياً من طرف المملكة العربية السعودية.

في جدة دوّت عدة انفجارات في السفارة الأميركية والبعثة العسكرية الأميركية وفي مطبعة عائدة للأميركيين. ولم تنشر الصحف أخبار تلك التفجيرات، إلا أن فيصل كان يتابع الموقف ويجري لقاءات مع إخوانه الأمراء ويتدارس معهم مدى خطورة الاضطرابات.

في رأس تنورة حاول الطلبة إعاقة شحن النفط في ناقلتين أميركيتين، إحداهما عسكرية، وساعدهم في ذلك بعض مستخدمي أرامكو. وعلى الرغم من هذه المحاولات، ضخّ النفط إلى كلتا الناقلتين وتمكنتا من الإبحار. إلا أن تلك الإشارة كانت مبعث قلق، فجازف فيصل بعرض سياسته على شعبه. كان يريد أن ينقل إلى رعيته بطريقة مباشرة أو بالاستعارة والتورية أفكاراً لا تثير الريبة في نفسه، وخلاصتها: ليس لدينا الوقت ولا القوات الكافية لدعم أشقائنا العرب فوراً. إننا متضامنون معهم. ولكن ليس من مصلحة المملكة توجيه إصبع الاتهام إلى الولايات المتحدة ولا معاداة هذه الدولة. واكتظ ملعب الخيل في الرياض بالحاضرين.

قال فيصل:

> كنا على موعد مع الأحداث بتحركات العصابات المجرمة. إن العالم يصف هذه التحركات بأنها اعتداء من الإسرائيليين على

العرب، ولكننا أيها الإخوة نعتبر أنه من سنة 48 ميلادية إلى الآن العرب معتدى عليهم في وطنهم وفي بلادهم. إن مجرد الوجود الإسرائيلي على الأراضي العربية أكبر اعتداء وظلم عرفه التاريخ.

وأكد فيصل أن المملكة ستوقف إرساليات البترول لكل من يساعد إسرائيل، لكنه لم يخصّ بالذكر بلداناً محددة: إننا نعتبر أي دولة تدعم العدوان الإسرائيلي الصهيوني على العرب معتدية علينا، وسنتخذ كل الإجراءات ونستخدم كل إمكاناتنا ضد كل من يدعم أو يقدم أي مساعدة للعدو[3]...

إلا أن ردّ فعل الحاضرين جاء مفاجئاً بالنسبة إليه. فقد تعالت من الجموع صيحات: "أوقف البترول! امنع البترول!"، كما سُمعت هتافات معادية للملك. فأنهى فيصل الاجتماع غاضباً ومضى إلى القصر. لقد انساقت الجموع إلى المشاعر لا إلى العقل، لكن فيصل لم يتمكن في تلك اللحظة من أن يسيطر على مشاعر الناس[4].

ظل فيصل أمداً طويلاً، لسنوات عديدة، يتذكر هذا الاجتماع الفاشل، فاستخلص العبرة اللازمة منه، وهي ضرورة التمعن والتفكير قبل اتخاذ أي خطوة سياسية، كي لا يستثير مشاعر الجماهير. وكلما تذكر هذا الاجتماع اندفع في الجهود الرامية إلى الحيلولة دون اندلاع حرب عربية إسرائيلية كالتي كانت ستقوم في عام 1973م، وازداد تصميمه على تحرير الأراضي العربية المحتلة بالطرق السلمية، بما في ذلك فرض

الحظر على إرساليات البترول إلى الولايات المتحدة في ما بعد.

... إليكم تسجيلاً لحديث السفير السوفياتي في لبنان آنذاك ب. س. ديدوشكين مع التاجر السعودي الشيخ ابن خميس:

14 يونيو 1967م. سري

استقبلت الشيخ ابن خميس العائد توّاً من الرياض، فحدثني تفصيلاً عن الأحداث التي جرت في المملكة العربية السعودية إبان الحرب، وعن ردّ الفعل في هذه البلاد على موقف الاتحاد السوفياتي.

أول ما لفت النظر قبل الحرب وأثناءها هو الشعبية الواسعة للاتحاد السوفياتي ورئيس الحكومة السوفياتية. ففي اليوم الأول من العمليات الحربية قامت في الرياض مسيرات عفوية، وكان الكثيرون يكررون "كوسيغين جيد". وحالما انتشرت الشائعات حول الإخفاقات في الجبهات وحول التدخل الأنجلوأميركي لوحظ أن الجميع ينتظرون أعمالاً سريعة وحازمة من جانب الاتحاد السوفياتي. إلا أن هذه التوقعات تحولت في ما بعد إلى خيبة أمل. ويقول ابن خميس إن مثل هذه الأمزجة كانت موجودة لدى حاشية الملك أيضاً. ففي مأدبة الغداء التي أقامها فيصل في أحلك

فترة من العمليات الحربية، ولعلمه باتصالات العمل بين ابن خميس وشركات التجارة الخارجية السوفياتية، سأله الملك: "أين أصدقاؤك السوفيات؟ لماذا الاتحاد السوفياتي صامت؟". وفي ما بعد انفرد ابن خميس مع الملك في حديث عن الاتحاد السوفياتي. قال له فيصل صراحة إن قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل لم يعد بنتيجة كبيرة، والأفضل من ذلك لو أرسل الاتحاد السوفياتي مئتي طائرة إلى مصر. ويضيف ابن خميس أن فيصل اهتم أثناء الحديث معه بالاتحاد السوفياتي بالغ الاهتمام متسائلاً مستفسراً، وأعرب عن أسفه لأنه في هذه اللحظة العصيبة على الأمة العربية لا يستطيع الاتصال بالحكومة السوفياتية مباشرة. وأكد الملك فيصل أنه يفهم ويقدّر الاتحاد السوفياتي أكثر من أي شخص آخر في العالم العربي، إلا أن الظروف حتّمت غياب الاتصالات المباشرة بين البلدين. ولكن تلك ظاهرة وقتية لا بد من تصحيحها، كما يعتقد.

وقال ابن خميس إن اجتماعاً حاشداً أقيم لمناسبة وصول فيصل إلى المملكة، وكان الجميع ينتظرون من فيصل، في أقل تقدير، أن يعلن وقف تصدير البترول إلى الدول

الداعمة للعدوان الإسرائيلي، ويعرب عن رأيه في قضايا الوحدة العربية، إلا أن الملك لم يتطرق إلى هذه الأمور. وعند ذاك تحول الاجتماع عفوياً إلى تظاهرة شعبية كبيرة. وبدلاً من الهتاف بحياة الملك أخذ الشعب يكرر مفردتين: "ناصر، ناصر" و"البترول". ثم مضى المتظاهرون في أعقاب الموكب الملكي إلى مقر مجلس الوزراء مطالبين بوقف ضخ النفط. وفي الطريق دمروا ونهبوا بالكامل البنك الأميركي والبنك البريطاني في الرياض. وحصلت تظاهرات عفوية مماثلة في جدة والظهران والمنطقة الشرقية من البلاد. وأكد ابن خميس أن تلك القلاقل كانت الأولى من نوعها منذ تسلم الملك فيصل مقاليد الحكم. وفي اليوم التالي، وتفادياً للانفجار الداخلي، اضطرت الحكومة إلى اتخاذ قرار بوقف تصدير البترول إلى الدول الداعمة للعدوان الإسرائيلي.

وتجدر الإشارة في الوقت ذاته إلى أن الدعاية الغربية المهيمنة في المملكة العربية السعودية من دون منازع، قد حاولت، كما يقول ابن خميس، أن تستغل الإخفاقات على الجبهات، فأخذت تسعّر مشاعر العداء للاتحاد السوفياتي في نفوس أبناء الشعب السعودي. وبعد قرار مجلس الأمن الدولي

بوقف إطلاق النار، ظهرت في جريدة "البلاد"، وهي من أكبر الجرائد السعودية، صورة كاريكاتورية معادية للاتحاد السوفياتي تمثل جندياً عربياً يبصق على العلم السوفياتي المرفرف فوق الكريملين. كان من المحزن رؤية هذه المشاهد المهينة للاتحاد السوفياتي. إلا أن الأحداث اللاحقة ساعدت الشعب على رؤية الحقيقة، فأدرك من هو الصديق الصدوق ومن هو العدو الفعلي للشعوب العربية. وأكد ابن خميس أن المشاعر الطيبة عموماً تجاه الاتحاد السوفياتي تعمقت كثيراً لدى سكان المملكة العربية السعودية. وينبغي الاستفادة من ذلك لإحراز مواقع جديدة في هذا البلد المتخلف... سفير الاتحاد السوفياتي في لبنان ب. ديدوشكين[5].

نحن لا نعرف هل التقى الشيخ ابن خميس الملك فيصل حقاً وتكلم معه عن الموقف السوفياتي من النزاع، أم هذا التاجر حاول أن يعطي لنفسه قيمة في نظر السفير السوفياتي؟

ولكننا، ونحن نطالع هذه البرقية، لا بد أن نأخذ في الاعتبار أن التاجر السعودي حدث السفير السوفياتي بما يريد هذا السفير أن يسمعه منه، فيما انتقى السفير من ذلك الحديث ما يسرّ أسماع موسكو. إلا أن خيبة أمل

العرب عموماً في موقف الاتحاد السوفياتي واضحة حتى من نص هذه البرقية.

بعد الاجتماع الآنف الذكر رمت الجماهير مقر أرامكو في الرياض بالحجارة.

وفي 7 يونيو بدأت التظاهرات والإضرابات في المنطقة الشرقية. أضرب عمال أرامكو بعد أن تقاضوا رواتبهم. وجاء في التاريخ الرسمي للشركة: "إن انضباط المضربين كان في منتهى الكمال"[6]. وتلقى منتسبو السفارة الأميركية في جدة والقنصلية الأميركية في الظهران توصية بمغادرة المملكة. كان الملك فيصل يدرك أن ذلك من مظاهر الخوف الذي يمكن أن تثيره القلاقل وتشدده أكثر. ولذا طلب شخصياً من الأميركيين ألا يغادروا البلاد، فأُجّلت عملية الإخلاء.

اشتدت التظاهرات المعادية للأميركيين، فشملت الظهران والدمام وأبقيق والخبر ورأس تنورة، وتوقف ضخ النفط نهائياً إلى الناقلات، وانضم بعض أفراد الشرطة إلى المتظاهرين، ولوحظ عسكريون سعوديون بين الذين هاجموا القنصليات الأميركية ومكاتب أرامكو.

آنذاك لم تكن تحت تصرف فيصل قوات كافية لوضع حدّ للقلاقل. فالقوات المسلحة بعضها مرابط على الحدود اليمنية، وبعضها في تبوك على مقربة من الأردن. ولذا أرسل وحدات إضافية من الحرس الوطني من الرياض إلى المحافظة الشرقية لتشغل مواضعها حول القاعدة الجوية والقنصلية الأميركية. إلا أن

طبيعة فيصل السياسية تعارض التنكيل المسلح بالمتظاهرين، وكان يريد من كل بد تفادي إراقة الدماء.

تطور الأحداث على الجبهات العربية الإسرائيلية قد أجرى تغييرات جذرية في الموقف. فكان واضحاً للقيادة في مصر وسورية والأردن أن الحرب خاسرة تماماً.

قدم الرئيس المصري استقالته في العاشرة إلا ربعاً من مساء 9 يونيو، ما دعا إلى الارتياح في إسرائيل والولايات المتحدة والعالم الغربي إجمالاً، وأثار اليأس والقنوط في العالم العربي. فخرجت الملايين إلى شوارع المدن المصرية هاتفة: "لا"، "لا". وقضت على اللجنة العسكرية التي أُلّفت لتتولى مهمات عبد الناصر، فاستعاد الرئيس السلطة في 11 يونيو.

أما في المملكة العربية السعودية، فقد ظهر حرس حول مباني أرامكو في 9 يونيو. وبأمر من فيصل عيّن في خزانات البترول مفتشون سعوديون لمنع ضخ النفط إلى الولايات المتحدة وبريطانيا.

وأخذ عمال أرامكو العرب يعودون إلى العمل بعد أن أفرغوا غضبتهم أثناء الاحتجاجات. فالكثير منهم لديهم عوائل، وكانوا يخشون ضياع فرصة العمل المستقر العالي الأجر.

كذلك أعربت الحكومة السعودية عن استعدادها للتعويض عن الخسائر التي لحقت بالقنصلية الأميركية.

في 11 يونيو كان العالم العربي لا يزال يغلي. أعلن الإضراب العام في الكويت، وقامت تظاهرات معادية

للولايات المتحدة وبريطانيا في الخرطوم.

وفي 12 يونيو استؤنف ضخ النفط من الأقطار العربية إلى جميع المستهلكين، ما عدا الولايات المتحدة وبريطانيا، علماً بأن محاولة الحظر النفطي في عام 1967م تحولت إلى مجرد فقاعة. ففي العالم فائض من النفط، وحتى أسعاره لم ترتفع. وكانت الولايات المتحدة وبريطانيا تتلقيان ما يكفيهما من النفط لسد احتياجاتهما، فيما كان الحظر يلحق الضرر بميزانية الدول المصدرة.

في المملكة العربية السعودية بلغت خسائر وقف تصدير النفط من 8 إلى 12 يونيو 10 ملايين دولار يومياً تكبدتها أرامكو والحكومة السعودية. وبتوجيه من فيصل طالب أحمد زكي اليماني شركة أرامكو بأن تسترشد برغبات الحكومة السعودية، ما أثار غضب رئيس أرامكو بوب بروكهام الذي كان يخشى أن يتحول هذا القرار إلى خطوة في اتجاه التأميم.

التأميم لم يكن وارداً، إلا أن آفاقه ارتسمت آنذاك. ومن علاماته ظهور كوادر سعودية مؤهلة من أهل النفط مع قدوم عام 1967م. وإلى ذلك، حتى كبار المسؤولين الإداريين السعوديين شاركوا في الاحتجاج على الولايات المتحدة، وكانت تلك مفاجأة بالنسبة إلى الأميركيين الذين تصوروا أن أفضالهم وتنازلاتهم في الميدان الاجتماعي ستضمن لهم الولاء، وأنهم بالتالي سيحتفظون بالسيطرة على الحقول النفطية إلى الأبد.

لقد تبدل الموقف في الشرق الأوسط جذرياً. فلم تضعف مواقع الاتحاد السوفياتي في المنطقة، بل تعززت. ذلك أن زعماء مصر وسورية الذين وصلو إلى طريق مسدود اضطروا إلى توسيع التعاون مع موسكو. وفي أعقاب حرب "الأيام الستة" بدأت إرساليات السلاح إلى مصر وسورية فوراً.

وإلى جانب المساعدات العسكرية والاقتصادية لحليفتيه مصر وسورية، استخدم الاتحاد السوفياتي بنشاط أوراق اللعبة الدبلوماسية في الشرق الأوسط.

ففي 17 يونيو 1967م عقدت الدورة الطارئة الخامسة للجمعية العامة للأمم المتحدة، وشارك فيها رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي ألكسي كوسيغين. وفي 19 يونيو تقدم كوسيغين بمشروع قرار يندد بالعدوان الإسرائيلي تنديداً شديداً، ويطالب بانسحاب القوات الإسرائيلية فوراً ومن دون قيد أو شرط من جميع الأراضي المحتلة عام 1967م وتسديد إسرائيل تعويضات كاملة وفي أقصر فترة عن كل الخسائر التي لحقت بالجمهورية العربية المتحدة وسورية والأردن ومواطنيها نتيجة العدوان. ونشير هنا إلى أن مشروع هذا القرار لم يتناول آنذاك القضية الفلسطينية التي غدت بعد بضع سنوات جوهر النزاع العربي الإسرائيلي.

وقفت الولايات المتحدة وحلفاؤها في وجه مشروع القرار السوفياتي، إلا أنهم لم يتمكنوا على أي حال من إمرار قرارهم في الجمعية العامة.

وفي يونيو - يوليو 1967م زار موسكو كل من الرئيس الجزائري هواري بومدين والرئيس العراقي عبد الرحمن عارف، ثم وصل إلى موسكو الرئيس السوري نور الدين الأتاسي.

ومن جهة أخرى، توجه رئيس هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي نقولاي بودغورني، وهو الشخصية الثالثة أو الرابعة في الهرم السوفياتي، إلى القاهرة ودمشق وبغداد في يوليو - أغسطس 1967م.

وفي الثلاثين من أغسطس التقى الزعماء العرب في قمة الخرطوم لوضع استراتيجية مشتركة. ووعد عبد الناصر ملوك الدول العربية ورؤساءها بأن مصر لن تتدخل في شؤون الغير. إلا أن الزعيم المصري كان في حاجة إلى مساعدة مالية لمكافحة إسرائيل وإنعاش الاقتصاد وإحياء القوات المسلحة. وقد حصل على تلك المساعدة.

يقول هشام ناظر:

> الملك فيصل أخذني معه إلى المؤتمر. كان أرسلني مع وكيل وزارة الخارجية في ذلك الوقت لحضور مؤتمر وزراء الخارجية الذي سبق مؤتمر القمة في الخرطوم، ثم حضرت معه مؤتمر الخرطوم. وكنت، على اعتباري وكيل وزارة البترول في ذلك الوقت، أعرف الداخل وأعرف التزامات المشاريع وذهبت بجميع ملفاتي وتحضيراتي. وأنا لم أكن

أتخيل أن الذي حدث هو الذي حدث... مصر وسورية كانتا في حاجة ماسة إلى مساعدة مادية. لم يكن بإمكان لا المملكة العربية السعودية ولا أحد في الدول البترولية في ذلك الوقت أن تمد يدها بإمكانات كبيرة، لأن إنتاج المملكة في ذلك الوقت كان بسيطاً ودخلها كان بسيطاً. لكنه هو تبرع بخمسين مليون جنيه استرليني سنوياً، ولم يكن عندنا في ذلك الوقت ما يكفي لتوفير هذا المبلغ، ما يدل على حنكته رحمة الله عليه ومعرفته بحجم المشكلة، لأن المشكلة التي كانت أمام مصر وسورية مشكلة ضخمة وتتطلب كثيراً من التضحية فيما يتعلق بإخوانهم العرب أن يتحملوا الكثير من التضحية لمساعدتهم على الخروج من تلك الأزمة. عندما كنا في الخرطوم سألني الملك: "احسب كم تظن أن المملكة العربية السعودية تستطيع أن تتبرع به سنوياً"، فأنا حسبت خمسة ملايين دولار. فقال لي رحمه الله "زوِّدها شوية". فأعدت الحساب وشطبت جزءاً من المشاريع ورجعت وقلت له خمسة عشر مليون دولار. فسكت. ودخل عليهم والتزم بخمسين مليون استرليني، مما اضطرنا في ذلك الوقت هنا في المملكة أن نوقف الكثير من المشاريع

والالتزامات في الداخل للوفاء بالالتزام تجاه الدول العربية[7].

وقد كتب أنور السادات في مذكراته **البحث عن الذات** أن جمال عبد الناصر لم يتوقع أن تزيد مساعدة العرب على 5 ملايين جنيه، أو 10 ملايين في أبعد تقدير. ولذا دهش الجميع، وخصوصاً عبد الناصر، عندما أعلن الملك فيصل في القمة أن المملكة ستخصص 50 مليون جنيه، وطلب من الكويت أن تخصص 55 مليوناً. كان فيصل جالساً قبالة الزعيم العربي، العملاق الجريح، الذي كان من ألدّ أعدائه في السابق. إلا أن الموقف تطلّب مدّ يد العون إلى القائد الجريح...[8]

أراد فيصل أن يصون كرامة عبد الناصر كما يصون كرامته. ومدّ يد الدعم للرئيس المصري، فتبعه زعماء باقي الدول العربية النفطية. واتخذ الزعماء العرب موقفاً مشتركاً تجاه إسرائيل سمّي "باللاءات الثلاث": لا للسلام مع إسرائيل، لا للمفاوضات مع إسرائيل، لا للاعتراف بإسرائيل.

توسط رئيس الوزراء السوداني محمد أحمد محجوب في المحادثات بين عبد الناصر وفيصل، فاتفقا على عدم بحث النزاع اليمني في القمة، بل في محادثات سعودية مصرية ثنائية، وقررا تجاهل وفد الجمهورية العربية اليمنية الذي وصل إلى الخرطوم.

كتب وزير الخارجية المصري محمود رياض في ما بعد أن مشكلة اليمن حُلّت في ساعة ونصف. فقد حضر اللقاء الذي نظمه محجوب كل من الملك فيصل ووزير

دفاعه الأمير سلطان وجمال عبد الناصر ومحمود رياض نفسه. وافق عبد الناصر على أن يتولى اليمنيون تقرير مصير اليمن بأنفسهم، كما وافق على سحب القوات المصرية من هذه البلاد. وغادرتها آخر قوات مصرية في الفترة بين 15 و31 ديسمبر 1967م، فيما كانت مغادرة الملك السابق سعود القاهرة أمراً مفروغاً منه.

إلا أن سامي شرف المخلص لجمال عبد الناصر يقيّم دوافع الملك فيصل على نحو آخر:

> فيصل ساعد مصر بعد حرب 1967م ليس حباً بمصر. كان خائفاً على نظامه. لأنه لو لم يساعد مصر في أزمتها لانقلب عليه نظامه[9].

أكيد أن عوامل كثيرة أثّرت في طبيعة دوافع التفاتة فيصل السياسية السمحاء في قمة الخرطوم. فقد أدرك قبل غيره أن الخريطة السياسية للشرق الأوسط تبدلت جذرياً. وكان الملك السعودي حتى قبل "حرب الأيام الستة" مستعداً لدفع الغالي والنفيس في مقابل خروج المصريين من اليمن ووقف عملياتهم التخريبية في المملكة العربية السعودية. إلا أن الخصم السابق تحول اليوم إلى حليف وشريك، وهو في حاجة إلى المساعدة. وتقاليد الجزيرة العربية ترحب بالحلول الوسط والصداقة والتعاون مع الخصوم السابقين. كان سكان المملكة وفيصل نفسه متعاطفين مع ضحايا العدوان الإسرائيلي، فيما بات تحرير القدس الشريف، أولى القبلتين، مهمة المهمات بالنسبة إلى سياسة الملك فيصل.

انتفى الخطر الخارجي على أمن المملكة العربية السعودية، وبات في الإمكان التركيز على التحديث والتنمية في البلاد. فقد افتتح الطريق إلى هذه الغايات بعد مؤتمر الخرطوم. كانت القدرات الاقتصادية الكامنة في البلاد هائلة رغم مبالغ المساعدات لضحايا العدوان. إلا أن تنفيذ خطط فيصل هذه تحتاج إلى تعاون مع الغرب، وبخاصة مع الولايات المتحدة. فقرر الملك أن يطرح رؤيته للموقف بعد مؤتمر الخرطوم في برقية طويلة إلى الرئيس جونسون الذي تربطه به علاقة طيبة. ومحور هذه الرسالة أن العالم العربي عموماً لم يعد تحت تأثير "الاشتراكية العربية" أو القومية الناصرية، بل هو تحت تأثير "العالم الحر" والسوق الحرة"، كما أكد فيصل.

إلا أن الرئيس جونسون أصيب بخيبة أمل من نتائج قمة الخرطوم ومن "اللاءات الثلاث". وكان فيصل يعتبر هذه المسألة ثانوية، فيما اعتبرها جونسون مسألة مهمة للغاية، بسبب الضغوط التي يتعرض لها من جانب القوى الجبارة الموالية لإسرائيل في واشنطن.

نوقشت قضايا مبادئ التسوية السياسية في جلسات مجلس الأمن الدولي المنعقدة في 9-22 نوفمبر 1967م.

ففي 22 نوفمبر اتخذ مجلس الأمن الدولي بالإجماع مشروع القرار رقم 242 الذي تقدمت به بريطانيا، ويتّسم بطابع الحل الوسط. وقد نص، في ما نص، على "انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من الأراضي

التي احتلتها في أثناء النزاع". وبعد التصويت على القرار، تحدث مندوب الاتحاد السوفياتي معلناً أنه يفهم أن المقصود منه هو سحب القوات الإسرائيلية "من جميع الأراضي المحتلة بنتيجة عدوان 5 يونيو 1967م". وهنا أريد أن أوضح للقارئ الكريم تأكيد المندوب السوفياتي على مفردة "جميع" الأراضي المحتلة. ففي اللغة الروسية لا توجد أداة التعريف "الـ". وإذا جاء مفهوم "الأراضي المحتلة" معرّفاً، أي مقترناً بأداة التعريف باللغة الإنجليزية أو الفرنسية، فيجب ترجمته إلى اللغة الروسية بصيغة "جميع الأراضي المحتلة". إلا أن أداة التعريف لم ترد في الصيغة الإنجليزية للقرار، بل وردت في صيغته الفرنسية فقط. ولذا اعتمد الإسرائيليون الصيغة الإنجليزية وحدها أساساً للمراهنات والمتاجرة الدبلوماسية، فيما شدد الجانب السوفياتي على الصيغة الأصح.

لكن فيصل لم يكن مستعداً للاعتراف بأي دور إيجابي للاتحاد السوفياتي في المنطقة. فهو كان يبحث في سياسة القيادة السوفياتية عن مغزى دفين آخر. كان على يقين راسخ بوجود تحالف سري بين الشيوعية والصهيونية، ويعتقد أن هزيمة مصر وسورية والأردن على أيدي الصهاينة قد ساعدت على تقوية نفوذ الاتحاد السوفياتي الملحد في الأقطار العربية.

الفصل السابع عشر

لا خطر من شطري اليمن على المملكة

في أعقاب انسحاب القوات المصرية من اليمن الشمالي والقوات البريطانية من اليمن الجنوبي، واجهت المملكة العربية السعودية تحديات جديدة، حين اتضح أن النظام الجمهوري في شمال اليمن لم يتقوّض وأن الجمهوريين يواصلون القتال، فيما كان الملكيون هناك أضعف من المفروض. أما القوى التي تسلمت مقاليد الحكم في اليمن الجنوبي الجديد المستقل فهي معادية للمملكة العربية السعودية عقائدياً وسياسياً. وقد ظهر في الوقت ذاته احتمال توحيد شطري اليمن في دولة كبيرة وكثيرة السكان في جنوب جزيرة العرب، ما يعتبر في تقديرات ذلك الزمان في غير مصلحة السعوديين.

تاريخ شطري اليمن مشحون بالحوادث الدرامية المفجعة. ولكثرتها اضطر المؤلف إلى عرضها بشكل أبعد ما يكون عن التفاصيل. ولذا فالذين عايشوا تلك الأحداث أو درسوها تفصيلاً يمكن أن يأخذوا على المؤلف تناسيه أو تجاهله بعض الوقائع التي تستحق الذكر والتقويم. وأنا موافق على هذا المأخذ سلفاً. يشفع لي أن مهمتي هي محاولة عرض الأحداث من منظار الملك فيصل وسياسته. وأنا في الحقيقة لا أريد هنا أكثر من ذلك.

في الفترة من 1967م حتى 1970م اتخذ فيصل موقفاً جديداً حيال الجمهورية العربية اليمنية (اليمن الشمالي) التي باتت دولة صديقة للسعودية، وموقفاً سلبياً تماماً من حكومة جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية.

ما كان بوسع الملك فيصل أن يتصور مدى نفوذ القوى اليسارية التي رسمت آنذاك المستقبل السياسي لليمن الجنوبي. فهو، اعتماداً على منطقه المعتاد، عوّل على العناصر التقليدية المحافظة، فيما دعم المصريون، وكذلك الاتحاد السوفياتي، "جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل". وكانت هذه الجبهة في منافسة مع "الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل" التي تستقي أفكارها من "حركة القوميين العرب" اليسارية المتطرفة، وتسيطر على المناطق الريفية في الجنوب وتتمتع بتأييد عدن. ولقد تمكنت "الجبهة القومية" في أعقاب الاستقلال من أن تلحق الهزيمة "بجبهة تحرير جنوب اليمن المحتل". فاضطر زعماء الجبهة الأخيرة، شأن الشيوخ والسلاطين المحليين، إلى الفرار من البلاد إلى المملكة العربية السعودية. وتحولت وجهة التأييد السوفياتي من الجبهة الخاسرة إلى "الجبهة القومية".

إبان الحرب الأهلية في اليمن صيغت سبل التأثير السعودي على الأحداث. وكانت الآلية الرئيسة لذلك التأثير هي علاقات الرعاية والتابعية مع أبرز الشخصيات ومع الجماعات المستقلة التي تمثلها القبائل. إلا أن السعوديين ما كانوا يريدون بأي حال من

الأحوال استخدام قواتهم المسلحة للتدخل في الشؤون الداخلية لليمن سواء الشمالي أو الجنوبي. فالمهمة الرئيسة التي وضعوها نصب أعينهم هي الحيلولة دون ظهور قوى خارجية في اليمن معادية للمملكة العربية السعودية. في ما يخص اليمن الشمالي كان كل شيء خاضعاً لهدف إخراج القوات المصرية، الأمر الذي تم تحقيقه. أما في اليمن الجنوبي فقد تطورت الأحداث في اتجاه آخر. النظام المقلد للماركسية الذي ترسخ هناك فرض السيطرة التامة على البلاد وحوّلها إلى صنيعة للاتحاد السوفياتي، وتمكن من إنشاء صورة كاريكاتورية لدولة اشتراكية في شبه جزيرة العرب.

وقد حصل تحول جذري في سياسة الملك فيصل حيال اليمن الشمالي، من تأييد أخطر هجوم شنّه الملكيون في شتاء 1967-1968م على صنعاء إلى الاعتراف بالنظام الجمهوري في عام 1970م. آنذاك أُدرج في قوام الحكومة اليمنية ملكيون موالون للسعودية (من غير عائلة حميد الدين)، وأخذ شيوخ القبائل المتنفذون يؤدّون الدور الرئيس في البلاد.

وقبل أن تغادر القوات المصرية اليمن الشمالي، قرر الجمهوريون استبدال المشير عبد الله السلال برئيس آخر. وتقلصت سلطته، فباتت مقتصرة على جماعة من الضباط المعارضين لأي حل وسط مع الملكيين. وكان وجهاء اليمن الذين انضموا إلى الجمهوريين قد اختاروا عبد الرحمن الإرياني بصفة زعيم يخلف السلال. وفي 5 نوفمبر 1967م سقطت حكومة عبد الله السلال.

حصل الانقلاب في ظل التغاضي من جانب جمال عبد الناصر. كان بوسع القوات المصرية وهي موجودة في اليمن آنذاك أن تحول دون قيام الانقلاب، إلا أنها التزمت الحياد.

وبدلاً من منصب رئيس الجمهورية استُحدث مجلس رئاسي من ثلاثة أشخاص على رأسهم عبد الرحمن الإرياني، والعضوان الآخران هما رئيس الوزراء السابق أحمد نعمان ومحمد عثمان ممثل الشافعية المعروف بآرائه المحافظة، وعيّن البعثي السابق محسن العيني رئيساً للوزراء. وكان يُعتقد أنه سيحظى بتأييد الشباب اليساري المثقف ولن يعترض وجهاء القبائل على تعيينه. فكانت له علاقة مصاهرة مع الشيخ سنان أبو لحوم زعيم قبيلة نهم أحد البطون الرئيسة لقبائل بكيل. وعندما ألّف العيني الحكومة دعا إلى المصالحة الوطنية وألّف لجنة ارتباط مع القبائل المتمردة. وقوبلت سياسة المصالحة المعتدلة التي تقيّد بها المجلس الجمهوري الجديد بتظاهرات احتجاج في تعز وباقي المدن، لأن نهج التفاهم مع الملكيين لم يكن يحظى بالشعبية. إلا أن الأحداث اكتسحت حكومة محسن العيني قبل أن تُتاح لها الفرصة لتنفيذ برنامجها.

في بداية ديسمبر 1967م طوّق الملكيون صنعاء، فبدأ حصارها الذي استمر 70 يوماً. ويبدو أن فيصل كان يعتقد باحتمال فوز الملكيين، إلا أن الجمهوريين المحاصرين استبسلوا في مقاومة مستميتة. فلو انتصر الملكيون عليهم لكان مصيرهم على أبشع حال، وهذا

أمر مفهوم للجميع. وعندما غادر معظم الزعماء المدنيين العاصمة، سلّموا أمر الدفاع عنها إلى الفريق حسن العمري الذي عين عضواً في المجلس الجمهوري وتولى منصب رئيس الوزراء وقائد القوات المسلحة.

القوات التي تحت تصرف الفريق حسن العمري تضم الشباب من أنصار البعث وحركة القوميين العرب المرتبطة تنظيمياً بالجبهة القومية المنتصرة في عدن، كذلك كانت هناك ميول يسارية قوية بين العسكريين. فأثناء الحصار، نظمت حركة القوميين العرب وسلحت متطوّعي "المقاومة الشعبية" في صنعاء وتعز وإب ورداع، كما أيّد بعض أهالي الريف حركة الجمهوريين.

كان الجمهوريون المدافعون عن صنعاء يتلقون المساعدات من الخارج. وقد شاركت طائرات وطيارون سوريون في الدفاع عن المدينة. وبعث الاتحاد السوفياتي سلاحاً وطائرات إلى هناك. ثم إن اليمن الجنوبي الذي أحرز الاستقلال توّاً قد سارع إلى نصرة المحاصرين في صنعاء، حيث وصل إليها أكثر من 600 "متطوع" من الجبهة القومية. وفي ديسمبر 1967م أقيمت العلاقات الدبلوماسية بين الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الجنوبي الشعبية، وأخذت صنعاء وعدن تنسّقان عملياتهما الحربية ضد الملكيين في المناطق الحدودية.

رُفع الحصار عن صنعاء في 8 فبراير 1968م عندما اقتحم المدينة رتل من الجمهوريين المسلحين قادم من الحديدة، ووقعت خزينة الملكيين في أيديهم صدفة،

فانهارت معنويات الملكيين وحلفائهم من القبائل نتيجة القصف الجوي المعادي الشديد، وفشل معركة صنعاء، ثم وجدوا أنفسهم بلا مال، فرفعوا الحصار عن العاصمة.

وخابت آمال فيصل، ونشأت من جديد حزازات بين الملكيين، فيما تعزّز المتشددون من العسكريين الجمهوريين، وازداد وزن أنصار الأحزاب القومية اليسارية.

كتب السفير الأميركي في اليمن روبرت ستوكي في سبتمبر 1968م يقول إن السعوديين قدموا للملكيين معونة ثلاثة أشهر، وحذروهم من أنهم لن يتسلموا المزيد من المال إذا لم يحققوا انتصاراً حاسماً. لكنّ هؤلاء كانوا أعجز من أن يقوموا بعمليات ناجحة. وفي أكتوبر 1968م انحاز قاسم المنصّر، الزعيم القبلي الذي قاد حصار صنعاء، إلى صف الجمهوريين ومعه عدد كبير من القبائل الموالية للملكيين. وفي نهاية 1968م أوقف السعوديون المساعدات إلى محمد بن حسين، قائد قوات الملكيين الذي اختلف مع ابن عمه الإمام البدر، واعتمدوا على الإمام نفسه، إلا أن قاعدة نفوذ هذا الأخير كانت تتقلص وتنحسر.

الأحداث في صفوف الجمهوريين سارت بالأمور إلى جهة قيام نظام في صنعاء أقل خطراً على الرياض من ذاك الذي ظهر على موجة النصر بعد رفع الحصار عن العاصمة اليمنية. فقد تصاعدت الخلافات بين اليساريين (الشافعية أساساً) وبين المعتدلين (ومعظمهم من

الزيدية)، وتحولت تلك الخلافات إلى مواجهة مسلحة انتصر فيها حسن العمري، فتولى مهمات رئيس الوزراء وأقال رئيس الأركان العامة عبد الرقيب عبد الوهاب، الشافعي المؤيد لليساريين، وأجرى عملية تطهير لأنصاره في الجيش.

وتمكنت قوات الفريق العمري النظامية، بمعونة حلفائها القبليين، من إخماد حركة اليساريين المسلحة في صنعاء 23-24 أغسطس 1968م، وقتل نحو ألفي شخص في تلك المعارك، ونُفي عبد الرقيب عبد الوهاب مع عشرين من الضباط الآخرين إلى الجزائر في سبتمبر 1968م، وفرّ بعض أنصاره إلى عدن، ثم عاد إلى صنعاء في نهاية ديسمبر من العام ذاته، لكنه قتل في 25 يناير 1969م.

لقد رسمت معركة أغسطس 1968م وهزيمة اليساريين فيها اتجاه التطور السياسي للجمهورية، فهيّأت الظروف لحل وسط بين الجمهوريين المعتدلين والمحافظين من جهة وبين الملكيين والسعوديين من جهة أخرى. وفي 19 سبتمبر 1968م وجّه حسن العمري من إذاعة صنعاء نداءً إلى المملكة العربية السعودية في شأن المصالحة.

وفي مارس 1969م عقدت جمعية وطنية من ممثلي مختلف القوى السياسية، كان القول الفصل فيها لأبناء القبائل والجمهوريين المعتدلين. ومن جديد، أخذ الزعماء المدنيون المحافظون من أمثال عبد الرحمن الإرياني يؤدّون الأدوار الأولى.

واستفحل العداء بين صنعاء وعدن. فالنظامان يسيران في اتجاهين متعاكسين: الشمال متوجه نحو الغرب ونحو اقتصاد السوق، والجنوب يقوم بتحويلات ذات صفة اشتراكية ويزداد فيه نفوذ الاتحاد السوفياتي.

بعد عام تقريباً من تحرك صنعاء وعدن معاً ضد الملكيين سادت القطيعة بينهما من جديد في الواقع.

ونظراً إلى المخاطر المنبعثة من القوى اليسارية ومن عدن، أخذ الجمهوريون المحافظون المسيطرون على الحكومة في الجمهورية العربية اليمنية يداورون السعوديين لكسب رضاهم. ففي بداية 1969م ناشد رئيس الوزراء اليمني الفريق حسن العمري ورئيس المجلس الجمهوري عبد الرحمن الإرياني المملكة العربية السعودية أن توقف التدخل في اليمن وتقيم معها علاقات وِدّية. وكانت المملكة حتى ذلك الحين قد أوقفت المساعدات العسكرية للملكيين. وفي 10 أبريل 1969م أبلغ العمري الجمعية الوطنية أن المملكة العربية السعودية سمحت للمواطنين اليمنيين بأداء فريضة الحج من دون أي إشكالات. وفي صيف ذلك العام سحبت صنعاء اعترافها بألمانيا الشرقية وأقامت العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا الغربية.

إلا أن فيصل قرر ألا يستعجل الاعتراف بالجمهورية اليمنية التي واجهت وضعاً مالياً عصيباً. استمرت العمليات الحربية، فكانت القبائل الموالية للجمهورية تطالب بالمخصصات، والجيش في حاجة متواصلة إلى

إمدادات مالية، لكن الخزينة خالية، وقد تبدلت عدة حكومات في صنعاء خلال هذه الفترة، فيما ظل فيصل يترقب وينتظر.

استمرت الحرب الأهلية. وفي سبتمبر 1969م استولى الجمهوريون على مدينة صعدة ليس بعيداً عن الحدود السعودية، ثم خسروها من جديد في فبراير 1970م. وأدت المعارك في الشمال إلى تباطؤ عملية المصالحة مع السعوديين، وذلك لأن العمليات الحربية تجاوزت الحدود في بعض الأحيان. وفي نوفمبر 1969م أعلن حسن العمري الذي كان لا يزال عضواً في المجلس الجمهوري وقائداً للقوات المسلحة أن الشمال والجنوب يمكن أن يبدآ التعاون لمواجهة السعوديين. آنذاك كانت تدور اشتباكات مسلحة بين السعوديين واليمن الجنوبي في منطقة الوديعة على مسافة قريبة من نقطة التقاء الحدود غير المرسّمة بين الدول الثلاث. واعترف وزير الدفاع السعودي الأمير سلطان بأن هذه العمليات الحربية أرغمت الرياض على مواصلة الدعم المالي المحدود لقوات الملكيين.

مع اقتراب ربيع 1970م اقتنع فيصل بأنه لن يتمكن من الجمع بين مهمتي الاستمرار بالنزاع المكشوف مع الجمهوريين في شمال اليمن ومحاولة إسقاط النظام شبه الماركسي في جنوبه في الوقت نفسه.

في 5 فبراير 1970م ألّف محسن العيني للمرة الثالثة الحكومة في الجمهورية العربية اليمنية. وكانت هناك مؤشرات كثيرة على امتلاكه مؤهلات نادرة لإعادة

العلاقات مع السعوديين إلى مجراها الطبيعي. كان قد عاد توّاً من موسكو، حيث عمل سفيراً لبلاده هناك. وقد خلقت اتصالاته مع الاتحاد السوفياتي انطباعاً كأنه يستطيع أن يضغط على السعوديين من خلال تمتين العلاقات اليمنية السوفياتية، لكنه كان في الواقع يبحث عن حل وسط مع الرياض.

أول الاتصالات المباشرة بين المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية اليمنية حصلت عندما عرضت الرياض على حكومة الجمهوريين إرسال وفد إلى لقاء وزراء خارجية الدول الإسلامية في جدة في 26 مارس 1970م. فترأس محسن العيني وفداً يمنياً ضمّ الشيخ عبد الله الأحمر وغيره من زعماء القبائل، والتقى الجمهوريون هناك مع الملكيين ومع ممثلي "القوة الثالثة" ومسؤولين سعوديين، واتفقوا جميعاً على حل وسط لإنهاء الحرب الأهلية. وأنيط عدد من المناصب الحكومية بالملكيين من غير آل حميد الدين.

ولأول مرة التقى الملك فيصل علناً ممثل الجمهوريين عبد الله الحجري، سفير الجمهورية العربية اليمنية لدى الكويت والحليف السياسي المقرّب إلى الفريق حسن العمري والمؤيد تماماً للتعاون مع السعوديين.

في أبريل 1970م أيّدت الجمعية الوطنية وكذلك المجلس الجمهوري فكرة ضم الملكيين السابقين إلى الحكومة. وفي منتصف مايو من العام ذاته أعلن اتفاق بين المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية

اليمنية للتعاون من أجل إنهاء الحرب الأهلية. وبات أحمد الشامي، وهو شخصية معروفة بين الملكيين، عضواً في المجلس الجمهوري، فيما تسلم أربعة ملكيين آخرين حقائب وزارية. وكان من القرارات الأكثر أهمية بقاء الإدارة في أيدي الملكيين في المناطق التي كانوا يسيطرون عليها.

في 27 يوليو 1970م، بعد شهرين من الاتفاق على حل وسط، اعترفت المملكة العربية السعودية رسمياً بالجمهورية العربية اليمنية. وفي سبتمبر من العام ذاته اعتمد فيصل مساعدة للحكومة اليمنية بمبلغ يعادل 20 مليون دولار أميركي، وأكد بكل وضوح أن هذه المساعدة تقدم بشرط أن تنفذ الجمهورية العربية اليمنية سياسة خارجية وديّة تجاه الرياض.

إلا أن العلاقات بين المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية اليمنية سارت في تعرجات ومطبّات.

الرياض أقامت اتصالات مباشرة مع المهاجرين من اليمن الجنوبي وبعض ضباط ومشايخ اليمن الشمالي بهدف القيام بأعمال ضد النظام اليساري في جنوب اليمن. وتغاضت حكومة صنعاء عن ذلك، خاصة أنها لم تكن تستطيع السيطرة على الموقف بأي حال. ووفر اليمن الشمالي إمكان النشاط "لجبهة تحرير جنوب اليمن المحتل" المنافسة "للجبهة القومية" والمطرودة من الجنوب اليمني، فيما نزح إلى المملكة العربية السعودية عدد كبير من شيوخ جنوب اليمن وسلاطينه.

أما المنظمات اليسارية في الجمهورية العربية اليمنية فكانت تحظى بدعم من عدن.

ومن الأدلة على انشغال بال الملك فيصل بالوضع في اليمن، رغم انسحاب القوات المصرية، أن أول قاعدة جوية عصرية للقوات المسلحة السعودية بناها فيلق الهندسة الأميركي في خميس مشيط بالذات، على مقربة من الحدود اليمنية. إلا أن البعض يعزون ذلك إلى أسباب أخرى. فهذه القاعدة التي أُنجز إنشاؤها في 1971م قد استغرقت وقتاً طويلاً، حيث بدأت أعمال البناء من فترة الحرب الأهلية اليمنية التي لم تكن معروفة النتائج.

الصراع بين المعتدلين واليساريين في "الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني" انتهى بفوز اليساريين في مؤتمرها الرابع المنعقد في زنجبار في مارس 1968م. واتضح أن التكتيك الذي حقق نجاحاً للسعوديين في شمال اليمن أخفق في جنوبه. ففي صيف 1968م هُزمت المعارضة المسلحة المدعومة من السعودية، وتمكن زعماء الجناح المسلح اليساري برئاسة سالم ربيع علي من تنحية الرئيس قحطان محمد الشعبي في 22 يونيو 1969م، وتألف مجلس الرئاسة من 5 أعضاء وعلى رأسهم سالم ربيع علي، وأجريت حملة تطهير في جهاز الدولة والجيش، ودخل ممثلو حزبي البعث والشيوعي، وهما حزبان صغيران، إلى السلطة، فحصل كل منهما على حقيبة وزارية وعدد من المقاعد في المجلس الشعبي الأعلى الذي تألف كهيئة

تشريعية عام 1971م. ولم يتضمن دستور 1970م إشارة إلى أن الإسلام دين الدولة. وأخذت عدن في سياستها الخارجية تؤيد الحركات التحررية في الجزيرة العربية برمتها، وكانت الدولة الوحيدة التي اعترضت على عضوية الإمارات العربية المتحدة والبحرين وقطر وعمان في الجامعة العربية عام 1971م. ومن المهم أن الجبهة القومية غيّرت اسم الدولة في ديسمبر 1970م، فصارت تسمى جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية. وقد اعترض اليمن الشمالي على هذه التسمية باعتبارها تكريساً لتقسيم اليمن، إلا أن الجبهة القومية شددت على أن الوحدة اليمنية لا يمكن أن تتم إلا بتوحيد جميع "القوى التقدمية".

أثناء الاحتفال بالذكرى السنوية الثانية لاستقلال اليمن الجنوبي، في نوفمبر 1969م، أعلن عبد الفتاح إسماعيل، الزعيم الفعلي للجبهة القومية آنذاك، أن ثورة 14 أكتوبر فجرت انطلاقة جميع الحركات الثورية في قلب الجزيرة العربية وصولاً إلى تقويض ما سمّاه نظام فيصل الملكي الإقطاعي في السعودية[1].

وقد جاء التوجه اليساري المتطرف للنظام في اليمن الجنوبي بعد يونيو 1969م ليؤكد مخاوف فيصل السابقة ويقوّي نيته في إسقاط نظام الجبهة القومية.

فحتى قبل الاتفاق على حل وسط في شمال اليمن، ركّز السعوديون جهودهم على منطقة حضرموت، داعمين العمليات القتالية لخصوم الجبهة القومية. وفي نوفمبر 1969م حصل اشتباك مباشر بين القوات

المسلحة السعودية وبين اليمنيين الجنوبيين في منطقة الوديعة.

وفي يناير 1970م أعلنت حكومة عدن القبض على جماعة من "الإخوان المسلمين" المؤيدين للسعودية، متهمة إياهم بمحاولة التسلل إلى الجيش وإلى المدارس. وفي مارس من العام ذاته، ثم في فبراير وأبريل من عام 1971م جرت حملات اعتقال بين أنصار السعودية في حضرموت. وإلى ذلك نزح بعض البدو اليمنيين إلى المملكة العربية السعودية بسبب الجفاف، فيما انتقل بعضهم إلى مدن الجنوب اليمني. وبذلك فقدت المعارضة قاعدتها الاجتماعية الفعلية.

بعد الاعتراف بالجمهورية العربية اليمنية في يوليو 1970م سلمت السعودية محطة إذاعة الملكيين في نجران إلى المعارضة في جنوب اليمن، وبدأت هذه المحطة برامجها باسم إذاعة "صوت الجنوب الحر". واتهمت وسائل الإعلام والدعاية الإذاعية السعودية النظام في اليمن الجنوبي بأنه نظام شيوعي إلحادي، وهو اتهام لا يتناقض مع واقع الحال من حيث المبدأ.

لقد طبق فيصل في الفترة 1967-1970م استراتيجية متماثلة في الدولتين اليمنيتين، حيث دعم سياسياً ومالياً الجماعات المعارضة واستخدمها ضد الحكومات التي ما كانت الرياض تريد أو تستطيع أن تستخدم قواتها المسلحة ضدها. وعندما حصلت اشتباكات على الحدود واحتلت وحدات من اليمن الجنوبي أراضي تعتبرها المملكة من عائديتها،

استخدمت الرياض آنذاك فقط الطائرات السعودية ضدها، ولم تتسع رقعة الحرب.

كان فيصل يفضّل أن يأتي سقوط النظامين الجمهوريين في صنعاء وعدن على أيدي حلفائه الملكيين. إلا أن ضمّ الملكيين إلى النظامين الجديدين جاء مؤشراً على سياسة مقبولة لدى الرياض، وكان بحد ذاته كافياً أيضاً.

لقد أدت هذه الاستراتيجية في اليمن الشمالي إلى النجاح، فيما كانت النتيجة على العكس في اليمن الجنوبي.

الضغط السعودي في جنوب اليمن جعل اليساريين أقوى، فاستولوا على السلطة. ولم يكن الملكيون، وعلى الأصح أتباع الشيوخ والسلاطين المحليين، يتمتعون بشعبية هناك، ولا بتأييد كافٍ، فيما كانت قبائل الجنوب أضعف من قبائل الشمال، إضافة إلى ذلك كانت اتصالات السعوديين مع الجمهورين المعتدلين محدودة، وذلك لأن فيصل يفضل إسناد ومساعدة مؤازرين لا جدال في ولائهم، رغم قلة وزنهم السياسي، لكنه دعم الجهود الرامية إلى توحيد جميع خصوم الجبهة القومية. وفي فبراير 1971م أعلن أولئك الخصوم إنشاء تنظيم موحد بمباركة سعودية وبتأييد من حكومة اليمن الشمالي، وأطلق عليه مسمى "جبهة القوى القومية في الجنوب اليمني"، وضم أعضاءً من "جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل" و"رابطة جنوب الجزيرة" والكتل المنشقة عن "الجبهة القومية" والعسكريين الذين تعرضوا للتطهير

في القوات المسلحة في الجنوب اليمني وزعماء القبائل.
وكان من خصائص أسلوب فيصل في التعامل مع الوضع في اليمن عدم الرغبة في القيام بخطوات حاسمة تنطوي على مجازفة ومخاطرة، إلا إذا اضطرته الملابسات. فكان يفضّل إرجاء المشاكل وعدم الخوض فيها رأساً على أمل أن يتكفل الزمن بحلها. وبعد مقتل فيصل عادت هذه الاستراتيجية على الرياض بالنتائج المنشودة. أما الآن فأمامها نجاحات وإخفاقات.

وتجلّى اهتمام فيصل شخصياً بقضايا اليمن أثناء دعوته لثلاثة من أبرز زعماء الجمهورية العربية اليمنية إلى لقاء في الرياض في منتصف ديسمبر 1970م. وهم من الزعماء الذين تربطهم علاقات تقليدية مع السعوديين: حسن العمري الذي كان لا يزال عضواً في المجلس الجمهوري وقائداً عاماً للجيش، وأحمد الشامي، والشيخ عبد الله الأحمر.

وفي يونيو 1971م زار عبد الرحمن الإرياني الرياض بصفته رئيساً للمجلس الجمهوري والتقى الملك فيصل. كانت تلك أول زيارة على هذا المستوى إلى العاصمة السعودية. وأكد البيان المشترك الذي صدر في أعقابها تمسّك الطرفين بتخليص المجتمع العربي من التيارات التخريبية التي تتعارض جملةً وتفصيلاً مع القيم والمعتقدات والتقاليد الأساسية. وكانت هذه الصياغة في الواقع تستهدف الجبهة القومية للجنوب اليمني.

في 1971-1972م استمر الصراع في اليمن الشمالي بين الحكومة المركزية وشيوخ القبائل، وواجهت البلاد

أزمة مالية خانقة، فيما كانت سياستها الخارجية مشلولة في الواقع. وهذا ما ساعد السعوديين في استخدام الشمال قاعدة للعمل ضد الجنوب.

في عام 1972م اشتد التوتر بين شطري اليمن. وفي 26 سبتمبر من ذلك العام دخلت فصائل مسلحة من المعارضة اليمنية الجنوبية الموجودة في الشمال، بدعم حلفاء من القبائل وبعض وحدات القوات المسلحة للجمهورية العربية اليمنية، جنوب اليمن واحتلت عدة قرى هناك. وكانت حكومة صنعاء تسعى إلى تفادي الاتهام بالمشاركة في الهجوم، فلم تزجّ بقسم كبير من قواتها في القتال. ولكن عندما هزمت وحدات الجيش الجنوبي الفصائل المهاجمة ونقلت العمليات الحربية إلى أراضي اليمن الشمالي اندلعت حرب حقيقية زجت صنعاء جيشها النظامي فيها.

في 13 أكتوبر 1972م اتفق الطرفان على وقف إطلاق النار بمساعدة وسطاء من جامعة الدول العربية. وفي 21 منه بعثا بوفدين إلى مقر الجامعة في القاهرة لبحث المسائل الخلافية. لم يكن الاتحاد السوفياتي راغباً في التدخل في النزاع إطلاقاً. وفي ما بعد انتقد عبد الفتاح إسماعيل، وهو من أكثر زعماء الجبهة القومية موالاة للاتحاد السوفياتي، موسكو على قلة المساعدة السوفياتية أثناء الأزمة.

كانت صنعاء والرياض تأملان بأن تؤدي هجمة المعارضة المسلحة إلى إسقاط نظام الجبهة القومية. إلا أن حكومة الجبهة تمكنت حتى ذلك الحين من ضعضعة

القدرة القتالية للقبائل، وفرضت الجبهة هيمنتها السياسية على الجيش والهيئات الأمنية بعد تطهيرها من جميع الضباط غير المؤتمنين. وتوغلت تنظيمات الجبهة على الطريقة الشيوعية في كل مسامات الدولة وبُناها، وأمنت بذلك تراصّ المجتمع، من الناحية الإدارية على الأقل، من فوق إلى تحت.

كانت نتيجة الحرب غير متوقعة للجميع، وحتى للملك السعودي. فقد أعلن زعماء كلا شطري اليمن نيتهم في تأسيس دولة الوحدة. ولكن عندما بدأت المحادثات في القاهرة في 21 أكتوبر 1972م طرح اليمنيون الجنوبيون شروطاً تعجيزية تقريباً، وهي إجراء إصلاحات سياسية في الشمال على غرار ما في الجنوب، وإدراج مساحات من الأراضي السعودية في دولة الوحدة المرتقبة تشمل منطقة نجران وجيزان وعسير. وكان هدف هذه المطالب واضحاً، ويتلخص في إثارة التناقضات داخل اليمن الشمالي وبذر الشقاق بينه وبين المملكة العربية السعودية.

إلا أن الوثيقة الثانية التي أُقرّت في القاهرة نصّت على تأسيس جمهورية اليمن الوطنية الديموقراطية الموحدة من خلال انتخابات حرة ومنح الحقوق والحريات لجميع المنظمات القومية والمهنية والنقابية.

وقد أعرب فيصل في الحال عن استيائه من موقف رئيس وزراء الجمهورية العربية اليمنية محسن العيني، فاعتبره السعوديون من ذلك الحين خصماً لهم. كذلك اعترض على ذلك الاتفاق زعماء القبائل ورجال الدين

في شمال اليمن، ورفض مجلس الشورى، وأغلبيته من ممثلي القبائل، إبرام اتفاقية 28 أكتوبر، مشيراً إلى خلوّها من التزام التقيد بمبادئ الإسلام في دولة الوحدة.

في 26-27 نوفمبر 1972م التقى رئيسا شطري اليمن عبد الرحمن الإرياني وسالم ربيع علي في العاصمة الليبية طرابلس الغرب ضيفين على الرئيس معمر القذافي، ووقّعا اتفاقية الوحدة التي تضمنت فقرات متعارضة بالكامل. تقول إحداها إن الإسلام هو دين الدولة وإن الشريعة الإسلامية مصدر التشريعات الأساسي، فيما تعترف الأخرى بأن الدولة الجديدة ستكون "اشتراكية" يحكمها تنظيم سياسي واحد فقط، ولن تكون هناك تعددية للأحزاب. وندّد الرئيسان "بالإمبريالية" وأعلنا تأييدهما للوحدة العربية "التقدمية". كانت كل تلك البلاغات تروق الاتحاد السوفياتي، إلا أنها مرفوضة تماماً بالنسبة إلى السعوديين. ونظراً إلى ورود ضمانات في شأن دور الإسلام في الدولة المرتقبة، صدّق مجلس الشورى اليمني الشمالي الذي هو سند القبائل المؤيدة للسعودية على اتفاقية طرابلس بالإجماع في 10 ديسمبر 1972م.

وشددت حكومة الجمهورية العربية اليمنية الرقابة على تنظيمات المهاجرين من اليمن الجنوبي واستولت على بعض أسلحتهم.

توقفت المساعدات المالية السعودية إلى اليمن الشمالي في الحال، ولم تتمكن الحكومة من تسديد رواتب الضباط ورواتب الموظفين ومعونات القبائل، فيما زاد الجانب السعودي في الوقت ذاته المساعدات المالية لشيوخ القبائل ولخصوم محسن العيني ولضباط الجيش المعارضين لاتفاقية الوحدة.

وخرج الوضع في الجمهورية العربية اليمنية عن السيطرة، فقدم العيني استقالته. وعندها عيّن عبد الرحمن الإرياني رئيساً جديداً للوزراء هو عبد الله الحجري، الجمهوري المحافظ المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقبائل وبـ"الإخوان المسلمين". ويعتبر الحجري رجل السعودية الأول في اليمن، والملك فيصل يحبه كثيراً. فبات تعيينه لرئاسة الحكومة بمثابة نهاية لاتفاقيات طرابلس.

في 10 مارس 1973م وصل عبد الله الحجري إلى المملكة العربية السعودية للتباحث مع الملك فيصل. وفي أواسط عام 1973م وافقت المملكة على أن تحوّل إلى البنك المركزي اليمني كل ثلاثة أشهر في حدود 25 مليون دولار أميركي للفترة 1973-1974م، على أن يزداد المبلغ بما يعادل عجز ميزانية اليمن الشمالي، وبدأ التعاون المباشر بين البلدين في القضايا الأمنية.

إلا أن عبد الله الحجري واجه معارضة في بلاده. فإن معاهدة الطائف لعام 1934م التي اعترف الإمام يحيى وفقاً لها بالسيادة السعودية على عسير ونجران وجيزان كانت تمدد كل 20 عاماً لفترة جديدة. والمتوقع في عام

1974م أن تمدد تلقائياً. إلا أن فيصل أقنع الحجري بالاعتراف بالحدود السعودية اليمنية نهائياً وبصورة دائمة لتفادي تجديد المعاهدة كل مرة. وجرى الاتفاق على ذلك في بيان مشترك صدر في 17 مارس 1973م. لم تكن مسألة التمديد تواجه اعتراضاً في اليمن، لأنه يحصل عفوياً على أي حال. إلا أن استعداد عبد الله الحجري للاعتراف بديمومة الحدود أصاب القوميين اليمنيين في الصميم وجعل خصوم الحكومة يلتفون حولهم.

واحتجاجاً على ذلك احتل الطلبة اليمنيون في القاهرة مبنى سفارة الجمهورية العربية اليمنية. وكان ردّ الفعل في اليمن نفسه عدائياً إلى درجة جعلت الحجري عاجزاً عن تصديق الالتزامات التي أخذها في شأن الحدود مع المملكة العربية السعودية.

بعد خمسة أيام من توقيع عبد الله الحجري الاتفاقية مع السعوديين، قصفت طائرات اليمن الجنوبي المخفر السعودي الحدودي في الوديعة، أي في المنطقة نفسها التي نشبت فيها معارك 1969م. وجاء ذلك تأكيداً لبقاء مسألة الحدود بين شطري اليمن وبين المملكة العربية السعودية عالقة.

ظل الموقف في اليمن الشمالي يشغل بال الملك فيصل، إلا أنه كان يتطور على أي حال في اتجاه لا يهدد أمن المملكة العربية السعودية. وهذا هو الأهم بالنسبة إلى الملك.

على مدار عام 1973م لوحظ تصاعد العنف في اليمن الشمالي وكأن حرباً أهلية مصغرة تجري هناك. ففي 30 مايو من ذلك العام اغتيل الشيخ محمد علي عثمان، الزعيم الشافعي المحافظ من تعز، وكان عضواً في مجلس رئاسة الجمهورية مع الإرياني والحجري. فانتهز عبد الله الحجري فرصة مقتله ليسدد ضربة إلى خصومه. واعتُقل 3 آلاف شخص تقريباً، أُعدم منهم 36 شخصاً، وتوقفت المباحثات بشأن توحيد شطري اليمن. إلا أن مواجهة قامت بين عبد الله الحجري ورئيس مجلس الرئاسة عبد الرحمن الإرياني الذي رفض توقيع عدة أحكام بالإعدام، ولم يعترف باتفاق الحدود مع السعوديين، وهاجر طوعاً إلى سورية، فتفاقمت الأزمة أكثر. وناشد عدد من الزعماء العرب، ومنهم الملك فيصل، عبد الرحمن الإرياني أن يعود إلى منصبه، فعاد إلى صنعاء في سبتمبر1973م، وسُحب السفير السعودي الذي أبدى نشاطاً مبالغاً فيه كأنه مستشار كبير متشدد، وعيّن بدلاً منه دبلوماسي جديد أكثر مرونة.

في 14 سبتمبر 1973 التقى عبد الرحمن الإرياني خلال مؤتمر القمة العربي في الجزائر بالرئيس اليمني الجنوبي سالم ربيع علي، واتفقا على وقف الأعمال العدائية أحدهما تجاه الآخر، واستؤنفت محادثات الوحدة من جديد.

في فبراير 1974م أقال عبد الرحمن الإرياني عبد الله الحجري، لكنّ الأخير رفض الانصياع للأمر، وأغلق أنصاره الطريق الذي يربط صنعاء بمدينة صعدة.

وقوبلت سياسة الإرياني المستقلة بالاستياء من طرف المملكة العربية السعودية ومؤازريها داخل اليمن الشمالي، فحصل انقسام في المجلس الرئاسي الذي ظل عبد اللّه الحجري عضواً فيه، وبات الشيخ عبد اللّه الأحمر من خصوم الإرياني. وفي يوليو 1974م جنّد ضده قبائل حاشد، فيما أعلن الجيش أنه سيدافع عن صنعاء دون هجوم القبائل. ومن أجل انفراج الموقف تقرر أن يستقيل الإرياني والأحمر وسنان أبو لحوم من مناصبهم جميعاً. وفي 13 يونيو صار نائب قائد القوات المسلحة إبراهيم الحمدي رئيساً للدولة، على رأس لجنة القيادة العسكرية المكوّنة من 7 أشخاص، وحُلّ المجلس الجمهوري ومجلس الشورى، ما يعني أن انقلاباً عسكرياً حدث في الواقع ووضع حدّاً لسبع سنوات من الإدارة المدنية في الجمهورية العربية اليمنية. في مساء ذلك اليوم أعلن الديوان الملكي السعودي أن كل ما يجري في شمال اليمن شأن داخلي، وأن المملكة العربية السعودية تعارض أي تدخل خارجي في شؤون اليمن.

وسعى إبراهيم الحمدي إلى توحيد كل القوى الرئيسة على الساحة السياسية اليمنية، فكلف محسن العيني حالاً بتأليف الحكومة الجديدة، وأقام علاقات طيبة مع عبد الله الأحمر وسنان أبو لحوم.

وأيّد فيصل هذا الانقلاب صراحة، واستأنف المساعدات المالية إلى الجمهورية العربية اليمنية على الرغم من عودة العيني الذي لا يروق فيصل إلى الوزارة.

وقد بيّنت أحداث تلك السنوات قدرات النفوذ السعودي ومداه بعد انسحاب المصريين من اليمن. كانت قدرات السعوديين في شمال اليمن هائلة، لكن حتى حليفهم المخلص عبد الله الحجري لم يتمكن من تطبيق سياسة ترضيهم بالكامل، نظراً إلى تنافر وتنوّع القوى الفاعلة على الساحة في الجمهورية العربية اليمنية.

ظل السعوديون يعتمدون كالسابق على حلفائهم من القبائل، مستخدمين المساعدات المالية لليمن الشمالي في إمرار مصالحهم، ما جعل مسألة توحيد شطري اليمن آنذاك لا تتعدى الكلام. وأعربت القيادة الجديدة للجمهورية العربية اليمنية عن رغبتها في الحفاظ على علاقات وثيقة مع الرياض، لكنها حاولت أن تعزز سلطتها على حساب القبائل والقوى السياسية الأخرى التي كان السعوديون يمارسون نفوذهم من خلالها في شمال اليمن.

أما في الجنوب فقد تقلص نفوذ السعوديين إلى نقطة الصفر. حكومة عدن أحكمت السيطرة على مجتمع الجنوب اليمني إلى درجة حالت دون استمرار السعوديين في تنظيم المعارضة الداخلية للجبهة القومية، فيما وفّر تمتين الاتصالات مع الاتحاد السوفياتي لهذه البلاد إرساليات السلاح والمستشارين السوفيات، وهيّأ الفرص لإعداد الكوادر داخل اليمن الجنوبي وفي دول الكتلة الشيوعية.

في مطلع عام 1975م عززت الجبهة القومية مواقعها داخل الجنوب اليمني تماماً، وأخذت تمارس تأثيراً متزايداً على الموقف في الشمال.

وكان على المملكة أن تضع سياسة سعودية جديدة حيال عدن.

لكن ذلك لم يمنع الملك فيصل من العمل على تخفيف التوتر بعض الشيء بين الجنوب اليمني والمملكة العربية السعودية في عام 1974م. كان اليمنيون الجنوبيون يأملون باجتذاب الرساميل العربية بعد أن ازدادت العائدات النفطية لبلدان جزيرة العرب. وفي القمة العربية في الرباط في أكتوبر 1974م مدّ رئيس جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية سالم ربيع علي يد المصالحة إلى الملك فيصل، إلا أن العاهل السعودي طالب اليمنيين الجنوبيين بتقليص اتصالاتهم مع الاتحاد السوفياتي والكفّ عن مساعدة الثوار في ظفار. ولم تكن عدن آنذاك تستطيع القيام بذلك. وحتى بداية عام 1975م لم تحقق جهود تحسين العلاقات بين السعودية واليمن الجنوبي نجاحاً.

كانت "الجبهة القومية" من بداية الاستقلال تدعم الثوار المناهضين للإنجليز ولحكومة سلطان عمان تحت راية "الجبهة الشعبية لتحرير عمان". ولكلتا الجبهتين جذور مشتركة، حيث انبثقتا من حركة القوميين العرب. تمكنت الجبهة الشعبية لتحرير عمان من إعلان الانتفاضة في ظفار، المحافظة الغربية في سلطنة عمان، ولم يفلح السلطان الجديد قابوس بن سعيد في

إخماد الانتفاضة، رغم مساعدة المستشارين العسكريين البريطانيين والأردنيين. إلا أن 3 آلاف عسكري إيراني قاموا بإنزال في محافظة ظفار عام 1975م وأجهزوا على الانتفاضة.

لم يكن فيصل راضياً عن الوجود الإيراني في الأراضي التي تعتبر من ضمن منطقة النفوذ السعودي، لكنّ هزيمة الجبهة الشعبية اليسارية المتطرفة في سلطنة عمان أمر مرغوب فيه تماماً.

بعد وفاة الملك فيصل طرأت بعض التبدلات الطفيفة على السياسة السعودية حيال اليمن الجنوبي. فالقيادة الجديدة برعاية الملك خالد باتت تعتقد بإمكان صرف اليمنيين الجنوبيين عن توجهاتهم المتطرفة، وعن دعمهم لانتفاضة ظفار وتأييدهم للقوى اليسارية في شمال اليمن وعن الاتصالات الوثيقة مع الاتحاد السوفياتي. وبالنسبة إلى اليمن الشمالي، طبّقت القيادة السعودية الجديدة سياسة دقيقة تهدف إلى مساعدة إبراهيم الحمدي في تقوية مؤسسات الدولة من جهة وتحتفظ بالاتصالات مع الجماعات التي تهددها سياسته من جهة أخرى.

في 11 ديسمبر 1975م أعلن السلطان قابوس النصر التام على ثوار ظفار. وقد فرّ معظمهم إلى اليمن الجنوبي. وفي 10 مارس 1976م أقامت المملكة العربية السعودية وجمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية العلاقات الدبلوماسية، معلنتين معارضة أي تدخل أجنبي في شبه الجزيرة العربية، وأكدتا صراحة

أن هدفهما المشترك هو انسحاب القوات الإيرانية من سلطنة عمان، الأمر الذي تم بالفعل في يناير 1977م.

الأحداث في شطري اليمن بعد مقتل الملك فيصل ودور المملكة العربية السعودية فيها وتطور العلاقات السعودية اليمنية مواضيع خارجة عن إطار هذا الكتاب، وهي تستحق عرضاً مستفيضاً وتقويماً تفصيلياً في دراسة مستقلة. ففي مشهد تلك الأحداث انفجارات عديدة للحرب الأهلية، سواء في الشمال أو الجنوب، وحرب جديدة بين الشمال والجنوب، ومقتل الزعماء في عدن وفي صنعاء على حد سواء، وإنهاء التجربة الاشتراكية المزعومة في الجنوب، وتوحيد شطري البلاد عبر المحن والدماء والآلام.

كل ذلك حصل في ما بعد، في أعقاب مارس 1975م.

لقد حقق فيصل في سياسته اليمنية، رغم بعض الإخفاقات التي شهدتها، هدفه الرئيس، ألا وهو إخراج القوات المصرية من الجمهورية العربية اليمنية والحيلولة دون استخدام هذه البلاد قاعدة للعمليات التخريبية ضد المملكة العربية السعودية. إلا أن الحكومة السعودية في عهد الملك فيصل وبعده لم تتمكن من التحكم في مسار الأحداث، لا في شمال اليمن ولا في جنوبه، الأمر الذي قاد إلى أوضاع لم تكن الرياض تخطط لها إطلاقاً.

كان سير الأحداث في كلا شطري اليمن خاضعاً لمنطقه الخاص، وله ديناميته أو حركيته التي تعرضت

لمؤثرات وعوامل داخلية وخارجية. ولا يجوز في هذا الخصوص تجاهل التنافس بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة والصين وإيران والعراق في جنوب الجزيرة العربية، ولا الكليشهات الإيديولوجية لمختلف القوى الاجتماعية والسياسية هناك، ولا النزعة القومية اليمنية الصرف. ونعيد إلى الأذهان، على سبيل المثال، أن موقف القيادة اليمنية الموالي للعراق أثناء غزو صدام حسين للكويت أزّم العلاقات السعودية اليمنية إلى أقصى حدّ، وقاد إلى طرد مئات الآلاف من النازحين اليمنيين من المملكة العربية السعودية. وتطلبت عودة الأمور إلى مجاريها بين البلدين سنوات طويلة.

Page 28/28 of chapter 20

الفصل الثامن عشر

الوقائع السياسيّة: جديدها وقديمها

بانسحاب القوات المصرية من اليمن الشمالي تخلصت المملكة العربية السعودية وقتياً من الخطر الخارجي المباشر. إلا أن احتلال إسرائيل للقدس الشريف حزّ في نفس فيصل وخلّف جرحاً لا يندمل.

وقد تطلب ازدياد الوزن السياسي للمملكة مزيداً من المشاركة في النزاع العربي الإسرائيلي، وعقّد علاقاتها مع واشنطن. فالولايات المتحدة قدمت مساعدات عسكرية واقتصادية هائلة إلى إسرائيل، وباتت في أنظار العرب الدولة الإمبريالية الأولى، فيما دفعت المواجهة الحازمة مع إسرائيل المملكة المحافظة إلى التعاون مع النظام الثوري الاستبدادي في مصر ومع القيادة البعثية في سورية. إلا أن هذين البلدين شهدا تصاعد النفوذ السوفياتي الذي هو في اعتقاد فيصل نفوذ شيوعي. كان الملك يعتبر النزاع العربي الإسرائيلي وسيلة لتعزيز مواقع الاتحاد السوفياتي في الدول العربية، ما دام يصبّ الزيت على نار القومية العربية اليسارية.

ولذا كان الملك فيصل حذراً جداً من المبادرات الدبلوماسية السوفياتية، على الرغم من كونها استهدفت تحقيق تسوية للنزاع بمراعاة مصالح العرب.

في أواخر عام 1968م عرضت الحكومة السوفياتية خطتها للتسوية لتسهيل تنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي 242 الصادر في 22 نوفمبر 1967م. وبموجبها تعلن إسرائيل والدول العربية المجاورة في الوقت نفسه استعدادها لإنهاء حالة الحرب بين الطرفين، وصولاً إلى التسوية السلمية بعد انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة. وانطلاقاً من ذلك تعلن إسرائيل استعدادها للبدء بسحب قواتها من تلك الأراضي في موعد يصار إلى تحديده وتثبيته. وإلى ذلك تلتزم الدول العربية، وكذلك إسرائيل، في يوم البدء بانسحاب القوات الإسرائيلية تحت إشراف مراقبين من الامم المتحدة، بأن ترفع إلى هذه الهيئة الدولية الوثائق اللازمة بخصوص إنهاء حالة الحرب واحترام حرمة الأراضي والاستقلال السياسي لجميع دول المنطقة، وحقها في العيش بسلام في حدود آمنة ومعترف بها وفقاً لقرار مجلس الأمن الدولي الآنف الذكر.

وبعد عام من ذلك التاريخ، في يناير 1970م عرض الاتحاد السوفياتي من جديد البنود الأساسية لهذه الخطة المقترحة للتسوية في الشرق الأوسط، مضيفاً إليها جانباً جديداً هو المطالبة "بتلبية الحقوق المشروعة للشعب العربي في فلسطين".

وكان فيصل يعتقد أن الولايات المتحدة يجب أن تؤيد العرب كما فعلت في عام 1956م. إلا أنه تابع باهتمام كبير سير الانتخابات الرئاسية عام 1968م

ولاحظ بمرارة وألم أن المرشحين إليها يتبارون في دعم إسرائيل ليكسبوا أصوات الناخبين اليهود، متجاهلين طموحات العرب بالكامل.

في 9 سبتمبر 1968م أعلن ريتشارد نيكسون في مؤتمر منظمة "بناي بريت" الصهيونية الماسونية أنه في حال انتخابه يضمن لإسرائيل "تفوقاً عسكرياً تكنولوجياً يزيد كثيراً على التفوق المحتمل لجيرانها المعادين لها"[1]، على حدّ قوله. وبعد شهر من ذلك التاريخ أعلن الرئيس جونسون المؤيد لترشيح السناتور هوبرت همفري أنه فتح الضوء الأخضر أمام المحادثات في شأن إرسال 50 طائرة من طراز "فانتوم-4 س" إلى إسرائيل. وهي من قاذفات القنابل المقاتلة الأسرع من الصوت، والتي تتفوق في كل المواصفات على جميع الطائرات الموجودة تحت تصرف العرب.

وعندما تسلم نيكسون مفاتيح البيت الأبيض في عام 1969م أخذ يتعامل مع الشرق الأوسط بالأساس في إطار المواجهة العالمية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، معتبراً هذه المنطقة أخطر مصدر لتصعيد المجابهة بين الدولتين العظميين وصولاً إلى الحرب الصاروخية النووية. وتسلمت إسرائيل بصفتها السند الأول للولايات المتحدة في الشرق الأوسط أسلحة حديثة مكّنتها من الحفاظ على تفوق حربي لا جدال فيه، وفي الوقت ذاته عمل نيكسون على تحسين العلاقات مع العالم العربي انطلاقاً من المصالح الجيوسياسية والنفطية لأميركا. فحاول أن يمد الجسور

مع مصر وسورية، وقام بالتفاتة تجاه العرب تجلّت في إرجاء إرسال طائرات "الفانتوم" إلى إسرائيل، وكذلك في ما سُمي "خطة روجرز". وكان رئيس البيت الأبيض يأمل بأداء دور الوساطة في العلاقات العربية الإسرائيلية على أي حال بالمراهنة على الأراضي العربية المحتلة.

إلا أن القيادة الإسرائيلية التي أسكرتها نشوة النصر اليسير لم تكن تريد أن تسمع كلاماً عن إعادة الأراضي المحتلة، فضلاً عن تأسيس دولة فلسطينية أو إجراء مفاوضات سلام. أما الولايات المتحدة فكان الوضع القائم يلائم مصالحها آنذاك. فإن غلق قناة السويس خلق صعوبات لأوروبا الغربية والاتحاد السوفياتي، بينما واشنطن بعيدة عن هذه المشاكل.

في الفترة 1970-1972م تسلمت إسرائيل المزيد من أحدث أنواع الأسلحة الأميركية، وأبدى نيكسون مشاعر ودية تجاه الإسرائيليين، فالتقى رئيسة الوزراء غولدا مائير، وقدم قروضاً جديدة ومساعدات أخرى لإسرائيل. وكان باب الرئيس الأميركي مفتوحاً أمام سفير إسرائيل لدى واشنطن إسحق رابين، رئيس الأركان الإسرائيلي السابق ومهندس النصر في "حرب الأيام الستة". وتلك ميزة لم يتمتع بها أي سفير أجنبي معتمد لدى الولايات المتحدة.

وقد برّرت الولايات المتحدة مساعداتها العسكرية إلى إسرائيل بإرساليات السلاح السوفياتي إلى مصر وسورية، إلا أن فيصل كان ينظر إلى المسألة بمنظار

آخر. فكلما تلقّت إسرائيل مزيداً من السلاح باتت الأقطار العربية المواجهة لها، في اعتقاده، أكثر "يسارية"، وتعززت مواقع الاتحاد السوفياتي فيها.

الحرب العربية الإسرائيلية عام 1967م التي ألحقت الهزيمة بحلفاء الاتحاد السوفياتي وأضرّت بسمعته كثيراً، لم تكن تعني تقوّض نفوذه في الشرق الأوسط أبداً. فالعمليات السياسية والاجتماعية التي انبثقت في الخمسينيات وبداية الستينيات ظلت تسير بالاستمرارية عدة سنوات أخرى، ولم تؤدّ حرب 1967م إطلاقاً إلى تسريع تلك العمليات. فقد كانت تلك الحرب في أنظار الرأي العام العربي عدواناً من إسرائيل بتواطؤ مع الولايات المتحدة. وهذا يطابق الرأي السوفياتي. ولذا اشتدت الميول المعادية للغرب (للإمبريالية). وعلى هذه الموجة حصل انقلاب بعثي جديد في العراق في يوليو 1968م، كما حصل انقلاب يساري راديكالي في السودان في مايو 1969م، وقامت ثورة الفاتح من سبتمبر 1969م في ليبيا.

ولم تكن قد خفتت بصورة نهائية حتى ذلك الحين جاذبية الكثير من عناصر النموذج السياسي والاجتماعي المقتبس من الاتحاد السوفياتي. ألم تدلل النجاحات السياسية والانتصارات العسكرية في الفيتنام وكوبا على القدرات التعبوية للأنظمة اليسارية الراديكالية؟ ألم تواصل زعيمة العالم العربي مصر السير على هذا السبيل بخطى عريضة؟

لكن ذلك لم يكن هو الأهم.

الأهم أن القيادة السوفياتية دللت على أنها لن تسمح بسقوط الأنظمة الصديقة، وأنها تمتلك الإمكانيات والوسائل اللازمة لهذا الغرض. فالمساعدات العسكرية الواسعة النطاق لمصر وسورية كانت تهدف إلى استعادة قدراتهما الحربية بالكامل وزيادتها. واستمر بناء المشاريع الضخمة مثل سد أسوان العالي وسد الفرات ومصنع الصلب في حلوان بالتعاون مع الاتحاد السوفياتي. وتوافد للدراسة في الاتحاد السوفياتي عدد متزايد من الطلبة المصريين والسوريين والعراقيين.

ولكن ظهرت واشتدت في الوقت ذاته الاتجاهات التي أخذت منذ النصف الأول للسبعينيات تفتّت النفوذ السوفياتي في الشرق الأوسط. ولم يكن السبب الأساسي هو عجز الأنظمة الثورية الاستبدادية عن حل المشاكل الداخلية. فالفشل في مثل هذه الأحوال يمكن أن ينسب إلى "دسائس الإمبريالية والصهيونية" وإلى أوضاع زمن الحرب. وهذا صحيح بالفعل من بعض النواحي. ثم إن الأزمة الداخلية لتلك الأنظمة كانت ستنكشف تماماً في ما بعد.

إلا أن السبب الأول يكمن في التناقض الدائم في الموقف السوفياتي ذاته من النزاع العربي الإسرائيلي.

فالاتحاد السوفياتي عندما سلّح مصر وسورية ما كان يريد أو يخطط لحل عسكري للمشكلة وتأمين تفوق حاسم في القوى للعرب وتغيير الوضع القائم.

من جهة كان الزعماء السوفيات يخشون هزيمة جديدة للعرب. ففي هذه الحالة سيضطر الاتحاد

السوفياتي إلى رفع مستوى مشاركته في النزاع من أجل إنقاذ أصدقائه واستثماراته، ولو فعل هذا لأثار رد فعل لدى الولايات المتحدة وسبّب مواجهة مباشرة معها. ومن الجهة الأخرى كانت التسوية تعني تقليل اعتماد الأقطار العربية على الدعم السوفياتي.

وفي الحقيقة كانت للاتحاد السوفياتي، كما للولايات المتحدة، مصلحة في بقاء حالة "اللاسلم واللاحرب"، على الرغم من أن الدبلوماسية السوفياتية شكلياً لم تبخل بالجهود لتسوية النزاع. ومن جهتهم لم يكن الزعماء العرب مستعدين للتسوية السياسية ولحلول وسط. إلا أن التسويف في حل النزاع زعزع أساس سلطة النظام في مصر وسورية، ودفع زعماءهما إلى خطوات عسكرية لم تكن القيادة السوفياتية راغبة فيها.

استعاد جمال عبد الناصر السيطرة على البلاد تدريجاً وتخلص من منافسيه العسكريين، وبينهم صديقه الحائز، مثله، لقب بطل الاتحاد السوفياتي المشير عبد الحكيم عامر. وكان الزعيم المصري يناور بحذر بين اليسار المتمتع بالتأييد السوفياتي واليمين الميّال إلى التعاون مع الغرب والراغب في التخلي عن التجربة الاشتراكية.

وقد جرت عدة زيارات لمسؤولين كبار ووفود سوفياتية إلى مصر ومصرية إلى الاتحاد السوفياتي.

كان الملك فيصل يرتاب ويشك في تعاون جمال عبد الناصر مع اليساريين والماركسيين، إلا أن هذا التعاون

خلق لدى موسكو وهماً بأن مصر تسير في الاتجاه "الصحيح".

كذلك كانت الأسلحة السوفياتية ترد بكثرة إلى سورية للتعويض عن خسائرها في الحرب، ولم يكن صعباً على السوريين المعروفين بالمرونة أن يجدوا شعارات تسرّ أسماع موسكو وتجعلها تزيد من المساعدات.

وتعيّن على الزعماء المصريين والسوريين أن يتخذوا خطوات معينة ضد إسرائيل ليعززوا مواقعهم في بلديهم وليضغطوا على الإسرائيليين، فقرروا أن يشنّوا عمليات حربية غير مكثفة. وتجدر الإشارة إلى أن ما دفعهم إلى ذلك أيضاً هو العمليات الحربية الانتقائية التي شنتها إسرائيل ضد مصر وسورية والأردن.

في مارس 1969م بدأ المصريون "حرب الاستنزاف" واستخدموا فيها نيران المدفعية والمعارك الجوية وغارات المغاوير عبر قناة السويس. فتكبدت القوات الإسرائيلية المتخندقة على "خط بارليف" في الضفة الشرقية للقناة خسائر محسوسة.

إلا أن إسرائيل سرعان ما نقلت "حرب الاستنزاف" إلى عمق الأراضي المصرية معتمدة على القدرة القتالية الأقوى لجيشها وعلى التنظيم العسكري الأكمل، وكذلك على التفوق الجوي. فنفذت غارات جوية على المواقع العسكرية والاقتصادية والمدنية في داخل مصر.

في ديسمبر 1969م بلغت غارات الطائرات الإسرائيلية على مصر أوجها، وأدى ذلك إلى تأزّم

الموقف السياسي في البلاد، وألحق ضرراً بالغاً بسمعة الرئيس عبد الناصر، إلى درجة جعلته يقدم على خطوة غير مسبوقة، فطلب من الحكومة السوفياتية إرسال وحدات نظامية للدفاع الجوي وسلاح الطيران إلى مصر. ولهذا الغرض قام بزيارة سرية للاتحاد السوفياتي في 22 يناير 1970م. كان تنفيذ طلب عبد الناصر يفوق كل الالتزامات السوفياتية السابقة، ولذا اتخذت قرار تلبية الطلب جلسة المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي بالاشتراك مع قيادة القوات المسلحة السوفياتية.

ولم يكن قرار القيادة السوفياتية هذا نابعاً فقط من الرغبة في الحفاظ على نظام عبد الناصر، بل كذلك من المصالح العسكرية والاستراتيجية للاتحاد السوفياتي نفسه.

فالقوات الحربية للولايات المتحدة في المنطقة ازدادت حتى ذلك الحين، واشتد الخطر على الاتحاد السوفياتي عندما أخذت الولايات المتحدة اعتباراً من عام 1963م تنشر في البحر الأبيض المتوسط غواصاتها المزودة بصواريخ "بولاريس" التي يبلغ مداها 2500 كيلومتر تقريباً. وباتت الصواريخ إضافة ملموسة إلى سلاح الضربة الأولى الموجود لدى الأسطول السادس هناك على شكل طائرات حاملة للقنابل النووية.

وقررت موسكو أن تبعث سفناً حربية سوفياتية إلى البحر الأبيض المتوسط.

في الفترة 1963-1964م أخذت السفن الحربية السوفياتية تظهر هناك بانتظام. وفي عام 1968م تألف منها أسطول البحر الأبيض المتوسط. لم تكن بينها حاملات طائرات ولم تكن لديها تغطية جوية، وكانت بالطبع أضعف من الأسطول السادس الأميركي. ففي حال نشوب حرب نووية كان مكتوباً على هذه السفن في الواقع أن تهلك بصفتها سرباً للمقدمة يتمكن من تسديد ضربة تشل أو تضعف الضربة النووية الأميركية من اتجاه البحر الأبيض المتوسط ثم يموت. إلا أن موسكو كانت تعتبرها وسيلة "للردع" أو "التصدي"، أي للحيلولة دون نشوب حرب نووية صاروخية من خلال الزيادة المفترضة في خسائر العدو. ووفقاً لمنطق "الحرب الباردة"، كانت تلك السفن "الهالكة" تتمتع بالحصانة، شأن القوات البرية الأميركية المرابطة في أوروبا الغربية التي هي أضعف كثيراً من القوات المسلحة للاتحاد السوفياتي. فإن الهجوم على تلك السفن أو على هذه القوات ينذر باندلاع نزال نووي صاروخي عالمي أهوج.

ما كان في الإمكان التعويض عن نقاط ضعف سرب السفن الحربية السوفياتية في البحر الأبيض المتوسط وتقليل كلفتها إلا بوجود قواعد على اليابسة.

فيما كانت هزيمة مصر وسورية عام 1967م قد أرغمت هذين البلدين على تلبية رغبات الاتحاد السوفياتي.

قرار بناء شبكة الدفاع الجوي في مصر كان قراراً سياسياً يهدف إلى إنقاذ نظام جمال عبد الناصر. إلا أن موسكو أخذت في الاعتبار احتياجات الأسطول البحري الحربي السوفياتي أيضاً.

وبدأ المقاتلون السوفيات يتوافدون إلى مصر في فبراير 1970م، فانتشرت هناك 18 بطارية لصواريخ "سام-3"، وكذلك 80 مقاتلة من طراز ميغ-21 وميغ-23، وعدد من طائرات ميغ-25. وبلغ عدد العسكريين السوفيات، بمن فيهم المستشارون في القوات الملسحة المصرية، 20 ألفاً. ووضع عدد من المطارات والمجمعات الصاروخية تحت تصرف السوفيات بالكامل.

في منتصف 1970م استخدم الأسطول السوفياتي موانئ الإسكندرية وبورسعيد والسلّوم، وفي ما بعد أضيفت إليها مرسى مطروح وميناء برنيس. وكان وجود وحدات الدفاع الجوي وسلاح الطيران السوفياتي في مصر من سبل تعزيز أسطول السفن الحربية السوفياتية في البحر الأبيض المتوسط أيضاً.

وفي عام 1968م ارتسمت أبعاد الوجود العسكري السوفياتي الدائم في المحيط الهندي، حيث أخذت تتردد عليه سفن أسطول المحيط الهادي السوفياتي. وتوافق استعراض العضلات هذا زمنياً مع انسحاب الإنجليز من مواقعهم "شرقي السويس" ومع تصاعد الخلافات السوفياتية الصينية. وظهر في المحيط الهندي خطر على الاتحاد السوفياتي لم يكن معروفاً في

السابق، وهو الغواصات الأميركية الحاملة لصواريخ "بولاريس" في البداية، ثم لصواريخ "بوسيدون" التي يبلغ مداها 4600 كيلومتر، ثم في نهاية الثمانينيات، لصواريخ "ترايدينت" (11 ألف كيلومتر). وظل نبض سباق التسلح الجهنمي مشدوداً بجهد متزايد. وحصل الاتحاد السوفياتي على قواعد ("تسهيلات") في الصومال (بربرة) وفي اليمن الجنوبي (عدن). وبعد أن "تبادلت" الدولتان العظميان حلفاءهما في الصومال وإثيوبيا، توافرت للاتحاد السوفياتي قاعدة في إثيوبيا، فيما أخذت الولايات المتحدة تستخدم بربرة الصومالية. وبذلك اقترب الوجود العسكري السوفياتي من حدود المملكة العربية السعودية. وعلى الرغم من عدم وجود تهديد مباشر للمملكة، خلق ذلك شيئاً من الغموض أمام فيصل في تقويماته الاستراتيجية للموقف.

أما إسرائيل فكان لديها ما يدفعها إلى القلق. المصريون أغرقوا بصاروخ سوفياتي المدمرة الإسرائيلية "إيلات" في أكتوبر 1967م، وبذلك اكتسبت المعارك البحرية المتوقعة مواصفات نوعية جديدة.

إلا أن الاتحاد السوفياتي لم يكن في تلك السنوات يمتلك قوى فعلية للتدخل في الشرقين الأدنى والأوسط، فظلت مواقع الهيمنة على المنطقة في أيدي الولايات المتحدة وحلفائها.

عندما أخفق مبدأ "الضربة الانتقامية المكثفة" الأميركية وبات احتمال إبادة الطرفين أمراً واقعياً، أقدمت موسكو وواشنطن، بعد الأزمة الكوبية، على التدابير التحذيرية لتفادي الحرب النووية. وأقيم "خط ساخن" للاتصال المباشر بين الكرملين والبيت الأبيض. وفي عام 1963م وقّعت معاهدة حظر التجارب النووية في المجالات الثلاثة، فيما وقّعت في عام 1968م معاهدة عدم نشر السلاح النووي، ثم في عام 1972م المعاهدة الأولى للحدّ من التسلح الاستراتيجي. ومن خلال منظومة المعاهدات والاتفاقيات هذه، سعت الدولتان إلى تقليل مخاطر الكارثة النووية. كانت تلك العملية صعبة ومتعرجة. فما كان زعماء الاتحاد السوفياتي ولا الزعماء الغربيون يعرفون كيفية التعايش في العالم الجديد.

إلا أن الشرق الأوسط ظل ساحة "للحرب الباردة". فالتفاهم بين موسكو وواشنطن لم يشمل هذه المنطقة، غير أن الملك فيصل وباقي الزعماء العرب رغم مواقعهم على جانبي المتاريس كانوا جميعاً يخشون أن يتحولوا إلى بيادق في هذه اللعبة السياسية الكبرى بين الدولتين العظميين آنذاك.

تعزيز الدفاع الجوي المصري وخسائر الإسرائيليين أرغمتهم على وقف غاراتهم الجوية على مصر، ودفع الموقف المحرج جميع الأطراف إلى القبول "بمشروع روجرز" الأميركي ووقف إطلاق النار في 7 أغسطس 1970م.

ونقل المصريون في ما بعد راجماتهم الصاروخية إلى الضفة الغربية من قناة السويس واستعادوا مجمل منظومة دفاعاتهم الجوية، فاعتبر الإسرائيليون ذلك خرقاً لاتفاق وقف إطلاق النار، لكنهم لم يتجرأوا على الرد. ذلك لأن استئناف العمليات القتالية في تلك اللحظة لم يكن في مصلحتهم.

في أواخر الستينيات اشتدت مطالبة الفلسطينيين بحقوقهم، وتحولوا إلى قوة لم يعد في الإمكان تجاهلها. ولم يقتصر الأمر على مشكلة اللاجئين والدفاع عن حقوقهم، وذلك لأن الحركة الفلسطينية تحولت إلى عامل سياسي عسكري. فإن استيلاء إسرائيل على فلسطين برمتها وبناء المستوطنات اليهودية في الأراضي العربية المحتلة حرما الفلسطينيين حتى من طيف وطن قومي كان يمكن أن يتصوروا وجوده في قطاع غزة الذي ضُمّ إلى مصر وفي الضفة الغربية التي ضُمت إلى الأردن. وكان مصير اللاجئين المحرومين من وطنهم الأم قد قوّى لدى الفلسطينيين الشعور بأنهم شعب واحد مسلوب الحقوق. وظهرت تنظيمات سياسية وعسكرية فلسطينية توحدت عام 1964م في منظمة التحرير الفلسطينية. إلا أن المنظمات الفلسطينية حتى ذلك الحين لم تكن تزعج إسرائيل، بل كانت تثير البلبلة في الأردن التي هي أكثر مَن تضرر من الحرب، وكان لبنان آنذاك ينتظر دوره من هذه الناحية.

حذر الجنرال ديغول وزير الخارجية الإسرائيلي آبا إيبان في بداية عام 1967م قائلاً: "لا تحاربوا، وإلا

فإنكم تخلقون النزعة الفلسطينية التي لن تتخلّصوا منها أبد الدهر"[2]. إلا أن كلمات ديغول لم تلقَ أذناً صاغية، ودفعت نشوة النصر اليسير في يونيو 1967م القيادة الإسرائيلية والرأي العام في إسرائيل إلى ضم القدس إلى الأبد، وإزاحة الفلسطينيين بالتدريج من الأراضي المحتلة واستبدالهم بالمستوطنين اليهود، مع تجاهل مشاعر العرب وجميع المسلمين بكل غرور واستعلاء.

كان الزعيم الفرنسي البارز يعرف ما يقول. فخلال الفترة 1967-1970م تنشّطت عمليات الفدائيين الفلسطينيين كثيراً. ومن المستبعد أن يكون الملك فيصل غير محبّذ لعملياتهم، إلا أن التشكيلات المسلحة الفلسطينية في الأردن اتخذت مواقعها في مخيمات اللاجئين وتحدّت السلطات الملكية التي كانت نكسة 1967م قد هزّتها وأثّرت فيها. كذلك أثار ضجة كبيرة اختطاف طائرات الخطوط الجوية الدولية من قبل مقاتلي المنظمات الفلسطينية اليسارية المتطرفة الموجودة في الأردن. ونشأت ازدواجية السلطة في المملكة، وواجه الملك حسين مشكلة البقاء السياسي، إلا أنه تمكن بالاعتماد على الوحدات الموالية له من أن يكسر شوكة التشكيلات الفلسطينية المسلحة في أغسطس - سبتمبر 1970م.

وأمكن حقن الدماء بوساطة عربية وبجهود الرئيس جمال عبد الناصر، فانتقل المقاتلون الفلسطينيون بأسلحتهم مع البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية إلى لبنان، حيث مثّلوا في الحقيقة دولة

داخل دولة، وشاركوا لاحقاً في الحرب الأهلية التي دمرت هذا البلد المزدهر سابقاً.

حصل ذلك بعد عدة سنوات. أما في الحقبة التي نحن في صددها، فقد سدّدت التنظيمات الفلسطينية المتطرفة الضربات أيضاً إلى من اعتبرتهم من "أصدقاء الغرب" في العالم العربي. ففي مارس 1973م اغتال المقاتلون الفلسطينيون ثلاثة دبلوماسيين سعوديين في الخرطوم. وفي سبتمبر من العام ذاته هاجم الفلسطينيون السفارة السعودية في باريس. بديهي أن فيصل كان حتى قبل هذه الأعمال الإرهابية يعرف مدى انقسام حركة المقاومة الفلسطينية إلى تكتلات شتى، ويتصور نوعية الأعمال التي يمكن أن يقدم عليها المتطرفون. وقد تعاون السعوديون مع "فتح" التي كان يتزعمها ياسر عرفات وقدموا لها مساعدات مالية كبيرة. لكن فيصل يفهم أن تصاعد آلام الفلسطينيين وتزايد تطرفهم يدفعانهم إلى خطوات تجانب العقل السليم، ويوجهان غضبة الكثيرين منهم ضد أشقائهم العرب. فبات الفلسطينيون اليائسون المستميتون، والذين لم يعد لديهم ما يفقدونه، يمثّلون خطراً كبيراً على أي حكومة عربية لا تعمل بهمة ونشاط من أجل إنهاء الاحتلال الإسرائيلي. وكانت مشاعر السعوديين مع الفلسطينيين على أي حال.

وبات دور صديق الولايات المتحدة أكثر صعوبة وتعقيداً بالنسبة إلى الملك فيصل.

الفصل التاسع عشر

شعلة الأقصى

في صبيحة 21 أغسطس عام 1969م، وقبل أن توضع على مكتب الملك فيصل آخر تقارير السفارات السعودية، أذاعت وكالات الأنباء والمحطات التلفزيونية العالمية نبأ حرق المسجد الأقصى في القدس الشريف. لم يتمالك فيصل نفسه، فبدا عليه الهياج والانفعال، رغم ما هو معروف عنه دوماً من ضبط الأعصاب. لم تكن تعنيه الرواية القائلة بأن الذي أحرق المسجد هو أسترالي يعمل في مزرعة إسرائيلية. كل ما كان يشغل باله هو تأكد أسوأ توقعاته ومخاوفه من أن الصهاينة لن يكتفوا باحتلال فلسطين العربية المسلمة ومن ضمنها القدس الشريف، بل سيبدأون وقد بدأوا فعلاً بتدمير العتبات الإسلامية.

كان عادة يسيطر على أعصابه ويداري غضبه ويضع ببرودة خطة الرد والأعمال الجوابية. إلا أن حريق الأقصى نكأ الجراح وسبّب الألم، وأثار موجة عارمة من الغضب والاستنكار في الأقطار الإسلامية جمعاء. ولذا ناشدها فيصل أن تنهض للجهاد ضد العدوان الصهيوني، فلا بد من تحرير القدس الشريف من رجس المحتلين.

طوال شهر واصل فيصل مكاتباته ومحادثاته الهاتفية مع زعماء الأقطار الإسلامية، وأقنع معظمهم بحضور مؤتمر يعقد في الرباط بالمغرب. ولأول مرة في التاريخ اجتمع معاً مثل هذا العدد الكبير من ملوك ورؤساء الدول والحكومات الإسلامية لهدف واحد. حضر مؤتمر الرباط حتى الرئيس جمال عبد الناصر والزعماء القوميون اليساريون من الجزائر وليبيا والسودان، ولم يقاطع أعماله سوى البعث السوري والعراقي. إلا أن غياب البعث لم يكن ملحوظاً.

أدان 25 ملكاً ورئيساً للدول الإسلامية بكل شدة وحزم جريمة حرق المسجد الأقصى، وأجمعوا على الدعوة إلى استعادة عروبة القدس الشريف، وطالبوا بأن تتخلى إسرائيل عن كل ما استولت عليه في 1967، وأعلنوا دعمهم للأماني الوطنية الفلسطينية. والمهم هنا ليس البلاغات والتصريحات نفسها، بل ما رافقها من تصورات وما يُقرأ بين السطور. فالدعوة إلى الانسحاب إلى خطوط 1967م تعني ضمناً بوادر الموقف المستقبلي الذي سُمّي في ما بعد "الأرض مقابل السلام"، أي الاعتراف بإسرائيل في مقابل الانسحاب من القدس الشرقية وباقي الأراضي التي احتلت عام 1967م، على الرغم من بقاء مسألة عودة اللاجئين الفلسطينيين ومسألة الدولة الفلسطينية المستقلة خارج المعادلة.

كان مؤتمر الرباط مرحلة مهمة في استراتيجية فيصل الرامية إلى اجتذاب الدول الإسلامية غير العربية والرأي العام فيها لإسناد قضية العرب ودعمها.

ولم يكن ردّ فعل فيصل على حرق المسجد الأقصى عفوياً أو ارتجالياً، بل كان يعكس نظرته إلى العالم وفهمه للشؤون الدولية وتجربته الشخصية في الحكم وإدارة الدولة. كان انعقاد مؤتمر الرباط مجرد محطة، مهمة بالطبع، على طريق بناء آلية التضامن الإسلامي.

ولكي نفهم نظرة الملك فيصل إلى العالم، لا بد أن نبدأ من جانبين متداخلين في شخصيته، وهما التمسك العميق بالقيم الإسلامية والتقيد بالمصلحة الوطنية للمملكة العربية السعودية. ولذا جمعت سياسته الخارجية بين المعتقدات الدينية والمنطلقات البراغماتية. كان بتضلعه في الفقه والشريعة يضاهي أبرز علماء المملكة، فجاءت سياسته مصقولة ومهذبة استناداً إلى ثروة تطبيقية هائلة. كان يعرف أن الدبلوماسية هي فن الممكن والمستطاع الذي تتداخل فيه النجاحات والإخفاقات، وأنها تقوم على فهم الوقائع الاقتصادية والعسكرية وعلى الحوافز المحركة لسلوك الزعماء.

في نهاية العصر العباسي، وفي منتصف القرن الثامن الميلادي على أي حال، حينما توقفت الفتوحات الإسلامية، اقتضت الممارسة السياسية الاعتراف بالأمر

الواقع، أي بالتعايش مع الدول غير الإسلامية. فالإمبراطورية الإسلامية نفسها باتت آنذاك منقسمة إلى دول منفصلة متنافسة، ونشبت في ما بينها حروب طاحنة أحياناً. وفي بداية القرن العشرين باتت واقعاً لا جدال فيه تبعية العالم الإسلامي كله تقريباً إلى الدول المسيحية من الناحية السياسية، وهو أمر غير مقبول إطلاقاً من وجهة نظر الفقه الإسلامي.

عندما تربّع فيصل على العرش السعودي عام 1964م كانت لديه آراؤه الخاصة بشأن العالم والسياسة العالمية والعلاقات الدولية. ففي مركز العالم، كما تقول النظرية الإسلامية التقليدية، دار الإسلام أو دار السلام، لكنها غدت عرضة للضعف والتشرذم والتخلف. فما السبب؟ الذنب في ذلك، في اعتقاده، هو ذنب القوى الصهيونية المعادية للإسلام، وذنب الشيوعية والإمبريالية. قال في كلمة وجهها إلى حجاج بيت الله الحرام عام 1970م:

> يجب علينا أن نعود إلى أنفسنا وأن نحاسب أنفسنا، لماذا تصيبنا هذه النكبات ولماذا نتعرض لهذا العدوان من أعداء الإسلام وأعداء البشرية وأعداء الإنسانية؟![1].

العالم العربي هو قلب العالم الإسلامي، ورسالة العرب في حماية الإسلام غنية عن البيان. وقد لفت الملك فيصل أنظار الأشقاء العرب إلى أنهم مسؤولون أكثر من غيرهم عن الدعوة الإسلامية، لأن الله اختار نبيه صلى

الله عليه وسلم من بينهم، وأنزل وحيه بلغتهم وشرّفهم بحمل هذه الرسالة إلى العالم[2].

على حدود العالم الإسلامي يوجد العالم الغربي "الحر" الأكثر قوة من الناحيتين السياسية والعسكرية، ومعظم سكانه ينطبق عليهم مفهوم "أهل الكتاب". ورغم أنه يعتبر في النظرية الإسلامية دار حرب، إلا أن المسلمين تناسوا هذا التوصيف الكلاسيكي، وباتوا يعتبرونه دار صلح أو دار عقد. ومن وجهة نظر فيصل الولايات المتحدة دولة مسيحية وأمة تؤمن بالله، وليس دولة علمانية ديمقراطية كما جاء في دستورها. ويرى أن للغرب، وخصوصاً الولايات المتحدة، مصالح سياسية واقتصادية وعسكرية، لكن عليه أيضاً التزامات أخلاقية ومعنوية لصيانة وحماية العالم الحر كله، بما فيه العالم الإسلامي.

بعد الحرب العالمية الثانية ظهرت في الشرق الأوسط تحديات وتهديدات جديدة، عقائدية وسياسية وعسكرية، ومنها الشيوعية الملحدة، وأحد أشكالها المعتدلة المتمثل في الاشتراكية العلمانية. ومن ورائها جميعاً يقف الاتحاد السوفياتي الملحد الذي كان يتسلل إلى المنطقة بنحو مباشر أو من خلال الأنظمة القومية اليسارية العلمانية. وبحكم إلحادها كانت الشيوعية بالنسبة إلى فيصل مرفوضة قطعاً، لأنها ترسخ آراء غريبة على الإسلام بشأن العالم والكون، وتضع القيم

المادية والدنيوية في مقام أسمى من القيم الدينية. ولذا دعا فيصل جميع المسلمين إلى الاحتكام إلى كتاب الله وسنّة رسوله ورفض أي معتقدات وقوانين وضعية تتناقض مع الكتاب والسنّة. كذلك دعاهم إلى التخلي بوعي وإدراك عن أي شكل للتعاون مع الاتحاد السوفياتي والصين وباقي الدول الاشتراكية.

يقول أحمد بن عبد الوهاب:

> كان فيصل ضد الإلحاد والشيوعية. كنا في أفغانستان نزور الملك ظاهر شاه، وكان البروتوكول الأفغاني في تلك الأيام يقتضي أن رئيس الدولة الضيف، قبل أن يقيم رئيس الدولة المضيف العشاء، يقدم له السلك الدبلوماسي. ووقف الملك فيصل لاستقبالهم، فجاؤوا بسفير الاتحاد السوفياتي ولا أتذكر اسمه، لكنه يتكلم عربي كما نتكلم أنا وأنت عربي. فقال له: يا صاحب الجلالة، أول من اعترف بنظام أبيك هو الاتحاد السوفياتي، فلماذا لا تفتح سفارة وتعترف بالاتحاد السوفياتي؟ فردّ عليه الملك فيصل وأنا واقف هناك: يا جناب السفير، اذهب إلى موسكو وقل لهم فليعترفوا بالله وأنا أفتح سفارة عندها غداً. ثم إن الملك فيصل كان ضد الصهيونية، وكانت نظريته هي العلاقة

ما بين الشيوعية والصهيونية. هذه هي المسألة. وكان لا يتورع عن أن يحكي القصة لأول أجنبي يجلس معه. حتى مع كيسنجر حصل ذلك[3].

يقول جميل الحجيلان:

كان الصحافيّون يسألون الملك فيصل مستغربين: لماذا المملكة العربية السعودية هي البلد الوحيد في العالم الذي لم يقم التبادل الدبلوماسي مع الاتحاد السوفياتي، في الوقت الذي كان فيه الاتحاد السوفياتي في عز قوته وسلطانه ونفوذه في المنطقة؟ فكان يقول لهم: إن موقفنا هذا ليس فيه تقليل من أهمية الاتحاد السوفياتي أو استصغار لعظمته، وأنا أعرف بأن الاتحاد السوفياتي أحد القطبين الكبيرين اللذين يتصرفان في شؤون العالم، ولكنني في المملكة العربية السعودية لا أستطيع أن أقيم علاقات مع نظام حكم ينكر وجود الله[4].

يقول بندر الفيصل:

الأميركان نسمّيهم أهل الكتاب، ويتّبعون الإنجيل. وموقف الملك فيصل من ناحية السوفيات ومن ناحية الصهيونية موقف واحد، وهو يربط بين الاثنين حتى من قبل

تأييد الاتحاد السوفياتي لقرار تقسيم فلسطين في 1947. فهو أول من زار روسيا، أول زعيم عربي زار روسيا سنة 1932م. وعندما رجع من هناك كان لديه موقف. لم يكن مرتاحاً. رأى أحوال المسلمين المتردية هناك، رأى أحوال الأديان، ليس المسلمين فقط. رأى ما حصل للمسيحيين... تحليل موقف الملك فيصل لا يحتاج إلى سياسة بل إلى مبدأ. مبدأ الملك فيصل رفض التعايش. وكان هذا موقفه من الصين الشيوعية أيضاً. فما كان الملك فيصل يعترف إلا بفرموزة. كان كذلك إلى آخر لحظة. ونحن أكثر من الأميركان في عدم الاعتراف بالشيوعية[5].

إذا كان هذا الموقف المتشدد جداً غير مثمر أحياناً من الناحية التكتيكية، فهو قد وفر، من الناحية الاستراتيجية، استقرار المملكة وتطورها على الطريق المرسوم، ورفع منزلتها إلى مكانة الدولة البترولية والمالية العظمى. لم يطل العمر بفيصل حتى يرى سقوط الاتحاد السوفياتي وانهيار الإيديولوجية الشيوعية، لكن التحدي الثاني للمملكة العربية السعودية ظل قائماً حتى بعد قيام روسيا الجديدة، الصديقة للمملكة، على أنقاض الاتحاد السوفياتي.

كان التحدي أو الخطر الثاني على العالمين العربي والإسلامي هو قيام الدولة الصهيونية في عام 1948م على الأراضي التي يعتبرها الملك فيصل أرضاً عربية مقدسة. كان يؤكد دوماً أنه يفرّق بين اليهودية كديانة واليهود باعتبارهم من "أهل الكتاب" وبين الصهيونية التي هي في رأيه عقيدة سياسية وضعية عدوانية موجهة ضد الإسلام، وتستهدف السيطرة على الأماكن المقدسة الإسلامية وتدميرها وطرد مسلمي فلسطين من أراضيهم وإسكان اليهود في ديار المسلمين. وعندما استولت إسرائيل على الضفة الغربية لنهر الأردن عام 1967م، بما فيها قبلة المسلمين الأولى، المسجد الأقصى في القدس الشريف، أحسّ فيصل بألم شديد يعتصر الفؤاد. وفي كلمته في موسم الحج عام 1968م أعلن أن العتبات المقدسة ليست ملكاً للعرب وحدهم، بل تعود لجميع المسلمين، وناشدهم النهوض لحماية الدين والحيلولة دون تدنيس المقدسات.

معظم يهود العالم في يونيو 1967 رحبوا بفرح وسرور بسيطرة إسرائيل على حائط البراق (المبكى) الباقي من هيكل أورشليم الثاني حينما دمره الرومان في عام 70 بعد الميلاد. إلا أن حائط البراق هو في الواقع امتداد للهضبة التي يقوم عليها المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ومن هناك حصل معراج النبي محمد

(ص). والقدس هي أولى القبلتين وفيها ثالث المساجد المقدسة بعد الحرمين الشريفين في مكة والمدينة.

فكيف يكون حال هذه المدينة العزيزة على قلوب المسلمين واليهود والمسيحيين، وخصوصاً أن هناك أيضاً تلة الجلجثة التي تنتصب عليها كنيسة القيامة؟

القدس عقدة يصعب حلها. إنها موضع الألم والنقطة الحساسة في التاريخ والسياسة في الشرق الأوسط.

بعد عام 1967م كانت من أعز أمنيات الملك فيصل أن يصلي في المسجد الأقصى قبيل ملاقاة ربه. وما كان بوسعه أن يطلب سماحاً بذلك من سلطات الاحتلال.

كان، بصفته خادم الحرمين الشريفين، يشعر بمسؤولية شخصية عن إعادة الحرم القدسي الثالث إلى المسلمين. وكان غضبه على إسرائيل أعمق من الكراهية وأشد من شعور العرب بالكرامة المهانة بعد عام 1948م وبعد نكسة 1967م.

يقول بندر الفيصل:

> الملك فيصل ما كان يكره اليهود، الملك فيصل كان يكره الصهيونية. ومن يظن به غير ذلك مخطئ. كان يوضح بكل صراحة أننا ضد المبدأ الصهيوني وليس ضد اليهود. وكان يقول إنني لست ضد الروس، أنا ضد الشيوعية. ولا دخل لي باليهودي ومَن ديانتُه

يهودية وما إلى ذلك. وعندما كان يتكلم عن الاتحاد السوفياتي ما كان يذكره بالاسم، كان يقول الدول الشيوعية، وعندما يتكلم عن إسرائيل يسميها الكيان الصهيوني، ولا دخل لليهودي في ذلك. ولكنّ المغرضين يربطون بين الاثنين معاً. عندما تقول إنك ضد الصهيونية يقولون لك أنت ضد السامية، على الرغم من أننا ساميون. فهل أكون ضد نفسي؟ ويدّعون أنهم هم الساميون، والحقيقة الساميون نحن.

كان الملك فيصل يعرف الإنجليزية ويسمع ويصحح لمترجمه عبد الماجد الشايب، وهو سوداني من أصل سعودي. وهو مترجم جيد، لكن الملك فيصل كان يصحّح له أحياناً، كما حصل في إنجلترا سنة 1968م. قال الملك فيصل: لا يمكن أن تقبل الدول العربية بوجود دولة صهيونية في وسطها "إذا لم تُعطَ فلسطين حقها ويُزال الاعتداء". فترجم المترجم و"تزال إسرائيل"، فاعترض الملك فيصل وقال: "لم أقل تزال إسرائيل[6].

كان فيصل يعتقد صادقاً أن الصهيونية والشيوعية وجهان لمؤامرة دولية واحدة. ماركس كان يهودياً، وكان

تروتسكي يهودياً أيضاً، وكثير من زعماء الثورة البلشفية في روسيا يهود. وعندما عرضوا على فيصل النسخة القيصرية المزورة من "بروتوكولات حكماء صهيون" اعتبرها دليلاً على صحة ما قاله والده من أن اليهود مرتدون عن الدين.

"فالبروتوكولات" تصور اليهود والماسونيين بأنهم دبروا مؤامرة تقويض المسيحية والعالم المتحضّر من خلال دفعهم للحركة الليبرالية والاشتراكية.

يقول محمد عنان:

> عندما زار وفد من الكتائب اللبنانيين، الحزب الماروني، برئاسة الشيخ بيار جميّل وعدد من أقطاب الحزب المملكة العربية السعودية، دخلنا على الملك فيصل فأخذ يقول للشيخ بيار جميّل: ابتعدوا عن شيئين لا ثالث لهما، الشيوعية والصهيونية. وأخذ يركز على هذه العبارة ليؤكد لبيار جميّل وجماعته أن لبنان إذا سمح لهذين الخطين ستكون نهاية لبنان، وخصوصاً الصهيونية. وعندما وقف الشيخ بيار جميّل تطلع فيه الملك فيصل وقال له يا شيخ بيار احذر الصهيونية، احذر ثلاث مرات[7].

وقال فيصل في حديثه إلى مجلة "نيوز ويك" عام 1970م: "إن الشيوعية هي من صنع الصهيونية".

ورداً على سؤال لمراسل المجلة وجّهه إلى جلالته يقول: هل يقلقكم ازدياد النفوذ الشيوعي في الشرق الأوسط؟

قال جلالته:

> الصهيونية والشيوعية تعملان بتعاون وثيق لإحباط تسوية لإحلال السلام. إن ذلك كله من مكيدة كبرى، من مؤامرة ضخمة. إن الشيوعية هي من صنع الصهيونية، كما قلت، وهدفها هو تحقيق أهداف الصهيونية، وحين تتظاهر الحركتان الشيوعية والصهيونية بأن إحداهما تعمل ضد الأخرى في الشرق الأوسط، فإن ذلك من قبيل ذرّ الرماد في العيون ليس إلا[8].

وبات اعتقاد فيصل الراسخ هذا أساساً لسياسته الخارجية طوال فترة حكمه. كان يتساءل: ما هي النتائج العملية لظهور الصهيونية في الشرق الأوسط؟ تجذر الراديكالية في العالم العربي. فالدول العربية لم تطلب المساعدة من الاتحاد السوفياتي إلا لأن الصهاينة كانوا يتسلمون المساعدات من الخارج. قبل تأسيس إسرائيل كان عدد الشيوعيين والاشتراكيين في الأقطار العربية قليلاً. أما الآن فالجراح التي خلفتها إسرائيل في الكرامة العربية خلقت حركة ثورية في الشرق الأوسط

خلافاً للأنظمة المعتدلة المؤمنة كما في المملكة العربية السعودية.

كان فيصل، شأن معظم العرب، من القائلين بنظرية المؤامرة. فالعرب بعد أن درسوا ماضيهم والمؤثرات الخارجية السرية التي تحكمت في مصير المنطقة ابتداءً من معاهدة سايكس - بيكو ووعد بلفور، وانتهاءً بالمساعدات الكبيرة من الولايات المتحدة في إقامة إسرائيل وتسليحها، توصلوا إلى الاعتقاد بأن القوى الخارجية المعادية لمصالحهم كانت تتحكم وتتلاعب بجزء كبير من تاريخهم.

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين جرى تصدير النزعة القومية من أوروبا إلى العالم الإسلامي - إلى الإمبراطورية العثمانية وبلاد فارس والأقطار العربية. وباتت القومية مذهباً سياسياً سائداً في تركيا في العشرينيات والثلاثينيات، وفي العالم العربي في الخمسينيات والستينيات. إلا أن النزعة القومية كانت غريبة على معظم أهالي الجزيرة العربية. فالجانب العلماني الوضعي من القومية في ظل انتشار المذهب الحنبلي ما كان يجتذب إلا جزءاً ضئيلاً من المتعلمين من سكان المدن، هذا أولاً. وثانياً: غياب الاستعمار حرم الجانب القومي المعادي للغرب من مقومات الاستمرار. وثالثاً: إن عرب الجزيرة كانوا أصلاً من دعاة العروبة تاريخياً. أسلافهم أسّسوا دول الخلافة

الكبرى تحت رايات الإسلام، وكان فيصل يؤكد أن العرب ليسوا في حاجة إلى استيراد التقاليد الأجنبية، فلديهم تاريخهم وماضيهم التليد، وأن عرب الجزيرة قادوا باقي العرب والعالم بكلمة التوحيد في سبيل الله وسنّة رسوله[9].

قال الملك فيصل في خطاب تكريم رؤساء بعثات الحج عام 1966م عن التضامن الإسلامي:

> إذا كانت هذه الدعوة - يا إخواني - تسيء أو لا ترضي بعضهم، كالاستعمار والشيوعية والصهيونية، فإنني مطمئن كل الاطمئنان بأن المسلمين سوف لا يلتفتون ولا يدخرون ولا يتخاذلون في سبيل نصرة الحق، في سبيل نصرة دينهم، وفي سبيل توحيد كلمتهم والتعاون على البر والتقوى[10].

بديهي أن مفهوم الملك فيصل ل"الإمبريالية" يثير بعض التساؤلات، وخاصة أن هذه المفردة باتت جزءاً من الخطاب السياسي العربي في الخمسينيات والستينيات. فمنذ الخطوات الأولى لبناء الدولة السعودية أقامت الرياض علاقات ودية مع الإمبراطورية البريطانية، على الرغم من أن السعوديين كانوا يتحسّسون عبء الاعتماد على الإنجليز. إلا أن السعودية دعمت كفاح البلدان الأخرى، وخاصة العربية والإسلامية، ضد الهيمنة البريطانية والفرنسية والإيطالية على تلك البلدان.

فالخلافات مع بريطانيا على البريمي ومشاركة الإنجليز في "العدوان الثلاثي" على مصر والحرب الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، كل ذلك جعل مصطلح "الإمبريالية" قائماً على ترابط أو ارتباط ملموس تماماً مع الدول الغربية. إلا أن التجربة التاريخية للمملكة العربية السعودية جردت مناهضة "الإمبريالية" من محتواها المتشدد في معاداة الغرب. فالولايات المتحدة من هذه الناحية ظلت أمداً طويلاً خارج مفهوم "الإمبريالية". وإلى ذلك فالنعوت الدعائية التي ألصقت ببريطانيا وفرنسا لم تمنع فيصل من التعاون مع هاتين الدولتين، ما دام ذلك التعاون يستجيب للمصلحة العامة في المملكة.

وإذا كان الأمر واضحاً في ما يخص تقويم الصهيونية والشيوعية والاتحاد السوفياتي الملحد، فكيف يمكن الجمع بين مناهضة الإمبريالية وبين ضرورة التعاون مع الولايات المتحدة التي يراد لها أن تدافع عن المسلمين بوصفهم جزءاً من "العالم الحر"؟ وكيف نفسر كون هذه الدولة النصرانية تدعم وتموّل إسرائيل وتسلحها؟

لقد تميّزت نظرة الملك فيصل إلى العالم، خارج إطار معارضته الشديدة للشيوعية والصهيونية، بالمرونة والبراغماتية. وكانت نظرته تلك عبارة عن نظرية ومبدأ، وليست برنامج عمل سياسياً محدداً. كان المهم بالنسبة

إليه تجزئة المشكلة إلى مكوّناتها الأساسية ومعالجة تلك المكونات بطرق مختلفة وفي سياقات أو أصعدة مختلفة. ولذا اعتبر فيصل الولايات المتحدة التي هي زعيمة "العالم الحر" بصفة المدافعة الأولى عن العالم العربي والإسلامي في مقارعة الشيوعية. هذا على صعيد، وعلى صعيد آخر تولت الولايات المتحدة دور حامي الصهيونية وإسرائيل الأول. لم يكن في نظرة فيصل إلى العالم تناقض. التناقض يكمن في سياسة الولايات المتحدة نفسها ودورها. كانت فكرته عن وحدة أهداف الصهيونية والشيوعية غير مفهومة بالنسبة إلى الكثيرين في الغرب، لكن فيصل كان على الدوام واثقاً من أن مساعدة الولايات المتحدة للصهيونية وإسرائيل هي السبب الأول في تياسر العالم العربي، وبالتالي في تعزز مواقع الاتحاد السوفياتي والشيوعية في المنطقة العربية.

يقول بندر الفيصل:

> كان الملك فيصل ينظر دائماً إلى أميركا بأنها في أي يوم يمكن أن تنقلب وتغير وجهة نظرها. كان يتوقع ذلك. كان يعتقد أن موقفها حيال الإسرائيليين سيتغير، وكان يتذكر موقف أميركا إبان غزو القناة في سنة 1956م على أنه أمر إيجابي جداً. ويمكن لأميركا أن تنقلب على إسرائيل في أي

لحظة. لأن أميركا براجماتية. وحكاية إسرائيل حكاية وقتية بالنسبة إليها، من أجل الانتخابات أو غيرها. وعندما تتغير الصورة في يوم ما تبدل أميركا موقفها، كما فعلوا مع الشاه ومع أي كان[11].

ولعل المؤلف لا يشاطر الرأي القائل بنظرية المؤامرة أو التواطؤ المتعمد بين الشيوعية والصهيونية، إلا أن الانعطاف اليساري في عدد من الدول العربية بعد حرب "الأيام الستة" 1967 واتساع تعاون بعض الأنظمة العربية مع الاتحاد السوفياتي وتعزز المواقع العسكرية الاستراتيجية السوفياتية في المنطقة تدلل على وجاهة نظرة الملك فيصل في هذا الخصوص. ولذا كانت المهمة تتلخص في إقناع واشنطن نفسها بخطأ سياستها، لكونها تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة نفسها ومع مصالح العالم الإسلامي.

وعندما أخفقت كل المحاولات لإقناع الإدارة الأميركية بتناقض سياستها وعدم مطابقتها لمصالح الولايات المتحدة ومصالح الغرب عموماً، لجأ فيصل إلى سلاح البترول مستخدماً الحظر النفطي، ولكن بحذر واتزان. وإلى ذلك، سعى الملك فيصل إلى خلق مراكز ضغط موالية للعرب في مواجهة اللوبي الموالي لإسرائيل في الولايات المتحدة، لكن ذلك حصل في ما بعد.

بالنسبة إلى فيصل لم يكن الفارق بين الغرب والدول النامية مهماً بقدر أهمية الفارق بين من يخاف الله وبين الأنظمة الملحدة. ولذا كرّس فيصل وقتاً كثيراً وأموالاً طائلة للدعاية للتضامن الإسلامي، ولإيجاد آلية التعاون بين الدول الإسلامية.

وإلى جانب الدعوة السياسية أرسى فيصل أساس المساعدات الاقتصادية السخية إلى الدول العربية في المقام الأول، وإلى الدول الإسلامية في المقام الثاني، ثم إلى دول "العالم الثالث" غير الإسلامية.

بعد ثورة اليمن وجدت المملكة العربية السعودية نفسها منجرّة إلى صراع قاسٍ مع نظام عبد الناصر القومي اليساري. وكان فيصل يدرك أن مصر هي المهيمنة على جامعة الدول العربية، وأن أفكار القومية العربية بصبغتها الاشتراكية تستحوذ على الجماهير. وما كان بوسعه أن يقابلها إلا بما يمثل جوهر معتقداته، وما اغترفه وتشبّع به من دروس جده ووصايا أبيه، وما كان قد امتزج بهواء بادية العرب، فصار جزءاً لا يتجزأ من أنفاسها وحياتها ونعني، بالطبع، الإسلام.

منذ مايو 1962م، أي منذ ما قبل أحداث اليمن، نظمت حكومة المملكة العربية السعودية بمبادرة من فيصل مؤتمراً إسلامياً عالمياً في مكة لبحث سبل مكافحة التيارات اليسارية والوضعية والعلمانية في العالم العربي والإسلامي.

واجتمع العلماء ورجال الدين والشخصيات الاجتماعية من جميع أرجاء العالم الإسلامي، وأعلنوا أن من يتنكر للإسلام ويشوّه دعوته بذريعة القومية إنما هو في حقيقة الأمر من ألد أعداء العرب[12]...

وتمخض المؤتمر عن تأسيس منظمة باسم رابطة العالم الإسلامي ومقرها الدائم في مكة. وبفضل الدعم المتواصل من جانب فيصل، افتتحت الرابطة فروعاً لها في العالم كله، وأصدرت مطبوعاتها باللغتين العربية والإنجليزية. وقد اعترفت بها هيئة الأمم المتحدة بصفة منظمة غير حكومية.

إلا أن تأثير الرابطة السياسي كان محدوداً. وكان فيصل يعتقد بلزوم رفع التضامن الإسلامي إلى مستوى العلاقة بين الحكومات. وفي الفترة من ديسمبر 1965م حتى سبتمبر 1966م زار الملك فيصل 9 دول إسلامية في آسيا وأفريقيا. وبالطبع كان الأشخاص الذين التقاهم في تلك الفترة من الزعماء المحافظين.

وكان المطلوب مدّ الجسور مع إيران بعد تجاوز نفور أتباع محمد بن عبد الوهاب من الشيعة. وقد توسط في هذه المسألة العاهل الأردني الملك حسين وصاحب صحيفة "الحياة" البيروتية كامل مروة. وهو شيعي من خصوم الناصرية ودعاة فكرة التضامن الإسلامي.

يقول جميل مروة:

علاقة الملك فيصل بالوالد، من كلامه، هو الذي خبرني، كانت من بداية موضوع التضامن الإسلامي. فكرة التضامن الإسلامي ولدت من حوار بينهما في منتصف الستينيات. وقال لي الملك فيصل أيضاً إن الوالد أدى دوراً أساسياً بإصلاح الأمر بينه وبين شاه إيران وبينه وبين الملك حسين. كان صديقاً للطرفين. وجرى الاتفاق على زيارة الملك فيصل إلى إيران[13].

بالطبع من حق الابن أن يبالغ في دور أبيه. إلا أن القضية، كما يبدو، كانت أبسط من ذلك. جريدة "الحياة" البيروتية المتنفذة باتت المنادية بأفكار التضامن الإسلامي، وصارت تنقل صوت الملك فيصل إلى العالم العربي والإسلامي، فيما حظي كامل مروة فعلاً بمودة فيصل شخصياً، وصار يؤدي ليس فقط المهمات الدعائية التي يكلفه بها، بل وكذلك المهمات السياسية الحساسة. (كانت نهاية كامل مروة فاجعة مأساوية، شأن نهاية العديد من الزعماء السياسيين اللبنانيين من مختلف الاتجاهات. فقد وقع فريسة بيد أحد القتلة، وظلت الجريمة غير مكشوفة. وفي مؤتمر الخرطوم 1967م استقبل الملك فيصل الشاب اليافع جميل مروة وأعرب له عن مؤاساته برحيل والده).

بدأ الملك فيصل بزيارة إلى شاه إيران استغرقت أسبوعاً. وبعد شهر، أمضى أسبوعاً مع الملك الأردني حسين، ثم زار السودان وباكستان وتركيا والمغرب وليبيا ومالي وتونس.

استجابت إيران لمبادرة الملك فيصل، وكذلك المغرب والأردن وباكستان. إلا أن مصر وسورية اعتبرتا آنذاك دعوته إلى التضامن الإسلامي تهديداً للقومية العربية ومحاولة لإنشاء حلف عسكري جديد مُوالٍ للغرب. واتهم عبد الناصر الملك فيصل بأنه "خان القضية العربية" وأن التضامن الإسلامي "مؤامرة أنجلوأميركية" تهدف إلى شق الصف العربي وتبديد الآمال العربية بالوحدة المنشودة. واعتبرت سورية الملك فيصل "رجعياً"، ودعوته إلى التضامن الإسلامي موجهة ضد القوميين العرب لأغراض شخصية صرفة!

الملك فيصل قابل التهجمات الدعائية من القاهرة ودمشق بهدوء أعصاب تام. فهو لم يعارض الوحدة العربية أبداً، لكنه يعتبرها خطوة أولى إلى الوحدة الإسلامية الأشمل. وكان يعتقد أن العناصر الدينية والتقليدية في العروبة تواجه الراديكالية والوضعية و"الثورية" والمطامح العروبية لدى الأنظمة اليسارية في العالم العربي (ونذكر هنا بين قوسين أن الوحدة العربية التي كانت أملاً ووهمياً في ستينيات القرن الماضي ظلت على حالها حتى اليوم).

اعتبر فيصل التعاون بين حكومات الدول الإسلامية ومكافحة الشيوعية والتيارات اليسارية في العالم العربي وتعبئة العالم الإسلامي بأسره لنصرة العرب في الكفاح ضد إسرائيل من المهمات ذات الأولوية بالنسبة إلى التنظيم الإسلامي الدولي المرتقب.

وكانت هزيمة مصر وسورية والأردن في حرب 1967م بمثابة صلاة الميت على القومية العربية، وخصوصاً القومية ذات الصبغة الاشتراكية. صحيح أنه كانت أمام القومية آنذاك نجاحات موضعية في ليبيا وفلسطين واليمن وعمان، لكن إيديولوجية القومية جفّ لبنها، وكان ذلك سيتضح للجميع بعد بضع سنين.

في أغسطس 1969م كشف حريق الأقصى ومؤتمر الرباط عن ضرورة التضامن الإسلامي الذي دعا إليه الملك فيصل.

وفي مارس 1970م عقد فيصل في جدة أول مؤتمر لوزراء خارجية الدول الإسلامية، فأدانوا إسرائيل على رفضها تنفيذ قرارات هيئة الأمم المتحدة الداعية إلى سحب القوات من الأراضي العربية المحتلة في عام 1967م، كما أدانوا الصهيونية بوصفها حركة توسعية عدوانية متطرفة. وقرر المؤتمر اعتبار الحادي والعشرين من أغسطس من كل عام (وهو تاريخ حرق المسجد الأقصى) يوماً للتضامن مع الشعب الفلسطيني.

دارت المداولات أساساً حول القدس وفلسطين، ولكن سرعان ما توسع ميدان التضامن والتعاون بين الأقطار الإسلامية. وأنشئت الأمانة العامة التي تشرف على الشؤون التنظيمية الجارية، وباتت لقاءات رؤساء وملوك الدول الإسلامية ووزراء خارجيتهم تعقد بانتظام، ثم تأسست المراكز الثقافية الإسلامية، وأخذت تتطور مختلف أنماط التعاون الاقتصادي بين الأقطار الإسلامية، بما في ذلك تأسيس البنك الإسلامي. وفي بداية عام 1970م أرسى الملك فيصل أساس عمل منظمة المؤتمر الإسلامي التي باتت لاعباً متنفذاً على الساحة الدولية في الفترة التي أعقبت رحيل الملك.

في يونيو 1971م ساعدت المملكة العربية السعودية في تنظيم مؤتمر لوضع ميثاق هذه المنظمة الجديدة.

بعد وفاة جمال عبد الناصر خفتت موجة القومية اليسارية في العالم العربي، وأخذ أنور السادات يتقارب مع المملكة العربية السعودية، مشدداً على تمسكه بالدين. وفي فبراير 1972م نظّمت مصر مؤتمراً للشؤون المصرفية الإسلامية.

في أواخر عام 1970م تسلم حافظ الأسد مقاليد الحكم في سورية، وجعل النهج السياسي للبلاد أكثر اعتدالاً، وخفف من لهجة الخطاب السوري. وفي عام 1971م أخمد الرئيس السوداني جعفر النميري محاولة انقلابية شيوعية، فيما أخذ الرئيس الليبي معمر

القذافي يدعو إلى التضامن الإسلامي. ولم يبقَ من يعارض فيصل سوى زعماء الجزائر والعراق.

وأقرّ ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي في المؤتمر الثالث لوزراء خارجية الدول الإسلامية بجدة في فبراير 1972م، وقد شارك فيه 30 وزيراً للخارجية، بمن فيهم وزير الخارجية السوري.

وتأسست في الوقت ذاته وكالة الأنباء الإسلامية الدولية "إينا" ومقرها الدائم في جدة بصفة أول وكالة متخصصة لمنظمة المؤتمر الإسلامي. وأيّد مندوبو المؤتمر شعوب أفريقيا الجنوبية في نضالها ضد العنصرية والاستعمار، كما أعربوا عن دعمهم لباكستان في حربها مع الهند عام 1971م.

وفي نوفمبر 1972م زار الملك فيصل خمسة بلدان أفريقية، داعياً إلى فكرة التضامن الإسلامي، وساعياً إلى عزل إسرائيل عن مؤيديها في أفريقيا.

أما المؤتمر الرابع لوزراء خارجية الدول الإسلامية فقد انعقد في مدينة بنغازي في ليبيا، في مارس 1973م، وأعرب المشاركون فيه عن تضامنهم مع مسلمي الفيليبين، وناشدوا الهند أن تطلق سراح أسرى الحرب الباكستانيين، وأيّدوا شعب إريتريا في كفاحه من أجل تقرير المصير، ونددوا بالوجود البرتغالي في أفريقيا. واعترف المؤتمر بمنظمة التحرير الفلسطينية

الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، وأسس صندوق دعم فلسطين.

وأخذت أبعاد التعاون السياسي والمعنوي بين الأقطار الإسلامية ترتسم بمزيد من الوضوح، وظل المحور الأول في ذلك كله هو تحرير القدس ودعم الفلسطينيين. ولكن بات جلياً أن الكثير من المشاكل الدولية يمسّ الدول الإسلامية جميعها، ولذا كانت تبحث عن ردود مشتركة على تحديّات العصر.

الفصل الحادي والعشرون

وفاة عبد الناصر ومجيء السادات

توفي جمال عبد الناصر بنوبة قلبية في 28 سبتمبر 1970م بعد أن كرّس آخر أيامه لمحاولات تسوية العلاقات بين رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات والعاهل الأردني الملك حسين. ترك ساحة الشرق الأوسط زعيم عملاق حجب ظلُّه طوال خمسة عشر عاماً تقريباً، رغم الإخفاقات والأخطاء، جميع الشخصيات الأخرى في المنطقة، على الرغم من أن وزن الملك فيصل ونفوذه كانا في ازدياد، ووزن عبد الناصر ونفوذه في نقصان. على كل حال، بات في طيّ الماضي عهد كامل ودّعه خمسة ملايين مصري ممن خرجوا إلى الشارع لتشييع جثمان الزعيم الراحل، وخيّم الحزن والأسى على العالم العربي بأسره.

كان الملك فيصل آنذاك في سويسرا للعلاج، فأوفد لحضور جنازة جمال عبد الناصر الأمير فهد بن عبد العزيز.

تسلم مقاليد السلطة في مصر محمد أنور السادات الذي لا يتمتع بشخصية وكاريزما ووزن مثل عبد الناصر، ولم تكن بيده سلطة فعلية في الشهور الأولى

من حكمه، إلا أنه أبدى مهارة بلغت حدّ الوقاحة في توزيع أوراق اللعبة. فزجّ في السجن بالزعماء الناصريين المعارضين له، وعلى رأسهم علي صبري، وتشبث بالسلطة، فكان أكثر براغماتية من جمال عبد الناصر.

كان "ضابط الارتباط" بين الملك فيصل والرئيس السادات هو كمال أدهم، صهر الملك والأخ الأصغر للسيدة عفت.

وصل كمال أدهم إلى القاهرة في النصف الأول من نوفمبر 1970م والتقى أنور السادات، وأبلغه أن الأميركيين قلقون جداً من وجود الروس في مصر. ففهم السادات من ذلك أن الولايات المتحدة تطرح في الواقع شرطاً لتحسين العلاقات مع مصر، فردّ على مبعوث الملك فيصل في الحال بأنه مستعد لإنهاء "الوجود السوفياتي" في البلاد حالما تتم المرحلة الأولى من انسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء. لقد طلب السادات ثمناً بخساً مقابل هذه الخطوة الأليمة بالنسبة إلى مصر إرضاءً للأميركيين. وسأله كمال أدهم: هل تستطيع مصر أن تطرد الروس إذا أرغمت أميركا إسرائيل على البدء بسحب قواتها من الأراضي المحتلة[1]؟ فقال السادات إنه سيطردهم. وسأله أدهم: هل يستطيع أن ينقل كلامه هذا إلى الأميركيين؟ فأجاب السادات بالإيجاب. كانت تلك هي الإشارة الأولى

التي تلقتها الولايات المتحدة من الرئيس المصري الجديد.

في ما بعد أخذ كمال أدهم يتردد على السادات كثيراً، وبات "صديقاً" له يقوم برحلات "مكوكية" بين جدة والقاهرة. وقدم معونات سخية لجميع خصوم التعاون مع الاتحاد السوفياتي، ابتداءً من "الإخوان المسلمين" وحتى الليبراليين الغربويين. وقبل وفاة جمال عبد الناصر، أقام كمال أدهم علاقة مع أشرف مروان صهر الرئيس المصري الراحل. وكانت تلك قناة اتصال موثوقة، وذلك لأن أشرف مروان ظل من الثقات الذين يأتمنهم السادات.

كانت النقطة الأضعف في انتقاد فيصل للمساعدات الأميركية لإسرائيل تتعلق بالنفوذ السوفياتي في مصر وسورية. العشرون ألف عسكري سوفياتي تقريبا، الذين استقدمهم جمال عبد الناصر لبناء الدفاعات الجوية في مصر، كانوا رمزاً لوجود شيوعي في العالم العربي لا يروق الرياض ولا واشنطن. وكان من السهل جداً على نيكسون ومستشاره للأمن القومي هنري كيسنجر أن يبررا الموقف الأميركي الموالي لإسرائيل والمساعدات العسكرية لها بحجة "الخطر الحربي السوفياتي". كان فيصل، شأن السادات، يدرك أن أوراق الضغط على إسرائيل موجودة في يد واشنطن. وخيّل إليهما أن إنهاء الوجود العسكري السوفياتي في مصر يدفع

الولايات المتحدة إلى الضغط على إسرائيل، فلا تبقى لواشنطن عندئذ حجة لتطبيق سياسة موالية لتل أبيب. واقتضى الأمر تنسيق العمل مع أنور السادات.

لقد مضى السادات الرافض للطموحات الناصرية في العالم العربي، وللإصلاحات ذات الصبغة الاشتراكية داخل مصر، إلى تعميق التعاون مع الملك فيصل. كان هذا اللاعب المغامر والديماغوجي المتكلس يمتلك غريزة فلاحي دلتا النيل، ويعتقد أنه يمكن أن يكسب ودّ العاهل السعودي بتصريحاته عن التمسك بالقيم الإسلامية. وقد اعترف للملك فيصل شخصياً بأنه ينوي التخلي عن اثنين من المكونات الرئيسة في السياسة الناصرية، وهما التحويلات الاشتراكية والتعاون مع الاتحاد السوفياتي، ويعوّل على الولايات المتحدة الأميركية.

ومما له دلالته، أن السادات ألقى خطاباً في مسجد الإمام الحسين في القاهرة في المولد النبوي يوم 25 أبريل 1972م، وتحدث عن الكفاح العربي ضد إسرائيل بوصفه جهاداً في سبيل الله، وعن العرب بوصفهم حملة الرسالة المحمدية. وقال:

> إن محمداً صلى الله عليه وسلم أتمّ رسالته وحارب واستبسل وصمد وقاوم إلى أن تحققت دعوة الحق، دعوة الإيمان، دعوة الإسلام... وإننا نحمل نفس العقيدة، نحمل

الرسالة اليوم وأمانتها. نحن نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى معنا، نحن نؤمن بأن الحق معنا[2].

لقد تبدل الزمان حقاً. الرئيس المصري أخذ يتكلم اللغة التي يتقبّلها الملك فيصل. إلا أن ذلك لم يمنعه بعد حين من مغازلة القومية المصرية في مواجهة القومية العربية، رغم استمراره بإعلان الولاء للقيم والمثل العليا الإسلامية.

فهل كان فيصل يثق بصدق نيّات السادات؟ كلا، على الأرجح. فهو لم ينسَ ما قاله له جمال عبد الناصر أثناء لقائه معه في جدة 1965م: أنور السادات هو الذي ورّطني في اليمن. أنور السادات هو الذي يستحق اللوم على حرب اليمن.

يقول بندر الفيصل:

أنور السادات قال في كلمته عندما ذهب إلى اليمن: سنطهر أرض الجزيرة من الرجس السعودي. الشيء الثاني أن عبد الناصر قال للملك فيصل في اجتماع في القاهرة عن حرب اليمن: "والله، يا جلالة الملك، الذي أوقعني في اليمن هو ده" (وأشار بإصبعه إلى السادات). "خذه إليك وابحث له عن عمل وخلصنا منه"[3].

إلا أن الملك يدرك أن الزعيم المصري الجديد ليس من مستوى عبد الناصر، وأن أهدافه الاستراتيجية الأساسية تتطابق حسب الظاهر مع توجهات فيصل السياسية، وهي العمل على انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، وتقليص الوجود السوفياتي إلى حده الأدنى، ووقف انزلاق الأقطار العربية إلى اليسار، وتأمين التعاون مع الولايات المتحدة.

كانت وفاة عبد الناصر بعد المرض العضال تعني نهاية عصر في العلاقات العربية السوفياتية أيضاً. فعندما أقدم عبد الناصر في الخمسينيات على خطوة جريئة للغاية، وأخذ يشتري السلاح السوفياتي متحدياً الغرب، لم يكن يتوقع أن مصيره السياسي شخصياً ومصير مصر في آخر أيامه سيكون مرتبطاً بموسكو أوثق ارتباط. جمال عبد الناصر كان يتمتع بمنزلة رفيعة واحترام كبير لدى الزعماء السوفيات، ما ساعده على إمرار العلاقات المصرية السوفياتية عبر العقبات والمطبات.

استشهد هنا بما قاله وزير خارجية الاتحاد السوفياتي الراحل أندريه غروميكو في مذكراته عن جمال عبد الناصر:

> لا أريد المبالغة في تقويم دور العامل الذاتي في ظروف الشرق الأوسط الملموسة، إلا

أنني أسمح لنفسي بالقول إن هذا الرجل لو كان قد عاش بضع سنوات أخرى لربما تغير الموقف في المنطقة[4].

الدعم السوفياتي أنقذ نظام عبد الناصر ثلاث مرات: في 1956م و1967م و1970م. وكان التعاون المصري السوفياتي قد بلغ نطاقاً غير مسبوق بالنسبة إلى "العالم الثالث"، سواء في الميدان العسكري أو الاقتصادي. وهو من الجهة الأخرى ألحق ضرراً بمصر لانقطاع بعض علاقاتها مع الغرب وقتياً، ونتيجة لنقل بعض عناصر النظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي السوفياتي إلى التربة المصرية، وهي التي كانت فاشلة، كما اتضح في ما بعد، في الاتحاد السوفياتي أيضاً.

لقد ذاق جمال عبد الناصر طعم الانتصارات وطعم الهزائم المريرة. إلا أنه رغم كل شيء كان في عداد عمالقة "العالم الثالث" إلى جانب نهرو وسوكارنو ونكروما الذين جسدوا عصراً كاملاً للتحرر من الهيمنة السياسية الغربية والانتقال إلى التعاون مع الاتحاد السوفياتي. كان ذلك العصر وزعماؤه وسياساته في تناقض لا يزال ينتظر التقويم النهائي. ولكن هل يمكن إعطاء تقويم "نهائي" للشخصيات التاريخية وللعملية التاريخية نفسها؟

بالنسبة إلى الملك فيصل كانت سياسة جمال عبد الناصر تعني توسع النفوذ السوفياتي في الشرق الأوسط

بسرعة، كما حصل أثناء حكم خروشوف على مدى عشر سنوات تقريباً وفي السنوات الأولى بعده.

كتب وليم لاكر في نهاية الستينيات يقول:

إن المواقع السوفياتية في الشرق الأوسط اليوم أقوى مما كانت عليه قبل 10 سنوات. حصل ذلك ليس نتيجة اقتحام سوفياتي أو تسلل متفنن. لقد غدا الاتحاد السوفياتي دولة شرق أوسطية بناءً على دعوة ضيافة...

لم يستولِ على بلد ولم يحاول أن يفرض النظام السياسي والاجتماعي الشيوعي من فوق. حدثت في بعض البلدان تبدلات، إلا أنها كانت نتيجة للغليان الداخلي لا للضغط الخارجي. لقد تزايد النفوذ السوفياتي لا بسبب نشر الإيديولوجية الشيوعية، بل نتيجة الجهود التي بذلت على مختلف المستويات لكسب الأصدقاء والتأثير على الناس من خلال القروض وإرساليات السلاح والدعم والمساعدات السياسية للأقطار العربية ضد الغرب وإسرائيل... وفي المقابل، لم يطالب الاتحاد السوفياتي بقواعد أو نفط ولا بولاء سياسي. كان مستعداً للتعاون مع الملوك والشيوخ ومع غُلاة الراديكاليين الثوريين. ولم يقف عائقاً أمامه من هذه

الناحية واقع أن بعض أولئك الزعماء كانوا من ألد أعداء الشيوعية... إسرائيل هي الاستثناء الوحيد، ولكن حتى في هذه الحالة لم تكن أسباب العداء السوفياتي لها عقائدية...

الأهداف السوفياتية في الشرق الأوسط يمكن استشفافها بسهولة. إنها إزاحة النفوذ الغربي من المنطقة وتقوية المواقع السوفياتية فيها على قدر الإمكان، فيما وُضعت تركيا وإيران على الحياد بقدر كبير[5].

يمكن إيراد عشرات الأقوال المشابهة، والصادرة عن شخصيات سياسية وباحثين في السياسة في الغرب وفي إسرائيل. ومن السهل الآن، بعد مضي أكثر من أربعين عاماً، دحض هذه الأقوال أو انتقادها. إلا أن الوضع فُهم على هذه الشاكلة بالذات في الغرب (باستثناءات نادرة) وفي الأقطار العربية وفي الاتحاد السوفياتي.

لم تكن القيادة السوفياتية تثق كثيراً بالرئيس المصري الجديد محمد أنور السادات، لكنها لم تتدخل في الصراع على السلطة في مصر بعد وفاة جمال عبد الناصر. وقد ظل موقف السادات ضعيفاً من دون نجاحات في قضية تحرير سيناء المحتلة من قبل

إسرائيل. ولذا دخل الرئيس المصري الجديد في لعبة مزدوجة.

فمن جهة تظاهر بأنه ماضٍ في تمتين العلاقات مع الاتحاد السوفياتي، فوقّع معه معاهدة الصداقة والتعاون في 15 مايو 1971م، وبذلك كان يأمل تزويد قواته المسلحة بأكبر قدر من السلاح السوفياتي من أجل المساومة المتوقعة. أما القيادة السوفياتية فكانت في حاجة إلى التظاهر ببقاء العلاقات السابقة، بل وإضفاء صفة رسمية عليها من أجل الحفاظ على ماء الوجه ومن أجل المساومة مع الولايات المتحدة.

ومن الجهة الأخرى أبلغ السادات الأميركيين والسعوديين أن هذه المعاهدة لا تعني التخلي عن الرغبة في التقارب مع الولايات المتحدة، بل على العكس تساعد على هذا التقارب لأنها تتخذ ستارة للمناورة.

أقام الرئيس المصري اتصالات مع الولايات المتحدة التي يفضّلها على غيرها في حقيقة الأمر. وجرت تلك الاتصالات من خلال وسطاء سعوديين في البداية، ثم من خلال الدوائر الأمنية المصرية. وكان يأمل أن تمارس واشنطن ضغطاً على إسرائيل وترغمها على التنازلات. وجرت مكاتبات بين السادات والرئيس الأميركي نيكسون، إلا أن وجود القوات السوفياتية في

مصر ظل يمثّل عقبة كأداء أمام التقارب مع الولايات المتحدة.

كتب يفغيني بريماكوف يقول:

> تقويم شخصية السادات وتحليل خطاباته الأولى ومعلومات المصادر السعودية، كل ذلك دفع الولايات المتحدة إلى محاولة جس النبض. فكلفت وزير خارجيتها روجرز بأن يلتقي وزير الخارجية المصري محمود رياض. وبعد هذا اللقاء الواعد مع محمود رياض وصل روجرز إلى القاهرة في مطلع مايو 1971، لمقابلة السادات نفسه هذه المرة[6].

ثمة ما يبرر القول بأن نيكسون ووزير خارجيته روجرز لم يكونا كلاهما يتوقعان أن أول لقاء مع الرئيس المصري الجديد سيكون مثمراً إلى هذا الحد بالنسبة إلى الولايات المتحدة. فقد سأل السادات روجرز أثناء لقائه معه وبمنتهى الصراحة: لم لا يتطرق روجرز إلى مسألة "الوجود السوفياتي في مصر"؟ وحصل روجرز، العارف بميول السادات واتجاهاته من خلال كمال أدهم، على فرصة نادرة للتأكد من صحة معلومات رئيس مكتب الاتصالات الخارجية السعودي كمال أدهم على لسان الرئيس المصري نفسه. فقد قال السادات لروجرز إن الخبراء السوفيات سيغادرون مصر بعد المرحلة

الأولى من انسحاب القوات الإسرائيلية من قناة السويس.

وفي الوقت ذاته كان السادات يكيل المديح بسخاء للاتحاد السوفياتي. ففي 10 يونيو 1971م أعلن في خطاب له:

> إننا تمسكنا ونتمسك بالصداقة العربية السوفياتية، ونعتقد أنها أدت وتؤدي دوراً كبيراً في مساعدتنا على مواصلة نضالنا ضد الاستعمار والإمبريالية[7].

ويواصل بريماكوف:

> لقد صدّق الكرملين هذا الكلام. وقال لي مدير مقر استخباراتنا الخارجية في القاهرة فاديم كيربيتشينكو إنه أبلغ المركز في موسكو رغبة السادات في تحويل وجهة سياسته. ولكن، كان من الصعب، وربما من المستحيل آنذاك، فتح ثغرة، مهما كانت الحجج وحتى الوقائع، في الجدار الذي أقامه الموقّعون على المعاهدة مع السادات، ومنهم رئيس هيئة رئاسة السوفيات الأعلى القوي جداً يومها في الاتحاد السوفياتي نيكولاي بودغورني الذي رافقه إلى القاهرة ووقّع المعاهدة معه وزير الخارجية أندريه

غروميكو وسكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي بونوماريوف[8].

على أي حال تباطأت إرساليات المعدات الحربية من الاتحاد السوفياتي إلى مصر. وفي يوليو 1971م أيّد أنور السادات جعفر النميري في إفشال محاولة انقلاب شيوعي في السودان. وازدادت الحساسية وسوء التفاهم بين موسكو والقاهرة، فزار السادات العاصمة السوفياتية في منتصف أكتوبر 1971م لتسوية الخلافات. وفي 1 فبراير و27 أبريل 1972م (قبيل لقاء بريجنيف ونيكسون) قام أنور السادات بزيارتين أخريين إلى موسكو.

واقتنع الرئيس المصري بأن الاتحاد السوفياتي لا ينوي التضحية بالانفراج الدولي من أجل إرضائه.

يقول السفير السوفياتي السابق في مصر فلاديمير فينوغرادوف:

> تعيّن على السادات أن يختار نهجاً استراتيجياً جديداً. ولعله أدرك أنه لن يسير مع الاتحاد السوفياتي بعيداً. فهو يعرف تحفظنا على شن العمليات الحربية. وكان موقفنا يتلخص في ضرورة مساعدة الأصدقاء. ولكن إذا كان ذلك سيقود إلى نزاع دولي فهل نحن في حاجة إليه؟ كلا.

يجب العمل بالطرق السياسية. السادات يعرف حججنا، وكان مستاءً منها ...[9]

كان السادات في عجلة من أمره، يريد أن يثبت لفيصل ولنيكسون أنه عازم على القطيعة مع موسكو. فقام بتمثيلية مسرحية عندما طرد المستشارين السوفيات ووحدات الدفاع الجوي السوفياتية من مصر شرّ طردة في يوليو 1972م.

قابلت موسكو تصرفه هذا بمشاعر متضاربة. كانت تلك بالطبع هزيمة سياسية، وتألمت القيادة السوفياتية لتصفية مواقع عسكرية في منطقة مهمة من الناحية الاستراتيجية مثل مصر. وحتى طريقة إخلاء العسكريين السوفيات كانت مهينة. أفلم يأتوا إلى مصر بطلب وإصرار منها؟ إلا أن موسكو في الوقت ذاته تنفست الصعداء. فقد تخلص الاتحاد السوفياتي من خطر الانجرار المباشر إلى نزاع حربي. لم يكن الأمل بالانفراج الدولي قد تبدّد بعد، فجاء قرار السادات ليزيل تلقائياً عقبة كأداء في علاقات الاتحاد السوفياتي مع الولايات المتحدة.

أنور السادات أولع في فتوته بلعبة النرد، حيث المهارة تجعل الخسائر في حدها الأدنى، لكن الفوز النهائي من نصيب الذي يحالفه الحظ في رمي المكعبين (الزهر). حياته كلها مسلسل من المغامرات، ابتداءً من

المشاركة في إحدى العمليات الإرهابية وانتهاءً بزيارة القدس. إلا أن لعبة النرد في عام 1972م كانت خاسرة.

كان كمال أدهم في زيارة للقاهرة عشية طرد العسكريين والمستشارين السوفيات. وفي تلك الأثناء وصل إلى مصر الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع والطيران السعودي، في طريق عودته إلى المملكة بعد مشاورات أجراها في واشنطن، حيث عرض مساعد وزير الخارجية الأميركي جوزيف سيسكو خدماته لدفع السادات إلى مفاوضات سلام مع إسرائيل. كان الكلام يدور عن مفاوضات بالذات، أي عن معاملة بالمثل: شيء مقابل شيء.

لقد أخذ نيكسون منذ العام الأول لولايته يفكر في إخراج مصر (وسورية إن أمكن) من المواجهة الحربية مع إسرائيل. كتب في مذكراته في ما بعد يقول: إن المسألة كان يمكن من حيث المبدأ أن تتناول "إعادة الأراضي المحتلة من قبل إسرائيل في مقابل ضمانات حرمة أراضي إسرائيل من جانب الأقطار العربية". ومع أن نيكسون يفهم استحالة تنفيذ مثل هذا المخطط بسبب رفض رئيسة الحكومة الإسرائيلية غولدا مائير لهذه الأفكار، إلا أنه كان يرى

> أن من المهم إبلاغ العالم العربي بأن الولايات المتحدة لا ترفض بصورة قطعية مطالبهم

في الأراضي المحتلة ولا تستبعد حلاً وسطاً لدعاوى الطرفين[10].

ويعني أن واشنطن ستكون "وسيطاً نزيها ومقبولاً لدى الطرفين". (لا ننسَ هنا أن المذكرات تصور أصحابها عادة بأنهم أبعد نظراً وأكثر حكمة).

كلف نيكسون هنري كيسنجر بتنظيم قناة اتصال مباشر غير رسمية مع السادات بالالتفاف على وزير الخارجية الأميركي روجرز. يقول نيكسون في يومياته في 3 فبراير 1973م عن هدفه:

> علينا أن نجد سبيلاً لتحريك الإسرائيليين من موقفهم الحديدي المتعنت... لا يمكن الكلام الآن إلا عن تسوية وسطية وقتية هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقدم عليه الإسرائيليون، فيما يضطر المصريون أو العرب إلى القبول به بعد أن نتعهد لهم بأننا سنبذل قصارى جهودنا لاحقاً لبلوغ تسوية شاملة... نحن لا نستطيع أن نتجاهل هذه المشكلة، علماً بأن مئة مليون عربي يكرهوننا، فيما يتصيّد في هذا الماء العكر ليس المتطرفون فقط، بل السوفيات طبعاً[11].

صار السادات يميل إلى فكرة الصفقة الانفرادية قبل الحرب العربية الإسرائيلية في 1973م. إلا أن الرئيس

المصري أبقى تلك الفكرة طيّ الكتمان، فأخفاها عن الحليفة المباشرة سورية وعن المملكة العربية السعودية.

بتوجيه مباشر من نيكسون، أجرى كيسنجر في فبراير 1973م اتصالاً سرياً، من دون علم روجرز، مع حافظ إسماعيل مساعد السادات لشؤون الأمن القومي الذي وصل إلى واشنطن آنذاك. إلا أن المصريين سرّبوا معلومات عن هذا اللقاء، فأغلقت قناة الاتصالات السرية. لقد اعتاد نيكسون وكيسنجر تنظيم كل الأمور الحساسة وذات الشأن الكبير في منتهى السرية، فيما لم يكن السادات على مستوى المسؤولية من هذه الناحية. ولذا بقيت مشكلة الشرق الأوسط أمداً طويلاً في أدراج البيت الأبيض.

يقول بندر الفيصل:

> الملك فيصل لا يحب التسرع. فلا يجوز في رأيه أن تتخذ القرار وتقلب الوضع ما بين يوم وليلة، لأنك أنت الذي ستخسر. إلا أن موقف السادات كان مفاجئاً حتى بالنسبة إلى الملك فيصل. لكن الشيء الذي جعل الملك فيصل يقف مع السادات هو موقف السادات من استرجاع سيناء. واستعادة سيناء هي بالنسبة إلى الملك فيصل الخطوة الأولى لاسترجاع القدس. الملك فيصل كان

يعتقد اعتقاداً تاماً بأنه لن يقوم شأن للعروبة في تلك الأيام إلا بمصر. وليس هناك دولة يمكن أن تواجه إسرائيل إلا مصر[12].

كان السادات لاعباً مغامراً طائشاً، كما أسلفنا. وقد رأى أن يثبت لواشنطن أنه مع أميركا قلباً وقالباً. أشار هنري كيسنجر في مذكراته إلى أنه لم يكن يعرف شيئاً عن مبادرة السادات، ولم تكن واشنطن مستعدة للرد عليها. وأحدث هذا الإخفاق خيبة أمل مشتركة لفيصل والسادات، على الرغم من أن العاهل السعودي الأكثر خبرة من الرئيس المصري كان يعرف الحوافز المحركة لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

لقد عاد السادات بخُفَّي حُنين بعد كل ما قدمه لواشنطن التي ربما كانت تتساءل: هل للخدمات قيمة بعد أن تم تقديمها على أي حال؟

ارتبك السادات وتردد عندما لم يتلقَّ أي "ثمن" في مقابل مبادرته المثيرة، لا من الولايات المتحدة ولا من إسرائيل، واهتز كرسي الرئاسة الذي يتربع عليه. كانت سلطته ضعيفة، وأخذ الرأي العام المصري المتأثر أصلاً بالإهانة الكبرى بعد نكسة 1967م يطالب بإجراءات حازمة وتحقيق نجاحات وإن كانت ضئيلة. فمال السادات إلى الحرب على مضض خائفاً متهيّباً. واقتضى ذلك يومها مواصلة التعاون مع الاتحاد السوفياتي.

واصل السادات اتصالاته مع الأميركيين، إلا أنه كلف وزير الحربية أحمد إسماعيل في ديسمبر 1972م بأن يبلغ السفير السوفياتي في القاهرة تمديد اتفاقية 1968م المصرية السوفياتية بشأن التسهيلات الحربية البحرية لخمس سنوات أخرى.

وظلت موسكو على أوهامها بشأن بقاء العلاقات "الخصوصية" مع مصر، ولذا انطلقت الإرساليات الحربية بالمقادير اللازمة، واستمر التعاون الاقتصادي.

في يناير 1973م أعلن فيصل تأييده للسادات في لقاء مجلس الدفاع العربي المشترك، ووافق على أن تصرف مصر المعونات السعودية على شراء "الأسلحة الشيوعية"، فيما كانت قيادة موسكو السوفياتية الطاعنة في السن، والمختلة العقل بسبب الشيخوخة، لا تزال تأمل بأن "السادات سينصلح" وأن "المصالح الوطنية لن تجعل مصر تعلن القطيعة مع الاتحاد السوفياتي".

كان غياب الخطوات الملموسة من قبل واشنطن، رداً على مبادرة السادات المثيرة، قد جعل فيصل يرتاب أكثر في الولايات المتحدة كطرف في التعاون. وكان يعلم أن السادات مضطر إلى التهيّؤ للحرب بعد أن دخل في علاقات تحالف ملموسة مع الرئيس السوري حافظ الأسد، فيما يفضّل فيصل الحل السياسي على شكل ضغوط أميركية على إسرائيل لإرغامها على البدء

بإخلاء الأراضي المحتلة. ولكن ما دامت إسرائيل لا تفهم غير منطق القوة، فلا مفر من الحرب إذن. وإذا كانت الولايات المتحدة لا تفهم سوى القوة، فإن هذه القوة بيده، وهي سلاح النفط. ما كان فيصل يريد استخدام هذا السلاح. كان يريد التعاون مع الولايات المتحدة ويأمل بتعقّلها وحكمتها إذا نشب النزاع، ويتوقع من واشنطن القيام بخطوات استباقية لتأمين التسوية في الشرق الأوسط.

إلا أن المملكة العربية السعودية ليس لها مكان في حسابات السياسة الأميركية، حتى لكأنها غير موجودة. قائمة مقالات الـ"نيويورك تايمز" التي أوردها روبرت ليسي في كتابه **المملكة** تبيّن أن الجريدة كتبت في عام 1968م عن ألبانيا ضعف ما كتبته عن المملكة العربية السعودية. وفي عام 1969م كتبت الجريدة عن ماليزيا أكثر مما كتبت عن السعودية بـ5 أو 6 مرات. وفي عام 1970م كتبت عن بورما أكثر مما كتبت عن المملكة بـ4 مرات. ولم تنشر مجلة الـ"تايم" عن المملكة العربية السعودية في عام 1969م سوى نبذة واحدة في نعي الملك سعود كرّستها أساساً لأمراضه وعدد زوجاته. أما المشرعون الأميركيون فكان اهتمامهم بالمملكة أقل من ذلك. فإذا راجعنا محاضر جلسات الانعقاد الثاني والتسعين للكونغرس الأميركي لعام 1972م، نجد أن ذكر المكسيك ورد فيها 23 مرة، وذكر كوبا 57 مرة

ودولة إسرائيل 150 مرة، ولم تذكر المملكة العربية السعودية سوى مرة واحدة!

الفصل الثاني والعشرون

عام 1973م: قبيل ساعة الصفر

مرت الشهور الواحد تلو الآخر، وبدا كأن طرد العسكريين السوفيات من مصر في يوليو 1972م قد جرد واشنطن سياسياً من حجة دعم إسرائيل. إلا أن موقفها لم يتبدل. كانت الحرب تقترب. إنها على الأبواب. وكان قلق فيصل يزداد لغياب التسوية عموماً في النزاع العربي الإسرائيلي.

واصلت الولايات المتحدة تزويد إسرائيل بالسلاح. وفي ما يخص الحلول الوسط للتسوية بين إسرائيل والعرب، كانت تتقدم بفرضيات واقتراحات لا غير. وأبلغ السادات فيصل أن الحرب هي المخرج الوحيد من الطريق المسدود، فوافق العاهل السعودي على هذا الرأي.

لم تكن الاستخبارات الإسرائيلية ولا وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية تعرفان بأن فيصل أيد بالكامل قرار السادات شنّ الحرب بعد أن رفضت الولايات المتحدة الضغط على إسرائيل. كان الملك السعودي يعتقد أن أساس الانتصارات الحربية الإسرائيلية السابقة هو السلاح الأجنبي، وأن حظر البترول أو التهديد باستخدامه يمكن أن يوقف إرساليات هذا السلاح.

وقال فيصل للسادات: أريدك أن تكون واثقاً بأنك عندما تقاتل ستواصل القتال[1].

أبدى الملك فيصل هذه الملاحظة بحضور الدكتور رشاد فرعون وباقي المستشارين، أثناء لقائه بأنور السادات في بداية 1973م. آنذاك بحثوا المسائل العامة المتعلقة بالحرب والحظر النفطي المتوقع، لكنّ الرئيس المصري كانت لديه مخططات أخرى أخفى أمرها عن الملك.

اتفق فيصل مع حكومات الخليج، وتمكن من أن يجمع في مطلع 1973م مئات الملايين الإضافية من الدولارات لتتمكن مصر من شراء المزيد من السلاح. إلا أن الملك كان يدرك صعوبة التكهن بنتائج العمليات الحربية وتأثيرها على الأوضاع الداخلية في الأقطار العربية، كما كان يتفهّم دوره هو في الحرب المرتقبة، حيث ينبغي للمملكة العربية السعودية أن تستخدم "سلاح النفط" إذا ساعدت الولايات المتحدة إسرائيل، في وقت كانت حالة السوق تشير آنذاك إلى أن وقف الصادرات النفطية السعودية الهائلة يوجّه ضربة قاسية إلى اقتصاد الغرب، ويمكن أن يسبب مجابهة بين المملكة والولايات المتحدة غير مرغوب فيها. وهذا بالذات ما كان الملك يريد تفاديه، فحاول بكل السبل أن يوصل رؤيته للمشكلة إلى القيادة الأميركية.

في منتصف يناير 1973م على وجه التقريب، طلب جون أوكونيل، النائب الأول لرئيس شركة "بيكتيل" (رئيسه سابقاً هو وزير الخزانة جورج شولتز) من شركة

"سوكال" تحليلاً للموقف في الشرق الأوسط من منظار أصحاب شركة أرامكو. وكانت "بيكتيل" حصلت في بلدان الجزيرة على عقود بمبالغ ضخمة، ويهمها أن تعرف مدى ضمانات مستقبلها. بعث رئيس مجلس الإدارة في شركة أرامكو فرانك جانغرز إلى جون ماكنين مدير قسم "سوكال" للشرق الأوسط في سان فرنسيسكو ببرقية تضمنت تحليل الموقف في المنطقة، وحذره على أي حال من

> أن كل المعلومات الواردة أدناه يجب أن تطبع على ورق عادي من دون استمارة أرامكو ومن دون أي إشارة إلى شركتنا.

أكد جانغرز في برقيته أن الولايات المتحدة فوّتت فرصة البدء بعملية التسوية في الشرق الأوسط بعد طرد المستشارين العسكريين السوفيات من مصر. وكتب يقول:

> لم تتمكن الولايات المتحدة المشلولة بمجريات الحملة الانتخابية (أو لم ترغب) في الاستفادة من فرصة لعلها أكثر الفرص ملاءمة لحل مشكلة الشرق الأوسط توفرت في الأربعة والعشرين عاماً التي مرت على تأسيس دولة إسرائيل[2].

كان محلّلو أرامكو يعتقدون أن الموقف في المنطقة في بداية عام 1973م بدا كالحاً في ما يخص مصالح الولايات المتحدة:

الصحافة السورية شددت تهجماتها على الولايات المتحدة، والرئيس العراقي أحمد حسن البكر تحدث في إحدى الندوات أخيراً عن قضايا استخدام النفط سلاحاً وقال: إننا نستطيع الآن استخدام النفط العربي في جميع معاركنا ضد الأعداء الإمبرياليين، فيما دعا المؤتمر الدولي الذي عقدته الاتحادات النقابية العربية في ديسمبر إلى المقاطعة الاقتصادية التامة للولايات المتحدة، وطالب الحكومات العربية بأن تبدأ مقاومة المصالح الأميركية في العالم العربي بأسره. وفي الشهر الماضي بحث المجلس الاقتصادي لجامعة الدول العربية في القاهرة إمكان استخدام النفط العربي سلاحاً ضد الولايات المتحدة، فيما ناشدت إحدى الجرائد المصرية الشعب العربي مقاطعة مصالح الولايات المتحدة والأميركيين في العالم العربي أجمع.

ويشير جانغرز إلى أن هذه الدعوات كانت في السابق غير فاعلة في الغالب، إلا أن الأقطار العربية في الوقت الحاضر تشدد الضغط على المملكة العربية السعودية لإرغامها على التخلي عن سياستها الودية تجاه الولايات المتحدة.

إن الموقف السعودي لا يمكن أن تغيّره إلا حرب عربية إسرائيلية جديدة، أو عمليات أميركية سافرة

موالية لإسرائيل.

ولو حصل شيء من هذا القبيل فقد تمتنع المملكة العربية السعودية عن تصدير النفط إلى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية. فالموارد المالية التي تعادل واردات ثلاثة أو أربعة أعوام تمكّنها تماماً من عدم الخوف على رفاهها، ومن الإقدام على مثل هذه الخطوة إذا دفعتها إسرائيل وإذا دفعناها نحن إلى ذلك.

وأفادت مصادر موثوقة بأن أوكونيل سلّم تحليل الموقف هذا إلى جورج شولتز وزير الخزانة الأميركي، فأطلع الأخير البيت الأبيض عليه، أي إنه عرضه إما على ريتشارد نيكسون أو على هنري كيسنجر مستشار الأمن القومي، وهذا هو الاحتمال الأقوى، أو وليم روجرز وزير الخارجية آنذاك، في أقل تقدير.

لم يكن لهذا التقرير التحليلي أي تأثير على السياسة الأميركية، رغم ازدياد مؤشرات احتمال استخدام العرب لـ"سلاح النفط" في حال نشوب حرب عربية إسرائيلية جديدة.

في السادس من يناير 1973م اتخذ مجلس الأمة الكويتي قراراً يوصي باستخدام النفط سلاحاً في مكافحة إسرائيل، وناشد المجلس باقي الأقطار العربية تعليق اتفاقياتها القائمة مع شركات النفط الغربية حالما يبدأ الكفاح المسلح ضد العدو الصهيوني.

وفي مارس عقد أمير الكويت مؤتمراً صحافياً أكد فيه على الملأ من جديد ثبات النهج السياسي لبلاده. وقال: عندما يحين الوقت سنستخدم نفطنا سلاحاً في محاربة إسرائيل. وهذا هو موقفنا الثابت.

ونشرت الصحف الأميركية هذا التصريح. ولم يصدر ردّ فعل عليه.

في 15 مايو أوقفت ليبيا تصدير النفط ليوم واحد لتخلق سابقة رمزية لجيرانها وتحذر المستهلكين الغربيين مما يمكن أن ينتظرهم.

كان الملك فيصل حذراً متنبهاً، ظل حتى اللحظة الأخيرة يأمل الأفضل ويعمل بالتي هي أحسن. وحتى عندما كان يسدد النفقات العسكرية الإضافية لأنور السادات، حاول أن يدفع الولايات المتحدة إلى القيام بما يبعد خطر اندلاع حرب جديدة.

في أبريل 1973م استدعى الملك فيصل أحمد زكي يماني ونجله سعود الفيصل وكلفهما بالسفر إلى واشنطن لنقل وجهة نظره إلى كبار المسؤولين في الإدارة الأميركية، مع وعود وتحذيرات. فأثناء المفاوضات التي كانت قد جرت في عام 1972م بشأن المشاركة السعودية في أصول أرامكو، أكد فيصل أنه يستطيع أن يزيد إنتاج النفط إلى مستوى غير مسبوق، إلى 20 مليون برميل في اليوم (حوالى مليار طن من النفط سنوياً) بحلول الثمانينيات. ولكن زيادة الاستخراج ستتوقف إذا لم تتخذ الولايات المتحدة التدابير اللازمة لحل عادل للمشكلة الفلسطينية

ولاسترجاع المقدسات الإسلامية في القدس الشريف. فالصداقة طريق ذو اتجاهين، ولا بد منهما كليهما.

التقى اليماني وسعود الفيصل في واشنطن كلاً من روجرز وشولتز وكيسنجر، ونقلا لهم فحوى رسالة الملك فيصل التي لا تقبل معنيين: يطيب لي أن نتعاون معكم، ونحن نعتبر أنفسنا أصدقاءً لكم. ولكنكم ينبغي أن تقوموا بشيء ما لحل النزاع العربي الإسرائيلي، فلا تتركوا الأحداث تسير على هواها. واقع الأمور الحالي غير مقبول بالنسبة إلينا، وينبغي أن تجدوا سبيلاً لحل النزاع، وإلا فسنضطر إلى التخلي عن التعاون معكم، وإلى استخدام النفط وسيلة لحل الخلاف. كان فيصل يقصد بواقع الأمور الحالي سلبية إدارة نيكسون إزاء النزاع في الشرق الأوسط.

لهجة الرسالة أثارت قلق كيسنجر. فقال: "أعتقد أن بيانكم هذا يجب ألا يقع في يد أحد. وآمل أنكم لم تخبروا أحداً به"[3].

أصيب كيسنجر بخيبة أمل عندما عرف أنه ثالث شخص نقلت إليه رسالة الملك فيصل، إلا أنه أصرّ على بقاء مضمونها في الكتمان.

وتصور أحمد زكي يماني وسعود الفيصل أن كيسنجر يريد التخفيف من مؤشر الخطر الذي أطلقه الملك فيصل والحيلولة دون ارتياب الرأي العام الأميركي بصحة سياسة واشنطن الموالية لإسرائيل، فعملا خلافاً لنصيحة كيسنجر وعرضا موقف الملك بأكبر قدر من العلانية. قال يماني في مقابلة مع الـ"واشنطن بوست":

سنجتاز الطريق إلى آخره لنساعدكم. ونأمل المعاملة بالمثل. لكن ينبغي لأميركا أن تكون أكثر موضوعية في علاقاتها مع إسرائيل ومع العرب.

وكتبت الـ"واشنطن بوست":

> هذه هي المرة الأولى التي تربط بها المملكة العربية السعودية كدولة نفطية عظمى علناً بين إرساليات نفطها إلى الولايات المتحدة وبين سياسة واشنطن في الشرق الأوسط.

ولم يكن لمقابلة يماني مع الجريدة أثر. ففي اليوم التالي كتبت الجريدة نفسها في افتتاحيتها تقول: "إذا حملنا تهديدات المملكة العربية السعودية هذه على محمل الجد، فذلك يعني الوقوع في هستيريا". وكانت الإدارة الأميركية من هذا الرأي أيضاً[4].

قال أحمد زكي يماني: ... أثار تسريب المعلومات هذا بعض الاهتمام، وطلب عدد من الصحافيين تأكيدات بخصوصها من وزارة الخارجية الأميركية. إلا أن السكرتير الصحافي للوزارة أجاب عن السؤال بشأن زيارتي قائلاً: "يماني لا يعبّر عن وجهة نظر الملك ولا المملكة العربية السعودية". فأنا حسب تصريح السكرتير الصحافي أعبّر عن رأيي الشخصي فقط...

كان المسؤولون في واشنطن يعرفون أن الملك فيصل زعيم حذر للغاية، فراودهم الأمل بأنه لن يقلب القارب الذي هم فيه جميعاً.

بعد أيام، عندما التقى يماني الملك فيصل في مكتبه على انفراد، فتح الملك الراديو على نشرة أخبار الإذاعة

البريطانية المسائية، ثم "صوت أميركا". وعندما سمع بيان الخارجية الأميركية ابتسم وقال ساخراً: إذا لم أعبّر أنا عن وجهة نظر المملكة فمن يعبّر عنها؟

في 3 مايو 1973م قام فرانك جانغرز بزيارة مجاملة إلى الملك فيصل. وحضر اللقاء الذي استغرق 30 دقيقة أحمد زكي يماني ووزير الدولة للشؤون الخارجية عمر السقاف.

عرض الملك آراءه في شأن السياسة الأميركية في منطقة الشرق الأوسط.

وكتب جانغرز في هذا الخصوص في ما بعد يقول:

> ذكر فيصل أن المملكة العربية السعودية لم تعد قادرة بعد الآن على تأييدنا لوحدها. وتطرق على عجل إلى الموضوع المعتاد بشأن المؤامرة على العرب، لكنه أكد أن الصهيونية وكذلك الشيوعيين سيصلون بالأمور إلى وضع لن يتمكن فيه الأميركيون من حماية مصالحهم في الشرق الأوسط. والشيء غير المعتاد في هذا اللقاء الذي كان مختلفاً تماماً عن لقاءاتنا السابقة ليس تناول القضية الإسرائيلية الصهيونية الشيوعية، بل المطالبة الدقيقة والمبررة باتخاذ تدابير حازمة من شأنها أن تغيّر سير الأحداث.

لقد حمل جانغرز تحذيرات فيصل على محمل الجد، وذلك لأنه يعرف أن الملك لا يلقي الكلام على عواهنه أبداً. فأوصل إلى مديري "تكساكو" و"موبيل"

و"إكسون" و"سوكال" حالاً فحوى مطالب الملك فيصل. كتب في ما بعد يقول: "كان علينا أن نقوم بشيء ما، أو على الأقل نثبت أننا نحاول القيام بشيء". لقد فهم جانغرز كلام فيصل على النحو الآتي:

> احترام المصالح الأميركية في الشرقين الأدنى والأوسط، وكذلك متانة مواقع المملكة العربية السعودية في العالم العربي يتلاشيان يوماً بعد يوم. وما دامت حكومة الولايات المتحدة ترفض تقديم الدعم الفاعل للمملكة العربية السعودية، فإن العزلة تنتظرنا بين أصدقائنا العرب، فيما صاحب الجلالة لا يقبل بذلك... إنكم تجازفون بفقدان كل ما تملكون.

في ربيع وصيف 1973م خيّم على الجو احتمال صدام حربي بين مصر وإسرائيل. وقد عبّأ الإسرائيليون قواتهم مرتين خوفاً من حرب يوشك المصريون على شنّها، لكنهم تصوروا أخيراً أن السادات يراوغ.

في مايو 1973م قال كمال أدهم للسيد فرانك جانغرز إن أنور السادات يمكن أن يبدأ العمليات الحربية في القريب العاجل، كما يعتقد. وإذا بدأها فإن المملكة العربية السعودية، كما قال أدهم، لن تبقى متفرجة. وهذا ينطوي على خطر فتاك بالنسبة إلى المصالح الأميركية. كان جانغرز واثقاً من أن صهر الملك ينقل إليه رأي الملك. كتب جانغرز في ما بعد:

أعرف أن ذلك يعني الحرب. فالملك يحب إعطاء الإشارات بحذر في البداية، ثم على المكشوف. وكان هذا التحذير يختلف كثيراً عن سابقاته[5].

كان فيصل يعتقد أن أصحاب أرامكو يمتلكون وزناً ونفوذاً وارتباطات كافية لإيصال ما يقلقه ويشغل باله إلى الأصعدة العليا في الإدارة الأميركية. ويتذكر أن ممثلي الشركات النفطية في عام 1948م عارضوا تأسيس دولة إسرائيل ومارسوا مع وزارتي الخارجية والدفاع ضغوطاً على إدارة ترومان كي لا تعترف بالدولة العبرية خشية حصول ردود فعل سلبية من البلاد العربية، وخصوصاً المملكة العربية السعودية. إلا أن تحركهم ذاك لم يؤدّ إلى نتيجة.

وفي يونيو 1967م أيضاً اتخذت أرامكو موقفاً مؤيداً للسعودية وللعرب عموماً.

وهذه المرة رأى الملك فيصل أن يضغط على الموضع الأكثر إيلاماً بالنسبة إلى أصحاب أرامكو ويحذرهم من احتمال فقدانهم امتياز النفط إذا بقيت الولايات المتحدة من دون أن تحرك ساكناً.

في مايو 1973م، وأثناء زيارته للقاهرة، تحدث الملك فيصل مع الرئيس أنور السادات على انفراد طوال ساعة.

وبعد ذلك قال رشاد فرعون للملك: يبدو أنكما اتخذتما قراراً ما. هل أستطيع أن أتحدث عنه؟ إنه قرار مهم جداً وخطير[6]!

إلا أن الملك لم يتفوّه بكلمة، ولم يبتسم.

في 23 مايو ذاته، بعد زيارته لفرنسا، وصل الملك فيصل إلى جنيف، ونزل في فندق "إنتركونتيننتل" الذي التقى فيه أحمد زكي يماني بجانغرز وبممثلي اللجنة التنفيذية للشركات النفطية. وكان الملك على علم بقرار أنور السادات وحافظ الأسد ببدء الحرب ضد إسرائيل في الأشهر القريبة المقبلة، ولذا أراد للإدارة الأميركية أن تدرك مدى خطورة تطور الأحداث على هذه الصورة.

أبلغ يماني جانغرز أن الملك يريد التحدث إليه وإلى ممثلي الشركات النفطية، فوافق الرجل في الحال. كان مع الملك فيصل وزير الدفاع والطيران الأمير سلطان، وحضر اللقاء مع رئيس أرامكو جانغرز كل من ايل دكرين عن "تكساكو" وجاك هيدلوند عن "إكسون" وجيرالد موزيس عن "موبيل" وجونس ماك كوين عن "سوكال"، وكذلك سكرتير اللجنة التنفيذية للشركات النفطية الأربع جو جونسون.

التاريخ الرسمي لأرامكو يورد مضمون اللقاء على النحو الآتي تقريباً:

> جاء الملك من داخل القاعة الرخامية بزيّه العربي وقال: الحرب تقترب، وعندما تبدأ بودي أن أحمي أرامكو من الغضبة العربية التي لا مفر منها.
>
> فقال له جانغرز: هل يعتقد صاحب الجلالة أن أرامكو ذات حول وقوة في أوساط الحكومة الأميركية؟

فتظاهر فيصل بأنه لم يسمع هذه الملاحظة وواصل قائلاً: مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط في أمان نسبي في المملكة فقط. ولكن حتى في مملكتي يغدو من الصعب الوقوف في وجه موجة الغضب بسبب دعم الحكومة الأميركية لإسرائيل. وسيبقى امتياز أرامكو في خطر ما لم تبدل الولايات المتحدة سياستها الشرق أوسطية. أصحاب امتياز أرامكو لا يفعلون شيئاً، وسنرى كيف سيأسفون على ذلك.

وقال فيصل إنه قلق بسبب اللامبالاة التي رفضت بها واشنطن رسالته الواضحة التي حملها أحمد زكي يماني، وقد أملى الرسالة بنفسه كلمة كلمة.

واختتم الملك اللقاء بعبارة شديدة اللهجة: يجب اتخاذ الإجراءات فوراً وإلا فسيضيع كل شيء[7].

وإليكم رواية أحمد زكي يماني لمضمون هذا اللقاء المهم:

... قال لهم الملك فيصل بالحرف الواحد بلّغوا حكومتكم بأنها إذا لم تفعل شيئاً ولم تبذل جهداً لتسوية النزاع في الشرق الأوسط فإن المصالح الأميركية ستتعرض لضرر ملموس... الملك لم يهددهم بالتأميم.

كل ما في الأمر أنه حذرهم بأن لصبرنا نهاية. كان موقفه ودياً للغاية. وقال لهم: اعملوا معروفاً وبلغوا حكومتكم في واشنطن أننا نعتبر أنفسنا أصدقاءً لكم ونريد الحفاظ على هذه الصداقة. لكن الموقف في الشرق الأوسط يقترب يوماً بعد يوم من النقطة الحرجة، وعلى واشنطن أن تتخذ خطوات تمكننا من الاستمرار في بناء سياستنا النفطية على أساس ودّي، وإلا فأرجو أن لا تزعلوا. قال ذلك، ولم يقل أكثر منه. نعم قال ذلك فقط أو شيئاً شبيهاً بذلك.

وفي كل الأحوال، كان منطق فيصل واضحاً للغاية.

في العشرين من مايو أورد نائب رئيس أرامكو ج. ماكلين الذي حضر اللقاء، في مذكرة رفعها إلى إدارة الشركة النفطية، مغزى أقوال الملك فيصل على النحو الآتي:

ستضيّعون كل شيء (وأوضح أن الخطر يخيم على الامتياز). وعلينا، نحن الشركات النفطية: أولاً أن نطلع الرأي العام الأميركي على المصالح الحقيقية للولايات المتحدة في المنطقة (فهو الآن مضلل بوسائل الإعلام الخاضعة للرقابة)، وثانياً أن نطلع زعماء الدولة على ذلك، وبكل سرعة[8].

وأخذت تشارك في الضغوط في الاتجاه المطلوب شركات أخرى تمارس الأعمال في المملكة العربية السعودية.

كان فيصل يتابع ذلك كله. وفي 10 يوليو تسلمت الشركات النفطية من خلال أحمد زكي يماني تقويم الملك لنشاطها. ففي رأيه إن خطوة إيجابية قد حصلت، لكنها في الواقع مجرد بداية.

في 26 يوليو طالب رئيس مجلس إدارة "سوكال" أوتو ميلر الحكومة الأميركية بأن تغيّر سياستها في العالم العربي، ووزع رسالة عن موقفه على 160 ألفاً من أصحاب أسهم الشركة و40 ألف مستخدم فيها. وفي 2 أغسطس سلّم ميلر نسخة من الرسالة إلى أحمد زكي يماني، ونشرتها الجرائد السعودية على صفحاتها الأولى في 5 و6 أغسطس. وبدأت مراكز الضغط الإسرائيلية حملة على ميلر.

في 9 أغسطس كان المفروض أن يلقي ميلر كلمة في أحد فنادق نيويورك. وجاء إلى الفندق أعضاء المنظمة المتطرفة "رابطة الدفاع عن اليهود" ونظّموا تظاهرة صاخبة وكادوا يشتبكون في شجار مع حاشية ميلر. وكتبت الصحف الأميركية عن ذلك. وأدرك فيصل أن الشركات النفطية تعمل بجد. ولكن هل سيعود نشاطها بالثمار المنشودة، بالتسوية في الشرق الأوسط وعودة القدس الشريف؟

قرر مديرو الشركات أن يثبتوا للملك فيصل أنهم يعملون في إطار حماية المصالح العربية ووفقاً للنهج

السياسي للمملكة العربية السعودية. وكان سهلاً عليهم أن يفعلوا ذلك، لأن التسوية العادلة للنزاع العربي الإسرائيلي وتخلي الإدارة الأميركية عن التوجهات الموالية لإسرائيل يستجيبان في اعتقادهم للمصالح الوطنية الأميركية نفسها، ويعززان مواقع الولايات المتحدة في العالم العربي المترامي الأطراف. إلا أنهم يدركون تماماً ردّ الفعل الذي سيصدر عن اللوبي الصهيوني ومراكز الضغط الموالية لإسرائيل على ما يفعلون.

أخذ مديرو الشركات المالكة لأرامكو يلتقون كبار رجال الأعمال الأميركيين في الولايات المتحدة. فزاروا مقار الشركات الكبرى في البلاد. تناولوا طعام الفطور مع هنري فورد (الابن) وتوم ميرفي رئيس شركة "جنرال موتورز"، والتقوا رئيس "الآي بي أم" ومديري أكبر البنوك، بما فيها "بنك أوف أميركا" و"سيتي كوربوريشين" وكبار الصناعيين، ومنهم رئيس شركة "جنرال إليكتريك". وأصغى معظم الذين التقوهم إلى حججهم بتفهّم كبير. إلا أن الرئيس نيكسون وكيسنجر لم يعطيا هذه التحذيرات أذناً صاغية.

ولإيصال وجهة نظر فيصل إلى الأميركيين، أو لتهدئة السعوديين على الأقل، اشترت "موبيل" مساحة إعلانية واسعة في الـ"نيويورك تايمز" ونشرت بياناً جاء فيه أن أميركا تعتمد على النفط السعودي، إلا أن العلاقات الأميركية السعودية تنحدر من سيّئ إلى أسوأ. وستستمر الحال على هذا المنوال ما لم تتخذ الولايات

المتحدة خطوات فاعلة حقاً لإحلال السلام في الشرق الأوسط. وإذا لم يتحقق ذلك، كما جاء في تحذير أصحاب البيان، "فإن العوامل السياسية يمكن أن تغدو المعيار الرئيس للقرارات التي ستتخذها المملكة العربية السعودية".

وتردد ديكرين وهيدلوند وماك كوين وموزيس وجونسون على مكاتب البيت الأبيض ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع، وفي نيتهم أن يطلعوا كبار المسؤولين في الإدارة الأميركية على أقوال الملك فيصل. ورغم "العناية والاهتمام بالمعلومات والاعتراف بوجود المشكلة" يتضح من التقرير الرسمي الذي وضعته أرامكو

> أن واشنطن لا تصدق بأن المملكة العربية السعودية يمكن أن تتخذ إجراءً حازماً، ولا ترى ضرورة لاتخاذ تدابير إضافية لمنع ذلك زيادة على التدابير المعتادة.

لم يتمكن ممثلو الشركات النفطية من مقابلة زعماء البلاد الرئيسيين. فلم يلتقوا كيسنجر ولا الرئيس الأميركي. وفي جميع الدوائر التي زاروها تحدث إليهم مسؤولون من الصعيد المتوسط. وقد توصلت الأصعدة السلطوية العليا في الولايات المتحدة إلى استنتاج مفاده أن الملك العجوز يراوغ! وكانت تلك أيضاً وجهة نظر وزارة الخارجية، والمسؤول عن شؤون الشرق الأوسط جوزيف سيسكو شخصياً. وقد أبلغه رجال وكالة الاستخبارات المركزية عن الضغوط التي زعموا

أن أنور السادات مارسها على الملك السعودي لكي يدعم الجهود المصرية الرامية إلى استعادة سيناء المحتلة. وكان محلّلو وزارة الخارجية الأميركية يعتقدون أن فيصل يطلق التهديدات من أجل تهدئة مصر فقط ولن ينفذها مطلقاً. وحالت الغشاوة التي أعمت أبصار الجميع في أميركا دون إعطاء تقويم صحيح لنوعية العلاقات الجديدة بين زعيمي مصر والمملكة العربية السعودية.

حظي جانغرز فور عودته إلى الرياض بمقابلة الملك فيصل، وحدثه عن كل ما قام به هو وكبار رجال الأعمال. فسأله الملك عن ردّ فعل المسؤولين الأميركيين، فقال جانغرز أن ردّ فعلهم على حججه جيد جداً. وأشار إلى أن الشركات المالكة لأرامكو، وخصوصاً "موبيل"، حاولت أن توصل وجهة نظر المملكة العربية السعودية إلى أكبر عدد ممكن من المسؤولين في أميركا[9].

وكان لا بد لجانغرز أن يزيّن الأمور أمام الملك فيصل.

ثم إن الملك نفسه انضم إلى الحملة الدعائية. وتلقى مراسلا "كرستيان سانيس مونيتور" والـ"واشنطن بوست" دعوة إلى الطائف، وقال فيصل في حديثه إليهما بكل وضوح إن التحذير الموجه إلى الولايات المتحدة صادر عنه شخصياً، وكرر ما قاله يماني والأمير سعود لكل من كيسنجر وشولتز وروجرز.

ولم يصدر ردّ بهذا الشأن.

في مقابلة مع مجلة "نيوزويك" قال أحمد زكي يماني، وهو يعبّر عن رأي الملك فيصل:... حان الوقت لكي تفهم الولايات المتحدة أن المملكة العربية السعودية تشغل في الاقتصاد العالمي مكانة خصوصية تماماً... فلا تنسوا ما في أيدينا من مجوهرات...

كان مغزى هذا الكلام واضحاً: المملكة التي في حيازتها مثل هذه الاحتياطيات الهائلة من النفط، وهذه القدرات الإنتاجية الضخمة، تستطيع أن تتكفل بضمان الاستقرار في السوق العالمي. إلا أن هذا الكلام يعني ضمناً أن المملكة العربية السعودية يمكن بسهولة أن تعكر استقرار الأسواق إذا اقتضى الموقف السياسي.

وسأل مراسل "نيوزويك" أحمد زكي يماني بصراحة عن احتمال استخدام سلاح البترول، فجاء الجواب لا لبس فيه ولا يحتمل معنيين: نحن لا ننظر إلى مستقبل البترول بمثابة قوة تدميرية. ونعتقد أن الأفضل بالنسبة إلى العرب جعله أساساً للتعاون الحقيقي مع الغرب ومع الولايات المتحدة في المقام الأول. في ودّنا لو استخدم البترول لأغراض البناء وليس التدمير...

في اليوم الذي نشرت فيه "نيوزويك" المقابلة صدرت مجلة "بتروليوم إنتيليجنس ويكلي" الأسبوعية الحسنة الاطلاع وفيها مقابلة مع نائب يماني الأمير سعود الفيصل.

عندما عاد سعود الفيصل في منتصف الستينيات حاملاً شهادة التخرج في الكلية الاقتصادية بجامعة برنستون، طلب منه أحمد زكي يماني أن يعمل معه،

فاستأذن والده الملك في ذلك، فقال له: أنا ليس لي دخل في ذلك، عليك أن تفعل ما تشاء. وفي ما بعد تولى سعود منصب وكيل وزارة البترول والثروة المعدنية، ثم وزير خارجية المملكة. وهو يعتبر من أكثر رموز القيادة السعودية موهبة وأهلية.

ذكر الأمير سعود في مقابلته مع المجلة: الكل يقولون إننا لا نجيد التفريق بين البترول والسياسة. وأنا لا أفهم أبداً لماذا يقولون ذلك.

وكانت واشنطن لا تزال على أوهامها اللامعقولة.

أخذ جون ماكلوي، وهو من أشهر المحامين في الولايات المتحدة، يدافع عن الشركات النفطية. وقد سبق له أن شغل الكثير من المناصب المتنفذة في قمة هرم السلطة؛ فكان مفوضاً أعلى للولايات المتحدة في ألمانيا إبان الحرب العالمية الثانية وبعدها، وكبير المديرين التنفيذيين لـ"تشيز مانهاتن بنك"، ورئيساً لصندوق فورد ومديراً للبنك العالمي. وعمل مستشاراً للرؤساء روزفلت وترومان وأيزنهاور وكندي. وفي 9 أغسطس 1973م التقى ماكلوي، هو وممثلو 10 شركات نفطية، نائب وزير الخارجية الأميركي وليم كيزي وحذروه من أن مواقع الولايات المتحدة في العالم العربي بدأت تضعف.

وراح ممثلو أرامكو يعطون إيجازات إلى الصحافة وإلى رجال الأعمال والأوساط الجامعية. ومغزى كلماتهم أن أزمة الطاقة تقترب، وأن سياسة الولايات المتحدة الموالية لإسرائيل "تنسف المواقع الأميركية

في العالم العربي" وتقوّي النفوذ السوفياتي. وانضمت إلى مؤازري العرب في أميركا إدارة الشركة الإنشائية العملاقة "بيكتيل".

ونشرت في الصحف الأميركية إعلانات مدفوعة الثمن تعرض هذا الموقف.

في 27 أغسطس التقى جانغرز أحمد زكي يماني في الظهران لبحث رغبة الملك الملحة في التأثير على سياسة الولايات المتحدة. وجاء في التقرير السري عن حصيلة هذا اللقاء

> أن الملك يشعر بمسؤوليته الشخصية عمّا يجري، ويدرك أن نفطه يمكن أن يغدو الآن سلاحاً فعالاً. وإلى ذلك، يتعرض الملك لضغوط متواصلة من الرأي العام العربي والزعماء العرب، وخصوصاً أنور السادات. صبر الملك فيصل يكاد ينفد.

وأفاد جانغرز أن الملك طلب من اليماني أن يرفع إليه بانتظام تقارير تفصيلية عن الأحوال الجارية في الشركة وعن خطط توسيع الاستخراج وعن التأثير المحتمل لتقليص إنتاج النفط على المستهلكين في الولايات المتحدة. كذلك استفسر منه عن التأثير الذي يمكن أن يتركه تقليص كميات النفط التي تستخرجها أرامكو بمليون برميل يومياً، علماً بأن الملك لم يكن يدقق في مثل هذه التفاصيل سابقاً.

كان فيصل يعلم أن الإدارة الأميركية لم تستجب لمبادرته بأي حال، ونشاط أرامكو يلاقي تغطية سلبية

جداً في الصحافة الأميركية، والكثيرون، بمن فيهم مسؤولو وزارة الخارجية، يعتقدون أن تلك حملة لا لزوم لها.

وفضلت واشنطن أن تتجاهل الإشارات الواردة من باقي الأقطار العربية أيضاً.

ففي يونيو، أمّم الليبيون شركة "بانكر هانت أويل كومباني"، فيما وصف أنور السادات هذا الإجراء بأنه بداية المعركة ضد المصالح الأميركية في الشرق الأوسط.

وأعقب ذلك تصريح حاكم إمارة أبو ظبي الذي قال: إننا سنستخدم سلاح النفط من دون تردد في المعركة المصيرية المرتقبة.

كذلك أدلى نائب رئيس مجلس قيادة الثورة في العراق صدام حسين بتصريح قال فيه: إن النزاع المسلح يمكن أن يتحول إلى فتيل يشعل النفط.

في 23 أغسطس وصل أنور السادات بالطائرة إلى الرياض للقاء سري مع الملك فيصل، وأبلغه بداية الحرب المقبلة من دون أن يذكر له الموعد.

رافق الرئيس المصري أثناء مكوثه في الرياض هشام ناظر وزير التخطيط في المملكة آنذاك. وفي الطريق إلى قصر الضيافة بعد المحادثات، اعترف السادات لهشام ناظر قائلاً: بعد الحديث مع الملك فيصل شعرت بأن جزءاً من العبء الثقيل أزيح عن كتفي[10].

وإليكم ما كتبه السادات نفسه عن هذا اللقاء: قال فيصل عندي رجاء واحد، إذا كنت ستشن الحرب لا

توقفها بعد بضع ساعات أو أيام. فلتكن معركة طويلة، لأنها إذا كانت طويلة سنتمكن من صياغة موقف عربي موحد...[11].

كان أشرف مروان، صهر الرئيس جمال عبد الناصر (الذي غدا في ما بعد رجل أعمال استقر في لندن وتوفي هناك في ظروف غامضة) الشاهد الوحيد على حديث السادات وفيصل.

يقول أشرف مروان: كنا نعتقد بضرورة إبلاغ الملك فيصل بنيّاتنا، لأنه كان الزعيم الأكثر احتراماً والأكبر نفوذاً في منطقة الخليج. الرئيس عبد الناصر حارب فيصل في اليمن في زمن ما، وكانت بينهما عداوة. إلا أن ذلك لم يمنع الرئيس المصري الراحل من احترام الملك فيصل. وكان طبيعياً بالنسبة إلى الرئيس السادات أن يطلع العاهل السعودي على مخططاتنا، إلا أنه لم يخبره متى تبدأ الحرب. ليس بسبب الخوف من أن يبلغ السعوديون الأميركيين، فيحذر هؤلاء إسرائيل بدورهم. كلا. كل ما في الأمر أنه لم يكن هناك داعٍ للدخول في التفاصيل. ما أردناه هو أن نبلغ أننا ننوي البدء بالحرب. وقال السادات لفيصل إن ذلك سيحصل قريباً، قريباً جداً، لكنه لم يذكر تاريخاً محدداً...

في 2 سبتمبر 1973م أجرت شبكة "أن بي سي" التلفزيونية مقابلة مع الملك فيصل قال فيها: يقلقنا جداً أن الولايات المتحدة لا تصحح سياستها في الشرق الأوسط وتواصل تأييد إسرائيل. وهذا يضعف مواقعنا

في العالم العربي وبالتالي يؤثر على علاقاتنا مع الأصدقاء الأميركيين.

وسأل مراسل "أن بي سي" عمّا إذا كانت المملكة العربية السعودية تنوي تقليص صادرات النفط إلى الولايات المتحدة، فأجاب الملك بكل وضوح: الدعم الذي تقدمه أميركا للصهيونية من دون تحفظ، وسياستها المناهضة للعرب يعقدان إلى أقصى حد بالنسبة إلينا مواصلة تزويد الولايات المتحدة بالنفط، بل وحتى الحفاظ على العلاقات الودية معها...

وبعد ثلاثة أيام قال الرئيس نيكسون في مؤتمر صحافي، وهو يرد على تصريح فيصل هذا، ليس من الصحيح ربط السياسة التي تطبقها الولايات المتحدة إزاء إسرائيل والبترول العربي في وثاق واحد.

> فإن سياستنا ليست موالية لإسرائيل ولا للعرب. ونحن نميل إلى العرب ربما أكثر مما نميل إلى إسرائيل، لأن عند العرب نفطاً، ولا نفط عند إسرائيل.

وفي الحقيقة، فإن الرئيس نفض يده من أمور الشرق الأوسط.

يؤكد جيمس إيكينز الذي صار في ما بعد سفيراً للولايات المتحدة في المملكة العربية السعودية أنه كان في تلك الأيام الشخص الوحيد الذي حذر من أن فيصل لا يمزح، ولكن صوته جاء صرخة في واد.

يقول إيكينز:

الإدارة الأميركية لم تحمل كلام فيصل على محمل الجد، وكانت تعتقد أنه يراوغ. إنني أعرف فيصل منذ سنين، وأعرف أنه لا يلقي الكلام على عواهنه. لقد حذرنا أكثر من مرة، ابتداءً من الأيام الأولى لعام 1973م، في البداية من خلال يماني الذي عرض الموقف السعودي بمنتهى الدقة وبصورة لا تقبل التأويل... كان فيصل يعتبر ذلك من واجبه. إنه زعيم عربي يشعر بأن مصالح العالم العربي كله معرضة للخطر.

يقول مسؤول سابق في وكالة الاستخبارات الأميركية:

لم يلتفت أحد إلى تحذيرات جيمس إيكينز لأنهم لم يربطوا بينها وبين الواقع. فالتقارير الواردة إلى الاستخبارات تجري مطابقتها مع المعلومات التي أرسلها الإسرائيليون. والرأي السائد أنهم يفهمون الموقف في الشرق الأوسط أفضل من أي مسؤول عندنا، فيما كان الإسرائيليون يؤكدون لمحللينا أن الموقف لا يبعث على القلق.

لعل نيكسون لم يلتفت إلى الإشارات التي بعث بها فيصل وباقي الزعماء العرب، لأنه كان غارقاً في حل مهمة بقائه السياسي في ظل أزمة "وترغيت".

في الثاني من سبتمبر 1973م نجح مستشار الرئيس الأميركي هنري كيسنجر في القيام بانقلاب مصغر أدّى إلى إقالة وزير الخارجية وليم روجرز وتسلم كيسنجر

نفسه مهمات الوزير، فانتقل من البيت الأبيض إلى مكتبه في وزارة الخارجية، وسعى إلى احتكار صنع كل القرارات المتعلقة بشؤون الشرق الأوسط.

جيمس إيكينز يتصوّر أن نيكسون وكيسنجر لم يفهما أهمية مشكلة النفط. ويقول:

> كيسنجر في تلك الفترة كان قليل الاهتمام بالنفط. ويمكن قول الشيء ذاته عن نيكسون. وكان ذلك موضوعاً جديداً تماماً بالنسبة إلى الإدارة كلها. لا أحد يريد أن يعالج المسألة كما ينبغي. فنحن في السابق لم نواجه أموراً من هذا النوع. الكل كانوا يعتقدون أن سوق النفط زاخر دوماً بهذا الوقود.

وقد ذكر السير جيمس كريغ، السفير البريطاني السابق لدى المملكة العربية السعودية، السبب الثالث لقصر نظر واشنطن:

> السبب الذي جعل إدارة نيكسون لا ترغب في الإنصات إلى تحذيرات فيصل هو اعتقاد الأميركيين الدائم بأن المملكة العربية السعودية عدوّ لدود للشيوعية، الأمر الذي يجعلها بطبيعة الحال مؤيدة للأميركيين. كان الأميركيون يعتبرون المملكة العربية السعودية صديقاً مأموناً بالمطلق.

منطق موقف الأميركيين واضح تماماً: المملكة العربية في "الحرب الباردة" تقف في جهتنا من المتاريس ولن

تذهب إلى الجهة الأخرى.

كل ذلك في مجمله يُبيّن أن واشنطن لم تكن تريد أن ترى أو لم تستطع أن ترى وقائع سوق النفط والموقف في الأقطار العربية والمعتقدات الشخصية للملك فيصل.

خلال السنوات الست التي مرت على حرب حزيران 1967م تبدّل سوق النفط العالمي إلى أبعد الحدود، وازداد كثيراً اعتماد الاقتصاد العالمي على نفط الشرق الأوسط، ومنه النفط السعودي. لم يكن فيصل يعمل أبداً بضغط من أي زعيم عربي. كان له رأيه في القضايا المطروحة، وكان يحاول بإصرار جعل الوقائع الجديدة مفهومة لدى الرأي العام الأميركي والإدارة الأميركية.

في الشهور القليلة الأولى من عام 1973م بدا كأن سوق النفط استقر، إلا أن الاتجاه نحو ارتفاع الأسعار ظل واضحاً. هبوط سعر صرف الدولار في فبراير من ذلك العام قلّل من عائدات الدول المصدرة للنفط، فأخذت تطالب الشركات النفطية في مارس بتعويضات تجنّبها الخسائر المترتبة على هبوط الدولار. وكان ارتفاع موجة الحركات الاجتماعية في العالم العربي قد أرغم الشركات على تقديم تنازلات. وفي يونيو من ذلك العام، جرى التوصل إلى اتفاق على صيغة جديدة تستخدمها أوبك لتحديد الأسعار. فارتفع سعر النفط رأساً بنسبة 12٪.

وفي سبتمبر، عندما اصطدمت الأسعار من جديد بالأطر التي رسمتها الاتفاقات السابقة، دعت أوبك إلى

إعادة النظر في اتفاقيتي طهران وطرابلس. وكانت الجزائر والعراق وليبيا قد طالبت بإعادة النظر على هذه الشاكلة في فبراير عندما خفض سعر الدولار أصلاً. إلا أن المملكة العربية السعودية وإيران اعترضتا على الطلب.

أما الآن، فقد بات واضحاً أن الشركات زادت من أرباحها مجدداً على حساب الدول المصدرة للنفط نظراً إلى التضخم النقدي بنسبة 7-8٪ وارتفاع أسعار المشتقات البترولية.

في أواخر سبتمبر تهيّأ أحمد زكي يماني للسفر إلى الولايات المتحدة للتفاوض مع الشركات النفطية، وأبلغ الملك فيصل ذلك.

لم يقل الملك شيئاً. ألقى نظرة متمعنة على يماني وكأنه متردد هل يخبره أم يلوذ بالصمت؟ كان يريد لِيماني أن يبقى معه إذا نشبت الحرب، وهو أمر يتطلب قرارات في الشؤون النفطية. ولكن ماذا لو أرجأ السادات من جديد موعد بدء الحرب؟

ومن الجهة الأخرى لم تكن مسألة أسعار النفط والمشاركة السعودية في أصول أرامكو تقبل التأجيل.

- عليّ أن أسافر غداً - كرر يماني.

- متى تعود؟ - سأله الملك.

- حالما ينتهي المؤتمر.

لاذ فيصل بالصمت من جديد.

فسأل يماني وقد لاحظ انشغال بال الملك:

أأسافر أم لا؟

فقال فيصل بعد تفكير قصير:

سافر، وعد في أسرع ما يمكن.

بعد أيام من عودته من سان فرنسيسكو استعد يماني للسفر إلى فيينا ليترأس اجتماع لجنة وزراء النفط. وكان موضوعه إعادة النظر في اتفاقيتي طهران وطرابلس.

دخل على الملك ليبلغه بالرحيل.

فقال له فيصل على غير المتوقع: أرسل أحداً غيرك.

لا أحد يستطيع أن يحل محلي، لأن رئاسة اجتماع اللجنة من صلاحيات الوزير فقط. وإذا لم أحضر يمكن أن يظن الآخرون أن المملكة لا تريد إعادة النظر في الاتفاقيتين، وهذا يترك أسوأ الأثر في سير المفاوضات.

فأومأ فيصل برأسه:

طيب، سافر.

اندلعت الحرب وأحمد زكي يماني في طريقه إلى فيينا.

كان السياسي المحنك فيصل يدرك استحالة تغيير سياسة واشنطن الموالية لإسرائيل وتحويلها إلى سياسة "موالية للعرب". ومن المستبعد أن يكون قد شاطر الكثيرين من الزعماء العرب رأيهم في أن الحل "البسيط" للنزاع العربي الإسرائيلي ممكن، وأن الولايات المتحدة يكفيها أن تقول لإسرائيل "لن تحصلي بعد الآن على سنت واحد" حتى تهدأ الأمور وينتهي النزاع. إلا أنه كان يعتقد أن المصالح الاقتصادية والسياسية للولايات المتحدة في العالم العربي، وخصوصاً في

المملكة العربية السعودية، كبيرة إلى درجة يتعيّن معها على واشنطن أن تعمل من أجل التسوية في الشرق الأوسط.

في أكتوبر 1973م تأكد مرة أخرى أن دعم إسرائيل، الحليف الأول للولايات المتحدة، يتميز بالأولوية الكبرى بين أولويات السياسة الأميركية في الشرق الأوسط، فيما لا تنظر واشنطن إلى التسوية وأهدافها وسبل بلوغها بالنحو الذي يفهمها به الملك فيصل أبداً.

الفصل الثالث والعشرون

عام 1973م: الحرب

في الثانية من بعد ظهر 6 أكتوبر 1973م سددت 222 طائرة مصرية من طراز "ميغ" سلسلة من الضربات إلى المواقع الإسرائيلية في سيناء، فأصابت 90٪ من أهدافها، فيما فقد المصريون خمس طائرات فقط. وفي مساء ذلك اليوم عبر 80 ألف جندي مصري قناة السويس على 10 جسور عائمة إلى شبه جزيرة سيناء. واستخدموا المدافع العاملة بالمياه المضغوطة لإزالة الساتر الترابي لخط بارليف، فيما حاول الإسرائيليون أن يسكبوا آلاف الأطنان من النفط في القناة بهدف إشعالها وتكوين حاجز ناري يتعذر اجتيازه، على أمل أن يوقفوا العبور. إلا أن الغطاسين المصريين أبطلوا عمل مواسير اللهب السائل. وشنّ سلاح الجو السوري في الوقت ذاته غارات على أهداف إسرائيلية في مرتفعات الجولان، فيما بدأت الدبابات وفرق المشاة السورية بالهجوم. وفي 7 أكتوبر أمر قائد القوات الإسرائيلية قواته الموجودة على امتداد "خط بارليف" بأن تتلف سلاحها وتنسحب أو تستسلم. وفي العاشرة من صباح 8 أكتوبر أُبلغ عدد من آمري وحدات الجيش الإسرائيلي أنهم مطوّقون. وشغلت القوات السورية جزءاً من مرتفعات الجولان وحررت القنيطرة بخسائر كبيرة.

في 8 أكتوبر، وقبل مرور أقل من 48 ساعة على اندلاع الحرب، استقبل الملك فيصل في الرياض مبعوثَي الرئيس أنور السادات مصطفى خليل، الخبير النفطي المصري، وسيد مرعي مساعد الرئيس. وقال لهما: أعدتم لنا كرامتنا ورفعتم رؤوسنا. ووعد المصريين بـ200 مليون دولار، مشدداً على أن ما نقدمه ليس فضلاً. فالمال أقل قيمة ممّا تقدمونه بالأرواح[1]. وكرر فيصل وعده باستخدام النفط لمصلحة مصر، لكنه ما كان يدري أن للسادات خططاً أخرى. فقد أمر قواته بوقف الهجوم ووفر للإسرائيليين الفرصة للتصدي للسوريين.

كانت الحرب تدور وأحمد زكي يماني يُجري، في مقر أوبك على شارع الدكتور كارل ليغير رقم 10 في فيينا، مباحثات بشأن أسعار النفط. أعضاء أوبك من دول الخليج - إيران والعراق والكويت وقطر والإمارات والمملكة العربية السعودية يمثلها وزراء البترول، فيما يمثل الشركات النفطية جورج بيرسي من "إكسون" وأندريو بينار من "شل".

قال يماني بعد سنين: عندما سمعت نبأ اندلاع الحرب فكرت في التدابير التي يتعيّن علينا أن نتخذها. هل نقلّص الإنتاج أم نفرض الحظر على إرساليات البترول إلى بعض الدول؟ ولم تعد المسألة مسألة أسعار[2].

بحلول عام 1973م كان واضحاً أن فائض النفط في الأسواق العالمية انتهى، وبات شحّه واضحاً للعيان. كان

السوق يومها للبائعين وليس للمستهلكين.

اقترح وزراء البترول زيادة السعر الذي كان يراوح آنذاك في حدود 3 دولارات للبرميل وجعله ضعف هذا المبلغ على أقل تقدير.

شرع بيرسي وبينار يتحدثان عن زيادة 15٪ فقط،

فقلل يماني السعر المقترح إلى 5 دولارات للبرميل.

ثم أضاف بيرسي وبينار شيئاً إلى سعرهما واقترحا زيادة 25٪.

إلا أن المباحثات تعثرت عند هذين الرقمين، والفارق بينهما 1.25 دولار.

زعم بيرسي وبينار أن حالة السوق لا تبرر مثل هذه الزيادة الكبيرة في الأسعار. وكانا يراوغان طبعاً. فقد كانت لطواغيت النفط مصلحة في زيادة الأسعار، لأنهم يلقون بالفارق على كاهل المستهلكين، ما يعود عليهم بنفع كبير، لكنهم لا يريدون أن يتعرضوا لنقمة أولئك المستهلكين.

كانوا، كما يعتقد يماني، يريدون أن يلقوا بالمسؤولية على غيرهم. فهم سعداء لارتفاع الأسعار، لأن ذلك يعني المزيد من الأرباح بالنسبة إليهم. لكنهم لا يريدون أن يقولوا "نعم"[3].

أوضح بيرسي لزكي يماني أنهم يجب أن ينسّقوا مع حكوماتهم الزيادة الكبيرة في أسعار النفط، لأن ذلك سيؤثر على الاقتصاد كله. استمع إليه يماني بصمت، وعندما لاذ بيرسي بالصمت أيضاً لم يقل الوزير

السعودي شيئاً. وفي اليوم التالي اتصل بيرسي بيماني هاتفياً وسأله: وماذا بعد؟

فقال له يماني: ستسمعون من الإذاعة[4].

في فيينا التقى ممثلو أوبك والشركات النفطية ليبحثوا آخر مرة أسعار النفط على أساس التفاهم.

وفي فجر 13 أكتوبر غادر يماني فيينا عائداً إلى الرياض.

بحث فيصل مع أقرب مستشاريه ومع أحمد زكي يماني إمكان تقليص إنتاج النفط إذا لم تلتزم واشنطن بموقف متوازن حيال النزاع.

وقال يماني في ما بعد إن الملك أراد أن يساعد الأميركيين ليظلوا في منأى عن هذه الحرب. ولذا قرر تقليص الإنتاج بنسبة 5٪ فقط كل شهر، وبقي الحظر بمثابة خطوة احتياطية[5].

في 12 أكتوبر أرسل مديرو الشركات الأربع المالكة لأرامكو رسالة إلى الرئيس نيكسون سلّمت من خلال جون ماكلوي، إلى مدير ديوان البيت الأبيض الجنرال ألكسندر هيغ. تناولت الرسالة "الموقف الحرج بخصوص الإرساليات النفطية من الشرق الأوسط"[6]. وحذر مديرو الشركات العملاقة الأربع في رسالتهم من مغبة "التمادي في الدعم الأميركي العلني لموقف إسرائيل"، لأن ذلك من شأنه أن يقود، في اعتقادهم، إلى نتائج سلبية في العلاقات مع الدول العربية المنتجة للنفط.

إلا أن هيغ لم يردّ على الرسالة ثلاثة أيام.

أوفد فيصل وزير الدولة عمر السقاف إلى واشنطن حاملاً رسالة شخصية إلى ريتشارد نيكسون لأنه يخشى المساعدات السافرة من الولايات المتحدة لإسرائيل، فيما ذكرت وسائل الإعلام الغربية أن الاتحاد السوفياتي أخذ يوصل السلاح جواً إلى سورية ومصر. وكان فيصل يدرك أن الولايات المتحدة تفعل الشيء ذاته في مساعدة إسرائيل، لكنه لم يكن يتصور حجم الإرساليات الأميركية.

كان نيكسون المتورط في فضيحة "وترغيت" والواثق من انتصار إسرائيل السريع قد تباطأ في الأيام الأولى، معوّلاً على كيسنجر وهيغ.

وظل عمر السقاف ينتظر مقابلة الرئيس الأميركي في واشنطن.

إلا أن نيكسون كان مشغولاً بأمور أخرى. ففي 10 أكتوبر 1973م، اعترف نائبه سبيرو أغنيو بتهمة التهرب من تسديد الضرائب، فأُقيل من منصبه. وعين نيكسون جيرالد فورد نائباً له. وفي 13 أكتوبر بعثت محكمة النقض والإبرام استجواباً إلى الرئيس نيكسون تطالبه فيه بتسليم التسجيلات المتعلقة بقضية "وترغيت".

كتب نيكسون في ما بعد يقول: "هذه الحرب ما كانت لتحصل لو كان الوضع الداخلي على غير ما هو عليه". كان الرئيس الأميركي مشغول البال بمصيره السياسي، فترك كل ما يتعلق بأزمة الشرق الأوسط في عهدة هنري كيسنجر[7].

لقد كان نيكسون ووزير خارجيته الجديد كيسنجر وهيغ ينظرون إلى النزاع العربي الإسرائيلي بمنظار التنافس الأميركي السوفياتي العالمي. ولم تكن الولايات المتحدة تريد إطلاقاً هزيمة إسرائيل، حليفتها في الشرق الأوسط. قبل بداية الحرب، كانت واشنطن تأمل بتحريك قضية التسوية الشرق أوسطية من نقطة الجمود بتبادل ضربات عسكرية خفيفة. إلا أن الهزائم المبرحة التي لحقت بإسرائيل في الأيام الأولى من الحرب لم تكن في الحسبان...

فحتى صباح التاسع من أكتوبر بلغت خسائر إسرائيل في الأرواح والمعدات حداً جعل مجلس الوزراء الإسرائيلي يتخذ قراراً بعدم استبعاد استخدام السلاح النووي، فيما راحت غولدا مائير تستعطف كيسنجر ليرسل مساعدات (نيكسون كان آنذاك في كي بيسكين). وعندما قررت الولايات المتحدة مد الجسر الجوي إلى إسرائيل، كانت الأخيرة قد فقدت حوالى ثلث طائراتها وأكثر من ثلث دباباتها، ولم يبقَ عندها من احتياطي بعض أنواع الذخيرة إلا ما يكفي لبضعة أيام.

كان لا بد من أن تتسلم حليفة أميركا السلاح. فتواردت إرسالياته إلى إسرائيل اعتباراً من 13 أكتوبر، أي بعد أربعة أيام من بدء إرساليات السلاح السوفياتي إلى مصر وسورية. ثم إن البيت الأبيض، وخاصة كيسنجر، وهو يدافع عن المصالح الأميركية في الشرق الأوسط، كان يعتقد أنه يعرف كيفية ضمان مستقبل إسرائيل أفضل من زعمائها أنفسهم. ولذا يمكن أن نقول

عن المهمة التي طرحتها واشنطن إنها تتلخص في منع تعزيز مواقع الاتحاد السوفياتي في المنطقة، من دون الدخول في اشتباك معه، وضمان أمن إسرائيل بإخراج عدوها الأول (مصر) من المواجهة معها. في المرحلة الأولى من الحرب كان البيت الأبيض يراعي إلى درجة معينة مواقف العرب، ومنهم المملكة العربية السعودية بوصفها أحد اللاعبين الرئيسيين على الساحة في الشرق الأوسط والقوة الرئيسة في سوق النفط العالمي. ولكن البيت الأبيض في ما بعد أخضع كل شيء لهدف واحد، هو إنقاذ إسرائيل من الهزيمة، ثم العمل بعد الحرب على استئناف توازن القوى بينها وبين الدول العربية الذي تعرض للخلل من وجهة نظر واشنطن.

لكنّ العمليات الحربية كانت تسير وفق منطقها الخاص. وفي 12 أكتوبر، أمر أنور السادات بشن هجوم جديد، لكنه تعثر وأخفق، فعادت القوات المصرية إلى مواقعها السابقة.

يوم الخميس 16 أكتوبر أنشأت القوات الإسرائيلية التي نقلت من الجبهة السورية رأس جسر على الضفة الغربية لقناة السويس. وحتى ذلك الحين تمكن الإسرائيليون في الشمال من استعادة معظم مواقعهم في مرتفعات الجولان واقتربوا من ضواحي دمشق.

واعتباراً من 13 أكتوبر، وبأمر شخصي من نيكسون، أخذت طائرات النقل التابعة للقوة الجوية في الولايات المتحدة تنقل الأسلحة والذخيرة إلى إسرائيل.

وأخيراً في 17 أكتوبر، وبعد انتظار يومين، حظي عمر السقاف، مع زملائه وزراء خارجية الجزائر والكويت والمغرب، بمقابلة الرئيس الأميركي في البيت الأبيض.

قبيل اللقاء مع الرئيس تحدث إليهم كيسنجر وأكثر لهم الوعود بأن كل شيء سيكون على ما يرام في المستقبل. وقال:

> الرئيس وأنا سنعمل بمزيد من النشاط حالما تنتهي الحرب. وسنبذل جهوداً دبلوماسية جدية... وإن أيّ وقف لإطلاق النار حالياً يأخذ في الاعتبار فاعلية وبسالة الجيوش العربية ... ونحن نعترف بالوقائع الجديدة في الشرق الأوسط[8].

وعندما دخل وزراء الخارجية العرب المكتب البيضاوي أخيراً، لم يبخل عليهم نيكسون هو الآخر بالوعود: "مشاكل السياسة الداخلية لن تقيدنا، وسنصوغ سياستنا الخارجية وفقاً لمصالحنا الوطنية".

وبعد اللقاء تحدث نيكسون إلى وسائل الإعلام، ووعد بالسعي إلى التسوية في الشرق الأوسط بحيث تكون "سلمية وعادلة وكريمة" على حد قوله. لقد أفلح في إحلال السلام في الفيتنام، وهو الآن يحمل السلام إلى الشرق الأوسط! كانت تلك عبارات دبلوماسية عادية معلوكة، فضلاً عن أن المقصود بها هو أوضاع ما بعد الحرب.

أبلغ السقاف مليكه بالانطباعات الإيجابية عن اللقاء. والأرجح أن وزراء الخارجية العرب فهموا أقوال القيادة

الأميركية كما أرادوا أن يفهموها.

إلا أن الرأي العام الأميركي الذي تتلاعب به وسائل الإعلام كان إلى جانب إسرائيل. فالروس والعرب، كل العرب، سواء أكانوا المتطرفين أم المعتدلين، المصريين أو السعوديين، هم من عصابة واحدة معادية للأميركيين. وحتى في المؤتمر الصحافي الذي عقده عمر السقاف بعد اللقاء مع نيكسون، طفت المشاعر المعادية للعرب على السطح.

إلا أن الأسوأ من ذلك بالنسبة إلى العرب (وللغرب) كان لا يزال في طيّات المستقبل.

في 17 أكتوبر لم يكن فيصل يعرف أن عشرات الطائرات الأميركية حطّت في المطارات الإسرائيلية في بضعة أيام.

وبعد أن أصدر نيكسون أمره هذا، طلب من الكونغرس في 18 أكتوبر تخصيص 2.2 مليار دولار لمساعدة إسرائيل. وبذلك تجاهل المطالب السياسية للعرب.

2.2 مليار دولار مبلغ هائل في ذلك الزمان. وهو يعني ليس مجرد التعويض عن الخسائر الإسرائيلية، بل إيجاد تفوق حاسم في القوى لمصلحة إسرائيل. والإسرائيليون أنفسهم طلبوا في الحقيقة سلاحاً بمبلغ 850 مليون دولار لا غير.

كان نيكسون يعمل قبل كل شيء انطلاقاً من مصالح الدولة الأميركية كما يفهمها هو. فإن إرساليات السلاح الأميركي، في اعتقاده، تعيد ميزان القوى في المنطقة

إلى وضعه المعتاد، وكان يريد بهذه الخطوة كسب ودّ الرأي العام الموالي لإسرائيل في الولايات المتحدة، في وقت كان فيه الرئيس المتورط في مشاكل "وترغيت" بحاجة ماسة إلى الدعم والتأييد. وكان نيكسون وكيسنجر في الوقت ذاته يتصوران أن ذلك سيكون ضربة أليمة إلى موسكو. كل ذلك يعني تصعيد سباق التسلح في المنطقة، لأن الاتحاد السوفياتي والحال هذه كان سيحاول استعادة التوازن العسكري.

بعد أسبوعين قال نيكسون لرئيسة وزراء إسرائيل غولدا مائير باعتزاز: "لم أكن عمري أميل إلى الألعاب الصغيرة عندما يكون الرهان كبيراً"[9]. ثم قال لكيسنجر: "سيتهموننا بإرسال ثلاثمئة طائرة حتى وإنْ أرسلنا ثلاث طائرات فقط"[10].

لقد تباهى الرئيس الأميركي الأسبق نيكسون في مذكراته بأن الـ550 طائرة التي نقلت السلاح والذخيرة إلى إسرائيل من الولايات المتحدة في أكتوبر- نوفمبر 1973م تمثل "عملية أكبر من الجسر الجوي إلى برلين في 1948-1949م".

إلا أنه اعترف بأن "الإسرائيليين بدأوا بأنفسهم بتغيير سير الحرب لمصلحتهم في 17 أكتوبر"[11].

تفيد معلومات البنتاغون بأن الطائرات الأميركية في الفترة من 14 أكتوبر حتى 15 نوفمبر 1973م نقلت عبر الجسر الجوي إلى إسرائيل 22600 طن من الأسلحة والآليات، بما فيها الدبابات والمدافع الثقيلة

والصواريخ والذخيرة. واستمر إرسال الآليات الحربية إلى إسرائيل بحراً.

ومن جهته، بدأ الاتحاد السوفياتي بعد أربعة أيام من اندلاع الحرب أكبر عملية نقل للسلاح بطائرات آن-12 وآن-22 العملاقة. لقد نقلت تلك الطائرات الأسلحة والآليات الحربية والذخيرة إلى سورية ومصر. وكانت شحنات أكبر من تلك بكثير قد أرسلت بحراً، ولكن في نهاية الحرب. ونشر الاتحاد السوفياتي في شرق البحر الأبيض المتوسط أسطولاً كبيراً بلغ تعداده في نهاية أكتوبر 96 سفينة، واعتبر ذلك تحذيراً لإسرائيل من أي محاولة يمكن أن تقوم بها لاعتراض الإرساليات السوفياتية، فيما اعتبر الغرب تقوية القدرات السوفياتية في البحر الأبيض المتوسط مؤشراً على احتمال استخدامها لإسناد القوات السوفياتية فيما لو أُرسلت إلى منطقة النزاع.

كان العسكريون السوفيات يقودون الدبابات ليوصلوها من موانئ التفريغ إلى الجبهة، ويديرون الرادارات ويصلحون المدرعات والآليات المعطوبة. وليس هناك دليل على مشاركة مستشارين سوفيات في القتال على الجبهة. إلا أن المؤلف كان آنذاك في دمشق، وقال له مستشارون عسكريون سوفيات إن ضباطاً من الاتحاد السوفياتي يجلسون أمام لوحات التحكم في شبكة الدفاعات الجوية السورية التي عُزّزت في أعقاب الغارات الإسرائيلية على دمشق. وأؤكد هنا أن الغارات

الجوية على دمشق توقفت بعد الخسائر الكبيرة نسبياً التي تكبدها سلاح الجو الإسرائيلي.

في تلك الفترة، أخرج الإسرائيليون الرؤوس النووية من مستودعاتها تحت الأرض ونصبوها على الطائرات والصواريخ. وتمكنت الاستخبارات الكونية الأميركية والسوفياتية بالأقمار الاصطناعية من تسجيل ذلك. صحيح أن الحكومة الإسرائيلية لم تتخذ قراراً باستخدامها ولم تتجرأ على ممارسة الابتزاز النووي ضد العرب، لأن المجازفة كبيرة في إثارة ردّ فعل سياسي سلبي، ولا سيما أن الموقف على الجبهات أخذ يتبدل لمصلحة إسرائيل.

في 16 أكتوبر عبر الإسرائيليون قناة السويس في ملتقى الجيشين المصريين بمنطقة البحيرات المرة، وبدأ الزحف باتجاه القاهرة، وكذلك على امتداد الضفة الشرقية للقناة نحو البحر الأحمر.

وفي 22 أكتوبر اتخذ مجلس الأمن الدولي بأكثرية الأصوات القرار رقم 338 الذي نص على وقف إطلاق النار وجميع العمليات الحربية فوراً، مع بقاء القوات في المواقع التي تشغلها في 22 أكتوبر (امتنع ممثل الصين الشعبية عن التصويت). وإلى جانب الدعوة إلى وقف إطلاق النار، طالب مجلس الأمن بتنفيذ قراره رقم 242 عملياً.

تجاهل الإسرائيليون قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار وواصلوا الهجوم، وبدا الأمر كأن إسرائيل ستتباهى بالنصر من جديد بعد يومين أو ثلاثة. إلا أن استعداد

الجنود المصريين للدفاع ظل هو المجهول المهم في المعادلة. فقد أبدت مدينة السويس مقاومة بطولية باسلة، والإرساليات السوفياتية كانت تعوض بسرعة عن خسائر القوات السورية والمصرية في الدبابات والآليات الأخرى، فيما وصلت إلى سورية وحدات المدرعات العراقية، وتوجه إليها ألفا جندي سعودي، وكانت مصر تنتظر وصول قوات جزائرية.

أعلنت القاهرة استعدادها لتنفيذ القرار 338 ووقف القتال على أساس المعاملة بالمثل. وتحت ضغط من كيسنجر، أعلنت الحكومة الإسرائيلية موافقتها على القرار.

وبناءً على طلب مصر، عقد مجلس الأمن الدولي في 23 أكتوبر جلسة طارئة صوّتت فيها 14 دولة (مع امتناع الصين عن التصويت) على قرار جديد تقدم به الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة يطالب بوقف إطلاق النار وجميع العمليات الحربية في الشرق الأوسط فوراً وعودة القوات إلى مواقع 22 أكتوبر.

إلا أن إسرائيل واصلت الهجوم كما أسلفنا.

وطلب الرئيس أنور السادات من حكومتي الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة أن تبعثا إلى منطقة العمليات بممثلين عنهما لمتابعة تنفيذ قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، فأعرب الاتحاد السوفياتي عن موافقته على طلب مصر، إلا أن الولايات المتحدة رفضته آنذاك.

وطالبت الحكومة السوفياتية في بيان خاص نُشر في 24 أكتوبر بأن توقف إسرائيل إطلاق النار وجميع العمليات الحربية فوراً، وتسحب قواتها إلى خط وقف إطلاق النار ليوم 22 أكتوبر، وحذرت من "العواقب الوخيمة للغاية" التي سيؤدي إليها استمرار "أعمالها العدوانية ضد مصر وسورية".

كتب يفغيني بريماكوف يقول:

> عقد المكتب السياسي للحزب الشيوعي في موسكو جلسة صاخبة. واحتدت المشاعر عندما طلب السادات في خط الهاتف الخصوصي بذل كل الجهود لإنقاذه وإنقاذ العاصمة المصرية المطوّقة بالدبابات الإسرائيلية. وأبلغ كبير المستشارين السوفيات في القاهرة الرئيس بريجنيف عندما سُئِل عن الأوضاع أن السادات فقد صوابه، لكن القاهرة غير مهددة بالخطر مباشرة. ورغم هذا البلاغ، دعا أعضاء المكتب السياسي إلى اتخاذ تدابير سياسية وعسكرية حازمة.
>
> الكثيرون من أعضاء القيادة السوفياتية انطلقوا من كون إسرائيل وحدها، من دون موافقة الولايات المتحدة، لا تستطيع أن تتحدى الجميع متجاهلة قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار. وطالب وزير الدفاع السوفياتي غريتشكو بكشف النقاب عن

وجود القوات السوفياتية في مصر. إلا أن رئيس الوزراء كوسيغين اعترض بشدة على ذلك، وأيّده وزير الخارجية غروميكو. أما بريجنيف فقد التزم الحذر ورفض أي محاولة لتوريط القوات السوفياتية في النزاع، لكنه اضطر على أي حال إلى الموافقة، أولاً على توجيه رسالة شديدة اللهجة إلى نيكسون مع إشارة وتلميح إلى احتمال تدخل الاتحاد السوفياتي عسكرياً، وثانياً على إجراء مناورات يشارك فيها سلاح الجو في جنوب القوقاز[12].

بعث ليونيد بريجنيف ببرقية عاجلة إلى نيكسون جاء فيها:

> إذا لم تجدوا الوسيلة للعمل معنا في هذه المسألة، فسنضطر إلى النظر عاجلاً في موضوع اتخاذ الخطوات اللازمة من جانب واحد.

وفي 24 أكتوبر أعلن الاتحاد السوفياتي حالة التأهب القصوى في سبع فرق للإنزال الجوي. ويعتقد المحللون الغربيون أنه كان في الإمكان إرسال جزء من هذه القوات لإنقاذ الجيش المصري الثالث المحاصر. والمؤلف ليس واثقاً من أن هذه هي بالذات الدوافع التي استرشد بها الزعماء السوفيات. فليس معروفاً ما إذا كان هذا الإنذار لغرض التأهب للإنزال قد أعلن بناءً على قرار من بريجنيف، وما إذا كانت قد أخذت في الاعتبار العمليات

الجوابية المحتملة من طرف الولايات المتحدة. الأرجح أن هذا الإنذار كان مجرد إشارة وتنبيه للولايات المتحدة وإسرائيل بأن الاتحاد السوفياتي لن يسمح بتدمير مصر. إلا أن ردّ الفعل الأميركي جاء مفرطاً ومبالغاً فيه. فقد أعلن الإنذار الجزئي في القوات النووية الأميركية، وارتعب حلفاء أميركا هلعاً لهذا الإنذار.

عندما اتصل السفير السوفياتي لدى واشنطن أناتولي دوبرينين بهنري كيسنجر غاضباً، أجابه ذاك بأنه لا يتعيّن على موسكو أن تعتبر هذا الإجراء عملاً عدائياً، فهو نابع أساساً من اعتبارات داخلية. وفي ما بعد قال الرئيس نيكسون نفسه للسفير دوبرينين:

> ربما تسرّعت بعض الشيء أثناء الأزمة. وأقول، ليس على سبيل التبرير، إنني أتعرض الآن لحصار متواصل وشديد القسوة من جانب المعارضة ومن جانب كل خصومي الذين التفوا حول قضية "ووترغيت"[13].

كانت لـ"الحرب الباردة" قواعدها غير المكتوبة التي ترسم كيفية التعايش وتفادي الصدامات. فبعد أن عرضت كلتا الدولتين الكبريين عضلاتهما، توقفتا وتراجعت كل منهما خطوة إلى الوراء. وأوقف الإسرائيليون عملياتهم الحربية، لكنهم لم يعودوا إلى المواقع التي احتلوها في 22 أكتوبر. وفي 25 من ذلك الشهر رُفعت حالة التأهب القصوى في فرق الإنزال المظلي السوفياتية وفي القوات النووية الأميركية. فما

حاجة الولايات المتحدة، على أي حال، إلى انتصار إسرائيل الإشكالي المشكوك فيه على السادات الذي طرد القوات السوفياتية من مصر، وأعرب عن استعداده سراً للتعاون مع الولايات المتحدة على أساس معاداة السوفيات؟ ثم ما حاجة الاتحاد السوفياتي إلى إرسال قوات لإنقاذ نظام سياسته أو موالاته مشكوك فيها؟

في 25 أكتوبر وافق الاتحاد السوفياتي على اقتراح الأعضاء غير الدائمين في مجلس الأمن بألا تضم قوات الأمم المتحدة المخصصة لمتابعة وقف إطلاق النار عناصر من قوات الدول الكبرى الخمس، ولكن مع السماح لمراقبين من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بالوجود لدى قوات المتابعة تلك.

لحرب 1973م شرح وتوصيف تفصيلي في المطبوعات العالمية، السوفياتية (الروسية) والعربية والغربية، فليعد إليها من يريد الاستزادة. أما نحن، فنفرد هنا حيّزاً متواضعاً لما حصل وراء الكواليس آنذاك، لنأخذ فكرة عن الأمواج العاتية في خضمّ الدسائس والمؤامرات التي قاد الملك فيصل سفينة الدولة السعودية فيها إلى بر الأمان في تلك الأيام.

إليكم صورة أحداث تلك الفترة من منظار السفير السوفياتي لدى القاهرة في تلك الحقبة فلاديمير فينوغرادوف:

المؤلف: هل كنتم على علم بالإعداد للحرب؟

فينوغرادوف: تلقيت تعليمات من موسكو لأبلغ الرئيس السادات أن الحكومة

السوفياتية قررت إخلاء النساء والأطفال السوفيات نظراً لتوتر الموقف. وأخليناهم ليلاً، وبعضهم على متن الباخرة "تاراس شيفشينكو". ولا أعتقد أن هذه التدابير ظلت بعيدة عن عيون الاستخبارات الإسرائيلية. في صباح السادس من أكتوبر استدعاني الرئيس السادات وقال: الأحداث تتطور في توتر. إسرائيل تزداد وقاحة، وفي ودّي لو كنت إلى جانبي طوال الوقت. فكن دوماً في أماكن أستطيع أن أتصل بك فيها بالهاتف. وما إن وصلت مبنى السفارة حتى طلبني السادات بالهاتف، وأبلغني قائلاً: نحن على الضفة الشرقية من قناة السويس، عبرنا القناة.

المؤلف: هل كان السادات حقاً يخشى مواصلة الهجوم عندما عبرت القوات المصرية القناة إلى شاطئها الشرقي؟ وهل كان يكفيه حقاً أن يلمح ويعلن أن هذا هو النصر ليقول للأميركيين: هيا، تحركوا وحلوا العقدة؟

فينوغرادوف:لم يكن السادات يتوقع أن القوات المصرية يمكن أن تعبر القناة في ثلاث ساعات، وليس في ثلاثة أيام كما كان مقرراً. الخسائر في عبور مثل هذه الحواجز المائية الضخمة من المفروض أن تكون، وفقاً

للحسابات، آلافاً كثيرة، إلى حدّ 30٪ من القوات المهاجمة. إلا أن الأمر كان أبسط بكثير، والنجاح جاء بأقل عدد من الخسائر. واتضح أن الجيش مهيّأ بمساعدة الاتحاد السوفياتي، والسلاح ممتاز. لقد حقق الجيش المصري بالفعل طفرة بطولية في سبيل الأهداف السامية. لا جدال في ذلك. إلا أن البعض يعتقدون بأن تلك كانت مسرحية. فهناك حوادث كثيرة يتعذر تفسيرها. عندما قام الجيشان الثاني والثالث بالإنزال على الضفة الشرقية للقناة، ظلت بينهما أجنحة غير متلاقية، من دون تماس. فلماذا؟ ألفباء العمليات القتالية تتطلب اهتماماً بتماس القوات. ثم إن مخفراً إسرائيلياً بقي سالماً على الضفة الشرقية، ومن هذا المكان بالذات تمكنت الدبابات الإسرائيلية في ما بعد من عبور قناة السويس في منطقة البحيرات المرة. القوات الإسرائيلية الأساسية كانت محتشدة في الشمال ضد سورية، فلم يحرّك السادات ساكناً لمواصلة الهجوم. ظل ينتظر حتى خارت قوى سورية، وبعد ذلك لم يكن هناك ما يعوق الإسرائيليين عن تحريك قواتهم نحو الجنوب.

المؤلف: هل كان هناك تواطؤ بين السادات والأميركيين والإسرائيليين؟

فينوغرادوف: هذه فرضية لا يقوم الدليل على صحتها إلا بالكشف عن وثائق سرية في شأنها إن وجدت. الأهداف السياسية للرئيس السادات هي التعاون مع الأميركيين. وكان من الضروري أن يظهر الأميركيون بمظهر نبيل أو في دور نبيل. فإن هزيمة طفيفة وخاضعة للسيطرة يتعرض لها الجيش الإسرائيلي وانتصار الجيش المصري يوفران الفرصة للأميركيين كي يظهروا بمظهر دعاة السلام. إلا أن الهجوم الإسرائيلي استمر بعد قرار مجلس الأمن الدولي بوقف إطلاق النار في 22 أكتوبر، وأخذ الإسرائيليون يوسعون رأس الجسر على الضفة الغربية للقناة. آنذاك كان السادات يتصل بي هاتفياً مرة كل ساعتين تقريباً ويقول: الأميركان كذابون. خدعوني. فما وجه الخداع؟ القاهرة في ارتباك وهلع، والسادات في وضع مهين للغاية. طلب المساعدة من الاتحاد السوفياتي ومن الولايات المتحدة ليرسلا قوات مشتركة، أو من جانب واحد إذا رفض الجانب الآخر، لوقف زحف الإسرائيليين. الحكومة السوفياتية اقترحت على الأميركيين إرسال قوات سوفياتية وأميركية للتقيد بقرار مجلس الأمن. وقال السوفيات للأميركيين إنهم إذا رفضوا فإننا سنفعل

بأنفسنا. وفي هذه اللحظة أوقف الإسرائيليون زحفهم، بإشارة من واشنطن كما يبدو[14].

أورد يفغيني بريماكوف في أحد كتبه عدة وقائع جديدة، وكتب يقول إن كيسنجر كان يفكر في حل مهمته السياسية الدبلوماسية من خلال "نصر عسكري غير كبير للسادات".

من الصعب أن نتصور أن كيسنجر سيعترف بذلك يوماً ما، حتى وإن كان، على طريقته المعتادة في الكلام بأسلوب يحتمل معنيين، قد بعث إلى المصريين بإشارات فهموها كما يحلو لهم. كان للحرب منطقها. فلكي تتمكن إسرائيل من إنهاء حرب 1973م، ولو بصيغة لا غالب ولا مغلوب، اضطرت إلى التضحية بألفي قتيل. ومن المستحيل أن يعترف وزير الخارجية الأميركي الأسبق بأنه أخطأ في توقع تطور الأحداث على هذه الصورة.

الكثير من أسرار تلك الحرب لا يزال طيّ الكتمان الشديد. في يوليو 2007م قتل أشرف مروان صهر الرئيس جمال عبد الناصر في لندن على أيدي مجهولين. كان يقيم في بريطانيا بصفة رجل أعمال ناجح يمارس تجارة السلاح. وفي حينه تمتع بثقة أنور السادات كما أسلفنا. واتضح أنه تطوع قبيل حرب 1973م للتجسس لمصلحة إسرائيل. صدقية الوثائق السرية للغاية وذات الأهمية البالغة للدولة التي سلمها للإسرائيليين أثّرت في نفوسهم فصدقوه. في عام 1973م حذر الإسرائيليين

مرتين من نية مصر وسورية شنّ الحرب عليهم. وأجرت إسرائيل تعبئة جزئية، ولكن من دون جدوى. لم يحصل شيء. وقبل يوم واحد من بداية حرب أكتوبر أبلغ أشرف مروان من جديد الإسرائيليين بخطط القيادة المصرية والسورية، لكنهم لم يصدقوه هذه المرة، ففوجئوا بالحرب. أفلم يكن نشاط أشرف مروان بصفة "جاسوس" إسرائيلي عملية متعددة النقلات والجوانب أجرتها القيادة المصرية بمهارة رائعة لتضليل إسرائيل في شأن "ساعة الصفر"؟ لقد شارك في تشييع جنازة أشرف مروان السيد خالد عبد الناصر ومدير الاستخبارات المصرية. فهل يعقل أن يشيّع المصريون بهذه الصورة جنازة رجل لهم عليه شبهة؟

لم يكن الملك فيصل، وما كان بوسعه أن يكون، على علم بالكثير من تفاصيل اللعبة وراء الكواليس. إلا أن منطقه كان بسيطاً واضحاً: القوات المصرية والسورية خاضت حرباً عادلة، والشعب السعودي طالب بنصرتها، فيما التزمت الولايات المتحدة جانب إسرائيل. وكان لا بد من استخدام سلاح النفط.

الفصل الرابع والعشرون

عام 1973م: حظر البترول

دفعت الولايات المتحدة وكل مستهلكي النفط ثمن سياسة واشنطن الخاطئة.

وحاول الملك فيصل أن يوقف الغلاة من منتجي النفط كي لا يتخذوا إجراءات متطرفة ضدها، إلا أن نيكسون وكيسنجر لم يتركا له خياراً، فدفعاه إلى اتخاذ تدابير أكثر حزماً.

لقد اعتبر الملك تدفق الأسلحة الأميركية بكثافة على إسرائيل إهانة شخصية أخرى وضربة سياسية. فإن نيكسون لم يأخذ في الاعتبار حتى مشاعر أصدقائه السعوديين وهمومهم. لقد تجاهلها ببساطة. إلا أن القضية لم تكن في المشاعر الشخصية. فالميول المعادية لأميركا في المملكة نفسها بلغت حداً دفع الملك فيصل إلى استخدام سلاح البترول.

قبل ثلاثة أيام من قراره، يوم الثلاثاء المصادف 16 أكتوبر 1973م، التقى ممثلو أوبك ممن شاركوا في محادثات فيينا في فندق "الشيراتون" في الكويت. تشاوروا فترة قصيرة وأعلنوا بعد بضع ساعات رفع أسعار النفط من جانب واحد إلى 5 دولارات و12 سنتاً للبرميل.

قال أحمد زكي يماني: ... أدركت فور اتخاذ هذا القرار الأهمية السياسية والاقتصادية لهذا الحدث. فلأول مرة واجهت البلدان المصدرة للنفط الدول الأساسية المتطورة صناعياً من دون وسطاء، وبات يوم 16 أكتوبر 1973م حداً فاصلاً من الناحية التاريخية. في هذا اليوم تسلمت أوبك مقاليد السلطة، السلطة الفعلية...[1]

عاد الوفد الإيراني إلى طهران رأساً، لأن الشاه كان يريد أن يقول إنه مع العرب ما دام الكلام يدور حول المسائل التجارية، مثل رفع الأسعار. إلا أنه لن يشارك في محاولات تقليص الإنتاج أو حظر البترول. فتلك سياسة عربية، وليست إيرانية. والشاه هو المصدّر الرئيس للنفط إلى إسرائيل والحليف السافر للولايات المتحدة.

وبقي أعضاء أوبك في فندق "الشيراتون".

لم يكن الوزراء العرب مجمعين على رأي واحد. تجادلوا حتى بُحّت حناجرهم، وكانوا منفعلين يجدون صعوبة في ضبط النفس. دعا وزير النفط العراقي سعدون حمادي، بناءً على تعليمات من صدام حسين، إلى تأميم جميع الشركات الأميركية في الشرق الأوسط بالكامل، وسحب الأموال العربية المستثمرة في الولايات المتحدة، وقطع العلاقات الدبلوماسية مع واشنطن فوراً، فيما اقترح ممثل ليبيا عز الدين المبروك تأميم جميع الشركات النفطية الأجنبية وليس الأميركية فقط. إلا أن أحمد زكي يماني تقيّد بتوجيهات الملك

فيصل الصارمة. كان العاهل السعودي لا يزال يأمل بإقناع أميركا بعدم المشاركة في النزاع لمصلحة إسرائيل.

قال يماني في ما بعد: ... بحثنا فلسفة حظر البترول قبل أن أغادر الرياض. فهل أردنا أن نمارس ضغطاً؟ نعم، ولكن لا مصلحة لنا في الكلام الفارغ...[2]. من وجهة نظر الملك فيصل، يعتبر التلويح بتقليص الإنتاج على نحو تصاعدي مخفف أفضل وسيلة لمنع الولايات المتحدة من التدخل في الحرب لمصلحة إسرائيل. ومن شأن هذه الاستراتيجية أن تمكن المملكة العربية السعودية من الاحتفاظ بعقوباتها هذه أمداً طويلاً من دون أن تتعرض هي نفسها لخطر الدمار المالي، كما حصل أثناء الحظر النفطي الفاشل في عام 1967م وفي عام 1956م. ثم إن ارتفاع الأسعار الشديد يساعد على تقليص الإنتاج من دون التعرض لخطر الاستنزاف المالي أو الإفلاس.

كان واضحاً لجميع الجالسين وراء طاولة المحادثات أن أي إجراء يتخذه العرب لن يكون فاعلاً إذا لم تشارك فيه المملكة العربية السعودية. وأمضى أحمد زكي يماني ساعات الصباح في الحديث مع ممثلي الكويت وباقي دول الخليج، وتأكد من تأييدهم له. ثم ركز جهوده على وفد الجزائر حتى أقنعه بأن الثمار المنشودة لن يعود بها إلا الإجراء الذي يقترحه، ألا وهو تقليص الاستخراج تدريجاً وتباعاً.

وقبل الوزراء العرب فكرة الملك فيصل في شأن تقليص الإنتاج التدريجي. وفي الساعة التاسعة والنصف من مساء 16 أكتوبر تسلم الصحافيون المحتشدون في بهو فندق "الشيراتون" صفحتين بعض عباراتهما مشطوبة، وبعضها مضاف بقلم الرصاص.

المقترحات بشأن "الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني" مسجلة على الهامش ويمتد منها سهم يدخلها ضمن النص. وذلك لأن ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية عندما عرفوا باجتماع "الشيراتون" استقلوا سيارة أجرة على عجل وجاؤوا إلى قاعة الجلسات. وما كان أحد يجرؤ على تجاهل مطالبهم، فأدرجت ضمن البيان الختامي في آخر لحظة. وفي مساء 16 أكتوبر لم يتمكن أحد من مقابلة يماني، وذلك لأنه استقل الطائرة عائداً إلى الرياض.

تقرر خفض إنتاج النفط في الأقطار العربية فوراً بنسبة 10٪، ثم بنسبة 5٪ في كل شهر لاحق، ما لم تتم تسوية النزاع في الشرق الأوسط بما يرضي العرب. إلا أن أي دولة صديقة قدمت أو تقدم مساعدة مادية فاعلة للعرب تتسلم إرساليات النفط بالحجم السابق نفسه. وشمل هذا الاستثناء أيضاً أي دولة تتخذ تدابير نشيطة وجدية ضد إسرائيل.

واختتم البيان بلهجة مصالحة وترضية، مشدداً على أن وزراء النفط العرب يؤكدون رغبة الأمة العربية الصادقة في التعاون مع جميع الشعوب واستعدادها لتزويد العالم بما يحتاج إليه من نفط، رغم كل

التضحيات من جانبنا، بشرط أن يتعاطف العالم معنا ويندد بالمعتدي[3].

واقترح العرب على الأميركيين أفضل صيغة، في اعتقادهم: أوقفوا الحرب كما فعلتم في عام 1956م وأرغموا إسرائيل على سحب قواتها إلى خطوط 1967م، وعندها يفتح لكم العرب قلوبهم.

إلا أن سياسة الولايات المتحدة الأميركية سارت وفق منطق آخر.

ففي يوم الجمعة 19 أكتوبر 1973م، كان فيصل في مكتب عمله عندما عرضوا عليه رسالة الرئيس نيكسون إلى الكونغرس التي طلب فيها التصديق على قراره بإرساليات السلاح المكثفة إلى إسرائيل. وكان فيصل على علم بإخفاقات القوات العربية في الجبهتين السورية والمصرية، وبأن الأسلحة الأميركية تتدفق على إسرائيل منذ عدة أيام.

كان في مكتب رئيس الوزراء مع الملك فيصل عمه عبد الله بن عبد الرحمن ومستشاره رشاد فرعون، وبعث في طلب الوزير أحمد زكي يماني هاتفياً، وسرعان ما جاء إلى مكتب رئيس الوزراء الملك فيصل.

لقد اتخذ الملك القرار الذي كان يتحاشاه بكل السبل.

وفي حدود ساعة واحدة عرف العالم النبأ. فقد أعلن فيصل على الملأ أن المملكة العربية السعودية قررت وقف صادرات النفط إلى الولايات المتحدة نظراً لازدياد المساعدات العسكرية الأميركية لإسرائيل. وشمل حظر البترول هولندة المؤيدة لإسرائيل أيضاً[4].

قال أحمد زكي يماني في ما بعد: ... لم يكن الملك فيصل يسعى أبداً إلى حظر الإرساليات إلى الولايات المتحدة، إلا أن نيكسون لم يترك له خياراً غير هذا الخيار[5].

ويعتقد جيمس إيكينز

> أن فيصل لم يكن مرتاحاً لهذا القرار الاضطراري، لكنه ما كان بوسعه أن يتصرف على نحو آخر. وقال لي مراراً: إننا نستخرج الكثير جداً من النفط، أكثر من اللازم. ونحن لا نستطيع أن نستخدم بعقلانية العائدات التي تردنا. نتصرف على هذه الصورة لأنكم تطلبون منا ذلك. لكننا لن نفعل هكذا في المستقبل، ما لم نرَ تقدماً في قضية استعادة العرب لأراضيهم. السعوديون آسفون لحظر البترول، لكنهم يعزونه إلى أن أميركا زوّدت إسرائيل بالسلاح أثناء الحرب. كانت ترسل الطائرات من ألمانيا محملة بالشحنات الحربية مباشرة إلى سيناء المحتلة. واعتبر العرب هذه الأفعال عدائية. في ما بعد، صوّت الكونغرس على زيادة كبيرة في المساعدات لإسرائيل. وقد طفحت كأس صبر العرب لهذا القرار الذي جعل الحظر أمراً لا مفر منه[6].

ويبدو أن السفارة الأميركية في المملكة العربية السعودية كانت حتى اللحظة الأخيرة تتلقى تعهدات

مهدئة من مصدر موثوق ومقرّب جداً إلى الملك. وكانت تلك التعهدات والتأكيدات تعني أن الملك فيصل، على الرغم من التأييد اللفظي الذي لا بد أن يقدمه لأشقائه العرب، لن يقوم بأي عمل يضرّ بعلاقات المملكة مع الولايات المتحدة.

إلا أن هذه المعلومة كانت غير صحيحة.

خطوة واحدة قادت المملكة إلى مقدمة خشبة مسرح السياسة العالمية، وأدّت إلى نتائج لا تزال ملموسة حتى اليوم.

ولا ضير في قول القائلين إن حظر البترول الذي فرض في 20 أكتوبر 1973م لم يحقق المهمات التي كان يتوخاها، وإن وقف صادرات النفط إلى الولايات المتحدة لم يمسّ سوى 4٪ من الاستهلاك الأميركي، وإن الأميركيين تمكنوا من سد النقص اعتماداً على مصادرهم. لقد فرضت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وقف إطلاق النار على إسرائيل وسورية ومصر، إلا أن الإسرائيليين خالفوه في الحال. وكان وقف إطلاق النار سيفرض في كل الأحوال. وبفضل المساعدات الأميركية باتت إسرائيل في نهاية الحرب أحسن تسليحاً مما كانت عليه في أي وقت مضى. ولم تتحقق أمنية فيصل في إعادة إسرائيل إلى حدود 1967م وتحرير القدس الشريف والصلاة في المسجد الأقصى. كل ذلك صحيح، إلا أن الشرق الأوسط والمملكة العربية السعودية نفسها تغيّرا جذرياً.

بعد قرار الملك توجه أحمد زكي يماني فوراً إلى الظهران وأخذ يصدر أوامره إلى جانغرز. أمره بوقف شحن البترول إلى الولايات المتحدة وهولندة. أما السفن والناقلات التي كانت في الطريق فحُوّلت وجهتها إلى موانئ أخرى سمّاها وزير البترول والثروة المعدنية.

كتب جانغرز في ما بعد يقول: "كان علينا أن نخضع لهذه الأوامر لنتفادى التأميم. ولم يكن أمامنا خيار آخر".

من تلك اللحظة باتت شركة أرامكو الأميركية أداة للسياسة الخارجية السعودية. آنذاك انتهت لعبة أرامكو. فالقناع التصق بالوجه حتى بات جزءاً منه، وبدأت الشركة تخدم المصالح السعودية حقاً. استسلم مديرها جانغرز، لأن اليماني حذره من أن عدم الرضوخ يعني التأميم بالمسدس.

كتب مدير شركة أرامكو يقول في رسالة إلى نيكسون تبريراً لموقفه:

> الحظر أفضل من التأميم، لأن التأميم يقود إلى تعزيز مواقع الأوروبيين واليابانيين في الشرق الأوسط على حسابنا[7].

عندما رضخ أصحاب أرامكو لقرار الملك فيصل فقدوا السيطرة على الشركة، لكنهم لم يفقدوا عائداتهم التي ازدادت بنحو انفجاري. غير أننا سنعود إلى هذا الموضوع في ما بعد.

في 21 أكتوبر 1973م، بسط فيصل الحظر على إرساليات النفط إلى الأسطول الأميركي في البحر

الأبيض المتوسط، ثم أصدر توجيهاً إلى أرامكو بوقف إرساليات الوقود لجميع القواعد الحربية الأميركية. واتصل المسؤولون في البنتاغون بالشركات النفطية البريطانية لتزوّد الأسطول السادس في البحر الأبيض المتوسط بالوقود.

كان واضحاً تماماً في نيويورك التي يقع فيها مقر "إكسون" أن أرامكو الأميركية باتت تنفذ تعليمات دولة أجنبية. هذا ما قاله الباحث الأميركي هوارد سيمبسون وأضاف:

> مهما كرّر أصحاب أرامكو وأعادوا القول إنهم لا يملكون بديلاً آخر، فإن عدد السياسيين الكبار الذين كانوا إلى جانبهم قليل جداً. كانوا في وسط المدينة، اليهودية أساساً، كأنما يمثلون واحة موالية للعرب. وبدت الجغرافية نفسها تحمل معنى رمزياً. فعلى جانب من الشارع السادس في مانهاتن ثلاث ناطحات سحاب لثلاث شركات تلفزيونية هي "سي بي إس" و"إن بي سي" و"إي بي سي"، وكلها تتعاطف مع الإسرائيليين وتنتقد شركات البترول، فيما تقع ناطحة السحاب الجديدة لشركة "إكسون"، والطابقان اللذان تشغلهما أرامكو فيها، على الشارع 54... من هناك بدت أرامكو مؤسسة عملاقة، فوق الحكومة الأميركية، مكونة من أغنى أربع شركات في العالم تحالفت مع دولة أجنبية

> هي المملكة العربية السعودية. وشعر ممثلو أرامكو في نيويورك أنهم في بيئة معادية لهم، وكانوا يتلقون شتائم وسباباً من قبيل "خونة البترول"... كان لكل طرف رأيه الخاص في شأن أولويات السياسة الخارجية الأميركية، وكانت الثقة معدومة تماماً بين الطرفين[8].

إلا أن "للحرب الباردة" قواعدها. الأسطول الحربي الأميركي كان فعلاً في حاجة إلى الوقود، فكان يقلق قيادة البنتاغون حتى مجرد التفكير في أن المملكة العربية السعودية يمكن أن تمتنع "فجأة" عن إرسالياته.

استُدعي مدير أرامكو إلى واشنطن، حيث التقى وزير الدفاع جيمس شليسنجر ونائبه وليم كليمينتس. وحتى بعد أكثر من عشرين عاماً على تلك الأحداث، لم يتحدث جانغرز عن محتوى لقائه ذاك إلا بلهجة يشوبها الغموض. قال بعد عقدين من الزمن:

> كان الأميركيون يخشون صداماً مع الاتحاد السوفياتي، فكانوا في حاجة إلى إرساليات الوقود للأسطول السادس في البحر الأبيض المتوسط وللأسطول السابع في المحيطين الهادي والهندي[9].

بعد مقابلة شليسنجر استقل جانغرز الطائرة إلى الرياض ليلتقي الملك فيصل.

كتب جانغرز يقول:

أوضحت للملك أن هذه مشكلة خطيرة، وكنت أفهم طريقة تفكيره. إلا أن الانعطاف في السياسة الأميركية الموالية لإسرائيل حتى وإن حصل فلن يحصل في غمضة عين وانتباهتها. وهو يدرك بالطبع أن مثل هذا التحول في الدبلوماسية يتطلب وقتاً. أما تزويد الأساطيل الأميركية بالوقود فهو ضرورة لا تقبل التأجيل، والحظر يمكن أن يسفر عن عواقب وخيمة على الشرق الأوسط كله، وليس على المملكة وحدها.

استمع الملك إليّ بكل اهتمام ثم بدأ كلامه: تقول إن هذه المسألة ليست صادرة عن الشركات النفطية؟ فقلت: كلا، ليست صادرة عنها. كان يفهم بالطبع أنني لست مفوضاً أو مبعوثاً للحكومة الأميركية، إلا أن الطلب صادر عنها بالذات.

فقال فيصل: لا أدري كيف نقوم بذلك. وفهمت من كلامه أنه لن يخلق من ذلك مشكلة. ولكن علي أن أقوم بكل شيء بنفسي. وقال فيصل: كان الله في عونك فيما لو افتضح أمرك أو علم الرأي العام به. وكان مغزى كلمات فيصل واضحاً: إذا افتضح الأمر فلا مفر من التأميم الفوري[10].

تولى جانغرز، إذن، أمر الالتفاف على الحظر السعودي لإرساليات النفط إلى الأساطيل الأميركية. ولم يكشف

لأحد أبداً كيف فعل ذلك. إلا أنه اعترف قائلاً:

> لقد وجدنا أسلوباً للقيام بالمهمة، وكان الجميع راضين، ولم تتسرب كلمة واحدة إلى الصحافة، كما ظل كل شيء طي الكتمان بالطبع سنين طويلة أخرى[11].

ما إن تخرج الناقلة إلى عرض البحر حتى يمكن توجيهها إلى أي جهة كانت مع تجاهل تعليمات مرسلها. ذلك ما تحدث عنه الكثيرون في الولايات المتحدة في منتصف السبعينيات. أما ان كل شيء جرى من دون تسريبات للرأي العام، فذلك يدل على مستوى الانضباط في شركة أرامكو الأميركية.

كان بوسع الرئيس السابق لأرامكو بروك باورز أن يقول أكثر من ذلك في فترة حظر البترول، لكنّه لم يكلف نفسه إلا ذكر عبارات مقتضبة أوردها على مضض: "كنت شخصياً متضلّعاً في هذه القضية وشاركت في صنع القرارات". والمقصود الإرساليات الاستثنائية من النفط لتزويد القواعد البحرية الأميركية في جميع أرجاء العالم.

> أعرف أشياء لا يعرفها الرأي العام مطلقاً. أعرف أن الحكومة السعودية كانت ستواجه أقصى درجات الإحراج لو حصل تسريب للمعلومات، لأننا التفقنا على الحظر النفطي وأرسلنا الوقود إلى الأسطول البحري الأميركي بالأحجام السابقة نفسها. كنا نتسلم

تعليمات دقيقة. شفوية، لكنها وصلتنا بالفعل[12].

لقد بين التخفيف الجزئي لحظر البترول أن فيصل ما كان ينوي استبدال حلفائه في "الحرب الباردة"، وخصوصاً إذا كانت حبلى "بحرب ساخنة". لقد كشف عن معرفته بأصول اللعبة حتى وإن كان يدرك أكذوبة التهديد باشتباك حربي بين الدولتين العظميين. ودفعت الولايات المتحدة والغرب لقاء دعم إسرائيل ثمناً سياسياً واقتصادياً، إلا أن فيصل لم يعمل على إضعاف القوة العسكرية الأميركية في المواجهة مع الاتحاد السوفياتي الملحد.

في تلك الأثناء، انخرط ممثلو الصناعات النفطية بمزيد من الهمة والنشاط في حملة الضغط على الإدارة الأميركية، في محاولة لتغيير سياسة واشنطن الموالية لإسرائيل كلياً في الشرق الأوسط. ومن هذه الناحية ثمة دلالة كبيرة للمقالة التي نشرها بيل شاندلر مدير شركة التابلاين بعنوان "إسرائيل - الولاية 51". وفيها طرح فكرة "هذيانية" تدعو إلى جعل إسرائيل إحدى الولايات الأميركية. وكتب يقول:

> ذلك يكلفنا أقل بكثير. فلا أحد يتجرأ على مهاجمة الولاية الحادية والخمسين. الإسرائيليون بالطبع سيرفضون هذه الفكرة، لأنهم يريدون تسلم الأموال. وعليهم في تلك الحالة أن ينتظروا دورهم في الطابور الكبير إلى جانب ديترويت ولوس أنجليس ويطلبوا

المال على قدم المساواة مع الآخرين. فبحساب المساعدة للفرد الواحد من السكان، نحن نتعامل معهم أفضل مما مع مواطنينا الأميركيين.

وقال جانغرز:

إن هذه المقالة أثارت ضجة كبيرة، إلا أنها مقالة محبوكة، وفيها، يا للشيطان، كثير من الحقيقة. وقد انهالت الصحف الإسرائيلية والأميركية في الحال بالتهجّم على الشركة البترولية التي يزعمون أنها تذعن للعرب وتتزلف إليهم[13].

في 20-22 أكتوبر انضمت باقي دول أوابك إلى قرار المملكة. وقد شمل القرار هولندة لأنها رفضت بإصرار التنديد بإسرائيل، ولأن متطوعين هولنديين قاتلوا في صفوف الإسرائيليين.

كان المستهلكون على استعداد لدفع أثمان للنفط أعلى بكثير مما حددته قبل قليل الشركات المنتجة. فبيع النفط آنذاك بـ12-17 دولاراً للبرميل. ولذا قررت أوبك في ديسمبر 1973م تحديد قائمة السعر بمقدار 11 دولاراً و65 سنتاً للبرميل، وهو يعني أربعة أضعاف سعر ما قبل حرب أكتوبر وستة أضعاف أسعار الستينيات.

لم يكن الملك فيصل راغباً في انفجار الأسعار إلى هذه الدرجة، كي لا يؤدي إلى تقويض الاقتصاد العالمي،

لكنّ الحظر السعودي بالذات هيّأ ظروف ذلك الانفجار، لأن النفط شحيح في الأسواق.

وقد تقلص استخراج الوقود السائل في الأقطار العربية عند منتصف نوفمبر بمقدار الثلث تقريباً، كما فرضت تلك الأقطار الحظر على المصافي التي اعتادت تصدير المشتقات النفطية إلى الولايات المتحدة أو بيعها إلى الأسطول الأميركي. وكي لا تدخل في مواجهة مع العرب، توقفت أوروبا الغربية تقريباً عن تصدير المشتقات النفطية، بما فيها المستخرجة من الخامات غير العربية، إلى الولايات المتحدة. ومع ذلك كانت الضربة الأشد من حصة أوروبا الغربية واليابان المعتمدتين على نفط الشرق الأوسط بنسبة 75٪.

أوجز وزير البترول والثروة المعدنية السعودي أحمد زكي يماني موقف فيصل على النحو الآتي: ... إذا كنتم تعادوننا فلن تحصلوا على النفط. وإذا كنتم محايدين فستحصلون عليه ولكن ليس بالكميات السابقة. وإذا كنتم تعاملوننا بود فستحصلون عليه بالكميات السابقة...[14]

وقد تعامل العرب مع مختلف الدول بطريقة متمايزة، فلم يوقفوا بالكامل تزويد معظم دول أوروبا الغربية واليابان، ولم يتعرضوا للامتيازات النفطية حتى ذلك الحين. العراق فقط أمّم في اليوم الثاني لاندلاع الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة الأصول الأميركية في شركة نفط البصرة، وكذلك الحصة الهولندية من سلة أسهم "رويال داتش شل" في الشركة نفسها.

وعندما قررت المملكة العربية السعودية والأقطار العربية الأخرى استخدام النفط لبلوغ أهدافها، اتهمها الغرب بـ"تسييس" المنتج التجاري. وكانت هذه المزاعم مثاراً للسخرية. فالنفط كان "مسيّساً" دوماً، ومن المستبعد أن ينسى أحد إرسال الأساطيل البحرية لحماية مصالح "الشقيقات السبع" والقيام بالإنزال وتدبير الانقلابات. نعم، لقد دار التاريخ دورته. وكانت مجلة "إكسبرس" الفرنسية على حق عندما كتبت آنذاك:

> بلدان الشرق الأوسط حرة في استخدام مواردها بالصورة الأفضل لتأمين مصالحها، ولها الحق في رفع أسعار النفط حسب الطلب، وفي صيانة حقوقها النفطية واستثمار رأسمالها الطبيعي لمصلحتها وليس لمصلحة الغير. والغضب لكونها تأخذ بـ"خناقنا" يعني نسيان كيف كان الأوروبيون والأميركيون يعاملون باقي العالم طوال القرون، ويعاملونه اليوم إذا استطاعوا[15].

كانت الاستراتيجية الغربية في السابق قائمة على القول المأثور: لن يستطيع العرب أن يشربوا نفطهم. بمعنى أنهم لن يستطيعوا العيش ما لم يبيعوا نفطهم الخام. إلا أن الدول النفطية في الجزيرة العربية بسكانها القليلين، وكذلك ليبيا، تمكنت حتى ذلك الحين من تكوين مدخرات كبيرة من الذهب والعملات الصعبة، فبات بوسعها أن تعيش الكفاف أمداً طويلاً من دون تصدير النفط على العموم.

وكان الغرب في السابق يتصور أن حظر البترول لن ينجح ما لم تشارك فيه كل البلدان المنتجة. إلا أن نجاح العرب هذه المرة تحقق بمشاركة عدد محدود من كبار الدول المنتجة للنفط. إيران التي هي ثاني مصدّر للوقود السائل في العالم، لم تشارك في الحظر، لكنها أعلنت أنها لا تنوي زيادة الإنتاج بأحجام أكبر من المقرر. وحتى لو زادت إيران إنتاجها لما كانت كمياته تكفي للتعويض عن غياب مئات الملايين من أطنان النفط العربي من السوق العالمي.

لقد أدّت المملكة العربية السعودية الدور الأول في فرض حظر البترول. فهي وحدها تمتلك احتياطيات نفطية وإمكانيات لزيادة الاستخراج قادرة على إحباط أعمال باقي المنتجين معاً، لكن خلافاتها مع الولايات المتحدة كانت أقوى مما بدت للوهلة الأولى، على الرغم من متانة أواصر العلاقة بين البلدين.

الملك فيصل ما كان سيعترض على بعض التبديلات الإقليمية في فلسطين، لكنه بصفته حامي الحرمين الشريفين، ما كان يستطيع المساومة على القدس الشرقية ولزوم إعادتها إلى العرب. وكان لديه دافع شخصي عندما قال إنه شيخ يريد قبل لقائه مع ربه أن يصلي في المسجد الأقصى[16]. لم يكن ذلك مجرد كلام يُلقى على عواهنه للدعاية. ثم إن حظر البترول أعطى النظام الملكي السعودي في الساحة العربية وزناً لم يكن لديه في السابق أبداً، رغم ازدياد نفوذ المملكة بعد وفاة الرئيس المصري جمال عبد الناصر.

لقد أرغمت الدول العربية، باستخدامها النفط سلاحاً سياسياً، الولايات المتحدة، والغرب عموماً، على تسديد ثمن الدعم الطويل الأمد لإسرائيل. ثم إن مسألة النفط أزّمت الخلافات بين الولايات المتحدة وحليفاتها في الناتو.

في 4 نوفمبر، نسّق فيصل مع باقي مصدّري النفط من بلدان الخليج خطة جديدة بعد أن رأى أن حظر البترول لم يدفع الولايات المتحدة إلى إعادة النظر جدياً في موقفها الموالي لإسرائيل، وقرروا تقليص الاستخراج في ديسمبر بنسبة 25٪ من مستوى سبتمبر ثم بنسبة 5٪ من مستوى نوفمبر. وجاء ردّ فعل أوروبا الغربية فورياً. ففي صباح 6 نوفمبر، أصدرت حكومات دول الاتحاد الاقتصادي الأوروبي بياناً بشأن الوضع في الشرق الأوسط، طالبت فيه بتنفيذ قرارات مجلس الأمن الدولي بشأن إعادة قوات أطراف النزاع إلى المواقع التي كانت تشغلها في 22 أكتوبر. وأعلن الاتحاد الاقتصادي الأوروبي ضرورة تنفيذ قرار مجلس الأمن الصادر في 22 نوفمبر 1967م بكل بنوده، بما فيها تحرير الأراضي العربية المحتلة سنة 1967م. وقال البيان إن التسوية السلمية يجب أن تقوم على مبادئ الاعتراف بالسيادة وحرمة الأراضي والاستقلال لجميع دول المنطقة، وعلى الاعتراف بالحقوق المشروعة للفلسطينيين.

واستخدم المستشار الألماني ويلي برانت نفوذه الكبير لتنسيق أفعال الأقطار الأوروبية في ظروف أزمة

الطاقة. وعندما أطلعه مبعوث الملك فيصل على وجهة نظر العرب قال برانت: "إن حكومتي متقيدة تماماً بقرارات الأمم المتحدة"[17]. وبدا كأن عقدة الذنب الألمانية تجاه إسرائيل قد تلاشت، فيما كوفئت ألمانيا الغربية على موقفها هذا بحصة من النفط العربي.

كانت السياسة الخارجية اليابانية قبل حرب أكتوبر في عداد السياسات "الموالية" لإسرائيل. وهذا الموقف يتناسب مع مكانة الشريكة الصغرى لواشنطن. إلا أن وزارة الخارجية اليابانية نشرت في أواخر نوفمبر 1973م بياناً هددت فيه بأن اليابان "ستعيد النظر في سياستها تجاه إسرائيل ما لم تسحب الأخيرة قواتها من الأراضي المحتلة في حرب 1967م". وأعربت طوكيو عن رغبتها في علاقات طيبة مع جميع الأقطار المصدرة للنفط في الشرقين الأدنى والأوسط، فيما أرسلت الحكومة اليابانية على عجل بعثات رفيعة المستوى إلى البلدان العربية. وعندما أوفد الملك فيصل أحمد زكي يماني إلى اليابان، استقبله اليابانيون بحفاوة كبيرة حسب التشريفات، والتقاه الإمبراطور نفسه.

الفصل الخامس والعشرون

أقوى حاكم عربي في القرن العشرين

عندما ظهرت أولى إشارات أزمة الطاقة على تخوم السبعينيات، أخذ "التكنولوجيون المتفائلون" في الغرب يهدّئون الرأي العام، مخففين من مغبة تلك العلامات المقلقة. وكانوا يعتقدون أن أسعار بعض أنواع الخامات تبدأ بالارتفاع تدريجاً مع استنزاف تلك الخامات، وهذا يدفع الناس إلى الاقتصاد والتوفير في استهلاكها، والانتقال إلى استخدام البدائل الأوسع انتشاراً في الطبيعة. إلا أن هذا التفاؤل لم يصمد على أرض الواقع، وذلك لأن حرب البترول في النصف الأول من السبعينيات ساقت الدليل على عدم وجود أي تدرج وأي ضبط ذاتي عفوي، وأي تنسيق بين العرض والطلب.

خلال النصف الأول من القرن العشرين ازداد الاستهلاك العالمي للطاقة ثلاث مرات، وبعد ذلك ازداد ثلاث مرات أيضاً في غضون 20 عاماً فقط. ولو عاد الشخص الواحد من العالم الصناعي في الربع الأخير من القرن العشرين إلى العصر الروماني الكلاسيكي لاحتاج إلى جهد عضلي من ثمانين شخصاً لتلبية احتياجاته إلى الطاقة التي اعتادها. وفي بداية القرن التاسع عشر كان الحطب المصدر الرئيس للطاقة، فيما تغذى التطور الاقتصادي على الفحم في النصف الثاني من ذلك القرن

والثلث الأول من القرن العشرين، ثم حل النفط والغاز محل الفحم. فخلال الفترة من 1929م حتى 1970م انخفضت حصة الفحم في ميزان الطاقة العالمي من 80 إلى 35٪، فيما ازداد الوزن النوعي للنفط والغاز من 19 إلى 63٪.

ولم يتمكن الاستثمار المكثف لاحتياطيات النفط والغاز في الجرف القاري لبحر الشمال من سد رمق أوروبا الغربية واحتياجاتها إلى الوقود والطاقة. ففي بداية الثمانينيات، كان بحر الشمال يُلبّي خمس حاجات أوروبا فقط.

تلك هي الظروف التي نشطت فيها المملكة العربية السعودية والأقطار العربية الأخرى على جبهة البترول. وكان من أسباب تفعيل نشاطها وزيادة مردوده أن المستهلك الرئيس للوقود السائل في العالم - الولايات المتحدة - بات المستورد الأساسي له. ولأول مرة بدأت مضخات آبار النفط الأميركية، ما عدا ألاسكا، تعمل بكامل قدراتها، من دون أن تتمكن من تلبية طلب هذه البلاد وحاجتها إلى الوقود السائل. ففي عام 1973م استوردت أميركا زهاء 300 مليون طن من النفط.

في الستينيات، بيع نفط الشرقين الأدنى والأوسط بسعر دولار واحد و80 سنتاً. وبحساب التضخم النقدي، كان ذلك يعني أن النفط يغدو أرخص من عام إلى آخر. وحتى عندما تمكنت أوبك من رفع السعر إلى دولارين ونيّف للبرميل، كانت البلدان المستهلكة للنفط تدفع مقابله بالأسعار الفعلية آنذاك أقل ممّا في عام 1958م.

كل اقتصاد البلدان الغربية وبُنيتها الاجتماعية كانا قائمين على الطاقة الرخيصة. وكان انتقال الناس في أميركا من مراكز المدن إلى ضواحيها قائماً على البنزين الرخيص. ومن أسباب تشجيع ذلك النزوح إلى "حزام الشمس" في أميركا، إلى أريزونا وتكساس وفلوريدا، استخدام مكيفات الهواء التي جعلت الحياة مريحة في فصل الصيف القائظ. وخلال السنوات العشر 1963-1973م باتت السيارات الأميركية أثقل وأفخم، وصارت أجهزة التلفزيون الجديدة الملونة تلتهم طاقة كهربائية أكثر من التلفزيون غير الملون، والبرادات الجديدة تستهلك طاقة كهربائية أكثر من البرادات القديمة.

عندما انفجرت أسعار النفط كان مفعول ارتفاعها محسوساً تماماً. ففي عام 1972م دفعت الولايات المتحدة لقاء استيراد النفط ما مجموعه 4 مليارات دولار تقريباً، فيما دفعت في عام 1974م 24 ملياراً لا أقل ولا أكثر.

وأثار حظر البترول وتقليص الاستخراج موجة من الكراهية للعرب في الغرب، فاقتضت الضرورة طرح الدوافع السياسية للتدابير العربية بأفضل صورة. وقد جلبت تلك الدوافع انتباه النفوس الضالة وجعلتها تلتفت إلى قضايا الشرق الأوسط. وحان وقت الموعظة ليأخذ الغرب العبرة والدروس. كان فيصل يعتبر أحمد زكي يماني أفضل مبعوث لهذا الغرض. فكانت كلمته تلقى آذاناً صاغية لدى بعض الزعماء الغربيين، إلا أن الرأي

العام ظل معادياً للعرب. فمن تروقه زيادة سعر البنزين عدة مرات؟

لقد واجه العالم الغربي واقعاً بارداً، واجه الزمهرير، عندما اختفت الخامات مصدر الدفء. وتجسد عطش الوقود شتاء 1973-1974م في برودة المنازل والشلل الجزئي في الصناعة والنقليات وارتفاع الأسعار وفرض نظام البطاقات على المشتقات النفطية في الدول الصناعية. وفي معمعة الأزمة أدلى رؤساء الجمهوريات ورؤساء الحكومات ووزراء الاقتصاد في الغرب بتصريحات وافية، وأجروا مقابلات صحافية كثيرة حول قضايا الطاقة، وتأسست "هيئات مكافحة الأزمة" وعقدت اجتماعات للخبراء على الصعيدين الوطني والدولي.

وطلعت الصحف في أوروبا الغربية واليابان على قرائها كل صباح بعناوين من قبيل "عصر الظلام في الانتظار" و"آفاق مظلمة" و"حرب الطاقة" تتحدث عن التدابير الجديدة في التقتير والتوفير في الوقود، وتشير بإصبع الاتهام في الوقت ذاته إلى الملك فيصل.

عمدت الولايات المتحدة إلى تقييد تزويد الدوائر الرسمية والمنازل والمدارس بالوقود السائل، وأعلنت خطط تقنين المشتقات البترولية وزيادة الضرائب عليها. ولأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية بات استهلاك المازوت خاضعاً لنظام البطاقات. وقد منح الكونغرس الرئيس الأميركي صلاحيات استثنائية في ما يخص أزمة الطاقة، ومنع على جميع الميادين الاقتصادية

الانتقال من الفحم إلى النفط، وتقلص عدد رحلات شركات الخطوط الجوية وساعات الدوام في المدارس والدوائر الرسمية والمتاجر، وناشد المسؤولون السكان أن يقللوا درجات الحرارة في المنازل.

خفتت الأنوار في ساحة تايمز سكوير في نيويورك، وقيّدت محطات البنزين بيعه لأصحاب السيارات، وفُرضت قيود على السرعة وعلى رحلات السبت والأحد، وازدادت مبيعات سيارات "فولكس واغن" الصغيرة، وأخذ المجتمع يتابع باهتمام بالغ كميات الوقود المستهلكة لتدفئة البيت الأبيض.

كذلك عمل الأميركيون على زيادة استخراج النفط في الجرف القاري، وتحدثوا عن "التحدي البترولي" معتبرين إياه من أصعب المشاكل التي واجهتها البلاد في أي زمان.

وفي ما يخص هولندة، فقد أرغمها وقف إرساليات النفط على منع جميع الرحلات بالسيارات الخصوصية في أيام الأحد. وكانت الأشرطة السينمائية التي التقطت للشوارع الخالية في ألمانيا الغربية وهولندة أيام الأحد تبدو كأنها حلقات أخرى من فيلم المخرج كرامر "على الضفة الأخيرة" الذي يصوّر العالم بعد الكارثة النووية، وأخذ رئيس وزراء إحدى دول أوروبا الغربية يستقل الدراجة الهوائية عمداً، وازداد الطلب على الدراجات الهوائية في إيطاليا إلى درجة أوجدت سوقاً سوداء لواسطة النقل هذه المنسية تقريباً في أوروبا.

أعلن أصحاب الفنادق الفخمة في باريس، الذين لا تعوزهم روح الفكاهة، أنهم يقدمون "الهرطمان والعلف الناشف مجاناً للزبائن الذين يصلون على ظهور الخيل"، واضطرت صناعة السيارات الفرنسية إلى التوقف عدة أيام.

كذلك أعلن عمال المناجم البريطانيون أنهم غير مستعدين للعمل الإضافي من دون مكافأة مناسبة. وفي الوقت نفسه تقريباً، بدأت نقابة عمال السكك إضراباً للمطالبة بزيادة الأجور، وتقلص إنتاج تعدين الفولاذ والصناعة الكيميائية، وأقدمت حكومة المحافظين على إجراء غير مسبوق، فطبّقت أسبوع عمل من ثلاثة أيام لكي تجعل مطالبة عمال المعادن بأجور الأعمال الإضافية لا معنى لها، وقلصت شركات الخطوط الجوية البريطانية رحلاتها عبر المحيط الأطلسي.

وعلى أثر أزمة البترول، جاءت أزمة البنوك، فانهالت على البورصات البريطانية، وفاجأت رجال الأعمال. وفي لمح البصر قوّضت الأزمة سوق العقارات والأموال غير المنقولة في بريطانيا. وإلى ذلك، تكرر انقطاع التيار الكهربائي في هذه البلاد، فارتفعت كثيراً أسعار الفوانيس والشموع، وتكدست أكوام القمامة في الشوارع، وطرحت مسألة تقنين استهلاك الطاقة، وكانت الحكومة على شفا الاستقالة.

وترنّحت اليابان، عملاق الصناعة في شرق آسيا. وقال أحد رؤساء أكبر الشركات اليابانية قلقاً: "المعجزة

اليابانية لم تعد ذات قيمة"، إلا أن استنتاجه هذا كان متسرعاً.

أخذ الخبراء الغربيون ينوحون ويتباكون على مصير الغرب بعد أن استولى عليهم هم أيضاً الذعر الذي انتاب الجميع. ولعل البعض منهم بالغوا في تهويل الأمر عمداً. كان ارتفاع سعر النفط الخام مجرد انعكاس لاتجاه تطور الاقتصاد العالمي. فالاقتصاد السياسي الكلاسيكي، بأقطابه المعروفين من دافيد ريكاردو حتى جون كينز، حذر من أن أسعار منتجات الصناعة التحويلية ستنخفض، فيما ترتفع أسعار الخامات. إلا أن العكس هو ما لوحظ في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وعندما انقشع الغبار الذي خلفته حرب أكتوبر ورفع العرب حظر البترول، اتضح أن المشكلة الرئيسة ليست شح النفط بل غلاء أسعاره.

ففي أوروبا وأميركا واليابان كانت هناك كميات كافية من النفط في شتاء 1973-1974م، إلا أن الذعر الذي استولى على المستهلكين لم يكن مفتعلاً، كما لم يكن مفتعلاً السعر الجديد للنفط. كان هذا وذاك حقيقيين. فالنمو الاقتصادي القائم على الطاقة الرخيصة ولّى زمانه، وبات على الحكومات أن تتكيّف مع عجز موازين المدفوعات. ونشأت ظروف ارتفاع مستوى البطالة والتضخم المالي أكثر مما هما عليه.

كان الشخص الوحيد القادر على توجيه حالة الاقتصاد العالمي إلى هذه الجهة أو تلك هو العاهل

السعودي الملك فيصل بن عبد العزيز. ففي مملكته ربع الاحتياطيات النفطية العالمية. وغدا فيصل حينئذ أقوى حاكم شهدته البلاد العربية خلال القرون الأخيرة.

اقتنعت واشنطن بلزوم مراعاة رأي العاهل السعودي جدياً لدى رسم سياستها حيال الشرق الأوسط.

فلأول مرة بعد حوالى عشرين عاماً من زيارة جون فوستر دالاس للمملكة العربية السعودية، قرر وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر أن يزور الرياض. في السابق كان وزراء خارجية أميركا يزورون القاهرة وتل أبيب وطهران متجاهلين الرياض.

تفاصيل هذا اللقاء وردت في روايتين تكمل إحداهما الأخرى. ولذا رأيت أن أعرضهما هنا كلتيهما.

كتب روبرت ليسي يقول إن كيسنجر بدا منفعلاً عندما حوّمت طائرته فوق البادية قبل أن تحط في الرياض. حاول أن يطلق نكتة، فجاءت "بائخة": "لن يخرج من الطائرة إلا السكسونيون البيض. هل بينكم سكسونيون؟" سأل كيسنجر الصحافيين فارتفعت بعض الأيدي. فقال لهم: "طيب، انزلوا من الطائرة في البداية، أما أنتم الثلاثة فآخر من ينزل"[1]، وأشار بيده إلى ثلاثة من الصحافيين اليهود. كان كيسنجر يمزح، أو يحاول أن يمزح.

حصل ذلك في 8 نوفمبر 1973م، بعد حوالى أسبوعين ونصف الأسبوع من إعلان حظر البترول السعودي.

وقبل يوم واحد كان كيسنجر قد تحدث إلى أنور السادات في القاهرة، وسأله ماذا نتوقع "من أقوى عربي خلال الألف عام الأخيرة"؟

فأجاب السادات: يا دكتور كيسنجر، الأرجح أنه سيلقي عليك محاضرة عن الشيوعية واليهود.

ولذا بدأ وزير الخارجية الأميركي من مبلغ 2.2 مليار دولار الذي خصصه الأميركيون للمساعدات الحربية لإسرائيل كي يبرر فعلتهم وقال:

> كان هدفنا خلال الحرب، يا صاحب الجلالة، هو منع انتشار النفوذ الشيوعي في المنطقة. وعندما أرسل الاتحاد السوفياتي كميات كبيرة من الأسلحة إلى المنطقة (يقصد إلى مصر وسورية) قرّرنا أن نرد على ذلك[2].

استمع إليه فيصل بصمت. لم يبتسم، بل كانت أصابعه الطويلة تدعك العباءة، كعادته حينما ينفعل. لم تقنعه تبريرات هذا الأميركي، ثم قال بصوته الرفيع:

> نحن نعرف أن الولايات المتحدة، خلال تاريخها، وقفت دائماً ضد المعتدي... وعندما طمعت ألمانيا النازية في أراضي دول مجاورة... اعترضت الولايات المتحدة من دون أي تردد. وفي سنة 1956م لم تتردد الولايات المتحدة في معارضة التحالف بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل عندما اشتركوا في الاعتداء على مصر. لهذا في سنة 1967م، عندما اعتدت إسرائيل على مصر

وسورية والأردن، كان يجب على الولايات المتحدة... أن تضغط، في الحال، على إسرائيل لتعود إلى حدود 4 يونيو. لو فعلت ذلك لما حدثت التطورات الأخيرة.

وواصل الملك:

قبل تأسيس إسرائيل لم يكن هناك ما يعرقل العلاقات بين العرب واليهود، ولم يكن هناك سبب يدعو العرب إلى مقاومة اليهود. وكان هناك يهود كثيرون يعيشون في دول عربية، وكنا نسميهم "اليهود العرب". وقبل مئات السنين، عندما عُذّب اليهود في إسبانيا (على أيدي محاكم التفتيش الكاثوليكية) قام المسلمون بحمايتهم.

وأضاف: "ستالين هو الذي قال في يالطا بلزوم قيام الدولة العبرية".

وبعد ذلك عرض الملك فيصل آراءه في شأن الصهيونية والشيوعية:

لسوء الحظ تعمل إسرائيل لتحقيق الأهداف الشيوعية... ويوجد وسط الذين يعتنقون الدين اليهودي من يؤيد الصهيونية... والمشكلة أن حرب سنة 1967م أعطت الشيوعيين فرصة لزيادة نفوذهم في الشرق الأوسط. لا يتوقف الشيوعيون عن خلق مشاكل لنا لأنهم يعرفون أننا أكبر حاجز أمام نشر مخططاتهم في المنطقة[3].

فأجاب كيسنجر من دون ارتباك:

يا صاحب الجلالة، تواجه الولايات المتحدة مشكلة الانتقال من الوضع الحاضر، وهو وضع لا يقدر العرب على تحمله، إلى وضع سلام حقيقي.

فرد فيصل بإيجاز: "لتبدأوا بأن تضغطوا على إسرائيل لتنسحب..." (في مثل هذا الموقف اقترح والد الملك فيصل الملك عبد العزيز على روزفلت أن يؤسس موطناً لليهود في ألمانيا).

وسأل كيسنجر: "هل تستطيعون يا صاحب الجلالة أن تتخذوا خطوات تقيد استخدام حظر البترول؟".

فأجاب الملك: "على الولايات المتحدة أولاً أن تأمر إسرائيل بالانسحاب".

"ألا يفكر صاحب الجلالة بالتأثير النفسي لحظر البترول على موقف الأميركيين من المسألة العربية؟"

فأجاب الملك فيصل: "يجب أن تعاد للفلسطينيين حقوقهم المشروعة[4]".

كانت تلك أفكاراً واضحة عرضها الملك بكل بساطة، رداً على كل محاولات كيسنجر لدفع دبلوماسيته إلى الأمام.

إدوارد شيهان، أحد الصحافيين الذين مازحهم كيسنجر في الطائرة، أجرى في ذلك اليوم مقابلة حصرية مع الملك فيصل، وسأله عن عائدية الأماكن المقدسة في القدس الشريف، فأجابه الملك: المسلمون والمسيحيون فقط لهم أماكن مقدسة وحقوق في

القدس، ولا وجود لمقدسات عند اليهود هناك. وسأل الصحافي: وحائط المبكى؟ فكرر الملك فيصل: ليس لليهود أي حقوق في القدس. واستشهد بتقرير لعصبة الأمم جاء فيه أن حائط البراق (المبكى) جزء من المسجد الأقصى. وأضاف الملك: يمكنهم بناء حائط آخر يبكون أمامه[5].

غادر وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر الرياض في 9 نوفمبر 1973م وظل حظر البترول ساري المفعول.

تلك إذن هي أولى الروايتين اللتين سبق أن أشرنا إليهما. وهنا الرواية الثانية، وهي لا تتعارض مع الأولى.

كيسنجر كان يريد أن يبحث مع الملك فيصل إمكان رفع حظر البترول. وكان لا بد لهما بالطبع من الخوض في السياسة الأميركية حيال إسرائيل. ومن الذين رافقوا وزير الخارجية الأميركي الصحافيان مارفين وبرنارد كالبي اللذان ألّفا في ما بعد كتاباً عنه بعنوان **كيسنجر**. وهما يتحدثان عن لقائه بالملك فيصل كالآتي:

كيسنجر يلتقي الملك فيصل لأول مرة. وقد لاحظ الصحافيون أن حاجباً سيّافاً قدّم كيسنجر إلى الملك (لا أعتقد أن الذي قدّم كيسنجر كان حاجباً - المؤلف). شدّ كيسنجر على يد الملك، فابتسم له فيصل على أي حال، ثم جلس كيسنجر إلى جانب الملك، وبعد ذلك، لاحظ عشرات الأمراء جالسين على جانبي القاعة وكلهم في عباءات سوداء، وبعضهم يرتدي نظارات قاتمة، وبعضهم الآخر يشرب القهوة بفناجين صغيرة. وبالتفاتة من

الملك، نهض كيسنجر وصافح أولئك الأمراء، ثم انفردا في حديث استغرق ساعتين.

حاول كيسنجر أن يترك في نفس الملك فيصل انطباعاً في شأن جديته ونزاهته، فقال إنه قرأ كل مكاتبات جلالته مع الرؤساء كندي وجونسون ونيكسون، وبناءً على هذه الرسائل اتضح له أن آمال جلالته في السياسة الأميركية قد خابت فعلاً. جونسون وعد بأن إسرائيل ستسحب قواتها من الأراضي العربية المحتلة في سنة 1967م، وقرار الأمم المتحدة رقم 242 يصرّ على هذا الانسحاب. وحتى نيكسون أصرّ عليه، وكانت هناك تعهدات منه بالعمل على سحب القوات الإسرائيلية. وأضاف كيسنجر أنه شخصياً كان على يقين من أن التسوية ممكنة الآن. ودعا كيسنجر الملك فيصل إلى التعاون. وسأل هل يؤيد جلالته مؤتمر السلام؟ فأجاب فيصل بالإيجاب. وهل سيؤيّد جلالته رفع حظر البترول؟ كان ذلك أمراً "مهماً إلى حد الإحراج"، لأن استمرار الحظر يستثير مشاعر العداء للعرب في الولايات المتحدة، ويعرقل الجهود الرامية إلى حث إسرائيل على إخلاء الأراضي المحتلة تدريجاً.

بدأ الملك كلامه في الموضوع وكيسنجر ينصت باهتمام. وبات واضحاً أن الملك من ألد أعداء الشيوعية والصهيونية. فقد اتهم اليهود بالعدوان والتوسع، وقال إنهم سببوا قيام الثورة الشيوعية في روسيا، وإن أفعالهم في إسرائيل من آخر الأدلة على تعطشهم إلى

السلطة. لكنه قال إنه سيوقفهم عند حدّهم بسلاح النفط.

ويعتقد الملك فيصل أن على اليهود أن ينسحبوا من جميع الأراضي العربية بما فيها مدينة القدس، وقال إنه يريد قبل ملاقاة ربه أن يزور المسجد الأقصى من دون أن تطأ قدمه أرضاً يحتلها الإسرائيليون، ولا بد للقدس أن تعود مدينة عربية إسلامية. وعندما قال كيسنجر إن اليهود يعتبرون حائط المبكى من عتباتهم المقدسة، رفض فيصل هذا الادّعاء وقال: فليبنوا لهم حائطاً في مكان آخر يبكون أمامه.

وأصرّ فيصل على أنه استخدم سلاح النفط بسبب خيبة الأمل التي تكررت مراراً، وذلك ليرغم الإسرائيليين على الانسحاب من القدس. وسأله كيسنجر: هل يعني ذلك أن حظر البترول سيبقى إلى أن تعود القدس إلى العرب؟ لم يجبه فيصل، وانتهى اللقاء[6].

وخرج كيسنجر من القاعة عبر دخان المباخر.

فيصل سياسي على قدر من الخبرة لا يجيز له تصديق كيسنجر. لقد شعر أن ما يشغل بال هذا الرجل هو مصالح الولايات المتحدة وإسرائيل، مصالح إسرائيل والولايات المتحدة! لم يكن الملك يعرف بعد لعبة كيسنجر بجميع نقلاتها المتعددة الرامية إلى تسوية في الشرق الأوسط ترضي الإسرائيليين، وخصوصاً إخراج مصر من المواجهة مع إسرائيل ليكون الصدام الحربي الجديد أمراً لا أمل به بالنسبة إلى العرب، وإلى

ضمان أمن إسرائيل وإزاحة الاتحاد السوفياتي نهائياً من المنطقة، وتأمين هيمنة الولايات المتحدة على الشرق الأوسط. إلا أن الرسالة التي وجّهها فيصل واضحة جلية: لم يكن يطالب بإزالة إسرائيل من الوجود ولا برمي اليهود في البحر. فالمطلوب ضمناً هو السلام مقابل الأرض، وخصوصاً القدس. ولهذا الغرض يتعيّن على الإسرائيليين أن ينسحبوا من الأراضي التي احتلوها في عام 1967م. إلا أن كيسنجر كان مشغول البال بأمر آخر.

خبرة الملك فيصل السياسية الهائلة جعلته يعامل هنري كيسنجر بمنتهى الكياسة وضبط النفس. فإن موقف الملك من كيسنجر، كما يقول جيمس ايكينز، كان أقرب إلى عدم الثقة في الكثير من جوانبه، وذلك

> لأن كيسنجر كذب عليه... تحدثت أنا نفسي عدة مرات ولفترات طويلة مع الملك، وكنت أقول لنفسي بعد تلك الأحاديث: هذا الرجل في الحقيقة ربما يحرص على مصالح أميركا أكثر من وزير خارجيتها. كان الملك يتحلى بإحساس رائع بالتاريخ. وكان مستعداً للقيام بكل ما يستجيب لمصالح أميركا، أميركا بالذات، وليس إسرائيل. وكان من السهل العثور على سبل التفاهم معه. ولعلي أقول إنني ساعدت كيسنجر أكثر مما ساعده أي شخص آخر لترتيب الاتصالات مع الملك

فيصل. إلا أن كيسنجر كشف عن نواياه كنصّاب حقيقي[7].

على أي حال، فلنفصل بين جانبين من أقوال إيكينز هذه. فهو وكيسنجر لم يكونا على مودة أبداً، وهذا أقل ما يقال عن العلاقة بينهما.

ايكينز عُيّن سفيراً لدى المملكة العربية السعودية في أواخر عام 1973م، إلا أنه لم يرغب في دخول لعبة كيسنجر، ولم يكن طوع بنانه. وسرعان ما نحّاه وزير الخارجية من منصبه.

لكننا نستطيع أن نلقي على الخلاف بين الرجلين نظرة من زاوية أخرى. يقول أحد أصدقاء كيسنجر المقربين بهذا الخصوص:

> يعتقد جيمس أنه يعرف نفسية العرب أكثر من كيسنجر وأكثر من أي شخص آخر. ولذا لم ينفذ تعليمات هنري إذا لم يكن موافقاً عليها. ولا ريب أن هنري أيضاً كان يغدر بسفرائه، فهو شاطر للغاية في مثل هذه الأمور[8].

وإليكم رأي جورج بول:

> إيكينز من أكبر المشاكسين في الدنيا. غطرسته الفائقة لا تخفى على كل من اتصل به. إنه موهوب وداهية، لكنه شرس للغاية. قال لي قبل تنحيته إنه لن يبقى في هذا المنصب طويلاً، وإن هنري كيسنجر ضيّع ثقة العرب، على حدّ قوله... العرب واثقون حتى

الآن من أن كيسنجر خدعهم وخانهم آنذاك.

وإذا نظرنا إلى ما حصل بمنظار العرب فهم على حق[9].

فيصل المجرّب الحكيم اكتشف حقيقة كيسنجر ورياءه.

وقد يتساءل البعض: ألم يكن سبب كراهية فيصل لكيسنجر أنه يهودي؟

أحمد زكي يماني يرد معترضاً: "هذا شيء لا علاقة له بالقضية إطلاقاً".

يؤكد يماني أنه شخصياً، وكذلك الملك فيصل، لم يكونا من المعجبين بكيسنجر. لكن الملك فيصل لم يتطرق مطلقاً إلى ديانة هذا الرجل. ويضيف يماني: ... ولا مرة. فلا فرق عند الملك فيصل، وعندي أيضاً، من هذه الناحية إطلاقاً. الحقيقة أنني أحترم كل الأذكياء، وكيسنجر ذكي للغاية. والتعامل مع الذكي أمر يبعث على الارتياح بصرف النظر عمّا إذا كان يشاطرك الرأي أو يخالفك. ففي هذه الحالة كأنما تستولي عليك الرغبة في المجازفة والتمادي في اللعبة. طبيعي أنني كنت أدرك أن كيسنجر لم يكن محايداً تماماً، إلا أن ذلك لم يمنعني من التعامل معه، لعدم وجود خيار آخر على الأقل...[10]

خلال زيارته التالية إلى المملكة العربية السعودية في بداية 1975م أفرط كيسنجر في الإطراء والثناء على الملك فيصل وجهاً لوجه. إلا أنه عندما عاد إلى الفندق واختلى بموظفيه انهال عليه أمامهم بقدر مماثل من القدح والتجريح.

علّق أحمد زكي يماني على قول إيكينز إن كيسنجر تعامل مع العرب "كنصّاب حقيقي" فقال: ... إيكينز أعرف بالطبع لأنه حاصل على المعلومات اللازمة. أنا لم أكن مطلعاً على المحادثات التي أجراها كيسنجر مع المصريين والسوريين والإيرانيين. إلا أن إيكينز قال لي مراراً إن كيسنجر يخدع العرب. وكان على إيكينز كسفير أن يلزم الصمت. ثم إن آخرين قالوا لنا الشيء ذاته... كان الملك فيصل حاد الذهن حتى خُيّل إليّ أحياناً أنه يقرأ أفكار الآخرين. صحيح أنه ما كان يظهر عليه أنه اكتشف كذب كيسنجر علينا. فالملك يجيد أداء الدور حتى النهاية...[11]

المعروف أن كيسنجر لم يكذب على العرب وحدهم.

بعد عام 1973م اختلفت مهمات فيصل والسادات. فالرئيس المصري كان يريد توقيع معاهدة انفرادية مع إسرائيل بهدف استعادة سيناء ورفع أعباء سباق التسلح عن كاهل مصر، والتحول إلى حليف أمين للولايات المتحدة. أما بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية، فالمهم هو استعادة القدس الشريف ووقف موجة الميول اليسارية في الأقطار العربية. وعندما زار الملك فيصل مصر سنة 1974م عبر قناة السويس بارتياح ليتمشى في أرض سيناء المحررة. إلا أن المسافة إلى القدس لا تزال طويلة جداً، فيما كان السادات مهتماً بسيناء وحدها.

من المستبعد أن يكون فيصل مرتاحاً لمكانته كزعيم جديد للدول العربية. فهو في النزاع العربي الإسرائيلي

مضطر إلى التعاون مع الأنظمة العربية اليسارية التي لا يشاطرها معتقداتها. وبعد الحرب، سمح على مضض لحركة "فتح" بأن تفتح ممثلية لها في الرياض. كانت تلك التفاتة طيبة إلى الفلسطينيين، إلا أن دخولهم المملكة كان مقيّداً ومحدوداً. فالمملكة التي تموّل منظمة التحرير الفلسطينية لا تريد أن تتحول إلى ملجأ للفلسطينيين. والملك فيصل يتحاشى الانجرار إلى النزاع المسلح مع إسرائيل على الرغم من إرسال قوات سعودية إلى سورية في عام 1973م.

لقد قاد فيصل بلاده عبر سنوات العاصفة في عهد جمال عبد الناصر، وتمكن من الابتعاد عن انفجار الخطاب الثوري في سورية والعراق تحت حكم البعث، وعن خطاب القوميين في منظمة التحرير الفلسطينية. ولم يكن للعلمانية والاشتراكية اللتين دعت إليهما الحركات القومية العربية صدى إلا عند أقلية ضئيلة جداً من سكان المملكة. فالسعوديون لا يستسيغون مواقف غير مرتبطة بالإسلام، وأي نظرية سياسية تدعو إلى اقتسام الثروات النفطية مع الدول العربية الفقيرة تواجه في المملكة بالاستنكار. فقد عاش عرب الجزيرة قروناً طويلة في عوز وفاقة، وكانوا على شفا الانقراض، ولم يمدّ لهم إخوانهم العرب الأكثر ثراءً يد العون أبداً. السعوديون يريدون الاستقرار، وما كانوا راغبين في التبدلات التي تهز الجذور والأصول. كان من دواعي فخارهم أن زعماء أقوى دول العالم في 1973-1974م

طأطأوا رؤوسهم أمام مليكهم راجين منه أن يزودهم بالنفط.

لقد دفعت جهود الملك فيصل واشنطن إلى التعجيل في المعالجة الجادة للخطط الرامية إلى التسوية في الشرق الأوسط، وكان سلاح النفط فاعلاً بقدر ما. فقد أضفى حظر البترول الذي ما كان سيتم من دون المملكة العربية السعودية بعداً آخر على النزاع العربي الإسرائيلي، وعلى علاقات العالم الإسلامي مع دول الغرب. وأخذ السياسيون في أوروبا الغربية يستخدمون عبارات ومفردات دخلت الخطاب المعتاد عندهم بعد 1973م، من قبيل "السلام العادل الوطيد" و"التسوية العادلة الطويلة الأمد" و"حقوق الفلسطينيين المشروعة".

إلا أن مدينة القدس، مع فلسطين كلها، بقيت محتلة، وكان لا بد من تعبئة باقي مسلمي العالم، وليس العرب وحدهم، لدعم النضال ضد إسرائيل. احتلال القدس هيّج مشاعر الرأي العام في العالم الإسلامي بأسره، وأرغم زعماءه على الكلام بلغة الملك فيصل والتقيد بمنطقه.

في بداية 1974م دعا الملك فيصل زعماء الأقطار الإسلامية إلى لقاء في لاهور.

لم يرفض أحد ممن وُجهت إليهم الدعوة الحضور. ذلك هو مدى الاحترام الذي يتمتع به الملك فيصل في بلاد المسلمين. حتى صدام حسين رأى أن يأتي من العراق إلى باكستان. وحضر سبعة زعماء آخرين ممن لم

يشاركوا في قمة الرباط، وهم رؤساء بنغلاديش والكاميرون والغابون وغينيا - بيساو وأوغندا والفولتا العليا. ولم تُعتبر منظمة التحرير الفلسطينية مجرد مراقب، بل عضواً كامل الحقوق في منظمة المؤتمر الإسلامي، وحظي ياسر عرفات بتشريفات التكريم كرئيس دولة.

عُقد اللقاء في فبراير 1974م وكان فيه كلام كثير. أعلن رئيس الوزراء الباكستاني ذو الفقار علي بوتو مثلاً "أن جيش باكستان هو جيش الإسلام. وسنمضي إلى القدس الشريف حاملين السلاح"[12].

وأسفر التضامن الإسلامي عن خطوات عملية في بعض المجالات، وإن بصورة وقتية.

فقد أوقف العراق خلافاته مع إيران واستأنف العلاقات الدبلوماسية معها. وترك الزعيم الليبي معمر القذافي موقتاً خلافاته مع أنور السادات والملك فيصل. وأقامت المملكة العربية السعودية اتصالات مع الحكومة المتشبثة بالماركسية في اليمن الجنوبي. وحتى باكستان ابتسمت قليلاً لبنغلاديش التي كانت لزمن غير بعيد تؤلف الجزء الشرقي منها واعترفت باستقلالها.

واستأنفت سورية والأردن العلاقات الدبلوماسة المقطوعة بينهما من عام 1970م، من عهد الاشتباكات المسلحة الأردنية الفلسطينية.

لقاء قمة دول منظمة المؤتمر الإسلامي في لاهور بات في أنظار الحاضرين مؤتمراً للمنتصرين، وبدا

تجسيداً لانتصار فكرة الملك فيصل عن التضامن الإسلامي.

اتخذ المؤتمر بالإجماع قراراً بشأن النزاع في الشرق الأوسط، والتزم زعماء الدول الإسلامية بالعمل ضد إسرائيل في جميع الميادين، ودعوا إلى سحب القوات الإسرائيلية فوراً، ومن دون قيد أو شرط، من جميع الأراضي العربية المحتلة، ونددوا بالولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى لتأييدها لإسرائيل، وناشدوا جميع الدول الإسلامية أن تدعم منظمة التحرير الفلسطينية.

وتألفت لجنة اقتصادية من ممثلي خمس دول نفطية غنية وثلاث دول أخرى من أعضاء منظمة المؤتمر الإسلامي أقل ثراءً، من أجل رسم سبل تخفيف الآثار الاقتصادية الناجمة عن ارتفاع أسعار النفط وعواقبه على البلدان المستوردة.

وطالب الزعماء المسلمون بنظام اقتصادي دولي جديد لإنهاء استغلال الدول المتطورة للدول النامية، وقرروا التزام موقف مشترك في الأمم المتحدة والهيئات الدولية الأخرى في ما يخص القضايا الدولية.

في الدورة التاسعة والعشرين للجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1974م، تمكنت الأقطار العربية بمساعدة الدول الإسلامية الأخرى من إمرار ثلاثة قرارات مهمة بشأن النزاع في الشرق الأوسط. أحدها دعا منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة بصفة مراقب في مداولات الأمم المتحدة عن القضايا الفلسطينية، وأكد

حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم. وفي العام ذاته، تمكنت الدول العربية بمساعدة الأقطار الإسلامية أيضاً من إمرار قرارين في لقاء اليونسكو في باريس يدينان إسرائيل ويوقفان عضويتها نهائياً في هذه المنظمة. ورداً على ذلك، علّقت الولايات المتحدة وبريطانيا عضويتهما في اليونسكو.

الآلية التي استحدثها فيصل ظلت تعمل بعد وفاته، وأضفت استراتيجيته صدقية وشرعية دولية على قضية الكفاح العربي ضد إسرائيل.

ففي الدورة الثلاثين للجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1975م تمكنت الدول الإسلامية من إمرار قرار يدين الصهيونية كشكل من أشكال التفرقة العنصرية.

وفي العام التالي، اتخذت الجمعية العامة قراراً يدعو إلى تأسيس وطن قومي للفلسطينيين في الأراضي المحتلة من قبل إسرائيل في الضفة الغربية وقطاع غزة.

كذلك توسعت وظائف منظمة المؤتمر الإسلامي نفسها. ففي أغسطس 1974م، تأسس في مؤتمر وزراء مال الدول الإسلامية في جدة بنك التنمية الإسلامي، بوصفه مؤسسة متخصصة ثانية لمنظمة المؤتمر الإسلامي، ومقره الدائم في جدة.

وفي يوليو 1975م، افتتح الملك خالد مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية في جدة وقال:

> ... ينعقد مؤتمركم هذا في سبيل المزيد من التضامن الإسلامي، وقد غاب عنا رائد

التضامن الإسلامي والداعية الأول إلى اتحاد المسلمين، المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز، حيث اختاره الله إلى جواره ورجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية. وإن خير تكريم لذكراه أن نعقد النية ونوطد العزم على المضي قدماً في إنجاح ما دعا إليه، طيب الله ثراه، من تضامن المسلمين، وتحقيق أمنيته الكبرى في أن يصلي في المسجد الأقصى، أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، وقد عادت القدس عربية حرة خالصة لوجه الله والدين، بإذن الله[13].

وبعد عام 1973م، حاول الإسرائيليون التنصل من قرارات الجمعية العامة، كما كان يفعل حكام جنوب أفريقيا البيض طوال عقد كامل. ورفضت غولدا مائير وحلفاؤها فوز الكتلة الإسلامية في الجمعية العامة، معتبرين إياه "أصواتاً مأجورة". إلا أنهم في أحاديثهم الشخصية كانوا يتألمون لتفتت المكانة المعنوية لإسرائيل. فإن تعبير "الدولة الفلسطينية المستقلة" المرفوض قطعاً من قبل الصهاينة أخذ يتردد أكثر فأكثر، رغم أن وقتاً طويلاً بحوالى ثلاثين عاماً كاملة كان سيمر قبل أن ينطق زعماء إسرائيل بهذا التعبير عبر أسنان مصطكة. إلا أنهم ينطقونه بتفريغ مفهوم "الدولة" من محتواه. وكان لا يزال في ثنايا المستقبل الاندفاع والتراجع في فاعلية التضامن الإسلامي دعماً لنضال العرب ضد إسرائيل. وكان سيأتي وقت تلغي فيه

الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها بإدانة الصهيونية كشكل من أشكال التفرقة العنصرية. إلا أن الرأي العام في الأقطار الإسلامية بات معبّأً وقائماً على مبادئ العداء للصهيونية.

لم يكن هناك من يشك في النجاح الاقتصادي والسياسي والمعنوي للمملكة العربية السعودية والملك فيصل شخصياً. حظر البترول استطاع أن يوصل إلى العالم كله في الأخير الفكرة المتعلقة بأهمية العالم العربي للاقتصاد العالمي كله، وضرورة التسوية الشرق أوسطية بمراعاة مصالح العرب وجميع المسلمين. إلا أن السياسة الواقعية والفعلية تتطلب حسابات باردة متزنة. وباتت إطالة أمد المواجهة مع الولايات المتحدة بنتيجة حظر البترول أمراً لا جدوى منه بالنسبة إلى مصالح المملكة العربية السعودية نفسها، ولم تعد تساعد على تنفيذ الأهداف الاستراتيجية التي رسمها الملك فيصل.

بعد توقيع الاتفاقيات الأولى للفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية، اتصل أنور السادات بالملك فيصل وناشده أن يرفع حظر البترول. ولا يبدو غريباً الافتراض بأن السادات وعد كيسنجر أنه سيعمل في مصلحة الأميركيين ويساعدهم في تجاوز الأزمة النفطية.

وهذا ما يؤكده أحمد زكي يماني أيضاً: ... أراد السادات أن نرفع حظر البترول فور توقيع تلك الاتفاقيات تقريباً. وقد نقلت أنا شخصياً رأيه إلى الملك

فيصل. إلا أن الملك لم يوافق. كان يعتقد أن الأمر سابق لأوانه تماماً...[14].

وفي فبراير 1974م، حضر الملك فيصل القمة العربية في الجزائر، كما حضرها أنور السادات والرئيس الجزائري هواري بومدين والرئيس السوري حافظ الأسد. وقرر رؤساء الدول السير بالأمور لجهة إلغاء حظر البترول من أجل تشجيع جهود واشنطن الرامية إلى فصل القوات على الجبهة السورية الإسرائيلية.

وفي 19 مارس 1974م رُفع الحظر البترولي.

ظلت إسرائيل تحتل القدس، فيما استمر التعاون الأميركي الإسرائيلي على حاله. إلا أن جهود كيسنجر للفصل بين القوات أعادت إلى العرب جزءاً من الأراضي المحتلة على الأقل.

وأبدى الرئيس نيكسون اهتماماً متزايداً بالشرقين الأدنى والأوسط، فقام في يونيو 1974م بزيارة لمصر وسورية وإسرائيل والأردن والمملكة العربية السعودية. وكما يصادف عادة في هذه المنطقة من العالم، سمع من زعماء تلك البلدان ما يسرّه.

كتب نيكسون في مذكراته يقول:

> عندما حطّت الطائرة في جدة كانت درجة الحرارة 100 فهرنهايت (حوالى 35 درجة مئوية). ورغم ذلك استقبلنا الملك فيصل في المطار. كان يبدو أكثر شيخوخة من سنه البالغة 67-72 عاماً حسب معلومات استخباراتنا.

فيصل يرى مؤامرات الصهيونية والشيوعية في كل مكان حوله، حتى إنه طرح فكرة لعلها الذروة في تصوراته التآمرية، فهو يعتقد أن الصهاينة يقفون من وراء الإرهابيين الفلسطينيين. وعلى الرغم من هذه الفكرة التي تلاحقه، فقد كان، بفضل فطنته وخبرته التي اكتسبها طوال سنين من بقائه في السلطة، أحد أكثر الزعماء حكمة في المنطقة كلها.

المملكة العربية السعودية لا تشارك مباشرة في مفاوضات السلام في الشرق الأوسط، إلا أنها تؤدّي دوراً كبيراً في تحريك عملية السلام بفضل منزلة الملك فيصل في العالم العربي، وبفضل المساعدات المالية الضخمة التي تقدمها إلى سورية ومصر. كذلك تمكنت أن أبحث معه التأثير الخطير لارتفاع أسعار النفط على النطاق العالمي بسبب حظر البترول العربي الأخير، وأعربت عن تأييد جهوده في إبقاء الأسعار في الحدود المعقولة.

وقد دهشت، وكذلك الصحافيون الذين كانوا معنا عندما قال فيصل: إن كل من يعادينا، يا فخامة الرئيس، في الولايات المتحدة وخارجها، أو يعمل ضدنا وضد أصدقائنا في هذا الجزء من العالم، إنما

يسعون إلى هدف واحد هو انقسام العالم...
الأمر الذي يزعزع الاستقرار والسلام العالمي.
فليكن الله في عوننا لنسير يدأ بيد من أجل
السلام والعدالة والازدهار في العالم أجمع...
.15

في أعقاب زيارة الرئيس الأميركي وصل وزير الخزانة الأميركي بيل (وليم) سايمون. كان شأن رئيسه، يوزع الابتسامات ويسعى إلى الحصول على تعهدات في شأن استمرار توريد النفط إلى الولايات المتحدة بكميات متزايدة، وإلى جعل السعوديين يودعون الجزء الأكبر من مليارات العائدات النفطية في بنوك الولايات المتحدة.

جرى آخر لقاء لفيصل مع كيسنجر في فبراير 1975م. قبيل ذلك توفي وزير الدولة السعودي للشؤون الخارجية عمر السقاف، فبعث فيصل أحمد زكي يماني لاستقبال كيسنجر.

تحدث يماني إلى كيسنجر في الطريق من المطار إلى الرياض، وكان، في اعتقاد يماني، متوتراً.

هدف زيارة كيسنجر هذه المرة هو إقناع الملك فيصل بالموافقة على الاتفاقية المصرية - الإسرائيلية الثانية للفصل بين القوات.

إلا أن فيصل لم يوافق. كان يعتقد أن الاتفاقية الثانية يجب أن توقّع بين إسرائيل وسورية. وقد كان توّاً في زيارة لسورية حيث استقبل بمنتهى الحفاوة، ودار بينه وبين الرئيس حافظ الأسد حوار طويل.

حاول كيسنجر أن يقنع الملك فيصل بعدم تقييد جهوده، واعداً بأنه سيعمل على توقيع الاتفاقية بين إسرائيل ومصر أولاً، ثم بين إسرائيل وسورية.

فقال فيصل: كلا.

وتعهد كيسنجر: "سنبذل كل الجهود لتوقيع الاتفاقية بين إسرائيل وسورية فور توقيع الاتفاقية المصرية الإسرائيلية".

فكرر فيصل: "كلا. أنا أعارض. الاتفاقية بين إسرائيل وسورية أولاً"[16].

كان الملك فيصل يريد تسوية حقيقية - كاملة وشاملة. في المرحلة الأولى على إسرائيل أن تتوصل إلى اتفاق مع الذين قاتلوها، مع مصر وسورية، ولكن معهما كليهما. سحب القوات هو مجرد مرحلة تمهيدية للتسوية النهائية. إلا أن سحبها من الجبهة السورية يعني تسليم مرتفعات الجولان إلى السوريين، وهذا ما لا تريده القيادة الإسرائيلية ولا كيسنجر.

وقد أدرك فيصل خفايا لعبة وزير الخارجية الأميركي: فإذا اتفقت إسرائيل ومصر تخرج الأخيرة من المواجهة وتبقى المشكلة السورية، فضلاً عن قضية القدس الشريف، من دون حل.

بعد اللقاء رافق أحمد زكي يماني كيسنجر إلى المطار. وكان الوزير الأميركي يكرر طول الوقت: "لن نتمكن من توقيع الاتفاقية الثانية بين إسرائيل ومصر"[17]. كان يخشى ألا يتم توقيع هذه الاتفاقية من

دون موافقة الملك فيصل. فالسادات ما كان بوسعه، والحال هذه، أن يتجاهل رأي فيصل.

وتعيّن على الملك فيصل من جديد أن يطبّق سياسة متعددة الاتجاهات. عليه أن يمارس الضغط السياسي على الولايات المتحدة، ويبني في الوقت ذاته منظومة المصالح السعودية - الأميركية المتشابكة في الاقتصاد والمالية والمجال العسكري. وفي بداية عام 1974م أخذت ترد من واشنطن إشارات عن استعدادها لمراعاة موقف المملكة العربية السعودية. كذلك أخذت تتبدل طبيعة العلاقات بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية. وفي فبراير 1974م قررت الولايات المتحدة أن تبيع المملكة دبابات حديثة وسفناً حربية ومقاتلات لم تكن قد باعتها للأقطار العربية مطلقاً. وكانت تلك بالنسبة إلى الملك فيصل خطوة فعلية إلى الإمام.

إلا أن معلومات مقلقة أخذت تصل من الولايات المتحدة إلى المملكة العربية السعودية في الوقت ذاته...

الفصل السادس والعشرون

التهديدات الأميركية باحتلال الحقول النفطية

في بداية 1974م نشر وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر ووزير الخزانة وليم سايمون، "ملك" الطاقة المتوّج حديثاً في الولايات المتحدة، بياناً شديد اللهجة في الصحف، قالا فيه "إن رائحة الابتزاز والاستفزاز تفوح في الجو"، ملمّحين بذلك إلى المملكة العربية السعودية والملك فيصل شخصياً. آنذاك وُلدت في واشنطن فكرة تأسيس منظمة للدول المستوردة للنفط لتقف في وجه منظمة الدول المصدرة للنفط "أوبك".

كانت واشنطن تخشى، وهي على حق، من أن الرغبة في إرواء العطش النفطي ستجعل دول أوروبا الغربية تنقلب على سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وتبحث عن اتصالات مستقلة وحلول وسط مع مصدري النفط. وبدورها كانت دول أوروبا الغربية واليابان تخشى من أن الولايات المتحدة التي توجد فيها مقار خمس من "الشقيقات السبع"، واعتمادها على استيراد النفط أقل من الباقين، ستحاول الخروج بمنافع أحادية الجانب من الصعوبات الاقتصادية التي تواجهها تلك الدول.

في 11-13 فبراير 1974م عقد في العاصمة الأميركية اجتماع مغلق لممثلي الولايات المتحدة ودول

الاتحاد الاقتصادي الأوروبي واليابان وكندا والنرويج، بحثت فيه سبل الخروج من أزمة الطاقة المتفاقمة. وتقرر تأسيس وكالة دولية للطاقة وظائفها ومهماتها مائعة وغير واضحة تماماً. إلا أن مواد الاجتماع والبيان المشترك والأصداء الكثيرة عليه، تُبيّن أن القضية لم تكن محصورة بالنفط. فقد كان هناك صراع ناجم عن الاصطفاف الجديد للقوى داخل العالم الغربي نفسه.

فرنسا رفضت طريق المواجهة الذي اختارته الولايات المتحدة وراحت تبحث عن إمكانات التعاون مع الدول المصدرة للنفط، ولاحت بوادر التعاون الفرنسي - السعودي.

في تلك الأثناء دعت الجزائر إلى عقد دورة للأمم المتحدة لبحث المشاكل الاقتصادية في جنوب المعمورة، وحظيت الدعوة بتأييد معظم أعضاء هذه الهيئة الدولية.

أرسل الملك فيصل إلى نيويورك وفداً برئاسة أحمد زكي يماني الذي عرض أفكار العاهل السعودي الجديدة في هذا الخصوص، حيث دعا إلى عقد مؤتمر مختص "للشمال والجنوب" ينظر في كل مشاكل العلاقات بين الدول المتطورة والنامية، بما فيها مشاكل الوقود والطاقة.

وأرسل الرئيس الفرنسي آنذاك فاليري جيسكار ديستان رسالة إلى الملك فيصل اقترح فيها أن تنظم فرنسا والمملكة العربية السعودية معاً مؤتمراً تحضيرياً لعشر دول. وسرعان ما شرع البلدان في تنفيذ الفكرة.

وقد عارض الأميركيون المؤتمر واصفين الخطة بمحاولة لشل وكالة الطاقة الدولية وهي في مهدها. أما بريطانيا فقد اعتبرته، في أفضل الأحوال، مشروعاً فارغاً يكرر المشاريع التي في طور التنفيذ، أو عائقاً مؤسفاً في أسوأ الأحوال.

الملك فيصل، الحذر البعيد النظر، فضّل أن يبقى في الظل، فترك للرئيس جيسكار ديستان فرصة أداء دور قائد الأوركسترا لمؤتمر "الشمال - الجنوب" المقترح. جاء ذلك تصرفاً حكيماً من الملك عندما تنازل للرئيس الفرنسي عن النجاح المنتظر وعن الفشل المحتمل. وكان على حق. فالفكرة الجميلة المتكاملة سرعان ما تفككت إلى أفكار جزئية عديدة، واصطدمت بتناقضات أفرغتها من محتواها في الواقع.

وقد تبنّى جيسكار ديستان فكرة المشروع بحرص وعناية، إلا أنه اعترف بنهايته في آخر المطاف بكل أسف.

بعد ستة أشهر من لقاء فبراير في واشنطن، توصل أعضاء ما يسمى "الفريق التنسيقي للطاقة" الذي ضمّ ممثلي 13 دولة مشاركة في اللقاء إلى اتفاق تمهيدي في شأن قضية النفط، وقرروا، في حال حصول تفاقم جديد في أزمة الطاقة، تقليص استهلاك النفط بنسبة 7-10٪ وتوحيد احتياطياتهم من النفط. وأخذوا في الوقت ذاته يدعمون برامج تطوير مصادر الطاقة البديلة. وأخيراً، في نوفمبر 1974م، أعلنت الدول الغربية المتطورة صناعياً تأسيس الوكالة الدولية

للطاقة. إلا أن فرنسا وفنلندة واليونان رفضت الانضمام إليها.

في عام 1975م حاولت واشنطن تفعيل الوكالة الوليدة، لاستخدامها أداة فاعلة في الصراع ضد الدول المصدرة للنفط. وفي المؤتمر المنعقد في بداية فبراير، وضع أعضاء الوكالة نصب أعينهم هدف تقليص استيراد النفط بنسبة 10٪، أو ما يعادل 100 مليون طن سنوياً، والتعجيل في تطوير المصادر الأخرى للطاقة وخفض أسعار الوقود السائل. إلا أن هذه السياسة تنطوي على تناقضات خطيرة، ذلك لأن النفط الأرخص يجعل الكثير من باقي أنواع الطاقة غير مربحة، ولا يبقى معنى للاستثمارات الهائلة في هذا المجال. وكان المخرج المقترح إرغام دول أوبك على خفض أسعار خاماتها مع إبقاء تلك الأسعار مرتفعة داخل البلدان المستوردة، وذلك بفرض ضرائب عالية عليها. وبذلك يحصل اقتصاد الغرب من جديد على جزء كبير من قيمة النفط الخام، وعلى مدفوعات إعادة تنظيم بنية استهلاك الطاقة بإرغام الدول النامية المصدرة للنفط على تسديد تلك المدفوعات من جهة، والمستهلكين في أوروبا الغربية وأميركا واليابان من الجهة الأخرى.

وتقيدت دول أوبك بالرأي القائل بضرورة ربط أسعار النفط بأسعار السلع الأساسية التي تصدرها الدول الصناعية. وفي اجتماعها في الجزائر في مارس 1975م، دعت هذه الدول إلى حوار سلمي بين البلدان

النامية والأقطار المتطورة وإلى إرساء التعاون الدولي على أسس متكافئة متبادلة النفع.

وأخذت أوروبا الغربية واليابان تقيم اتصالات مباشرة مع الدول المنتجة للنفط. وراحت دولة متطورة إثر أخرى، ومن دون وساطة الولايات المتحدة أو "الشقيقات السبع"، توقّع صفقات إرساليات الأجهزة الصناعية، وحتى الأسلحة في بعض الحالات، مقابل النفط. وبحثت أوروبا الغربية مسألة التعاون الإقليمي الواسع مع العالم العربي. وبدت الدعوات إلى هذا التعاون على لسان المستعمرين السابقين نوعاً من التملق والمداهنة. وادّعت جريدة "لوموند" أنه

> ليس لدى الأوروبيين مطامع إمبريالية. وهم لا يسعون إلى الأحلاف العسكرية، ولا يعتبرون أنفسهم دركاً يحرس نوعاً معيناً من الحضارات، وهم لا يمتلكون مناطق نفوذ تدفعهم إلى الدفاع عنها. أوروبا تستطيع أن تقدم إلى العالم الثالث معارفها العلمية والتكنولوجية وخبرة دولها الصناعية[1]

على حدّ تعبير الجريدة الفرنسية.

قوّم الملك فيصل الوضع ببرود أعصاب، وحسب الحساب لاحتمالات تصرف اللاعبين الرئيسيين على الساحة الدولية.

النجاح الاقتصادي كان حليفاً للعرب. فقد فرضوا سيطرتهم على نفطهم وتمكنوا من رفع أسعاره مراراً. وازداد وزن ونفوذ المملكة العربية السعودية وباقي دول

أوبك في السياسة العالمية والشؤون المالية الدولية بقدر كبير للغاية. وأفلح العرب في إنشاء جبهة للأقطار الإسلامية مناهضة لإسرائيل والصهيونية، رغم عدم تمكنهم من تحرير الأراضي المحتلة، وخصوصاً القدس الشريف.

ولكن هل ستسكت الولايات المتحدة الجبارة وحلفاؤها عن وضع كهذا؟ ماذا لو تحول حليف الأمس إلى محتل ومعتدٍ؟ فليس من قبيل الصدفة أن أصرّ والد فيصل الملك الحكيم عبد العزيز في لقائه مع الرئيس الأميركي روزفلت في عام 1945م على عدم دخول القوات الأجنبية إلى المملكة العربية السعودية.

بعض الرؤوس المحمومة في واشنطن أخذت تنادي باستخدام السبل المباشرة لاستعادة السيطرة على أسعار النفط وحقوله، أي بالاحتلال العسكري للمملكة العربية السعودية وإمارات الخليج النفطية. وكانت تفوح من ذلك رائحة مغامرة واسعة النطاق.

وعمد ممثّلو الإدارة الأميركية إلى تكذيب وإنكار وجود مثل هذه المخططات. وأعلن كيسنجر

> أن التدخل العسكري لا يمكن أن ينظر فيه إلا بصفة الإجراء الأخير للحيلولة دون انهيار العالم الصناعي، وليس لخفض أسعار البترول[2].

إلا أن "الصقور" في الولايات المتحدة تحدثوا عن الحرب، وفيصل يتابع ذلك بكل اهتمام. كان يقلقه مجرد واقع وجود أشخاص يمكن أن يقترحوا مثل هذه

المغامرة. فاليائسون يمكن أن يقترفوا أحياناً أفعالاً يائسة، مستميتة ومميتة.

كتبت بعض الصحف الغربية في بداية عام **1974**م تقول: "نحن في حاجة إلى شارل مارتيل جديد لمعركة جديدة مثل معركة بواتيه" التي أوقف فيها الفرسان الفرنسيون بقيادة مارتيل الفتوحات العربية في أوروبا في القرن الثامن الميلادي. ولم يكن ذلك الكلام مجرد كناية بلاغية. فالعواصم الأوروبية، شأن واشنطن، لم تكن تستبعد احتمال تصفية الحساب مع مجموعة من البلدان النامية الضعيفة عسكرياً والتي تجرأت على تطبيق سياسة مستقلة في الساحة الدولية.

في نهاية سبتمبر **1974**م حذر الرئيس الأميركي فورد ووزير خارجيته كيسنجر، وإن بلهجة مبطنة، البلدان المصدرة للنفط من أن أفعالها يمكن أن تقود إلى الحرب. ففي خطابه أمام مندوبي المؤتمر العالمي للطاقة في ديترويت قال الرئيس الأميركي: "على امتداد التاريخ شنّت الأمم الحروب بسبب ثروات طبيعية مثل الماء والطعام" وأضاف:

> من الصعب بحث مشكلة الطاقة من دون استخدام لغة يوم القيامة. فالخطر بادٍ للعيان، وهو خطر عظيم[3].

تشير كل الدلائل إلى أن هذه "الرواية المفزعة" ولدت في مخيلة كيسنجر. ففي محادثاته مع السادات وغولدا مائير حاول أن يضغط عليهما بتخويفهما من مغبة العواقب السياسية. إلا أنه في أحاديثه مع الملك فيصل

ما كان يستطيع القيام بذلك، فلجأ إلى أسلوبه المعتاد في التلميحات التي تحتمل معنيين، في البداية بطرق التفافية ملتوية (من خلال التسريبات الصحافية) ثم في الخطب والتصريحات على الملأ.

كتبت مجلة "نيوزويك" عن "التدخل العسكري" تقول: "ليكون التدخل فاعلاً يجب توجيهه ضد المملكة العربية السعودية التي هي أكبر منتج للنفط". وكان المفروض أن تتولى القيام بهذا التدخل الفرقة المظلية الأميركية الـ82 المدربة خصوصاً على هذا النوع من العمليات، ثم بعض وحدات حلفاء الولايات المتحدة وإسرائيل على الأرجح.

هذه الصيغة الجديدة "لمعركة بواتيه الأميركية" ضد الدول النفطية العربية أفزعت البعض كثيراً. وعلى فكرة، فحتى مجلة "نيوزويك" نفسها أقرّت بأن عواقب مثل هذا التدخل "ستكون كارثية".

رأت البلدان المنتجة للنفط أن ترد على هذه التهديدات. فأعلن وزير المال والنفط الكويتي آنذاك عبد الرحمن سالم العتيقي قائلاً:

> ليست لدينا قوة نارية كافية لنقاتل الذين وصلت صواريخهم إلى القمر، لكننا لن نستسلم، وسيضطرون إلى قهرنا بالقوة، ولكننا لن نستسلم حتى في هذه الحالة.

وأعلن وزير البترول والثروة المعدنية السعودي أحمد زكي يماني معبّراً عن رأي الملك فيصل أن التدابير الحربية ضد الدول النفطية غير ممكنة. فالعملية

الحربية تعني هبوط الإنتاج بنحو خطير، ما يؤدي إلى ركود عالمي شامل... ولا أحد يمكن أن يفكر في القيام بذلك إذا كان سليم العقل.

ندّد جون بول نائب وزير الخارجية الأميركي سابقاً بالدعوات إلى العمليات الحربية ضد الدول النفطية وكتب يقول:

> زمن التهديدات مضى وانقضى. لا أحد من الذين يفهمون الوقائع الاستراتيجية الراهنة يمكن أن يتقبّل بجدية مغامرة حربية للاستيلاء على المناطق المنتجة للنفط. فتلك خيالات عتيقة. إن حضور روسيا في حوض البحر الأبيض المتوسط يشطب هذه المسألة من جدول الأعمال. ولذا، فلنواجه الحقائق التي لا جدال فيها: طالما أنه ما من حكومة في واشنطن تنوي تحويل المناطق المنتجة للنفط في الشرقين الأدنى والأوسط إلى جحيم نووي، فإن علينا ألا نتحدث عن مثل هذه الأمور. الأمم الكبرى لا تلوّح أبداً بتهديدات إذا كانت لا تنوي القيام بها فعلاً.

مرت عدة أسابيع وبدا كأن "حرب الأعصاب" خفتت.

إلا أن مجلة "كومنتري" الصادرة عن اللجنة اليهودية الأميركية نشرت في يناير 1975م مقالة تحدثت فيها من جديد عن خطر غزو ساحل الخليج من الكويت حتى قطر حيث يستخرج 40٪ من نفط دول أوبك.

وبعد أيام تحدث وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر في مقابلة مع مجلة "بيزنس ويك" عن تأملاته في شأن الملابسات التي يمكن الولايات المتحدة أن تشن فيها عمليات حربية في الشرق الأوسط بسبب النفط. وعلى الرغم من تأكيداته أن القوة يمكن أن تستخدم في "ملابسات استثنائية جداً"، لم يستبعد إمكان استخدامها إذا تعرضت الدول الصناعية "فعلاً لخطر الاختناق". ولأول مرة تحدث مسؤول في الحكومة الأميركية بهذه اللهجة عن عمليات حربية محتملة. وأيّد الرئيس فورد وزير خارجيته، فيما أكد وزير الدفاع شليسنجر أن إنزال قوات أميركية في منطقة الخليج "أمر قابل للتنفيذ".

ولكن هذا كلام أُلقي على عواهنه من دون اعتبار للوقائع على الأرض. كل حلفاء الولايات المتحدة في الحقيقة تنصلوا من المشاركة في "الحملة الصليبية الكيروسينية". كذلك نددت بالدعوات إلى هذه الحملة شخصيات سياسية أميركية مسموعة الكلمة. وبات واضحاً أن العرب كانوا سيُبدون مقاومة مسلحة للغزو الأميركي، ويفجرون الحقول النفطية على رؤوس الأميركيين كإجراء جوابي أول، فيما يخيّم ظل الاتحاد السوفياتي الذي انتفخت عضلاته الحربية في تلك الفترة على المنطقة كلها.

احتدم الموقف، وتراجعت واشنطن عن تهديداتها. ورأى كيسنجر في نهاية يناير 1975م أن "يوضح" أقواله السابقة، فذكر "أن العملية الحربية لا تصلح لحل

مسألة أسعار البترول"، ودعا إلى حوار مع دول أوبك. وكذّب الناطق باسم البيت الأبيض رسمياً النبأ القائل بأن الولايات المتحدة تعدّ ثلاث فرق لعمليات حربية في الشرق الأوسط، ونسب إلى وزير الدفاع شليسنجر قوله إن هذه الشائعات "بلهاء".

فمن أين سرت الأقوال عن الحرب إذن؟ أوضح وزير الدفاع الأميركي جيمس شليسنجر في ما بعد قائلاً:

> لو قرأتم نصوص مؤتمراتي الصحافية في تلك الفترة لرأيتم أن شخصاً سألني: إذا أمرك الرئيس أن تفعل فهل تستطيع أن تستولي على الحقول النفطية؟ وأجبت عن السؤال: نعم. ثم أخذ كيسنجر يتكلم عن مسألة "الاختناق" كما تتذكرون. وهي من آرائه الجيوسياسية. فقد قال ما معناه إن الدولة العظمى لا يمكن أن تسمح لدولة أصغر أن تخنقها، ولذا فهي مستعدة للقيام بعمليات ما... إلا أنني لا أعتقد بأن أحداً كان يفكر في هذا الأمر جدياً... كنت مستعداً للاستيلاء على أبو ظبي، على شيء صغير لا أكثر. من الناحية العسكرية كان بوسعنا أن نستولي على إحدى الدول العربية. إلا أن هذا المخطط أرعب الجميع حقاً، فثارت له ثائرتهم. كلا، لم يكن ذلك مجرد تبجّح أو تظاهر بالشجاعة، وإنما جاء تحذيراً واضحاً للعيان. وأعتقد أن العرب كانوا يخشون ذلك

حقاً بعد عام 1973م. ثم انفرج الموقف، وتحول ذلك كله إلى حقد دفين.

يؤكد أحمد زكي يماني أن الملك فيصل كان على علم بمخططات الاستيلاء على الحقول النفطية السعودية في أواخر سنة 1973م أو في بداية سنة 1974م. ويقول كنت قلقاً جداً عندما سمعت بذلك لأول مرة، لأنني أفهم أنه سيكون مصيبة ليس فقط على المملكة، بل على العالم كله...

كتب مسؤول كبير سابق في وزارة الدفاع الأميركية:

في تلك الأيام كان في كلية الأسطول البحري كثير من عقداء مشاة البحرية يتجولون في باحة الكلية ويقولون: هؤلاء الشياطين على ظهور الجمال سيعرفون قريباً من أين تنهال عليهم المصائب. أزمة النفط نغّصت حياة متوسطي الحال من الأميركيين، وخصوصاً الذين يقفون في طوابير المنتظرين أمام محطات البنزين. ولا جدال في أن الأزمة كشفت عن مكانة العرب المهمة في العالم ورفعت منزلتهم. لكن العرب لم يحصلوا على متعاطفين جدد في الولايات المتحدة. الكثيرون من العسكريين الأميركيين كانوا يقولون إن الحرب التي تخوضها إسرائيل حربنا.

كان موقف فيصل جدياً تماماً من الأكذوبة الأميركية. فقد بلغت مسامعه ليس فقط مخططات البنتاغون، بل

كذلك عمليات الإسرائيليين المحتملة. وكانت الصحف قد كتبت أنهم أيضاً وضعوا خطة الاستيلاء على الحقول النفطية التي يتوقع أن "يحررها" الأميركيون في ما بعد. كان ذلك هو السيناريو المعروف من مغامرة السويس عام 1956م. ولذا اتخذ الملك فيصل تدابير الحذر والحيطة، فعُززت حماية الحقول النفطية، وتلقى الحرس الوطني تعليمات بتدمير أهم المواقع إذا حصل هجوم مُعاد. وفي هذه الحالة يتقلص الاستخراج السعودي من النفط إلى حده الأدنى، فيما تحتاج قوات الاحتلال إلى ما لا يقل عن عام وإلى مليارات الدولارات لتشغيل الحقول النفطية من جديد. وسيؤدي اختفاء النفط السعودي من الأسواق العالمية طوال عام إلى عواقب كارثية يعيد التفكير فيها حتى أكثر الرؤوس المحمومة سخونة إلى رشدها.

وبالتدريج، خفت الكلام عن التدخل العسكري في دول الجزيرة العربية.

إلا أن الولايات المتحدة منذ بداية السبعينيات توصلت إلى استنتاج مفاده أن الوقت حان "لملء الفراغ" في الخليج العربي بعد انسحاب البريطانيين منه. كانت في مياه الخليج على مدار ربع قرن تقريباً قاعدة بحرية أميركية عائمة صغيرة تخدمها مدمرتان فقط. ولغرض تأمين مركز إسناد ومنشآت ساحلية أميركية، وقّعت الولايات المتحدة مع حكومة البحرين، بعد شهرين من انسحاب الإنجليز، اتفاقية استخدام قاعدتهم الخالية.

جرى تعزيز القوات البحرية الأميركية في الخليج العربي والمحيط الهندي في إطار الاستراتيجية الشمولية التي علّقت على تطوير الأسطول أهمية من الدرجة الأولى. "فمن يمتلك رمح نبتون الثلاثي النصال يمتلك تاج العالم". تلك هي الصيغة التي يقوم عليها موقف الاستراتيجيين الأميركيين إزاء دور الأسطول البحري الحربي. وفي **1971-1972**م شغلت القوة البحرية الأميركية، لأول مرة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، مرتبة الصدارة بين أنواع القوات المسلحة من حيث اعتمادات الميزانية.

وأخذت جزيرة دييغو غارسيا في أرخبيل شاغوس، على خط الاستواء تقريباً، تؤدي دوراً مهماً في توسيع التوغل العسكري الأميركي في المحيط الهندي. واشتركت الولايات المتحدة وبريطانيا في استخدام هذه القاعدة الجديدة، وسرعان ما تحولت الجزيرة المرجانية غير المألوفة وسط المحيط الهندي إلى قاعدة بحرية وجوية رائعة ذات مدرجات لهبوط الطائرات الثقيلة وإقلاعها، ومستودعات للوقود وثكن لوحدات المشاة وورشات للتصليح.

طموحات الدولة العظمى ومطامعها ومصالح الشركات النفطية والأهمية الاستراتيجية البالغة التي علقتها واشنطن على حوض الخليج العربي، كل تلك الأمور مجتمعة دفعت الولايات المتحدة إلى التوغل العسكري في هذه المنطقة. إلا أن خصوصية الموقف في بداية السبعينيات ومنتصفها جعلت الولايات

المتحدة آنذاك تتحاشى اللجوء إلى التدخل العسكري أو التظاهرات الحربية الواسعة في منطقة الخليج. فلماذا؟

يبدو أن المسألة تعود إلى جملة أسباب محلية ودولية، إقليمية وأميركية داخلية. "عقدة الفيتنام" المتمثلة في نفور الرأي العام الأميركي الشديد من التدخل المسلح بعد أول حرب خاسرة في تاريخ الولايات المتحدة، تشغل ربما المرتبة الأولى بين تلك الأسباب. فلا تزال طرية انطباعات الهزيمة المخزية، عار الأمة الأميركية، ولا يزال عالقاً بالذاكرة هلاك عشرات الآلاف من الأميركيين الشباب عبثاً في سبيل قضية غير عادلة. وقد دخلت تلك المشاهد والانطباعات كل دار في الولايات المتحدة من خلال شاشات التلفزيون في تلك السنوات، ولا يمكن أن تبقي أي تأييد لسياسة التدخل العسكري. كتب السيناتور جاري هارت في توصيف الأمزجة التي اكتنفت "أروقة السلطة" في واشنطن آنذاك:

> بعد الفيتنام صرنا نتصرف كالدب الذي دسّ أنفه في قفير النحل طلباً للعسل فلم يحصل إلا على لسع شديد. أما الآن فالدب ينظر إلى القفير الجديد بحذر أشد. دروس الفيتنام تحتم علينا أن نكون أكثر تمعناً وتفكيراً.

(من عهد ريغان أخذت واشنطن تذلل "عقدة الفيتنام"، إلا أن الولايات المتحدة مع غروب "الحرب الباردة" وبعدها احتلت العراق وسبّبت عواقب كارثية).

وفوق "عقدة الفيتنام" أو "صحوة الهند الصينية" ترسّبت في بداية السبعينيات "فضيحة وترغيت" التي كانت دليلاً على أزمة وقتية عابرة في نظام السلطة والمؤسسة السياسية في الولايات المتحدة. ثم حلّت فترة تهدئة النفس وانتقاد الذات للتدليل على أن الإدارة الأميركية والنظام السياسي خرجا "نظيفين" من حادثة قذرة. لكنّ الوضع الذي نشأ في تلك الفترة قيّد كثيراً إمكانات التدخل العسكري النشيط في شؤون المناطق النائية، وذلك على الأقل بسبب الوهن الوقتي في سلطة الرئيس الأميركي الذي يجري من خلاله تنفيذ السياسة الخارجية.

في منتصف السبعينيات باتت الكلمة العليا في واشنطن، في ما يخص نهج الغرب في منطقة الخليج، لأنصار نظرية "الشراكة" و"التعامل المتبادل". وكان موضوع "الشراكة" من العناصر الأساسية في مبدأ نيكسون الذي أعلنه في خطاب في جزيرة غوام سنة 1969م، وأوكل وفقاً له مهمة حماية المصالح الإمبراطورية الأميركية إلى حلفاء أميركا المحليين الأقوياء. وفي منطقة الخليج، بعد انسحاب بريطانيا، تولى دور "المقاول الأميركي" شاه إيران، فتحول إلى القوة العسكرية الرئيسة هناك وأسس دولة "شبه إمبريالية".

وأدّت دوراً كبيراً في بناء نظام "الشراكة" الأميركية السعودية سياسة الملك فيصل الرامية إلى التعاون بين البلدين في الميادين الاقتصادية والعسكرية والمالية،

وإلى إيجاد "لوبي" أو مراكز ضغط موالية للعرب في الولايات المتحدة الأميركية.

الفصل السابع والعشرون

العلاقات الجديدة مع الولايات المتحدة

تأكد الملك فيصل من جديد من أن واشنطن يمكن أن تتجاهل أو تضحي بمصالح العرب، حتى السعوديين أيضاً، إذا تطلبت ذلك مقتضيات سياستها الداخلية أو الخارجية. حصل ذلك في 1947-1948م وفي 1967م وفي 1973م. إلا أنه كان عارفاً أيضاً بإمكان التعاون في حال وجود مصالح مشتركة بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية. وهذا هو محور ونابض السياسة الواقعية التي انتهجها. فعلى أساس المصالح المشتركة مع الولايات المتحدة حصراً، تمكّن الملك فيصل من أن يؤمن مستلزمات تنفيذ طائفة من المهمات التي وضعها نصب عينيه وطرحها أمام بلاده. وقد كشفت أزمة 1973م عن مدى تشابك المصالح الاقتصادية الأميركية السعودية.

فرغم الكلام الكثير عن الخطر والتهديد الحربي من طرف الولايات المتحدة، أنشأت الرياض وواشنطن في 8 يونيو 1974م، بمبادرة من الملك فيصل، اللجنة المشتركة الأميركية السعودية للتعاون الاقتصادي. ونشاطها في الحقيقة والواقع فريد من نوعه. ترأس اللجنة عن الجانب السعودي وزير المالية والاقتصاد

الوطني الأمير مساعد بن عبد الرحمن الفيصل، وعن الجانب الأميركي وزير الخزانة بيل سايمون.

وكان الملك فيصل يريد لهذه اللجنة التي تحملت المملكة تكاليفها أن تخدم غرضاً مزدوجاً: لتدعم، أولاً، التعاون السعودي الأميركي الواسع والقائم فعلاً في الصناعة والتجارة والمالية والشؤون المصرفية وإعداد الكوادر والمساعدات التكنولوجية. ولتوفر، ثانياً، الأطر الحقوقية والتنظيمية للاتصالات التي توحد الخطط والطموحات الاقتصادية للبلدين. وفي كل الأحوال كان يتعين على اللجنة أن تلبي حاجة التنمية الاقتصادية في المملكة إلى الخبرات التكنولوجية والإدارية الأميركية.

كان المقصود هو أنواع النشاط التي لم يتمكن أحد في القطاعين العام والخاص في المملكة، أو لم يرغب، في ممارستها. ودائرة ذلك النشاط واسعة للغاية، تضم الكهرباء وإحصاء النفوس وتأهيل المزارعين وإعداد شرطة المرور وتنظيم مديرية الجمارك وبناء الشبكات الإعلامية والاتصال وتطوير النقليات وحماية المستهلكين والدراسات في ميدان استخدام الطاقة الشمسية. بديهي أن كل هذه المشاريع ما كانت مربحة وفاعلة منذ البداية، ولكن التقدم إلى الأمام مستحيل من دونها.

وقد ألّفت الولايات المتحدة لجاناً مشتركة من هذا النوع مع إيران ومصر والأردن وإسرائيل وتونس والهند. إلا أن الأكثر فاعلية ومردوداً في هذا المجال،

هو التعاون مع المملكة العربية السعودية، الأمر الذي يسّرته الأموال السعودية الطائلة وإرادة الملك فيصل الهادفة التي يسير عليها خلفاؤه.

ووقّعت المملكة اتفاقيات كثيرة مع وزارة النقليات في الولايات المتحدة، ومع مديرية الطرق الفيدرالية ومديرية الأغذية والمواد الطبية ومؤسسة الدراسات العلمية الوطنية ومديرية القروض الزراعية، وكثير من المؤسسات والدوائر الحكومية الأخرى.

ولأول مرة في التاريخ افتُتح في مبنى وزارة الخزانة الأميركية مكتب خاص للمملكة العربية السعودية.

كذلك أسهم الأميركيون في الأعمال الضخمة لوضع وتنفيذ الخطة الخمسية الثانية في المملكة، وارتسمت أبعاد استثمار 142 مليار دولار، زيدت في ما بعد إلى 180 ملياراً. وتجاوز هذا المبلغ نفقات الولايات المتحدة على برنامج "أبولو" الكوني ثلاث مرات ونصف المرة.

احتوت الخطة التنموية الثانية عدة آلاف من الصفحات بوزن يقارب مئة كيلوغرام. وقد وضعتها مؤسسة على ارتباط بشركة "أي آر آي - إنترنشنل". وتعاونت المؤسسة مع جامعة ستانفورد، ثم تحولت إلى مركز مستقل للتخطيط الاقتصادي والاستراتيجي. وكان في مجلس إدارتها كبار الماليين والصناعيين الأميركيين وممثلو الأصعدة العليا من البيروقراطية الأميركية. وسبق لهذه المؤسسة بالذات أن وضعت في

عام 1968م الخطة الخمسية الأولى للسنوات 1970-1975م واعتماداتها 9.2 مليارات دولار لا غير.

كان من اللازم البدء من نقطة الصفر تقريباً في إنشاء البنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية العصرية في بلد سكانه 7 ملايين نسمة، لكن مساحته تعادل تقريباً ثلث مساحة الولايات المتحدة. وتعيّن على المملكة العربية السعودية أن تبني وتوفر كل شيء: الطرق السريعة والمطارات والمحطات الكهربائية والأسواق والفنادق والمجمعات السكنية والبترول والموانئ وسلاح الجو ومصانع تحلية المياه والمستشفيات والمواد الاستهلاكية، ابتداءً من البرادات حتى اليخوت. وكان مقرراً اعتماد ما يعادل 9 مليارات دولار للتعليم، و13 مليار دولار لبناء شبكة المرافق الصحية وتصفية المياه، و3 مليارات دولار للمطارات وشق 8.5 آلاف ميل من أسرع الطرق والأوتوسترادات.

رست الطلبيات على الشركات العملاقة المرتبطة منذ وقت طويل مع المملكة العربية السعودية. فقد أنشأت شركة "بيكتيل" أنابيب نفط "التابلاين" ومطار الرياض. وكانت على ارتباط وثيق بوكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية والإدارة الأميركية. فبعد الاستقالة، عمل في "بيكتيل" اثنان من مديري الاستخبارات المركزية، هما جون ماكلين وريشارد هلمز، وكذلك السفير الأميركي السابق لدى المملكة العربية السعودية باركر هارت.

في عام 1975م تولت "بيكتيل" مهمات المقاول الرئيس لإنشاء مجمع صناعي للبتروكيماويات في الجبيل بقيمة 9 مليارات دولار.

وفي عام 1975م ذاته غدت شركة "رالف م. بارسونس" من كاليفورنيا المقاول الرئيس لبناء المجمع الصناعي في مدينة ينبع بمبلغ 20 مليار دولار.

وجاءت للعمل في المملكة العربية السعودية أكبر الشركات المتخصصة في خدمة الفنادق، مثل "إنتركونتيننتل" و"شيراتون" و"هوليداي إن" و"حياة" و"هيلتون" و"ماريوت".

في الفترة 1973-1975م شهد الاقتصاد الأميركي ركوداً ملحوظاً، فجاءت الإرساليات إلى المملكة العربية السعودية في تلك الأعوام لتوفر الفرصة لتشغيل نحو 300 ألف من العمالة في الولايات المتحدة، فيما أقام في المملكة نفسها 30 ألف أميركي، وفتحت 200 شركة تقريباً مكاتب لها هنا.

ورغم الحظر البترولي، وكل التناقضات مع الولايات المتحدة والتهديدات الحربية الأميركية، رأى فيصل أن التعاون بين البلدين في المجال العسكري يجب أن يستمر. فأصدر توجيهاً إلى وزير الدفاع والطيران الأمير سلطان بأن يعدّ خطة العشر سنوات لتطوير القوات المسلحة بالتعاون مع الخبراء الأميركيين. وفي عام 1974م، أُقرّت هذه الخطة. وكان ينبغي أن يزداد تعداد الجيش السعودي بحلول عام 1984م من 45 ألفاً إلى 72 ألفاً، وتعداد القوات الجوية من 14 ألفاً إلى 22 ألفاً،

وتعداد الأسطول من بضع مئات إلى 3900 منتسب. وبقي الحرس الوطني على مستوى 35 ألف عنصر. ورغم زيادة عدد القوات المسلحة على هذا النحو، كان ذلك قليلاً على الدفاع عن المملكة المترامية الأطراف. وكان مقرراً استخدام الأسلحة الأحدث لإنشاء درعين دفاعيتين ثلاثيتين تشمل إحداهما مثلث الرياض - الخرج – الظهران، وتشمل الثانية جدة - الطائف - مكة. كذلك جرت أعمال تعزيز قاعدة خميس مشيط على الحدود مع اليمن. وفي الشمال، باتجاه إسرائيل، جرت أعمال توسيع قاعدة تبوك. وعلى مقربة من الحدود مع العراق شيّدت مدينة عسكرية في حفر الباطن، سمّيت في ما بعد مدينة الملك خالد العسكرية.

كانت خطة بناء القوات المسلحة التي وضعت عام 1974م طموحة للغاية وتركز على التقنيات العسكرية العالية. إلا أن تنفيذها يتطلب وجود ضباط ومهندسين وجنود مؤهلين تقنياً، كما يتطلب انضباطاً عالياً، فيما تفتقر المملكة العربية السعودية إلى الكثير من هذه الأمور. وكانت الذهنية التقليدية ومستوى التعليم في حاجة إلى التجديد والحداثة، علماً بأن التنسيق بين مختلف أنواع وصنوف القوات المسلحة كاد يكون معدوماً، بل ربما كان هناك نوع من التنافس في ما بينها. فكلّف الأمراء الشباب بالعمل في قيادة طائرات القوة الجوية التي هي نخبة القوات المسلحة، وبنيت القوات المسلحة بنحو يحول دون وقوع أي خلل جدي في نشاطها. ومن هذه الناحية كانت تجربة المملكة

العربية السعودية نادرة وفريدة في المنطقة لعشرات السنين.

ظل الحرس الوطني مميزاً بصفته أساس الأمن الداخلي. ففي مارس 1973م، وقّعت اتفاقية بين المملكة والولايات المتحدة حول إعادة تأهيله وتدريبه. واستأجرت المملكة بواسطة البنتاغون 3 شركات أميركية "خاصة" مقابل 335 مليون دولار في البداية، ثم 2.9 مليار دولار في عام 1976م. وكلفت إحدى الشركات المتعاقدة، وهي شركة "فينيل كوربوريشين" من لوس أنجليس (المتفرعة من وكالة الاستخبارات المركزية)، قدامى المحاربين في الفيتنام بتدريب السعوديين كي يكونوا جنوداً مؤهلين عصريين. وتلخصت المهمة في تحديث الحرس الوطني وتأليف 20 كتيبة آلية له مزوّدة بمدفعية إسناد ثقيلة ووسائل دفاع جوي. وإلى جانب الحفاظ على النظام والأمن الداخلي، كان يراد للحرس الوطني أن يهبّ لنجدة الجيش في حال وقوع عدوان أجنبي.

ازدادت الميزانية العسكرية للمملكة العربية السعودية من 2.8 مليار دولار سنة 1973م إلى 10.3 مليارات دولار سنة 1978م.

ومن حيث النفقات العسكرية لم تكن تتفوق على المملكة العربية السعودية سوى الولايات المتحدة نفسها والاتحاد السوفياتي وبريطانيا وألمانيا والصين. وكانت تنافسها إيران التي يحكمها شاه مصاب بغرور العظمة، مولع باستيراد المزيد من المعدات الحربية. وخلال

الفترة من 1974م حتى 1978م باع الصناعيون العسكريون في الولايات المتحدة إلى المملكة العربية السعودية معدات بمبلغ إجمالي قدره 15 مليار دولار. في البداية كانوا يبعثون إليها بمعدات عتيقة، ثم أخذوا يزوّدونها بأحدث الآليات العصرية بعد صفقة طائرات الأواكس التي كانت تمثل اختراقاً حقيقياً.

لقد تبدّد خطر الحرب من جهة اليمن وزال مع انسحاب القوات المصرية سنة 1967م، فركز الملك فيصل اهتمامه على إنشاء البنية التحتية العسكرية في شمال المملكة.

ونستبق الأحداث فنشير إلى أن خطة السنوات العشر العسكرية لم تنفذ بالكامل، ولم يتسنّ التوصل إلى عدد القوات المقرر. ولو كانت المملكة العربية السعودية قد تعرضت لخطر العدوان، والمعتدون في اعتقاد فيصل يمكن أن يكونوا من إسرائيل، أو العراق آنذاك، لما كان في الإمكان الاستغناء عن التعاون مع الولايات المتحدة بأي حال. ففي الحالة الأولى، على واشنطن أن تردع حليفتها إسرائيل، وفي الحالة الثانية أن تقدم للمملكة مساعدة عسكرية مباشرة.

وقد واجه التعاون الأميركي السعودي في الولايات المتحدة مقاومة من اللوبي الموالي لإسرائيل، الأمر الذي عاق تزويد المملكة بالتقنيات الحديثة حتى في المجالات المدنية الصرف، فضلاً عن المجال العسكري. ولاحظ السعوديون عداء وسائل الإعلام الأميركية الواضح للعرب، والرسوم الكاريكاتورية المهينة لهم،

والتصريحات التي أطلقها أعضاء الكونغرس وموظفو الإدارة الأميركية ضد العرب، والاتهامات الهستيرية المسعورة للمملكة بالابتزاز والاستفزاز.

وعندما توافرت تحت يد الملك فيصل مبالغ ضخمة، قرر أن يخلق في الولايات المتحدة لوبي عربي فعلي ومتنفّذ لمواجهة اللوبي الإسرائيلي.

كذلك اقتنع فيصل بخبرته السياسية الطويلة الأمد، ومتابعته لأداء المؤسسة السياسية الأميركية، وزياراته العديدة للولايات المتحدة، واتصالاته بالأميركيين، بأن موقف واشنطن من إسرائيل هو في الدرجة الأولى مسألة تخص السياسة الداخلية الأميركية. وكان يرى أن الإدارة في واشنطن عندما تخلط سياستها في المنطقة مع مصالح إسرائيل إنما تنسف الاستقرار الداخلي حتى في الأنظمة الصديقة للولايات المتحدة، علماً بأن الديموقراطيين والجمهوريين كانوا يتبارون في حماية مصالح إسرائيل، وخصوصاً في فترات الحملات الانتخابية.

انتخى أصحاب أرامكو بقدر ما للدفاع عن مصالح السعوديين، فباتوا بمثابة لوبي سعودي، بل لوبي عربي في الولايات المتحدة. ومع ذلك كان فيصل يعتقد أن من الضروري تقوية الأدوات المتوافرة للتأثير في سياسة الولايات المتحدة وإيجاد أدوات جديدة.

لم تكن رغبة الملك فيصل في التأثير على سياسة الولايات المتحدة خارجة عن المألوف. فأي حكومة أجنبية في الواقع كانت تسعى إلى ممارسة التأثير في

العملية السياسية الأميركية، فكانت السفارات الأجنبية في واشنطن مراكز ضغط لدعم حكوماتها في الحقيقة.

وإلى ذلك، كلفت دول عديدة اختصاصيين محترفين بممارسة الضغط لهذا الغرض، وهو أمر لا يتعارض مع القوانين الأميركية. ففي وزارة العدل في مطلع الثمانينيات، سجلت 10 آلاف جماعة وشخصية تقريباً بصفة وكلاء لحكومات أجنبية متنوعة الاتجاهات، مثل كندا ونيكاراغوا وجنوب أفريقيا وفرنسا والأرجنتين وبريطانيا وغيرها. وعمل لمصلحة اليابان، مثلاً، في منتصف الثمانينيات أكثر من 100 وكيل وعميل مسجلين رسمياً، ومنهم المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية وليم كولبي ووزير النقليات في إدارة كارتر بروك آدمز والمستشار السابق للأمن القومي في إدارة ريغان ريتشارد آلين.

حاولت الحكومات العربية على انفراد وبنحو مشترك التأثير في السياسة الأميركية في الشرقين الأدنى والأوسط، متوخية أهدافاً واسعة تتراوح بين زيادة الإرساليات العسكرية الأميركية إلى الأقطار العربية وبين تقليل الدعم الأميركي لإسرائيل.

إلا أن اللوبي العربي كان، في مفهوم الجميع، في الظل مقارنة مع منافسه القوي الفاعل اللوبي الإسرائيلي الصهيوني أو "اللوبي اليهودي" كما يسمّونه أيضاً. وبالفعل، فلو ذكرت اللوبي العربي في تلك السنوات أمام سياسي من واشنطن لربما هزّ كتفيه مرتاباً في وجوده،

أما إذا ذكرت له اللوبي اليهودي فلا بد أن يشير على الأرجح إلى جبروته وتأثيره.

وقد ركزت الطائفة اليهودية الأميركية جهودها السياسية على الكونغرس بالذات، لأنه يؤدي دوراً كبيراً في رسم السياسة الخارجية من جهة، ويعتمد من الجهة الأخرى على رأي الناخبين في المقام الأول.

ولذا كان فيصل على يقين من أن الدعم الأميركي لإسرائيل يقوم حصراً على العضلات السياسية للطائفة اليهودية في أميركا، وأن السياسة الأميركية عمياء في موالاتها لإسرائيل وعدائها للعرب. كان السواد الأعظم من الرأي العام الأميركي (بفضل وسائل الإعلام أيضاً) يعتقد أن إسرائيل حليفة أمينة للولايات المتحدة في منطقة مهمة استراتيجياً من العالم، لكونها البلد الوحيد الذي توجد فيه مؤسسات وقيم ديمقراطية متطورة.

كتب فرانك جانغرز يقول:

> كنا نرى غياب الموضوعية في تنفيذ السياسة الأميركية من حيث نشاط رجال الأعمال، ولم نكن وحدنا من هذا الرأي... فكل من يمارس الأعمال في الشرقين الأدنى والأوسط لاحظ المشكلة: السياسة الأميركية تتسم بطابع العداء للعرب. وكنا نرى أن ذلك يمكن أن يلحق ضرراً برجال الأعمال الأميركيين وبالمصالح الأميركية[1].

اعتباراً من عام 1967م موّلت أرامكو شبكة واسعة من المؤسسات السياسية والتعليمية التي مارست دراسة

الموقف في الشرق الأوسط.

وبعد حرب 1967م، ثم بعد حرب أكتوبر 1973م، بصورة خاصة، أنشأت أرامكو مؤسسات وصناديق مختصة للعمل على

> نشر معلومات متوازنة وموضوعية ومعتدلة عن الموقف في الشرق الأوسط الذي أسفر عن طرد الفلسطينيين من وطنهم واحتلال الأراضي العربية بما فيها القدس.

ولم يكن أصحاب أرامكو الوحيدين بين الأميركيين الذين لهم وزنهم من أنصار المملكة العربية السعودية. فالشركات الأميركية وكبار مديري عالم المال والأعمال وموظفو الدولة السابقون تحولوا موضوعياً إلى لوبي للمصالح السياسية السعودية في مقابل السماح لهم بدخول السوق السعودي الواسع والاستفادة من الرساميل والاستثمارات المالية السعودية.

لم يسجل جميعهم كوكلاء ولوبي، لكنه كان بوسعهم أن يكرروا القول المأثور في عالم المال والأعمال الأميركي: "ما ينفع شركة فورد ينفع أميركا". فقد كانت ثمة مصلحة في علاقات العمل والتجارة مع المملكة العربية السعودية لأكبر الشركات المالية والصناعية مثل "فورد" و"تشيز مانهاتن" و"ويستنغهاوس" و"بيكتيل" وآلاف الشركات الأخرى. وبالتالي، فما كان نافعاً لهذه الشركات إنما هو نافع للولايات المتحدة. وأخذ الكثيرون يشاركون في دفع المصالح العربية مثل البنوك والمكاتب الحقوقية وشركات الطاقة والوقود والشركات

الصناعية العسكرية والمهندسين المعماريين وعمال البناء ومنتجي المواد الاستهلاكية والمزارعين ومعاهد البحث العلمي والسفراء والتعاونيات ومكاتب العلاقات العامة وحتى رؤساء أميركيين سابقين.

أكد الباحث الأميركي ستيفن إمرسون:

> إن العائدات النفطية، البترودولارات، غيّرت بنجاح وبصورة خفية مجمل السياسة الأميركية من شركة "فورد" حتى "جنرال اليكتريك"، من نائب الرئيس السابق سبيرو آغنيو إلى الرئيس الأسبق جيرالد فورد، من جامعة ديوك إلى جامعة كاليفورنيا الجنوبية، من تلفزيون ألاباما إلى مجلة الـ"تايم"، من الجمعية التشريعية في داكوتا الشمالية إلى مجلس الشيوخ الأميركي[2].

وقد حاول الباحث أن يبرر المهمة السافرة لكتابه **آل سعود في أميركا** الذي يهدف إلى تخويف الرأي العام الأميركي من "الخطر العربي" ومن تأثير العرب "البشع" على أميركا، وإلى تبييض صفحة اللوبي الصهيوني.

في يناير 1975م، نظمت مجلة "تايم" رحلة لـ45 من كبار رجال الأعمال الأميركيين إلى الشرق الأوسط. كانوا يمثلون شركات بلغ إجمالي مبيعاتها في عام 1974م 100 مليار دولار، وبلغ عدد العاملين فيها 1.5 مليون شخص. تجولوا في المنطقة أسبوعين، والتقوا بالرئيس المصري أنور السادات ورئيسة وزراء إسرائيل

غولدا مائير وبالعاهل الأردني الملك حسين وأمير الكويت وولي عهد إمارة دبي والملك فيصل.

أعرب الملك فيصل لهم عن رأيه في الصهيونية وطرح أفكاره في شأن التسوية في الشرق الأوسط، وشدد على ضرورة تمتين العلاقات بين المملكة والولايات المتحدة.

وبعد العودة إلى الوطن أخذ الكثيرون من رجال الأعمال هؤلاء يناشدون الإدارة الأميركية أن تطبّق سياسة أكثر توازناً في الشرق الأوسط.

معظم رجال الأعمال، ما عدا أكبر الشركات النفطية، حاولوا عدم الخلط بين السياسة والمال والأعمال. إلا أن عدداً من الشركات الأميركية أخذت تشارك في مقاطعة إسرائيل تحت ضغط من المملكة العربية السعودية والأقطار العربية الأخرى.

ففي عام 1976م اتضح لوزارة العدل أن شركة "بيكتيل" لا تتاجر مع إسرائيل، وأنها تمنع مقاوليها من التعامل مع الشركات المذكورة في "القائمة السوداء" العربية. ورفض دافيد روكفلر رئيس مجلس إدارة "تشيز مانهاتن بنك" فتح فرع للبنك في إسرائيل عام 1975م وقال: "لو فتحنا هناك فرعاً لحانت نهاية كل أعمالنا، وهي متركزة في العالم العربي"[3]. وامتنع العرب عن التعامل مع "البنوك اليهودية"، أي البنوك التي أسسها يهود، بما فيها روتشيلد وواربورغ والأخوان لازار وغيرهم. ولكن المشكلة أن الاقتصاد الأميركي قوي إلى

درجة لا تؤثر فيه مشاركة البعض في مقاطعة إسرائيل أو متاجرة البعض الآخر معها.

كان من أبرز الداعين إلى سياسة أميركية متوازنة في الشرق الأوسط السيناتور المتنفذ وليم فولبرايت رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ. لقد كان معارضاً للحرب مع الفيتنام، وينتقد السياسة الإسرائيلية علناً. ففضح آلية نشاط اللوبي الإسرائيلي في واشنطن. وطبيعي أن يكون فولبرايت على اتصال بالسفراء العرب.

أوصى فولبرايت بأن يكون المحامي المحنك الشهير فريد داتون وكيلاً رسمياً للدفاع عن المصالح السعودية في واشنطن. وكانت لهذا المحامي علاقات طيبة مع أبرز الصحف والمجلات والشركات التلفزيونية ومع أعضاء الكونغرس ومسؤولي الإدارة الأميركية. وفي عام 1960م كان في فريق جون كندي أثناء الحملة الانتخابية الرئاسية، ثم صار مستشاراً خاصاً له. كما كان يحبّر خطب الرئيس جونسون، ثم افتتح مكتباً حقوقياً في واشنطن. وفي عام 1968م كان إلى جانب مرشح الرئاسة روبرت كيندي عندما اغتيل. وبعد 4 سنوات، كان في فريق الحملة الانتخابية لمرشح الرئاسة جورج ماكغوفيرن.

اتصل ممثلو أرامكو بالمحامي داتون، فوضع خطة العمل بحلول عام 1974م، وتتلخص في ما يأتي:

المرتكز الحقيقي الفاعل للنفوذ، في النظام السياسي الأميركي على الأقل، لا يكمن في

شخصية سياسية منفردة، بل في الهيئات الاجتماعية أو المجموعات الحساسة أو وسائل الإعلام المتنفذة. الإسرائيليون يفهمون ذلك جيداً... وينفذون سياستهم عبر الجرائد المتعاطفة معهم، ومن خلال أعضاء مجلس الشيوخ وزبائن البنوك ومن لفّ لفّهم... أما العرب فهم في حاجة إلى إيصال وجهة نظرهم إلى أعضاء مجلس الشيوخ المتنفذين وإلى الصحافيين وغيرهم، ولذا يمكنهم أن يعملوا على جبهة أوسع، ما يوفر لنيكسون القدرة التي يحتاجها لتنفيذ سياسة أكثر توازناً.

وأضاف داتون: "ينبغي في الحملات الدعائية التركيز على التلفزيون وكذلك الاتصال بالجامعات"[4].

في بداية يناير 1974م، شكر جانغرز المحامي داتون على أفضاله، وأبلغه أنه سيوصل خطته إلى وزير البترول والثروة المعدنية أحمد زكي يماني وإلى كمال أدهم. وفي يناير وفبراير 1974م، التقى داتون في الولايات المتحدة وفي المملكة العربية السعودية عدة مرات بنجل الملك فيصل الأمير تركي الذي تولى في ما بعد رئاسة الاستخبارات السعودية، واتفقا على تفاصيل تنظيم اللوبي السعودي في الولايات المتحدة، ثم رفعا معلومات عن سير العمل إلى الملك فيصل فوافق عليها.

وُسجّل داتون كوكيل دفاع للمملكة في 10 يونيو 1975م بعد مقتل الملك فيصل رحمه الله.

إلا أن سياسة فيصل في هذا الميدان الجديد تماماً بدأت تعطي أكلها. فبعد ثلاثة أعوام من تسجيل فريد داتون رسمياً كوكيل لوبي للمملكة العربية السعودية، انضم إلى مهمته عشرات من كبار الموظفين الحكوميين الأميركيين السابقين الذين دافعوا عن المصالح السياسية للعرب. وشارك عدد من أعضاء مجلس الشيوخ في محاولات حمل الإدارة الأميركية على تطبيق سياسة أكثر توازناً في الشرق الأوسط.

بديهي أن العرب تعرضوا للغش والخداع. قيل للزعماء العرب إن تبدلات جوهرية تحصل في الرأي العام الأميركي بنتيجة نشاط اللوبي الموالي للعرب، وبنتيجة تنفيذ برامج الدعاية، على الرغم من الفشل في تذليل نفوذ اللوبي اليهودي وخصوصاً تأثيره في العملية الانتخابية في الولايات المتحدة.

وكان الوكلاء يبتزون ويتلقون مبالغ جنونية من السعوديين الأثرياء الأقل خبرة. كان من اللازم دفع أجور تلك الخدمات، ولم يكن السعوديون يبخلون بالمال. في 9 سنوات تسلّم فريد داتون مليوني دولار، بما فيها النثريات ومخصصات الإيفاد. إلا أن تلك كانت نفقات النوع الجديد من العلاقات، نفقات انخراط المملكة العربية السعودية والأقطار العربية الأخرى في العملية السياسية داخل الولايات المتحدة.

في عام 1974م لم يُنتخب فولبرايت مجدداً لعضوية مجلس الشيوخ الأميركي، لكنّ كلمته كانت مسموعة لدى الكثيرين. وفي 3 أكتوبر 1975م ألقى

كلمة في معهد الشرقين الأدنى والأوسط في واشنطن، ندد فيها "بالقدرات المفرطة للوبي اليهودي"، ودعا إلى إعادة توجيه السياسة الأميركية صوب العرب الذين توجد في ديارهم المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة. ثم تولى فولبرايت مهمة اللوبي الرسمي لدولة الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية.

كذلك بات نائب الرئيس الأميركي السابق سبيرو أغنيو أحد المدافعين عن المصالح السعودية في الولايات المتحدة. استقال من منصبه في 10 أكتوبر 1973 بعد أن اتهم رسمياً بالتهرب من دفع الضرائب، وسرعان ما صار وسيطاً لدفع الأعمال الأميركية في المملكة العربية السعودية. وعندما احتفل الشاه بفخفخة وأبهة في عام 1971م بالذكرى الـ2500 للنظام الملكي الشاهنشاهي في إيران، كان من بين ضيوف الشرف الملك فيصل وسبيرو أغنبو ممثلاً للرئيس نيكسون. ثم زار أغنيو الملك فيصل في الرياض، فأهداه خنجراً في جراب ذهبي مطعم بالمجوهرات. ولم يسلّم أغنيو هذه الهدية إلى الدولة الأميركية إلا في 1 أبريل 1974م.

بعد استقالة سبيرو أغنيو، مدّ له الملك فيصل يد المعونة. كتب أغنيو في هذا الخصوص يقول:

> فيصل من أبرز الشخصيات التي التقيتها في حياتي. تعاطف معي وآزرني ووفر لي فرصة ممارسة الأعمال هناك[5].

قلما تجد شخصاً تكلم عن اللوبي الصهيوني بحدة أكثر من حدة سبيرو أغنيو. فقد قال:

> لا أدري سبباً لإعطاء حوالى نصف المساعدات التي تقدمها بلادنا إلى الدول الأخرى لإسرائيل سوى تأثير هذا اللوبي الصهيوني[6].

واتسعت صفوف اللوبي السعودي، والعربي بصفة أوسع، بعد انضمام السفراء الأميركيين السابقين في الأقطار العربية إليها. فبعد أن أمضى هؤلاء السفراء سنين طويلة في الوسط العربي، مدفوعين بحكم عملهم إلى تمتين علاقات أميركا مع العرب، انتقلوا بسهولة إلى مكاتب مستشاري الشركات الأميركية التي تمارس الأعمال في الشرقين الأدنى والأوسط.

ولو كان الملك فيصل رحمه الله على قيد الحياة لراقه الخطاب الذي ألقي في مدينة برمنغهام في ولاية ألاباما في 4 مارس 1983م. تناول إمرسون في كتابه **آل سعود في أميركا** ما دار في المؤتمر الذي ألقي فيه ذاك الخطاب، وجاء فيه:

> الكونغرس الأميركي مرتعب بكل معنى الكلمة من أقوى لوبي في أميركا يسمى الطائفة اليهودية.

حدّقت كل العيون إلى وجه الخطيب الذي دوى صوته في أرجاء القاعة. وأضاف:

> أعضاء الكونغرس لا يجرؤون أبداً على معارضة الطائفة اليهودية في أميركا...

اليهود ينهالون عليك بآلاف الضربات.

وقد رسم الخطيب لوحة "الجبروت المفزع" ليهود أميركا، مسلطاً الضوء على "دفاعهم السري" بصفة لوبي وعلى "مواقعهم المهيمنة" في الإذاعة والتلفزيون والبنوك و"تحكّمهم" في السياسة الخارجية الأميركية، واستعدادهم لمعاقبة كل من يتجرأ على معارضتهم[7].

وفي نهاية الخطاب الذي استغرق 45 دقيقة تعالى التصفيق في القاعة وهتف البعض تحية للمتكلم.

حصل هذا ليس في دمشق أو بغداد أو طرابلس الغرب. حصل في برمنغهام بولاية ألاباما. ولم يكن المتكلم من المتطرفين المجانين، بل هو بول ماكلوسكي، السياسي المعروف، وعضو الكونغرس السابق الذي أمضى 15 عاماً في مجلس النواب، وحاول مرة أن يرشح نفسه لمنصب الرئاسة في الولايات المتحدة.

تكلم عضو الكونغرس السابق أمام 150 من رجال الأعمال والصناعيين وأصحاب البنوك. حاول أن يثبت أن الموالاة لإسرائيل تنسف المواقع الأميركية في العالم العربي. وندد المتكلمون الآخرون، وبينهم سفراء سابقون لأميركا، بالدعم الأميركي لإسرائيل وبنفوذ يهود أميركا. وقد نظمت اللقاء وموّلته بعض الشركات المتعددة القوميات الداخلة ضمن قائمة الـ500 شركة العملاقة التي أوردتها مجلة "فورتشون"، وكذلك كبار بنوك ألاباما وجامعة ألاباما، وحتى الوكالة الحكومية الفيدرالية. وألقى كلمة تحية في المؤتمر عمدة ألاباما.

وصف إمرسون هذا الخطاب بأنه مظهر "للعداء للسامية" من دون أن يأخذ في الاعتبار أن ماكلوسكي نفسه تكلم بعد أسبوعين في أحد المنتديات عن ضرورة مكافحة العداء للسامية.

أكد ماكلوسكي ضرورة مكافحة العداء للسامية ولكن بطريقة أخرى:

> أفضل وسيلة لوقف العداء للسامية هي إيصال أفكار معينة إلى الزعماء اليهود، وإبلاغهم بأنهم هم بالذات قادرون على تغيير سياسة بيغين إذا استطاعوا أن يقولوا للسيد بيغين ألا يأمل بعد الآن باللوبي السري في الكونغرس الأميركي الرامي إلى نصرة إسرائيل ظالمة أو مظلومة.

وقد وصف ماكلوسكي اللوبي الذي يستخدمه يهود أميركا بأنه "لوبي الخيانة غير المشروع الذي يدمر المصالح الأميركية"[8].

حاول ستيفن إمرسون أن يوحي للقارئ اليهودي بأنه أدى "مهمته". إلا أنه هو نفسه يستشهد بمقتطف من رسالة سرية للوبي المعروف روبرت غراي الذي كتب يقول أن "الصهاينة" يتحكمون في الرأي العام الأميركي ووسائل الإعلام والكونغرس. ويضيف غراي:

> إلا أن نفوذ اللوبي الإسرائيلي لا يقتصر على شراء ذمم الأصدقاء في الكونغرس بأصوات الناخبين أو برأس المال السياسي. ففي الولايات المتحدة هناك الكثير من الجماعات

الأخرى التي لديها قاعدة انتخابية أقوى وأوسع، وهي تنفق مبالغ أكثر من المؤسسات الموالية لإسرائيل. فلماذا نرى اللوبي الإسرائيلي أكثر فاعلية؟ ذلك لأن المهيمنين عليه يعرفون كيف يستخدمون سلطتهم بفاعلية.

آلية التحكم في السياسة الأميركية في الشرق الأوسط أتقنت وصقلت على مدار الأربعين عاماً الأخيرة. فالجماعات الموالية لإسرائيل مثل اللجنة الأميركية الإسرائيلية للعلاقات العامة (آيباك) ومنظمة "بناي بريت" والمؤتمر اليهودي الأميركي وغيرها من الجماعات تنفق سنوياً عشرات الملايين من الدولارات لتؤثر في الرأي العام وفي السياسة بروح الولاء لإسرائيل. ولكن ذلك كان يمكن أن يبقى من دون نتيجة تذكر لولا الأسلوب التكتيكي المهم للغاية، الذي يتلخص في أن اللوبي الإسرائيلي في أميركا لا يدافع عن إسرائيل صراحة. كل المنظمات العاملة لمصلحة إسرائيل في الولايات المتحدة "تغلف حججها بالعلم الأميركي"... ويكمن نجاحها في تصوير المصالح الوطنية الإسرائيلية على أنها المصالح الوطنية للولايات المتحدة.

... وحتى في المناطق التي لا توجد فيها كتل انتخابية يهودية يخشى المرشح لمنصب ما معارضة إسرائيل صراحة كي لا يتلقى العقاب على يد اللوبي الإسرائيلي الذي يشرع من دون تردد في تمويل خصمه في الانتخابات[9].

إلا أن غراي، كما يبدو، قلل من شأن اللوبي اليهودي وجبروته. ولا يمكننا إلا أن نحزر ما أثر في رأيه، أو على الأصح في خوفه وارتعابه. ففي عام 1984م قطع اتصالاته فجأة بجامعة الدول العربية وأوقف كل أنشطته المتعلقة بالنزاع العربي الإسرائيلي وباللوبي والدفاع عن المصالح السعودية.

ويختتم إمرسون كتابه بالخطاب الآتي:

لم يشهد التاريخ الأميركي في السابق أبداً أن دولة أجنبية نجحت مثل المملكة العربية السعودية في العثور على أنصار لها في كافة أرجاء الولايات المتحدة، وأفلحت في إقامة الاتصالات معهم. لقد اكتشف السعوديون نقطة الضعف عند الأميركيين وهي حب المال، فشملت اتصالاتهم القائمة على البترودولارات كل أرجاء الولايات المتحدة[10].

ويبقى خارج إطار كتابنا هذا نجاح اللوبي السعودي في الكونغرس الأميركي، في ما يخص دفع صفقات بيع أحدث الأسلحة الأميركية للمملكة العربية السعودية،

ومنها "الرادارات" الطائرة "أواكس"، ومنع نشر المواد المفصلة عن نشاط أرامكو، وكذلك ما يتعلق بالسنوات اللاحقة.

إلا أن الملك فيصل هو الذي أرسى نظاماً جديداً تماماً للعلاقات بين بلاده وبين الولايات المتحدة الأميركية. وصمد هذا النظام أمام كل التقلبات طوال عشرات السنين. صمد أمام حرب الخليج الأولى **1991**م، ولم يتقوّض بعد أحداث **11** سبتمبر **2001**م، وظل قائماً بعد الحرب الثانية على العراق.

واتضح أن الخط الاستراتيجي للملك فيصل في إيجاد وسائل التأثير على العملية السياسية في الولايات المتحدة ذو أهمية حيوية مستقبلية لعشرات السنين، لكنّ الزمن بيّن مدى صعوبة هذه المهمة.

الفصل الثامن والعشرون

القدرات المالية في حدّها الأعلى

أسعار النفط، حسب تقديرات تلك الحقبة، تجاوزت الذروة. وكانت المملكة العربية السعودية تسبح في بحر من المال. لكنْ فيصل يعتقد أن استقرار الاقتصاد العالمي مطلوب، لكونه يستجيب لمصالح المملكة أيضاً. ولذا كان مستعداً لبيع النفط بسعر أقل بعض الشيء من المستوى الذي بلغه. والمشكلة أن باقي الدول المصدرة، وخصوصاً إيران، تطمح إلى أسعار أعلى فأعلى. وما كان بوسع المملكة أن تبيع نفطها بسعر يقل كثيراً عن باقي المنتجين.

في بداية ديسمبر 1973م، أعلنت إيران مزاداً باعت فيه كميات من نفطها بسعر 17.4 دولاراً للبرميل، فيما بلغت قوائم أسعار الخليج آنذاك 11.65 دولاراً للبرميل الواحد.

فناشد فيصل والسفير الأميركي الجديد في المملكة جيمس إيكينز وزير الخارجية كيسنجر أن يضغط على شاه إيران. إلا أن إصرارهما على ذلك لم يؤدِّ إلى نتيجة، سوى رسالة بعث بها كيسنجر رسمياً إلى طهران.

ويعتقد أحمد زكي يماني أن الملك فيصل لم يكن يعرف آنذاك النيات الحقيقية لوزير الخارجية الأميركي. ذلك أن كيسنجر في حقيقة الأمر يريد رفع الأسعار

بالذات، لأن ارتفاعها، في اعتقاده، يمكن أن يجعل اعتماد أميركا على استيراد المحروقات في حده الأدنى. كسينجر لم يكن عالماً أو باحثاً أو اقتصادياً متمرساً، ولذا رأى أن الأسعار المرتفعة حقاً تشجع البحث عن حقول نفطية جديدة داخل الولايات المتحدة، وتحفز على معالجة مصادر الطاقة البديلة، وتؤدي تدريجاً إلى تقليل اعتماد الولايات المتحدة على شراء النفط من الخارج. وعند ذاك يُنتزع من العرب أقوى سلاح في أيديهم وهو سلاح النفط. فلا بد من رفع الأسعار، إذن، لبلوغ هذا الهدف. ولقد أثبت التاريخ مدى بُعد هذه الحسابات عن أرض الواقع. إلا أن منطق تلك الحقبة دفع كيسنجر وشاه إيران إلى زيادة الأسعار. بيد أن الشاه رفع الأسعار في الواقع بأعلى ممّا كان يريده كيسنجر ويتوقعه.

كانت إيران تتسلح آنذاك على نحو مسعور وتقتني السلاح الأميركي بكثرة، فيما كانت واشنطن في حاجة إلى إيران قوية، والشاه كان بدوره في حاجة إلى المال. فعمد إلى رفع الأسعار، وبذلك "فرض" ضريبة على اليابان وأوروبا الغربية، وراح يحوّل عائدات تلك "الضريبة" إلى حسابات المجمّع الصناعي الحربي في الولايات المتحدة.

في بداية السبعينيات بدأت أقطار أوروبا الغربية واليابان تزيح حليفتها الكبرى أميركا من الجبهة الاقتصادية. وكان من أسباب ذلك النجاح انتقال هذين المركزين الاقتصاديين العالميين إلى استخدام النفط

الرخيص مصدراً لخامات الطاقة. ولذا فإن ارتفاع أسعار النفط عدة مرات كان يضر بحلفاء الولايات المتحدة أكثر مما يضرّ بها هي.

صحيح أن بلدان أوروبا الغربية واليابان تمكنت، كما اتضح في ما بعد، من امتصاص سلبيات "الصدمة النفطية". فأسعار النفط الجديدة لم تكن كافية لإرغام الغرب على التعجيل في معالجة المصادر الجديدة للطاقة ولا تقليص استيراد النفط كثيراً ولا تغيير البنية الاقتصادية جذرياً. وفي كل الأحوال، كانت تلك الأمور تتطلب عقوداً من السنين. وحتى الخروج الفاتر من الأزمة اقترن بزيادة الطلب على النفط.

وفي محاولة للتستّر على إلقاء مجمل أعباء الأزمة النفطية على كاهل المستهلكين، رفعت الصحافة والتلفزيون والإذاعة الغربية عقيرتها بالكلام لإقناع العامة بأن المملكة العربية السعودية وباقي الأقطار العربية هي السبب في كل المصائب. ووصفت وسائل الإعلام هذه البلدان بالاستفزازية واتهمتها بالابتزاز، كما استخدمت وسيلة دعائية أخرى هي التكهنات المرعبة بشأن نضوب النفط مستقبلاً والكارثة التي ستحل بالاقتصاد العالمي نتيجة ذلك. وقد صدّق هذه التخرصات حتى المعروفون بجديتهم وعقلانيتهم. وعندما جلبت مشاكل الطاقة انتباه الجميع، سقط الضوء الساطع فجأة على نشاط "الشقيقات السبع".

وأخذت تفتضح في دولة بعد أخرى أحابيل ومكائد الشركات المتفرعة من "الشقيقات السبع" والمؤسسات

المتفرعة من تلك الشركات. قال مستشار ألمانيا الغربية آنذاك ويلي برانت:

> لا يجوز اعتبار الأزمة السبب الوحيد لارتفاع الأسعار. فقد كسب الكثيرون من ذلك الارتفاع أموالاً طائلة.

واتضح أن الشركات النفطية استفادت من الذعر الذي أثارته بنفسها، والناجم عن تصرفات الأقطار العربية لترفع الأسعار كثيراً. "فالعطش النفطي" أخذ بخناق الغرب رغم المستودعات المليئة بالنفط والمصانع العاملة بكاملها. وانتشرت هستيريا التخويف من "نضوب" الموارد النفطية. فارتفعت أسعار المشتقات النفطية إلى السقف، وازدادت معها أرباح الاحتكارات.

في عام 1974م اجتمع أصحاب أسهم شركة "إكسون" في لقائهم السنوي في المعبد الماسوني الذي تطل من جدرانه صور مبشري العصور الخوالي - كونفوسيوش وموسى وزرادشت، وفوقهم تضيء بالنيون الأحمر أحرف تسمية شركتهم -، وعلم المساهمون أن عائداتها بلغت 2.5 مليار دولار تقريباً، بزيادة 900 مليون دولار في عام واحد. وخيّم على قاعة الاجتماع هدوء لا يعكّره سوى صفارات الشاحنات التي أحاطت بالمعبد. إنها صفارات عالية أطلقها السائقون احتجاجاً على أسعار الوقود المرتفعة.

وحتى الأميركيون الذين اعتادوا كل شيء دهشوا عندما علموا أن 21 شركة نفطية كسبت في عام 1973م حوالى 10 مليارات دولار من الأرباح، أي ضعف

ما كسبته الشركات الكبرى لصناعة السيارات وصهر الفولاذ. وخلال عام واحد ازدادت أرباح الصناعة النفطية حوالى 60٪.

حاولت الشركات النفطية عبثاً أن تدافع عن نفسها وترد على الاتهامات التي انهالت عليها. وجاء في إعلان نشرته شركة "تكساكو" في 150 جريدة: "إننا لا نخفي شيئاً!". وتساءلت شركة "شل" في 230 جريدة: "هل يستطيع أحد أن يسمي أرباحنا فاحشة؟".

من الواضح أن الأقطار العربية وإيران رفعت أسعار النفط انطلاقاً من مصالحها في الدرجة الأولى. إلا أن الصحافي الأميركي الواسع الاطلاع جاك أندرسون كشف عن حقائق مهمة من نشاط أكبر شركة نفطية في العالم هي أرامكو. واكتشف أن أصحاب هذه الشركة شجعوا ارتفاع أسعار النفط، وكانت لديهم أسباب اقتصادية للقيام بذلك. كانوا يريدون المزيد من المال...

في السابق كانت "الشقيقات السبع" تستأثر بمعظم الأرباح من استخراج النفط الخام وبيعه، أي من نشاطها في المملكة العربية السعودية ودول أوبك الأخرى، على الرغم من أن الشركات المتفرعة منها والشركات المتفرعة من هذه الأخيرة (البنات والحفيدات) زادت من أرباحها، تبعاً للموقف، في مختلف مراحل حركة النفط وسيره وتكريره. في الأربعينيات، كانت الشركات تستأثر بـ82 دولاراً من كل 100 دولار من الأرباح المستحصلة في حوض الخليج العربي، فيما تكون من حصة البلدان المستخرجة 18 دولاراً. أما في أواخر

1973م، فقد باتت الدول المصدرة تتسلم جميع عائدات تسويق النفط الخام تقريباً. وفي السنوات التالية، زادت الدول النفطية في شبه جزيرة العرب، الواحدة تلو الأخرى، من حصة مساهمتها في الشركات صاحبة الامتياز إلى 60٪، وإن كان بتعويض، ثم فرضت هيمنتها التامة على تلك الشركات.

الشركات النفطية العالمية آنذاك تمثل في الدرجة الأولى المصالح الأميركية. فكانت الولايات المتحدة، في ظل أزمة الطاقة، في ظروف أفضل من منافسيها. وظلت "الشقيقات السبع" مسيطرة على نقل النفط وإيصاله وعلى معظم مصانع تكريره. كذلك كانت "الشقيقات" في الطليعة من حيث الدراسات العلمية وأعمال التجريب والتصميم، ولديها خبرة كبيرة في استخدام المنجزات العلمية - التقنية بكل مرونة. كما كانت لديها رساميل أكبر وسوق أوسع. ولدى الولايات المتحدة طاقة من إنتاجها المحلي أكثر مما لدى الآخرين. ويعني ذلك أن ضخ الأموال إلى بلدان أوبك، ومنها إلى الولايات المتحدة مجدداً، إنما يحصل على حساب اليابان وأوروبا الغربية في الدرجة الأولى.

ورغم الأسعار المرتفعة كان الطلب على نفط المملكة العربية السعودية في ازدياد. وقد زادت أرامكو الاستخراج في عام 1974م بـ3 ملايين برميل يومياً، وأخذت تحفر بئراً جديدة كل أسبوع تقريباً. كذلك جرى توسيع ميناء رأس تنورة فصار من أكبر موانئ العالم النفطية.

في عام 1974م، كانت أرامكو تدفع للشركات المساهمة فيها 2.2 مليار دولار شهرياً، تحولها إلى حسابات في "فيرست نشنل سيتي بنك" و"تشيز مانهاتن" و"مورغان غارانتي"، كما كانت تحوّل إلى حساب الحكومة السعودية في أميركا عائداتها النفطية والضرائب.

عندما كانت البنوك تتسلم هذه المبالغ الهائلة، لم تكن تعرف ماذا تفعل بها في بادئ الأمر. فلم تكن لديها أي خطة في هذا الخصوص. إلا أن أسعار النفط المرتفعة تعني انفجار الاستيراد من قبل الدول المصدرة للنفط وازدياد التضخم النقدي، وبالتالي هبوط المداخيل والعائدات الفعلية، والزيادة السريعة في استخراج النفط في الدول غير الأعضاء في أوبك، ومحاولات تطوير مصادر الطاقة البديلة.

واتضح أن وتيرة ارتفاع أسعار النفط بعد انفجارها في 1974م أخذت تتخلف عن الوتائر العامة للتضخم النقدي وهبوط سعر صرف الدولار في تلك الفترة. فكان معظم الأموال الواردة إلى دول أوبك تلتهمه مشترياتها من الدول الغربية: السلع الاستهلاكية والأجهزة الصناعية والأسلحة، ما جعل الضربة التي تلقاها اقتصاد الدول المتطورة أخف وأسهل. فإن سيل "البترودولارات" الذي كان يصب في النظام المالي للغرب مباشرة، رغم زيادته الهائلة التي عقدت الموقف، لم يتحول إلى ذلك الكابوس الذي كان الغرب يخشاه في عام 1974م.

الملك فيصل يقرأ باهتمام، وبابتسامة ساخرة، مقالات "الرعب والتخويف" التي تتناقلها وسائل الإعلام الغربية بشأن الجبروت البترولي للمملكة العربية السعودية وباقي دول أوبك.

أحلام مخيفة تقض مضجع المالي الأميركي الثري: رجل أسمر يهبط من سلم الطائرة في مطار كندي في نيويورك، وفي حقيبة سفره شيكات بمليارات الدولارات مجيّرة من قبل "إكسون" و"تكساكو". يجري الرجل لقاءات سرية مع أصحاب سلال الأسهم القابضة في أكبر الشركات. وذات صباح تعرف الولايات المتحدة أن المملكة العربية السعودية اشترت كُلّاً من "جنرال موتورز" و"يونايتيد ستيتس ستيل" و"دوبون" أو اشترت كل تلك الشركات العملاقة دفعة واحدة.

على هذه الصورة أو بصورة مقربة منها، رسمت وسائل الإعلام الغربية في منتصف السبعينيات أبعاد "الخطر" المالي المنبعث من الدول المصدرة للنفط التى باتت تمتلك رساميل خيالية ومتزايدة باطّراد.

في عام 1974م بلغت عائدات دول أوبك الـ13 حوالى 100 مليار دولار.

ويبدو للوهلة الأولى أن آفاقاً ملائمة لأقصى حد تفتحت أمام دول أوبك لتطوير قوى الإنتاج. إلا أن الرساميل الهائلة ما كانت لتستطيع في ليلة وضحاها أن تغير البنى الاجتماعية العتيقة، وتسد العجز في الكوادر، وتعوّض عن الخبرة المعدومة وتنشئ البنية التحتية، بل وحتى أن تحل مشكلة قلة السكان في بلد مثل المملكة

العربية السعودية. ولذا تراكمت في المملكة وفي الكويت وأبو ظبي وقطر، وكذلك في ليبيا، رساميل طليقة ضخمة للغاية. ففي عام 1974م ذاته، لم تجد 60 مليار دولار مجالاً لإنفاقها على شراء السلع والخدمات، فاتجهت كالسيل العارم إلى الأسواق المالية العالمية. وللمقارنة، نذكر أن المبلغ الإجمالي لجميع الاستثمارات المفترضة في الخارج لعام 1971م يعادل 160 مليار دولار تقريباً، فيما قدّرت قيمة أسهم ثاني شركة في العالم من حيث الحجم، وهي شركة "جنرال موتورز"، آنذاك بـ15 مليار دولار.

كان بوسع دول أوبك أن تشتري بعائداتها الشركات المبيعة في بورصات العالم كله مقابل عائدات 15.6 عاماً (وكان بوسعها حسب أسعار تلك الحقبة أن تشتري كل الشركات المعروضة للبيع في بورصة نيويورك مقابل عائدات 9.2 أعوام)، كما تشتري كل ذهب البنوك المركزية بحساب 170 دولاراً للأوقية بعائدات 3.2 أعوام، وكل الاستثمارات الأميركية المباشرة في الخارج بعائدات 1.8 عام، وكل الشركات المعروضة أسهمها للبيع في بورصات بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية مقابل عائدات 1.7 عام، وكل أسهم شركة أي بي أم بعائدات 78 يوماً وكل ممتلكات عائلة روكفلر بعائدات 6 أيام و14 في المئة من شركة "دايملر - بينز" الألمانية مقابل عائدات يومين فقط.

لقد كانت في حوزة المملكة العربية السعودية والبلدان الخليجية الثلاثة الأخرى التي كان عدد سكانها

آنذاك يقارب 10 ملايين نسمة فقط أموال خيالية غير مسبوقة. فحاولت وسائل الإعلام الغربية أن تخلق حول هذه الظاهرة جواً من الهستيريا لتخيف العامة في الدول الصناعية من "الخطر العربي".

كتبت مجلة "تايم" تقول:

> كان عام 1974م نقطة انعطاف تقوّضت فيها الدول العريقة، وتفكّكت الأحلاف العتيقة، وانهارت الفلسفات القديمة، وظهرت مكانها أخرى جديدة. لقد تزعزع إيمان الغرب بحتمية التقدم البشري والازدهار المادي، وتفشى التضخم النقدي في العالم بأسره، وغرقت بعض المجتمعات الصناعية في مستنقع الركود، فيما انتشرت المجاعة في بعض البلدان. لقد حصل تفتّت ملحوظ في الثروات والقدرات والائتلافات في أميركا الشمالية وأوروبا واليابان، واشتد الكساد في أكثر من 40 بلداً من البلدان النامية التي تفتقر إلى الموارد الطبيعية، وازدادت تبعيتها... وفي تلك الأثناء، عمدت حفنة من الدول الغنية بالموارد إلى تأزيم المشكلة، وتحدّت المصالح الحيوية لباقي العالم مستخدمة بمهارة سلاحاً أقوى هو سلطة النفط[1].

كانت بورصتا "وول ستريت" و"سيتي" تحسبان، بمنتهى الحسد والعداء الأسود، عائدات المملكة العربية

السعودية وباقي دول أوبك، متناسيتين أن الشركات "كسبت" في نصف قرن من استغلال دول الخليج العربي وحدها عشرات المليارات ربحاً صافياً من استخراج النفط وحده، وقد تضاعفت رساميلها المستثمرة. كذلك اغتنت الخزانة في الدول المستوردة للنفط بعد أن وضعت يدها على ما لا يقل عن نصف أسعار المشتقات النفطية للمفرد بشكل رسوم الإنتاج.

خلال الفترة من 1960م حتى 1973م تسلمت دول أوبك حوالى 95 مليار دولار مقابل خاماتها النفطية، فيما تسلمت الدول والشركات في البلدان المتطورة 600-700 مليار دولار. وفي تلك الفترة استثمرت رساميل مماثلة من حيث الحجم في جميع ميادين صناعة المكائن. ذلك هو نطاق ضخّ الثروات من بلدان أوبك عشية أزمة الطاقة. وقبل سنوات من ذلك، لم تكن حصة البلدان المستخرجة للنفط من السعر النهائي للمشتقات البترولية تتجاوز 7 في المئة. وحتى بعد زيادة الضرائب على الشركات الأجنبية وارتفاع أسعار النفط أربع مرات، ظلت تلك الحصة لا تتجاوز ثلث المبلغ الذي يدفعه أصحاب السيارات في أوروبا الغربية مقابل ليتر البنزين.

كان فيصل يفهم أفضل من الكثيرين من زعماء دول أوبك الذين أسكرتهم نجاحاتهم أن لدى أكبر شركات العالم جهازاً إنتاجياً هائلاً وخبرة طويلة جداً وكوادر مؤهلة في جميع الميادين ووسائل إعلامية ضخمة وشبكة منتظمة ومتشعبة من المؤسسات المالية التي

يعمل فيها عدد من الاختصاصيين أكثر مما تقوى على تشغيله من أمثالهم الدول النفطية الأربع في الجزيرة العربية زائداً ليبيا. فهل يمكن تصور عملية خالية من الآلام والخلافات لإعادة توزيع مراكز القدرات الاقتصادية في العالم، سواء بين جماعات معينة من الدول أو في داخل رأس المال المالي الدولي؟ وهل كان في إمكان أحد أن يتصور أن الآلة الاقتصادية والعسكرية في الغرب تتنازل بكاملها أمام عمالقة المال الجدد الذين ظهروا في رحاب الصحارى الآسيوية والأفريقية الكبرى؟

لقد رسم الغرب بكل دقة ميادين استخدام "البترودولارات" أو العائدات النفطية. أقطار أوبك التي تمتلك فائضاً من الرساميل اضطرت إلى إقراض وتمويل حكومات عدد من الدول، ابتداءً من الولايات المتحدة، وإلى إيداع الأموال في البنوك والمصارف التجارية الأوروبية العاملة بالدولار، وإلى اقتناء السندات الحكومية ومختلف أنواع العقارات والأموال غير المنقولة، ومنح القروض إلى صندوق النقد الدولي وبنك التنمية والإعمار الدولي. إن ودائع مصدّري النفط في الغرب جعلتهم في الواقع رهائن بيد الاقتصاد العالمي.

أطلق مصطلح "تدوير الأموال" على عملية إعادة العائدات النفطية (البترودولارات) إلى التداول العالمي للمدفوعات الذي كان يهدف في عدة حالات إلى التعويض عن عجز موازين المدفوعات في الدول المستهلكة للنفط. ويعتقد بعض الاقتصاديين أن

استخدام مصطلح "تدوير الأموال" بدلاً من "تقديم القروض" أو "الاستثمار" إنما يعني عدم وجود خيار آخر أمام الدول الأعضاء في أوبك.

في البداية كان مصدّرو النفط الخائفون على مصير ودائعهم يفضّلون الإيداع القصير الأجل أو "السريع السيولة" بلغة الخبراء الماليين. إلا أن تحوّلاً حصل في ما بعد نحو الإيداع الطويل الأمد الذي يعطي فوائد مئوية مستقرة وأعلى.

ويمكن القول إن عملية "تدوير" فائض العملة لدى البلدان المصدرة للنفط قبل "الصدمة النفطية الثانية" باتت أكثر استقراراً، وبالتالي اتّسمت بصفة أقل انفجاراً بالنسبة إلى الغرب.

(بعد انفجار أسعار النفط من جديد، تجاوزت أصول موازين المدفوعات في دول أوبك 60 مليار دولار في عام 1979م وأكثر من 100 مليار دولار في عام 1980م).

قال أحد أصحاب البنوك الأميركيين بعد أن زار المملكة العربية السعودية وبلدان الخليج في ربيع 1974:

> إن أفدح غلطة يمكن أن يرتكبها الغرب هي أن يتوهم أن العرب جالسون في أسواق الصحراء يضفرون الحصائر ولا يعرفون شيئاً عن الشؤون المالية الدولية.

معظم احتياطيات السعوديين المالية بالدولار. عائدات النفط تتوارد بالكامل على الهيئة المالية الرئيسة في

البلاد - مؤسسة النقد السعودية التي تولت في آخر المطاف، ومنذ عهد الملك فيصل، دور البنك المركزي فعلاً.

وعندما كانت المؤسسة تتسلم المدفوعات من أرامكو، كانت تتصل برقياً وعلى الفور لتعرف أين الفائدة المئوية الأعلى. فكان معظم المبالغ بالدولار يحول إلى الولايات المتحدة حيث نسبة الفائدة أعلى. وبات مصرف "مورغان غارانتي" و"تشيز مانهاتن بنك" يمثلان المملكة العربية السعودية.

وصارت المملكة في تلك السنوات أكبر مودع أجنبي في البنوك الأميركية، وأكبر مشترٍ للسندات والأوراق المالية الحكومية، وأكبر مستثمر أجنبي في الاقتصاد والأموال غير المنقولة في الولايات المتحدة. وتقول بعض المصادر إن الأحجام الفعلية للاستثمارات السعودية أكبر من المبالغ المعلنة رسمياً (ففي تقرير سري رفعته المملكة العربية السعودية إلى صندوق النقد الدولي عام 1978م، قدّرت هي نفسها استثماراتها في الخارج بـ133 مليار دولار. ويعتقد الخبراء أن هذا المبلغ ازداد في أواخر عام 1981م بـ100 مليار دولار أخرى في أقل تقدير).

وقد تركزت الرساميل العربية في الولايات المتحدة في عدة بنوك كبرى بمدينة نيويورك أساساً. فقد ذكرت مجلة "فورتشون" نقلاً عن أحد كبار أعضاء لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ أن 75٪ من جميع الأصول العربية في الولايات المتحدة تتركز على

الأرجح في "فيرست نشنل سيتي بنك" و"تشيز مانهاتن بنك" و"مورغان غارانتي تراست". وإذا أضفنا إليها في تلك الحقبة "كيميكل بنك أوف نيويورك" و"مانوفاكتشوريرز هانوفر تراست" و"بنك أوف أميركا"، يمكن القول بقدر كبير من اليقين إن هذه البنوك الستة حازت 90٪ من جميع الودائع المالية العربية في الولايات المتحدة.

كانت الحكومة الأميركية تأخذ في الاعتبار فقط الودائع ذات العائدية الوطنية المعروفة. إلا أن الكثير من الأموال أودعت بأسماء مستعارة وحسابات سرية لأشخاص أو منظمات. فهذه السياسة تؤمن للمودعين العرب ضمانات دون حجز الأموال في حال حصول مواجهة عربية أميركية.

وحسب معلومات الصحافة الأميركية، لم يكتفِ ملوك النفط العرب بإيداع رساميلهم في البنوك الأميركية، بل أخذوا يمارسون بهمة ونشاط شراء البنوك الصغيرة بكاملها أو جزئياً، واقتناء الأراضي والعقارات والفنادق والمؤسسات الصناعية.

كذلك اجتذب سوق المال في لندن مبالغ من المملكة العربية السعودية وباقي الدول النفطية. وكانت ثمة عوامل كثيرة تصب في مصلحة لندن وتجتذب الرساميل إليها، ومنها الفوائد المئوية العالية نسبياً على الودائع، وضمانات الاستثمارات الرسمية بالجنيه الإسترليني، وسعة سوق المال في سيتي - لندن

ومرونته وحنكة القائمين على خدمته، والعلاقات القديمة مع الأقطار العربية ومع إيران.

وأدّت بنوك فرنسا وسويسرا وبنيلوكس (بلجيكا وهولندة ولوكسمبورغ) دوراً مهماً في "تدوير" البترودولارات والعائدات النفطية.

ولكي تقترب البنوك الدولية من مصادر العائدات النفطية، افتتحت لها فروعاً في الأقطار العربية المستخرجة للنفط.

وساعد توارد "البترودولارات" الدول الغربية المتطورة في علاج أمراضها الاقتصادية على حساب المملكة العربية السعودية وباقي دول أوبك، وسهّل عليها إعادة تنظيم الاقتصاد بنيوياً وتقليص العجز في موازين المدفوعات.

إلا أن ارتفاع أسعار النفط ترك آثاراً سلبية، ومأساوية أحياناً، في الأوضاع الاقتصادية لباقي البلدان النامية التي لا تمتلك هذه الخامات.

الكثير من البلدان النامية باتت في ربقة الغرب مالياً، وتباطأت وتائر تطورها الاقتصادي، وتردى مستوى حياة السكان. وفي تلك الحقبة بالذات دخلت معظم بلدان أفريقيا في دوامة الأزمة التي استمرت لعشرات السنين.

مدّت دول أوبك يد العون للدول النامية الأخرى، فقدمت لها مساعدات مالية واقتصادية ضخمة تجاوزت في عام 1980م إجمالاً 55 مليار دولار. وكان قسم كبير من إجمالي تلك المساعدات بشروط تسهيلية، ومعظمه على شكل هدايا، وفي مقدمة الدول المانحة

المملكة العربية السعودية وباقي دول الخليج. كانت تلك المبالغ تعتمد وتقدم على أساس ثنائي أو إقليمي، وجزئياً من خلال صندوق النقد الدولي وبنك الإعمار والتنمية الدولي وغيرهما من المؤسسات المالية الدولية.

لقد ظهرت الرساميل العربية في آلاف الشركات الكبيرة والصغيرة في الدول النامية. ولكن ما هو دور تلك الرساميل؟ وهل حصل ملوك المال العرب على وسائل التحكم في الشركات التي موّلوها؟

أشار العديد من الماليين في الجزيرة العربية إلى أنهم لا يستطيعون أن يمارسوا تأثيراً يذكر على الشركات الأجنبية. يقول المدير العام للشركة الكويتية الصينية للاستثمار أحمد عبد اللطيف الحمد: حتى لو سيطرنا على "جنرال موتورز"، فلا بد أن نأخذ في الاعتبار أننا لسنا أصحاب شركة "فيات"، مثلاً، التي تستطيع أن تبتلع هذه المؤسسة، لكونها تمتلك مخططات وأفكاراً بشأن كيفية إدارة صناعة السيارات. ولو اشتريت مثلاً شركة "إنترنشنل بيزنيس ماشينز" لما توافر لي إمكان إدارة هذه الشركة. فليس المهم أن يكون مديرها عربياً، المهم أن يؤدي هذا المدير دوراً فاعلاً بصرف النظر عن انتمائه العرقي أو قوميته...

وبالرغم من ترحيب الدول الغربية المتطورة بودائع "العائدات النفطية"، واصلت تلك الدول الهيمنة على القطاعات الرئيسة لاقتصادها وحمايتها.

وقد أوضح وزير الخزانة الأسبق في الولايات المتحدة وليم سايمون في حينه أن الدول المنتجة للنفط تستثمر المال في الاقتصاد الأميركي بعد تنسيق مع الحكومة الأميركية. وكانت "حرية التصرف" لأصحاب الرساميل العربية مقيدة بأطر متشددة وخاضعة لمراقبة الخزانة. وفي مقدمة الحواجز أمام الاستثمارات الأجنبية في الصناعة الأميركية "برنامج حفظ الأسرار الحربية". كان جميع مقاولي البنتاغون ملزمين برفع تقارير عن حجم سلات الأسهم الموجودة في حوزة غير الأميركيين، فكانوا يُحرمون من الطلبيات العسكرية إذا تجاوزت حصة رأس المال الأجنبي في مقاولاتهم المستوى الأدنى المقرر.

أما في بريطانيا، فكانت وظائف الرقابة من نصيب "بنك أوف إنغلاند" الذي كان لا بد من الحصول على موافقته بشأن أي صفقة تتجاوز فيها حصة الأجانب 10٪ من أسهم الشركات.

إلا أن رأس المال العربي تمكن في بعض الحالات من تجاوز العوائق والحواجز التي وضعت أمامه.

ولقد دفعت مسألة الأسعار ومستوى استخراج النفط إلى المرتبة الثانية وحتى الثالثة أكبر مهمة في السابق، وهي فرض سيادة الدول المنتجة للنفط على امتيازات الشركات الأجنبية. ولم يعد التأميم شعاراً كفاحياً للوطنيين والقوميين، بل تحول إلى موضوع للمباحثات والمفاوضات في شأن أشكال وشروط إحالة ملكية شركات الاستخراج إلى حكومات الدول المنتجة.

بناءً على تكليف من الملك فيصل، أمضى أحمد زكي يماني بقية عام 1974م في عمل شاق للتمهيد لـ"سعودة" شركة أرامكو بالكامل.

كان ممثلو الشركات النفطية في تلك الحقبة يوقّعون لوائح التنازل عن الامتيازات باسمين، متظاهرين أنهم أرفع مستوى من الفشل. فقبل حلول عام 1975م أمّمت فنزويلا بالكامل ملكية جميع شركات رأس المال الأميركي. وفي ديسمبر من العام ذاته تسلمت الكويت الـ40٪ الباقية من "شركة نفط الكويت". وفي ذلك الشهر، أمّم العراق كل ما بقي من ملكية الشركات النفطية الأجنبية. وبعد حين من الزمن تسلمت الحكومة السعودية، بتعويض، الـ40٪ من ملكية أرامكو الباقية في أيدي الأميركيين. وكشفت هذه الأحداث التي جرت من دون فخفخة ولا ضجيج عن مدى ضعف هيمنة أكبر الشركات النفطية في العالم على استخراج النفط وتسويقه.

فكم "كسب" مساهمو أرامكو خلال العقود التي مرت قبل أن تغدو الشركة سعودية خالصة؟ الجواب يتوقف على كيفية الحساب. فهل تحسب عائدات رأس المال المستثمر أيضاً؟ قدّر فرانك جانغرز عائدات مساهمي أرامكو ما بين 1 و2 تريليون دولار!!

كانت أرامكو حقاً المؤسسة الأكثر ربحاً في تاريخ البشرية.

ولكن من الخطأ القول إن أصحاب أرامكو السابقين فقدوا كلياً نفوذهم وتأثيرهم على صناعاتهم النفطية

السابقة. فالشركات صاحبة الامتياز سابقاً تحولت إلى شركات مقاولات، واحتفظت بنفوذ كبير في الميادين الفنية، ابتداءً من إعداد الكوادر وتنظيم الإدارة وانتهاءً بجلب الأجهزة المتخصصة العالية التقنية وترشيد الإنتاج.

الفصل التاسع والعشرون

رياح التبدلات... وهل يغيبُ الملكُ إذا رَحَل؟!

قبل عشرين عاماً من تلك الحقبة، كان ظهور الأجنبي في الرياض يعتبر حدثاً جللاً. أما بعد عام 1973م فقد انهالت على المملكة سيول من "الباعة المتجولين" ومختلف صنوف النصابين من كافة أرجاء العالم. كانوا، في قمصانهم البيضاء وربطات العنق، في غاية الأدب واللطف، يبتسمون لكل من يلتقيهم، ويتحلّون بالتواضع، فلا يهمهم أن يناموا في أروقة الفنادق إذا كانت غرفها مشغولة، ويعرضون للبيع كل ما يمكن أن يُباع ويُشترى. كتب السفير الأميركي لدى المملكة جيمس إيكينز يقول: "سماء الرياض اسودّت من العقبان تحوم حاملة مخططات الإثراء السريع"[1].

كل يوم تقريباً كانت تفتتح فنادق جديدة ومطاعم تقدم أطباق الطعام الأوروبي. وفي كل مكان تجد أعمال البناء والإنشاء. وتقوم المباني بلا عناية ولا انتظام ولا جمال. (في ما بعد جرى تجريف معظم ما بُني في السبعينيات).

يقول سفير بريطانيا السابق لدى المملكة جيمس كريغ في مذكراته التي تتحدث عن أواخر السبعينيات، لكن المشهد بدأ في عام 1974م:

إنك ترى العجب العجاب. عندما تأتي من المطار إلى الرياض ترى المشهد نفسه في كل مكان. المدينة تحولت إلى ساحة بناء هائلة. وبدت كما في كوابيس المنام. أينما يمّمت تواجهك الرافعات العالية، والعمال منهمكون في البناء، وما أكثر ذلك البناء ...[2]

حُمّى الذهب التي اجتاحت القرن التاسع عشر الميلادي في الغرب بدت كأنها مجرد رشح عادي أو استبراد خفيف مقارنة مع الوضع في المملكة العربية السعودية في بدايات الربع الأخير من القرن العشرين. الباعة والمشترون يعقدون الصفقات على عجل، في جو أقرب إلى الهستيريا. وعلى مدار الشهر كانت أسعار العقارات في الرياض تتضاعف كل أسبوع. وكان يمكن للصفقة الواحدة أن تعود على صاحبها بثراء طائل.

غصّت الموانئ واختنقت بالسلع والبضائع الاستهلاكية والغذائية والصناعية والإنشائية، ولم تعد قادرة على التفريغ. فأكل الصدأ بعض الشحنات، ونخر العفن بعضها الآخر، وانهالت عليها الجرذان تنهشها في كل مكان... كان تأخر تفريغ السفن يستغرق شهوراً ويسبب غرامات كبيرة تضاف إلى أسعارها. حتى "الهليكوبترات" استخدمت أحياناً لتفريغ سفن الأسمنت. وارتفعت أسعار مواد البناء أضعافاً مضاعفة، لكن الطلب عليها ظل يسبق العرض في كل الأحوال، والتضخم النقدي يزداد باطّراد.

وإلى ذلك وجد السعوديون أنفسهم فجأة في أرض الخير والرخاء العميم. وخُيّل إلى معظمهم، بل كانوا واثقين، أن ذلك الرخاء الأسطوري لن ينتهي أبداً.

يقول جيمس كريغ:

> لعل الكثيرين كانوا يتمتعون بالخيرات ولا يفكرون في شيء. كانوا يسبحون في نشوة الانتعاش التي عمّت الجميع. ويمكن القول، بعد مرور الزمن، إن الخوف من تلك النشوة التي تركت أثرها السلبي على الاقتصاد وعلى الحالة النفسية العامة كان له ما يبرره بقدر ما. إلا أن ذلك الخوف وجد طريقه في تلك الحقبة إلى عدد قليل من كبار السن فقط[3].

كان في مقدور السعوديين أن يشتروا كل ما يخطر في بالهم. ولكن اتضح منذ الأشهر الأولى لحمى الاستيراد أنهم لن يستطيعوا بأنفسهم ووحدهم أن يمتلكوا ناصية التقنيات الجديدة أو الخدمات أو البناء. مستشفى الملك فيصل التخصصي، على سبيل المثال، يغصّ بأحدث الأجهزة الطبية التي تستجيب لأرقى المتطلبات العصرية، ولكن لا وجود للأطباء المحليين. فاضطر السعوديون إلى استقدام الأجانب واستخدامهم في كل المجالات. استخدموا العمالة الوافدة بكل فئاتها، من عمال ومعلمين وأطباء ومهندسين ومحاسبين ومديري فنادق وممرضات ومربيات وهلم جرّا.

وبالتدريج، تحولت النخبة المثقفة السعودية الغربوية من متفرجين على عملية التطور إلى ممارسين للتجارة والأعمال والإدارة، مسجلين نجاحات ملحوظة. إلا أن أي نوع من أنواع النشاط في المملكة آنذاك كان يتطلب عمالاً أجانب وخبراء مؤهلين من الخارج. وبنتيجة النهضة البترولية عموماً، نجد في المملكة العربية السعودية، مع بداية القرن الحادي والعشرين، نحو 6-7 ملايين وافد يعملون فيها على أساس دائم.

الدول الغربية كانت "تصدر" إلى المملكة خبراء واختصاصيين من ذوي الرواتب العالية. فالرواتب والأجور والعلاوات الضخمة مكّنت الوافدين الغربيين من القيام بسفرات سياحية ترفيهية إلى أفريقيا، وركوب الطائرة إلى هونغ كونغ لمجرد شراء الحاجيات والاستجمام في جزر سيشيل والتجوال في نيبال، والاصطياف في جبال كشمير. إلا أن معظم العمال كانوا من الآسيويين. وقبل حرب الخليج الأولى كان في المملكة كثير من اليمنيين، ولكن جرى إخلاؤهم بسبب موقف القيادة اليمنية "الموالية" لعراق صدام حسين. لم يكن الوافدون اليمنيون والريفيون المصريون على قدر من المهارات المهنية الضرورية للصناعة الحديثة، فيما كان الفلسطينيون واللبنانيون غير مأموني الجانب من الناحية السياسية. أما الآسيويون فيمثلون بحراً زاخراً من الأيدي العاملة المؤهلة وشبه المؤهلة وغير المؤهلة. كانوا يتقاضون أجوراً رخيصة، ويتميزون بعدم الاهتمام أو الحياد السياسي، فباتت حوالات الوافدين الآسيويين

المالية تمثل جزءاً ملحوظاً من عائدات باكستان وبنغلاديش، بل حتى الهند.

كتبت ساندرا ماكي في مؤلفها **السعوديون: مملكة الصحراء من الداخل** تقول:

> نحن الغربيين فعلنا خيراً للمملكة العربية السعودية، كثيراً من الخير. لكننا ألحقنا بها أضراراً أيضاً. كنا نريد للسعوديين أن يعيشوا وفق طموحاتنا وأمانينا، وليس وفقاً لطموحاتهم وأمانيهم. وكنا نتوقع لهم أن يتغيروا بسرعة كبيرة، ففرضنا عليهم ثقافتنا، المادية في الأساس. لقد فرضنا قيمنا على ثقافة ذات كرامات كبيرة وتقاليد عريقة عمرها قرون.

وتضيف ساندرا ماكي من دون أن تبدي تعاطفاً ملحوظاً مع البلد الذي كسبت فيه وزوجها مالاً كثيراً:

> لم نكن ندرك تماماً مدى تنوع القوى التي تتجاذب المملكة العربية السعودية وتجرها إلى جهات متنافرة، حيث انهالت مختلف الأفكار الغريبة على شعب عاش منعزلاً مئات السنين. الكثيرون منا خدعوا السعوديين طمعاً وجشعاً. والقليلون منا أبدوا الاحترام اللازم لهوية السعوديين الذين يمثلون شعباً متديناً جداً يدافع عن ثقافته ويبدي حذراً تجاه الأجانب[4].

انخفضت أسعار النفط كثيراً في منتصف عام 1981م لترتفع إلى عنان السماء في السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين. لكن ذلك ليس موضوعنا الآن.

إلا أن عهد الازدهار النفطي خلق طبقة جديدة من رجال الأعمال السعوديين. جاء بعضهم من البيوتات التجارية القديمة في الحجاز وفي المنطقة الشرقية، فيما بدأ بعضهم من خدمات العمولة والسمسرة والوساطة.

السمسرة أو الوساطة من أقدم التقاليد التجارية في العالم. وقد أنجبت في ظل الازدهار النفطي عدداً من ألمع ممثلي الطبقة الجديدة في المملكة ممن ولجوا عالم المال والأعمال الدولي الكبير عن جدارة واستحقاق.

ومنهم عدنان خاشقجي.

كان والده من أطباء الملك عبد العزيز، ولذا نشأت له منذ نعومة أظفاره علاقات في البلاط والديوان الملكي. وقد استفاد من تلك العلاقات لتجميع رأسمال أولي، فعمل في التوسط بين المشترين والبائعين مقابل عمولة كان يتلقاها من الطرفين. وفي ما بعد مارس تجارة السلاح التي تتعذر ممارستها من دون منفذ إلى كبار الموظفين السعوديين وأفراد العائلة المالكة. وفي ذروة نجاحه (الذي أعقبته بعض الإخفاقات في ما بعد) كان خاشقجي ينفق على احتياجاته الشخصية أكثر من 120 مليون دولار في العام دليلاً على ثروته الطائلة.

تمكن عدنان خاشقجي من تجميع أموال سعودية طليقة اشترى بها الأسهم القابضة لمصرفين في كاليفورنيا، كما استثمر المال في تربية الماشية في ولاية أريزونا، واقتناء المطاعم في كاليفورنيا، وشركات نقل وغيرها في نيويورك. وكان في خدمة خاشقجي "عقل مفكر" يعمل فيه زهاء عشرين شخصاً معظمهم من الأميركيين، وبعضهم يتسلم راتباً يتجاوز 100 ألف دولار سنوياً. كان يريد إدخال النمط الغربي من الرأسمالية إلى المملكة العربية السعودية والعالم العربي، فألقى باللوم على الولايات المتحدة لكونها لا تصدر نظامها إلى المنطقة. ونشير هنا في المناسبة إلى أن أعمال خاشقجي لم تعد موفقة في مطلع القرن الحادي والعشرين.

رجل الأعمال العصامي السعودي الآخر سليمان العليان بات يمتلك إحدى أكبر الشركات في المملكة. والده بائع توابل، فيما تخرج الصبي في المدرسة الإنجليزية في البحرين وعمل مترجماً في أرامكو ثم سائقاً، ثم فتح مكتباً للنقل والسفريات، وجمع مالاً من مد أنبوب النفط عبر الجزيرة، ثم مارس تجارة الأغذية والبناء وصفقات العقارات. وفي أواخر السبعينيات باتت مجموعة العليان تضم 35 شركة عاملة في المملكة العربية السعودية. وكان سليمان العليان يعمل مع بعض أمراء العائلة المالكة في السوق المالي الدولي.

وفي نيويورك ترأس "مجموعة العليان" وزير الخزانة الأميركي السابق وليم سايمون ذاته. وشملت

استثمارات العليان مجالات واسعة، منها تسعة بنوك أميركية مثل "تشيز مانهاتن بنك" الذي تخرج فيه مديرو شركاته الرئيسة، وكذلك "فيرست شيكاغو كوربوريشين". وترأس العليان البنك السعودي البريطاني في المملكة، والبنك السعودي الإسباني في إسبانيا، وصار عضواً في اللجنة الاستشارية الدولية لبنك "مورغان غارانتي تراست"، وعضواً في مجلس مديري "موبيل" التي اشترى سلة كبيرة من أسهمها. وكانت لمجموعته مصالح واسعة في هونغ كونغ وفي عدد من بلدان أوروبا الغربية، وخصوصاً في الولايات المتحدة، حيث اشترت أسهماً في 60 شركة أميركية. وخلافاً لعدنان خاشقجي، كان سليمان العليان يفضّل العمل من وراء الستار، من دون أن يظهر على الملأ في طائرات شخصية ولا فخفخة تثير الفضول. إلا أن عائداته الصافية في المملكة العربية السعودية وحدها بلغت 300 مليون دولار سنوياً، فبات يضخ الأموال لاستثمارها في الدول الغربية في الدرجة الأولى. ففي بنك "تشيز مانهاتن" مثلاً لم يتفوق عليه أحد سوى آل روكفلر.

أولاده الأربعة تخرجوا في الجامعات الأميركية وتولوا إدارة الأعمال، وكانت زوجته الثالثة والأخيرة، الأميركية الأصل، سكرتيرة سابقة في أرامكو.

زميل عدنان خاشقجي الدكتور غيث فرعون، نجل رشاد فرعون مستشار الملك فيصل، صار من رجال الأعمال الناجحين، واقتنى السلة القابضة من أسهم بنك

كبير في ديترويت تبلغ أصوله مليار دولار. ثم حوّل غيث فرعون هذا البنك إلى مؤسسة مالية دولية افتتحت لها فروعاً في الشرق الأوسط لتجميع الرساميل العربية وضخها إلى الولايات المتحدة.

وكان الأمير طلال أول من دخل عالم المال والأعمال من أفراد العائلة المالكة منذ الخمسينيات، حيث تلقى من والده الملك عبد العزيز مبلغاً لبناء معمل للأسمنت. ومنذ ذلك الحين وفّق إلى المزيد. وعندما عاد إلى المملكة العربية السعودية عام 1964م لم يمارس السياسة، بل انصرف إلى الأعمال بهمة ونشاط، وخصوصاً تجارة العقارات. وورث نجله الوليد بن طلال الموهبة التجارية عن والده، فبات بعد بضعة عقود في عداد أغنى عشرة أشخاص على وجه البسيطة.

الملك فيصل كان في منتهى التواضع، ولم يمارس التجارة والأعمال في أي فترة من حياته، فيما حقق صهره كمال أدهم نجاحات باهرة في الوساطة التجارية ولفترة طويلة.

كذلك بات وزير البترول والثروة المعدنية آنذاك أحمد زكي يماني من كبار الأثرياء.

عندما تولى منصب الوزير في عام 1962م كان راتبه 12 ألف ريال في الشهر، ما يعادل 2655 دولاراً تقريباً. وهو مبلغ كبير في مقاييس ذلك الوقت. وكان الراتب يزداد على الدوام، حتى إن يماني في شهر أكتوبر 1986م، حينما ترك الوزارة، كان يتسلم إجمالاً 500 ألف دولار سنوياً.

إلا أن الرواتب المذكورة لا تمثّل سوى جزء من ثروته.

مصدر ثراء الكثيرين من السعوديين هو قطع الأراضي الأميرية التي تسلموها على سبيل الهدية أو التشجيع.

فقد كان إهداء الأراضي جانباً أساسياً في نمط الحياة التقليدي في العالم العربي. أما في المملكة العربية السعودية، فقد كان يتخذ كوسيلة للتخفيف من أعباء خزينة الدولة في الصرف على مكافآت أفراد العائلة المالكة والخدم والموظفين المخلصين.

يقول أحمد زكي يماني:... أبدى الملك فيصل تجاهي سخاءً منقطع النظير يزداد من عام إلى آخر. تسلمت منه أراضي واسعة مع حق التصرف بها كما أشاء. وبفضله تجمعت لدي من سنة 1974م حتى سنة 1976م ثروة كبيرة من العقارات. لقد حالفني الحظ وتمكنت من الحصول على رأسمال كبير من تجارة الأراضي. وحالفني الحظ أكثر عندما خرجت من اللعبة في الوقت المناسب، قبل الانهيار الذي حصل سنة 1976م[5].

وإضافة إلى أملاكه في المملكة، اشترى يماني عقارات في إيطاليا وسويسرا ولبنان وفرنسا وبريطانيا. فلديه منازل في الرياض وجدة ومكة والطائف وفي ضاحية بيروت وعلى بحيرة جنيف وفي سردينيا وفي حي مايفير في لندن وفي أرياف دوقية سوراي.

وغدت شركة يماني للاستشارات الحقوقية من أكثر الشركات ربحية في دول الخليج، وفتحت لها مكتباً في

الرياض وآخر في جدة وممثليات في سويسرا وبريطانيا والولايات المتحدة واليابان.

في أواخر التسعينيات بلغ رأسمال أحمد زكي يماني عموماً نصف مليار دولار على وجه التقريب، وكان في ازدياد مطّرد.

لقد غدا رجال الأعمال السعوديون جزءاً من النظام الاقتصادي العالمي، من دون أن يفرطوا بأصولهم الوطنية أو يتنكروا لتقاليد بلادهم.

في تلك الفترة ترسخت المراكز المالية القائمة في الغرب على مؤسسات العملة والمالية المحلية المتطورة، وقد اندمجت فيها عضوياً البنية التحتية المصرفية المتشعبة بكل ما لديها من خبرة وكوادر وإمكانيات تقنية، وأسواق وبورصات المال الكبرى وغيرها من المؤسسات المالية، وخصوصاً العملة القابلة للتحويل والتي تؤدي دوراً عالمياً، يعززه الاستقرار السياسي النسبي في بلدانها.

وفي منطقة الخليج أيضاً، نشأت بسرعة مراكز مالية جديدة، وإن كانت ثانوية بالمقارنة مع المراكز الغربية، كما نشأت العناصر الأساسية لسوق المال، حيث تأسست البنوك والشركات الاستثمارية وبورصات السندات والأوراق المالية، وتقوت بعض العملات الوطنية الخليجية. وتمكنت المراكز المالية العربية من أن تؤدي دوراً مستقلاً، ولو في حدود معينة، ونشأ ترابط بين المراكز المالية القديمة والجديدة.

بدا الأمر كأن الجميع راضون مطمئنون، ينعمون بالازدهار والاستقرار حتى أسكرتهم النشوة غير المسبوقة إلى أبعد الحدود.

والشخص الوحيد المستثنى من هذا المشهد البهي الزاهي هو الملك فيصل الذي يعود له بالذات الفضل في نجاة المملكة العربية السعودية من هزات الستينيات والسبعينيات وعواصفها. وهي مدينة له بتلك القرارات التي اتخذت وأمّنت في الوقت المناسب انفجار أسعار البترول وتصاعد العائدات. إلا أنه هو بالذات كان يتابع ما يجري بمنظار آخر، بمرارة وألم متزايدين.

فهو يدرك أن معظم عائدات النفط في المملكة، في عهد والده عبد العزيز وأخيه سعود في الأربعينيات والخمسينيات، كان، كما في باقي الدول النفطية، ينفق على الاستهلاك، نظراً إلى الفاقة التي عاشتها تلك البلدان، وبسبب الأنظمة الاجتماعية والسياسية العتيقة السائدة فيها آنذاك. لقد نشأ انطباع كأن متسلمي تلك الأموال قطعوا صومهم الذي استمر قروناً، وانهمكوا في إشباع شهية تتزايد مع الأيام. ولم تكن العامة تتسلم من العائدات النفطية في تلك السنوات إلا النزر القليل. أما في السبعينيات، فقد بلغت شهية الطبقات العليا حدّ التخمة والانتفاخ. إلا أن ألف باء الاستقرار الاجتماعي تتطلب أن تتقاسم النخبة الموسرة خيراتها وعائداتها مع فئات المجتمع ذات الدخل المحدود. ولذا كانت تدابير الضمان الاجتماعي لهذه الفئات، من معونات ومخصصات لبناء المساكن وتشجيع الزراعة والخدمات

الطبية المجانية والتعليم المجاني في المدارس والجامعات، جزءاً لا يتجزأ من سياسة تلك النخبة.

وكان من اللازم في الوقت ذاته حل المهمات الاقتصادية الكبرى. وتعيّن على الملك فيصل أن يجر بلاده بالقوة تقريباً إلى المستقبل. فجهاز الدولة آنذاك كان يلبي احتياجات المجتمع التقليدي على المستوى المتدني ولا يصلح البتة للتصرف بالأموال النقدية الضخمة، ولا لأداء وظائفه الاجتماعية والاقتصادية الجديدة. فلم يكن هناك نظام مالي حكومي ولا نظام محدد للنقد، ولا أنظمة أو قوانين صناعية وتجارية ولا مؤسسات حكومية واجتماعية واضحة المعالم، ولا كوادر مؤهلة ولا حتى العدد الكافي من السكان للتحكم في مستوى العائدات الجديد.

القاعدة أن الارتفاع السريع في الدخل الوطني لا يتحقق إلا بنتيجة تبدلات سياسية واجتماعية تسبقه وتمهد له أو تسير في موازاته. أما في الحالة التي نحن بصددها، فقد سبق الانفجار المالي كل التحولات: الاجتماعية والسياسية والثقافية.

لقد رأى الملك فيصل بمرارة وأسف أن القيمة الفعلية للاستثمارات السعودية في الخارج تتقلص بسبب التضخم النقدي وتدهور سعر الدولار. أليس من الأصلح والأنفع عدم التعرض للنفط وهدر عائداته؟ فكلما استثمرت المملكة المزيد من الأموال النقدية في اقتصاد الغرب ازدادت تبعيتها له. ولكنها لو امتنعت عن تزويد العالم المتطور بما يحتاج إليه من نفط، لتعرضت

استثماراتها في الغرب إلى مزيد من الخسائر في ظل الكساد الاقتصادي هناك. والمفارقة العجيبة أن المملكة تخسر المال إذا ضخت المزيد من إمدادات النفط وتخسره إذا ضخت القليل منها.

والمخرج الصحيح الوحيد هو التنمية الاقتصادية النشيطة الفاعلة.

ولهذا الغرض بالذات وضعت الخطة التنموية الخمسية الثانية التي سبق أن تحدثنا عنها.

فما أشد العبء الذي وقع على كاهل الملك فيصل! إنه عبء لا يحس بمدى ثقله إلا هو شخصياً والمقربون إليه. لم يعد الملك يتردد مع أقرب أصدقائه على البادية في الليل ليصلي هناك ويستريح. لقد انهمك في العمل، متخلياً حتى عن هوايته المحببة في الصيد بالصقور، وانطبعت على محياه بصمات الإرهاق والإجهاد والمخاطرة والنضال والصراع والانتصارات والإخفاقات والانفعالات والمرض. كان متقيّداً بحمية صارمة، وظل نحيفاً كما كان. لاحت عليه إمارات الشيخوخة، ولم يعد يبتسم كما كان في عهد الشباب، ولم تبقَ على مُحيّاه معالم تلك البسمة الوادعة وذلك الانتعاش والحماسة التي نراها منطبعة على صوره الفوتوغرافية العائدة إلى فترة العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات. وجه متغضن نحيل بعينين حيويتين عميقتين وشفتين مزمومتين - تلك هي صورته في بداية السبعينيات.

انفجار العائدات وضع الملك فيصل في مواجهة مسألة ربما كانت أهم المسائل بالنسبة إليه: كيف

يحافظ على الاستقرار في وجه الإعصار، في ظل التبدلات المذهلة المدوّخة في البلاد؟ وكيف يحمي منظومة القيم والمثل العليا والأصول السامية لدين شعبه في زمن اجتاحت فيه كل شيء حمى التعطش إلى الثراء والملذات. أليس الإثراء اليسير سبباً في تفتيت الروح وتدمير أركان الدين ومبادئه القويمة التي قامت عليها دولة أبيه راسخة عتيدة بعد أن أنقذها هو شخصياً من التفكك والسقوط؟ لقد أفلح في تأمين مستلزمات التطور والتنمية والاغتراف من منجزات الحضارة العالمية إلى جانب الحفاظ على القيم التليدة والتقاليد المجيدة. ولكن هل يحالفه النجاح في الظروف الجديدة، في خضم أعاصير التبدلات؟

كيف يمكن الحد من الفساد والتفسخ الخلقي في جو يعبد فيه الناس العجل الذهبي بدلاً من رب العالمين؟ ألن تهتز مواقع آل سعود في ظل التبدلات السريعة الجارفة؟ في أي طريق سالك عليه أن يقود شعبه من الآن فصاعداً؟

أقرب المقربين إلى الملك فيصل، عقيلته عفت وأولاده ومن وضع ثقته فيهم، لاحظوا عليه في عام 1974م إمارات التعب وسوء المزاج، حتى لكأنه يبتعد عنهم متسامياً إلى أعلى، إلى قمم لا يرون ذراها.

بات الملك يمضي إلى مكتبه في ساعة مبكرة، ويبقى هناك وقتاً أطول من المعتاد، فيما يقضي العطل والأعياد في إدارة شؤون الدولة، كما تعود في السابق.

وعندما يصرف ساعة أو ساعتين مع زوجته وأولاده يخيّل إليه أنه يعيش في عالم آخر.

المشاكل الجديدة التي تمخضت عنها الثروات شغلت باله وأفكاره.

قال نجله محمد في حديث إلى الكاتب الإنجليزي روبرت ليسي: لقد أحس الوالد بأنه لم يتمكن من وضع حدّ للتبذير والإسراف ولجشع الناس. فانكبّ على العمل حتى بدا كأنه ليست لديه حياة شخصية.

وقال الأمير عبد الله الابن البكر للملك فيصل في حديثة مع ليسي: كنا نشعر بآلامه، لكننا لم نستطع أن نفعل شيئاً.

حاول عبد الله أن يساعد والده. كانت لديه فيلا صغيرة تطل على البحر شمالي جدة، فدعا الوالد إلى المجيء إليها مساء الجمعة عندما تسمح الظروف. ووعده بأن العائلة وحدها ستكون هناك ولا شيء سوى الأحاديث في نسيم الليل. فشكر الأب ابنه ممانعاً. ورجاه عبد الله وأوضح أنه يريد لوالده أن يغيّر الجو ويأخذ قسطاً من الراحة. فقال الملك فيصل: تعتقد بأنني لا أعرف لماذا تدعوني، أو تظن أن مشاعرك هذه لا تعجبني؟ كلا، في ودّي أن آتي، ولكن هل أستطيع أن أشعر بأني حر طليق وسعيد؟ سأبقى أفكر في العمل طول الوقت. لا أستطيع أن أسترخي وأرتاح، لم أعد أشعر بالحياة نفسها. صدقني، يا عبد الله، لم أعد أفرّق بين البرد والحر[6].

ذكر فيصل لخالته حلمين رآهما أخيراً في المنام، نوردهما هنا كما كتب عنهما روبرت ليسي في مؤلفه **المملكة**.

الحلم الأول.

كنت في دار قديمة من الطين مثل دار جدي التي تربيت فيها في الرياض. وجدت نفسي في قسم الحريم. فتحت الباب، فرأيت جدتي لأمي مع جدة أمي، وأنا أتذكرها، وكذلك عمتي نورة التي تزوجت من سعود الكبير. لم أدهش لرؤيتهن، مع علمي بأنهن جميعاً متوفيات. رأيتهن جالسات معاً يتحدثن بعضهن إلى بعض، ولكن كانت معهن هناك امرأة أخرى لا أعرفها، تتحدث إليهن كأنها من صديقات العائلة أو حتى من أفرادها، لكنني لا أعرف من هي.

وقفت عند الباب بعيداً عن الغريبة حتى رأتني جدتي فدعتني إلى الدخول وقالت ضاحكة:

- ادخل يا فيصل، ولا تخجل. ادخل وحيّي طرفة. ماذا بك؟ ألم تعرف أمك التي ولدتك؟ حان الوقت لتراها.

وشعرت بالخوف فجأة.

الحلم الثاني.

رأيت في المنام أنني واقف في البادية، فاقتربت مني سيارة عتيقة مكشوفة، فيها جدي الإمام عبد الرحمن ووالدي عبد العزيز وشقيقي الأكبر تركي الذي توفي وأنا في حوالى الثالثة عشرة، ومعهم عمي سعد الذي استشهد في معركة كنزان ضد العجمان. كلهم في سيارة واحدة. وعندما رأوني لوّحوا لي بأيديهم. وقال والدي: اصعد إلى السيارة يا فيصل. ونزل ليأخذني بيده. كنت سعيداً برؤية أفراد عائلتي الذين توفوا منذ زمان، وتقدمت خطوة نحوهم، لكنني ارتعبت وأردت أن أفرّ هارباً، إلا أن والدي أمسك بيدي بشدة، فمانعت. لكنه جرّني إليه وأنا أمانع. ونزل باقي أهلي من السيارة ليساعدوا والدي. أدخلوني إلى السيارة، وأغلقوا الباب، فأسرعت بنا لا أدري إلى أين...

قص الملك فيصل ما رآه في المنام على خالته في بداية سنة 1395 للهجرة، أي في يناير 1975م على وجه التقريب. وقال إن الاستنتاج ممّا رآه واحد لا جدال فيه. إنه لن يعيش حتى نهاية العام[7].

وجاءت الضربة القاتلة من جهة غير متوقعة إطلاقاً.

ابن أخ الملك، واسمه فيصل أيضاً، هو الشقيق الأصغر للأمير خالد بن مساعد الذي قتل قبل عشر سنوات في أعقاب أول هجوم على المحطة التلفزيونية في الرياض. درس فيصل بن مساعد في الولايات

المتحدة، ولم تكن نجاحاته باهرة. نقل من كلية إلى أخرى وتعاطى المخدرات في جامعة بيركلي، ثم ألقي القبض عليه في ولاية كولورادو متلبّساً بتجارة المخدرات. وتورط مع صديقة له في فضيحة كانت ستؤول إلى عقوبة جنائية هي السجن. إلا أن وزارة الخارجية الأميركية تمكنت من انتشال الأمير من يد القضاء بشق الأنفس.

أمضى الطالب الجامعي بعض الوقت في بيروت، وشوهد بين شلة من المدمنين على المخدرات. وعندما عاد إلى الرياض في عام 1971م منعه الملك فيصل من السفر إلى الخارج، كي لا يجلب العار على العائلة بتصرفاته المشينة.

أفاق فيصل بن مساعد يوم الثلاثاء 25 مارس 1975م وذهنه مشغول بفكرة شريرة. ففي العاشرة صباحاً ظهر في غرفة المراجعين في ديوان رئاسة مجلس الوزراء، وظل ينتظر وصول الملك إلى القصر. آنذاك جاء وفد رسمي كويتي برئاسة وزير النفط عبد المطلب الكاظمي.

وكان في غرفة المراجعين أحمد زكي يماني، فأبلغ الكويتيين أن الملك سيكون في مكتبه في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين، وأنه دقيق في المواعيد بالمطلق، حتى يمكنكم توقيت ساعاتكم على دوامه[8].

في ذلك الموعد بالضبط دخل الملك فيصل مكتبه بصحبة مرافق شخصي، وكأنه يريد أن يؤكد صحة قول

يماني.

عندما رآه يماني من غرفة المراجعين اعتذر من الكويتيين وتركهم في عهدة رئيس التشريفات أحمد عبد الوهاب، ومضى إلى الملك ليطلعه على مضمون اللقاء مع الوفد الكويتي، فيما نصب مراسلو التلفزيون كاميراتهم استعدادا للتصوير.

رأى فيصل بن مساعد وزير النفط الكويتي الشاب، وكان يعرفه من عهد الدراسة في كولورادو، فتقدم إليه وحيّاه. كان الباب مفتوحاً، فرافق رئيس التشريفات الكويتيين إلى الملك فيصل، وانضم إليهم الأمير فيصل بن مساعد.

عندما صافح الملك فيصل الوزير الكويتي انتشل فيصل بن مساعد مسدسه وأطلق على الملك ثلاثة عيارات عن قرب. الرصاصة الأولى أصابته في رأسه فهوى على الأرض. كان ذلك في الساعة 10,32 صباحاً. قبض المرافق الشخصي على الجاني وأمسك بيده موجهاً المسدس إلى أعلى، ودوّت عدة طلقات أخرى. يؤكد يماني أن الأمير استهدفه هو أيضاً. واقتحم الغرفة عدد آخر من الحراس فاقتادوا القاتل مخفوراً بعد أن أسقط في يده.

نُقل الملك فيصل إلى المستشفى فوراً، وكان لا يزال على قيد الحياة. أجرى الأطباء له نَقل الدم المباشر ودلكوا القلب، إلا أنه أسلم الروح بعد ساعة.

كان جانغرز في مكتبه في أرامكو في الظهران في منتصف نهار 25 مارس، فاتصل به هاتفياً من الرياض

موظف في التشريفات: "يا فرانك، أرسل لنا أطباء فوراً". "أي أطباء؟ ماذا حدث؟". "حدث أسوأ ما يمكنك أن تتصور يا فرانك". "أحم... كيف؟". "أطلقوا النار عليه". "أي أطباء تريدون؟". "لا أدري. نحن في حاجة إلى أطباء. فوراً. ابعثهم بالطائرة"[9].

وصل أطباء أرامكو إلى الرياض بعد فوات الأوان.

استقل جانغرز الطائرة إلى العاصمة في الحال ليواسي عائلة الملك الراحل، كما توافد إليها حالاً رؤساء بعض الدول، وبينهم الرئيس اللبناني والعاهل الأردني وممثلو الحكومات الغربية. وحضر من الولايات المتحدة نيلسون روكفلر، نائب الرئيس فورد. واستمر تقاطر رؤساء الدول الأخرى إلى الرياض.

وخلافاً للمعتاد، لم يوارَ جثمان الفقيد في الثرى في اليوم نفسه. فالتوديع استمر.

في تلك الأثناء، نقل المذيع بصوت متهدج نبأ الفاجعة من إذاعة الرياض، ثم انتحب باكياً. واجتاح نحيبه المملكة والشرق الأوسط بأسره. الناس، كل الناس، في صدمة. شوارع المدن السعودية خلت من السابلة، وانزوى المواطنون في منازلهم.

في أعقاب إذاعة النبأ، شغلت مدرعات الحرس الوطني والجيش مواقعها في شوارع المدن الرئيسة، وألقت الشرطة القبض على بندر، شقيق القاتل، وأصحابه، متصورة أن ثمة مؤامرة.

لكن الهدوء ظل مخيماً على البلاد.

اجتمع كبار أفراد العائلة المالكة الموجودين في الرياض على جناح السرعة، وأعلنوا قرارهم بعد ثلاث ساعات على وجه التحديد بمبايعة ولي العهد الأمير خالد ملكاً وتعيين الأمير فهد ولياً للعهد. أعلنوا الولاء والبيعة للملك الجديد ووليّ عهده أمام جثمان الملك الراحل، وانضم إليهم شيوخ القبائل والوزراء وكبار الموظفين والعسكريين.

وفي اليوم التالي ووري الملك فيصل بن عبد العزيز في التراب في مقبرة العَوْد بالرياض.

كانت الخسارة فادحة عظيمة، وكان الخطب جللاً بالنسبة إلى الأغلبية المطلقة من سكان البلاد. فالملك فيصل وفّر الاستقرار والازدهار للمملكة. وارتدت النساء في المدن السعودية ثياب الحداد البيضاء.

وقف رؤساء الدول العربية والإسلامية الذين وصلوا لتشييع الملك الراحل في صف واحد مع عشرات الآلاف من المصلين السعوديين.

كان الناس يتساءلون عن دوافع الجريمة. هل هي مجرد فعلة نكراء من شاب أفقدته غوايات الغرب رشده وتوازنه النفسي والعقلي، فضلّ سواء السبيل؟ أم هي ثأر دموي أقدم عليه هذا الشاب انتقاماً لأخيه الذي قتل قبل عشر سنوات؟ أم سببها غضب الشاب على عمه الملك لمنعه من السفر إلى الخارج؟ أم هي جريمة قتل مدبرة من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية انتقاماً للحظر البترولي وللموقف المتشدد في مواجهة

إسرائيل؟ كان السعوديون يهزون أكتافهم متحيرين أمام تلك التساؤلات ويقولون: تلك هي مشيئة الله.

يقول الأمير خالد الفيصل: كنت مع الوالدة في بيروت، في طريقنا إلى الولايات المتحدة للعلاج. وفجأة سمعتها تطلق صرخة مروعة في غرفتها في الفندق. فهرعتُ إليها فوجدتها مغمىً عليها. لقد سمعتْ بمقتل الوالد من الإذاعة...[10].

لم يتطرق خالد الفيصل إلى الأسباب التي دفعت فيصل بن مساعد لاغتيال عمه، لكنه لمّح في إحدى القصائد التي يرثي بها والده إلى أن تلك الجريمة من تدبير الأعداء. كتب في قصيدة "سلام يا فيصل" يقول:

إن كان قصد عداك تعطيل ممشاك

حقك علينا ما نوقف ولا يوم

إن قاله الله ما نضيع لك مناك

نسجد لرب البيت في القدس ونصوم[11].

ويعيد الأمير خالد الفيصل إلى الأذهان في البيت الأخير من قصيدته أمنية والده التي أعرب عنها قبل فترة قصيرة من مقتله: سنصلي العيد المقبل في القدس بإذن الله.

مراد غالب قال في حديث له مع المؤلف:

> أنا أعتقد أن الأميركان هم الذين دبروا قتل الملك فيصل. فوكالة الاستخبارات المركزية تعرف كل شيء عنه.

وقال نهاد الغادري في حديث له مع الدكتور إيغور تيموفييف، مشدداً على وجود تواطؤ مع وكالة

الاستخبارات المركزية: "قتلُ فيصل مؤامرة أميركية".

فهل هناك صلة بين الزيارة الفاشلة التي قام بها كيسنجر إلى المملكة العربية السعودية وبين اغتيال الملك؟ وهل هي سبب انتشار رواية تورط وكالة الاستخبارات المركزية في الحادث؟

في هذه المسألة، حتى جيمس إيكينز كان مستعداً للدفاع عن غريمه كيسنجر:

> هنري كيسنجر في فترة مقتل الملك فيصل ضيع ثقة المملكة العربية السعودية وباقي أقطار العالم العربي بالكامل، ولما كان القاتل الشاب قد عاد إلى المملكة من الولايات المتحدة التي كانت له مع البوليس فيها مشاكل كبيرة كادت تقوده إلى السجن، تصوّر الكثيرون أنه عميل مأجور لوكالة الاستخبارات المركزية، وأن لكيسنجر أو للوكالة المذكورة ضلعاً في اغتيال الملك. لا أحد يستطيع أن ينسب إليّ قدراً من التعاطف مع كيسنجر، إلا أن هذه الرواية باتت حجر عثرة في علاقاتي مع أهالي الشرق الأوسط. وما أزال حتى الآن أجد نفسي مضطراً إلى أن أثبت لهم أن تلك الرواية لا أساس لها من الصحة بالمطلق. فهم يفكرون هكذا: كيسنجر أدرك أن فيصل لم يعد ينفع أميركا ولا يمكن التحكم في تصرفاته، فقرر أن يتخلص منه. حينما

تتعامل مع العرب غالباً ما تواجه خصوصيتهم المتمثلة في التسرع بالاستنتاجات. فالاستدلال هو فرس الرهان عندهم. وهم مستعدون لاعتبار التأملات الاستدلالية، أياً كانت، حجة دامغة[12].

(بعد مراسم تنصيب الرئيس الأميركي الجديد جيمي كارتر عام 1977م أقيل كيسنجر).

في اللعبة الكبرى التي شهدها الشرق الأوسط في السبعينيات، لم يكن هناك مكان لعمل مثل تدبير اغتيال الملك فيصل على أيدي الأميركيين. والأكثر من ذلك أنهم كانوا يعتبرونه حليفاً لهم. وفي تلك الحقبة، بعد التحقيقات والفضائح المعروفة في 1974-1975م، كانت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية مشلولة. وظل الشلل يلازمها حتى لحظة العمليات الإرهابية في 11 سبتمبر 2001م. كان محظوراً عليها ممارسة الاغتيالات. وحتى في السابق، عندما تهيأت وكالة الاستخبارات المركزية مثلاً لمحاولة اغتيال فيديل كاسترو، كان يتعيّن على الرئيس الأميركي شخصياً أن يتخذ القرار ويعطي أمراً تحريرياً بذلك. إلا أن الرئيس جيرالد فورد ما كان حتى ليفكر في إصدار أمر باغتيال أحد. ومعروف أن لهنري كيسنجر بالفعل ضلعاً في عملية وكالة الاستخبارات المركزية لتدبير الانقلاب في شيلي، إلا أنه تقيّد آنذاك وعمل وفقاً لتعليمات الرئيس نيكسون حرفياً. وإلى ذلك، لم تكن للأميركيين علاقة

مباشرة بمقتل سلفادور أليندي، خلافاً لمقتل شي غيفارا.

إليكم أخيراً ما قاله أحمد زكي يماني الذي كان على يقين راسخ بأن الجريمة ليست ثأراً ولا انتقاماً لشقيق القاتل:

> ... الأمير الشاب من طينة أخرى. أخوه كان متديناً جداً، أما هو فليس متديناً. أنا لا أستطيع أن أثبت بالطبع مئة في المئة، إلا أنني عندما كنت رهينة لعدة شهور عند الإرهابي كارلوس، قال لي إنه على معرفة بالأمير، وإنه كان يحب أن يعاكس صديقة الأمير الشاب ويعتب عليها كيف ارتبطت برجعي مثله... فكانت الفتاة تجيب: إنه ليس رجعياً. وذات مرة قالت لكارلوس: ستتأكدون قريباً أنه بطل حقيقي...[13]

نلاحظ هنا أن بعض اليساريين العرب يتصورون أن فيصل بن مساعد بات بطلاً "ثورياً" أشبه بألكسندر أوليانوف، شقيق لينين، الذي شارك في مؤامرة لاغتيال القيصر الروسي في حينه.

تم بدأ التحقيق مع القاتل. أجراه محققون محترفون، وشارك فيه بعض أفراد العائلة المالكة.

بعد بضعة أيام، أعلن الملك خالد في مقابلة مع جريدة "ديلي ستار" البيروتية أن الجريمة عمل فردي لشخص غير سوي، وليست مؤامرة أجنبية. وأفاد أطباء لبنانيون أنهم عالجوا الأمير فيصل بن مساعد من

الإدمان على المخدرات والمسكرات. ولكن هل كان مجنوناً حقاً؟ إذا كان كذلك لا تجيز الشريعة إعدامه. استمر التحقيق معه عدة أسابيع، فأبدى خلاله احتقاراً لكل ما كان عمه يدافع عنه، بما في ذلك الإسلام. وأعطى الأطباء رأيهم النهائي بأنه سليم العقل، ما يعني أنه اقترف جريمة القتل عمداً، عن وعي وإدراك.

بعد 85 يوماً، في 18 يونيو 1975م، اقتيد القاتل إلى الساحة العامة في الرياض، وكان يمشي مترنحاً متخاذلاً. وقطعت عنقه أمام جموع من نحو 20 ألف شخص.

خاتمة

مراحل سيرة حياة الملك فيصل بن عبد العزيز تفوق التصوّر في غناها وتنوّعها، حتى لكأنها جاءتنا من بطون الروايات الخيالية.

ذلك الصبيّ الحافي القدمين، بدشداشته البيضاء، يجلس القرفصاء منهمكاً في رسم حروف الهجاء بإصبعه على الرمل، مكرّراً عن ظهر قلب آيات حفظها من القرآن الكريم. إنه فيصل.

ذلك الصبي اليافع، وقد كبر قليلاً، يقفز على ظهر الحصان الجموح ليطوف بأقصى السرعة حول الرياض. وهو نفسه يتحدّى نحول البدن ببسالة مستميتة، فينطّ في البئر العميقة ويظل يطبطب على مائها حتى يلقوا إليه من فوق بحبل يتشبث به صاعداً.

ذلك الفتى، في ربيع العمر الزاهر، يجوب شوارع لندن بفخر واعتزاز مبعوثاً عن سلطان نجد، ويتنقّل من فندق إلى آخر في جوّ تلك البلاد المطير. ثم يسلم السيف العربي بمهابة واحترام إلى ملك بريطانيا هديّة من والده عبد العزيز.

ذلك الشاب المغوار يقود القوّات لتحرير عسير بأقل ما يمكن من الخسائر، وبعد سنين يدخل حومة الصراع الضاري الذي فرض على بلاده في جبهة حرب اليمن.

ذلك السياسي الناشئ يدير، نيابة عن الملك المؤسس، بلاد الحجاز وحرميها الشريفين وأراضيها

التي تفوق مساحة بريطانيا.

ذلك السياسي المحنّك يتولى، بتكليف من أخيه الملك سعود، مهام رئيس الوزراء ويرتّب الشأن المالي وينقذ البلاد من شفا الإفلاس، ويجازى على ذلك، ويا للمفارقة العجيبة، باستقالة قلبت موازين الأمور.

ذلك القيادي الكبير يصاب بخيبة أمل وبمرض شديد يقتضي إجراء عملية جراحية معقّدة، لكنّه يعود بعد ذلك كلّه إلى السلطة من جديد.

ذلك الزعيم الرشيد يقود بلاداً توقّع لها الجميع الانهيار والاندثار، لكنّه يعثر على سبل رصّ صفوف الأمة وتعزيز مواقع النظام الملكي، فيؤول العرش إليه بالتوافق دون قطرة دم ودون مخالفة للوعد الذي قطعه لأبيه.

ذلك الحاكم المؤمن المتمسّك بمبادئ الإسلام، يدخل في مواجهة مميتة مع خصم لدود شديد البأس هو زعيم القومية العربية اليساري العلماني الوضعي الذي كان، في زمن ما، معجباً به أيّما إعجاب. وعندما يتكبّد ذلك الزعيم هزيمة مهينة على يد إسرائيل يمدّ له الحاكم المؤمن يد العون ويغدو شريكاً وحليفاً له إن لم نقل صديقاً صدوقاً.

ذلك السياسي البعيد النظر، المعجب بالولايات المتحدة الأميركية في بادئ الأمر، يشعر بخيبة أمل مريرة وبإهانة ما بعدها إهانة عندما يقدم رئيس تلك الولايات المتحدة على إقامة دولة إسرائيل في قلب فلسطين، ثم يتبعه رؤساء آخرون يوفّرون لهذا الكيان

مساعدات عسكرية ومالية غير مسبوقة من حيث السعة والكم. ولبعد نظره وحنكته ظلّ يأمل في التعاون مع الولايات المتحدة رغم كل الخلافات.

ذلك الرجل الذي هو أقوى حاكم عربي يتوقّف على قراره مصير سوق البترول العالمي وسعر صرف العملات الصعبة وأسهم وسندات أسواق المال والبورصات الدولية ووتائر تطور الاقتصاد في العديد من البلدان.

ذلك المسلم المحبّ لبلاده يقلقه أشد القلق احتمال استبدال عبادة الله في موطنه بعبادة العجل الذهبي، فيبذل قصارى جهده للحفاظ على الدين الإسلامي وعلى القيم التقليدية، في خطى حذرة وحازمة وموزونة ليسير بالبلاد في حقول ألغام المشاكل الداخلية والتناقضات الدولية وصراعات عهود "الحرب الباردة"، فيخطو خطوة إلى الأمام ثم نصف خطوة إلى الوراء، ثم ربع خطوة إلى الأمام، حتى يواصل المسيرة والتطور قدماً.

ذلك العاشق المتيّم بالبادية، المحبّ لهوائها المنعش ورحابها اللامتناهية وعظمتها المتجلّية عبر رياضة الصيد بالصقور وسط الرمال والصخور.

ذلك الوالد الحنون على أولاده وعياله الـ 18 المهتمّ بغرس معتقداته وآرائه ومبادئه في نفوسهم وتربيتهم على مفاهيم الشرف والكرامة والمسؤولية.

ذلك كلّه، وكثير غيره، هو فيصل. شخص واحد. شخصية واحدة، شاملة جامعة، تتغير وتتبدل وتتطور

متأثرة بالعالم ومؤثرة فيه، مستجيبة لمتطلّباته ومغيّرة له.

فأية تركة خلّفها للأجيال؟ وماذا يمكننا أن نقول عن فترة حكمه؟ على امتداد السرد في هذا الكتاب حاول المؤلف جهده أن يبتعد عن التقويمات والتوصيفات والتأويلات. ومن حقّه في الخاتمة، على الأقل، أن يعطي شيئاً منها.

سألني محمد حسنين هيكل بلهجة تنمّ عن الارتياب:

- ماذا؟ هل تنوي تأليف كتاب في مديح الملك فيصل؟

- كلاّ، فيصل في غنى عن المديح. أريد تأليف كتاب موضوعي.

- مستحيل، لا مجال هنا للموضوعية...

- أريد أن أكتب بشكل موزون وموضوعي.

تذكرت حديثي هذا مع هيكل. ولعلّي أوافقه على صعوبة اتخاذ موقف موضوعي محايد في تقويم أية شخصية سياسية. بالنسبة لشيخ الصحافيين العرب الذي أمضى ردحاً من حياته في تسويد صفحة الملك فيصل، قد يبدو أيّ تقويم إيجابي لشخصيته نوعاً من الإطراء والمديح و"التمجيد".

نقطة الخلاف المبدئية الرئيسية بيني وبين جميع نقاد الملك فيصل، وخصوصاً الناصريين والماركسيين والقوميين اليساريين العلمانيين، هي أنّني على يقين، وقد قلتها صراحة وعلى المكشوف، من أنه لم يكن هناك بديل لفيصل في تلك الظروف التاريخية.

نقاد الملك فيصل يقولون إنه عمل لمصلحة أسرة آل سعود وقمع المعارضة. نعم، فيصل عمل لمصلحة آل سعود وقمع المعارضة. إلاّ أنّ القضايا الرئيسية بالنسبة لي تكمن في النتائج الملموسة لحكمه، وفي ما كان يمكن أن يحلّ محلّ النظام الذي أنشأه. وقد طرحت السؤال الأخير على الناصريين وعلى الماركسيين: "أتريدون صدّام حسين سعودياً لتسلك المملكة درب العراق؟" فيصل بن عبد العزيز - "نعوذ بالله"، "أم تريدون نظاماً ماركسياً على غرار منغيستو مريام في إثيوبيا؟" - "نعوذ بالله"، "أم تريدون نظاماً يسارياً شيوعياً تقريباً على غرار اليمن الجنوبي؟" - "نعوذ بالله". "فماذا تريدون إذاً؟". لم يحيروا جواباً. وكان واضحاً ضمناً أنّهم يريدون للمملكة العربية السعودية زعيماً عربياً مثل جمال عبد الناصر، مالكاً لكلّ خصاله ومنزهاً، في الوقت ذاته، عن كلّ عيوبه، بشرط أن تمتدّ جذوره عميقة في تربة الجزيرة ويحمل في ذات الوقت المثل العليا للأمة العربية، أي إنهم يريدون زعيماً خيالياً وهمياً لا تستطيع أرض الجزيرة أن تنجبه وتربّيه بأي حال من الأحوال. في حديثهما معي، رفض كلّ من محمد حسنين هيكل وسامي شرف فكرتي بعدم وجود بديل عن الملك فيصل. وأنا أفهم موقفهما طبعاً. فلو اعترفا بصحة رأيي لكان عليهما، وهما شخصيتان مرموقتان تماماً، أن يشطبا جزءاً من حياتهما ومعتقداتهما.

لو افترضنا ظهور نظام "يساري" أو مجرّد نظام علماني وضعي في المملكة العربية السعودية، فإنّه كان سيغدو نظاماً عسكرياً ديكتاتورياً. ونظراً لسعة هذه البلاد المترامية الأطراف ونفوذ الأسرة المالكة والعلماء والعلاقات القبلية، فإنّ أية محاولة افتراضية من الجيش للاستيلاء على السلطة لا بدّ أن تقود إلى حرب أهلية. وإلى ذلك لا ينبغي أن ننسى العامل الخارجي. فالولايات المتحدة، شئنا أم أبينا، لن تسكت على قيام نظام مناهض لها في بلاد تحوي بطونها ربع الاحتياطيات النفطية العالمية. ولربما احتلّت الولايات المتحدة في هذه الحالة المنطقة الشرقية بمواردها البترولية. وبعدها يتفجّر الموقف في الحزازات بين الشيعة والسنّة هناك كما حصل في العراق، وتتقوّض المملكة كما تقوّض العراق لحدّ كتابة هذه السطور.

وحتى في الوقت الحاضر يمكن أن تحلّ الفوضى فيما لو افترضنا نظريّاً تبدّل نظام الحكم السعودي. فمهما كان النظام الذي يحلّ محلّه، ومهما كان الزعيم الذي يفترض أن يأتي على بقايا المملكة، ومهما كانت الحكومة التي تستلم زمام الحكم ستكون من كلّ بدّ معادية للغرب إذا كانت تريد الاحتفاظ بالسلطة. سواء كانت حكومة دينية صرفاً، أم حكومة تمثّل الطبقة المتوسّطة، وهو احتمال ضعيف للغاية. الميول المعادية للغرب في المملكة العربية السعودية والمصطبغة حتماً بصبغة دينية، لا تعترف بالحدود بين الدول والطبقات. وهي منتشرة بين السلفيين والحداثيين، بين ضباط

القوة الجوية وجنود البادية. إنها تجمع بين غالبية السكان في رفض القيم التي يروّجها الغرب، وخصوصاً محاولات فرض تلك القيم بالقوّة. إلاّ أن واشنطن لن تسكت على ظهور حكومة معادية للغرب. فإن مثل هذا الانعطاف في الأحداث يمكن أن يقود إلى مؤامرة، وربما حتى إلى تدخّل أجنبي يسفر عن تفشي الفوضى أيضاً.

ونعيد إلى الأذهان من جديد أنّ كل هذا الكلام مجرّد افتراضات تأمّلية.

لنبتعد لحظة عن المملكة العربية السعودية ونتساءل عموماً: ما الأفضل؟ الإصلاحات الهادئة والتحويلات غير المتسرّعة أم الانفجارات الثورية المتشنّجة؟ لنأخذ العراق مثلاً. النظام الملكي في العراق كان ظالماً فاسداً موالياً للغرب. تقوّض تحت ضربات الانقلاب الثوري، ثم حصلت انفجارات العنف الثوري وحمامات الدم التي أقدم عليها البعثيون والشيوعيون والعسكريون. واستلم مقاليد الحكم صدّام حسين، فأقام نظاماً أكثر ظلماً وقسوة ودموية في السياسة الداخلية، وأشدّ تهوراً في السياسة الخارجية. ورّط البلاد في حرب ضد إيران راح ضحيّتها ملايين القتلى من الجانبين، وأقدم على مغامرة غزو الكويت في محاولة لضمّها إلى العراق وخسر المعركة، ولم يتمكّن بعد ذلك من إنقاذ البلاد من الضربة الأميركية الثانية. والنتيجة عشرات ومئات الآلاف من الضحايا الجدد، ودمار البلاد وتمزيقها والقضاء على الأمل في توحيدها من جديد، فيما صعد صدام نفسه إلى المشنقة. فما الأفضل إذاً؟ التطوّر

التدريجي المفترض للنظام الملكي العراقي البغيض أم التشنجات الدموية للانقلابات والثورات؟ قد يكون هذا الكلام من قبيل التأمّلات النظرية التجريدية. ألم يكن هناك الكثير من الأشخاص المتسرّعين الذين أسكرتهم الشعارات البراقة وكانوا في الوقت ذاته متعطشين إلى السلطة والثروة؟ فيما تحجّر الحكّام السابقون في رجعيّتهم وامتيازاتهم، ولم يعودوا قادرين على التحرّك إلى الأمام. الأنظمة في بعض الأحيان تتعفن لدرجة تجعل الثورة تندلع من تلقاء ذاتها. لقد قامت الثورات في الماضي، وهي قائمة الآن وستقوم في المستقبل أيضاً. لكنّ الأفضل، في اعتقادي، لو أنها لم تحدث.

نقّاد فيصل اليساريون يفضّلون، حسب الأساليب المتبعة في أوساطهم، أن ينكروا عموماً كلّ ما هو إيجابي من إنجازات الزعيم الذي يعتبرونه من خصومهم، فيصبغون كلّ أفعاله باللون الأسود. ويزعمون أنّ الإصلاحات في المملكة العربية السعودية بدأها الملك سعود الذي تعرّض، كما يقولون، إلى حملة جائرة من التشهير في وسائل الإعلام في عهد الملك فيصل. لقد تحدّثنا عن سعود في هذا الكتاب كثيراً، وبموضوعية، كي نقطع طريق الجدال على الذين يستخدمونه في انتقاداتهم لفيصل.

يقول نقّاد فيصل اليساريون إنّ المثقفين أو من يعتبرون أنفسهم مثقفين، كانوا في عهد الملك سعود يجتمعون قرب متنزّه الرياض ليبحثوا المسائل السياسية بحرّية. وفي أسواق الكتب يمكن شراء

مؤلّفات لينين وغيرها من الأدبيات عن الاشتراكية والشيوعية. كلّ ذلك اختفى في ليلة وضحاها عندما استلم فيصل مقاليد الحكم. وقد فرض الرقابة وسحب من التداول كلّ المطبوعات الماركسية والمؤلفات اليسارية والليبرالية. هذا صحيح. نعم، لقد أوجد فيصل نظاماً متشدّداً يسعى إلى تأمين الاستقرار والحفاظ على المؤسسة السياسية القائمة وإمكانية التطوّر في إطار التقاليد. كان الملك فيصل يفهم تماماً أنّ الكلمة سلاح بتّار في الصراع السياسي. صدق الشاعر الروسي فلاديمير ماياكوفسكي عندما قال: "الشعر والشعار... راية ونار". إنّ السماح للخصم كي يصل بحرّية وسهولة إلى ترسانة الكلمة المعادية له إنما يعني إضعاف مواقع النظام.

عدد من غلاة اليساريين (ربما كانوا بالعشرات لا بالمئات) لقوا مصرعهم في مقارعة النظام الملكي حتى في عهد الملك فيصل. وعلينا أن نحترم الذين قضوا مضحّين بأنفسهم في سبيل عقيدتهم مهما كانت. لا يجوز ذكر الموتى بدون ترحّم، وإلاّ فالصمت أفضل. ولكنّ مطالعة المؤلفات "اليسارية" التي تزعم أنّ محمد بن عبد الوهاب كان يهودياً نزح إلى نجد في القرن الثامن عشر الميلادي ليفكّك مجتمع الجزيرة، وأنّ أسرة آل سعود ليست من أبناء الجزيرة، إنّما تجر القارئ إلى عالم السريالية واللامعقول.

لقد وفّر الملك فيصل فرصة التطوّر التدريجي للمملكة بلا انفجارات ولا طفرات ثورية، ومن دون

تحويلها إلى ميدان لتجريب النظريات والأفكار الجديدة غير المجرّبة.

كنت، بحكم عملي ممثّلاً شخصياً لرئيس الجمهورية الروسي في العلاقات مع زعماء القارة الأفريقية، قد حضرت ندوات حاول المشاركون فيها العثور على حلّ لمشاكل القارّة الساخنة العويصة. فما هي المهمّات التي يتوخّاها زعماء الأقطار الأفريقية؟ تطوير نظام الصحة والتعليم، شق الطرق، توفير الاتصالات، توفير الأمن، بناء المساكن، توفير مياه الشرب والكهرباء للسكان، تنمية الاقتصاد، وتطوير الزراعة. فما وجه المقارنة مع المملكة العربية السعودية؟ لا مجال حتى للمقارنة. التعليم العام المجاني يتطوّر في المملكة، ومحو الأمية يكاد يكون مهمة ناجزة، والجامعات مفتوحة (على الرغم من الطموحات الكبيرة في شأن مستواها)، والخدمات الطبّية مجانية، وقد شقّت وتُشقّ طرق وشوارع رائعة، ونظام الأمن فاعل بقدر كبير، والاقتصاد يتطوّر بسرعة. قد يقول البعض إنّ الفضل في ذلك يعود إلى الملابسات والظروف الفريدة والموارد المالية الوفيرة. فرغم فرار مئات المليارات من الدولارات من المملكة، فإنّ ما هو باق فيها يكفي ويزيد لكي تتقدّم وتتطوّر على جناح السرعة ولو بواسطة العمالة الوافدة. إلاّ أننا نعرف أمثلة على سرقة ونهب الثروات النفطية بالكامل في أماكن أخرى، وقد ظهرت بالتالي أنظمة حاكمة أعاقت في الواقع تطوّر بلدانها. فيما أرسى الملك فيصل بالذات أسس الإصلاحات البنيوية وهيكل

الاقتصاد العصري والدوائر الخدمية الاجتماعية القاعدية.

وإذا تحدثنا عن توظيف التقاليد في بناء المجتمع المعاصر، فقد تفنّن فيصل في هذا المجال أبعد حدود التفنّن. لقد رجع إلى التقاليد ليدفع الناس إلى المستقبل، وليجدّد البناء من خلال صيانة التراث والمخزون الروحي. وتلك ممارسة نادرة، وربما فريدة من نوعها. فنحن نعرف أمثلة على الضد من ذلك تماماً. في روسيا الناس معجبون بالقيصر بطرس الأكبر، المصلح المجدد الداعي للحداثة الأوروبية في القرن الثامن عشر. ولسنا وحدنا المعجبين به. أمير شعراء روسيا ألكسندر بوشكين في القرن التاسع عشر كان معجباً به، وكذلك "الغربويون" من دعاة التجديد. تمثال بطرس الأكبر، الفارس النحاسي من أشهر معالم سان بطرسبورغ. بل إن المدينة نفسها تمثال له، وهي من أجمل مدن العالم. لكنّنا نفضل أن ننسى أو نتناسى قسوة بطرس الأكبر الذي فرض على المجتمع الروسي وعلى الذهنية الروسية المعايير والقيم الأوروبية الغربية بالهراوة والعنف، فجعل المجتمع ينقسم على نفسه إلى فئة النبلاء والمثقفين الموالين للغرب، والسواد الأعظم من السكان المتقيّدين بأصولهم الروسية الأرثوذكسية. وكان بوشكين أوّل من عكس هذا الانقسام المأساوي في أدبه. وأريد هنا أن أوضح موقفي: القضية ليست في لزوم أو عدم لزوم اقتباس عناصر معيّنة من الحضارة الغربية. القضيّة في كيفية

الأخذ والاقتباس. هل نرغم مجتمعنا على القبول بأفكار الغير، أم نغرس بفطنة وحذر وذكاء، وبالتدريج، ما نحتاج إليه من الاقتباسات الضرورية للتطور، كما فعل بحكمة ورشاد والد بطرس الأكبر، القيصر ألكسي ميخائيلوفيتش الملقّب "بالوديع".

لقد تحوّلت الازدواجية أو الثنوية في منظومة القيم الروسية إلى كابوس مرعب في روسيا على امتداد أكثر من ثلاثة قرون، حتى قادت البلاد في آخر المطاف إلى ثورتين في القرن العشرين تسبّبتا في خسائر مرعبة تفوق الوصف. كما قادت إلى المحاولة الجديدة الراهنة "لتغريب" روسيا، فعادت بها إلى حدود القرن السابع عشر الزمنية، وأسفرت عن هوّة اقتصادية عرضها أكثر من عشر سنوات وعن انقراض السكان والإبادة الجماعية للمثقفين مادياً ومالياً. لقد اقترنت إصلاحات بطرس "الأكبر" بتضحيات وضحايا جعلت عدد سكان الإمبراطورية يتقلّص في عهده بنسبة 15٪ تقريباً. أما بشأن "أفراخ عش بطرس"، كما نعتهم بوشكين، فإنّ الكثيرين منهم كانوا من مختلسي أموال الدولة بأبشع شكل للاختلاس. الدوق الشهير منشيكوف، مثلاً، جمع ثروة تعادل الميزانية السنوية للإمبراطورية الروسية المترامية الأطراف.

الانفصام والازدواجية الثنوية في المجتمع وفي منظومة القيم، خاصّية مميزة لعملية "التغريب" أو النزعة "الغربوية" في العالم كله، بما في ذلك الأقطار الإسلامية. كمال أتاتورك قاد تركيا على طريق الغرب.

وكان فيصل مطّلعاً على كتاباته ونشاطاته، إلاّ أنه رفضها لاعتبارات عقائدية فكرية وعلمية تطبيقية. ثم عاد الأتراك إلى أصولهم الإسلامية التقليدية، وإلى هويتهم التركية لا الأوروبية. وأدّى ذلك حتى في السياسة إلى استلام حزب الإسلاميين المعتدلين مقاليد السلطة. لقد بذل فيصل قصارى جهده ليحول دون انفصام المجتمع السعودي وتمزّقه. ولذا كان التدرّج والحذر شعاره.

وثمة مسألة أخرى هامة بالنسبة للمؤلف: ما موقفنا نحن الروس من الملك فيصل؟ الجواب يكمن فيما إذا كان من الإنصاف اعتباره عدواً لروسيا. اذا كنّا نقصد بمفردة "روسيا" الاتحاد السوفياتي وعقيدته الإلحادية فالجواب بنعم. والأكثر من ذلك أنّ فيصل كان يعتقد أنّ الشيوعية هي وليدة الصهيونية، وكلا هذين التيارين العقائدي والسياسي من أعداء الإسلام والعرب. إلاّ أن فيصل لم يكن عدوّاً للروس ولروسيا. ولذا أقدمت روسيا الجديدة بكل سرور، في العام الأخير من عمر الاتحاد السوفياتي، على استئناف العلاقات مع موطن الملك فيصل، ثم اكتشف الطرفان الكثير من المواقف المشتركة بينهما، سواء السياسية أو الاقتصادية أو الحقوقية أو الثقافية.

ثم إن سياسة الملك فيصل حيال روسيا كانت قائمة على البرغماتية. سنوات حكمه صادفت معمعان "الحرب الباردة"، والاتحاد السوفياتي وحلفاؤه في جهة من المتاريس، بينما المملكة العربية السعودية في الجهة

الأخرى، رغم عدم مشاركتها في الأحلاف. وقد وفّر لها هذا الموقع عدّة مزايا ومنافع. فليس من قبيل الصدفة أن نلمس في المملكة، حتى في الوقت الحاضر، حنيناً إلى العالم ذي القطبين. فهي تمكّنت فيه أن تقوّي مواقعها في العلاقة مع الولايات المتحدة. صحيح أن عدم المشاركة الرسمية في الأحلاف العسكرية من المستبعد، في حال نشوب حرب نووية لامعقولة، أن يبعد الضربة السوفياتية عن القاعدة الأميركية في الظهران، حتى وإن كان العلم السعودي يرفرف فوقها. إلاّ أنّ لتعويل المملكة العربية السعودية على الولايات المتحدة مصداقية وتبريراً، ليس فقط لأن هذه الدولة وحلفاءها الغربيين كسبوا "الحرب الباردة". إنه مبرّر أيضاً من ناحية حماية المملكة من المخاطر والتهديدات الخارجية ودعم الأمن في الداخل، ومن حيث التعاون العسكري والاقتصادي والتقني والعلمي والمالي وغيره بين البلدين. كانت برغماتية فيصل عنصراً جوهرياً في فلسفته وممارساته السياسية. الشيوعية الملحدة التي هي "دين" رسمي برداء "رفض الأديان" في الاتحاد السوفياتي رسّخت اعتقاد فيصل بلزوم الابتعاد عن هذه االبلاد. ولكن من وجهة نظر الإسلام، ليست الهندوكية ولا الكونفوسيوشية بعيدتين عن العقيدة الشيوعية، بمعنى أنّهما غريبتان على الإسلام تماماً، رغم عدم تماديهما ومغالاتهما في معاداته. إلا أنّ ذلك لم يمنع فيصل من إقامة علاقات طيّبة مع الهند ومع فرموزة (تايوان)، التي كانت تعتبر آنذاك هي الصين. وبعد

فيصل أيضاً، أقام المسؤولون السعوديون المتقيّدون بنهجه البرغماتي علاقات تعاون وثيق، اقتصادي بالدرجة الأولى، مع جمهورية الصين الشعبية التي لم تتخلّ رسمياً عن إيديولوجيتها الشيوعية الملحدة، لكنّها في الظروف المستجدّة باتت شريكاً نافعاً. ولعلّي أقول إن القيادة السوفياتية لو كانت قد أبدت مرونة أكبر في أواخر الثلاثينيات، لظلّت العلاقات الدبلوماسية وبعض جوانب التعاون قائمة لمصلحة البلدين حتى في سنوات "الحرب الباردة". لكنّ التاريخ لا يعرف مفردة "لو". فلا يجوز سحب وقائع اليوم على الوضع الذي كان قائماً قبل نصف قرن أو أكثر.

وإذا كنّا نقول إن عبد العزيز أسّس المملكة من شتات الواحات ومختلف القبائل، فإنّ فيصل أنقذ تركة والده وعمل على تقوية البلاد وشرع في تحويلها إلى دولة عصريّة، ووفّر الظروف الملائمة لتقدّمها. نظام "التوازن من خلال توزيع المسؤوليات" داخل عائلة آل سعود الضخمة أمن انتقال السلطة برفق، كلّ مرّة، من أحد أبناء عبد العزيز إلى ابنه الآخر حتى يومنا هذا، في بداية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين.

إنّ أداء مهامّ الملك في السعودية ليس بالأمر اليسير. وكما كانت الحال في عهد فيصل، يتجلّى الملك السعودي في عدّة وجوه ويتولّى عدة أدوار. فهو أمير المؤمنين، أي الزعيم السياسي الذي يتمتّع بالسطلة المطلقة، ولكن على أساس الإجماع والبيعة من قبل وجهاء المملكة وأعيانها، ويحكم في إطار الشريعة التي

يتابع العلماء سير التقيّد بأحكامها. وهو إمام المسلمين، أي زعيمهم الروحي الذي يتولّى أمورهم الفعلية فضلاً عن الصلاة فيهم. والملك هو شيخ المشايخ، يُطاع بهذه الصفة على اعتباره الحاكم الأعلى لكلّ القبائل واتحاداتها. وهو، حسب الأعراف السائدة، القائد العام الأعلى للجيش. وإلى ذلك، في عهد فيصل، تولّى الملك وظيفة مدير الجهاز الإداري في الدولة. فهو عادة يحتفظ بمنصب رئيس الوزراء، وبذلك يكون رئيساً للسلطة التنفيذية. وكما هي الحال في السابق فإن باب الملك مفتوح أمام العامة. ولما كان ذلك متعذراً في الحقيقة والواقع أنشأ فيصل، أو على الأصح أخذ عن والده، نظام إحالة الصلاحيات إلى مسؤولي الأصعدة السلطوية الأدنى لتكون أبوابهم، من حيث المبدأ، مفتوحة أمام عامة المواطنين.

وتعتمد سلطة الملك في الوقت ذاته على مؤسسات القوى: الحرس الوطني والجيش ووزارة الداخلية. مجاميع وحدات الجيش ترابط على مساحات شاسعة. وإلى جانب الجيش، وخصوصاً في المواقع الحساسة، يتمركز الحرس الوطني المسلّح أفضل تسليح. ثم إنّ هيئات الأمن حاضرة تؤدي مهماتها حسب الأصول.

ومن أهمّ وظائف السلطة العليا الحفاظ على توازن المصالح لمختلف القوى الاجتماعية انطلاقاً من التركيبة الفريدة للبلاد. وقد حقّق الملك عبد العزيز الكثير في هذا المجال، كما حقّق فيصل ومن جاء بعده من الملوك الكثير أيضا في الظروف الجديدة. وتكمن أصالة

التركيبة الفريدة للمجتمع السعودي في تقسيماتها العمودية، تبعاً للأحوال المادية لأفراد المجتمع، والأفقية على أساس المصالح السياسية والمراتبية أو المكانة الاجتماعية. وأخذت الطبقة المتوسطة تنمو، بشكل يبدو منفصلاً، من بين صغار التجار و"ذوي الياقات البيضاء" من الموظّفين والمستخدمين في دوائر الدولة وشركات القطاع الخاص والأساتذة والأطباء.

وعلى الأصعدة العليا من العمود أو الهرم الاجتماعي، آل سعود والوجهاء المقرّبون إليهم وآل الشيخ وأكبر البيوتات التجارية والصناعية والمالية التي تضاهي ثرواتها ثروات أفراد العائلة المالكة. وعلى صعيد أدنى، الفلاحون والبدو الرحل، وأسفل من ذلك فقراء المدن. وتشغل العمالة الوافدة في ظروف المملكة، عادة، مكان الطبقة العاملة وكأنّها على هامش المجتمع. ولكن من حيث التقسيمات الأفقية يتمتّع البدوي الفقير، من أبناء أكرم القبائل العربية ذات الحسب والنسب، بالعزة والاحترام.

بالنسبة لأبناء القبائل الكريمة الصحيحة النسب، وهي معظم قبائل البلاد، يعتبر الملك هو الأول بين الأوائل المتكافئين من أفراد المجتمع الذين يعتزّ كلّ واحد منهم باستقلاليته ومكانته. وتتوقّف منزلة الحاكم ليس فقط على حسن أداء دوائر الدولة ومؤسساتها، بل على مهارته وحذقه في الحكم وعدله بين الناس. ويعتقد السعوديون أنّ الملك مسؤول عن كلّ شيء في المجتمع بخيره وشرّه.

القرارات الهامة تتخذ بالتشاور مع كبار الأمراء والعلماء وصولاً إلى الوفاق والإجماع. وتلك ممارسات تعود بأصولها إلى الملك عبد العزيز، وقد سار عليها الملك فيصل، ولا تزال سارية حتى اليوم.

كانت السلطة الملكية تسعى إلى توفير الخيرات المادّية لكل شريحة اجتماعية لتشمل الرعاية الجميع. ومن هذه الناحية ساعدت الثروات النفطية الفريدة المملكة العربية السعودية على تطبيق سياسة توزيع العائدات من فوق لتحت لترضي الأغلبية المطلقة من السكان. ومن بداية الستينيات أنشئ نظام الضمان الاجتماعي لمعونة العجزة وذوي الاحتياجات الخاصة والأيتام والنساء اللواتي لا معيل لهن.

عندما ارتفعت أسعار البترول حقق أفراد الأسرة المالكة وكبار التكنوقراطيين والتجار ثراءً كبيراً بطرق متنوّعة. ففي بداية الستينيات، على سبيل المثال، أخذ الملك فيصل يوزّع الأراضي الأميرية القاحلة في البادية على أفراد العائلة وعلى التكنوقراطيين لكي يسدّوا احتياجاتهم ولا يمدّوا أيديهم إلى خزينة الدولة. إلا أنّ الملك فيصل والعاملين معه لم يكونوا حتى ليتصوّروا مدى انفجار أسعار الأموال غير المنقولة بسبب انفجار أسعار النفط. هكتار الأرض الذي كان سعره في بداية الستينيات يعادل 3 دولارات بات يباع بـ 6 آلاف دولار عام 1980 م. أي بزيادة تبلغ ألفي مرّة. وقد دعت الحاجة إلى شق الطرق وبناء المطارات ودور السكن وأنابيب النفط والجامعات والمرافق ومحطات توليد

الكهرباء. فكانت مبالغ ضخمة تدفع لأصحاب الأراضي التي تبنى فيها أو تمرّ بها تلك المشاريع. والدولة هي التي تدفع عادة. هذا من جهة.

والمصدر الثاني للدخل الكبير والإثراء هو عمولة القومسيون على معاملات شراء التجهيزات لمختلف الوزارات.

والمصدر الثالث هو التعاون مع شركات البناء والخدمات الأجنبية التي مارست أعمالها في المملكة.

كان السعوديون يحترمون الملك فيصل ويهابونه إلى أبعد الحدود. حتى ألدّ خصومه يشيدون بتقشّفه وما كانوا يتّهمونه بسوء التصرّف بالمال العام. لقد عاش متواضعاً، فوضع بقدوته حدّاً للتبذير والإسراف المفرط والسلوك المتهوّر لدى بعض أفراد الأسرة المالكة. وأوقف بناء القصور الفخمة، وقلّص مخصّصات الملك وفصل واردات الأمّة عن حافظة نقوده الشخصية. كان يعتمد على الإسلام في كلّ ما يفعل، فأعاد إلى النظام الملكي هيبته وكرامته، وبات الزعيم الذي تجاوز احترامه وتقديره حدود المملكة كثيراً.

يأخذ البعض على الملك فيصل أنّه أنفق الكثير في الخارج. نعم، المملكة العربية السعودية لم تبخل بالمال في سبيل تقوية أمنها ونجدة أنصارها وتحييد خصومها، ومن أجل إيجاد مراكز الضغط الموالية للعرب مثلاً في الولايات المتحدة. فالسلطة السياسية مهما كانت، إنّما تعني تقوية مواقعها وإضعاف مواقع الخصوم. وقد اقتدى فيصل بوالده في الصفح

والتسامح، فكان يعفو عن خصومه السياسيين ويستميلهم إلى جانبه أو يغويهم بالمال.

يقول بعض النقاد بسذاجة إنّ التطور الاقتصادي الحقيقي بدأ بعد فيصل. حقاً، انفجار العائدات حصل في عام 1973 م. إلاّ أنّ أسس الخطط التنموية الخمسية والاتجاهات الرئيسية للتنمية وضعت آنذاك، في زمانه. وكان لا بدّ أن تمرّ السنين قبل أن تعطي الاستثمارات ثمارها.

ولكن ما الذي لم يفلح لا فيصل ولا الملوك الذين خلفوه في تحقيقه؟ القدس الشرقية مع قبلة المسلمين الأولى لا تزال تحت الاحتلال الإسرائيلي. وذلك جرح لا يندمل في قلوب المسلمين، وفي قلوب أبناء المملكة العربية السعودية.

رغم كلّ الجهود، لم يفلح أحد في وقف التعاون الوثيق للغاية بين الولايات المتحدة وإسرائيل، ولا في تغيير السياسة الأميركية الموالية لإسرائيل حيال النزاع في الشرق الأوسط، ولا في إضعاف نفوذ اللوبي الصهيوني، على الرغم من أنّ الإمكانيات السعودية المتزايدة، والإمكانيات العربية عموماً في عدد من الحالات، ساعدت على ممارسة تأثير معيّن على العملية السياسية الأميركية.

إنّ الولايات المتحدة، نظراً لإمكانيّات المملكة الهائلة في سوق النفط، قد خدعت نفسها مؤمّلة في أنّ السعوديين سيخفّفون المعارضة العربية لإسرائيل. إلاّ أن الأمل في أن يساعد موقف خادم الحرمين

الشريفين، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، سياسة إسرائيل إنما هو دليل على الجهالة والسذاجة.

ثم إنّ السعوديين أيضاً كانوا ينتظرون من الولايات المتّحدة أكثر مما تستطيع، لاسيما أنّ الموقف من إسرائيل بات جزءاً من السياسة الداخلية لتلك البلاد.

وإلى ذلك أخذ التطرّف الإسلامي يرفع رأسه، وخاصة بعد حرب الخليج 1990 ـ 1991 م. وباتت المملكة العربية السعودية التي وصفها خصومها بالدولة "الوهابية" الأصولية عرضة ليس للانتقاد فقط، بل للهجمات الإرهابية من جانب الإسلاميين المتطرّفين. وتحوّل أسامة بن لادن و"قاعدته" التي نشأت في زمن ما بمساعدة باكستانية وأميركية إلى عدو للنظام الملكي السعودي.

من الصعب طبعاً الكلام حتى عن مجرّد الإشارة إلى وجود الاستقرار في الشرق الأوسط وفي منطقة الخليج.

أما إذا تناولنا الجزيرة العربية وحدها فإنّ الخلافات مع اليمن، الدولة الأكثر سكاناً والأشدّ فقراً في هذه البقاع، والاختلافات فيها تتصاعد تارة وتخفت تارة أخرى على الرغم من تأثير المملكة العربية السعودية هناك.

ويعني ذلك أنّ في العالم قوى كانت ولا تزال فاعلة دون أن يكون للقرار السياسي السعودي سلطة عليها، وهي قوى أشد ّبأساً من المملكة أو أنها ذات قرار مستقل عن المملكة.

بعد وفاة الملك فيصل حصلت أحداث كثيرة جداً. وقعت معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، ما يعني تخلي القاهرة عن المواجهة الحربية مع تل أبيب الذي يحول دون الحل العسكري للمشكلة الفلسطينية، وسقط نظام الشاه في إيران، واستولى الإسلاميون المتطرّفون على المسجد الكبير في مكة المكرمة ذات مرة وأُخرجوا منه بقوة السلاح. وقامت الثورة في أفغانستان وغزت القوات السوفياتية هذه البلاد. واندلعت الحرب العراقية الإيرانية واستمرت ثماني سنوات. وغزت إسرائيل لبنان ثم اضطرت إلى الانسحاب من هناك. واستولى العراق على الكويت وهزمه الأميركيون في حرب الخليج الأولى.

وسقط الاتحاد السوفياتي وماتت فكرة "الغد الشيوعي المشرق للبشرية جمعاء".

وشارك عدد من المتطرّفين السعوديين في أكبر عملية إرهابية في التاريخ جرت في 11 سبتمبر 2001 م. وبات الإسلاميون المتطرّفون، وليس اليساريون من شيوعيين وقوميين وغيرهم، أعداءً للنظام السعودي. وغزت الولايات المتحدة وبريطانيا العراق وأسقطتا نظام صدام حسين، لكنّهما أغرقتا البلد في الفوضى وحمّام الدم. ودمّرت إسرائيل لبنان مرة أخرى، لكنّها منيت في الواقع بهزيمة في الحرب مع حزب الله. هذه وغيرها من الأحداث مواضيع لكتب أخرى سيصدرها مؤلفون آخرون. أما حديثنا عن الملك فيصل فقد بلغ خاتمته، والحياة مستمرة بالطبع، والتاريخ بلا نهاية.

إلا أننا، ونحن نختتم الحديث عن شخصية فيصل، نريد أن نضع لمسات أخيرة سيضيف إليها الآخرون لمسات ولمسات.

هذا الرجل أرستقراطي حتى النخاع، واثق من أنّ رسالته أن يكون زعيماً يقف على قدم المساواة مع عظماء الدنيا. ديموقراطي لا يحبّ شارات الخنوع والخضوع. يستمع إلى رأي أبسط فلاّح أو بدوي يجلس معه عند الوجاق ويغرز أصابعه النحيفة في طبق الأرز المحمّر بلحم الضأن، وينصت إلى بدائع الشعر النبطي العميق.

هذا الرجل مفكّر عقائدي بمعنى الإخلاص للإسلام، راسخ الإيمان حريص على القيم والأصول الإسلامية وعلى المثل العليا الاجتماعية. وهو إلى ذلك زعيم برغماتي يعرف أنّ السياسة، بمعناها الأوسع والأضيق، إنما هي دبلوماسية، إنها فن الممكن والمستطاع. زعيم حازم وحذر في الوقت ذاته، يبدي المبادرة الفاعلة في حينها ويجد الحلول التي تحافظ على المطلوب حتى إن اضطر إلى التنازل عن بعض الأمور. وهو يجيد الانتظار بصبر وتحمّل مهما طال الوقت.

هذا الرجل حاكم شديد البأس وقّع دون تردّد أحكام الإعدام بحقّ المجرمين والمتآمرين على النظام بعد ثبوت الجريمة بالدليل والبرهان. إلاّ أنه في الوقت ذاته سعى إلى حقن الدماء واحتواء العنف ليبقى في حدّه الأدنى. وقد وفّق في ذلك حسب معايير الشرق الأوسط. وأسطع مثال على ذلك اعتقال ضبّاط في

القوات الجوّية أرادوا قتله، وكانوا سيقتلونه دون تردّد لو استطاعوا، إلاّ أنه خفف حكم الإعدام وترك لهم فرصة الحياة، ثم جاء الملك خالد فواصل تلك المبرّة وأطلق سراحهم.

هذا الرجل دقيق متقيّد بالمواعيد في حياته ومعيشته وحميته وفي عمله وسلوكه، وفي أداء التزاماته ووعوده وعهوده.

هذا الرجل يتميّز بأفق فكري واسع ومعارف غنية ثرة.

... روح فيصل باقية ليس فقط في برج الفيصلية الشاهق في شمال العاصمة الرياض، وليس فقط في مجمع "الفيصلية" الذي قد يحسده عليه لوكوربوزيه من حيث الروعة والجمال وبساطة الحلول المعمارية، وليس فقط في الأوتوسترادات وتقاطعات طرق السيارات الباهرة والجامعات ومدارس البنات وقاعات الحاسوب والمصانع والمتنزّه جنب قصره المتواضع حيث شيد مبنى الجامعة الأهلية التي تحمل اسمه.

روح فيصل ترفرف أيضاً على مقبرة العَود الخالية من مظاهر الأبهة والفخفخة.

قبره، تلّة مستطيلة من الرمل وكسار الحجارة مع حجرين ناتئين أحدهما نحو القبلة والآخر بمقابل القدمين. وعلى مقربة منه قبر الوالد الملك المؤسس عبد العزيز، وقبرا أخويه الملك سعود والملك خالد. وفي نفس المقبرة صفوف غير منتظمة من قبور عامة الناس ووجوه المجتمع السعودي والنخبة السعودية. بعضها

قبور لأصدقاء الملك فيصل، وبعضها الآخر لخصومه السياسيين. ليس على القبور كتابات ولا شواهد ولا أضرحة أو نواويس. قبر الملك فيصل لا يختلف عن سائر القبور في مقبرة العَود.

تلك هي ديموقراطية الموت.

هوامش الكتاب

تقديم

1 ياكوفليف، أ. إ. **فيصل: الملك المصلح**. موسكو، المركز الروسي للدراسات الاستراتيجية والدولية، 1998م.

الفصل الأول: صبي نحيل يمتطي الحصان الجموح

1 العجلاني، منير. **تاريخ مملكة في سيرة زعيم. فيصل ملك المملكة العربية السعودية وإمام المسلمين**. الطبعة الأولى، 1968م، ص 34.

2 تفاصيل طفولة فيصل مذكورة هنا وفي ما بعد اعتماداً على مقابلة الدكتور إيغور تيموفييف (الرياض، 20/3/2003م) ومقابلة المؤلف (الرياض، 7/3/2005م) مع عبد الرحمن الرويشد، وكذلك كتاب

Philby, H. St. John. Arabia of the Wahhabis. Published in 1977 in Great Britain by Frank Cass and Company Limited. New Impression with additional materials, 1977.

3 مقابلة إ. تيموفييف مع الأمير تركي الفيصل. لندن، 23/5/2003م.

4 . م. ن.

5 عبد الوهاب، محمد بن. **كتاب الكبائر**. من **مجموعة الأحاديث النجدية**، القاهرة، 1375هـ، ص 240.

6 العجلاني، م. ن.، ص 52.

7 م. ن.، ص 54.

8 Rihani, Ameen. Ibn Saud of Arabia. London, Constable & Co Ltd, 1928, p. 196.

9 مقابلة إ. تيموفييف مع الأمير بندر الفيصل. الطائف، 9/10/2003م.

10 Philby, H. St. John, op. cit., pp. 63–64.

11 Asad, Muhammad. The Road to Mecca. Fourth, Revised Edition. Published 1980 by Dar Al-Andalus Limited, 3

.Library Ramp, Gibraltar, p. 180

12 سورة الغاشية، 17.

.Philby, H. St. John, op. cit., pp. 1–15 13

14 العجلاني، م. ن.، ص 52.

الفصل الثاني: الوالـــد

Armstrong, H. C. Lord of Arabia: Ibn Saud. An Intimate 1 Study of a King. Arthur Baker, Ltd, London. First published 1934. Made and printed in Great Britain by Jarrold and .Sons, Ltd., Norwich, pp. 72–73

2 أرشيف السياسة الخارجية الروسية، 1912-1914م، وثيقة 375، ص 94-95 (بالروسية).

Lawrence, Thomas E. Seven Pillars of Wisdom. Jonathan 3 .Cape, London, 1942, p. 283

Meulen, D. Van Der. The Wells of Ibn Sa'ud. London, John 4 .Murray, 1957. pp. 82-83

.Armstrong, op. cit., p. 150 5

Bell, Gertrude. The Arab War. Confidential Information for 6 General Headquarters from Gertrude Bell Being Despatches Reprinted from the Secret Arab Bulletin. Introduction by Sir Kinahan Cornwallis. Golden Cockerell Press London, 1940. Chapter IV, .http://www.outintheblue.com/ArabWarIV.htm

.Armstrong, op. cit., p. 151 7

8 هذلول، سعود بن. **تاريخ ملوك آل سعود**. الرياض، 1961م، ص 109-110.

.Armstrong, op. cit., p. 174 9

10 سورة آل عمران، 3.

الفصل الثالث: الفتى اليافع يكتشف العالم الواسع

1 هذلول، سعود بن. م. ن.، ص 121-122.

2 مقابلة إ. تيموفييف مع بندر الفيصل.

3 المقصود

Bray, N. N. E. Shifting Sands. London, 1934; Bowman, H. Middle East Window. London, 1942; Cheeseman, R., E. In Unknown Arabia. London, 1926; De Gaury, Gerald. Faisal, King of Saudi Arabia. London, 1966.

4 مقابلة إ. تيموفييف مع بندر الفيصل.

5 العجلاني، م. ن.، ص 58.

6 Records of Saudi Arabia. Primary Documents. 1906–1960. Edited by Penelope Tuson and Anita Burdett. Archive Editions, 1992;

وكذلك **مجموعة الوثائق البريطانية عن جلالة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود.** إعداد نجدة فتحي صفوة. مركز الوثائق والدراسات التاريخية، لندن.

7 مقابلة إ. تيموفييف مع الأمير تركي الفيصل. لندن، 23/5/2003م.

الفصل الرابع: الرجولة

1 Rihani, Ameen. Ibn Saud of Arabia. London, Constable & Co Ltd, 1928, p. 177.

2 Meulen, D. Van Der. The Wells of Ibn Sa‘ud. London, John Murray, 1957, pp. 60–61.

3 العجلاني، م. ن.، ص 121-124.

4 م. ن.، ص 128.

5 "أم القرى"، 12/12/1924م.

6 العجلاني، م. ن.، ص 129.

7 م. ن.، ص 131.

8 أرشيف السياسة الخارجية في الاتحاد السوفياتي لعام 1926م. صندوق 127، قائمة موجودات 1، إضبارة 1، وثيقة 6، ص 4-6 (بالروسية).

9 أرشيف السياسة الخارجية في الاتحاد السوفياتي لعام 1929م. صندوق 127، قائمة موجودات 1، إضبارة 2، وثيقة 18، ص 3-5، 10 (بالروسية).

الفصل الخامس: الأمير فيصل نائباً للملك في الحجاز

1 **دساتير دول الشرقين الأدنى والأوسط**. موسكو، 1956م، ص 427، 430 (بالروسية).

2 مقابلة إ. تيموفييف مع القاضي الشيخ محمد الطيب. الطائف، 30/9/2003م.

3 م. ن.

4 مقابلة المؤلف مع عبد الرحمن الرويشد 7/3/2005م.

5 مقابلة إ. تيموفييف مع الأميرتين سارة ومها محمد الفيصل. الرياض، 20/10/2003م.

6 مقابلة إ. تيموفييف مع محمد الطيب.

7 مقابلة إ. تيموفييف مع الشيخ عبد الله محمد الشهري. الطائف، 30/9/2003م.

8 Meulen, D. Van Der, op. cit., p. 8.

9 Ibid., pp. 10–11.

10 مقابلة إ. تيموفييف مع عبد الرحمن الرويشد.

11 مقابلة المؤلف مع أحمد بن عبد الوهاب. جدة، 14/3/2005م.

12 Asad, Muhammad, op. cit., p. 17.

13 مقابلة إ. تيموفييف مع محمد الطيب.

14 Glubb, J. B. War in the Desert: an RAF Frontier Campaign. London, 1960, p. 193.

15 Ibid., p. 200.

16 Philby, H. S.-J. Saudi Arabia. London, 1955, p. 308.

17 العجلاني، م. ن.، ص 109.

18 م. ن.

19 السماري، فهد بن عبد الله. **عبد العزيز وألمانيا. دراسة تاريخية للعلاقات السعودية الألمانية. 1344-1358هـ (1939-1976)**. بيروت، دار أمواج، 1420 هـ.

20 مقابلة المؤلف مع السفير البولندي لدى المملكة العربية السعودية السيد آدم كولاخ. الرياض، 23/11/2006م.

21 **الاتحاد السوفياتي والبلدان العربية. 1917-1960م. وثائق ومواد.** موسكو، 1961. ص 77-78 (بالروسية).

22 م. ن.، ص 78.

23 أرشيف الدولة في روسيا، صندوق 5446، قائمة موجودات 1و، إضبارة 464، ص 169.

24 **الاتحاد السوفياتي والبلدان العربية.** 1917-1960م. ص 78-79.

25 م. ن.، ص 79-80.

26 أرشيف الدولة في روسيا، صندوق 057، قائمة موجودات 12، إضبارة 110، وثيقة 4.

27 العجلاني، م. ن.، ص 164.

28 م. ن. ، ص 165.

29 م. ن.، ص 169.

30 م. ن.، ص 170.

الفصل السادس: النفط ذهب

1 المطبوعات المكرسة للنفط في الشرق الأوسط وكذلك المملكة العربية السعودية كثيرة جداً، ما جعل المؤلف يكتفي هنا بعرض تاريخ الحصول على امتيازات النفط واكتشاف مكامنه وعمليات استخراجه. راجع التفاصيل في كتاب: فاسيليف، ألكسي، **مشاعل الخليج العربي**، موسكو، 1976م (بالروسية)؛ وكتاب: فاسيليف، ألكسي، **الخليج العربي في قلب العاصفة**، موسكو، 1983م (بالروسية).

Brown, Anthony Cave. Oil, God, and Gold. The story of Aramco and the Saudi Kings. Boston-New York, Houghton .Mifflin Company, 1999, p. 28

.Op. cit., p. 32 2

Ryan, Sir Andrew. The Last of The Dragomans. London, 3 .Geoffrey Bles, 1951, p. 290

الفصل السابع:فيصل وعفت، عفت وفيصل

1 مقابلة إ. تيموفييف مع تركي الفيصل.

2 م. ن.

3 مقابلة إ. تيموفييف مع الأميرتين سارة ومها.

4 مقابلة إ. تيموفييف مع بندر الفيصل.

5 مقابلة إ. تيموفييف مع الأميرتين سارة ومها.

6 مقابلة المؤلف مع هالة الحوتي. الرياض، 25/11/2006م.

Parssinen, Catherine. 'The Changing Role of Women'. In: 7 Beling, Willard A., ed. King Faisal and the Modernisation of .Saudi Arabia. London, Croom Helm, 1980, pp. 165–166

.Op. cit., p. 167 8

9 مقابلة المؤلف مع أحمد بن عبد الوهاب.

الفصل الثامن: الحرب العالمية الثانية – اكتشاف أميركا

1 إلى جانب مراجع هذا الفصل المذكورة أدناه، اعتمد المؤلف على معطيات كتاب: بيتسغالو، ماتيو. **دبلوماسية الصداقة. إيطاليا والمملكة العربية السعودية. 1932-1942م.** ترجمه إلى العربية محمد العشاوي عثمان. دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1425هـ. وكذلك كتاب: السماري، فهد بن عبد الله. **الملك عبد العزيز وألمانيا. دارسة تاريخية للعلاقات السعودية الألمانية. 1344-1358هـ.** دار أمواج، بيروت، 1420هـ.

Dickson, H. R. P. Kuwait and Her Neighbours. London, Allen .& Unwin, 1956, pp. 390, 391

.Ibid., p. 391 2

.Asad, Muhammad, op. cit. pp. 93–96 3

Churchill, Winston. The Grand Alliance. Vol. 3. The Second 4
.World War. London, Cassel, 1950, pp. 490–491

.FO 371/24590, p. 175. Telegram No. 93, 24th June, 1940 5

FRUS, 1941, Vol. III, p. 643, 890F.51/37, Roosevelt to 6
.Jones, 18 July 1941

Miller, Aaron D. Search for Security: Saudi Arabian Oil and 7
American Foreign Policy 1939–1949. Chapel Hill, NC:
.University of North Carolina Press, 1980, p. 70

Records of Saudi Arabia. Volume 7: 1938:1945. Edited by 8
Penelope Tuson and Anita Burdett. Archive Editions, 1992,
.p. 24

Memorandum from Halifax to Foreign Office, February 19, 9
.1944, FO371/42688, Public Records Office, London

Kimball, Warren F. ed. Churchill & Roosevelt: The 10
Complete Correspondence. 3 Volumes. Collins, London
.1984. First Edition, V. 2, pp. 734–744

Grafftey-Smith, Laurence. Bright Levant. London, 1970, 11
pp. 257–258

Eddy, William A. F. D. R. Meets Ibn Saud. American 12
.Friends of the Middle East, New York, 1954, p. 34

.Op. cit., p. 40 13

.Op. cit., p. 29 14

Howarth, David. The Desert King. The Life of Ibn Saud. 15
London-Melbourne-New York, Quartet Books Limited,
.1980, p. 193

.FRUS, 1945, V. III, p. 689 16

Letter, Eddy to Secretary of State, March 3, 1945. 17
Diplomatic Branch document 890F.001 Abdul Aziz/3-345,
.National Archive

الفصل التاسع: خريف العمر

Acheson, Dean. Present at the Creation. New York, Signet, 1
.1969, p. 241

.Eddy, op. cit., p. 37 2

Al-Osaimi, Mohammed Abd al-Mohsen. The Persuasion of 3
King Faisal Ibn Abd al-Aziz: A Case Study in Contemporary
.Islamic Oratory. Indiana University, 1990, p. 94

.Op. cit., p. 95 4

5 مقابلة إ. تيموفييف مع السفير نديم دمشقية. بيروت، 6/3/2003م.

Bargus, Donald C. Preliminary Comment on July 26, 1948 6
Policy Statement for Saudi Arabia. American Legation,
.Jidda, Saudi Arabia, September 3, 1948

Johnson, Lyndon Baines. The Vantage Point. Perspectives 7
of the Presidency. 1963–1969. New York, Chicago and
.San Francisco. Holt, Rinehart and Winston, 1971, p. 291

8 العجلاني، م. ن.، المقدمة.

.Owen, W. F. Aramco Oral History Project. p. IV 9

.FO 371/91762 ES1053/13, p. 128 10

.FRUS, 1952-1954, vol. 9, pp. 2498-2503 11

Arnold, José. Golden Swords and Pots and Pans. 12
.London, Victor Gollancz Limited, 1964, p. 3

Childes, J. Rives. Dispatch No. 68, American Legation, 13
.Jidda, Saudi Arabia, March 11, 1948

.Ibid 14

.Ibid 15

Childes, J. Rives. Dispatch No. 31, Legation of the United 16
.States of America, Jidda, Saudi Arabia, August 7, 1946

Childes, J. Rives. Dispatch No. 80, Legation of the United 17
.States of America, Jidda, Saudi Arabia, October 29, 1946

Memorandum for the President: Proposed Visit of Crown 18
Prince Saud of Saudi Arabia. Department of State,
.Washington, November 15, 1946

.De Gaury, op. cit., p. 78 19

Hart, Parker T. Saudi Arabia and the United States: Birth 20
of a Security Partnership. Bloomington & Indianapolis,
.Indiana University Press, 1988, p. 98

21 العجلاني، م. ن.، ص 186.

.FO 371/3761, E5551/3293/25, 31 August 1943 22

الفصل العاشر: آه يا أخي ومليكي!

1 مقابلة المؤلف مع عبد الرحمن الرويشد.

Distribution of Subversive Leaflet in al-Khobar. From: Am 2
Consul, Dhahran, Saudi Arabia. Despatch No. 12. To: The
Department of State, Washington. Confidential Foreign
.Service Despatch, August 25, 1954

3 "البلاد" السعودية، 12/11/1954م.

Ibrahim al-Rashid. Documents on the History of Saud 4
Arabia. The Struggle between the Two Princes: The
Kingdom of Saudi Arabia in the Final Days of Ibn Saud.
.Chapel Hill, N. C., Documentary Publications, 1985, p. 2

5 العجلاني، م. ن.، ص 181.

6 م. ن.، ص 187.

7 مقابلة المؤلف مع أحمد بن عبد الوهاب.

8 لقاء المؤلف مع محمد حسنين هيكل. القاهرة، 17/12/2005م.

.FRUS, 1950, vol. 5, pp. 1190–91 9

10 كلمة الرئيس جمال عبد الناصر في افتتاح المؤتمر الأفريقي الآسيوي في باندونغ، 19/4/1955م.

http://nasser.bibalex.org

His Majesty King Hussein I. Uneasy Lies the Head. New 11 .York, Bernard Geis Associates, 1962, pp. 106–107

.Hart, op. cit., p. 65 12

.De Gaury, op. cit., p. 81 13

Eveland, Wilbur Crane. Ropes of Sand. America's Failure 14 in the Middle East. London - New York, W. W. Norton & .Company, 1980, p. 210

.Ibid., pp. 210–211 15

.Ibid., p. 2 16

.Ibid., p. 212 17

.Ibid., pp. 212–213 18

19 الاتحاد السوفياتي والبلدان العربية. 1917-1960م. ص 257-262.

20 مقابلة المؤلف مع ديمتري شيبيلوف. موسكو، مايو 1990م.

21 م. ن.

22 لقاء المؤلف مع محمد حسنين هيكل.

.Arnold, op. cit., pp. 130–131 23

.Eveland, op. cit., p. 240 24

.De Gaury, op. cit., p. 85 25

26 مقابلة إ. تيموفييف مع بندر الفيصل.

Anwar Sadat. In Search of Identity: An Autobiography. 27 .New York, Harper and Row, 1977, p. 152

28 لقاء المؤلف مع محمد حسنين هيكل.

29 مقابلة المؤلف مع سامي شرف. القاهرة، 21/12/2005م.

30 مقابلة المؤلف مع مراد غالب. القاهرة، 21/3/2005م.

.De Gaury, op. cit., p. 93 31

الفصل الحادي عشر: رقاص الساعة: من رئيس الوزراء إلى نائب رئيس الوزراء

Philby Manuscript, p. 39, Mulligan Papers. Georgetown 1 .University

2 "أم القرى"، 2/5/1958م.

Mulligan, William E. "Aramco's Changing Relations with 3 the Saudi Arabian Government" (paper presented at the Management Development Seminar, March 6, 1956), .Mulligan Papers

.Letter, Kim Philby to George Rentz, Mulligan Papers 4

5 "الحياة"، 1/1/1961م.

.Arnold, op. cit., p. 222 6

.Ibid., p. 224 7

FO 371/16 300 6. Saudi Arabia: Annual Review for 1961, 8 .pp. 1–2

.Hart, op. cit., p. 90 9

10 "الأنوار"، 16/8/1962م.

الفصل الثاني عشر: صراع الجبابرة: مسألة حياة أو موت

.Hart, op. cit., p. 114 1

.Ibid., p. 115 2

3 مقابلة المؤلف مع سامي شرف.

.The Gurdian", 3.13.63; "Financial Times", 12.5.62" 4

.Hart, op. cit., p. 114 5

Dr Rashad Pharaon's Personal Interview to R. Lacey. 6 Riyadh, November 1980. In: Lacey, Robert. The Kingdom. Arabia & the House of Saud. Hutchison, London – Melbourne – Sydney – Auckland – Johannesburg, 1981, p. .344

(لعل كتاب روبرت ليسي من أفضل المؤلفات في تاريخ المملكة العربية السعودية في القرن العشرين. فهو يجمع بين وفرة المعلومات المعتمدة على مصادر كثيرة باللغة الإنجليزية مع عشرات المقابلات وبين الأسلوب الصحافي. وقد أخذ المؤلف عن ليسي شيئاً، لأن من الصعب تجاهل كتابه ونحن نتحدث عن سيرة الملك فيصل).

Aramco Chronology of Events Involving His Majesty, King 7 Saud, November 16, 1961–October 11, 1962, Mulligan .Papers

8 سعيد، أمين. **تاريخ الدولة السعودية**. المجلدات 1-3، بيروت، 1385هـ/1964م. المجلد 3، ص 301-309.

.Hart, op. cit., p. 120 9

.FO 571/163013-371/163019 10

Dr Rashad Pharaon's Personal Interview to R. Lacey. In: 11 .Lacey, op. cit., p, 344

12 باوسين، ليف. **الدوائر الأمنية العالمية في الشرق الأوسط**. موسكو، 2001م، ص 133 (بالروسية).

.Hart, op. cit., p. 209 13

.Ibid., p. 224 14

15 لقاء المؤلف مع محمد حسنين هيكل.

الفصل الثالث عشر: الطريق إلى العرش بالتوافق

1 De Gaury, op. cit., p. 101.

2 Lacey, op. cit., p. 351.

3 Ibid., p. 353.

4 "The Transfer of King Sa'ud Powers to Crown Prince Faysal", October 1974, Mulligan Papers.

5 Ibid.

6 العجلاني، م. ن.، ص 206.

7 "The Transfer of King Sa'ud Powers to Crown Prince Faysal".

8 Ibid.

9 De Gaury, op. cit., p. 132.

10 Ibid., p. 133.

11 Ibid., p. 134.

12 العجلاني، م. ن.، ص 212-213؛

http://212.100.198.18/openshare/Wthaek/Khotob/Khotub13/AKhotub49_3-1.htm_cvt.htm

13 العجلاني، م. ن.، ص 219.

14 Hart, op. cit., p. 246.

15 New York Times, 01.01. 67.

16 لقاء المؤلف مع محمد حسنين هيكل.

الفصل الرابع عشر: فيصل بن عبد العزيز ملكاً

1 مقابلة إ. تيموفييف مع محمد عنان. بيروت، 7/3/2003م.

2 مقابلة المؤلف مع محمد بن عبد الوهاب.

3 م. ن.

4 مقابلة المؤلف مع عبد الرحمن الرويشد.

5 روبنسون، جيفري. **المؤلفات في خمسة مجلدات. المجلد الثالث، أحمد زكي يماني. نظرة من وراء الكواليس**. موسكو، 1992م، ص 60 (ترجمة من الإنجليزية إلى الروسية).

6 مقابلة المؤلف مع سفير المهمات الخاصة السعودي هشام ناظر. جدة، 13/3/2005م.

Gaskill, Gordon. "Saudi Arabia's Modern Monarch". 7
.Reader's Digest, January 1967, p. 118

8 مقابلة المؤلف مع سامي شرف.

9 مقابلة إ. تيموفييف مع جميل الحجيلان. الرياض، 9/10/2003م.

10 مقابلة إ. تيموفييف مع بندر الفيصل.

11 مقابلة إ. تيموفييف مع جميل الحجيلان.

12 م. ن.

13 . أبو جبارة، عبد الرحمن. الملف الغامض لمقتل الملك فيصل بن عبد العزيز.

http://www.arabtimes.com/ Mixed/doc32.html

14 مقابلة إ. تيموفييف مع نهاد الغادري. بيروت، 7/3/2003م.

15 مقابلة المؤلف مع أحمد بن عبد الوهاب.

Faisal Speaks. Ministry of Information, Kingdom of Saudi 16
.Arabia, p. 38

17 بروشين، ن. إ. **المملكة العربية السعودية**. موسكو، 1964، ص 161 (بالروسية).

The Life and Times of Cautious King of Araby". Time, 19" 18
.November 1973, p. 91

19 مقابلة المؤلف مع أحمد بن عبد الوهاب.

20 مقابلة المؤلف مع هشام ناظر.

21 مقابلة المؤلف مع محمد بن عبد الوهاب.

22 مقابلة المؤلف مع عبد الرحمن الرويشد.

23 مقابلة المؤلف مع هشام ناظر.

24 العجلاني، م. ن.، ص 116-118.

25 مقابلة إ. تيموفييف مع نهاد الغادري.

26 العجلاني، م. ن.، ص 100.

27 Frank Jungers. Interview. Conducted by producer Jihan El-Tahri on June 11, 2003. in:

http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/saud/interviews/jungers.html . Portland, Oregon

28 مقابلة المؤلف مع هشام ناظر.

29 مقابلة إ. تيموفييف مع نهاد الغادري.

30 مقابلة المؤلف مع أحمد بن عبد الوهاب.

31 مقابلة إ. تيموفييف مع نهاد الغادري.

32 Dr Rashad Pharaon's Personal Interview to R. Lacey. Riyadh, November 1980. In: Lacey, op. cit., p. 363.

33 مقابلة المؤلف مع أحمد بن عبد الوهاب.

34 مقابلة إ. تيموفييف مع نهاد الغادري.

35 مقابلة إ. تيموفييف مع القاضي الشيخ محمد الطيب.

36 مقابلة إ. تيموفييف مع عطية عبد المعطي. جدة، 29/9/2003م.

37 مقابلة إ. تيموفييف مع عبد الله محمد الشهري.

38 مقابلة المؤلف مع أحمد بن عبد الوهاب.

الفصل الخامس عشر: فخ لعبد الناصر في اليمن

1 لقاء المؤلف مع محمد حسنين هيكل.

2 مقابلة المؤلف مع أوليغ كوفتونوفيتش. موسكو، سبتمبر 1979م.

3 مقابلة المؤلف مع مراد غالب.

4 مقابلة إ. تيموفييف مع جميل الحجيلان.

5 مقابلة إ. تيموفييف مع نهاد الغادري.

6 مقابلة إ. تيموفييف مع جميل الحجيلان.

الفصل السادس عشر: "حرب الأيام الستة"

1 **النزاع في الشرق الأوسط. 1957-1967. من وثائق السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. المجلد الثاني**. موسكو، 2003م، ص 568-569 (بالروسية).

2 "The June 1967 Riots – Chronology", Mulligan Papers.

3 Ibid.

4 Ibid.

5 **النزاع في الشرق الأوسط**، ص 587-588.

6 B. C. Nelson. "Employee Relations in Aramco. Then and Now". Paper presented to Aramco's Management Development Seminar, Dahran, Saudi Arabia, March 6, 1965, Mulligan Papers.

7 مقابلة المؤلف مع هشام ناظر.

8 Anwar el-Sadat. Those I have known. London, Ebenezer Baylis & Son Ltd, 1985, p. 65.

9 مقابلة المؤلف مع سامي شرف.

الفصل السابع عشر: لا خطر من شطري اليمن على المملكة

1 اعتمد المؤلف في ما يخص تاريخ شطري اليمن قبل وبعد عام 1967م وحتى مقتل الملك فيصل على مصادر كثيرة أهمها:

Shmidt, D. A. Yemen: the Unknown War (London: Bodley Head, 1968.); Gause, F. Gregory. Saudi-Yemen Relations. Domestic Structures and Foreign Influence. New York, Columbia University Press, 1990; Naumkin, Vitaly V. Red

Wolves of Yemen: the Struggle for Independence.
.Cambridge, Oleander Press, 2004

وكذلك كتابا فاسيليف، ألكسي: **روسيا في الشرقين الأدنى والأوسط: من التبشير إلى البراجماتية**، موسكو، 1993م (بالروسية) و**رحلة إلى اليمن السعيدة**، موسكو، 1974م (بالروسية). في هذا الفصل، كما في بعض الفصول الأخرى، يتوخى المؤلف أساساً تحديد موقف الملك فيصل من الأحداث في شطري اليمن.

الفصل الثامن عشر: الوقائع السياسيّة: جديدها وقديمها

1 Sunday Times, Insight Team, p. 21.

2 Sheehan, Edward R. F. The Arabs, Israelis and Kissinger: A Secret Story of American Diplomacy in the Middle East. New York, Reader's Digest Press, 1976, p. 31.

الفصل التاسع عشر: شعلة الأقصى

1 "أم القرى"، 27/2/1970م.

2 King Faisal Speaks, p. 102.

3 مقابلة المؤلف مع أحمد بن عبد الوهاب.

4 مقابلة إ. تيموفييف مع جميل الحجيلان.

5 مقابلة إ. تيموفييف مع بندر الفيصل.

6 م. ن.

7 مقابلة إ. تيموفييف مع محمد عنان.

8 Newsweek, 21 September 1970, p. 11.

9 "أم القرى"، 25/1/1963م.

10 "أم القرى"، 8/4/1966م.

11 مقابلة إ. تيموفييف مع بندر الفيصل.

12 "Islam Against Nationalism". The Economist, 2 June 1962, p. 903.

13 مقابلة إ. تيموفييف مع جميل مروة. بيروت، 5/3/2003م.

الفصل العشرون: ترويض أرامكو

1 Brown, op. cit., p. 288.

(كذلك اعتمد المؤلف في مواضع من هذا الفصل على كتابه مشاعل الخليج).

2 روبنسون، جيفري، م. ن.، ص 74-75.

3 "The June 1967 Riots – Chronology", Mulligan Papers.

4 Mosley, Leonard. Power Play: Oil in the Middle East. New York, Random House, 1973, p. 344.

الفصل الحادي والعشرون: وفاة عبد الناصر ومجيء السادات

1 Heikal, M. The Road to Ramadhan. London, Collins, 1975, p. 119.

2 Kedourie, E. The Chatham House Version and Other Middle Eastern Studies. London, Weidenfeld & Nicolson, 1970, p. 58.

3 مقابلة إ. تيموفييف مع بندر الفيصل.

4 غروميكو، أندريه. **ذكريات. الكتاب الثاني**. موسكو، 1988م، ص 190 (بالروسية).

5 Laqueur, Walter. Sruggle for the Middle East. London, Routledge & Kegan Paul, 1969 p. 181.

6 بريماكوف، يفغيني. **الشرق الأوسط على خشبة المسرح ووراء الكواليس. (النصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين).**

موسكو، 2006م، ص 138-139 (بالروسية).

7 "الأهرام"، 11/6/1971م.

8 بريماكوف، م. ن.، ص 140.

9 مقابلة المؤلف مع فلاديمير فينوغرادوف. موسكو، يونيو 1990م.

Nixon, Richard M. The Memoirs of Richard Nixon. 10 Grosset & Dunlap. A Filmways Company Publishers, New .York, 1978, pp. 478, 479

Op. cit., pp. 786, 787 11

12 مقابلة إ. تيموفييف مع بندر الفيصل.

الفصل الثاني والعشرون: عام 1973م: قبيل ساعة الصفر

Dr Rashad Pharaon's Personal Interview to R. Lacey. In: 1 .Lacey, p. 401

2 روبنسون، جيفري، م. ن.، ص92.

.Lacey, op. cit., p. 399 3

.The Washington Post, 19 and 20 April, 1973 4

Jungers interview with Anthony Sampson, February 1975, 5 cited in: Sampson, Anthony. The Seven Sisters: The Great Oil Companies and the World They Shaped. New York, .Viking, 1975, p. 245

Dr Rashad Pharaon's Personal Interview to R. Lacey. 6 .Lacey, op. cit., p. 401

Report Together with Individual Views to Committee on" 7 Foreign Relations, United States Senate, by Subcommittee .on Multinational Corporations, January 2, 1975", p. 142

.Emerson, op. cit., p. 29 8

.Brown, op. cit. p. 292 9

10 مقابلة المؤلف مع هشام ناظر.

.Lacey, op. cit., p. 401 11

(كذلك اعتمد المؤلف في هذا الفصل على وقائع واستشهادات من كتاب جيفري روبنسون **زكي يماني** الآنف الذكر، ولم يرغب في تكرار ذكر هذا المرجع كي لا يثقل على القارئ الكريم).

الفصل الثالث والعشرون: عام 1973م الحرب

.Heikal, M. The Road... p. 271 1

Ahmed Zaki Yamani's personal interview to R. Lacey, 2
.Riyadh, January 1981. In: Lacey, op. cit., p. 403

.Ibid., p. 404 3

George Piercy's letter to R. Lacey, 27 May 1981. In: Lacey, 4
.op. cit., p. 405

..Ibid., pp. 405–406 5

.Emerson, op. cit., pp. 36–37 6

.Nixon, op. cit., p. 922 7

.Sheehan, pp. 35–36 8

.Nixon, op. cit. p. 943 9

Kissinger, Henry. Years of Upheaval. London, Phoenix 10
.Press, 1982, p. 515

.Nixon, op. cit, p. 928 11

12 بريماكوف، يفغيني. م. ن.، ص 161-162.

13 دوبرينين، أناتولي. **على أساس الثقة. سفير سوفياتي في واشنطن على مدى حكم ستة رؤساء أميركيين (1962-1986م)**. موسكو، المؤلف. 1997م، ص 278 (بالروسية).

14 مقابلة المؤلف مع فلاديمير فينوغرادوف.

الفصل الرابع والعشرون: عام 1973م: حظر البترول

1 روبنسون، جيفري، م. ن.، ص 101.

.Lacey, op. cit., p. 407 2

.Financial Times", 18 October 1973" 3

Yergin, Daniel. The Prize. New York, Simon & Shuster, 4 .1990, p. 396

5 روبنسون، جيفري، م. ن.، ص 114.

6 م. ن.

.Frank Jungers. Aramco Oral History Project 7

.Sampson, op. cit., p. 255 8

.Brown, op. cit., p. 296 9

.Frank Jungers. Aramco Oral History Project 10

.Powers, Brock. Aramco Oral History Project 11

.Ibid 12

.Ibid 13

14 فاسيليف، ألكسي. **مشاعل الخليج**، ص 104.

15 م. ن.

.Lacey, op. cit., p. 385 16

17 روبنسون، جيفري، م. ن.، ص 121.

الفصل الخامس والعشرون: أقوى حاكم عربي في القرن العشرين

Kalb, Marvin and Kalb, Bernard. Kissinger. London, 1 .Hutchison, 1974

.Sheehan, op. cit. p. 70 2

Sheehan, op. cit. p. 71; Kalb, Marvin and Kalb, Bernard, op. 3 .cit. p. 516

.Sheehan, op. cit. p. 71 4

.Ibid., 75 5

Kalb, Marvin and Kalb, Bernard, op. cit. p. 515; Brown, op. 6 .cit., p. 302

7 روبنسون، جيفري، م. ن.، ص 114.

8 م. ن.

9 م. ن.، ص 144.

10 م. ن.، ص 145.

11 م. ن.

Abdullah M. Sindi, 'King Faisal and Panislamism'. In: 12 Beling, Willard A., ed. King Faisal and the Modernisation of .Saudi Arabia. London, Croom Helm, 1980, p. 200

13 "أم القرى"، 18/7/1975م.

14 روبنسون، جيفري، م. ن.، ص 150.

.Nixon, op. cit., p. 1012-1013 15

16 روبنسون، جيفري، م. ن.، ص 146.

17 م. ن.، ص 147.

الفصل السادس والعشرون: التهديدات الأميركية باحتلال الحقول النفطية

1 فاسيليف، ألكسي. **مشاعل الخليج**، ص 120.

.Frank Jungers. Aramco Oral History Project 2

.Emerson, op. cit., p. 39 3

(بقية الفصل تعتمد على كتاب فاسيليف **مشاعل الخليج** وكتاب روبنسون المذكور).

الفصل السابع والعشرون: العلاقات الجديدة مع الولايات المتحدة

1 Emerson, op. cit., p. 266.

2 Op. cit., p. 19.

3 Boston Globe, February 19, 1975; Newsday, May 19, 1975.

4 Emerson, op. cit., p. 84.

5 Washingtonian Magazine, April 1983.

6 Emerson, op. cit., p. 110.

7 Ibid., p. 11.

8 Ibid., p. 398.

9 Ibid., pp. 345–346.

10 Ibid., p. 413.

الفصل الثامن والعشرون: القدرات المالية في حدها الأعلى

1 Time, January 6, 1975.

(يعتمد هذا الفصل أساساً على معلومات واستشهادات من كتاب فاسيليف **مشاعل الخليج** وكتاب ج. روبنسون المذكور.)

الفصل التاسع والعشرون: رياح التبدلات... وهل يغيبُ الملكُ إذا رَحَل؟!

1 Akins, James F. The Oil Crises: This Time the Wolf is' Here'. Foreign Affairs, April 1973.

2 روبنسون، جيفري، م. ن.، ص 304.

3 م. ن.

4 Mackey, Sandra. The Saudis. Inside the Desert Kingdom. W. W. Norton & Company Ltd, 2002, 1987, New York – London, p. 374.

5 روبنسون، جيفري، م. ن.، ص 159.

6 Lacey, op. cit., pp. 423–424.

7 Ibid., p. 425.

8 روبنسون، جيفري، م. ن.، ص 169.

9 Frank Jungrs, Aramco Oral History Project.

10 أبو جبارة، عبد الرحمن ، م. ن.

11 م. ن.

12 روبنسون، جيفري، م. ن.، ص 147.

13 م. ن.، ص 172.

مراجع الكتاب

كتب بالإنجليزية

Acheson, Dean. Present at the Creation. .New York: Signet, 1969

al-Osaimi, Mohammed Abd al-Mohsen. The Persuasion of King Faisal Ibn Abd al-Aziz: A case study in contemporary Islamic oratory. Bloomington: Indiana .University, 1990

Armstrong, H.C. Lord of Arabia: Ibn Saud. An Intimate Study of a King. Arthur Bakker, Ltd, London: Made and printed in Great Britain by Jarrold and Sons, Ltd, Norwich, .1934

Arnold, José. Golden Swords and Pots and Pans. London: Victor Gollancz Limited, .1964

Asad, Muhammad. The Road to Mecca. Gibraltar: Fourth revised edition, published

1980 by Dar Al-Andalus Limited, 3 Library .Ramp, Gibraltar

Beling, A. Willard, ed. King Faisal and the Modernisation of Saudi Arabia. London: .Croom Helm, 1980

Bell, Gertrude. The Arab War. Confidential Information for General Headquarters from Gertrude Bell Being Despatches Reprinted from the Secret Arab Bulletin. Introduction by Sir Kinahan Kornwallis. London: Golden Cockerel Press, 1940. chapter IV, http://www.outintheblue.com/ArabWarIV..htm

Bowman, H. Middle East Window. London, New York etc.: Longmans, Green, and Co., .1942

Bray, N. N. E. Shifting Sands. London: .Unicorn Press, 1934

Brown, Anthony Cave. Oil, God, and Gold. The Story of Aramco and the Saudi Kings.

Boston-New York: Houghton Mifflin
.Company, 1999

Cheeseman, R.E. In Unknown Arabia.
.London: Macmillan, 1926

Churchill, Winston. The Grand Alliance.
Vol. 3. The Second World War. London:
.Cassel, 1950

De Gaury, Gerald. Faisal, King of Saudi
.Arabia. London: Barker, 1966

Dickson, H. R. P. Kuwait and Her
.Neighbours. London: Allen & Unwin, 1956

Eddy, William A. F. D. R. Meets Ibn Saud.
New York: American Friends of the Middle
.East,1954

el-Sadat, Anwar. Those I Have Known.
.New York: Continuum, 1984

Eveland, Wilbur Crane. Ropes of Sand.
America's Failure in the Middle East.
London-New York: W.W. Norton &
.Company, 1980

Faisal Speaks. Kingdom of Saudi Arabia, .Riyadh, Ministry of Information, 1963

Gause, Gregory F. Saudi-Yemen Relations. Domestic Structures and Foreign Influence. New York: Columbia University .Press, 1990

Glubb, J. B. War in the Desert: an RAF Frontier Campaign. London: Hodder & .Stoughton, 1960

Grafftey-Smith, Laurence. Bright Levant. .London: John Murrey, 1970

Hart, P. T. Saudi Arabia and the United States: Birth of a Security Partnership. Bloomington: Indiana University Press, .1998

Heikal, M. The Road to Ramadhan. .London: Collins, 1975

His Majesty King Hussein I. Uneasy Lies the Head. New York: Bernard Geis .Associates, 1962

Hithlul, Saud ibn. Tarikh muluk aal saud [A History of Kings of the Aal Saud Dynasty]. .Riyadh: 1961

Howard, David. The Desert King. The Life of Ibn Saud. London-Melbourne-New York: .Quartet Books Ltd, 1980

Johnson, Lyndon Baines. The Vantage Point. Perspectives of the Presidency. 1963-1969. New York, Chicago and San Francisco: Holt, Rinehart and Winston, .1971

Kalb, Marvin and Kalb, Bernard. Kissinger. .London: Hutchison, 1974

Kedourie, E. The Chatham House Version and Other Middle Eastern Studies. London: .Weidenfield & Nicolson, 1970

Kimball, Warren F., ed. Churchill and Roosevelt: the Complete Correspondence. Three volumes. London: Collins, 1984. .First Edition, Vol. 2

Kissinger, Henry. Years of Upheaval.
.London: Phoenix Press, 1982

Lacey, Robert. The Kingdom. London etc.:
.Hutchison, 1981

Laqueur, Walter. The Struggle for the
Middle East. London: Routledge & K. Paul,
.1969

Lawrence, Thomas E. Seven Pillars of
.Wisdom. London: Jonathan Cape, 1942

Mackey, Sandra. The Saudis. Inside the
Desert Kingdom. New York-London: W.W.
.Norton & Company Ltd, 2002, 1987

Meulen, D. Van Der. The Wells of Ibn Sa'ud.
.London: John Murray, 1957

Miller, Aaron D. Search for Security: Saudi
Arabian Oil and American Foreign Policy
1939-1949. Chapel hill, NC: University of
.North Carolina Press, 1980

Mosley, Leonard. Power Play: Oil in the
Middle East. New York: Random House,
.1973

Naumkin, Vitaly V. Red Wolves of Yemen: the Struggle for Independence. .Cambridge: Oleander Press, 2004

Nixon, Richard M. The Memoirs of Richard .Nixon. New York: Grosset & Dunlap, 1978

Philby, H. St. John. Arabia of the Wahhabis. Published in Great Britain in 1977 by Frank Cass and Company Ltd. New Impression with additional materials, .1977

Philby, H. St. John. Saudi Arabia. London: .Published by Ernest Benn Ltd., 1955

Rihani, Ameen. Ibn Saud of Arabia. .London: Constable & Co Ltd, 1928

Robinson, Jeffrey. Yamani. The Inside .Story. London: Simon Schuster, 1988

Ryan, Andrew, Sir. The Last of the .Dragomans. London: Geoffrey Bles, 1951

Sadat, Anwar. In Search of Identity: An Autobiography. New York: Harper and Row, .1977

Schmidt, D.A. Yemen: the Unknown War. .London: Bodley Head, 1968

Sheehan, Edward R. F. The Arabs, Israelis and Kissinger: A Secret Story of American Diplomacy in the Middle East. New York: .Reader's Digest Press, 1976

وثائق بالإنجليزية

al-Rashid, Ibrahim. Documents on the History of Saudi Arabia. The Struggle between the Two Princes: The Kingdom of Saudi Arabia in the Final Days of Ibn Saud. Chapel Hill, N.C., Documentary .Publications, 1985

American perspectives of Aramco, the Saudi-Arabian oil-producing company, 1930s to 1980s : oral history transcript, .1995

Annual Records of the Gulf. Research Editor: Anita Burdett. Archive Editions & .Public Record Office, London, 1994

Aramco Chronology of Events Involving His Majesty. King Saud, November 16, .1961 – October 11, 1962, Mulligan Papers

Bargus, Donald C. Preliminary Comment on July 26, 1948 Policy Statement for Saudi Arabia. American Legation, Jidda, .Saudi Arabia, 3 September, 1948

Childs, J. Rives. Dispatch No.31, Legation of the United States of America, Jidda, .Saudi Arabia, 7 August, 1946

Childs, J. Rives. Dispatch No.68, American Legation, Jidda, Saudi Arabia, 11 March, .1948

Childs, J. Rives. Dispatch No.80, Legation of the United States of America, Jidda, .Saudi Arabia, 29 October, 1946

Distribution of Subversive Leaflet in al-Khobar. From: AmConsul, Dhahran, Saudi Arabia. Despatch No.12. To: The Department of State, Washington. Confidential Foreign Service Despatch, 25 .August, 1954

FO (British Foreign Office documents). .London: Public Records Office

Foreign Policy Archives of the Russian Federation, Section 057, Inventory 12, File .110, Dossier 4

Foreign Policy Archives of the USSR, .Section 127, Inventory 1, File 1, Dossier 6

Foreign Policy Archives of the USSR, .Section 127, Inventory 1, File 2, Dossier 18

FRUS (Foreign Relations of the United .(States diplomatic papers series

Gaskill, Gordon. Saudi Arabia's Modern Monarch. In: Reader's Digest, January .1967

http://www.archive.org/stream/aramcooil produc00hickrich/aramcooilproduc00hick

rich_djvu.txt

Jungers, Frank. Interview. Conducted by producer Jihan el-Tahri on June 11, 2003 in Portland, Oregon.

http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/saudi/interviews/jungers.html

Letter, Eddy to Secretary of State, 3 March 1945. Diplomatic Branch document 890F.001 Abdul Aziz/3-345, National .Archives

Memorandum for the President: Proposed Visit of Crown Prince Saud of Saudi Arabia. Department of State, Washington, .November 15, 1946

Nelson, B. C. Employee Relations in Aramco. Then and Now. Paper presented to Aramco's Management Development Seminar, Dhahran, Saudi Arabia, March 6, .Mulligan Papers

Records of Saudi Arabia. Primary Documents. 1902-1960. Edited by Penelope Tuson and Anita L. P. Burdett. .Archive Editions, 1992

Report Together with Individual Views to Committee on Foreign Relations, United States Senate, by Subcommittee on

Multinational Corporations, January 2, .1975

The June 1967 Riots – Chronology. Mulligan Papers. Box: 16 Fold: 8, .Georgetown University Library

The Transfer of King Sa'ud Powers to Crown Prince Faysal. October 1974, Mulligan Papers, Georgetown University .Library

كتب ووثائق بالعربية

أبو جبارة، عبد الرحمن. **الملف الغامض لمقتل الملك فيصل بن عبد العزيز.**

http://www.arabtimes.com/Mixed/doc32.htm

بيتسغالو، ماتيو. **دبلوماسية الصداقة. إيطاليا والمملكة العربية السعودية. 1932-1942**م. ترجمه إلى العربية محمد العشاوي عثمان. دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1425هـ.

سعيد، أمين. **تاريخ الدولة السعودية.** المجلدات 1-3، بيروت، 1385هـ/1964م.

السماري، فهد بن عبد الله. **عبد العزيز وألمانيا. دراسة تاريخية للعلاقات السعودية الألمانية. 1344-1358هـ (1939-1976)**. بيروت، دار أمواج، 1420 هـ.

عبد الوهاب، محمد بن. **كتاب الكبائر. من مجموعة الأحاديث النجدية**. القاهرة، 1375هـ.

العجلاني، منير. **تاريخ مملكة في سيرة زعيم. فيصل ملك المملكة العربية السعودية وإمام المسلمين**. بيروت، الطبعة الأولى، 1968م.

كلمة الرئيس جمال عبد الناصر في افتتاح المؤتمر الأفريقي الآسيوي في باندونغ، 19/4/1955م.

http://nasser.bibalex.org

مجموعة الوثائق البريطانية عن جلالة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود. إعداد نجدة فتحي صفوة. مركز الوثائق والدراسات التاريخية، لندن.

هذلول، سعود بن. **تاريخ ملوك آل سعود**. الرياض، 1961م.

مقابلات

مقابلة إ. تيموفييف مع الأمير بندر الفيصل. الطائف، 9/10/2003م.

مقابلة إ. تيموفيييف مع الأمير تركي الفيصل. لندن، 23/5/2003م.

مقابلة إ. تيموفيييف مع الأميرتين سارة ومها محمد الفيصل. الرياض، 20/10/2003م.

مقابلة إ. تيموفيييف مع السفير نديم دمشقيه. بيروت، 6/3/2003م.

مقابلة إ. تيموفيييف مع الشيخ عبد الله محمد الشهري. الطائف، 30/9/2003م.

مقابلة إ. تيموفيييف مع القاضي الشيخ محمد الطيب. الطائف، 30/9/2003م.

مقابلة إ. تيموفيييف مع جميل الحجيلان. الرياض، 9/10/2003م.

مقابلة إ. تيموفيييف مع جميل مروة. بيروت، 5/3/2003م.

مقابلة إ. تيموفيييف مع عطية عبد المعطي. جدة، 29/9/2003م.

مقابلة إ. تيموفيييف مع محمد عنان. بيروت، 7/3/2003م.

مقابلة إ. تيموفيييف مع نهاد الغادري. بيروت، 7/3/2003م.

مقابلة المؤلف مع أحمد بن عبد الوهاب. جدة، 14/3/2005م.

مقابلة المؤلف مع السفير البولندي لدى المملكة العربية السعودية السيد آدم كولاخ. الرياض، 23/11/2006م.

مقابلة المؤلف مع سامي شرف. القاهرة، 21/12/2005م.

مقابلة المؤلف مع سفير المهمات الخاصة السعودي هشام ناظر. جدة، 13/3/2005م.

مقابلة المؤلف مع عبد الرحمن الرويشد، الرياض، 7/3/2005م.

لقاء المؤلف مع محمد حسنين هيكل. القاهرة، 17/12/2005م.

مقابلة المؤلف مع مراد غالب. القاهرة، 21/3/2005م.

مقابلة المؤلف مع هالة الحوتي. الرياض، 25/11/2006م.

مقابلة المؤلف مع أوليغ كوفتونوفيتش. موسكو، سبتمبر 1979م.

مقابلة المؤلف مع دميتري شيبيلوف. موسكو، مايو 1990م.

مقابلة المؤلف مع فلاديمير فينوغرادوف. موسكو، يونيو 1990م.

كتب ووثائق بالروسية

الاتحاد السوفياتي والبلدان العربية. 1917-1960م. وثائق ومواد. موسكو، دار بوليتئزدات، 1961م.

أرشيف الدولة في روسيا، صندوق 057، قائمة موجودات 12، إضبارة 110، وثيقة 4.

أرشيف الدولة في روسيا، صندوق 5446، قائمة موجودات 1و، إضبارة 464.

أرشيف السياسة الخارجية الروسية، 1912-1914م، وثيقة 375.

أرشيف السياسة الخارجية في الاتحاد السوفياتي لعام 1926م. صندوق 127، قائمة موجودات 1، إضبارة 1، وثيقة 6.

أرشيف السياسة الخارجية في الاتحاد السوفياتي لعام 1929م. صندوق 127، قائمة موجودات 1، إضبارة 2، وثيقة.

باوسين، ليف. **الدوائر الأمنية العالمية في الشرق الأوسط**. موسكو، دارLG غروب – أولما بريس، 2001 م.

بروشين، ن. إ. **المملكة العربية السعودية**. موسكو، دار بوليتئزدات، 1964م.

بريماكوف، يفغيني. **الشرق الأوسط على خشبة المسرح ووراء الكواليس. (النصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين)**. موسكو، دار روسيسكايا غازيتا، 2006م.

دساتير دول الشرقين الأدنى والأوسط. موسكو، دار إنوسترانانايا ليتيراتورا، 1956م.

دوبرينين، أناتولي. **على أساس الثقة. سفير سوفياتي في واشنطن على مدى حكم ستة رؤساء**

أميركيين (1962-1986م). موسكو، المؤلف، 1997م (بالروسية).

روبنسون، جيفري. **المؤلفات في خمسة مجلدات.** المجلد الثالث، أحمد زكي يماني. نظرة من وراء الكواليس. موسكو، دار أوليمب ب.ب.ب. 1992م (ترجمة من الإنجليزية إلى الروسية).

غروميكو، أندريه. **ذكريات.** الكتاب الثاني. موسكو، دار بوليتئزدات، 1988م.

فاسيليف، ألكسي. **رحلة إلى اليمن السعيدة.** دار مولودايا غوارديا، موسكو، 1974م.

فاسيليف، ألكسي: **روسيا في الشرقين الأدنى والأوسط: من التبشير إلى البرغماتية.** موسكو، دار ناؤوكا، 1993م.

فاسيليف، ألكسي، **الخليج العربي في قلب العاصفة.** موسكو، دار بوليتئزدات، 1983م.

فاسيليف، ألكسي، **مشاعل الخليج.** موسكو، دار بوليتئزدات، 1976م.

النزاع في الشرق الأوسط. 1957-1967. من وثائق السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية. المجلد الثاني. موسكو، دار ماتيريك، 2003م (بالروسية).

ياكوفليف، أ. إ. **فيصل: الملك المصلح.** موسكو، المركز الروسي للدراسات الاستراتيجية والدولية، 1998م

مطبوعات دورية

أم القرى، مكة
الأنوار، بيروت
الأهرام، القاهرة
البلاد، جدة
الحياة، لندن

.Financial Times, London

.Foreign Affairs, New York

.Newsday, New York

.Newsweek, New York

.The Boston Globe, Boston

.The Economist, London

.The Financial Times, London

.The Guardian, London/Manchester

.The Sunday Times, London

.The Washington Post, Washington

.Time, New York

.Washingtonian Magazine, Washington

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

عام 1964 أصبح فيصل بن عبد العزيز ملك بلد يحوز ربعَ احتياطيات العالم من البترول ويحتضن في رحابه مكّة والمدينة، ووُصِف بأنه «أقوى حاكم عربي منذ قرون». بعد ذلك بإحدى عشرة سنة أرداه أحد أبناء أشقائه برصاصة أطلقها على رأسه عن كثب أمام عدسات التلفزيون.

يروي أليكسي فاسيليف قصّة قائد متديّن وحَذِر وحازم وجّه دفّة المملكة العربية السعودية متجاوزاً حقلَ ألغامِ المشكلات المحلّية والعلاقات العربية الداخلية وتراجُع النفوذ السوفياتي في الشرق الأوسط. وحافظ الملك فيصل على علاقاته مع كل من مصر والولايات المتحدة الأميركية عبر حربَين بين العرب وإسرائيل وحظر نفطي فرضه العرب في عام 1973.

شمل العمل البحثي الذي قام به فاسيليف وثائق أصلية ومقابلات أجراها باللغات العربية والروسية والإنكليزية، ما أتاح له رؤيةً فريدةً من نوعها لهذه الشخصية الفذّة.

نبذة عن المؤلف

ألكسي فاسيليف مؤرّخ روسي وباحث في شؤون الشرقين الأوسط والأدنى. مدير معهد الدراسات

الأفريقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية، له عشرات المؤلفات ومئات المقالات العلمية. صدر له بالإنكليزية عن الساقي – لندن: The History of Saudi Arabia الفائز بجائزة "تشويس"، و:Central Asia: Political and Economic Challenges in the Post-Soviet Era.